الإهداء

أهدي هذا الكتاب ...

إلى الصحابة الكرام الطيبين الأطهار السابقين الأبرار، ومن سار على نهجهم من العلماء الراسخين والمجاهدين الصادقين، والفقهاء العاملين والقادة الربانيين، والجنود المخلصين الذين قدموا أنفسهم وأموالهم وما يملكون من أجل دعوة الله الخالدة، فطافوا مشارق الأرض ومغاربها مبشرين ومنذرين .

سائلاً المولى عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ؛ أن يكون خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به المسلمين .

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾

[الكهف : ١١٠]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا اتَّقُوا اللَّه حَقَّ تُقَاته ولا تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنتم مُّسْلمُونَ ﴾ [آل عمران ١٠٢].

﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠ – ٧١] .

أما بعد :

يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك ، لك الحمد حتى ترضى ، ولك الحمد إذا رضيت.

من هنا كانت البداية :

فقد بدأت فكرة تأصيل تاريخ ليبيا الإسلامية تنمو وتزداد يوماً بعد يوم في ذهني ،حتى سيطرت على مشاعري ووجداني، وكان ذلك خلف أسوار (الحصان الأسود) المعتقل السياسي الرهيب، وزادت الفكرة نضوجاً في (أبو سليم) المعتقل العسكري، حيث قدر الله لي أن ألتقي في مدرسة يوسف عليه السلام ببعض وجهاء البلاد في فترة الستينات من ذوي المستويات المتنوعة، والخبرات المتعددة، والثقافات المختلفة، الذين حرصوا على توريث تجاربهم وخبراتهم وتاريخهم وتاريخ حركاتهم للأجيال القادمة.

ثم بعد ذلك قدر الله لي – داخل المعتقل – أن أتحصل على نسخة من كتاب عن تاريخ الحركة الإسلامية في الجزائر بقيادة العملاق عبد الحميد بن باديس البربري – رحمه الله – الذي قد أثّر فيّ حقيقةً جهده الجبار في صيانة الهوية الإسلامية في المنطقة، ثم قدر الله لي العيش مع أقطاب المدرسة السلفية آنذاك المتمثلة في تلاميذ الأستاذ الشيخ محمد البشيتي رحمه الله عن كثب، ثم قدر الله لي اللقاء ببعض أبناء الحركة السنوسية ، وقد تأثرت بسردهم

لتاريخ الحركة السنوسية وما قام به الصالحون منهم والمجاهدون في إعزاز الدين ونصرة أهله والدعوة إليه في مشارق الأرض ومغاربها.

وبعد هذه الحصيلة العلمية التاريخية تبلورت لديّ فكرتان:

الأولى: كتابة تاريخ السجناء السياسيين وقد تم هذا بحمد الله وفضله.

والثانية: كتابة تاريخ الحركه السنوسية ودراستها دراسة تحليلية وافية، لذلك كنت شديد الفرح بكل معلومة أتحصل عليها من أفواه رجال الحركه السنوسية فأكتبها على أوراق الصابون والبسكويت، وأوراق حليب الكورنيش بواسطة أقلام الرصاص، وإذا انعدمت بواسطة الجرافيت التي بداخل بطاريات الشحن الصغيرة، لأن السلطات تمنع دخول الكتب والأوراق والأقلام في المعتقل السياسي.

وممن استفدت منهم في تلك المرحلة الشيخ الفاضل - رحمه الله - محمد القاضي عبد الكبير الفزاني وغيره من وجهاء ناحية الجنوب، والأستاذ راشد السنوسي، والشيخ أحمد الطاهر العرفي، والأستاذ عبد الله الشاعري، وغيرهم من الإسلاميين والوطنيين الذين شجعوني على تلك الفكرة الوليدة التي ما كانت لتنبت في ذهني لولا أن الله ساق لي أسبابها بدخول السجن والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وقضيت في السجن بضع سنين خرجت بخبرات كثيرة منها هذة الفكرة التي بدأت ثمارها بتوفيق الله عز وجل هناك.

وبعد خروجي من السجن في (٣/٣/١٩٨٨م) في أحداث خروج السجناء كانت فرحة عظيمة غمرتني بظهور التيار الإسلامي الجارف في أوساط الشباب وامتلاء المساجد، وانتشار الحجاب، وظهور التدين في المناسبات الاجتماعية إلا أنَّه بعد احتكاكي ببعض شباب الصحوة، لاحظت أنها عاطفة جياشة ينقصها العلم الشرعي من الكتاب والسُنَّة وهذا شيء طبيعي في بلاد مثل بلادنا، كما وأنني لاحظت انقطاعاً غريباً عند الأجيال الصاعدة عن تاريخ أجدادهم القريب المتمثل في جهادهم ضد إيطاليا على أسس شرعية دينية عقدية، وكأن الإسلام شيء جديد في بلادي ولم يكن يوماً ما ضارباً بأطنابه في أعماق تاريخها، بل وللأسف الشديد لا يتذكرون من فتوحات الصحابة والتابعين لليبيا والشمال الإفريقي شيئاً على العموم إلا ثقافة ضحلة لا تسمن ولا تغني من جوع!!.

لذلك ازدَدْتُ قناعة بأهمية كتابة تاريخ بلادنا ليس من الحركة السنوسية فقط بل ليمتد من الفتح الإسلامي إلى العصر الحديث، وازدادت الفكرة نضوجاً بعد خروجي من المعتقل الكبير (ليبيا الحبيبة) وتوجهت نحو بيت الله الحرام للتقديم في جامعة المدينة، ثم يسَّرَ الله لي القبول في تلك الجامعة، وقدر الله لي أن أكتب كتاباً بشأن المعتقلين السياسيين داخل

سجون ليبيا منذ (عام ١٩٦٩م إلى عام ١٩٨٨م) ، وقد تناولت في هذا الكتاب ما مررنا به من محن ومنح ورحمة وتوفيق ورعاية من المولى عز وجل، وبكتابة ذلك الكتاب تشجعت لمواصلة العمل الجاد والمثمر الذي يفيد الأجيال التي ستحمل هذا الدين دعوة ودولة، فدعوت الله ولا زلت أدعو أن يكون جهداً موفقاً خالصاً لوجهه الكريم .

وطرحت هذه الفكرة بين إخواني فاستغرب بعض زملائي هذه الفكرة في المدينة النبوية، فأما بعضهم فقال لي : آمال كبيرة لا يوجد من الليبيين من يقوم بها، وأما بعضهم الآخر فقال لي : يبدو أنك تحلم، وبعضهم قال : إن الساحة غير محتاجة لهذا، وبعضهم قال لي : إن التاريخ مكتوب ولا داعي من ضياع الوقت، وبعضهم شجعني وأعانني بكل ما يجده لخدمة هذه الفكرة وشرعت في تحقيقها بانقطاعي في الإجازات الصيفية بين مكتبة الحرم المكي والحرم المدني .

وبدأت الكتابة الفعلية في صيف (١٩٩١م) في مكة وكنت أبدأ من الصبح في مكتبة الحرم في ذلك الهدوء الجميل وعندما تغلق أبواب المكتبة أنزل للصلاة فأطوف بالبيت الحرام داعياً المولى عز وجل أن يكون خالصاً لوجه الكريم، ويذلل الصعب وييسر السبل . ورجعت للمدينة بحمل بعير من المعلومات الجديدة عن الصحابة والعلماء الذين دخلوا ليبيا وانطلقوا في الشمال الإفريقي، ومعلومات عن الدول وكتبتها ولخصتها وأثرتها للنقاش مع إخواني الطلاب الليبيين وغيرهم ومع الأساتذة في جامعة المدينة النبوية وتفاعل الأساتذة وأعطيتهم ما كتبته وأخص بالذكر الأستاذ خالد الصاعدي ، الأستاذ المحاضر في مادة التاريخ في الصف الثالث من الجامعة في كلية الدعوة وعلق عليها واهتم وشجع وأعان بكتب وإرشادات نافعة، وبدأت الفكرة تنمو وتنضج وتتضح، وتفاعل بعض المعتمرين والحجاج من بلادنا الذين غمرتهم الفرحة بهذا العمل الذي رأوا أنه يخصهم ، وهو منهم ولهم وللأمة، وحضوا على ذلك وقالوا : بأنه عمل جاد لعلاج الهزيمة النفسية التي يمر بها شعبنا المظلوم، وذلك بربطه بتاريخه وأمته وحضارته وعقيدته ودينه وإسلامه، وإذا بالكتب المصورة والوثائق التاريخية تنهال عليّ في المدينة المنورة من كل حدب وصوب، ووصلت إلى شيء شعرت بأن الله ذلل أسباب المادة، ويسر جمعها ، وأن الأمر بإذن الله سيتم .

وبعد أن انتهيت من الدراسة في المدينة استخرت واستشرت، وربطت الأمتعة وخصوصاً ما يتعلق بالتاريخ وقصدت بلداً عربياً وفي حي من أحيائه الشعبية في بيت متواضع مبني بالطوب الأحمر تم كتابة خمسمائة صفحة عن الحركة السنوسية،

وكتابة الكتاب الأول الذي أقدم له الآن، ولقد كانت الفكرة في نفسي عظيمة سيطرت على أحاسيسي ومشاعري واعتبرتها تحدياً من تحديات الحركة الإسلامية المعاصرة في بلادي التي لابد لها من القيام بها عاجلاً أو آجلاً.

ولا شك قد ازددْت قناعة في هذه الفترة بأهمية التاريخ في تكوين الأمم، وتربية الشعوب، وتحقيق الآمال، وكان مسلكي في كتابة التاريخ يعتمد على توسيع النقاط البيضاء وتقليل النقاط السوداء، والرد على المخالفات العقدية، والانحرافات الشرعية سواء من أفراد أو من دول ملتزماً في ذلك بعقيدة أهل السُنَّة والجماعة، وأقصد بعقيدة أهل السُنَّة والجماعة ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه من عقيدة سليمة وما انبثق عنها من عبادة سنية، وأخلاق بهية، وتصورات ربانية.

من أهداف هذا العمل :

﴿ ١ ﴾ تأصيل جذور ليبيا الإسلامية، وأنها كانت بوابة الخير والإسلام لشمال إفريقيا، وأن أصول المد الإسلامي المعاصر ليست حديثة بل ضاربة بأطنابها منذ دخول الصحابة والتابعين لليبيا.

﴿ ٢ ﴾ تقرير بأن أصولَ هذا المد الإسلامي في المنطقة أصول سُنّية لا شيعية ولا خارجية، إنما هي ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه الطيبين الأطهار، (أهل السُنَّة والجماعة).

﴿ ٣ ﴾ تسهيل مبدأ الاعتبار والاتعاظ بمعرفة أحوال الدول وعوامل بنائها، وأسباب سقوطها، والنظر في سنن الله في الآفاق وفي الأنفس والمجتمعات.

وقد انتهجت في كتابي هذا منهجاً يختلف عن منهج صادق النيهوم في كتابه (تاريخنا) الذي اعتمد فيه منهج الفلسفة الملحدة، والعلمانية المشركة في تفسير التاريخ.

وكذلك يختلف منهجي عن منهج كاتب كتاب (الحوليات الليبية) الفرنسي (شارل فيروا) النصراني الحاقد.

وكذلك يختلف منهجي عن منهج كاتب كتاب (المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب) لأحمد محمد الأوسي الأنصاري الطرابلسي، رغم أنني استفدت من كتابه من الناحية التاريخية، وترتيب الأحداث.

ولا أزعم أني جئت بجديد في كتابي هذا، وإنما وفقني الله للجمع والترتيب، فإن كان خيراً فمن الله وحده، وإن أخطأت السبيل فأنا عنه راجع إن تبين لي ذلك والمجال مفتوح للنقد والرد والتعليق والتوجيه، كما وأنني أقر بأنني قد استفدت كثيراً في كتابي هذا من

كتاب (منهج كتابة التاريخ الإسلامي) للأستاذ : محمد ابن صامل العلياني وكتاب (مدرسة الحديث في القيروان) للأستاذ : الحسين بن محمد شواط، وكتاب (قادة فتح المغرب العربي) للأستاذ : محمود شيت خطاب وغيرها من الكتب والمذكرات الدراسية، وقد دونت ما اختصرته من مباحث وأشرت إليه في هامش الكتاب للأمانة العلمية.

خطة هذا الكتاب :

حاولت في هذا الكتاب إعطاء أهمية بالغة بتعريف رجالات الفتح الإسلامي من الصحابة والتابعين، ورجالات الدعوة والعلم والفقة، كما وأنني عقدت فصولاً للدفاع عن الصحابة ﵃ وبينت فضلهم ومكانتهم في الدين، وناقشت بعض الأفكار والمعتقدات التي حادت عن المنهج الصحيح بدون سبٍّ أو شتم أو طعن ولكن بمنهج أهل السُنَّة والجماعة في الجرح والتعديل، **وقد قسمت فكرة هذا العمل إلى عدة كتب :**

الكتاب الأول : صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامي والشمال الإفريقي من قبل الفتح الإسلامي إلى بداية الدولة الأموية.

الكتاب الثاني : عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

الكتاب الثالث : الدولة العبيدية (الفاطمية) الرافضية.

الكتاب الرابع : فقه التمكين عند دولة المرابطين.

الكتاب الخامس : دولة الموحدين.

الكتاب السادس : الدولة العثمانية.

الكتاب السابع : الحركة السنوسية.

وقد قسمت خطة بحث الكتاب الأول الذي بين أيدينا : إلى مقدمة، وخمسة أبواب وخاتمة وهي كالاتي :-

الباب الأول : قواعد في دراسة التاريخ.

الفصل الأول : مفهوم التاريخ وثمرة دراسته.

الفصل الثاني : أهمية المنهج في الدراسات التاريخية.

الفصل الثالث : قواعد في منهج كتابة التاريخ الإسلامي.

الفصل الرابع : قواعد في المصادر.

الفصل الخامس: نبذة عن بعض مشاهير مؤرخي المسلمين.

الباب الثاني: الشمال الإفريقي قبل الفتح الإسلامي.

الفصل الأول : سكانه.
الفصل الثاني : ديانته.

الباب الثالث: ليبيا قبل الفتح الإسلامي.

الفصل الأول : معالم ليبيا.
الفصل الثاني : سكان ليبيا قبل الفتح الإسلامي.

الباب الرابع: الفتح الإسلامي لشمال إفريقية.

الفصل الأول : دواعي الفتح الإسلامي.
الفصل الثاني : بدايات الفتح المبارك.
الفصل الثالث : تثبيت دعائم الإسلام في المنطقة.
الفصل الرابع : معاوية بن حديج وأبرز معالم عهده.
الفصل الخامس : عقبة بن نافع قائد فتح المغرب العربي.
الفصل السادس : قادة فتح المغرب الأوسط والأقصى.

الباب الخامس: عهد الولاة.

الفصل الأول : كتاب يهدي، وسيف يحمي.
الفصل الثاني : الصحابة الذين دخلوا ليبيا واستقروا في مدينة القيروان.

الخاتمة.

وأخيراً : أرجو من الله أن يكون عملاً خالصاً لوجهه الكريم، وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب، وأخص بالذكر الاخ الفاضل/عبد الحكيم الصادق الفيتوري الذي أشرف على تهذيب، ومراجعة، وطباعة الكتاب الأول.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

علي محمد محمد الصَّلاَّبي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

الباب الأول

قواعد في دراسة التاريخ

الفصل الأول

مفهوم التاريخ وثمرة دراسته

بادئ ذي بدء لابد من الوقوف والإلمام بمعنى كلمة التاريخ لغة، ودلالتها الاصطلاحية إذا ما أطلقت عند المؤرخين من السلف والخلف، لأن معرفة معاني هذه الكلمة لغةً واصطلاحاً يدخل دخولاً أوَّليًا في فهم هذا العلم الجم، علم التاريخ الذي يعتني بأحوال الأمم ودولها ، وتوثيق أخبارهم وانتشارهم، وضبط تواريخ ولادتهم ووفايتهم.

مصطلح التاريخ ودلالته [١] :

التاريخ لغة: هو الإعلام بالوقت والتاريخ، وهذا ما قاله الجوهري: «التاريخ تعريف الوقت والتَّوْريخ مثله يقال أرخت وورخت» [٢] .

وقد فرق الأصمعي بين اللغتين فقال: «بنو تميم يقولون: ورخت الكتاب توريخاً، وقيس تقول: أرخته تأريخاً» [٣] .

وهذا القول من الاصمعي يؤكد أن لفظة التاريخ عربية أصيلة وليست معربة عن الفارسية كما ذهب إلى ذلك بعضهم [٤] ، وقيل إن أصل كلمة تاريخ سرياني [٥] ومعناه الشهر.

---

(١) اعلم أيها القارئ أن جل هذا الباب مختصر من كتاب (منهج كتابة التاريخ الإسلامي) للأستاذ/ العلياني.

(٢) الجوهري، الصحاح مادة: أرخ (١ / ٤١٨) .

(٣) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، للسخاوي (٦) .

(٤) المرجع السابق (٦) .

(٥) علم التاريخ عند العرب، لعبد الحميد العبادي (٣٤)

وأما تعريف التاريخ في الاصطلاح:

فقد اختلفت عبارات علماء المسلمين في تحديد تعريف له ولعل ذلك راجع إلى سعة الموضوعات التي تدخل في مفهوم التاريخ، ومن الملاحظ أن المؤرخين في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة النبوية لم يدونوا تعريفاً كاملاً محدداً لعلم التاريخ وإنما كانوا يكتفون بذكر فوائده وأغراضه، ومن المعلوم أن العلم قد يعرف ببعض أنواعه أو أمثلته أو بذكر غايته، وهذا ما نص عليه الأستاذ خليفة بن خياط بقوله: «هذا كتاب التاريخ، وبالتاريخ عرفَ الناسُ أمرَ حجهم وصومهم وانقضاء عِدَدِ نسائهم ومحل ديونهم» [1].

وقال قريباً من ذلك الإمام الطبري في مقدمة تاريخه [2].

وكذلك حاول العلامة ابن خلدون، المتوفى سنة (٨٠٨ هـ) ، أن يصيغ تعريفاً محدداً لعلم التاريخ في مقدمته فقال: «إن التاريخ في ظاهره لا يزيد عن أخبار الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي لنا شأن الخلافة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال ، وفي باطنه نظر وتحقق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة وعريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق» [3].

لقد نظر ابن خلدون إلى علل الحوادث وأسبابها وحاول اكتشاف السنن التي تنتظمها، وأكد على بدايات الحوادث وقيام الدول وتعليل سقوطها، أما المقريزي المتوفى سنة (٨٤٥ هـ) ، فقد عرف التاريخ ببيان موضوعه بقوله: «الإخبار عما

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط، صفحة (٤٩).

(٢) تاريخ الطبري (١ / ٤-٥).

(٣) مقدمة ابن خلدون (٣-٤).

حدث في العالم في الزمان الماضي » [١] .

كما عَرَّفه محمد بن سليمان الكافيجي [٢] المتوفى سنة (٨٧٩ هـ) بقوله : « هو علم يبحث فيه عن الزمان وأحواله ، وعن أحوال ما يتعلق به من حيث تعيين ذلك وتوقيته » [٣] .

كما عرف المؤرخ الحافظ محمد بن عبد الرحمن السخاوي التاريخ بقوله : « هو التعرف بالوقت الذي تضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة، ووفاة، وصحة، وعقل، وبدن، ورحلة، وحج، وحفظ، وضبط، وتوثيق، وتجريح وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم في ابتدائهم وحالهم واستقبالهم، ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة من ظهور ملمة، وتجديد فرض وخليفة، ووزير وغزوة وملحمة، وحرب وفتح بلد، وبما يتوسع فيه لبدء الخلق وقصص الأنبياء، وغير ذلك من أمور الأمم وأحوال القيامة ومقدماتها » [٤] إلى أن قال : « والحاصل أنه فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت ، بل عما كان في العالم » [٥] .

وقال في موضع آخر : « أما موضوعه فالإنسان والزمان » [٦] .

فلا يخفى أن تعريف السخاوي لا يبعد كثيراً عن تعريف الكافيجي، إلا أن السخاوي ركز على مفهوم التاريخ عند علماء الحديث خاصة فقال : « علم أحوال الرجال » وضبط تواريخ ولادتهم، ووفياتهم.

فهذا الذي سبق - كما مر معنا - هو خلاصة التعريفات بعلم التاريخ عن

---

(١) **انظر** : علم التاريخ عند المسلمين، لفرانز روزنثال (٢٦)

(٢) **انظر** : الأعلام للزركلي (٦ / ١٥٠).

(٣) المختصر في علم التاريخ، للكتاني محمد جعفر (٣٢٧)

(٤) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، للسخاوي (٧)

(٥) ، (٦) المرجع السابق .

السلف والتي فحواها الاعتناء بأحوال الأمم ودولهم، وتوثيق أخبارهم وانتشارهم، وضبط تواريخ ولادتهم ووفياتهم، أما في العصر الحديث فقد أضاف علماء التاريخ المعاصرون ومن لهم ارتباط وثيق بعلم التاريخ واختصاصه.

فقد عرَّف الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - التاريخ وغايتة بقوله :

« التاريخ ليس هو الحوادث إنما هو تفسير هذه الحوادث، واهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات متفاعلة الجزئيات ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحي في الزمن والمكان »(١) .

ويظهر أن الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – قد ركز على اللب والغاية من دراسة التاريخ، وتدوين أخباره، وإلا فالحوادث والأخبار مهمة ولا شك في ذلك، بل هي لبنات البناء التي لا يقوم هذا العلم بدونها، وتعريف الأستاذ سيد قريب جدًّا من تعريف العلامة ابن خلدون، لكن يبدو أن تعريف العلامة ابن خلدون أشمل حيث نص على الاعتناء بالأخبار وتحقيقها ، كما أكد على النظر في العلل والأسباب، إلا أنه نحى في تعريفه منحىً فلسفياً بعيداً عن روح النصوص والآثار في حين أن الأستاذ سيد قطب كان واضحاً في إدراك غاية التاريخ حسب المنظور الإسلامي.

فالحاصل بما تقدم من تعريفات أن التاريخ علم نظري إنساني يبحث فيه عن حوادث الزمان من حيث التعيين والتوقيت والتفسير والتعليل.

أهداف دراسة التاريخ وثمراته :

بادي ذي بدء يجب أن نعلم أن التاريخ فرع من فروع العلم، وقد اعتبره العلماء الذين كتبوا فيه من العلوم التي تخدم الشريعة الإسلامية سواءً أكان من الناحية التفسيرية للنصوص، أو معرفة أحوال الرواة، أو توثيق سيرة النبي ﷺ

---

(١) في التاريخ فكرة ومنهاج ، لسيد قطب (٣٧).

وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين، وأئمة الدين بعدهم من تابعين ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين (١) .

ويقرر هذه الحقيقة وينص عليها الإمام المحدث ابن عبد البر النمري (٢) - رحمه الله - بقوله: « ويلزم صاحب الحديث أن يعرف الصحابة المؤيدين للدين عن نبيهم ﷺ ويعني بسيرهم وفضائلهم ويعرف أحوال الناقلين عنهم وأيامهم وأخبارهم حتى يقف على العدول منهم من غير العدول » (٣) .

كما لا يخفي أن التاريخ قد نشأ ضمن العلوم الشرعية وعلى أيدي رجال الحديث وصلته بالشريعة وخدمتة لها كانت واضحة جلية سواء في ميدان التربية والسلوك، أو في ميدان علم الرجال والجرح والتعديل (٤) ، ولهذا استعمل السلف الصالح في دحض حجج الكذابين الوضاعين للأحاديث علم التاريخ.

فقد جاء عنهم: « لم يستعن على الكذابين بمثل التاريخ » (٥) ونص على ذلك الإمام سفيان الثوري - رحمه الله - فقال: « لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ » (٦) .

ولذلك اعتنى كبار المحدثين أمثال الإمام البخاري، ومسلم، وأحمد ابن حنبل، وأبي زرعة، وأبي حاتم، والترمذي، بجوانب من علم التاريخ وصنفوا كتباً كثيرة في ذلك، معروفة عند طلبة العلم الشرعي، فإذا كان علم التاريخ بهذه المنزلة

---

(١) انظر: الخوارزمي في كتابه مفاتيح العلوم (٤،٥) حيث جعل علم الأخبار من العلوم الملحقة بعلوم الشريعة.

(٢) هو الإمام يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي أبو عمر، ولد سنة ٣٦٨ هـ، وساد أهل زمانه في الحفظ والإتقان، له كتب كثيرة، منها: التمهيد، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، وجامع بيان العلم وفضله، وغيرها. وكانت وفاته بمدينة شاطبة بالأندلس سنة ٤٦٣ هـ.
انظر: تذكرة الحفاظ (٣/١١٢٨).

(٣) جامع بيان العلم وفضله (٤٦٦).

(٤) أثر الحديث في نشأة التاريخ عند المسلمين، للدكتور / بشار عواد.

(٥)، (٦) الإعلان بالتوبيخ .

المبحث الأول

فوائد دراسة التاريخ

لا ريب أن علم التاريخ يشغل حيزاً لا بأس به في نفوس أهل العلم والمكتبة الإسلامية - كما مر معنا - فطالما أن علم التاريخ بهذه المنزلة والمكانة فإنه لا يخفى على دارسه بأن له فوائد جمة، وثمار حسان، كما قال الإمام ابن الأثير - رحمه الله - في تاريخه: «ومن رزقه الله طبعاً سليماً، وهداه صراطاً مستقيماً، علم أن فوائدها كثيرة ومنافعها الدنيوية والأخروية جمة غزيرة» [١].

ولقد ازدادت أهمية الاعتناء بعلم التاريخ في الحقبة الأخيرة من عصرنا الحاضر، حتى وصلت أهمية هذا العلم عند أهل زماننا أن استخدم كأداة لتوجيه الشعوب وتربيتها كما يريد القادة والساسة، بل استعان بهذا العلم أصحاب المذاهب الفكرية الهدامة في فلسفة مذاهبهم المادية وتدعيمها حتى أصبح هذا العلم عند الأوروبيين في مكانة سامية لا يعلوها علم آخر، لذلك أصبحت نظرتهم للتاريخ نظرة تقديس وإجلال، لأنه يفسر لهم الوجود وتعليل النشأة الإنسانية والطبيعية !! .

فإذا كان ذلك كذلك عند الغربيين، ففي حق المسلم الذي يطلب العلم لخدمة دينه وعقيدته وشريعته أوجب وأحق، لذلك فعلى المسلم الصادق مع ربه، المخلص لدينه ودعوته، المتبع لنبيه ﷺ أن يعتني بدراسة التاريخ دراسة تخدم دينه، وتنشر دعوته، وتربط أمته الحاضرة بسلفها الصالح، لا أن يأخذه مجرد معلومات، وحكايات، وأخبار لا تسمن ولا تغني من جوع، مجرد إشباع لرغباته وغريزته النفسية كلا ! إن دراسة التاريخ بوجه عام، وتاريخ الأمة المسلمة على

---

(١) انظر : الكامل في التاريخ، لابن الأثير (١/ ٦)

وجه الخصوص لاينبغي أن يكتفي في دراسته بتحقيق الرغبات والحاجات الدونية، بل من أجل الوصول إلى القمة العلية، ألا وهي إحياء الأمة المسلمة بكتاب الله - عز وجل - وسُنَّة رسوله ﷺ ومعرفة كيفية التعامل مع سُنن النهوض والصعود بالأمم، واجتناب سُنن السقوط والهبوط في الأمم،ولهذا قال تعالى حاثّاً عباده على النظر في تاريخ الأمم :﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ** ﴾ [غافر:٨٢].

فإذا تقـــرر ذلك صح القول : بأن لدراسة التاريخ ثمرات، وفوائد جلية ومتعددة، يجدها دارس التاريخ خلال دراسته للتاريخ، فمن هذه الثمرات والفوائد التي يجب أن يقف عليها ويتأملها دارس التاريخ، نذكر منها الآتي :

المطلب الأول

الفوائـــد التربويـــة

لقد تقرر في محكمات الشريعة أن الله - عز وجل - قد خلق الخلق لعبادته وحده سبحانه، وأناط بالمسلم في هذه الحياة وظيفة تحقيق حقيقة العبادة له سبحانه بمفهومها الكامل الشامل لكافة جوانب الحياة، ووجه النشاط البشري، بأن يحقق كمال الخضوع والمحبة له سبحانه وتعالى، وقد شرع له - سبحانه - لتحقيق هذه الغاية عدة وسائل تربوية، فمن تلك الوسائل دراسة تاريخ الأمم، والنظر في أحوالهم، واقتباس العبر والعظات من حالهم ومآلهم كما أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بالاقتداء بركب النبيين الأطهار - عليهم الصلاة والسلام - فقال تعالى : ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ [الأنعام : ٩٠] .

وكذلك أمر المؤمنين بذلك فقال تعالى : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

ذلك بأن الاقتداء بالنبيين والصالحين والشهداء والعلماء العاملين والدعاة المخلصين، في صبرهم، وجهادهم، وتحملهم المشاق في سبيل نصرة العقيدة الصحيحة، وإقامة الدين القويم لهو عامل أساسي من عوامل التربية الإسلامية الراشدة، بل أمرنا - سبحانه - بالنظر والتدبر في أحوال ومآلات الأمم السالفة الكافرة منها والمؤمنة على حد سواء فقال - جل شأنه -: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا** ﴾ [محمد: ١٠] .

ولذلك يجب على المسلمين في هذا العصر الاعتناء بدراسة التاريخ الإسلامي وبالأخص السيرة النبوية، وتاريخ الخلفاء الراشدين، والفتوحات الإسلامية، وسير العلماء والمجاهدين من سلفنا الصالح، وعرض هذه الصور على الأمة المعاصرة في صورة حية متمثلة في سلوك وأخلاق القادة، والعلماء، والمجاهدين من أبناء الحركات الإسلامية المعاصرة، لأن ذلك يبعث في الأمة روح التدين والالتزام، والزهد في الدنيا الفانية، والرغبة في الحياة الباقية، وحب التضحية والجهاد في سبيل الدين العظيم ابتغاء مرضاة رب العالمين.

فإذا ما أحسن عرض التاريخ الإسلامي في أحسن صورة، فإنه يكون من أنفع الوسائل التربوية في مجال إحياء الأمم وتربيتها بالأحداث والسلوك، لأن التربية بالأحداث والسلوك من أهم وسائل التربية القرآنية، لذلك نجد أن القرآن الكريم عني بهذا النمط من التربية في مواضع كثيرة جداً، كما جاء في عقب غزوة أحد في آخر سورة آل عمران من قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [آل عمران: ١٢١] إلى قوله تعالى ﴿ **وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾ [آل عمران: ١٨٠] وكذلك ورد في السُّنَّة المطهرة والسيرة النبوية تقرير لمبدأ التربية

بالأحداث والسلوك، ولذلك شواهد كثيرة جداً.

يقول الدكتور محمد أمين المصري - رحمه الله - بهذا الصدد:

« لدراسة التاريخ قيمة تربوية من حيث تأثيرها في عقل الدارس وإكسابه عادات خاصة في التفكير فتنشأ لديه العادة التاريخية في تناول الحقائق، والأسلوب التاريخي في التفكير فيها، لأن التاريخ طريقة بحث تقوم على النقد والمقابلة والتحقق ووزن قيم الأدلة وربط السبب بالنتيجة مع التعليل للحوادث وإرجاعها إلى دوافعها » (١) .

المطلب الثاني

إدراك السنن الربانية

لقد تقرر فيما سبق أن للتاريخ فوائد تربوية جمة ذكرنا منها التربية بالأحداث، والسلوك، والاقتداء، والآن نتأمل في فوائد دراسة التاريخ التي منها: التعرف على السنن الربانية وإدراكها في هذا الكون، الكتاب المنظور والمقروء، فمطالعة التاريخ بتدبر تساعد على اكتشاف هذه السُنن الربانية، ومعرفتها وكيفية استمطارها وجلبها أو صرفها ، وبهذه الروح وهذه النفسية في قراءة التاريخ نستطيع أن نحقق الغرض المطلوب منا شرعاً في امتثال أمر الله – سبحانه وتعالى – الذي قد أرشدنا إلى التدبر والتفكير والتأمل في سُننه الكونية والبشرية، الخارقة والجارية منها، وكيفية التعامل معها في كل الحالات، فقد جاء في محكم التنزيل قوله تعالى آمراً عباده بالنظر في سُنن من قبلهم فقال: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ [غافر: ٨٢] .

---

(١) انظر: لمحات في التربية، للدكتور محمد امين المصري (٢٢٨)

وقال جل وعلا: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ [فاطر:٤٣] .

وقال تبارك وتعالى: ﴿ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر:٨٥] .

وبعد ذلك فلا شك أن من قرأ التاريخ بهذه العقلية الواعية، فإنه يجده قد حوى بين دفتيه من الحوادث والأخبار، والسُنن المتشابهات،والمواقف المتماثلات ، ما يدفعه إلى كشف سُنن الله في خلقه سواء منها الجارية والخارقة ، وبذلك يستطيع أن يسعى للحصول على سُنن التمكين، والابتعاد عن سُنن التدمير ، واقتفاء سُنن الصالحين والمجاهدين، واجتناب سُنن المجرمين المفسدين، كما هو مقرر - بأن التاريخ يعيد نفسه - فمن عرف سُنن الله في خلقه والتزمها زادته صلابة وقوة في المواقف التي ترضي الرب تبارك وتعالى، بخلاف من يجهلها، لأن من يجهل مصدر الأحداث وسُنن الله - عز وجل - فإنه يكون في حيرة وخوف وقلق لا يعلمه إلا الله !! .

ولكن لا يغيب عنا ونحن بصدد الحديث عن السُنن الربانية، بأنها تنقسم إلى نوعين: نوع يسمى بالسنن الخارقة، والنوع الثاني يسمى بالسُنن الجارية، وسوف نتناول كلاً منهما بشيء من التفصيل.

النوع الأول: السنن الخارقة :

ويقصد بها التي يجريها الله - سبحانه وتعالى - على خلاف مألوف الناس على يد رسول من رسله تأييداً له في دعوته ضد قومه المستنكرين والمستنكفين عن دعوة الحق سبحانه، أو تكريماً له وتثبيتاً، كما فعل تبارك وتعالى حين جعل عصا موسى - عليه السلام - حية تسعى ، فقال: ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ [طه: ١٩- ٢٠] .

أو كما أمر موسى بضرب الصخرة فإذا هي عين جارية!! قال تعالى: ﴿ **وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا** ﴾ [البقرة: ٦٠] .

وكذلك ما حدث على يدي نبينا محمد ﷺ ، وأنزل القرآن الكريم، وبذلك يتقرر بأن السنن الخارقة هي التي تكون غير مألوفة عند الناس، وتكون خارجة عن مقدور البشر أن يأتوا بمثلها.

النوع الثاني: السنن الجارية :

وهي تنقسم إلى قسمين: قسم متعلق بالأمور الطبيعية الكونية، وقسم متعلق بالأمور الشرعية، فالقسم المتعلق بالأمور الكونية الطبيعية يقصد به سُنن الله في تعاقب الليل والنهار وجريان الشمس والقمر في فلك واحد وفق ناموس محدد قدَّره الله لها تقديراً، قال تعالى: ﴿ **لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ [يس : ٤٠] .

أما القسم المتعلق بالأمور الشرعية ، فيقصد به أوامر الله ونواهيه ، ووعده ووعيده، وهي ثابتة لا تتبدل ، ومطردة غير مقيدة ، كسُنَّته في نصر أوليائه ، وإهانته لأعدائه، كما لا يخفى أن الله سبحانه وتعالى إذا حكم في الأمور المتماثلة بحكم ما، فإن ذلك لا ينقض ولا يتبدل ولا يتحول، فهو - سبحانه وتعالى - لا يفرق بين المتماثلين، ولا يجمع بين المختلفين ، كما قال تعالى: ﴿ **أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ** ﴾ [القلم: ٣٥] .

يقول ابن تيمية - رحمه الله - بهذا الصدد:

« ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا ولولا القياس واطراد فعله، وسنته، لم يصح الاعتبار بها، لأن الاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره كالأمثال المضروبة في القرآن » [١] .

---

(١) انظر : جامع الرسائل، لابن تيمية (٥٥).

ولكن هذه السنن الربانية بجميع أقسامها ، إنما تدرك وتعرف من خلال النظر في التاريخ ومتابعة أخبار الأمم ومصائرهم، وكيفية قيام حضارتهم وسقوطها؟ ، والتمعن في أسباب ذلك كله، لذلك على المسلم الواعي أن يكثر من مطالعة كتب التاريخ قراءة واعية لإدراك تلك السُنن واستخلاص العبر والأمثال منها، وتأطيرها على هيئة كليات تشتمل على عدد من الجزيئات، ومن ثمَّ ربطها بالواقع المعاصر، لتكون نبراساً يستضيء به السالكون في مدارج المجاهدين والمربين ، وهكذا يجد القارئ المسلم السُنن الربانية التي ذكرت في القرآن يجدها سُنناً كلية تضم في طياتها عدداً كبيراً من الجزئيات تغطي حوادث واقعية غير منصوص عليها، وهذه الكليات حية فاعلة مطردة ثابتة كثبات الجبال الراسيات على الأرض، لا تقبل التغيير، ولا النسخ، ولا النقصان، إنها سُنن الله ، ولن تجد لسُنَّة الله تبديلاً ولا تحويلاً !! .

وفي ذلك يقول الدكتور عماد الدين خليل: « والسُنن الربانية تجيء في القرآن غير محددة لكي تشمل أكبر قدر من الواقع، وتلامس أكبر عدد من التفاصيل والجزئيات » (١) .

ويقول أيضاً: « كما أن معرفة السُنن الربانية تفرض على الجماعة الواعية المدركة والملتزمة أن تتجاوز مواقع الخطأ التي قادت الجماعات البشرية السابقة إلى الدمار والهلاك، وأن تحسن التعامل مع تلك السنن ومع قوى الكون مستمدة ذلك من منهج الله الذي سار عليه أنبياؤه ورسله » (٢) .

كما لا يخفى على دارس التاريخ أن السُنن الربانية قد تستغرق وقتاً طويلاً لكي ترى متحققة، رأي العين، في حين أن عمر الفرد محدود، ولذلك لا يمكنه رؤية السُنن متحققة بل قد يرى الإنسان جانباً من السُنن الربانية، ثم لا تتحقق

---

(١) ،(٢) **انظر** : تفسير التاريخ، للدكتور عماد الدين خليل(١٠٩) .

نهايتها في حياته مما يحول بينه وبين عدم إدراك السُنن أو التكذيب بها، وهنا يكون دور التاريخ في معرفة أن السُنن الربانية لابد أن تقع ولو طال الزمان، ولكن لما كان عمرها أطول من عمر الفرد، بل ربما أطول من أعمار أجيال فإنها ترى متحققة من خلال التاريخ الذي يثبت أن سُنن الله ثابتة لا تتبدل ولا تتغير، كما قال تعالى: ﴿ **سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً** ﴾.

[الإسراء: ٧٧].

لذلك ومن خلال دراسة التاريخ دراسة واعية يجب أن يعلم القارئ أن حاضره الذي يعيشه إذا كان فيه ما يتصور أنه مخالف لسُنن الله أنه غير مستثنى من السُنَّة الربانية، بل هو جزء منها، ولكن للسُنَّة الربانية أجل ووقت، وكل شيء خلقه الله بقدر، فالله - سبحانه - قد يؤخر السُنَّة ليبتلي المسلم، ليعظم له أجره، ويمد الكافر في غيه ليأخذه أخذ عزيز مقتدر، قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ** ﴾.

[الأنعام: ٦].

يقول الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية الكريمة:

«هناك حقيقة ينساها البشر حين يمكّن الله لهم في الأرض، ينسون أن هذا التمكين إنما تم بمشيئة الله ليبلوهم فيه، أيقومون عليه بعهده وشرطه، من العبودية له وحده، والتلقي منه وحده أم يجعلون من أنفسهم طواغيت تدعي حقوق الإلهية وخصائصها، إنها حقيقة ينساها البشر فينحرفون عن عهد الله ويمضون على غير سُنَّة الله ، ولا يتبين لهم في أول الطريق عواقب هذا الانحراف، ويقع الفساد رويداً، وهم ينزلقون ولا يشعرون حتى يستوفي الكتاب أجله، ويحق وعد الله، ثم تختلف أشكال الأخذ والنهاية!! فمرة يأخذهم بعذاب الاستئصال، ومرة بعذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم كما وقع لكثير من الأقوام ، ومرة

بالسنين ونقص الأنفس والثمرات كما حدث لأقوام آخرين، ومرة يذيق بعضهم بأس بعض، فيعذب بعضهم بعضاً، ويدمر بعضهم بعضاً، ويسلط الله عليهم عباداً له – طائعين أو عصاة – دورة السُّنَّة، فالسعيد من وعاها ، والشقي من غفل عنها ، وإنه لمما يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغي، أو الملحد الكافر ممكناً له في الأرض غير مأخوذ من الله، ولكن الناس إنما يستعجلون أنهم يرون أول الطريق أو وسطه ولا يرون نهاية الطريق، لأن السُّنَّة تستغرق وقتاً طويلاً لكنها تلاحظ من خلال التاريخ» (١) .

وهذا الذي استنبطه الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – من هذه الآيات الكريمة قد جاء مصرحاً به ومنصوصاً عليه في قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ** ﴾ [الأنعام : ٤٤] فقد فتح الله عليهم أبواب كل شيء عندما نسوا ما ذكروا به من أوامر الله ونواهيه، فلما فرحوا بهذا الفتح وهذا الرزق أخذهم الله بغتة، فإذا درّ الرزق عليهم كان باب الاستدراج كما قال تعالى: ﴿ **فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا** ﴾ [الطارق: ١٧] وكما جاء في حديث أبي موسي الأشعري – رضي الله عنه – قال ﷺ: «**إن الله عز وجل يملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته**» ، ثم قرأ: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** ﴾ (٢) [هود: ١٠٢] .

فلا شك أن هذه الأبواب التي تفتح على الكافرين هي من تمام عدل الله الذي يقضي بأن يعطي كل عامل جزاء عمله: ﴿ **مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ** ﴾ [الإسراء: ١٨] .

فإنهم لما عرفوا القوانين المادية للتقدم فتح لهم ونالوا ثمرة جهدهم ذلك في الحياة الدنيا، مع أن هذا الفتح وهذا الرخاء لن يكون مثل فتح الله على المؤمنين

---

(١) انظر : في ظلال القرآن(٢/ ١٠٣٨) .

(٢) متفق عليه، واللفظ، انظر: صحيح البخاري(٤٦٨٦) ، ومسلم(٤/ ١٩٩٧ رقم ٢٥٨٣)

ورخائه عليهم، وطمأنينة قلوبهم إليه، بل هو رخاء موبوء كله آفات واختلاط في كل شيء ، فساد اجتماعي، وانحدار خلقي، ومعيشة ضنك ، وإهدار لكرامة الإنسان وقيمته المعنوية في مقابل المادة التي لا تُغني ولا تُسمن من جوع !! .

ولو تأمل المسلم وعاين بنظرة فاحصة في أحوال مَن حوله مِن المجتمعات الجاهلية في عالمنا المعاصر، لرأى رأي العين تلك الحياة التي يعيشها هذا العالم الشارد عن منهج الله السوي، حياة الضنك، ومعيشة النكد، وطبيعة الغاب رغم تقدمهم المادي كما يزعمون!! ولكنها الجاهلية أينما كانت وحيثما كانت، إنه الشرود عن منهج الله سبحانه!! إنها سُنن الله في الكون التي لا تحابي أحداً من خلقه، ولن تجد لسُنَّة الله تبديلاً ولا تحويلاً !! .

كما لا يخفى أن ثبات السُّنن الربانية يقابله ثبات في طبيعة الإنسان وخلقه، فالحوافز الإنسانية لم تتغير منذ أن خلق الله آدم عليه السلام.

كما أن دوافع الإنسان الفطرية - وهي منطلق نشاطه - لم تزل قائمة كما كانت في الماضي، وما أصلح البشر في الماضي هو الذي يصلحهم في الحاضر.

ونورد فيما يلي بعض السنن الربانية على سبيل المثال لا الحصر :

[١] سُنَّة سوء عاقبة المكذبين:

لقد تقرر في محكم نصوص القرآن بأن الذين يكذبون بآيات الله ورسوله ويظلمون الناس بغير حق، ويسعون في الأرض فساداً، وعدهم الله بسوء العاقبة. قال تعالى: **﴿وقوم نوح لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسل أغرقناهم وجعلناهم للنَّاس آية وأعتدنا للظَّالمين عذابًا أليما ﴿٣٧﴾ وعادًا وثمود وأصحاب الرَّسِّ وقرونًا بين ذلك كثيرًا ﴿٣٨﴾ وكُلاًّ ضربنا له الأمثال وكُلاًّ تبَّرنا تتبيرًا﴾** [الفرقان:٣٧-٣٩]

فما جرى من تحقيق هذه السُّنَّة في الماضي في أولئك المكذبين، سيجري مثله في الحاضر والمستقبل القريب لكل من أعرض عن ذكر الله وشرعه، ومن فضل الله - سبحانه وتعالى - على الناس وعدله فيهم أن يبقي نعمته المادية والمعنوية

عليهم كالأمن، والاستقرار، والرزق الوفير، والصحة، وما إلى ذلك إذا هم عصوا وجحدوا وبدلوا نعمة الله كفراً وتكذيباً ، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** ﴾ [إبرهيم:٧] .

وقال جل شأنه: ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الأنفال:٥٣] .

[٢] سُنَّة إناطة التغيير البشري :

وتعتبر هذه من سُنن الله – سبحانه – الخالدة التي أناط بالبشرية مسئوليتها رقيهم لأجل وانحطاطهم، ومسئولية اتباعهم للخير أو الشر، حيث إنهم قد منحوا قدراً من الحرية والاختيار، ومع ذلك القدر من الحرية بعث إليهم المولى عز وجل الرسل التي جاءتهم بالهداية الربانية التي فيها خير الدنيا والآخرة لمن اتبع المرسلين ، قال تعالي: ﴿ **فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ** ﴾ [طه:١٢٣] .

فإذا وجدت أسباب الهداية فإن النتائج تتبعها كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد:١١] .

لذلك فإن التغيير يبدأ من النفس سواء بالارتقاء إلى أعلى، أو بالانتكاس والهبوط إلى أسفل، فهي تعتبر النقط الأساسية في تغيير النفس البشرية من الشر إلى الخير أو العكس ، والبشر في كلتا الحالتين هم المسئولون مباشرة عن إصلاح أنفسهم كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾

[الرعد:١١] .

لذا يجب مراعاة هذه السُنَّة الربانية في تغيير النفس البشرية، والمجتمعات الإنسانية، ومن تأمل في هذه الآية الكريمة التي قررت هذه السُنَّة الربانية يجدها قد رتبت حدوث التغيير على مراحل ، فقد جعلت حدوث التغيير من الله – سبحانه – مترتباً على حدوثه من النفس البشرية سواءً بالسلب أو الإيجاب،

وهذا الترتيب يضع البشرية أمام مَفْرِق الطريق، ويربط في عنقها مسئولية عدم إحداث التغيير في النفس البشرية والمجتمعات الإنسانية وفق منهج الله القويم، قال تعالى: ﴿ **حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ وهذه السُنَّة لا يمكن إدراكها إدراكاً صحيحاً وكلياً إلا باتباع المنهج الرباني الذي يربط بين السُنن والأحداث التاريخية ، ويحدد العلاقة السليمة بينهما، حيث إن اتباع المنهج الرباني يعطي خير السُنن ، ويصرف الصوارف ، قال تعالى : ﴿ **قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [البقرة : ٣٨] .

[٣] سُنَّة الأيام سجال بين الناس:

فمن رحمة الله - سبحانه - أن جعل مداولة الأيام سجال بين الناس ، من شدة ورخاء، وقوة وضعف، وعز وذل، وصحة وسقم، وغنى وفقر، امتحاناً لهم حتى يعلم منهم - وهو أعلم بما يفعلون - الشاكرين من الجاحدين، والصابرين من الجازعين، والمجاهدين من القاعدين، والمنفقين من الممسكين قال تعالى : ﴿ **إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

[٤] سُنَّة زوال الأمم بالعلو والطغيان:

قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** ﴾ [الفجر: ٦-١٤] .

فتأمل في هذه الآيات الكريمة التي تقرر سُنَّة من سُنن الله الربانية التي لا تحابي أحداً من خلقه، إنها سُنَّة زوال الأمم بالترف والفساد ، زوال الأمم بالتجبر والطغيان، زوال الأمم بالبطر والكبرياء!! قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا** ﴾ [الإسراء: ١٦] أي

أمرناهم بالأمر الشرعي من فعل الطاعات واجتناب المعاصي، فعصوا وفسقوا وحققوا أسباب الزوال والانهيار، فحقَّت عليهم سُنَّة الأخذ والزوال، والتدمير والتنكيل، جزاء فسقهم وعصيانهم ﴿ **فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا** ﴾ !! .

[٥] سُنَّة هلاك الأمم بالظلم والإجحاف :

قال تعالى : ﴿ **وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ** ﴾ .

[الأنبياء : ١١] .

فإذا ما فشى الظلم وعدم إقامة العدل في أمة من الأمم، فقد تحققت فيها أسباب الهلاك، وحقت عليها سُنَّة الله بالهلاك، ووقعت عليها القاصمة، لأن الله سبحانه وتعالى قد حرم الظلم على نفسه، وجعله بين العباد محرماً كما في الحديث القدسي : [**ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا**] (١) .

فإذا اختلت الموازين، وانعدمت القيم، وتحكَّم الأقوياء في رقاب الضعفاء، وقسم المجتمع إلى طبقات سادة وعبيد، وتلاعب السادة بحدود الله وأوامره فقد حقت عليهم سُنَّة الله التي لا تحابي أحداً من خلقه، ولن تجد لسُنَّة الله تبديلاً ولا تحويلاً !! .

جاء في الحديث الصحيح قوله ﷺ : [**إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد !! وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**] (٢)

[٦] سُنَّة لكل أمة أجل :

لا يخفي أن لله سُنناً ربانية تقرر بأن انهيار الأمم وزوالها لا يكون إلا بأجل مقدر، وهذه السُنَّة في نفس المؤمن مقررة لا خفاء فيها ولا شك، ولكن ضعيف

---

(١) صحيح مسلم (٤ / ١٩٩٦) ، حديث رقم (٢٥٧٧)

(٢) صحيح البخاري (٣٤٧٥) ، ومسلم (٣ / ٣١٥ رقم ١٦٨٨)

الإيمان الذي يرى موجبات سُنَّة الله في أمة من الأمم، ثم رغم ذلك لا يرى زوال تلك الأمة! ربما شك في هذه السُنَّة ، لذلك فقد جاء في الكتاب العزيز الرد على ما يختلج في النفس الضعيفة من تساؤلات حيال هذه السُنَّة الربانية، فقال تعالى : ﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ** ﴾ .

[الأعراف : ٣٤] .

وقال أيضاً : ﴿ **وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ** ﴾ [الحجر : ٤-٥] .

وهذا ما قررناه وأوضحناه في أول البحث، من أن سُنَّة الله - سبحانه - لا تتخلف ولكن عمرها أطول من عمر الأفراد، ولا تقع إلا بأجل محدد لابد من استيفائه كما نص على ذلك القرآن الكريم : ﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ** ﴾ [الأعراف : ٣٤] .

[٧] سُنَّة نصر الله للمؤمنين :

لقد قضت حكمة الله - سبحانه - وسُنَّته الجارية على استحقاق المؤمنين لنصره، إذا أتوا بشروط هذه السُنَّة، ومن هذه الشروط :

﴿ **أ** ﴾ **الاستقامة على منهج الله :** قال تعالى : ﴿ **وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا** ﴾ [الجن : ١٦] .

﴿ **ب** ﴾ **عدم الإشراك به - سبحانه - :** قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** ﴾ [النور : ٥٥]

﴿ **جـ** ﴾ ذكر الله كثيراً قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [الأنفال : ٤٥]

وبعد فإذا ما حقق المؤمن شروط هذه السُنَّة ، فإن نصر الله لهم قريب، كما قال

تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ .

[غافر: ٥١] .

وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ .

[محمد: ٧] .

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧] .

[٨] سُنَّة ابتلاء المؤمنين :

لقد جاء في محكم التنزيل نصوص كثيرة تقرر هذه السُنَّة الثابتة، كقوله سبحانه وتعالى: **﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾** [البقرة: ٢١٤]

وكذلك جاءت نصوص السُنَّة النبوية الصحيحة تقرر ذلك، فعندما سئل ﷺ: **أي الناس أشد بلاءً؟، فقال: « الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض، ما عليه خطيئة »** (١) .

وهكذا جرت سُنَّة الله في تمحيص المؤمنين وصقلهم وإعدادهم لينالوا بصبرهم وثباتهم المنزلة العالية عند الله - سبحانه - وليرفع درجاتهم بما يصيبهم من الأذى، وبما يحصل لهم من الشهادة في سبيل الله، قال تعالى: **﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾** [آل عمران: ١٤٠-١٤١] وفي هذه الآيات وسبب نزولها فوائد جمة،

---

(١) رواه الترمذي (٤ / ٦٠١)، وابن ماجة تحت رقم (٤٠٢٣)، وصححه الشيخ الألباني - رحمه الله - في الأحاديث الصحيحة رقم (١٤٣).

ومبادىء قيمة ودروس هامة للجماعة المسلمة، نذكر منها: تربيتهم على الثبات في المحن، واتخاذ الشهداء منهم، وتمحيص الأنفس واختيارها، وتعريفها بسرائرها، وبواطن أحوالها، لذلك فإن الابتلاء للمؤمن سُنَّة من سُنن الأنبياء، والصالحين، والصادقين، والشهداء، فما من نبي إلا وقد أوذي وحورب، فمنهم من قتل، ومنهم من ألقي في النار، ومنهم من أخرج من أرضه وعشيرته، وكذلك أتباعهم نالهم من الأذى والقتل والتشريد صنوفٌ عديدة، فلما نجحوا وتجاوزوا هذا الابتلاء الرباني، وثبتوا على الحق المبين، حينئذ تنزَّل عليهم نصر الله - سبحانه - وأبدلهم بعد خوفهم أمناً،ومكَّن لهم في الأرض وجعلهم الوارثين!.

[٩] سُنَّة التدافع بين الحق والباطل:

قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ** ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [الحج: ٤٠].

ولا يخفى أن سُنَّة التدافع من أعظم سُنن الله الجارية في هذا الكون، إذ بدونها تفسد الأرض وتتدهور أحوال الناس، لذلك كانت ضرورة بذل الجهد البشري في دفع الباطل بالحق هي من سُنن الحياة السوية التي لا تكون إلا بها، فإذا ما ثبت أصحاب الحق والفضيلة، وصبروا وصابروا تحقق لهم حينئذ وعد الله بالتمكين، وهزيمة الباطل ودحضه، واندحار أهله.

بيد أن هذا الصراع بين الحق والباطل معركة لا تنتهي حتى يرث الله الأرض ومن عليها، إنها معركة الحق الواحد مع الباطل المتعدد الأشكال والألوان والأصناف، ولا ينبغي أن يغيب عنا أن الله الذي وضع هذه السُّنن قد جعل لكل شيء قدراً، فقد وهب لهذا الإنسان من القدرات والمواهب والإمكانات والقوى،

وإرادة الاستمرار ما يستطيع به – بعد توفيق الله له – من السيطرة والانتصار على الباطل وأعوانه من شياطين الجن والإنس !! .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ . [الإسراء : ٦٥] .

وقال : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٣٨] .

ومن رحمته سبحانه وتعالى بعد أن حكى في كتابه العزيز قصة أول صراع وقع بين الحق والباطل، حينما أمر الملائكة بالسجود لآدم فأبى الشيطان أن يسجد لآدم عليه السلام فأمرهما أن يهبطا إلى الأرض ليواصلا معركة الصراع في ساحة أخرى، فقال تعالى : ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ . [البقرة : ٣٦] .

فمنذ ذلك الصراع والهبوط إلى الأرض يحذرهم من عدوهم الأساسي ، وغوايته ، وإصراره على فتنتهم عن صراط ربهم المستقيم، فقال تعالى في محكم التنزيل : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا ﴾ [الاعراف : ٢٧] .

وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

وقد تمثلت صور إغواء لبني آدم في صور شتى منها :

■ **عبادة الأصنام والأوثان :** فحذر الله عباده من ذلك بقوله : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس : ٦٠ – ٦١] .

■ **الحكم بقوانين الشيطان وإقصاء شريعة الرحمن**: فحذر الله عباده من ذلك بقوله: ﴿ **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ** ﴾ [المائدة: ٤٩].

وقال: ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾.

[المائدة: ٥٠].

ومنها: التمسك بالأعراف والتقاليد التي تخالف شرع الله: فحذر الله عباده من ذلك بقوله: ﴿ **وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ** ﴾ [الزمر: ٥٥].

وعاب عليهم قولهم إذ قالوا: ﴿ **أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا** ﴾.

[الأعراف: ٧٠].

وقولهم: ﴿ **بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ** ﴾ [الزخرف: ٢٢] وغير ذلك من أوجه غواية الشيطان لابن آدم.

ومن الجدير بالذكر أنه يجب الوقوف على الحكمة التعليمية لهذه السُّنَّة التدافعية بين الحق والباطل، وما هي حقيقة الصراع المحمود الذي تركز عليه الآيات الكريمة؟، هل هو الصراع الحتمي الذي بنيت عليه النظرية الديالكتيكية الهيجلية في مجال الأفكار وحركة العقل الكلي حتى يصل إلى مرحلة تجلي المتفرد - كما يزعم من لا خلاق لهم -؟! أو هو الصراع الطبقي في النظرية المادية عند ماركس القائل: «تبدل وسائل الإنتاج حتى يبلغ سيطرة البوليتاريا» (١).

كلا! ليس هذا التدافع ولا ذاك من تكالب الناس على أعراض الدنيا وشهواتها التافهة سواء في المستويات الدنيا بين الأفراد، أو المستويات العليا بين الجماعات والدول والمعسكرات، بل إنه التدافع الذي يكون لخير البشرية في الدنيا والآخرة،

---

(١) انظر: تفسير التاريخ الإسلامي (٢٤٤).

وذلك لا يتحقق إلا بتحقيق العبودية لله وحده، وإزالة كل طاغوت يُعبد من دون الله، إنه كما قال تعالى: ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ** ﴾ .

[الأنفال: ٣٩] .

فالصراع المحمود: هو الذي يطرد الفتنة بكل أشكالها وصورها من الأرض، ويحرر البشرية من عبادة الطاغوت وظلماته إلى عبادة الله وحده – سبحانه – ونوره.

قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا** ﴾ [النساء: ٧٦] .

فالله سبحانه وتعالى يدفع بأهل الحق أهل الباطل، وقيام المسلمين بهذا الواجب ينفي عنهم شر ذلك الصراع، وتركهم لهذا الدَّفْع يجلب عليهم شراً مستطيراً، ما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا ذلوا ، كما قال ﷺ: [**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم بأذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذُلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**] [١] ، والواقع المعاش دليل لا يحتاج إلى كثير من التدبر!!.

يقول الدكتور عماد الدين خليل: «إن الجهاد يضع الأمة الإسلامية أمام مسئوليتها الحركية الكبرى في العالم، ويمنحها فاعلية دائمة إزاء التجارب والمواقف البشرية، تتجاوز حدود الزمان والمكان، ويرفعها إلى موقع الشهادة على الناس، ذلك الموقع الوسط المميز المتفرد الذي لن ترتفع إليه إلا عندما تمارس جهادها الدائم في كل الجبهات أمراً بالمعروف، ونهياً عن المنكر، وقتالاً بالكلمة، وكفاحاً مسلحاً: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ [٢] [البقرة: ١٤٣] .

---

(١) رواه أبو داود في سُننه (٣ / ٢٧٤–٢٨٥) ، سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ الألباني رقم (١١) .
(٢) تفسير التاريخ الإسلامي (٢٤٩) .

المطلب الثالث

التعرف على معالم تاريخ الإنسانية

بعد أن ذكرنا فائدتين من فوائد ثمرات التاريخ نذكر الفائدة الثالثة ، ألا وهي التعرف على معالم تاريخ الإنسانية ، والتي تعتبر من أهم الثمرات التي ينبغي أن يطلبها ويتعرف عليها دارس التاريخ، من ذلك : متى بدأ تاريخ الإنسانية؟ ، وما هي أطواره التي مر بها ؟ ، وما هي أبرز المعالم التاريخية؟ .

لا يخفى أن بداية تاريخ الإنسانية وأطوارها كانت منذ آدم، كما قررها القرآن الكريم في عدة مواضع، وكذلك ارتبط هذا التاريخ ارتباطاً أساسياً بتاريخ الأنبياء عليهم السلام منذ آدم إلى نوح حتى نبينا محمد- عليهم الصلاة والسلام - لذلك سوف نتناول أهم معالم التاريخ الإنساني التي يجب أن يعتني بها دارس التاريخ .

[أ] المعلم الأول: معرفة تاريخ الأنبياء:

لا ريب أن معرفة تاريخ الأنبياء - عليهم السلام - ودعوتهم وجهادهم وصبرهم وتحملهم لأذى أقوامهم، ومواقف أقوامهم منهم ومن دعوتهم، ومعرفة مصير الذين آمنوا وصدقوا بدعوة الأنبياء، ومصير الذين كذبوهم، لهو المَعْلَم الأساسي في معرفة تاريخ الإنسانية منذ أن خلق الله سبحانه آدم حتى خاتم الرسل عليهم الصلاة والسلام.

[ب] المعلم الثاني: معرفة سيرة النبي ﷺ :

إن التعرف على معالم سيرة خاتم الرسل والنبيين، وصاحب الشريعة الناسخة لكل الشرائع، والعامة للثقلين الإنس والجن، لهو المفتاح الأساسي في كيفية عبادة الله الحقة، وفهم تطبيق أحكامه على المكلفين المؤمن منهم والكافر، لذلك يجب معرفة أحواله وأقواله، وصفاته، وتقريراته ﷺ والاستفادة من تلك السُنن التي أخرجت ذلك الجيل القرآني الفريد الذي خوطب بقوله تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١١٠] .

[جـ] المعلم الثالث: التعرف على تاريخ الخلفاء الراشدين:

لأن معرفة أحوالهم وسيرتهم وتاريخهم، وتاريخ الجيل الأول خاصة، والذي يليه ثم الذي يليه من التابعين لهم بإحسان الذين عاشوا في القرون التي تعتبر من القرون الخيرة ، فهم الذين قاموا بتطبيق الأحكام الشرعية على الوجه المطلوب منهم، وجاهدوا لنشر الإسلام في ربوع الأرض مشارقها ومغاربها، ودونوا القرآن والسُّنَّة والآثار، فقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ : [**عليكم بسُنتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**] (١) .

[د] المعلم الرابع: التعرف على سير العلماء والمجاهدين والدعاة:

فينبغي الاعتناء بسير العلماء والمجاهدين والصالحين وجهادهم في سبيل الله وإقامة شريعته – سبحانه – بين أقوامهم، لأن في ذلك أسوة حسنة، ومثال يحتذى به بالنسبة للمسلم المعاصر.

[هـ] المعلم الخامس: معرفة أثر الإسلام في حياة البشرية:

ويتبين ذلك بمعرفة التجارب التي انتهت إليها المجتمعات الجاهلية المتعددة الأشكال والألوان، وبيان أحوالها الاجتماعية، وكيف رفعها الإسلام من تلك البراثن الآسنة بمنهجه السوي الصالح المصلح لكل زمان ومكان إلى تلك القمة السامقة عندما انطوت تحت لوائه، وطبقت شريعته، قال تعالى ممتناً على هذه الأمة: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ [الجمعة: ٢] .

ويتضح هذا المعلم بتتبع أعمال الهدم والبناء التي قام بها الإسلام في حياة تلك المجتمعات الجاهلية التي حكمها، وما مصير الأفكار والنظم والعقائد التي كانت سائدة؟ ، وكيف بنى تلك المجتمعات بناءاً جديداً منطلقاً من العقيدة الإسلامية ، وقائماً على العدل والحق والحرية.

---

(١) رواه أبو داود (٤ / ٢٠١)، والترمذي (٥ / ٤٤)، والإمام أحمد في مسنده (٤ / ١٢٦).

المطلب الرابع

التأكيد على جملة من الحقائق الهامة في البشرية

والجدير بالذكر بعد أن ذكرنا تلك الفوائد أن نسجل الفائدة الرابعة، والتي هي جديرة بالرصد والتسجيل حسب النسق المهيمن لعرض هذه الحقائق للبشرية وتجنيدها وتدجينها ، **وهذه الفائدة تحمل في طياتها التأكيد على عدة حقائق هامة منها:**

[١] أول شيء عرفته البشرية هو توحيد الله :

نقول: إن كل من عرض التاريخ وتأمله، ودرسه بوعي وبدون اختزال، يتبين له من الوهلة الأولى، أن الأصل في تاريخ البشرية منذ البداية أنها كانت مهتدية بشرع الله - سبحانه - وهداه، ثم بعد ذلك بأمد بعيد طرأ عليها الانحراف والشرك بعدما نسوا الله فأنساهم أنفسهم!! كما جاء عن حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: « كانت بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة الحق، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » (١) .

ثم كلما تاهت فهوم البشرية عن منهج الله وزاغت عقولهم، وانحرفوا عن منهج الله وأصبحوا في دورات تاريخية متعاقبة من الزيغ والضلال، يرسل الله إليهم رسولاً ليردهم إلى صراطه المستقيم وعبادته وحده - سبحانه - ويدعوهم إلى توحيده فيقول لهم على لسان رسوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ .

[هود: ٥٠] .

ولا يخفى أن هذه الفطرة التي فطر الناس عليها كما قال ﷺ عن ربه: [**يقول الله إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم جاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن**

---

(١) راجع تفسير الطبري (٤ / ٢٧٥).

دينهم] [١] .

[٢] حقيقة أن الله خالق كل شيء:

لا يخفى على من عنده مسكة من عقل أن الله – سبحانه – خالق كل شيء، وأن الإنسان من خلقه سبحانه وتعالى، وهو مستخلف في هذا الكون لتعميره بمنهج خالق كل شيء –سبحانه وتعالى– فكلما تحققت هذه البدهيه في عقل المسلم أتاحت للمختلف أن يأتلف، وأن لا يشعر بأي عداء بينه وبين هذا الكون البديع، والمسلم بهذه العقلية يشعر بالانسياب والاندماج بين ما يعتقده من عقيدة وبين هذا الكون البديع ، ولكي يصيغ حياته وفق المنهج الرباني، ينقب في هذا الكون، ويرحل في جنباته ويقيم، ومن مختلف تضاريسه يصيغ معانيه ويعيد!! .

فإذا كان هذا شعور المسلم مع الكون الذي هو من خلق الله –،سبحانه – فإن الكافر المتنكر لحقيقة أن الله خالق كل شيء من أسرار هذا الكون الطائع لله – سبحانه – المسبح بحمده، فإذا ما فتح له شيء من أسرار هذا الكون البديع تراه يتبجح ويتطاول ويتكبر، ويستعين بأسماء مختلفة بدل الحمد وشكر الله على هذه المعارف، ولكن هذه الأسماء والمصطلحات تخدم كفره وتمرده على خالق هذا الكون البديع، رغم أنه يظل هو الشاذ عن مخلوقات الله صريحاً فيما يقوله من كفر، حيث لا يقول ما ينتظر قوله، وما يمكن قوله ! .

[٣] حقيقة أن الإنسان خلق سوياً :

لقد تقرر في كتاب الله العزيز أن الإنسان خلق في أحسن صورة من اللحظة الأولى قال: ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾ [التين: ٤] .

وليس كما يزعم من لا دين لهم أصحاب مدرسة النشوء والارتقاء، بأن الإنسان كان أصله حيواناً ثم تطور فأصبح إنساناً!! كلا ورب الكعبة فقد جاء في

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤ /٢١٩٧) ، حديث رقم (٢٨٦٥) .

كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، القول الفصل في هذه الحقيقة فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر: ٢٨-٣٠].

وقال تعالى: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [التغابن: ٣].

[٤] حقيقة أن الإنسان يحتاج إلى التذكير:

وهذه الحقيقة من البدهيات عند من عرف دين الله سبحانه، لأن المسلم مهما كانت قوة إيمانه فقد يعتريه الضعف، ويتنكب الطريق في بعض مراحل حياته، لذلك جعل الله سبحانه برحمته سبيلاً إلى التذكير في نفوس المسلمين، فبعث لذلك الرسل، وأنزل الكتب، وسن للمؤمنين التذاكر فيما بينهم فقال: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥].

وقال: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦].

[٥] الصبر على المشاق:

لا يخفى بعد أن ذكرنا الفوائد السالفة لثمرات دراسة التاريخ، أنه ينبغي أن نسجل الفائدة الخامسة والتي هي من الأهمية بمكان، فالفائدة تحمل في طياتها من معالم التربية الإسلامية الكثير، فكلما ازداد المسلم اطلاعاً على سير الأنبياء - عليهم السلام - تقوت عنده رابطة الانتماء لذلك السلف الصالح المبارك، ويتأكد له أنه يركن ويأوي إلى ركن عريق ضارب بأطنابه في تاريخ البشرية جميعاً، فإذا ما استقر ذلك في نفس المسلم رضي بما أصابه في سبيل الله، بل زاده ذلك ثباتاً على الحق وطمأنينة في النفس.

[٦] القيمة السياسية :

والآن نسجل الفائدة السادسة والتي من الأهمية بمكان، فالفائدة هذه تحمل في طياتها من معالم وأصول التربية في السياسة الشرعية، لأن معرفة التاريخ ودراسته دراسه واعية تكسب صاحبها الخبرة العلمية في كيفية التعامل مع أصناف الناس في كل مراحل الحياة، وتعينه إعانة فعلية في كيفية سياسة البلاد والعباد، وترشده إلى حسن التصرف في الأمور التي يمر بها!! لذلك اعتنى الخلفاء والحكام، والسلاطين، والقادة بدراسة التاريخ عناية فائقة، فإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن التاريخ يعيد نفسه، وتجارب الأمم قريبة من بعضها.

[٧] الحصانة الفكرية :

ويقصد بالحصانة الفكرية : إتقان البحث المنهجي التاريخي في معرفة ما أحدث من البدع والخرافات بعد عهد النبي ﷺ، لأن التاريخ منهج بحث ووسيلة من وسائل الكشف عن الحقائق وإثباتها، وقد استخدم كثير من العلماء المنهج التاريخي في كشف الأباطيل والخرافات وبيان المحدثات والبدع في الشرع، لأن الدين الحق هو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون بعدهم ديناً، ولقد وصف ﷺ الفرقة الناجية بقوله: [**ما أنا عليه وأصحابي**] (١) ولعل أبرز من استخدم هذا المنهج الإمام ابن تيمية وتلميذاه الحافظ ابن كثير، والعلامة ابن القيم.

يقول ابن تيمية - رحمه الله - وهو بصدد مناقشته لقضية المشهد المنسوبة للحسين بمدينة القاهرة فقال: «ولم يكن على عهد الصحابة والتابعين، وتابعيهم شيء من المشاهد في بلاد الإسلام - لا الحجاز، ولا أحد من أهل البيت، ولا صالح، أصلاً بل عامة المشاهد محدثة بعد ذلك!! وكان ظهورها وانتشارها حين

---

(١) انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ الألباني رقم (٢٠٣).

ضعفت خلافة بني العباس وتفرقت الأمة ، وكثرت فيهم الزنادقة المنتسبون إلى الإسلام ، وعلت فيهم كلمة البدع ، وذلك في دولة المقتدر » [١] .

ويقول أيضاً:« وفي أواخر المئة الثالثة ، فإنه إذ ذاك ظهرت القرامطة العبيدية القداحية بأرض المغرب ثم جاءوا بعد ذلك إلى أرض مصر، وقريباً من ذلك ظهر بنو بويه الأعاجم وكان في كثير منهم زندقة وبدع قوية، وفي دولتهم قوي بنو عبيد القداح بأرض مصر، وفي دولتهم أظهر المشهد المنسوب إلى عليّ رضي الله عنه بناحية النجف، وإلا فقبل ذلك لم يكن أحد يقول: إن قبر عليّ هناك ، وإنما دفن عليّ بقصر الإمارة بالكوفة » [٢] .

[٨] ومن فوائد التاريخ أن له فضائل أخلاقية قضائية :

لأنه يحفظ الحقائق مهما حاول الناس طمسها وإخفاءها، وبذلك ينصف الرجال الذين حاول معاصروهم تجاهلهم، أو تشويه تاريخهم وحركتهم، وإساءة الظن والقول فيهم، كما أنه يكشف الغطاء عن أدوار خيانية وانحرافات عقدية وسلوكية مارسها بعض الأشخاص الذين كانوا ملء سمع الدنيا وبصرها، بسبب مراكزهم وسلطانهم وإعلامهم مما يجعل معاصريهم يفترون فيكيلون لهم المدح والثناء، وينالون منهم التعظيم وتضفي عليهم ألقاب البطولة والحكمة والرأي وحسن السياسة والتدبير!! ، بيد أن التاريخ بما يحفظه من حقائق يصحح مثل هذه الأمور، ويزن الرجال بما قدموه لخدمة أمتهم وعقيدتهم من الخدمات الحقيقية لا الدعائية، والأمثلة على هذا كثيرة لا تحتاج إلى عناء البحث.

[٩] يعين على فهم الواقع :

لا شك أن من ثمرات دراسة التاريخ أنها تكسب الدارس فهماً للواقع والحاضر

---

(١)انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية (٣٥/ ١٢٩).

(٢)رسالة تحت عنوان «رأس الحسين» لابن تيمية (١٦٧-١٦٨).

وتمده بالمقدرة على تحليل واقعه ودراسته، لأنه كما قيل في الأمثلة العربية: (ما أشبه الليلة بالبارحة)، وعند الإنجليز يقولون: (التاريخ يعيد نفسه)!! ، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم من وحدة التصرفات عند تشابه الأقوال والبواعث عند قوم ما، قال تعالى: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ [البقرة: ١١٨].

وقال تعالى: ﴿ **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ** ﴾.

[غافر: ٥].

وقوله تعالى: ﴿ **كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ** ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣] فهم لم يتواصَوْ بتكذيب الرسل فحسب، لذا صح القول: بأن كثيراً من القضايا المعاصرة لها جذور تاريخية بعيدة، فلذلك لابد لنا من معرفة الماضي البعيد وربطه بالحاضر القريب لكي نفهم ما يدور حولنا ونتفادى مشاكل حاضرنا بأقل خسائر ممكنة..

[١٠] معرفة القرون الفاضلة:

لا يخفى أن معرفة القرون الفاضلة التي قال فيها رسول الله ﷺ: [**خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**] [١] فمعرفة أهل القرون ومعرفة سماتهم وخصائصهم، وتراجمهم، وأخبارهم في طلب العلم والجهاد، وفي الزهد والعبادة، وفي كيفية بناء الدولة الإسلامية، وفي نشر العدل، ودفع الظلم إلى غير ذلك من أحوالهم ورؤية النماذج الكثيرة الممتازة التي تعد بالآلاف، والتي قامت بتطبيق شرع الله في الواقع العملي، **كذلك فإن ثمرة هذه المعرفة تتضح في جانبين هامين:**

(١) متفق عليه: انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (٣ / ١٨١).

الفصل الثاني

أهمية المنهج في الدراسات التاريخية

لقد تقرر في علم اللغة العربية بأن مدلول كلمة النهج، والمنهج، والمنهاج، كلها متحدة في معنى واحد، وهذه المدلولات اللغوية: تعني الطريق الواضح البين، كما نص على ذلك الجوهري: (يقال: أنهج الطريق، أي: استبان وصار شيئاً واضحاً بيناً، ونهجت الطريق. أيضاً إذا سلكته، وفلان يستنهج سبيل فلان، أي: يسلك مسلكه) (١) .

فإذا كان ذلك معنى كلمة المنهج لغة، فمعناها اصطلاحاً: هو السبيل الفكري والخطوات العملية التي يتبعها الباحث في مساره العلمي بقصد تحصيل علم معين، وقد كان علماء المسلمين في القرون الأولى يعبرون عن المنهج بالأصول والقواعد، ولذلك وضعوا أصولاً وضوابط للبحث في مختلف العلوم مثل أصول الحديث (المصطلح) وأصول التفسير، وأصول الفقه وما إلى ذلك، أما المنهج ودلالته في الدراسات التاريخية، سواء بالكتابة والتأليف أم بالدراسة والتعليم، وهذه الشروط تتناول الكتاب ذاته والكتب التي يستمد منها علومه، كما أنها تعني بالغاية والهدف من الدراسة والكتابة، وتعني كذلك بالأسلوب والمصطلحات التي يستعملها، وهنا لابد من ملاحظة الفرق بين نوعين من دلالة كلمة (المنهج) وتحديد المراد بها، فقد تطلق ويراد بها التصورات، والقيم، والمبادىء التي يلتزمها الباحث في بحثه أوكلامه، كما أنها تطلق ويراد بها طريقة معينة في البحث العلمي لمادة من المواد العلمية، لذلك فإن لفظة المنهج وحدها إذا أطلقت تعني الطريق أو السبيل، ولكن يحدد المراد منها ما تضاف إليه، فإذا

---

(١) الصحاح، للجوهري (١/ ٣٤٦) مادة: نهج.

قلنا المنهج الإسلامي في دراسة التاريخ ، يدل ذلك على التصورات، والمبادىء والمفاهيم المنبثقة من الإسلام ، أما إذا قلنا منهج البحث التاريخي، أو منهج إثبات الحقائق التاريخية، فإنه يعني القواعد والطرق التي اصطلح على وضعها بغرض الإعانة على الوصول إلى صحة المعلومات ، والتأكد من صوابها، فيصبح المنهج بهذا المعني الأخير: أداة بحث يمكن استخدامها – إلى حد ما – من قبل مجموعة من الباحثين وإن اختلفت مناهج حياتهم، وعقائدهم، وتصوراتهم.

لا يخفى أن كلمة المنهج بالمعنى الأول ليست على إطلاقها، فإنها عند المسلم محكومة بالتصور الإيماني، والالتزام العقدي، ومقوماته، وقيمه، وتصوراته عن الله، والكون والحياة، والإنسان ونشأته ، ووظيفته في هذا الكون وغاية وجوده ومصيره، لذلك لابد للباحث المسلم من الالتزام بالمنهج الإسلامي وفق القواعد الشرعية والأصول العلمية، في منطلقاته، وتصوراته، وطريقة بحثه حتى يخدم بكتابته الإسلام بنشر مبادئه الصحيحة في العقيدة، وقيمه التربوية والخلقية في أوساط البشرية التائهة، وبتلك الأسس يستطيع المسلم أن يزن أعمال المؤرخين والباحثين في تفسيرهم للتاريخ، والحوادث، والمواقف العامة والخاصة!! .

وهذا المفهوم العقدي للمنهج والالتزام به في تلقي العلم ومناهج البحث والدراسة، هو مفرق الطريق بين الباحث المسلم وغير المسلم، فالباحث المسلم ينطلق في بحثه عن الإنسان وحركته وتفسير تاريخه من منطلقات علمية وشرعيه ثابتة.

أما الباحث غير المسلم فإنه لعدم إيمانه بالله – سبحانه – وبرسوله ﷺ يفسر الوجود وحقيقة الربوبية والعبودية لله ، ووظيفة الإنسان ودوره ومصيره، بالظنون والأوهام ويرجم بالغيب بدون دليل، ولذلك يكثر بين الباحثين الذين لا يؤمنون بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً، الاختلافات الحادة، ويعيشون دائماً في اضطرابات وحيرة وشك، وفي صراع نفسي، وتشتت ذهني لا يصل

بهم إلى معرفة الحقائق على حقيقتها!! ولا شك أن كل هذه الأعراض والأمراض ذات تأثير مباشر على دراساتهم!! ومن أمثال هؤلاء، أولئك الشاردون عن منهج الله – سبحانه – ذلك المدعو إيليا أبو ماضي، الشاعر النصراني حين قال:

جئت لا أعلم من أين ... ولكني أتيت
ولقد أبصرت ... قدامي طريقاً فمشيت
وسأبقى سائراً إن شئت ... هذا أم أبيت
كيف جئت كيف أبصرت ... طريقي لست أدري!!

إلى أن قال هذا الشارد عن منهج الله:

ألهذا اللغز حل أم سيبقى أبديّاً ... لست أدري
ولماذا لست أدري ... لست أدري !![1]

فهو بهذه الأبيات يصور لنا حالة الضياع والقلق ، والحيرة والشرود التي يعيشها هو وأمثاله من أبناء عصره الذين لا يؤمنون بالله رباً ، ولا بالإسلام ديناً، ولا بمحمد ﷺ رسولاً !! .

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله، حاكياً عن تجربة خاضها بنفسه في هذا المضمار بقوله: «ويختفي شعور كالشعور الذي عشته في فترة من فترات الضياع والقلق، قبل أن أحيا في ظلال القرآن وقبل أن يأخذ الله بيدي إلى ظله الكريم، ذلك الشعور الذي خلعته روحي المتعبة على الكون كله، فعبرت عنه بقول:

وقف الكون حائراً أين يمضي؟ ... ولماذا وكيف لو شاء يمضي؟
عبث ضائع وجهد غبين ... ومصير مقنع ليس يرضي

فأنا اليوم – ولله الحمد والمنة – أعرف أنه ليس هناك جهد غبين، فكل جهدي

---

(١) عبد اللطيف شرارة، إيليا أبوماضي،و مختارات من شعره، (٢١٥).

مجزي عليه، وليس هناك تعب ضائع، فكل تعب مثمر، وأن المصير مُرْضٍ ، وأنه بين يدي عادل رحيم، وأنا أشعر اليوم ولله الحمد والمنَّة ، أن الكون لا يقف تلك الوقفة البائسة أبداً، لأن روح الكون تؤمن بربها، وتتجه إليه، وتسبح بحمده، والكون يمضي وفق ناموسه الذي اختاره الله له في طاعة، وفي رضاً وفي تسليم، وهذا كسب ضخم في عالم الشعور والتفكير، كما أنه كسب ضخم في عالم الجسد والأعصاب فوق ما هو كسب ضخم في جمال العمل، والنشاط، والتأثر والتأثير» (١) .

وإنك لتجد في أبحاث الأوروبيين عن الحياة والإنسان ضروباً من التخمين والخبط والقول دون دليل، فهذا الدكتور (هـ. جـ. ويلز) صاحب كتاب « معالم التاريخ الإنسانية » يخصص الجزء الثاني من كتابه في البحث عن كيفية تكوين الإنسان، ومراحل تطوره!! فيبحث في القردة، وأشباه الإنسان (تالي النياندر) وإنسان العصر الحجري والعصر الجليدي على أساس أن هذا الإنسان الذي عاش هذه الحقبة من الزمن غير الإنسان المعاصر في تكوينه الجسمي والعقلي، وفي مداركه وعواطفه إلى آخر هذه الأحكام التي لا دليل عليها، والحقيقة هي أن أول البشر هو آدم عليه السلام، و الله خلقه بيده - تبارك وتعالى - ومن تراب ونفخ فيه من روحه وجعله في أحسن تقويم وعلمه الأسماء كلها وأسجد له الملائكة.

ومن المؤسف حقاً أن يكون هذا البحث الذي يعتمد على الظنون والأوهام ويعرض عن الوحي الرباني ويأخذ أدلته عن نشأة الإنسان من الحفائر والهياكل العظمية والجماجم الحيوانية، هو طريق كثير من الباحثين المسلمين الذين كتبوا فيما يسمي بفلسفة التاريخ!! .

واعلم رحمك الله: أنه لا يكفي في الدراسات الإسلامية على مختلف

---

(١) في ظلال القرآن (٦ / ٣٣٥٢).

أنواعها لكي يصل الباحث فيها إلى الحق والصواب أن يتبع الطرق المنهجية فقط!! بل لابد مع ذلك من توفر شروط نفسية وإيمانية في الباحث، لأن الباحث المسلم الواعي بدينه ، العارف بمقاصده واهدافه يتميز عن غيره بأن تصوراته وأهدافه وقناعته الفكرية متلقاة من مصادر ربانية، وبذلك تكون نتائج دراساته أقرب للعدل والصواب قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** ﴾ [الحديد: ٢٥] .

فالكتاب الذي جاءت به الرسل هو الذي يتلقي منه الحق والعدل، ويقام على منهجه القسط في الأرض بين الناس، ولا يكون الحق والقسط في غير كتب الله ووحيه المنزل على رسله [١] .

لذلك فإن من لوازم المنهج الإسلامي في كتابة التاريخ أن يكون المشتغل بعلم التاريخ الإسلامي وتفسير أحداثه ذا تصور سليم وعقيدة صحيحة، ودراية بعلوم الشريعة ومقاصدها، إضافة إلى تخصصه التاريخي وتمكنه من ذلك، وإلا لأصبح التاريخ الإسلامي ألعوبه لمئات المناهج والأهواء!!، لأن هذا التاريخ هو في الحقيقة تاريخ عقيدة ذات تصورات وأحكام ثابتة مستمدة من مصدر صادق وثيق من وحي العليم الخبير القدير الحكيم السميع البصير المحيط علمه بما كان ومايكون: ﴿ **هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ [الحديد: ٣]، فالالتزام بالمنهج الإسلامي في الكتابة التاريخية ضرورة علمية ، ومصلحة إنسانية ، ووظيفة شرعية !! .

يقول الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - :

« إنه لمن الصعب التصور بإمكان دراسة الحياة الإسلامية كاملة دون إدراك كامل لروح العقيدة الإسلامية ؛ وإدراك التصور الإسلامي عن الله والكون والحياة

---

(١) راجع: تفسير الآية[٢٥] من سورة الحديد، في ابن كثير.

والإنسان ولطبيعة استجابة المسلم لتلك العقيدة ، وهذه الخصائص لا يوجد عند غير الباحث المسلم الملتزم بإسلامه » [١] .

إنه من مصلحة الإنسانية عموماً أن يتولي كتابة تاريخها وتفسيره بمنهجية علمية أصحاب العقيدة الإسلامية الحقة، لأنهم ينظرون بمنظار هذه العقيدة الشاملة في نظرتها للحياة وللإنسانية، والتي لا تقبل تفرقة بين السلوك العملي وبين الاعتقاد القلبي، والباحث المسلم أولي بتفسير التاريخ البشري كله فضلاً عن تاريخه الإسلامي، وذلك أنه يملك المنهج السليم الذي يزن به كافة الأشياء والقيم وأحداث التاريخ، كما لا يخفي أن ترك الالتزام بالمنهج الإسلامي في كتابة التاريخ يوقع الباحث في أخطاء كبيرة تزل بها الأقدام، فهذا محمد عبد الله عنان المؤرخ المصري كاتب من أبناء المسلمين مشهور بدراساته التاريخية يجعل هذا العنوان (أساطير دينية توجه سير التاريخ) !! ، ففي أحد فصول كتاب له سماه « مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام »، أنكر في هذا الفصل ثلاث قضايا مهمة من قضايا العقيدة وهي : المهدي، ونزول عيسي ابن مريم عليه السلام في آخر الزمان، ويوم القيامة!! ، وجعلها من طائفة الأساطير وعرضها عرضاً فيه سخرية واستهزاء بالمؤمنين بها، ولم يفرق بين الكذابين المستغلين لجهل الغوغاء وبين حقائق هذه القضايا العقدية الثابتة بنصوص الشرع، وإجماع الأمة المسلمة سلفاً وخلفاً !! .

وبعد، فلا ريب أن من أولويات القواعد المنهجية وبدهياتها عدم إنكار القضايا العقدية وغيرها من المجمع عليها بسبب وقوع انحراف عند بعض الناس في تطبيقها ، لأن الانحراف لا يعالج بانحراف آخر ، وإنما يعالج الانحراف بإصلاحه ، وإيضاح الحق وتعرية الباطل وكشفه ، فإذا وجدنا من يستغل الأحاديث الواردة في المهدي - مثلاً - فيدعي لنفسه المهدية لغرض سياسي، أو

---

(١) في التاريخ فكرة ومنهاج (٤٦) .

اقتصادي، كما حدث ذلك في الواقع التاريخي عندما ادعي العبيديون أن عبيد الله بن ميمون القداح هو المهدي !! ، وكذلك ادعي محمد بن تومرت المغربي ذلك وغيرهم كثير !! .

لذلك نقول: بأن العلاج الصحيح لفهم تفسير التاريخ ليس بإنكار النصوص الصحيحة والإجماعات الصريحة، ووصفها بالأساطير، ورميها باللامعقولية !! كلا. بل يكون بإحقاق الحق وإبطال الباطل ، واتباع الأمانة المنهجية العلمية في ذلك.

والمنهجية الإسلامية منهجية ملتزمة لتمسكها بالفضائل الخلقية ، وأصيلة لاستقلالها عن غيرها من المناهج واستمدادها من الأصول الشرعية ورجوعها للمصادر الأصلية ، ومن شأن هذه المنهجية الأصيلة والملتزمة أن تقي الباحث - بعون الله - من الانحراف والزلل وتصحح له رؤيته، وتُقِّوم أحكامه ونتاجه، حتى وإن وقع في خطأ مما لا يسلم منه بشر غير معصوم فإنه سرعان ما يرجع عنه عندما يكتشف ذلك، أو ينبه عليه، فلابد لمن يشتغل بكتابة التاريخ الإسلامي، وتفسير حوادثه، أن يكون مسلماً ملتزماً بعقيدة « **ما أنا عليه وأصحابي** » [(١)] ، عالماً بشريعة الإسلام وأحكامها .

---

(١) حديث صحيح ، سبق تخريجه (ص ٤٣) .

المبحث الأول

مصادر طرق إثبات الحقائق التاريخية

لقد اعتني علماء المسلمين بوضع قواعد وضوابط يعرفون بها صحة المرويات واتبعوا منهجاً دقيقاً في نقدها، وينبغي للمؤرخ المسلم أن يطلع على ذلك ويستفيد منه في دراساته التاريخية، والمصادر المهمة في هذا الشأن، هي كتب (مصطلح الحديث) أو (أصول علم الحديث) وأسس هذا العلم موجودة في الكتاب العزيز في مثل قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا** ﴾[الحجرات: ٦] .

وفي السُنَّة المطهرة في مثل قوله ﷺ : « **نضَّر الله آمرأً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمع، فَرُبَّ مُبلَّغٍ أوعي من سامع** »(١) ففي قوله ﷺ : «**كما سمع** » نص في دقة التحري.

وكان الخلفاء الراشدون أول من سَنَّ للمحدثين التثبت في الرواية واحتاطوا في قبول الأخبار (فقد جاءت الجدة إلى أبي بكر تلتمس أن تورث، فقال: ما أجد لك في كتاب الله شيئاً وما علمت أن رسول الله ﷺ ذكر لك شيئاً، ثم سأل الناس، فقام المغيرة فقال: « حضرت رسول الله يعطيها السدس ، فقال له: هل معك أحد؟ فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك فانفذه لها » (٢) ، وكذا روي عن عمر بن الخطاب موقف مشابه مع أبي موسي الأشعري (٣) ، ومن هنا ظهر علم نقد الأخبار والسؤال عن الرجال الرواة، فدونت أخبارهم ورحلاتهم وسنين

---

(١)رواه الترمذي في كتاب العلم (٥ / ٣٤) وقال: حسن صحيح

(٢)تذكرة الحفاظ: للذهبي (١ / ٢)

(٣)المرجع السابق (١ / ٦)

ولادتهم ووفياتهم، وشيوخهم وتلاميذهم، ليعرف المتصل والمنقطع من الأسانيد، وظهر كذلك علم الجرح والتعديل وهو الكلام في عدالة الرواة لمعرفة الثقة من غيره، كما دونوا علم علل الأحاديث سواء علل الأسانيد أو علل المتون، وقد دون العلماء هذه القواعد وظهرت في كتب خصصت لهذا الشأن مثل كتاب المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، للقاضي أبي محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي المتوفى(٣٦٠هـ) (١) وكتاب معرفة علوم الحديث، للحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، المعروف بابن البيع، المتوفيسنة ٤٠٥ هـ (٢) وكتاب الكفاية في علم الرواية للإمام الحافظ أبي بكر الخطيب البغدادي، المتوفي سنة (٤٦٣ هـ) (٣)، وكتاب الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع للقاضي عياض اليحصبي البستي، المتوفيسنة ٥٤٤ هـ ، وكتاب علوم الحديث للحافظ أبي عمرو عثمان بن صلاح الدين الكردي المتوفيسنة (٦٤٣ هـ) (٤) فهذه الكتب وغيرها تبين طرق نقد الأخبار وكيفية الموازنة والترجيح بينها عند التعارض، كما أن علماء الجرح والتعديل قد قاموا بجهد في هذا الميدان من أمثال الإمام علي بن المديني المتوفىسنة (٢٣٤ هـ) (٥)، وسيد الحفاظ يحيى بن مَعين المزني المتوفىسنة (٢٣٣ هـ) (٦)، وأحمد بن حنبل المتوفىسنة (٢٤١ هـ)، والبخاري المتوفىسنة (٢٥٦ هـ) ، وأبي حاتم الرازي المتوفىسنة (٢٧٧هـ) (٧) وأبي زرعة المتوفىسنة (٢٦٤ هـ) (٨) ،حيث تكلموا في الرجال وفي نقد متون الأحاديث وبيان عللها. ودونوا ذلك في مؤلفات خصصت لهذا الشأن فكتب الإمام البخاري ثلاثة كتب هي التاريخ الكبير، والتاريخ الأوسط، والتاريخ

---

(١) المرجع السابق(٣ / ٩٠٥) .
(٢) المرجع السابق(٢ / ١٠٣٩)
(٣) المرجع السابق(٣ / ١١٣) .
(٤) المرجع السابق(٤ / ١٣٠٥)
(٥) المرجع السابق(٤ / ١٤٣) .
(٦) المرجع السابق(٢ / ٤٢٨)
(٧) المرجع السابق(٢ / ٥٦٧) .
(٨) المرجع السابق(٢ / ٥٥٧)

الصغير، والإمام ابن أبي حاتم دوَّن كلام أبيه ، وأبي زرعة في كتاب سماه الجرح والتعديل، وابن معين له كتاب دونه تلاميذه باسم تاريخ ابن معين (١) وكذلك ابن حنبل مروي عنه كتاب العلل، وأيضاً علي بن المديني له كتاب في علل الحديث (٢) ، وقد كتب كل من محمد بن سعد، وخليفة بن خياط كتاباً في الطبقات، كما كتب ابن حبان البستي المتوفى سنة (٣٤٥ هـ) (٣) كتاباً في الثقات، وكتاباً في المجروحين من المحدثين. وأيضاً كتب الخطيب البغدادي كتاباً جامعاً في أسماء العلماء والرواة الذين نشأوا في بغداد أو وردوا عليها أثناء رحلاتهم العلمية، كما كتب ابن عساكر المتوفى سنة (٥٧١ هـ) (٤) كتاباً مماثلاً سماه تاريخ دمشق.

وهناك كتب تخصصت في الترجمة للرواة الذين وردت أسماؤهم في الكتب الستة ، مثل الكمال في أسماء الرجال لعبد الغني المقدسي ، المتوفى سنة (٦٠٠هـ) (٥) ، وتهذيب الكمال للحافظ المزي المتوفى سنة (٧٤٢هـ) (٦) ، وتذهيب التهذيب للحافظ الذهبي، وتهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر.

وخصصت بعض الكتب لأسماء الضعفاء من الرواة من أكثرها تداولاً كتاب ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي، وكتاب لسان الميزان لابن حجر العسقلاني. فكل هذه الكتب وغيرها مما لم نذكرها – لأننا لا نقصد الاستقصاء – لازمة للمؤرخ ومعينة له على نقد الروايات والترجيح بينها، ومعرفة صحيحها من سقيمها، أما كتب التاريخ الإسلامي المتخصصة سواء كانت مصادر أولية مثل السيرة النبوية لابن إسحاق، ومغازي الواقدي، وفتوح البلدان

---

(١) كتاب التاريخ ليحيى بن معين بتحقيق الدكتور أحمد محمد نور سيف.

(٢) العلل ومعرفة الرجال بتحقيق الدكتور مصطفى الأعظمي.

(٣) تذكرة الحفاظ(٣ / ٩٢٠).

(٤) المرجع السابق(٤ / ١٣٢٨).

(٥) المرجع السابق(٤ / ١٣٧٢).

(٦) المرجع السابق(٤ / ١٤٩٨).

للبلاذري ، وفتوح الشام لابن إسماعيل الأزدي، وفتوح مصر لابن عبد الحكم، وكتاب تاريخ خليفة بن خياط، والأخبار الطوال للدينوري، وتاريخ الأمم والرسل لابن جرير الطبري ، وجمهرة النسب للكلبي، ونسب قريش لمصعب الزبيري .

أو كانت مصادر ثانوية، فإنها تحوي مادة ومعلومات تاريخية تحتاج إلى نقد وغربلة لمعرفة الصحيح من الزائف ، فهي مصادر في المعلومات التاريخية وليست مصادر في الأخبار.

المبحث الثاني
مصادر تفسير الحوادث والحكم عليها

لما كان منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتفسير حوادثه يعتمد في أصوله على التصور الإسلامي، ويجعل العقيدة الإسلامية ومقتضياتها هي الأساس في منطلقاته المنهجية، وفي تفسير حوادثه والحكم عليها، لذا يمكن القول بأن مصادر منهج كتابة التاريخ الإسلامي في هذا الجانب هي نفس مصادر الشريعة: القرآن، والسُّنَّة، والإجماع، والقياس.

يعلل ذلك الدكتور أكرم ضياء العمري بقوله: (لأن التفسير الإسلامي للتاريخ منبثق من تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان ، فهو يقوم على الإيمان بالله تعالى، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى، فهو لايخرج عن دائرة المعتقدات الإسلامية كما أنه مبني على دوافع السلوك في المجتمع الإسلامي الأول مما يجعل حركة التاريخ الإسلامي ذات طابع متميز عن حركة التاريخ العالمي لأثر الوحي الإلهي فيه) [١] .

لذا ينبغي في تفسير التاريخ الاستمداد من هذه المصادر الشرعية لمعرفة دوافع السلوك في المجتمع الذي نشأ وتكوّن على هدي الشريعة وشكل حياته وتصوراته وفقاً لها وكانت تعليماتها وأوامرها ونواهيها موجهة لكثير من حركاته في الدعوة إلى الله، وفي الجهاد في سبيل الله ، وفي التعليم وفي بناء الدولة ومؤسساتها الإدارية والاجتماعية ، وفي علاقات المجتمع الإسلامي مع بعضه ومع غيره من المجتمعات.

ولكي يكون تفسيرنا لحركة التاريخ الإسلامي صحيحًا وواقعيًّا فإنه يلزمنا

---

(١) إعادة كتابة صدر التاريخ الإسلامي للدكتور/أكرم ضياء العمري (٣)

معرفة وفهم العوامل التي شكلت المجتمع وتحكمت في حركته وبناء تصوراته وثقافته ، وموازنة هذه الحركة التاريخية بالأوامر والنواهي الشرعية، وكم منها متسق مع هذه الأوامر والمتطلبات؟ وكم منها مائل عنها؟ لنعرف مدي الأثر الذي أحدثه الإسلام في حياة المجتمعات الإنسانية ، ولنعرف كذلك قيمة الخسائر التي لحقت بالمجتمع الإنساني من جراء الانحراف والبعد عن شريعة الله، وندرك أيضاً فضل الله ورحمته بهذه البشرية، إذ أخرجهم بهذا الدين من الظلمات إلى النور ومن الجور إلى العدل ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن الشقاء إلى السعادة ومن الخوف والقلق إلى طمأنينة الإيمان وأمنه.

قال تعالى : ﴿ **الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ [إبراهيم : ١] .

فالمنهج الإسلامي في كتابة التاريخ يستمد نظرته ومنهجه من أصول الإسلام ومصادره وهذا سر المفارقة بينه وبين المناهج، ففي مجال تفسير الحوادث التاريخية نجد أنه ليس تفسيراً تبريرياً بل تبرز فيه خصائص الإيمان المستعلي على ما سواه.

يقول الدكتور أكرم العمري في ذلك: (إنه ليس تفسيراً مادياً يحصر المؤثرات على حركة التاريخ البشري في العوامل المادية مثل تبدل وسائل الإنتاج – كما في الفكر الماركسي – أو التفسيرات المعتمدة على أثر البيئة الخارجية – من مناخ وجغرافيا واقتصاد – كما في الفكر المادي الغربي، بل هو يوضح دور الإنسان ومسئوليته عن التغيير الاجتماعي والتاريخي في إطار المشيئة الإلهية) [١] .

لا يخفي أن الرجوع للمصادر الشرعية والتمكن من فهم العقيدة الإسلامية والالتزام بها وإدراك مدي تأثيرها على معتنقيها شروط لازمة للمشتغل بكتابة وتفسير التاريخ الإسلامي، فإذا ما اختل شيء منها أتت الدراسة ناقصة شوهاء

---

(١) المرجع السابق(٣) .

متأثرة بالأحوال الفكرية والاجتماعية المحيطة بالباحث ، ولذلك وقع كثير من الكتاب المعاصرين في أخطاء كثيرة بعضها راجع لتقصيرهم في العودة إلى المراجع الشرعية، وبعضها ناتج عن الغبش في التصور، وعدم وضوح الرؤية بالغزو الفكري الأوروبي .

كما أنهم نظراً لانطلاقهم الخاطىء في فهم الشريعة وفي معرفة معني العبودية لله ولوازمها، تراهم يأخذون في الاعتذار عن التشريعات والنظم الإسلامية ، ويبحثون لها عن سند تاريخي قديم بل يحاولون التقريب والملائمة بينها وبين النظم والتشريعات السائدة في الواقع الجاهلي ، وهذا المسلك قلب للحقائق والواقع ، إذ تكون الجاهلية ، ونظمها كأنها هي الأصل ، والشريعة ينبغي أن تلائمها وتوافقها !! .

وهذا الأسلوب التبريري لما يشرعه الله ناتج كما قلنا من الانحراف التصوري وعدم الاعتزاز والاستعلاء بالإيمان والإسلام ، وذهول عن قاعدة مهمة وهي : **أن الشريعة الإسلامية لا تُستفتى ولا يُطلب منها الحلول لمشكلات نشأت في مجتمع لا يطبق الإسلام .**

إن أسلوب التخريجات لمثل هذه القضايا والأوضاع المخالفة للشرع الإسلامي أسلوب مرفوض، إذ ليس من المعقول أن نطلب من الشريعة الإسلامية حل مشكلات الاقتصاد أو العلاقات الاجتماعية للشعب الأمريكي مثلاً!! لأنه لابد أولاً من قبول العقيدة الإسلامية والتسليم لشريعة الله وحاكميته وسلطانه، ثم هي بعد ذلك التسليم والالتزام، تقوم عوج الحياة على منهاجها لا أن نحاول إبقاء عوج الحياة الجاهلية بتسويغ انحرافها وتبريره بفهم متعسف لنصوص الشريعة.

ومن هنا يتبين لنا أهمية الرجوع للمصادر الإسلامية والتلقي منها والالتزام بأحكامها وأن ذلك يوصل بإذن الله إلى نتائج طيبة .

المبحث الثالث

سمات المنهج العلمي عند علماء المسلمين

لا ريب أن سمات المنهج العلمي عند المسلمين واضحة وجلية ،لذلك نحاول أن نلخصها في عدة نقاط حتى يستفيد منها طلبة العلم في بحوثهم العلمية :

[١] استعمال الدليل والوثيقة بعد التأكد من صحتها .

[٢] حُسن الاستدلال باتباع التنظيم والترتيب الملائم للأدلة مع حُسن العرض وتحرير للمسائل.

[٣] الإيمان بكل ما دل عليه الكتاب والسُّنَّة ومن ذلك الإيمان بالغيب، وبالجزاء والحساب والقضاء والقدر، ورد كل ما خالفهما .

[٤] الأمانة في استقصاء الأدلة وإيرادها مع الجمع والترجيح بين الروايات المختلفة وفقاً للقواعد المقررة مع الاستعانة بأقوال العلماءالثقات .

[٥] بيان المصادر والمراجع التي أخذت عنها مع الضبط المتقن في نقل الأقوال ونسبتها لأصحابها.

[٦] الاعتماد على النصوص الشرعية والحقائق العلمية وعدم الارتباط بالأوهام والطلاسم والظنون والتحرر من ذلك.

[٧] التجرد من الهوى والميل الذاتيين .

[٨] عدم قبول المتناقضات، وتقديم المبادىء على الرجال ولذلك لا يسلمون لما ينقل عن المشايخ وهو مخالف للدين، ويقولون: هو أحد أمرين إما كذب عليهم أو غلط منهم.

[٩] حُسن الأدب مع كلام الله سبحانه وتعالى ومع الأنبياء ـ عليهم السلام ـ والعلماء والابتعاد عن التجريح الشخصي والاقتصار في النقد على بيان الأخطاء.

وبعد:

فهذه هي القواعد العلمية في البحث التي اتبعها المسلمون في كتابتهم ومؤلفاتهم ، وكلها تنطلق من التزامات خلقية ، ومبادىء شرعية، لأن الأمر بالصدق والأمانة ، ومجانبة الهوى ، وترك القول بدون علم ، والوقوف بالعقل عند حدود القدرات البشرية، هو مما يتقرب به المسلم إلى الله ويلتزمه على أنه عبادة مأمور بها.

المبحث الرابع

غاية المنهج في كتابة التاريخ الإسلامي ووسائل تحققه

لا يخفي أن منهج كتابة التاريخ الإسلامي يقوم في جانبه الفكري والتصوري على المبادىء والقيم الإسلامية. ويستمد من التصور الصحيح لقضايا العقيدة والإيمان ، لذلك فإن غايته ووجهته،مرتبطة بغاية العقيدة الإسلامية فهو يسعي لتكميل الغاية الأساسية من خلق الإنسان، وهي تحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى ، بإقامةشريعتة ، وينبغي أن لا يكون تدوينه ودراسته بدون غاية واضحة وهدف يخدم عقيدته وتصوره الإيماني.

إنه لابد أن يربط علمه التاريخي بعقيدته ومنهجه لكي يستفيد من الأحداث التاريخية دروساً وتوجيهات مثمرة، لكي يدرك من خلال الواقع سُنن الله وقدرته وهيمنته على الثمرات التي يرجوها من دراسة التاريخ، فالتزام الباحث بمنهج العقيدة، يرسم له طريقة.التعامل مع الحدث وكيفية معالجته ودراسته وأخذ العظة منه.

وهكذا يتضح لنا أن الارتباط بالعقيدة الإسلامية في تصوراتها وأحكامها هو الغاية الأولي في منهج كتابة التاريخ عند المسلم ، فهو لا يخالف مبدأ ولا حكماً منها، لا ينقاضه لا في كتابته وتدوينه للتاريخ ولا في تفسيره للحوادث.

بل عليه أن يستحضر تلك الأحكام والأهداف حال كتابته، وأن يسترشد بها في الارتباط بالعقيدة الإسلامية والانطلاق منها كهدف وغاية في المنهج التاريخي، كما أن المنهج التاريخي يعتبر وسيلة من وسائل تثبيت العقيدة وتحقيقها في الواقع العلمي ، فالالتزام بينهما وثيق ، ككل عمل المسلم الذي يلتزم بعقيدته ويسعى لتطبيقها في واقع الحياة.

كما أن غاية المنهج الإسلامي في دراسة التاريخ الكشف عن الحقائق التاريخية وإظهارها والقول بالحق فيها ؛ وفقاً للمفاهيم والمقاييس الإسلامية ؛ لأن المسلم مأمور بإظهار الحق ، والقول به حتى ولو كان ذلك ضده أو ضد قومه أو عشيرته أو من يحبهم ، لأن الله لا يقبل منا تزوير الحقائق أو إخفائها ، قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا** ﴾ .

[النساء : ١٣٥] .

وإنما عليه أن يعرض ذلك ولكن في مجاله وبحجمه دون تضخيم لهذه الأخطاء ، أو تشنيع بها ، بل يعرضها باتزان موضحاً الظروف والملابسات التي صاحبت ذلك وأدت إليه ، وعليه أن يوضح الموقف الشرعي في مثل هذه الحالة وفقاً للمقاييس والأحكام الشرعية، كما أن الخطأ يعتبر مجالاً من مجالات التربية والإصلاح حتى لا يتكرر وقوع مثله مستقبلاً . والأسوة في ذلك طريقة القرآن الكريم في عرضه للأحداث التاريخية، فإنه لا يجامل المؤمنين فيخفي ما وقع منهم من أخطاء ، وإنما يذكر ما وقع منهم من خطأ ويعيبه عليهم ويطلب منهم العدول عنه. كما أنه يذكر ما في الجانب الآخر - الكفار - من خير أو شر، قال تعالى موضحاً ما وقع من المؤمنين من المخالفة في غزوة أُحد : ﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٥٢] .

وقال أيضاً سبحانه: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ** ﴾ .

[آل عمران : ١٥٥] .

وقال سبحانه: ﴿ **وْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ**

يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين (٤٧) ﴾ [التوبه: ٤٧] .

ففي هذه الآيات السابقة نجد أن الله سبحانه وتعالى قد ذكر ما وقع من بعض المؤمنين من أخطاء ، ولم يجاملهم بالسكوت على شيء من ذلك ، ولكنه أيضاً لم يشنع عليهم بهذا الخطأ ، ويخفي الجانب الآخر من محاسنهم ، أو يوقعهم في اليأس وعدم إمكانية الإصلاح ، وإنما طلب منهم تعديل الخطأ ووعدهم بالعفو والمغفرة .

قال تعالى مبيناً حال الأعراب ليعلمنا الاعتدال وعدم غمط الحق ، أو إخفاء الباطل : ﴿ **الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم (٩٧) ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم (٩٨) ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم** ﴾ [التوبة: ٩٧ - ٩٩] .

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ **ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما** ﴾ .

[آل عمران: ٧٥] .

وهكذا فالمنهج الإسلامي في دراسة التاريخ منهج وصفي ومعياري ، فهو يصف الحادثة التاريخية ويستكمل جوانبها المختلفة ويتحقق من صحة الوقائع بكافة وسائل النقل وإثبات الحقائق التي يتميز بها منهجه العلمي، ثم لا يكتفي بهذا الوصف والعرض للوقائع التاريخية بعد أن يتحقق من صحتها وإنما يحاول أن يزن هذه الوقائع بمنهجه المعياري وفقاً للمقاييس والمفاهيم والتصورات الإيمانية. فالأحكام الشرعية والمفاهيم الإيمانية هي الميزان المعياري، الذي توزن به الأحداث والأشياء والقيم والنظم قال تعالى : ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط** ﴾ [الحديد: ٢٥] .

وباتباع هذا المنهج في الدراسة تحصل العبرة والتوجيه، وتتحقق الثمرة من دراسةالتاريخ ، وهي تقويم سلوك الإنسان بما يوافق الحق مع بيان خطر الانحراف واتباع الباطل وترك العمل بمنهج الله الحق، ومن الغايات التي يسعي المنهج الإسلامي إلى تحقيقها من دراسة التاريخ هي استخدام الأحداث التاريخية في تحقيق الأهداف التعليمية والتربوية لتقويم مسيرة الأمة، والإسهام في رسم خط سيرها وتحديد ملامح مستقبلها ، وقد قرر القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية في عدة مواضع مبدأ استخدام الأحداث التاريخية وجعلها مجالاً لتربية الأمة الإسلامية ، وقد جعل الزمن كله ماضيه وحاضره ومستقبله ميداناً لهذا الإعداد وهذه التربية، ففي الماضي عرض تاريخ الأمم السابقة وتاريخ الأنبياء والرسل، وبين مواقع تلك الأمم من الدعوة إلى الله ومن رسلهم الذين أرسلوا لهم ثم أوضح نهاية كل أمة من هذه الأمم ، وبين السمات المشتركة في تاريخ هذه الأمم وفي مواقعها من أنبياء الله، وعلى ضوء هذا الموقف من الرسول ورسالته يتحدد الحكم على كل أمة ويعرف مصيرها ونهايتها ، في الحاضر - وقت نزول القرآن - عرض القرآن كثيراً من أحداث السيرة النبوية ومغازي رسول الله ﷺ ، وبين مواقف الناس من الدعوة وأنهم ثلاثة أصناف مؤمن وكافر ومنافق، وقد استخدم الأحداث التي تقع من هذه الأصناف في تربية المؤمنين وإعدادهم وفي كشف أعدائهم ودسائسهم خاصة المنافقين، وهي أحداث عايشوها مباشرة واشتركوا في وقائعها، فعقب عليها القرآن كاشفاً عما في الأحداث والمواقف من الصواب، وما فيها من الخطأ، لكي يأخذ المسلمون الدروس كاملة ويعرفوا أسباب نصرهم وأسباب هزيمتهم.

ومن المعلوم أن التربية بالأحداث المعاصرة أبلغ وأدعي للاستجابة وسرعة التأثير،ذلك أن النفس البشرية تتأثر بالحدث الذي عايشت وقائعة أكثر من تأثيرها بشيء آخر، فيكون استثمارها لهذا التأثير في التربية والتوجيه الصحيح أضمن لسرعة الاستجابة، وفي الزمن المستقبل وعد الله المؤمنين بالنصر والتمكين

في الأرض وجعل لهذا الوعد شرطاً - هو عبادة الله لا شريك له - مما حفز همم المؤمنين وجعلهم يعملون لتحقيق هذا الشرط لتحصل لهم ثمرته في الحياة وقد تحقق على أيدي الجيل الأول من هذه الأمه لما حققوا الشرط المطلوب فأورثهم مشارق الأرض ومغاربها ومكن لهم فيها ، ولا يزال هذا الأمر يتحقق للمؤمنين في مختلف العصور والبقاع كلما حققوا شرطه ، بل إن آيات القرآن وأحاديث رسول الله ﷺ قد أوضحت من معالم المستقبل لما هو أبعد من الحياة الدنيا، وهي الحياة الآخرة ، وما سيكون فيها من الأحداث ، لتوسع نظرة المؤمن للحياة وللزمن وللتاريخ ، فتكون معه زاوية الرؤية أوسع ، والنظر لديه أرحب وأشمل ، وأقدر في الاستيعاب والتحليل.

كما أن الشريعة الإسلامية قد أعطت أحداث آخر الزمان أو الفتن والملاحم، وأشراط الساعة كثيراً من الاهتمام والإيضاح حتى يكون المسلم على وعي تام ومعرفة بهذه الأحداث المستقبلية، وهي أحداث تعطي إشارات وعلامات تذكر المسلم وتحثه على سلوك الطريق السوي، ولذلك لا تفجأه مثل هذه الأحداث أو تعميه عن استبانة طريق الحق، لأن الذي يعلم ويدرك سبب الأحداث ومصدرها يعرف كيفية تفاديها أو مواجهتها. وهذا العلم يعطيه مقدرة على مواجهة المواقف، ويخالف الذي يجهل سبب الأحداث ومصدرها ، فإنه لا يدرك السُنن الربانية ، وتفاجئه الأحداث وهو لا يعرف سببها الحقيقي ، فيورثه ذلك حيرة وقلقاً.

ومن أهم الغايات التي يحققها المنهج الإسلامي في الدراسة التاريخية :

بيان فساد التصورات والعقائد الجاهلية، وتعريتها ببيان تناقضها ليحذر المسلم منها، هذه الغاية مهمة جداً في حياة المسلم ليستقيم تصوره فلا يختلط بشيء من المفاهيم والتصورات الجاهلية؛ لأنه كما قيل: وبضدها تتميز الأشياء، فالتصورات والقيم والمبادىء الجاهلية مضادة للإيمان بالله، ومن مقتضيات الإيمان

بالله البراءة من التصورات الجاهلية والكفر بها قال تعالى: ﴿ **فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى** ﴾ [البقرة: ٢٥٦] .

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

« ينقض عرى الإسلام عروة عروة من نشأ في الإسلام ولم يعرف الجاهلية » ، فمعرفة تاريخ الجاهلية وتصوراتها وقيمها تزيد المؤمن إيماناً وطمأنينة إلى ما عنده من الحق، والمعرفة بمسار الأفكار الجاهلية ودخائلها حصانة ضد الوقوع في شيء منها، ولكن لابد أن يسبق هذه الدراسة معرفة تاريخ الجاهلية ونظمها ، ويصاحبها إيمان بالله صحيح ، واعتزاز بشريعة الله ، وفقهٌ بالحلال والحرام ، وإلا أتت الدراسة محرفة شوهاء.

المبحث الخامس

وسائل تحقيق المنهج

أما الوسائل التي يتحقق بها المنهج في الواقع العملي فهي تقوم على ثلاث ركائز أساسية :

وهي التصور الصحيح المستمد من الشريعة في مصادر ها المتعددة، ثم الرجال الأمناء الذين يحملون هذا التصور ، ويعملون على تحقيقه في واقع حياتهم ودراستهم وتوجيههم وتدريسهم، وفي أخذهم وعطائهم، وفي تحملهم للعمل وأدائهم له فإنه بغير هذا الصنف من الرجال المخلصين لا يتحقق تطبيق المنهج المطلوب في الواقع، لأنه لا يمكن أن يقوم على تطبيق المنهج الإسلامي في الدراسات التاريخية من لا يؤمن بالإسلام أو من لا يعرف التصور الصحيح في الإيمان ولم يدرس الشريعة الإسلامية ويعرف مصادرها وأحكام الحلال والحرام فيها، فالرجال العالمون بالشريعة الصادقون في عملهم هم الذين يحقق الله على أيديهم مثل هذه الأعمال الضخمة الخطيرة، وقد امتدح الله الرجال المؤمنين بقوله : ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ** ﴾ [الاحزاب : ٢٣] .

وبقوله تعالى : ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ** ﴾ [النور : ٣٦-٣٧] .

فالرجال الأمناء المخلصون : هم الوسيلة التي تحقق المنهج في الواقع العملي، وبعد توفر التصور الإيماني الصحيح والعلماء الذين يحملون هذا التصور ويؤمنون به يأتي دور المنهج الإسلامي في الكتابة التاريخية، وإذا لم يكن العمل منظماً ومتبعاً في إعداده المنهج العلمي السليم، فإنه يفقد المنهجية العلمية

السليمة ويفقد العمل كثيراً من مزاياه ، بل دعامة من دعائمه فلا يستطيع الكاتب ولا القارىءتبين المعالم الصحيحة .

وهذه الركائز الثلاثة يكمل بعضها بعضاً ، وإن كان بعضها أكبر وأهم من بعض، فالتصور الصحيح هو القاعدة الأساسية التي لا يتصور وجود عمل سليم مع فقدانها، لأنها هي الحاكمة والمهيمنة على كل ما عداها ، فهي المنطلق الأساسي والمركز المحوري لكافة الوسائل والغايات، وهي في نفس الوقت وسيلة من الوسائل التي يتحقق بوجودها المنهج الإسلامي ، والرجال المخلصون هم الذين يحققون بعلمهم التصور الإيماني في الواقع العلمي والسلوكي ، وخاصة إذا امتلكوا المنهج العلمي السليم وأجادوا تطبيقه في دراساتهم ومؤلفاتهم .

الفصل الثالث

قواعد منهج كتابة التاريخ الإسلامي

المبحث الأول

قواعد في التصور والاعتقاد

[١] الإيمان بوحدة الأمة الإسلامية:

وهذا المفهوم لوحدة الأمة الإسلامية يتبعه وحدة التاريخ الإسلامي على مر العصور ووحدة الحضارة الإسلامية في أطرها ومفاهيمها العلمية. ودارس التاريخ يجب عليه ملاحظة هذه الرابطة المشتركة بين المؤمن بالله على مر العصور فيدرس تاريخهم على أنه وحدة نظراً للاشتراك في المفاهيم والدوافع والمؤثرات التي تساعد على صنع الحدث التاريخي وتشكيله، والذي يقرأ سيرة الأنبياء عليهم السلام وتاريخهم كما ورد في القرآن الكريم يجد التوافق التاريخي والاتحاد في المفاهيم والنظرة للأحداث، وهذا أمر لا يستغرب لأنهم كلهم يصدرون عن مشكاة واحدة ، ويتلقون عن رب واحد ويعودون إلى رسالة واحدة في قواعدها وأصولها، وكذلك تاريخ المؤمنين بالرسل نجد في التوافق فيه هذه المواقف والمفاهيم، وهذا يعبر عن قوانين ثابتة وسُنن لا تتغير في حركة الكون وجري التاريخ الخاضع لمشيئة الله وقدره القائم بالحق .

ويجب علينا دراسة التاريخ على أساس التوزيع العقيدي وأن نبرز وحدة التاريخ الإسلامي بسماته وخصائصه العامة، ونبرز التاريخ الجاهلي بسماته العامة على مدار العصور، وهذا يجنبنا الأخطاء الناشئة من الدراسة على أساس التوزيع الجغرافي أوالعائلي أو الزمني ، والتي تفتت الوحدة العقيدية والرابطة الإيمانية وتأتي بروابط بديلة من الوطن والقيم والإنسانية، وتلوث التاريخ الإسلامي وتصبغه بألوان غريبة عليه وعلى حركته ودوافع أهله وتوجهاتهم السلوكية والفكرية وتسلكه في أطر ضيقة من هذه الحدود المكانية والعائلية .

المبحث الثاني

الحكم الشرعي في المخلفات الحضارية

ومن قواعد التصور والإيمان معرفة القيمة الحقيقية لمخلفات الأمم وآثارها والحكم الشرعي فيها، فالمسلم الذي يستمد تصوره من الكتاب والسُّنَّة ويهتدي بهديهما لابد له وهو يدرس تواريخ الأمم أن يزن آثار هذه الأمم ومخلفاتها التاريخية بالميزان الشرعي يعطيها القيمة الحقيقية على ضوء ذلك الميزان العادل، فلا يغالي في تعظيمها وتقدير ها كما يفعله فريق من الناس، ولا يغمطها حقاً هو لها.

ولقد أرشدنا القرآن الكريم إلى المنهج الذي نتبعه في دراسة الآثار والوقوف عليها، وبين لنا الفائدة التي من الممكن أن نستفيدها من الوقوف على آثار السابقين وعرفنا على القيمة الحقيقية للآثار، فالعلم بتاريخ الأمم السابقة، والتعرف على آثارها لكي يؤتي ثماره لابد أن يقرن بالعبرة والعظة التي تدفع الدارس والمشاهد والباحث إلى تدبر أحوال نفسه وأسرته ومجتمعه، فلا يدعها أو يدعهم يقترفون ما اقترف غيرهم من الآثام، والإعراض عن منهج الله وعبادة ما لم يأذن به الله، فيهلكهم الله بعذاب أليم كما أهلك من قبلهم، لأن العلم بأمر الله وشرعه والنظر الصحيح والاعتبار المثمر في أحوال السابقين وتقلبات الدهر بهم يساعد على تربية الفرد المسلم ليكون لبنة صالحة في بناء المجتمع، أما ما يفعله كثير من الدارسين من الاكتفاء بالوقوف على الأطلال ودراستها دراسة وصفية جافة لا روح فيها، كقولهم: إنهم كانوا يستعملون من أدوات الطبخ كذا وكذا وطريقتهم في الأفراح كيت وكيت، وإنهم كانوا يحرثون بالمحراث الذي نحرث به ... وحرص الاهتمام بالمظاهر الشكلية من قياس الطول والعرض والحجم والمادة المستعملة إلى غير ذلك. إن هذه الدراسة (الأكاديمية) الجافة لا توقظ في القلب

شعوراً ولا تنفخ فيه حياة، ولا تُنير البصائر لتتأمل وتتفكر وتستفيد وتتعرف على سُنن الله وآياته في الأنفس والآفاق، كما أنها لا تتمشى مع المنهج القرآني في عرضه آثار السابقين وطلبه منا أن نسير في الأرض وننظر في سيرنا المستبصر المستفيد، الباحث عن أسباب الدمار الذي حل بأصحاب تلك الآثار: ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ [النمل: ٦٩].

وقال تعالى: ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ** ﴾ [القصص: ٥٨].

فالله يطلب منا أن يكون سيرنا في الأرض وبحثنا عن الآثار ودراستها بغرض إيقاظ القلوب والبصائر وبعث الحياة فيها.

ومناجاة هذه الآثار والأطلال الباقية سماع أخبارها سماع العظة والعبرة، ومشاهدة آثار قدرة الله وعقابه للمجرمين وإنجائه للصالحين، والتعرف على القيم الحقيقية التي تطيب بها الحياة وتعمر، كل ذلك هو سبب النجاة والفوز عند الله.

قال تعالى: ﴿ **فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾.

[الحج: ٤٥-٤٦].

وهذا التأمل في آثار السابقين ينتج عنه اتعاظ يتحول إلى سلوك ونهج علمي في واقع الحياة ملتزم بأمر الله ونهيه، وقد جعل الله ذلك هداية للمستبصرين فقال: ﴿ **أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ** ﴾ [السجدة: ٢٦].

كما أنه قد جعل هذا التأمل والنظر في آثار السابقين في مقام الوعظ البليغ وجعله حجة على الغافلين حين ينزل بهم عذابه فقال تعالى: ﴿ **وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ**

الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤ – ٤٧] .

وفيما يلي نسوق بعض الآيات التي يتبين منها منهج القرآن وطريقته في عرض أخبار السابقين الذين أعرضوا عن منهج الله ، ولفت أنظارنا للاتعاظ والعبرة بالمشاهد الباقية من مخلفات القوم وآثارهم .

قال تعالى واصفاً ما وصلت إليه الحضارات القديمة من التقدم العمراني : **﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾** [الروم : ٩] .

وقال تعالى : **﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾** [سبأ: ٤٥] .

وقال تعالى : **﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾** [الأعراف: ٧٤] .

وقال عن هود عليه السلام : **﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾** [الشعراء: ١٢٨–١٢٩] .

وقال عن قوم فرعون : **﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾** [الدخان: ٢٥–٢٧] .

ولكن لما لم يستقم أصحاب هذه الحضارات ويسيروا على النهج المستقيم ولم يصدقوا الرسل الذين بعثوا إليهم أهلكهم الله ودمرهم وأورث أرض بعضهم قوماً آخرين وبعضها بقيت خاوية خربة لتكون آيه للمعتبرين. قال تعالى بعد أن

ذكر جملة من الأقوام وتكذيبهم لرسلهم وكفرهم بالله : ﴿ **فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ .

[العنكبوت : ٤٠] .

وهذه بعض الآيات التي تدلنا على الشروط في دراسة الآثار والمنهج الذي ينبغي أن يتبع في الدراسة ويوضح لنا القيمة المستفادة منها وهي العظة والاعتبار بما أصاب أصحاب هذه الآثار من الدمار والهلاك لما أعرضوا عن عبادة الله وتحكيم شريعته وأن هذه من سُنن الله الثابتة في كل من يعرض عن شريعته ويتبع هواه .

المبحث الثالث

الفهم الصحيح للقضاء والقدر

ومن القواعد المهمة في منهج كتابة التاريخ الإسلامي الفهم الصحيح لعقيدة القضاء والقدر، وهذه القاعدة الإيمانية قد انحرف التصور الصحيح لها عند كثير المسلمين المتأخرين فمنهم من أنكر ذلك وتنقص المؤمنين به، ومنهم من فهم القضاء والقدر على أنه تواكل وخمول واستسلام مذل. وكلا الموقفين انحراف ومجانبة للصواب فالإيمان بالقضاء والقدر وبعلم الله وتقديره لما كان وما هو كائن أمر لازم ولا إيمان لمن لم يؤمن به ، إذ هو من أركان الإيمان: « **تؤمن بالقدر خيره وشره** » (١) .

فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وخلق أفعاله: ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ [الصافات:٩٦]، فكل أحداث البشرية وأعمالها قد كتبت في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض، ولن يحدث في الكون كله فضلاً عن الأرض شيء يخالف سُنَّته وقدره لما ثبت في الحديث الصحيح: [**إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، قال: رب وماذا أكتب؟ ، قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**] (٢) .

وفي الحديث الآخر: [**أن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات فيكتب علمه وأجله ورزقه وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح..**] (٣) .

---

(١) رواه مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في كتاب الإيمان: باب وصف جبريل عليه السلام للنبي ﷺ الإسلام والإيمان رقم(٨) .

(٢) رواه أبو داود من حديث عبادة بن الصامت(٤ / ٢٢٥) رقم(٤٧٠٠) .

(٣) **متفق عليه**: انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان(٢ / ٢٠٧) .

فهذه الحقائق لابد من إدراكها والإيمان بها واستحضارها عند مطالعة الحوادث التاريخية لأن الإيمان بها هو أحد عناصر التقويم والحكم على الحادثة التاريخية فمثلاً انتصار المسلمين على الروم في معركة اليرموك. لو أردنا أن نبحث عن الأسباب التي أدت إلى هذه النتيجة رغم أن القوتين غير متكافئتين لا في عدد الجيش، ولا في نظام التدريب ولا نوعية السلاح وكثرته.

فعدد الروم سبعة أضعاف عدد المسلمين، وجيش الروم جيش نظامي مدرب وجيد التسليح بينما الجيش الإسلامي قليل الأسلحة ضعيف التدريب ويقاتل بعيداً عن مركز خلافته، ومع ذلك حصل له الانتصار، فلو بحثنا في الأسباب المادية المنظورة بحثاً عقلياً مجرداً لما استطعنا أن نقبل نتيجة المعركة مما يضطرنا إلي رد هذه الأخبار الواردة بهذه المعلومات، أما إذا بحثنا المسألة من زاوية نظر أوسع وهي أن الأمر ليس أسباباً لابد أن تتبعها نتائجها إنما هناك قدر ومشيئة وخالق يدبر ، يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء.

وأن الأسباب وحدها لا تؤدي إلى نتيجة إلا بقدر الله وتوفيقه ، عند ذلك نقبل مثل هذه النتيجة ، ولا نستغربها ، فالمسلم الذي يؤمن بقضاء الله وقدره وبمشيئته سبحانه المطلقة لا ينظر إلى التاريخ على أنه قوالب جامدة من الأسباب والمسببات، بل يدرك أنه ربما تكتمل الأسباب المادية في عمل من الأعمال أو معركة من المعارك ومع ذلك لا تأتي النتائج.

وبهذا يتضح لنا أنه لكي يكون الحكم على الحادثة التاريخية صحيحاً مستكملاً لعناصره لابد من الفهم الصحيح لعقيدة الإيمان بالقضاء والقدر وأنها لا تعني ترك التكاليف الشرعية، وترك الأخذ بالأسباب المقدورة والاستعداد بكل الوسائل المستطاعة وبذل الجهد في تحصيلها ، ولا يجوز لأحد أن يترك العمل احتجاجاً

بالقدر، لأنه لا حجة في ذلك، فما يقع من الأقدار هو في الحقيقة أمر غيبي بالنسبة لنا، ولذلك قال العلماء: (القدر سر الله في خلقه) [١] ، وقد نُهي المسلمون عن الجدال في القدر، وورد في الحديث: « **إذا ذكر القدر فأمسكوا** » [٢] .

(فالتكاسل وترك العلم ليس مما يوجبه الرضا بالقضاء والقدر كما أن الاعتماد على الأسباب وحدها هو قطع الصلة بالمسبب والفاعل الحقيقي)، و(بسبب الانحراف في مفهوم القضاء والقدر وقع جملة من الكتاب المعاصرين في أخطاء شنيعة في تقديرهم للدولة الأموية والحكم عليها حيث قالوا: إن الدولة الأموية شجعت الاتجاه نحو الجبر والإرجاء وقالت: إن الأعمال لا تجوز معارضتها لأن من يعارضها يعتبر منكراً للقدر إذ لو أراد الله غير ذلك لكان) (ومن أمثال ذلك أحمد أمين في كتاب ضحى الإسلام وشاكر مصطفى في كتابه دولة بني العباس، والدكتور عفت الشرقاوي في كتابه أدب التاريخ عند العرب) .

وقد أطلق هؤلاء الكتاب هذا القول دون أن يوردوا عليه دليلاً، وهذا يرينا مدى التشويه الذي يلحق تفسير حوادث التاريخ الإسلامي عندما توضع في منظور غير إسلامي وعندماتنحرف المفاهيم والتصورات، وهذا الفهم الذي ذهبوا إليه والحكم الذي حكموا به مبني على الجهل بمفهوم القضاء والقدر، وتوهم أن بينه وبين التكاليف الشرعية من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله معارضة، وليس الأمر كذلك كما أوضحنا، كما أن الوقائع التاريخية الثابتة تكذب هذا الادعاء ، فقد قتل كل من غيلان الدمشقي ومعبد الجهني، اللذين أنكرا القدر في ظل الدولة الأموية كما قتل الجعد بن درهم والجهم بن صفوان إمام الجبرية بأمر من الخلفاء الأمويين.

---

(١) **انظر**: منهج كتابة التاريخ الإسلامي (ص ٢٠٠) .

(٢) ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء(٤ / ١٠٨) وقدصححه الشيخ الألباني رحمه الله، انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم(٣٤) .

المبحث الرابع

الإيمان بالغيب

ومن قواعد التصور والاعتقاد المهمة لدراس التاريخ الإسلامي الإيمان بالغيب وهو أحد أركان الإيمان، كما أنه أخص صفات المؤمنين بالله، قال تعالى في أول سورة البقرة: ﴿ **الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ [البقرة: ١ - ٣].

ودارس التاريخ الإسلامي إن لم يكن مؤمناً وصحيح التصور في ذلك فإنه لا يستطيع أن يعطي تقييماً علمياً وواقعياً للتاريخ الإسلامي وحركته الجهادية، لأن المسلم المجاهد عندما يقاتل في سبيل الله يعلم أنه ليس وحده هو الذي يقاتل الكفار وأنه لا يقاتلهم بكثرة عدد الجنود ولا بتفوق السلاح وإتقان الإعداد المادي وحده، وإنما بما ينزله الله عليهم من السكينة ورباطة الجأش والطمأنينة وبما يمدهم به من الصبر وقوة التحمل، وغير ذلك من الوسائل المتطورة وغير المتطورة فأحياناً ينزل الملائكة تقاتل إلى جانبهم كما حدث في معركة بدر وغيرها من المعارك، وأحياناً بما يجريه الله من العوامل الطبيعية كإرسال الريح الشديدة التي فرقت الأحزاب عن المدينة، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا** ﴾.

[الأحزاب: ٩].

وقال ﷺ: « **نُصرت بالرعب وأُهلكت عاد بالدَّبور** » (١).

وأحياناً يجريه الله على أيدي بعض المؤمنين من الكرامات كما جرى لعمر بن الخطاب في قصة سارية بن زنيم قال ابن حجر: إن سارية له صحبة (٢).

---

(١) **متفق عليه**: انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٢/ ٢٠)، ومسلم (٢/ ٦١٧).

(٢) الإصابة لابن حجر (٣/ ٥٠٧).

وقد روي هذه الحادثة ابن جرير الطبري في تاريخه في حوادث سنة (٢٣ هـ) عن فتح (فسا ودار بجرد) وقال: وكان عمر قد رأي المسلمين في المنام وأنهم بصحراء وأن العدو سيحيط بهم إن أقاموا بها فنادي في الناس الصلاة جامعة فأخبر الناس بما رأي ثم نادي: «يا سارية الجبل الجبل» وقال: إن لله جنوداً ولعل بعضها أن يبلغهم فما كان من سارية إلا أن أجمع هو ومن معه من المسلمين على الإسناد إلى الجبل ففتح الله لهم وهزم عدوهم [١].

وقال ابن كثير - رحمه الله -: إنها رويت بإسناد جيد حسن [٢].

وكما في كتابة البطاقة إلى نهر النيل [٣] عندما توقف فيضان الماء وكان له سُنَّة عند القبط وهي تقديم جارية بكر «عروس النيل» تلقي فيه فيجري.

ولما أرادوا إلقاءها بعد فتح المسلمين لمصر قال لهم عمرو بن العاص رضي الله عنه: إن هذا الأمر لا يكون في الإسلام، لأنه يهدم ما قبله، وكتب الخبر إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال في هذه البطاقة: «من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر».

أما بعد فإن كنت تجري من قبلك فلا تجري، وإن كان الله الواحد القهار هو مجريك، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك. فلما ألقاها عمرو فاض النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة.

وكما حدث لعقبة بن نافع الفهري الذي بني مدينة القيروان، روي ابن الحكم صاحب كتاب فتوح مصر والمغرب قال: حدثنا عبد الملك بن مسلمة حدثنا الليث بن سعد أن عقبة بن نافع غزا إفريقية، فأتي وادي القيروان فبات عليه هو وأصحابه حتى إذا أصبح وقف على رأس الوادي، فقال: ياأهل الوادي اظعنوا فإنَّا نازلون، قال ذلك ثلاث مرات، فجعلت الحيات تنساب والعقارب وغيرها مما يعرف من الدواب تخرج ذاهبة، وهم قيام ينظرون إليها من حيث أصبحوا حتى

---

(١) الطبري (٤/١٧٨).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (٧/١٣١)

(٣) مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لابن الجوزي (ص ١٧٣) وابن كثير: البداية والنهاية (٧/١٠٠)

أوجعتهم الشمس وحتى لم يروا منها شيئاً، فنزلوا الوادي عند ذلك (١) .

وكما حدث في خوض المسلمين البحر إلى جزيرة دارين بخيولهم وجمالهم وأرجلهم بقيادة العلاء بن الحضرمي وكأنهم يمشون على الرمل فلم تغرق لهم دابة ولا إنسان وقد سجل الشاعر عنيف بن المنذر (٢) هذا الحدث بقوله:

ألم تر أن الله ذلل بحره وأنزل بالكفار إحدى الجلائل
دعونا الذي شق البحار فجاءنا بأعجب من فلق البحار الأوائل (٣)

وأيضاً حدث مثل هذا أثناء فتح المسلمين للمدائن حيث خاضوا بقيادة سعد ابن أبي وقاص ﷺ نهر دجلة، وهي ترمي بالزبد مسودة من كثرة الماء وعمقه.

ودخلوا النهر أفواجاً حتى غطوه من الساحل إلى الساحل من كثرتهم وخرجوا منه أفواجاً ولم يغرق منهم أحد (٤) .

فالذي لا يؤمن بالغيب وأن لله جنوداً كثيرة من غير الإنس يمد بها المؤمنين متى شاء، فإنه لا يستطيع تفسير مثل هذه الحوادث ولا فهمها الفهم الصحيح ، بل تراه إذا جاء خبر من هذه الأخبار إما أن ينكره بالكلية أو يتعسف في تأويله ليخرجه عن دلالته المقصودة، وذلك تهرباً من إثبات المعجزات للأنبياء عليهم السلام والكرامات للمؤمنين الصالحين ، وهؤلاء أصحاب المدرسة العقلية (٥) الذين أقاموا العقل مقام النص الشرعي بل جعلوا العقل حاكماً على النص فيأولون النص ليوافق عقولهم، وقد تلقف المستشرقون فيما يسمونه بالعصور الحديثة أفكار هذه المدرسة ونشروها وعظموا من شأنها لموافقتها لما يحملونه من أفكار مادية تتعارض مع الإيمان بالمغيبات ، وقد جاراهم في هذا كثير من الكتَّاب

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب (ص ٢٦٥) تاريخ خليفة بن خياط (ص ٢١٠)
(٢) الإصابة لابن حجر (١٣٠/٥)
(٣) تاريخ الرسل والملوك، لابن جرير (٣١٠/٣) البداية والنهاية (٣٢٩/٦)
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية (٦٤/٧-٦٦)
(٥) منهج كتابة التاريخ الإسلامي (٢٠٦)

المسلمين في ظل ظروف وتأثيرات معينة حتى من الذين حملوا راية التجديد الإسلامي من أمثال الأفغاني ومحمد عبده ومحمد فريد وجدي ومصطفي عبد الرازق وأحمد أمين وحسين هيكل.

فضلاً عن الكُتَّاب (الليبراليين) الذين تشبعوا بالأفكار العلمانية أثناء بعثاتهم إلى الدول الأوربية، فلم يعد الإسلام في حسهم إلا مجرد تراث حضاري أو تعبد شخصي لا علاقة له بحياة الناس ولا علمهم ولا أنظمتهم، ولذلك لم يراعوا الالتزام به في دراساتهم وأبحاثهم.

بل لقد أثار الكثير منه شبهات وافتراءات لا أساس لها في الفكر الإسلامي الصحيح، وهذه الطائفة (الليبراليون) كان لهم دور في إدارة وتوجيه التعليم في العالم الإسلامي ورسم خططه ومناهجه، وقلدوا في ذلك المناهج والدراسات العلمانية في العالم الأوروبي غربية وشرقية، كما أنهم قد أسهموا بنصيب وافر (مع الأسف) في التأليف عن التاريخ الإسلامي وصياغته بما يتناسب مع الأفكار العلمانية، وقاموا بتفسير حوادث التاريخ الإسلامي تفسيراً يؤكد المذاهب المعاصرة من العلمانية والقومية والاشتراكية والماركسية حتى يوجدوا لها سنداً تاريخياً.

لذلك لا تخلو مولفات مثل هولاء سواء في السيرة النبوية أو صدر الإسلام أو حتى العصور الإسلامية المتأخرة من انحرافات فكرية وجهل بالدراسات الشرعية بل إن بعض ما كتبوه قابل للنقض جملة، فإذا كان هذا حال دراسات أبناء المسلمين فكيف يكون الحال بالدراسات التي أعدها أعداء الإسلام من طوائف الفكر والإلحاد عن تاريخنا الإسلامي؟، إننا مهما افترضنا فيهم من نزاهة علمية وهي غير متوفرة بطبيعة الحال تجاه الإسلام وتاريخه فإن هناك عنصراً مفقوداً وهو توفر الإيمان بالغيب وهو عنصر بالغ الأهمية في تفسير التاريخ الإسلامي [١].

---

(١) انظر: منهج كتابة التاريخ الإسلامي (٢٠٨).

المبحث الخامس

معرفة حق الصحابة وتميز أهل القرون الأولى

الأمة الإسلامية أمة متراحمة مترابطة، تعرف لذوي القدر منزلتهم ولذوي الفضل فضلهم، فتعطي كلا حقه بالقسط والعدل ، وليست كالأمم الجاهلية المفككة الأواصر التي كلما جاءت أمة لعنت أختها ، وكلما جاء جيل إما يجعل المسئولية على الجيل السابق ويتابعه على غير هدى ولابصيرة، كما حكى الله سبحانه عنهم في كثير من الآيات : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠] .

وقال تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ . [الزخرف : ٢٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٣] .

أو يحط من قدر الجيل السابق ، ويتعالى عليه ويفتخر بما حقق من تقدم مادي لم يحصل لذلك الجيل ، والموقف في كلا الأمرين ظلم للجيل السابق وإن بدا في الصورة الأولى وكأنه تقدير وتعظيم ، لأنه تقدير في غير محله ، وعلى غير مستند من الحق والعدل .

أما هذه الأمة الإسلامية التي شرفت بحمل رسالة الله تعالى، وببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ فإن الله قد رسم لها منهجها وطريقها المستقيم فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] .

لذلك لابد من معرفة حق أصحاب رسول الله ﷺ وما لأصحاب القرون الثلاثة الأولي في تاريخ الإسلام من تميز وفضل وفق المقاييس الشرعية دون غلو أو تفريط، فإن الذي أعطاهم هذا التميز وتلك المنزلة هي النصوص الشرعية ، إذاً ليس الأمر اجتهاداً منا أو افتراء على الحق ، فإنه ليس لأحد أن يقرر برأيه المحض دون مستند من الشرع حكماً شرعياً لقوله ﷺ : « **من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد** » (١) .

---

(١) رواه مسلم رقم(١٧١٨) .

المبحث السادس

التفريق بين أخطاء البشر وأحكام الإسلام

وهذه القاعدة جليلة عظيمة، فمن رزقه الله تصوراً صحيحاً وفهمًا في علم الشريعة يعرف أن البشر يخطئون مهما كانوا محسوبين على الإسلام، فقواعد الإسلام وأحكامه تتلقي من مصدرها الحق - الكتاب والسُّنَّة - لا من عمل الناس وسيرتهم - مالم يكن إجماعاً ممن ينعقد بهم الإجماع - ولا حجة في عمل أحد ولا قوله إذا كان مخالفاً لنصوص الشرع ولهذا قال الإمام مالك: « ليس أحد بعد النبي ﷺ إلا يُؤخذ من قوله ويُترك إلا النبي ﷺ » ، وكثير من الناس يخطىء في هذه المسألة فيظن أن كل ما حدث في التاريخ الإسلامي هو تطبيق لمبادىء الإسلام، أو أن الإسلام أمر بمثل هذه الأفعال التي قام بها المسلمون في ظل الحكم الإسلامي واعتبر ذلك الحدث حجة أوْ مسوغاً للاقتداء به على اعتبار أنه سابقة تاريخية حدثت في المجتمع الإسلامي، لكن من المعلوم أن السوابق التاريخية لا يجوز العمل بها إذا خالفت النصوص الشرعية، أو حدثت نتيجة انحراف وخطأ في المفهوم الإسلامي، أو كانت صادرة عمن لا يحتج بعمله.

ولذلك تراهم إذا تحدثوا عن حضارة الإسلام يذكرون أنواعًا من الأفعال والتنظيمات ، هي مناقضة تمامًا للأحكام الشرعية دون أن يوضحوا أن مثل هذا مما يخالف الأوامر والنواهي الشرعية .

والأمثلة على ذلك كثيرة مثل ما يكتبون عن فن بناء القباب على القبور، ويعرضون كثيراً من المخالفات الشرعية على كونها تقدماً حضارياً، ومن نتاج الحضارة الإسلامية ويفاخرون بها غيرهم ، وهذا في الحقيقة من فساد التصور والخلط بين انحرافات البشر وأخطائهم وبين أحكام الإسلام، والمفترض في الباحث أن يصطحب قيم الإسلام وموازينه، لأن البشر يخطئون ويصيبون، ويستقيمون

على الطريقة فترة وينحرفون فترات، وتتبدل مفاهيمهم وموازينهم إن لم ترجع إلى ضابط ومقياس شرعي، أما أحكام الإسلام وموازينه فهي ثابته لا تتبدل ولا تتغير،كما قال تعالى: ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [الأنعام:١١٥] .

والذي ينبغي التنبه له أنه في مجال إصدار الأحكام التاريخية على الأشخاص والأحداث لا تتأثر أحكامنا بالمنزلة العلمية أو المكانة الاجتماعية للأشخاص الفاعلين في الحدث التاريخي الذي نعالجه ، مما يدفعنا إلى محاولة تبرير الخطأ وإظهاره بمظهر الصواب، على حساب تشويه المنهج الإسلامي وهذا لا يعني أننا نسيئ الأدب ولا نلتمس العذر لمن له عذر؛ بل إحسان الظن بالمسلم هو المطلوب.

وهناك فرق بين الاعتذار وبين التبرير، والمحذور هو التعصب وتبرير الخطأ وإظهاره بمظهر الصواب (لأن تبرئة الأشخاص لا تساوي تشويه المنهج) (١) .

فالمنهج أعظم من الأشخاص وأكبر، وصيانته أولي وأحري ، فالحق لا يعرف بالرجال ، ولا بكثرة من قاله ، إنما يعرف الرجال بقدر تمسكهم بالحق وإن كانوا هم القلة ؛ فالجماعة ما وافق الحق ، وإن كنت وحدك كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (٢) والمنهج لابد أن يبقي مصوناً ومحافظاً عليه من التشويه والتحريف.

---

(١) **انظر**: في ظلال القرآن(١/٥٣٣) .

(٢) **انظر**: إغاثة اللهفان(١/٧٠) .

المبحث السابع

الإيمان بالسنن الربانية

دراسة التاريخ بوعي وإدراك تساعد الدارس على معرفة السُّنن الربانية وتكشفها له مما يجعله يستفيد من دراسته، ويخطط لمستقبله على ضوء تلك السُّنن. وسبق أن ذكرنا أن من ثمرات دراسة التاريخ التعرف على السُّنن الربانية، والذي يهمنا في هذا الموضوع هو بيان ارتباط الإيمان بالسُّنن الربانية بمنهج كتابة التاريخ الإسلامي، وذلك ـ أن لله سبحانه وتعالى سُنناً ثابتة في حركة الإنسان في هذا الكون ـ وهذه السُّنن كما عرفنا عليها القرآن ذات ارتباط وثيق بقضية الإيمان والكفر والظلم وقضايا السلوك الاجتماعي والاخلاقي للمجتمعات البشرية، والذي يحدد لنا اتجاهات السنن الربانية هو القرآن الكريم فهو الذي عرفنا بالخير والشر وحدد دلالة ذلك، وعرفنا بالإيمان بالله وبالشرك وبالحق وبالباطل والعدل والظلم، وأن أظلم الظلم هو الإشراك بالله قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾.

[لقمان: ١٣].

وإن الظالم لابد أن ينال جزاءه، كما أن بسط الدنيا على أحد من الناس ليس دليلاً على محبة الله له وإنما يكون من باب الاستدراج، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقال تعالى: ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ [الطارق: ١٧].

ثم العاقبة ستكون للمؤمنين، وأن ما يصيبهم في الحياة الدنيا من تعب وعنت وظلم هو للابتلاء والتمحيص وهذا سُنَّة من السُّنن الربانية.

قال تعالى: ﴿ الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢)

وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾.

[العنكبوت : ١-٣] .

وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤] .

وأن النصر الحقيقي لا يكون إلا من عند الله ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران : ١٢٦] .

وأنه للمؤمنين متى وفوا بشرط الإيمان ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

[الروم : ٤٧] .

قال تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة : ٢١] .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾.

[غافر : ٥١] .

وأن الأيام دول بين الناس ، قال تعالى : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

وأن الحياة الهادئة المباركة الآمنة ، لا تكون إلا في ظل الإيمان والتقوى والاستقامة على منهج الله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

[الأعراف : ٩٦] .

وأن الإعراض عن منهج الله وترك العمل بشريعته يؤدي بالأمة إلى مدارك الهلاك وضنك الحياة المادية منها والنفسي ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه : ١٢٤] .

وما أشارت إليه الآيات من معيشة الضنك في الحياة الدنيا لمن يعرض عن ذكر الله، واقع ملموس مشاهد ، فإن المعرضين عن ذكر الله يعيشون إما ضنكاً مادياً في رزقهم أو ضنكاً نفسياً شعورياً، أو هما وقلقاً ، لإن المعاصي تكون شؤماً على أصحابها وفساداً في الأرض قال تعالى: ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [الروم: ٤١] .

وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد « **وإن الرجل ليُحرم الرزق ، بالذنب يصيبه** » (١) .

وإن الجهاد سُنَّة ربانية فما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا قال تعالى: ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٥١] ، فالله سبحانه وتعالى يدفع بأهل الخير والصلاح فساد أهل الشر والضلال.

فهذه أمثلة من السُنن الربانية التي ذكرها القرآن، ولا يدركها إلا من قرأ القرآن وآمن به وصدقه ، ثم إذا بحث الإنسان في الواقع التاريخي للحياة البشرية يجد مصداق ذلك فيزداد إيماناً على إيمانه، ومعرفة وعلماً بواقعه التاريخي الحاضر، ويجد القدرة على دراسة هذا الواقع دراسة تمكنه من اكتشاف الأخطاء ووصف العلاج اللازم لما أصيبت به البشرية من أمراض وانحرافات، حتى تتفادى الوقوع في الانحراف عن السُنَّة الربانية وتصيب من خيرها.

وبذلك يتضح الارتباط الوثيق بين منهج كتابة التاريخ الإسلامي والإيمان بالسُنن الربانية في الكون ، كما دل عليها القرآن وكشفتها التجارب التاريخية، وهذه السنن مرتبطة بالأحكام والقوانين الشرعية وتطبيق منهج الله في حياة الناس (٢) .

---

(١) المسند (٥/٢٧٧) ، وابن ماجة (٢/١٣٣٤) .

(٢) انظر: منهج كتابة التاريخ الإسلامي (ص ٢٣٥) .

الفصل الرابع
قواعد في المصادر

المصادر بالنسبة للمؤرخ تشكل أهمية كبرى لأنه بدون توفر المصادر لا يستطيع أن يكتب أى بحث تاريخي، والتاريخ معرفة نقلية تعتمد على الأخذ من المصادر، لأن التاريخ خبر عن حدث وقع وانتهي وليس فيه الخيار والرجم بالغيب ولا التجارب المعملية ، كما يفعل الأديب والقاص والشاعر والعالم الفيزيائي .

وما دامت المصادر بهذه الأهمية للمؤرخ فلا بد أن يعتنى بها غاية الاعتناء وأن يرتبها الترتيب الصحيح وفق معايير نقدية محددة كدرجة الثبوت والثقة في المصدر كالقرب من الواقعة التاريخية سواء قرب المصاحبة والمعايشة أو القرب الزمني .

فيقدم ما هو أوثق ثبوتاً كالنقل المتواتر ، ثم ما هو أقل من ذلك ، وتقدم رواية من هو ألصق بالخبر على من لم تكن هذه صفته ، وهنا مجموعة من القواعد التى يلزم الباحث في التاريخ بصفة عامة والتاريخ الإسلامى على وجه أخص أن يراعيها أثناء نظره في المصادر واستقاء المعلومات التاريخية ونقدها (١) .

---

(١)انظر : منهج كتابة التاريخ الإسلامي (٢٣٦).

المبحث الأول

اعتماد المصادر الشرعية وتقديمها على كل المصادر

وذلك أن القرآن الكريم كلام الله الذين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقد تكفل بحفظه من التحريف والزيادة والنقصان: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [الحجر: ٩] والقران قطعى الثبوت، آيه آيه وكلمة كلمة.

ويأتي بعد القرآن في قوة الثبوت الحديث النبوى الشريف فإن النبى ﷺ كما أخبر الله عنه أنه لا ينطق عن الهوى، وقد حفظ الصحابة أقوال الرسول وأفعاله وتقريراته وأدُّوها إلى من بعدهم كما سمعوها.

وقد اتبع علماء الحديث والرواية أرقى منهج علمى وأوثقة في تدوين السُنَّة وفي نقد الرجال والمرويات، وفي الكتاب والسُّنَّة ورد كثير من الأخبار التاريخية القديمة كسير الأنبياء ومواقف أقوامهم منهم، أو الأخبار المعاصرة لنزول الرسالة إلى محمد ﷺ مثل بعض حوادث السيرة النبوية ومواقف أهل الأرض من الدعوة الإسلامية.

كما أنه قد جاء في الكتاب والسُّنَّة إشارات إلى الأحداث المستقبلية سواء كان وقوعها في الحياة الدنيا أو الآخرة، وذلك مثل علامات الساعة وأشراطها ومثل أحداث اليوم الآخر، فقد أخبر ﷺ بما تئول إليه حالة الأمة الإسلامية بعده وما يصيبها من التفرق، وما يكون فيها من حركات الإصلاح والتجديد، كما أخبر أنه ستقع أحداث كثيرة بين يدى الساعة، وهى أشراط الساعة، التى اعتنى العلماء بجمعها وتخصيص أبواب لها في مصنفاتهم بل قد أفردها بعضهم بكتب مستقلة. والذين لا يعتمدون القرآن والسُّنَّة في مصادر دراساتهم وأبحاثهم، فإنهم يحرمون هذه الفوائد من النظرة الشمولية والتشخيص الدقيق لاتجاهات الأحداث، وحتى لو عرفوا تشخيص بعض الأسباب، فإنهم لا

يستطيعون وصف العلاج الحقيقى للأمراض الاجتماعية والخلقية التى تصيب المجتمعات فتؤثر في تطور الأحداث وتوجيهها فإن فاقد الشيء لا يعطيه، ولا يملك علاج مثل هذه الأمراض والأدواء إلا الشارع الحكيم ولا يصح أن يتكلم فيه من ليس عنده علم من الشرع.

لذا فإنه لا بد من اعتماد المصادر الشرعية في كل دراسة تعالج وضعاً من الأوضاع الاجتماعية وتساعد على توجيه المجتمع وتنميته سلوكياً واجتماعياً، وهذا العمل من أعظم وظائف المؤرخ وأهم ثمرات دراسته.

فالمصادر الشرعية واجبة التقديم باعتبارين :

[١] لأنها أصدق من كل وثيقة تاريجية فيما ورد من الأخبار وذلك لصدق مصدرها، وعلمه وهيمنته كما أنها وصلتنا بأوثق منهج علمى فالقرآن وصلنا بالتواتر الموجب العلم القطعى في كل آية وكل كلمة، بل وكل حرف. وصحيح السُّنَّة وصلنا بمنهج علمى دقيق، هو أرقى ما تستطيعه الطاقة البشرية.

[٢] والاعتبار الثانى هو لما عليه من السُنن الربانية والنظرة الشمولية لتاريخ البشرية كلها على مدار الزمن ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، مما يهيء للباحث المقدرة على اكتشاف القوانين العامة في حركة البشرية وارتبط ذلك بالهدى والضلال والكفر والإيمان سلباً وإيجاباً، والقرآن والسُّنَّة يعطيان الدارس التصورات والمفاهم والقيم التى على ضوئها تفسر أحداث التاريخ ويحكم عليها.

وقد حاول كثير من المؤرخين اكتشاف السُّنن والروابط التى تربط الأحداث أو ما يسمونه (فلسفة التاريخ) غير أنهم لعدم اهتدائهم بالمصادر الشرعية لم يصلوا إلى نتائج مطمئنة.

فالمسيح في نظرهم هو ابن الله ، وأنه قدم نفسه قرباناً تكفيراً عن الخطيئة الأولى خطيئة آدم ، أما بقية التفاسير للتاريخ فإنها تغفل دور الأنبياء والرسل عليهم السلام، وأثر رسالاتهم في تاريخ البشرية ، ولا تعطى أيه أهمية لما جاءوا به من الهدى والنور والدعوة إلى عبادة الله وحده ، ونبذ الشرك والأنداد ، وإقامة الحكم بين الناس بالقسط .

يقول أحد الكتاب المعاصرين مبينًا خطر الدراسات التى لا تعتمد المصادر الشرعية ، وإن كان هو لم يسلم من لوثة الاستشراق ولكن شهد شاهد من أهلها : المستشرقون سبقوا المسلمين في دراساتهم ذات الطابع الحديث، وكانوا أساتذة لكثير من المسلمين الذين أوفدوا إلى أوروبا للتعمق في الدراسات الإسلامية – هكذا – وطرق البحث فيها .

وقد تأثر بعض هؤلاء المسلمين بأساتذتهم المستشرقين ، عادوا فكتبوا وتقرأ ما كتبوا فتلمس أن كتاباتهم تجافي روح الإسلام في كثير من الأحيان، وسبب ذلك هو أن هؤلاء الموفدين لم يكونوا قبل إيفادهم على علم واسع بالدراسات الإسلامية ، وكتابات هؤلاء المسلمين أكثر خطورة من كتابات المسشرقين أنفسهم ، ومرجع ذلك إلى أن القراء يقرءون للمستشرقين بحذر ولكنهم قد يستسلمون للكاتب المسلم ولايحذرون منه) (١) .

فكل دراسة للتاريخ الإسلامى لا تعتمد المصادر الشرعية لا بد أن تصاب بالنقص والتشوه والبعد عن التصور الإسلامى الذي هو جزء لا يتجزأ من الدرسات الإسلامية ، وهو تاريخ أمة ذات عقيدة محركة لها ومسيطرة على نشاطها واتجاهاتها .

وبسبب الفصل الحاصل بين الدراسات التاريخية والدراسات الشرعية أتيحت

---

(١) انظر : التاريخ والحضارة الإسلامية ، احمد شلبي (١/٥٨).

الفرصة لعدد غير قليل ـ من الذين لم ينقلوا قدراً كافياً من علوم الشريعة للكتابة في التاريخ الإسلامي، ومن ثم جاءت كتاباتهم صدى للدراسات الاستشراقية، وتحمل كثيراً من لوثة الانحراف الفكرى والغزو الثقافي وتمثل الفهم المشوه للشريعة، وحتى المخلصين من هؤلاء الباحثين لا يكادون ينجون من هذه الآثار ، وذلك راجع إلى قلة البضاعة في الدراسة الشرعية ، وللمنهج الذى به دراسة التاريخ.

إن الواجب يقضي بأن كل من يتصدى لدراسة التاريخ الإسلامى وتدريسه يجب عليه دراسة القرآن الكريم، ومعرفة أسباب النزول وأصول علم الحديث ومعرفة الأحكام الشرعية ، وعقيدة أهل السُنَّة والجماعة ، وعقائد الفرق المخالفة لها لأن هذه من أهم المصادر لدراسة التاريخ الإسلامى ، وخاصة في مجال التحليل والمنظور التاريخى والمنهجية العلمية ، وصدق القائل « العلم يخدم بعضه بعضاً » .

المبحث الثاني

عدم التسليم لكل ما ورد في الكتب المنزلة قبل القرآن

قال تعالي : ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ [النساء : ٤٦] .

وقال تعالي : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٤٦] .

وقال : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ [المائدة : ١٥] .

وقال :﴿ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ﴾ .

[المائدة : ٤١] .

ففي هذه الآيات وغيرها دلالة واضحة على تحريف اليهود والنصارى لكتبهم المنزلة على رسلهم والواقع يثبت هذا التحريف، فإن الأناجيل التى بين أيدينا قد دونت بعد رفع عيسى عليه السلام بأزمان متطاولة ، واختلافاتها كثيرة ، وما تحويه من الكلام المنكر والقصص الفاسد والشرك بالله ، من أكبر الأدلة على تحريفها مما يجعل كل عاقل يقطع بأن هذا ليس مما يرضاه الله ويحبه فضلاً عن أن يكون من كلامه سبحانه وتعالي . فالكتب السماوية السابقة لنزول القرآن منسوخة الشرائع والأحكام بهذه الشريعة الخاتمة.

أما أخبارها وقصصها فهى مترددة بين الصواب والخطأ، لثبوت وقوع التحريف والزيادة والنقص ، ولذلك قال رسول الله ﷺ : [**لا تصدقوا أهل الكتاب ولاتكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا**] [١] .

---

(١) رواه البخاري، انظر: فتح الباري(٨ / ١٧٠, ١٣, ٣٣٣) .

المبحث الثالث

معرفة شروط المؤرخ المقبول

ومن المعلوم أن الأخبار التاريخية في ثبوتها وعدالة رواتها واتصال أسانيدها لا تصل إلى درجة الأحاديث النبوية إلا في القليل النادر، مثل ما جاء مروياً عن طريق علماء الحديث، كأخبار السيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين ، وبعض أخبار الأمم السابقة الواردة عن طريق السُّنَّة ، إنما غالبها محمول عن الإخباريين منقطع الأسانيد ويكثر فيها المجاهيل بل إن بعضهم يروى بدون إسناد، أو حتى تبيين المصادرالتى حمل عنها المؤرخ، ورغم ذلك فإن التاريخ الإسلامى إذا قورن بغيره من تواريخ الأمم نجد أنه قد حفظ وخدم ودون في وثائق، وتناقلة الخلف عن السلف، وغالب أخباره وحوادثه الرئيسية قد وصلتنا بالاستفاضة والتواتر، وبالروايات المشهورة ولا يقع الخلاف ويحتاج الأمر إلى التدقيق إلا في تفاصيل الحوادث ، وهذا الوضوح التاريخى لا يوجد في تاريخ أمه من الأمم كما هو في التاريخ الإسلامي **والشروط المطلوبة في المؤرخ ليكون مقبول الرواية نوعان :**

شروط تتعلق به ذاته ، وأخرى تتعلق بما ينقله ويرويه .

أما الشروط المتعلقة بذاته فهي :

[١] العدالة، والعدل هو المسلم البالغ العاقل الذى سلم من الفسق وخوارم المروءة (١) .

[٢] القدرة على التميز بين المقبول والمردود من الروايات وذلك بمعرفة الرواة وما قيل فيهم من جرح أو تعديل، ومعرفة الأصول المنهجية في النقد والموازنة بين الروايات المتعارضة وكيفية الجمع بينها .

---

(١) أحمد شاكر: الباعث الحثيث (٩٢) .

[٣] العلم بأصول الأحكام الشرعية وبمقادير الناس وأحوالهم ومنازلهم وبمدلولات الألفاظ ومواقعها.

[٤] مصاحبة الورع والتقوى بحيث لا يأخذ بالتوهم والقرائن التى تختلف.

[٥] الضبط لما يراه أو يسمعه.

[٦] تجنب الغرض والهوى. وهذا أمر يعز وجوده إلا في القلة النادرة.

[٧] حسن التصور للموضوع الذى يكتب، وذلك أن يفهم الموضوع الذى يبحثه فهماً جيداً ويحيط به من كافة جوانبه.

[٨] أن يكون جيد العبارة عفيف اللسان عن المنكر من القول.

وبخصوص الشروط التى تتعلق بما يرويه المؤرخ :

فقد ذكر السبكي [1] في طبقات الشافعية قاعدة في المؤرخين، وجعل من الشروط اللازمة لما يرويه المؤرخ ما يلي:

[١] اعتماد اللفظ دون المعنى وذلك أن ينقل الكلام بنصه دون أن يتصرف فيه بتقديم أو تأخير أو تدوين المعني، ومن هنا انتقد العلماء ابن حبان حيث تصرف في ألفاظ الجرح والتعديل المروية عن العلماء في نقد الرواة [2] وعبر عنها من عند نفسه.

[٢] أن يسمى المؤرخ المصدر الذى نقل عنه معلوماته وبذلك تتضح مصادره وتعرف.

[٣] أن يكون نقله مضبوطاً.

[٤] زاد السخاوى شرطاً آخر وهو (التحرى فيما يراه من الوقائع التى كانت بين

---

(١) هو الشيخ تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، ولد سنة (٧٢٧هـ) جد في الطلب وتولى التدريس وله مؤلفات كثيرة، توفي سنة (٧٧١هـ)، انظر: البدر الطالع، للشوكاني (١ / ٤١٠).

(٢) انظر: الذهبي: ميزان الاعتدال (٣ / ٥٠٧) في ترجمة ابن حبان.

أعيان الصدر الأول من الصحابة ، لما أمرنا به من الإمساك عما كان بينهم والتأويل له بما لا يحط من مقدارهم ، ويلتحق بذلك ما وقع بين الأئمة سيما المتخالفين في المناظرات والمباحثات) [١] .

وهذا الشرط مهم للغاية ، وعدم مراعاته كان السبب في وقوع كثير من الأخطاء والانحرافات في كتابة التاريخ الإسلامي ، وكان ما دون من مثل هذه الأخبار عوناً للمستشرقين والحاقدين على الإسلام وعلمائه فيما نشروه من دراسات عن التاريخ الإسلامى حتى أخفوا معالمه الأساسية ، وأظهروه في صورة قاتمة شوهاء ، لا تزيد على كونها صراعاً على السلطة وتكالباً على الشهوات ، وفسروا التاريخ الإسلامى كما يحلو لهم تفسيراً مادياً ، أو قوميًا ، أو علمانياً .

---

(١) السخاوي : الإعلان بالتوبيخ (٦٤-٦٥).

المبحث الرابع
معرفة حدود الأخذ من كتب أصحاب الأهواء والزندقة

من الأمور المهمة في المصادر معرفة الحدود التى تراعى عند الرجوع إلى كتب أصحاب الأهواء من الفرق التى ضلت الطريق، وفارقت الصراط المستقيم إما بدعوى تأويل غير سائغ، أو استجابة لشهوة وهوي ، أو عن زندقة وكفر.

وقد اعتنى العلماء بضبط مذاهب الفرق وأقوالهم لكى تعلم وتعرف حتى أفرد بعضهم ذلك بمؤلفات خاصة مثل أبى الحسن الأشعرى (ت ٣٣٠) في « مقالات الإسلاميين » وأبى الحسين الملطى الشافعى (ت ٣٧٧) في « التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع »، وأبى محمد ابن حزم (ت٤٥٦) في كتابه « الفصل في الملل والنحل » ومثل أبى الفتح الشهرستانى (٥٤٨) في كتابه « الملل والنحل » .

كما أن أصحاب الفرق أنفسهم قاموا بتدوين مذاهبهم ومعتقداتهم وأخبارهم وتراجم رجالهم وعلمائهم، ومناظراتهم وردودهم على المخالفين لهم ومنهم من اشتغل بالتاريخ العام فدون الأخبار وصاغها وفقاً لمعتقده الدينى ومذهبه السياسى فأبرز مثالب خصومه وأخفي كثيراً من جهودهم وحسناتهم، ولأجل هذا فإنه لا بد للمؤرخ المسلم أن يتعرف على ترجمة مؤلف ما يرجع إليه من المصادر فيتعرف على عقيدته واتجاهه السياسى والمذهبى لأن هذه المعرفة تمكنه من التعامل مع النصوص التى يوردها ذلك المؤرخ بما تكون لديه من خلفية عن اتجاهاته وآرائه ثم يقارنها بغيرها مما عند أصحاب الفرق الأخرى وبما عند الثقات العدول المسلمين .

والموقف من كتب أصحاب الفرق والأهواء ينظر له من ثلاث زوايا هي بحسب موضوع الرواية:

﴿ ١ ﴾ فما كان متعلقاً بنقل حكم من أحكام الشريعة وروايته فإن علماء أصول الحديث **قد قرروا في كتبهم أن الرواية عن المبتدعة تنقسم إلى قسمين** (١) :

القسم الأول : فمن كانت بدعته مكفرة مثل الروافض يسبون أبا بكر وعمر ويكفرون الصحابة، ومثل طوائف الباطنية من قرامطة وإسماعلية ونصيرية وغيرهم من الزنادقة كالخرمية والحلولية والثنوية ، فهولاء لا تقبل روايتهم ولا كرامة (٢) .

أما القسم الثاني : من المبتدعة الذين لا تصل بدعتهم إلى الكفر والخروج من الملة، فمن كان منهم معروفاً بالكذب أو قلة الضبط فلا تقبل روايته، وهذا شرط في كل راو مبتدع أو غير مبتدع، ومن كان مشهوراً بالورع والتقوى والضبط لما يرويه فتقبل روايته حتى وإن كان داعية لبدعته شريطة أن لا يكون ما يرويه مؤيداً لبدعته،واحتجوا لهذا بإخراج البخارى في صحيحه لعمران بن حطان الخارجي مادح عبد الرحمن بن ملجم ـ قاتل على بن أبى طالب ـ فهو من أكبر الدعاة إلى بدعته، ولكن لما عرف بالورع وأنه لا يكذب أخرج الأئمة حديثه (٣) .

﴿ ٢ ﴾ ما كان متعلقاً بالأخبار عن أهل السُنَّة سواء في التاريخ العام أم في التراجم الشخصية ، لا ينظر فيه إلى تعصب الراوى من عدمه ، فمن لاحت عليه أمارات التعصب أسقط خبره ، لأن الخصومة حجاب ساتر عن رؤية الحقيقة كما قيل:

---

(١) ذهب إلى ذلك ابن الصلاح والنووي ، والذهبي، والعراقي، وابن حجر، وغيرهم من المتقدمين من علماء الجرح والتعديل مثل محمد بن سيرين، وعبد الله بن المبارك ، ومالك بن أنس كما في الكفاية للخطيب (١٩٤) يردون رواية كل مبتدع.

(٢) راجع الذهبي : ميزان الاعتدال (١ / ٤) في ترجمة أبان بن تغلب فقد فصل في ذلك وبين بياناً شافياً.

(٣) **انظر** : الحافظ ابن كثير: اختصار علوم الحديث (١٠٠)، السيوطي في التدريب (١ / ٣٢٤,٣٢٩) .

المبحث الخامس

معرفة ضوابط الأخذ من كتب غير المسلمين

فإذا كان الموضوع متعلقاً بديننا من شرح أو تفسير، أو إطلاق أحكام على الشخصيات الإسلامية، أو على علم من علوم الإسلام ، أو نظام من النظم الإسلامية أو دراسة لسيرة النبى ﷺ فإنهم لا يصدقون فيما يقولونه ، ولا يحل للمسلم أن يأخذ عنهم في هذا المجال، لأنهم ليسوا أهلاً أن يؤخذ عنهم شيء من دين الله ، ولأن من شروط البحث في هذه القضايا الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر.

فإذا كان علماء الإسلام لا يثبتون الأحكام بما يرويه المسلم ضعيف الضبط، فكيف يحق لقوم مؤمنين أن يحملوا عن كافر ساقط العدالة يحمل من الحقد والبغضاء على هذا الدين وأهله ما الله به عليم، إن القول في الأحكام الشرعية وفي النظم الإسلامية وفي تقرير رجاله وتاريخه لا يؤخذ إلا من المسلم العارف الثقة ، أما غيره فلا اعتبار لقوله ولا لخلافه لو خالف.

المبحث السادس

قواعد في أسلوب العرض

لما كان الأسلوب هو الأداة التي يعرض بواستطها المؤرخ موضوعه فإنه يلزمه أن يعتنى به، ويراعى المستوى العلمي والوسط الاجتماعى الذى يكتب له بحيث يكون واضحاً ومؤدياً للأهداف العلمية التى قصدها من بحثه.

وبما أن دراسة التاريخ في حس المسلم مرتبطة بعقيدته، والتاريخ أداة من أدواته في الدعوة إلى الله وتحقيق عبوديته بإقامة منهجه وتحكيم شريعته فإنه يتحتم عليه ملاحظة بعض القواعد في أسلوب الكتابة وطريقة العرض والتى نوردها فيما يلي :

المطلب الأول

جعل العقيدة الإسلامية المحور الأساسي في عرضه

وذلك بتركيزه على التصورات الإسلامية الصحيحة أثناء العرض الموضوعي للحادثة التاريخية مع ملاحظة المحافظة على الوقائع التاريخية وعدم الإخلال بها وعرضها كما جاءت في مصادرها الصحيحة.

وعليه أن يتابع العقيدة في الحوادث والوقائع وتوجيهها لها، وعليه أن يعتني بعرض النتائج المترتبة على الالتزام بالعقيدة من حصول النصر والتمكين، وتدفق الخيرات، وانتشار الأمن والطمأنينة في النفوس وانقطاع سبل الفساد، وإيضاح عرض النتائج المترتبة عن الانحراف العقيدي، والتقصير في ذلك، قال تعالى: **﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾** [سبأ: ١٥ - ١٧].

فإن هؤلاء القوم لما أعرضوا عن دين الله وظلموا أنفسهم أرسل الله عليهم سيل العرم فشتتهم ومزقهم كل ممزق حتى قيل المثل: (تفرقوا أيدى سبا) وهذه سُنَّة الله في كل من أعرض عن عبادته وكذب رسله.

وإن البشرية على طول تاريخها كلما فاءت إلى العقيدة وتمسكت بها حصلت لها السعادة والتمكين في الأرض، وكلما بعدت عنها أصيبت بالأمراض الأجتماعية والخلقية وفشا فيها الظلم والجور وسلط عليها الأعداء.

فالتركيز على محور العقيدة والتذكير بها في كل مناسبة، وربط الحوادث بها وبمقتضياتها هو أسلوب القرآن وطريقته في عرضه لتاريخ الأنبياء عليهم السلام، فإنه يركز على الوحدانية وإخلاص العبودية لله، ونبذ الشرك والمشركين، وبيان تناقضهم ويجعل القصص ونتائجها مرتبطة بذلك.

المطلب الثاني

التركيز في العرض على الأهداف والغايات

المؤمن له في الحياة هدف وغاية عليا يسعى دائما لتحقيقها وهى عبادة الله وحده، وعند دراسته لحقبة معينة من الزمن أو حادثة من الحوادث فإنه ينظر إلى هذه الدراسة على أنها وسيلة من الوسائل للوصول إلى الغاية العليا، فلا ينفق كل جهده في الوسيلة ويترك الغاية، ولذلك ينبغى أن لا تشغلنا الدقائق التفصيلية في حوادث التاريخ عن العبرة من الحدث، والرؤية الشاملة له، وعن الاعتبار الذى يترك في النفس أثراً، وإنفاق الوقت والجهد في البحث عن أمور لا طائل تحتها ولا تعود على الباحث بفائدة ليست من هدف المسلم ولا غايته في الحياة إلا أن يكون البحث في التفصيلات متعلق به مقصد شرعى فلا بأس حينئذ من البحث فيه ومحاولة إثباته.

وهذا هو ما يلحظ من توجيه القرآن للذين تجادلوا في عدد أصحاب الكهف، قال تعالي: ﴿ **سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا** ﴾ [الكهف: ٢٢].

فالخلاف حول عدد أصحاب الكهف يستخلص من ورائه أن الناس دائما يتعلقون بالأمور الجانبية التى لا فائدة ترجى من وراء معرفتها، ويختلفون في ذلك ثم يخوضون بالجدل فيه بغير علم ويتركون المقاصد والأمور المهمة، وهى أخذ العبرة من وراء سياق القصة، وإنه لا يستوي في أخذ العبرة أن يكون عددهم ثلاثة أو خمسة أو سبعة أو أقل أو أكثر، فالعبرة في أمرهم حاصلة بالعدد القليل والكثير، ولكن إذا وجد علم صحيح بعددهم فإنه لا مانع من الأخذ به وإثباته كحادثة تاريخية، فالذى يجب على المسلم التركيز على الأهداف والغايات منها في كل مناسبة [١].

(١) حول تفسير الآية راجع: ابن كثير (٥/١٤٤)، سيد قطب (٥/٢٢٦٥) في الظلال.

المطلب الثالث

أن يكون العرض موحياً بتحبيب الخير وتبغيض الشر

المؤرخ المسلم ليس ناقلاً لما قيل وما حدث في الزمن الماضى فقط ، إنما هو صاحب رسالة وحامل مشعل هداية للبشرية ، وميزاته في معرفة الخير والشر ليس عرف الناس ولا ما تواضع عليه أهل زمن أو قررته هيئة من الهيئات أو زعيم من الزعماء إنما ميزاته هو شرع الله، ولذلك فإنه إذا درس تاريخ واقعة معينة أو تاريخ شخصية من الشخصيات أو دولة من الدول وجب عليه أن يعرض ذلك بأمانة وصدق، وأن يفحص ويدقق وينقد المصادر والمراجع ويتثبت غاية التثبت ، ثم عليه أن لا يظهر الباطل بمظهر الحق، ولا يظهر الخير بمظهر الشر، إنما يسمى الأشياء بمسمياتها الشرعية فالحق حق مهما كان فاعله، والباطل باطل مهما كان قائله، والميزان هو شرع الله، فإذا رأى غدرة أو ظلماً أو إهانة لأحد أو تعدياً لحدود الله فإنه لا بد أن ينبه على أن ذلك تجاوز ومخالفة لشرع الله ، وإذا رأى عدلاً وإحساناً وجهاداً في سبيل الله وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر أشاد به ومدح صاحبه ليكون قدوة في هذا الفعل الطيب.

وهذا من أعظم غايات دراسة التاريخ وثمراته.

المطلب الرابع

إبراز دور الأنبياء وأثره في تاريخ البشرية

الأنبياء عليهم السلام يمثلون خط الاستقامة ومنهج الحق في هذا الوجود بما علمهم الله وأنبأهم به الوحي، وقد جاءوا بعقيدة واحدة هى إفراد الله بالعبادة والاستسلام له بالطاعة والخلوص من الشرك وأهله.

والإسلام بهذا المعنى هو دين الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم، وهو الدين الذى لا يقبل الله سواه.

قال تعالي: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾ [آل عمران: ١٩] .

وقال: ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾. [آل عمران: ٨٥] .

دور الأنبياء وأتباعهم يمثل في تاريخ البشرية كله خطاً مستقلاً ومترابطاً بعضه مع بعض من آدم إلى محمد ﷺ، وتقف بإزائه الجاهليات على تعدد أنواعها واختلاف أصولها، فالجاهليات تشكل أمة واحدة في مقابل أمة الإسلام ودعاة الحق وحزب الرحمن وأتباع الرسل والأنبياء، والتاريخ البشرى كله منذ خلق الله أدم عليه السلام وأسكنه الأرض وكلفه بالخلافة فيها وأنزل عليه الهدي، يمثل صراعًا بين الحق والباطل، وبين أتباع الهدى وأتباع الضلال فالأنبياء وأتباعهم يريدون تطبيق شرع الله وتنفيذه، وأعداؤهم من دعاة الباطل يريدون تنفيذ أرائهم وأهواء طواغيتهم وكل فترة يتغلب فيها دعاة الحق وينفذون منهج الله ، نجد البشرية تنعم بالأمن والاستقرار ، وتفيض فيها الخيرات ، وذلك لأن منهج الله هو الحق الموافق للفطرة البشرية والمتسق مع ناموس الكون ، قال تعالي: ﴿ **مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ** ﴾ [الأحقاف: ٣] .

وقال تعالى: ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾ .

[الجن: ١٦] .

كما أننا نجد أن كل فترة تسيطر فيها الجاهليات تصاب البشرية بالشقاء ويسود فيها الظلم – ولا أظلم من الشرك بالله – وتبتلى بالمصائب، وقد وضح الشيخ أبو الحسن الندوى هذا المعنى في كتابه القيم: « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ » .

وكذلك الأستاذ/ سيد قطب رحمه الله في كتابه: « خصائص التصور الإسلامى » في فصل: تيه وركام حتى إن الأرض لتئن من ذلك الظلم وتفرح بزوال الظالمين، قال تعالي: ﴿ **فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ** ﴾ .

[الدخان: ٢٩] .

بل إن قطع دابر الظالمين من النعم التى تستوجب شكر الله وحمده: ﴿ **فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنعام: ٤٥] .

وقال ﷺ: [**إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب**] [١] ، فأتباع الرسل هم الذين استثنوا من هذا المقت والسخط. ولأجل ذلك فإن على المؤرخ المسلم أن يبرز هذا الأثر وهذا العمل الذى قام به رسول الله ﷺ وخلفه عليه أتباعه، وأن يتبع آثاره في الحياة البشرية في عمارة الأرض، وفي أخلاق الناس وفي آدابهم وثقافتهم وفي آثار دعاة الأصلاح وخططهم ، فإن كلمة الحق لا تضيع هباء ولا بد أن تترك أثراً، ولقد امتن الله سبحانه وتعالى على الأمة الإسلامية وعلى العرب خاصه ببعثه محمد ﷺ، فقال تعالى : ﴿ **كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ١٥١] .

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة (٤ / ٢١٩٧) .

وقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ .

[آل عمران: ١٦٤] .

وفي آيات سورة الجمعة قوله تعالي: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ .

[الجمعة: ٢] .

فهو الذى زكى أخلاقهم وعلمهم الكتاب والحكمة وما لم يكونوا يعلمون ورفعهم من الضلال المبين - الذى كانوا فيه قبل بعثته - إلى الهدى والنور والصراط المستقيم.

المطلب الخامس

تحرى استعمال المصطلحات الإسلامية

لقد كان من تأثير الغزو الفكرى الأوروبى للمسلمين ، أن شاعت بينهم مصطلحات وألفاظ ومفاهيم غريبة عن عقيدتهم وثقافتهم ، حتى كادت المصطلحات الإسلامية أن تختفي، ووقع في ذلك كثير من الكُتَّاب الذين كتبوا في التاريخ الإسلامى مع أن كثيراً منهم لا يُتَّهمون في دينهم ولا في صدق نياتهم ، لكنهم كانوا ضحايا الفكر العلمانى الوافد، الذى لم يسلم منه حتى أصحاب الثقافة الشرعية، فنجد مع الأسف أنه قد شاع استعمال كثير من المصطلحات الدخيلة على الفكر الإسلامى ليس في مجال التاريخ الإسلامى وحده، وإنما في أغلب كتب الثقافة الإسلامية،ومن هذه المصطلحات نوع له بريق ومعانى مضللة مثل الوحدة العالمية، الإخاء الإنساني، السعى لخدمة البشرية، السلام الدولي ، التعاون العالمي ، المساواة ، الحرية ، زمالة الأديان ، التقارب بين المؤمنين بالله في مواجهة الإلحاد والشيوعية. . .إلخ.

تلك العبارات الموهمة غير محدودة الدلالة، والمسلم قبل أن ينساق وراء هذه الألفاظ الرنانة ويأخذه بريقها يجب عليه أن يزن مثل هذه المصطلحات بالميزان الشرعى ويسأل نفسه ما هى أصول الوحدة التى تدعو إليها بمثل هذه العبارات؟ وما ركائزها؟ وعلى أى أساس نقيم هذه الوحدة العالمية؟ ثم هذه الدعوة للمساواة والحرية والعدالة، على أى منهاج تقام وما هو الميزان الذى يحدد دلالة هذه الألفاظ، وما ضوابط ذلك؟ ، ثم التقارب بين الأديان وهذه الزمالة ، والتعاون ضد الإلحاد على أى منهج يقوم.

إن هناك منهجاً ربانياً واحداً ومئات من المفاهيم والمناهج الجاهلية، فهل المقصود إقامة البشرية على المنهج الربانى والعبودية لله وحده تحكيم شريعته؟ ، أم

المقصود إقامة خليط من هذه المناهج ذات المفاهيم المتضادة؟ ، يجب أن يكون واضحاً. فتصور المسلم وعقيدته أنه لا التقاء بين الحق والباطل، ولا بين الهدى والضلال ولا بين الإسلام والكفر، وأن الكفر وإن اختلفت مناهجه، وتعددت طرقه، وتباينت درجاته فإنه ملة واحدة ، سواء صدر من نصارى أو من يهود أو من مشركين أو وثنيين أو شيوعيين. وليعلم أن منهج الرسل – عليهم السلام – في إقامة الدين الحق لم يقم على شيء من هذا الخليط ، إنما قام على البراء من المشركين وإقامة الحنيفية السمحة ملة الإسلام.

كما أن هناك مجموعة من المصطلحات الأوربية جرى ترجمتها واستعمالها لدى طائفة من الكتاب المسلمين، وهى ذات مضامين ودلالات محلية وتاريخية، ولا يمكن فصلها عن ذلك الوسط الاجتماعى والظروف التاريخية والثقافية التى واكبت نشوء هذا المصطلح أو ذلك ، مثال ذلك الديمقراطية ، والاشتراكية ، والدكتاتورية، والإمبراطورية واليمين والشمال واليسار، والمحافظين، والليبرالي، والإمبريالى والأحرار، والأرستقراطية... إلخ.

فمثلاً الديمقراطية لا يمكن أن تستعمل كمرادف أو بديل لمصطلح الشورى في المفهوم الإسلامي ، لأن الشورى في الإسلام مقيدة بالنصوص الشرعية بينما الديمقراطية تعنى في أبسط معانيها (حكم الشعب للشعب بالشعب) أى أن الشعب هو مصدر التشريع ، وفي مثال آخر مصطلح الاشتراكية لا يمكن أن يكون بديلاً لمعنى التكافل الإسلامي، لأن هذا التكافل يرتبط بأهداف ودوافع إيمانية لا تلتقى مع أهداف المذهب الاقتصادى الاشتراكى في طريق ومنهج. وقد تابعنا المستعمرين – مع الأسف – حتى في التوزيع الجغرافي والتوزيع التاريخى الذى استخدموه وتلقينا مصطلحاتهم وأنه لا ارتباط لها بواقعنا ولا تاريخنا، فمثلاً في التوزيع الجغرافي يقولون الشرق الأدنى ، والشرق الأوسط ، والشرق الأقصي.

وذلك أن المستعمر الأوروبى اعتبر نفسه في مركز الأرض فأطلق هذا التوزيع

لموقعه، وكذلك التوزيع التاريخي مثل العصور القديمة والعصور الوسطى والعصور الحديثة ، وهذا التوزيع مر بمراحل وتقلبات تاريخية عاشتها أوروبا مما يجعل لكل فترة من الفترات مميزات وخصائص ومفاهيم مستقلة تبعاً للتطورات والانقلابات الفكرية والعقائدية التى عاشتها أوروبا في كل حقبة من هذه الحقب، بينما التاريخ الإسلامى بما فيه تاريخ الأنبياء يمثل وحدة واحدة بالنظر إلى المفاهيم والنظرة السائدة والتى لا تتبدل تبعاً لتبدل الزمان والدول والحكام ، لأنه تاريخ أمة ذات عقيدة واحدة لم تتبدل، ولذلك كان القصد من التوزيع إلى عصور لأغراض التأليف والدراسة، فليس بلازم أخذ هذا التوزيع الأوروبى ولا متابعته عليه، لأنه يفتت تاريخنا ويوجد الحواجز بين عصوره، ومما يبعث في النفس أسى وحسرة أن نرى طائفة من المسلمين عندما يعرضون لتاريخ أمة من الأمم الكافرة ينبهرون من تقدمها فيضيفون عليه روح التقدم والحضارة ويثنون عليه ثناءً كثيراً ويفخرون بمنجزاتها وآثارها ، وتجدهم كذلكم يخلعون مثل هذه الألقاب على الدول الكافرة المعاصرة كقولهم العالم المتحضر، والعالم المتقدم، والدول العظمى، في حين يسمون البلدان الإسلامية بالبلدان النامية ، والعالم المتخلف، أو دول العالم الثالث. وهذا الانبهار والإعجاب لفقدانهم للميزان القرآنى لمعنى التقدم والحضارة ولانخداعهم بالتيسيرات المادية التى وجدت في هذه الدول، ومن نسيانهم للسُّنَّة الربانية التى دل عليها قوله تعالي: ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ** ﴾ [الأنعام: ٤٤]، ومن فقدانهم لمفهوم الولاء والبراء ، والحب في الله والبغض في الله ، أوثق عرى الإيمان.

المطلب السادس

الابتعاد عن أسلوب التعميم قبل حصول الاستقراء

ومما يلزم ملاحظته في عرضه أن لا يستعمل أسلوب التعميم وإنما تكون عباراته محدودة الدلالة، واضحة المعني، وأن لا يطلق حكماً عاماً على أهل بلد أو على أهل زمان أو على جنس من الأجناس أو ينفي حدوث واقعة معينة ، قبل حصول الاستقراء التام، فمثلاً حادثة مقتل الخليفة الراشد الشهيد عثمان بن عفان وموقف أهل المدينة من ذلك لا يصح أن نقول: إن أهل المدينة كلهم تخاذلوا عن نصرته أو رغبوا في قتله، أو نقول -كما تقول الطائفة المخذولة من الروافض -: إن الصحابة أجمعوا على قتله!! وأنى لهم مثل ذلك !! .

بل نقول: إن أهل المدينة قد وقفوا إلى جانب خليفتهم ودافعوا عنه، كما تدل على ذلك الأخبار الصحيحة، ولكنه منعهم من ذلك وألزم كل من يرى أن له عليه طاعة بالخروج من الدار، لأنه لا يريد إراقة الدماء ووقوع مذبحة بين المسلمين من أجله، ورأى أن أقصى ما يصل إليه أمر الثوار هو قتله، وفرح بالشهادة وتأول حديث رسول الله ﷺ في تبشيره بالجنة على بلوى ستصيبه (١) بهذا الأمر الذى وقع له في حصار الثوار.

ومثل ذلك أن نأتى على مجتمع من المجتمعات أو من العصور فنحكم على أخلاق أهله من خلال شعر اثنين أو ثلاثة أو حتى مائة من الشعراء الماجنين فتقول: إن ذلك عصر مجون وتهتك وخلاعة !! ، فمن المعروف أن كل مجتمع يحوى عناصر مختلفة من الصالحين والطالحين، والحكم يكون للغالب منهما ، كما أنه لايجوز أن نطلق مثل هذه الأحكام على أسرة من الأسر أو طائفة من الطوائف فنقول مثلاً: إن أسرة بنى أمية أسرة ظالمة، أو نقول: إن فرقة المرجئة أو المعتزلة كلهم زنادقة ومنافقون، لأن كل طائفة لا تخلو من بعض الخيرين أو العوام أو المجتهدين المتأولين ، غير أن الحكم يكون للغالب.

---

(١) **انظر**: البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ١٨١-١٨٣)، وانظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٧/ ٥٣٠)

الفصل الخامس

نبذة عن بعض مشاهير مؤرخي المسلمين

المبحث الأول

الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري

المطلب الأول

ترجمته

هو الإمام المجتهد أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي الطبرى البغدادي [١] ، ولد سنة ٢٢٤ هـ ، حفظ القرآن في بلدة آمل بطبرستان ثم رحل في طلب العلم سنة ٢٣٦ هـ ، فلم يزل طالباً مولعاً به إلى أن مات [٢] وقد أكثر الترحال ، ولقى نبلاء الرجال ، ثم استقر به المقام في بغداد حتى توفي سنة ٣١٠ هـ ، وصفه الخطيب البغدادى بقوله : « كان أحد أئمة العلماء يحكم بقوله، ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره ، فكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسنن وطرقها ، صحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها ، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين عارفاً بأيام الناس وأخبارهم » [٣] .

ويقول فيه الناقد الذهبي: « كان من أفراد الدهر علمًا وذكاءً وكثرة

---

(١) تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي (٢ / ١٦٢) .

(٢) لسان الميزان : لابن حجر (١٠٢) .

(٣) تاريخ بغداد : (٢ / ١٦٣) .

تصانيف قل أن ترى العيون مثله» [١] .

وقال أيضاً : «كان ثقة صادقاً حافظاً رأساً في التفسير إماماً في الفقه والإجتماع والاختلاف، علامة في التاريخ وأيام الناس عارفاً بالقراءات وباللغة وغير ذلك » [٢] .

وكان رحمه الله عف النفس كريماً ، وقد كانت له مواقف مع بعض الخلفاء والوزراء [٣] فلم يقبل صلاتهم وهداياهم ولا ما عرضوا عليه من المناصب، ورضي بالكفاف من العيش، وزهد في الدنيا ورغب عنها وقنع بما كان يرد عليه من حصة من ضيعة يسيرة خلفها والده بطبرستان [٤] ، وقصر حياته على طلب العلم وكان حصوراً لا يعرف النساء [٥] ، لذلك كثرت تصانيفه وطال نفسه فيها فكتابه جامع البيان من أطول التفاسير وأشملها، حتى قال في وصفه والثناء عليه أبو حامد الإسفراييني : «لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل تفسير محمد بن جرير لم يكن كثيراً » [٦] .

وكتابه تاريخ الرسل والملوك من أوسع كتب التاريخ وأغزرها مادة ، وكذلك يصف العلماء كتابه (تهذيب الآثار) [٧] بأنه لم يصنف مثله ولا يستطيع أحد ذلك !! .

---

(١) سير أعلام النبلاء : (١٤ / ٢٦٧).

(٢) المرجع السابق (١٤ / ٢٧١-٢٧٥).

(٣) انظر: المرجع السابق (١٤ / ٢٧١-٢٧٥)، ولسان الميزان : (٥ / ١٠٢-١٠٣).

(٤) المرجع السابق : (١٤ / ٢٧٤).

(٥) لسان الميزان : (٥ / ١٠٢).

(٦) المرجع السابق : (١٤ / ٢٧٢).

(٧) البداية والنهاية (١١ / ١٤٥).

المطلب الثاني

عقيدته

محمد بن جرير الطبرى من كبار علماء الأمة ومجتهديها حسن المذهب والاعتقاد، ثقة في علمه، وقد نقل الذهبى جملاً من كتابه (التصور في معالم الدين) لكى يدلل على سلامة عقيدته ثم عقب على ذلك بقوله : «تفسير هذا الإمام مشحون في آيات الصفات بأقوال السلف على الإثبات لها، لا على النفي والتأويل وأنها لا تشبه صفات المخلوقين أبداً» (١) .

وقال في موضع آخر: «كان ابن جرير من رجال الكمال وشنع عليه بيسير تشيع، وما رأينا إلا الخير، وبعضهم ينقل عنه أنه كان يجيز مسح الرجلين في الوضوء ولم نر ذلك في كتبه» (٢) .

وللإمام الطبرى رسالة في بيان عقيدته (٣) يقرر فيها صحة خلافة الخلفاء الراشدين وأن ترتيبهم في الفضل هو حسب ترتيبهم في الخلافة (٤) وهذا هو مذهب أهل السنّة .

المطلب الثالث

منهجه في الكتابة التاريخية

صنف الإمام أبو جعفر الطبرى كتاباً حافلاً في التاريخ البشرى وهو من كبار علماء الشريعة وأئمة الفقه متضلعاً في كثير من العلوم مثل التفسير والقراءات والعربية ومذهب الفقهاء والسير والأخبار لذلك كان كتابه (تاريخ الرسل والملوك) مبنيًا على هذه الثقافة الواسعة .

---

(١) الذهبي المصدر السابق: (١٤ / ٢٨٠).

(٢) المرجع السابق: (١٤ / ٢٧٧).

(٣) طبعت في بومباي على الحجر سنة ١٣١١هـ، وحققها عبد الله بن حميد في مكة سنة ١٣٩٤هـ.

(٤) المجموعة العلمية السعودية: (٩-١٠).

وقد بدأ أبو جعفر كتابه بمقدمة عن الكون - الزمان والليل والنهار والسماوات والأرض والشمس والقمر - وعن إبليس وما كان فيه من نعمة وكيف أنه كفر وأفسد، وعن خلق آدم ما صار عليه حتى أهبط إلى الأرض (١) .

ثم بدأ بتاريخ البشرية منذ هبوط آدم إلى الأرض وما كان في عهده وعهد أبنائه من أحداث، وجعل تاريخ الأنبياء هو المنطلق لتاريخ الإنسانية، وقد أعطى معلومات واسعة عن التاريخ الفارسي، وعقد مقابلة بين تاريخ مدة أيامهم وأيام بنى إسرائيل (٢) .

أما تاريخ الروم : فلم يذكر منه إلا ما كان له علاقة بأرض النبوات ـ العراق والشام والجزيرة العربية - فهو يذكر قصة الإسكندر ومن ملك أرض الشام منذ رفع عيسى عليه السلام إلى عهد النبى ﷺ .

أما تاريخ العرب: فقد ذكره مفوقاً من خلال تاريخ الإنبياء مثل هود وصالح عليهما السلام ومثل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ومثل سليمان بن داود، من خلال تاريخ الملوك والجبابرة (٣) من الفرس والروم وأعطى معلومات عن قريش ومن جاورها عند ذكره ولادة رسول الله ﷺ ونشأته حتى بعثته وهجرته. ومصادر الطبرى فيما ذكر من تاريخ الرسل والملوك والزمان قبل البعثة النبوية هى القرآن الكريم ، وأقوال علماء التفسير التى يرويها عنهم بالأسانيد ، وأقوال من سماهم أهل العلم بأخبار الماضين وأمور الأمم السالفين.

وتاريخ الطبرى يمثل قمة التأليف التاريخى عند المسلمين في القرون الثلاثة الأولى، من حيث الشمول الزمانى والمكاني، وإطالة النفس في بسط الأحداث ومحاولة الإحاطة بكافة جوانبها، وأيضاً من حيث المنهجية العلمية، وذلك بنسبة

---

(١) تاريخ الطبري (١ / ٩-١٢٦) ط: دار المعارف بمصر.

(٢) المرجع السابق: (١ / ٥٧١) .

(٣) المرجع السابق: (١ /٥٥٨- ٥٦٠- ٥٦٦- ٥٦٧- ٦٠٩- ٦٣٢)

الأقوال إلى أصحابها مع استقامة النظرة التاريخية وإعطاء صورة متكاملة عن حياة الأمة في دقة وأمانة بعيداً عن النظرات الضيقة والأهواء الحزبية.

ومن ميزات تاريخ الطبرى أنه رتبه على السنين بحيث يتمكن الباحث من ملاحظة الأطوار التى مرت بها الأمة الإسلامية في بنائها الحضارى ومعرفة حالات الضعف والقوة التى مرت بها ، وملاحظة ارتباط هذا بحركة الجهاد في سبيل الله والالتزام بشريعته، فكلما كانت الأمة ملتزمة بشريعة الله مجاهدة في سبيله كانت قوية مهيبة، وكلما وقع بها الانحراف وصرف الجهاد في سبيل الله إلى الصراع الداخلى والحفاظ على كراسى الحكم ضعفت وأصابها الهوان.

المطلب الرابع
نظرتـــه للتاريـــخ

الإمام الطبرى من كبار علماء الإسلام ونظرته للتاريخ - أو ما يسمى اليوم بفلسفة وتعليل الحوادث التاريخية - تنبثق من اعتقاده وتصوره الإيماني، فهو مؤمن بالله وبأمره ونهيه، وبعدله وبقضائه وقدره، وبأن له سنناً ماضية لا تبديل لها، ومؤمن بحرية الإنسان وقدرته على الاختيار، وأنه مكلف بوظيفة العبودية لله والخلافة في الأرض ، وعمارتها بشرع الله ومنهجه، وبأن الله يثبت الطائع المستجيب ويعاقب العاصي الناكث، ولذلك كانت أحكامه التاريخية على الحوادث تنبثق من هذه النظرة المؤمنة بالله المتمسكة بشرعه وأحكامه ، كما أن تدوينه لتاريخه على حسب سنى الملوك والرسل - الذين مهمتهم التوجيه وسلطة التنفيذ - هو من أجل أن يساعد على توضيح العبرة للمعتبرين ولكى يجلى للبشرية واقعهم الذى كان صفحة وراء صفحة ويريهم كيفية تحقيق سُنن الله عليهم، من نصرة المؤمنين المنفذين لشرعه من الرسل وأتباعهم، وهلاك

الظالمين المحادين لله ولرسله .

يقول الطبرى في مقدمة كتابه موضحاً هذه المعاني: «وأنا ذاكر في كتابى هذا من ملوك كل زمان، من لدن ابتداء ربنا جل جلاله خلقهم إلى حال فنائهم ، وممَّن انتهى إلينا خبره ، ممن ابتدأه الله تعالى بآلائه ونعمه فشكر نعمه من رسول أو ملك مسلط أو خليفة مستخلف، فزاده إلى ما ابتدأه به من نعمه في العاجل نعماً وإلى ما تفضل به عليه فضلاً، ومن أخَّر ذلك له منهم وجعله لهم ذخراً، ومن كفر منهم نعمه فسلبه ما ابتدأه به من نعمة وعجل له نقمة، ومن كفر منهم نعمة فمتعه بما أنعم به عليه إلى حين وفاته وهلاكه، مقروناً ذكر كل من أنا ذاكره منهم في كتابى هذا بذكر زمانه وجُلّ ما كان من حوادث الأمور في عصره وأيامه» (١) .

لقد أكرم الله سبحانه وتعالى خلقه بالإسلام حتى يتحرر الناس من هيمنة التصورات الفاسدة، والعقائد المنحرفة والمناهج الباطلة، والقيم الحقيرة والأخلاق الرديئة وحتى تنجو البشرية من الفساد والتخبط ومن الظلم والاستبداد .

فالذى يعرف الجاهلية هو الذى يدرك قيمة الإسلام ويعرف كيف يحرص على رحمة الله المتمثلة فيه، ونعمة الله المتحققة به . إن جمال هذه العقيدة وكمالها وتناسقها، وبساطة الحقيقة الكبيرة التى تمثلها... إن هذا كله لا يتجلى للقلب والعقل كما يتجلى من مراجعة ركام الجاهلية ـ السابقة للإسلام واللاحقة ـ عندئذ تبدو هذه العقيدة رحمة حقيقية، رحمة للقلب والعقل ورحمة بالحياة والأحياء، ورحمة بما فيها من جمال وبساطة ووضوح وتناسق، وقرب وأنس، وتجاوب مع الفطرة مباشر عميق (٢) وصدق الله العظيم: ﴿ **أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [الملك : ٢٢] .

---

(١) تاريخ الطبري: (١/ ٦).

(٢) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته (٣٩).

المبحث الثانى

خليفة بن خياط

المطلب الأول

ترجمته

هو خليفة بن خياط العصفرى التميمى أبو عمرو البصرى الملقب بشباب. وقد نشأ خليفة في وسط علمى حيث كان والده من أهل الحديث، إلا أنه اهتم إلى جانب الحديث بالتاريخ والسيرة وأيام الناس قال عنه الذهبى - رحمه الله - : « حدث عنه البخارى بسبعة أحاديث أو أزيد في صحيحه »، وقال: « كان صدوقاً نسابة عالماً بالسيرة والأيام والرجال ، وثقه بعضهم ، ولينه بعضهم بلا حجة ، ومات سنة أربعين ومائتين» (١) .

المطلب الثاني

منهجه

كتب ابن خياط كتابين في التاريخ أحدهما في الطبقات والآخر في التاريخ العام وهو معتبر من رجال الحديث ورواته، ومعلوم دقة التزامه بالإسناد خاصة في العصر الذى عاش فيه خليفة، وقد فرق ابن خياط في منهجه في الكتابين، ففي كتاب الطبقات أهمل الإسناد واكتفي بتقديم قائمة مصادره في أول الكتاب، بينما التزم الإسناد في كتاب التاريخ، وإن كانت أسانيده ليست كلها من قبيل الصحيح ، وإنما فيها إرسال وانقطاع وإعضال ، وفي رجاله المجهولون والضعفاء الذين لا يحتج بروايتهم عند أهل الحديث.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١١ / ٤٧٢-٤٧٤) .

وقد ركز خليفة بن خياط اهتمامه بعلم الحديث ورغبته في خدمته ، فنجده يذكر في نهاية كل سنة وفيات العلماء والمشهورين، واستعمل الإسناد الجمعى بكثرة، وأورد معلومات تاريخية بدون إسناد وخاصة قوائم أسماء الموظفين والعاملين في الإدارة الذين يذكرهم بعد نهاية حكم كل خليفة .

كما أنه قدم معلومات موجزة لكنها وافيه عن الفتح الإسلامى في عصر الراشدين والعصر الأموي ، وهو لا يعنى بالتفصيلات كثيراً ولا أسباب الحوادث ولا نتائجها وإنما يكتفي بعرض الحادثة ذاتها .

ويعد كتاب التاريخ لخليفة بن خياط من أقدم ما وصلنا من الكتب التاريخية المرتبة على النظام الحولى وعلى الرغم من إيجازه فيه إلا أن القارىء يستطيع من خلاله أن يرصد حركة الأمة الإسلامية والاتجاهات التى سارت فيها،خاصة نشاط الفتوح والجهاد في سبيل الله وبسالة المجاهد المسلم وحرصه على إدخال الناس في الدين الحق، وكيف يكون هذا الكيان الكبير والدولة الإسلامية بمجتمعها المترابط ورقعتها الواسعة .كما أنه لا يخلو من رصد للحركة الفكرية والاتجاهات الدخيلة سواء أكان ذلك إيجابياً أو سلبياً، وهو يقدم معلومات موثقة بعبارات موجزة واضحة في دقة وأمانة علمية دون محاباة لأحد أو تأثر بنظرة حزبية، وكتابته التاريخية بعيدة عن الحشو والمبالغة وعن أسلوب القصص والأيام [١] .

قلت: ومن حق الأجيال القادمة والحاضرة أن تعرف من الذين جاءوا بهذا الدين العظيم إلى بلادنا جملة وتفصيلاً وكيف تربوا وما هى دوافعهم الحقيقية في هذا الفتح العظيم، ولقد لاحظت أن الذين كتبوا عن الفتوحات الإسلامية عموماً وفي الشمال الإفريقى خصوصاً أنهم لم يعطوا لقادة الفتح حقهم من التعريف بهم وبيان عقيدتهم ومبادئهم وحضارتهم التى حملوها معهم من

---

(١) راجع: كتاب منهج كتابة التاريخ الإسلامي، للعلياني (٤٣٢-٤٦٣)

جزيرة العرب الصحراء القاحلة قبل الإسلام، بل وجدت من يحاول تلطيخ القادة وجيوش الفتح الإسلامي، وجعل لذلك الفتح المبارك دوافع اقتصادية ونزعة توسعية واستعباداً للآخرين ولم يكن لهم فيما قالوه أدلة ولا براهين ولا حجج قاطعة، بل حجتهم فيما قالوا أهواء ومتابعة لوحى الشيطان ، حرصوا على إخفاء الحقائق الساطعة والأنوار البهية الواضحة ، والقدوات المباركة من قادة وجنود ودعاة فقهاء وعلماء، واجتهدوا في توسيع النقاط السوداء في تاريخنا وجعلوه تاريخاً دموياً ونزاعاً سياسياً على الملك والسيطرة والزعامة .

ونسأل الله العلي الكبير أن يبارك في هذا الجهد المتواضع لتنوير الأجيال ، وإقامة الحجة على أعوان الشيطان ، قال تعالى : ﴿ **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ** ﴾ [الرعد : ١٧] .

الباب الثاني

الشمال الإفريقي قبل الفتح الإسلامي

لا يخفى أن من الضرورة بمكان ونحن نتكلم عن تاريخ ليبيا أن نتناول الشمال الإفريقي على الجملة بشيء من التعريف به اسمياً، وتضاريساً ، وسكاناً، وديانة، بحث تكتمل صورته في ذهن القارئ ويتصور أجناس الناس، وما كانوا عليه من ديانة ، أوضاعهم السياسية والحربية والاجتماعية تصوراً كاملاً حتى يستطيع استخلاص العبر والدروس من ذلك ، لأن الحكم على شيء فرع عن تصوره، وبذلك يتحقق المقصود من كتابة هذا الكتاب.

الفصل الأول

سكانه

المبحث الأول

أصل كلمة إفريقيا ومدلولها

جاء في كتاب (قادة فتح المغرب العربي) قوله: أطلق الفنيقيون لفظ أفري (**Aphri**) على أهل البلاد الذين كانوا يسكنون حول مدينتهم القديمة (**Utlca**) وعاصمتهم قرطاجنة مدينتهم الحديثة، وعنهم أخذه اليونان فأطلقوه على أهل البلاد الأصليين الذين يسكنون المغرب من حدود مصر إلى المحيط، ومن ثم سميت هذه المنطقة (أفريكا) أي بلاد الأفري واستعمل هذا الاسم للدلالة على هذه المنطقة، وأخذ معنى هذا اللفظ يتسع شيئاً فشيئاً كما اتسع سلطان الرومان في أفريقية فأصبحت ولاية إفريقية القيصرية تضم ولاية إفريقية الأصلية والجزء الشرقي من تونس الحالية، والمنطقة الداخلية التي تمتد حتى (فزان)، أما

بقية إفريقية الرومانية فسمي الجزء المقابل منها للجزائر الحالية: نوميديا، ويلي ذلك موريتانيا بقسميها القيصرية والطنجية ، فإفريقية تشمل كل ما دخل في طاعة الرومان من هذه القارة من برقة إلى طنجة، وعن البيزنطيين أخذ العرب لفظ: إفيريقية، فأرادوا به في أول الأمر كل ما يلي مصر غرباً حتى ساحل المحيط الأطلسي ، وهذا هو مفهوم إفريقية العام الذي يكاد يعادل مفهوم المغرب.

أما مفهوم إفريقية الخاص فهو يعني الأجزاء الشرقية من المغرب التي تعادل ولاية إفريقية الرومانية الأصلية ، أي البلاد التونسية الحالية مع بعض الأجزاء الغربية لولاية طرابلس (ومنها المدينة) والتخوم الشرقية لبلاد الجزائر إلى (بجاية) في ولاية (قسطنطينة) وعلى ذلك فإقليم إفريقية هو أول أقاليم المغرب (١) .

أصل كلمة المغرب ومدولها:

جاء في نفس المصدر قوله: « بلاد المغرب مصطلح يقصد به كل من الأقاليم الواقعة غرب مصر والتي تشمل القارة الإفريقية وتتضمن حالياً البلاد الليبية بولاياتها الثلاث (برقة، وطرابلس، وفزان)، وتونس، والجزائر، بصحرائها المترامية إلى تخوم السودان، وأخيراً المغرب الذي كان يعرف إلى عهد قريب باسم مراكش نسبة إلى عاصمتها الجنوبية ، ويمتد طبيعيًّا نحو الجنوب إلى تخوم السنغال والنيجر والمغرب عند الكتّاب الأوائل ويبدأ مما يلي إفريقية غرباً إلى سواحل المحيط، فقد ولى يزيد بن عبد الملك يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج بن يوسف الثقفي إفريقية والمغرب، وهذا معناه أن المغرب هو غير إفريقية، والمغرب الأقصى، هو بلاد مراكش (المغرب) والمغرب الأوسط هو بلاد الجزائر الحالية، وخط التقسيم بين المغربين: الأقصى والأوسط هو مجرى وادي ملوية أو ما بين تلمسان و (تازا) أما المغرب الأدنى، فهو بلاد القيروان أو ما يسمى اليوم بتونس) (٢) .

---

(١) قادة فتح المغرب العربي، محمود شيت خطاب، الجزء الأول (١٣-١٤).

(٢) المرجع السابق: (١٤-١٥).

المبحث الثاني

العنصر البشري

المطلب الأول

العنصـــر البربـــري

قال صاحب كتاب قادة فتح المغرب العربي: « البربر سكان المغرب الأصليون، ونقصد هنا بالمغرب من حدود مصر الغربية إلى المحيط الأطلسي، وهم أقدم أمة عرفها التاريخ في الشمال الإفريقي، ومن المعقول جداً أن يكون العرب قد أخذوا لفظ (البربر) عن اللاتينية (**Barbari**) مع تغيير معناه، إذ كان الأفارقة اللاتينيون يطلقونه عادة على الأهلين.

وقد حاول الكتاب العرب تفسير لفظة: (بربر) فأوردوا في ذلك عدداً من الآراء يمكن تقسيمها إلى قسمين: أولهما: تفسير كلمة (البربر) تفسيراً لغوياً، لأن لغة القوم في رطانة أعجمية تختلط فيه الأصوات التي لا تفهم، فقيل لهم: (ما أكثر بربرتكم) ! ، كما يقال: بربر الأسد إذا زأر بأصوات غير مفهومة أما ثانيهما، فتفسير كلمة: (البربر على حسب عادة العرب في تقسيم الشعوب على الأسس المتعارف عليها عندهم في علم الأنساب ، إذ قيل: شعب المغرب اتخذ اسم أحد آبائه البعيدين، هو برّ بن قيس عيلان، ولكن ابن حزم يقول عن ذلك: (... وهذا باطل لا شك فيه، وماعلم النسابون لقيس ابناً اسمه: بر أصلاً، ولا كان لحمير طريق إلى بلاد البربر، إلا في تكاذب مؤرخي اليمن).

ولم يأت القرن الرابع الهجري حتى كانت أنساب البربر قد دونت بالعربية وأصبحت مثل أنساب العرب، والظاهر أن هؤلاء النسابة اتخذوا شجرة الأنساب العربية التي تقسم العرب إلى قسمين كبيرين ، ينحدران من قحطان وعدنان

- نموذجاً - فقسموا قبائل البربر إلى مجموعتين كبيرتين هما : البرنس، والبتر، وقالوا: إن الجماعة الأولى أبناء برنس بن بربر، وإن الجماعة الثانية أبناء مادغيس ابن بربر الذي لقب بالأبتر) (١) .

وقال أيضاً عن البرانس: البرانس من قبائلهم المشهورة عشرة: إزداجة، مصمودة، أربة، عجيسة، كتامة، صنهاجة، أريغة، ويضاف إليهم حسب رأي البعض لمطة، وعكسورة، وجزولة (كزولة).

وهذه الأصول الكبيرة تنقسم إلى فروع صغيرة، فقبيلة هوارة تنحدر من أوربغ، وقبيلة مكيلة تنحدر من هوارة، وقبيلة غمارة تنحدر من مصمودة (٢) .

وقال أيضاً عن البتر: البتر من قبائلهم المشهورة أربعة: أداسة ونفوسة وضريسة ونبولوا الأكبر، وهذه الأصول الكبيرة تنقسم إلى فروع صغيرة، فمن قبائل (لوا) تعد قبيلتا نفزاوه ولواتيه ، وينحدر من (نفزاوة) قبيلة (وطاطة) وينحدر من (وطاطة) قبيلة (تيرغاش) ومن (تيرغاش) تنحدر قبيلة (ورفجومة) ... إلخ (٣) .

والذي يلاحظ أنه رغم انقسام البربر إلى برانس وبتر وانقسام هؤلاء إلى قبائل مختلفة ، فإن القرابة موجودة بين الجماعتين ، كما أن الصلة وثيقة بين فروع كل منهما، فالنسابون يختلط عليهم الأمر إلى درجة أنهم يضعون قبيلة هوارة في البرانس، ثم يعدونها من البتر أو يجعلونها أختًا لقبيلة أداسة البترية (عن طريق الأم) وكذلك الأمر بالنسبة إلى قبيلة زواو التي تعد من البتر ويعتبرها ابن حزم من كتامة البرنسية.

وابن خلدون يحذو حذو من ينفي انتساب البربر إلى العرب مثل ابن حزم

---

(١) المرجع السابق: (١٤-١٥).

(٢) المرجع السابق: (١٦-١٧).

(٣) المرجع السابق: (١٦).

والحق أن للنسابين العرب والبربر العذر في جعل شجرة النسب البربرية أشبه ما تكون بشجرة النسب العربية، بل وفي إلحاق البربر بالأصل العربي فمما لا ريب فيه أن الشبه قريب بين العربي والبربري ، وهذا أمر وليد البيئة، لأن طبيعة بلاد المغرب يغلب على أهلها الطابع الصحراوي وهي أشبه بطبيعة بلاد العرب مما يترتب عليه نتاج ذو طبيعة متجانسة في الاجتماع والعمران، لذلك ينقسم البربر إلى طائفتين متباينتين، وهما طائفة البربر الحضر (سكان المدر أي البيوت) وطائفة البربر الرحل (سكان الوبر أي سكان الخيام)، وسكان الحضر منهم يسكنون النواحي الشمالية الخصبة والسفوح المزروعة ، وسكان الوبر منهم يسكنون الصحاري والواحات التي تلي ذلك جنوباً وشرقاً.

والفوارق بين الطائفتين اجتماعية لا جنسية، إذ أن البربر المستقرين ينزلون النواحي الخصبة بجبال (زوراس) أي جنوب وسط الجزائر الحالية، وجنوب المغرب، وبعض أجزاء تونس الغربية،وطبيعي أن يكونوا على جانب من الحضارة لا تصالهم بالقرطاجنيين ، واللاتين ، وحضارات البحر الأبيض المتوسط، فاشتغلوا بالزراعة والصناعة وظهر فيهم نفر أخذوا بأسباب الحضارة اللاتينية مثل (يوبا) أمير (نوميديا) الذي درس وتربى في روما، و(يويجرتا) عدو الرومان اللدود، و(ماكسن) الذي لعب دوراً سياسياً هاماً في الحرب ما بين روما وقرطاجنة.

أما البربر الظواعن، فهم بدو يعيشون على الرعي ويميلون إلى الإغارة على ما يجاورهم من نواحي العمران، فكان هذا الاختلاف في الأحوال الاجتماعية، سبباً في نزاع طويل وحروب مستمرة بين الفريقين، فكان الرحل لا ينفكون يغيرون على مزارع المستقرين وقراهم، فاضطر هؤلاء إلى أخذ الحذر منهم والاحتماء من آذاهم ، والاستعانة عليهم باللاتين أو البيزنطيين، مما أدى إلى ظهور الفوارق بين الطائفتين بشكل جلي واضح وكان له أبعد الأثر في مستقبل البلاد السياسي، إذ حال دون اتحاد أهلها، وسهل غزوها ومكن الفاتح (الفتح لا يكون إلا بدعوة

الحق) الأجنبي من أن يستعين بفريق على فريق ، وحال دون نشوء دولة بربرية واحدة أو شعب متكاثف متناسق، أفاد الرومان من هذه الحال إفادة كبرى ، فاستعانوا بفريق على فريق ، فأمكنهم ذلك من البلاد ، وثبت قدمهم فيها ، أما البيزنطيون، فلم يوفقوا إلى الفائدة من تلك الحال ، مما جعل سلطانهم على البلاد ضعيفاً واهياً (١) .

المطلب الثاني
العنصـــر الإفريقـــي

تطلق كلمة - الأفارقة - في بعض الكتب ويراد بها العنصر ذي البشرة السوداء على سكان القارة الإفريقية الأصليين، بيد أن في بعض الكتب المعاصرة إذا ما أطلقت هذه الكلمة يراد بها سكان القارة الإفريقية بحدودها الجغرافية الحالية ، وتشمل ذوي البشرة السوداء والبيضاء ، كسكان الشمال الإفريقي (المغرب العربي) .

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب في تعريفه للعنصر الإفريقي: (مع أن هذه التسمية نسبة إلى إفريقية ، إلا أنه يفهم أن الأفارقة مختلفون عن البربر والروم .

وعلى ذلك يمكن أن يكون الأفارقة دخلوا في خدمتهم وانصبغوا بالحضارة الرومانية كما دخلوا في المسيحية، ورغم أن كثيراً من هؤلاء الأفارقة دخلوا في الإسلام، فإن الكثيرين منهم ظلوا يتكلمون لغة خاصة بهم ربما كانت مزيجاً من اللاتينية والبربرية ، أو لهجة محلية) (٢)

---

(١) (٢) المرجع السابق: (جـ١ / ١٨)

المطلب الثالث

العنصـــر اليهـــودي

لا يخفى أن تواجد العنصر اليهودي في العصور الأولى كان ضئيلاً جداً، وسبب تواجده في منطقة الشمال الإفريقي كان لعدة أسباب منها: سبب سياسي: وهو حب السيطرة وتوسع نفوذهم في أرجاء المعمورة، وسبب اقتصادي: حيث كان الشمال الإفريقي ينعم بخيرات البر والبحر، كل هذه الأسباب والدوافع مجتمعة كانت وراء مجيء العنصر اليهودي للمنطقة، حيث وصلوا على هيئة جماعات صغيرة عن طريق الفنيقيين قبل وصولهم الأخير إلى بلاد المغرب أيام الرومان .

يقرر ذلك الأستاذ محمود شيت خطاب بقوله:

«وجد العرب – المسلمون – أيام الفتح جماعات من يهود في إفريقية، ويرى بعض الكتاب أن الأفكار اليهودية بدأت تعرف طريقها إلى البلاد عن طريق الفينيقيين، وذلك قبل أن تهاجر جماعات من اليهود إلى المغرب على أيام الرومان،وقد عمل هؤلاء المهاجرون على نشر اليهودية بين بعض قبائل البربر»(١) .

(١) قادة فتح بلاد المغرب (١/ ٢٠).

المطلب الرابع

العنصـــر السودانـــي

إن كلمة السودان إذا ما أطلقت يراد بها سكان ماوراء البحر الأحمر من القارة الإفريقية ، جنوب المغرب العربي، ويدخل في ذلك دخولاً أولياً السودان، وأثيوبيا، وأرتيريا، والصومال، وجيبوتي، حيث يعتبر سبب تواجد هذا العنصر في الشمال الإفريقي سبباً طبيعياً، لأن أراضي الشمال والجنوب مترابطة ترابطاً إلى أبعد الحدود، لدرجة تسهل بينهما عملية التنقل والتجارة والإقامة والتزاوج، لذلك تجد في سكان الشمال الإفريقي ذوي الألوان السوداء الإفريقية.

يقول الأستاذ محمود بهذا الصدد:

(إن بلاد المغرب وثيقة الصلة من الناحية الجغرافية ببلاد السوادان الغربية، ونلاحظ أن كُتَّاب اليونان القدماء يطلقون اسم الأحباش (الأثيوبيين) على أهل الأقاليم الجنوبية من المغرب ، والحقيقة أن واحات الصحراء كانت همزة وصل بين المغرب والسودان فكان من الطبيعي أن تكون بالتالي منطقة المزج بين العنصرين الأبيض والأسود) (١) .

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب (١ / ٢٠).

المطلب الخامس

العنصر الرومي والفرنجي

يقصد بهذا العنصر، العنصر الأوربي، خاصة سكان فرنسا ومن حولها، أصحاب الوجوه الحمراء، والشعور الصفراء، والعيون الزرقاء، فتواجد هذا العنصر في الشمال الإفريقي كان طبيعياً حيث إنهم - الروم والفرنج - حكموا هذا الإقليم وأقيمت لهم إمبراطوريات لفترة من الزمان لا يستهان بها ، لذلك حدث الاختلاط بينهم وبين سكان الشمال الإفريقي بصور عدة منها التزاوج والإقامة الدائمة ، حيث بقي منهم في الشمال الإفريقي بصورة دائمة ، لذلك تجد في بعض سكان الشمال الإفريقي الشبه الأوروبي من ناحية الملامح الظاهرة واضحة جداً.

يقول الأستاذ شيت في ذلك:

(رغم أن البلاد كانت خاضعة للرومان ثم للروم - البيزنطيين - لمدة طويلة منذ انهارت قرطاجنة أمام روما ، إلا أن هؤلاء ظلوا يكونون جماعة منفصلة عن البربر حقيقة ، وأنه حدث تزاوج واختلاط بين الجماعتين، إلا أن الامتزاج كان محدوداً لم يتجاوز التحالف والدخول في الخدمة العسكرية ، في بعض الأحيان، وفيما بين الحكم الروماني والحكم البيزنطي وقعت البلاد تحت حكم الوندال الجرمان الذين دخلوها عن طريق إسبانيا في القرن الخامس الميلادي، ورغم القضاء على الوندال نرى أن بعضهم تمكن من النجاة ، وأنهم لجأوا إلى داخل البلاد حلفاء أو لاجئين عند بعض القبائل ، ومن الطبيعي أن يكون قد حدث اختلاط بينهم وبين البربر ، والأقرب إلى الحقيقة أن يكون ذلك هو تفسير وجود الشقرة والزرقة بين بعض جماعات البربر، بدلاً من القول: بأن النموذج للرجل

الفصل الثاني

ديانته

المبحث الأول

الديانة المجوسية

والديانة المجوسية تدور على قاعدتين اثنتين كما هي مقررة عند أصحاب هذا المعتقد : إحداهما : بيان سبب امتزاج النور بالظلمة، والثانية : بيان سبب خلاص النور من الظلمة ، وجعلوا الامتزاج مبدأ، والخلاص معادا ، وكانت هذه الديانة الوثنية أكثر انتشاراً في بلاد الهند والعجم من الرومان والفرنجة ، أما تواجدها في فترة من الزمان قبل ظهور اليهودية والمسيحية في الشمال الإفريقي نظراً لعدم وجود دين سماوي في تلك الفترة ، ثم تواجد الرومان المجوس وغيرهم في المنطقة ، مع تأثر أهل البلاد بمن غلب عليهم ومسك بزمام أمرهم .

يقول الأستاذ محمود شيت عن ديانة سكان الشمال الإفريقي:

(كانت ديانتهم قبل المسيح المجوسية) (١) .

(١) المرجع السابق: (١/ ١٩، ٢٠) .

المبحث الثاني

الديانة اليهودية

إن الديانة اليهودية هي ديانة العبرانيين المنحدرين من إبراهيم عليه السلام، والمعروفين بالأسباط من بني إسرائيل الذين أرسل الله إليهم موسى عليه السلام مؤيداً، فحرفوها وأشركوا مع الله غيره في العبادة ونسبوا له الابن ـ تعالى الله عمن يقولون علواً كبيراً ـ وقالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء، وقالوا: يد الله مغلولة ، وكفروا بالملائكة والنبيين ، وانحرفوا عن دين موسى عليه السلام انحرافاً كاملاً ، وكان من مواطن انتشار هذه الديانة المحرفة: بلاد الشام وأوروبا، أما الشمال الإفريقي فكان نصيبه النزر اليسير ، حي وصلته هذه الديانة المحرفة عن طريق الفنيقيين على هيئة جماعات صغيرة ضعيفة ، وانتهت بمجرد دخول المسيحية عن طريق الروم الذين أقاموا مملكة وإمبراطورية ضخمة في الشمال الإفريقي استمرت فترة من الزمان لا يستهان بها .

يقول الأستاذ شيت:

« وجد العرب – المسلمون – أيام الفتح جماعات من يهود إفريقية ، ويرى بعض الكتاب أن الأفكار اليهودية بدأت تعرف طريقها إلى البلاد عن طريق الفنيقيين، وذلك قبل أن تهاجر جماعات من اليهود إلى المغرب على أيام الرومان، وقد عمل هؤلاء المهاجرون على نشر اليهودية بين بعض قبائل البربر » (١) .

---

(١) المرجع السابق: (١/ ١٩,٢٠).

المبحث الثالث

الديانة المسيحية

إن المسيحية تطلق على الدين المنزل من عند الله على نبيه عيسى عليه السلام ، وكتابها الإنجيل ، إلا أن أتباعها حرفوا الإنجيل وعقيدته الصحيحة حتى أصبحت عقائدهم خليطاً من الوثنية الرومانية والهندية، والفلسفة اليونانية، والتحريفات اليهودية، فهم الذين يعتقدون عقيدة التثليث بزعمهم أن الله له ثلاث حالات – الأقانيم – فالإله الأب، والإله الإبن، والإله الروح القدس، قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [المائدة: ٧٣] .

وكان لديانة المسيحية حينئذ إمبراطورية كبيرة في روما ومصر، استطاعت أن تبسط نفوذها على مساحات شاسعة من الأراضي، فكان من بين تلك الأراضي أرض شمال إفريقية، حيث وجدت النصرانية إليها سبيلاً عن طريق الكنائس ورهبانها الذين قاموا بإجراء اتصالات مكثفة مع أهالي الشمال الإفريقي، فحققوا نجاحاً عجز عن تحقيقه حكام البلاد وقادة الجند، إلا أن انتشارها كان محصوراً في المدن التي أقاموا فيها فيما بعد، أما بالنسبة لانتشارها في مناطق البدو فكان محدودواً للغاية.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب بهذا الصدد:

« دخلت المسيحية المحرفة إلى المغرب عن طريق مصر، وعن طريق روما، خلال القرن الثاني الميلادي، فاعتنقها كثير من البربر، وانتشر الرهبان بين البربر، فكانت المسيحية سبباً للاتصال بين الرومان في العصر الروماني (١٤٦ إلى ٤٣٥ م)، وبين الأهالي، وكانت الكنائس وسطاً صالحاً للاتصال والتفاهم، وبهذا وفق الرهبان

فيما عجز الحكام عنه ، وهو اجتذاب نفر من أهل البلاد [١] .

ولكن لما أحست الإمبراطورية الرومانية بجدوى أعمال الكنائس واتصالات الرهبان بالأهالي قامت باتخاذ إجراءات لازمة نحو الحفاظ على وحدتها السياسية، إلا أن أيام الإمبراطور (دسيوس) الذي طلب من جميع رعاياه البراءة من الديانة المسيحية المانوية، وحث رعاياه بإعلان تمسكهم بالديانة الوثنية المتمثلة في عبادة الأباطرة وآلهة روما الوثنية!! ومن هنا كنت بداية نهاية الديانة المسيحية عند البعض، وبلعن بعضهم البعض، حينذاك وجد سكان الشمال الإفريقي فرصة للتمرد على الإمبراطورية الرومانية، وأعلنوا ثورة سياسية دينية ضد الرومان .

يقول الأستاذ خطاب بهذا الصدد:

« حينئذ رفع البربر علم الثورة على الرومان ثورة سياسية في الواقع دينية في الظاهر، وعبثاً حاولت كنيسة قرطاجنة القضاء على الوندال وعلى الدوناتية، ولم يلبث الوندال أن قُبِلُوا خلفاء للرومان على إفريقية فأنشئوا يضطهدون الدوناتيين وأعداءهم معاً، وفرضوا على الناس مذهبهم – الأريوسي – الذي يقول بطبيعة المسيح البشرية – واضطهدوا الكاثوليك وصادروا أملاك الكنيسة وأموالها، وبهذا تفرق أمر المسيحيين [•] في إفريقية واختلف أتباعها شيعاً وأحزاباً فلم يلبث أن ارتد عنها الكثيرون، وضعف أثرها في ا لداخل » [٢] .

وهكذا كانت بداية الصراع ونهايته إلا أن هناك نقطة جديرة بالذكر في هذا المقام، وهي عندما اضطربت الأمور، وارتد الناس عن النصرانية، وانتشرت

---

(١) المرجع السابق: (١ / ٣٩، ٤٠) .

(•) تسمية عبدة الصليب أو النصرانية المحرفة بالمسيحيين فيه نظر، ولو جاز لجاز أن نقول محمديون ، موسويون ، وهذا لا يقال به – إنما هم عُبَّاد الصليب او أهل كتاب محرَّف ، والله أعلم .

راجع مناظرة بين الإسلام والنصرانية ، الرئاسة العامة للدعوة والإرشاد والبحوث العلمية ، السعودية .

(٢) المرجع السابق: (١ / ٤١) .

المذاهب المتباينة بين سكان الشمال الإفريقي قام القائد جوستنيان بإحياء فكرة النصرانية من جديد عن طريق إعادة بناء الكنائس وترميمها، وإرسال الدعاة إلى القبائل البربرية لنشر الفكرة النصرانية المنحرفة، وتقوية الروابط الدينية بينهم.

يقول الأستاذ خطاب في ذلك: «اهتم جوستنيان اهتماماً بالغاً بإعادة المسيحية إلى أفريقية ، فأعاد بناء كثير من الكنائس وأنشأ بعضها، وشجع البعثات التبشيرية، فأخذت المسيحية تنشط من جديد، وانتشرت بين القبائل البربرية المحيطة بصبرة وفي طرابلس وفي بعض نواحي نوميديا مثل وادي شلف حول تلمسان» (١) .

ولكن دور الكنيسة الإفريقية في العصر البيزنطي ونشاطها النصراني انتهى بمجرد تلبس بعض قساوستها بالمعاصي والذنوب، وتدهور أخلاق القائمين على هذه الدعوة، مع وجود عامل آخر لا يقل أهمية عن الذي قبله ، وهو خصومة المذهب الدوناتي الحادة للكنيسة، مما جعل الناس يفرون من ظلم الكنيسة وطقوسها !! .

وفي هذه الفترة الحرجة نشطت الكنيسة الغربية وأخذت على عاتقها أمر العباد والبلاد، وكان ذلك بزعامة وقيادة جريجوري الأكبر، الذي انتهز الفرصة في تفرق أمر المسحية في إفريقية، ليتدخل في شئون إفريقية عن طريق الكنيسة الإفريقية من خلال قساوستها ومن ثم السيطرة على زمام أمور البلاد والعباد.

جاء في كتاب «قادة فتح المغرب العربي» بهذا الصدد: «بيد أن الكنيسة الإفريقية لم تكن خلال العصر البيزنطي على حال يبعث على الأمل في مستقبل المسيحية في البلاد، فكانت إدارتها مختلة النظام إذ تلاشى النظام الكنسي، واقترف القساوسة ذنوباً كثيرة تدل على العصيان أو التدهور الأخلاقي والفساد،

---

(١) المرجع السابق: (١ / ٤١).

وكانت الدوناتية وخصومتها المشبوبة مع الكنيسة البيزنطية عاملاً آخر من عوامل ضعف هذه الأخيرة ، إذ استطاع دعاتها أن يفروا إلى داخل البلاد نجاة من الاضطهاد، وهناك كانوا يثيرون الناس على الكنيسة البيزنطية فيفر منهم الكثيرون ، بل أخذ البعض يعمد نفسه من جديد وفق طقوس الدوناتنيين.

كانت الكنيسة الغربية قد أخذت تنهض نهضة علمية عظيمة في ذلك الزمن بفضل جهود جريجوري الأكبر، وكانت الخصومة ناشبة بينها وبين كنيسة بيزنطة، ووجد جريجوري في تفرق أمر المسيحية في إفريقية فرصة طيبة يتدخل بها في شئون كنيسة إفريقية ليكسب رعاياهم إلى صفه ، فاستعان بقساوسة ذوي قدرة وشهرة فأخذ مسيحيو أفريقية يتجهون نحو روما متأثرين بما كان جريجوري يذيعه فيهم من نداءات وبما يبذله قساوسته من جهد، وبما حرصت عليه الكنيسة الغربية من إعزاز لأمر الدين وإخلاص في نشره ، وبذلك ازدادت العلاقات العامة بين بيزنطة وإفريقية ضعفاً على ضعف) [١] .

وفي أواخر العصر البيزنطي بعد موت هرقل الكبير سنة (٦١٠م) وخلفه أخوه جريجوريوس كانت حينذاك الانقسامات الدينية قد اشتدت في إمبراطورية البيزنيط، فأراد هرقل أن يجنب بلاده تلك الفوضى الفكرية، فطلب من رجال الدين في دولته أن يصدروا مذهباً وسطاً يرضي كل الطوائف الدينية !! ، فكان صدى هذا المذهب في أوساط دولته أن أثار سخطهم جميعاً حتى أصرَّ أساقفتهم، ورهبانهم على بقائهم على مذاهبهم القديمة، بل وصل الأمر بهم إلى إعداد العدة لمواجهة الدولة، ولكن هرقل عاجلته المنية فمات وتولى بعده قسطنطين الثالث – الذي كان يعتنق المذهب الأرثوذكسي، فأذاق الرهبان الرافضين العودة إلى أحضان الكنيسة سوء العذاب .

---

(١) المرجع السابق: (١ / ٤٢).

يقول الأستاذ محمود شتيت مصوراً تلك الحقبة من الزمان:

« في ذلك الحين ، كانت الانقسامات الدينية قد اشتدت في بيزنطة وأخذ سعيرها يمتد فيحرق ولاياتها بلظاه ، وكان الروم وقد توزعتهم المذاهب المختلفة شيعاً وفرقاً، تتصارع وتتحارب ، وتهبط بالدولة إلى درك عميق، وأحب هرقل أن يخلص بلاده من تلك الفوضى، فأخذ يتصل بكبار رجال الدين في دولته يستطلع رأيهم حتى اتفق رأيه آخر الأمر على إصدار مذهب وسط ترضى عنه الطوائف كلها، فلم يكد المجلس الديني الذي عقده في سنة (٦٣١م) يصدر المذهب الجديد، حتى ثار الناس كلهم عليه، وأنكروه جميعاً ... فلم يجد هرقل بدًّا من أن يصطنع الشدة في إرغام الناس على اتباعه، فاضطهد الكثيرين من رعاياه اضطهاداً شديداً، وشقي به قبط مصر خاصة لما أصابهم على يد « قيرس » الذي ندبه هرقل لتطبيق هذا المذهب في مصر » (١) .

وقال أيضاً : « ومات هرقل وتولى قسطنطين الثالث عرش الإمبراطورية، وكان عدواً للمذهب الذي ابتدعه هرقل، فلم تكد شكوى أساقفه إفريقية تصل إلى علمه حتى أمر بإخراج الرهبان الذين يرفضون العودة إلى أحضان الكنيسة من الأديرة ومصادرة أملاك الأديرة الخارجة ، وبهذا انقلب الحال، ونزل الاضطهاد بأشياع الإمبراطور القديم » (٢) .

وهكذا أصبحت حالة المسيحية في الشمال الإفريقي مذاهب شتى ، وجماعات منشقة ، وأفكار غثى، وصراعات حادة بين الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية، والرومانية الكاثولكية،التي كانت عاملاً أساسياً في انقراض النصرانية، حيث ساعدت هذه العوامل أهالي المنطقة أن يقفوا ضدها ويتمردوا

---

(١) المرجع السابق: (١ / ٤٤-٤٥).

(٢) أهم المراجع في الفصلين الماضيين التي رجعت إليها: قادة فتح بلاد المغرب محمود شيت خطاب ، فتح العرب للمغرب، د. حسين مؤنس، تاريخ المغرب العربي لسعد زغلول، المسالك والممالك، لأبي إسحاق الفارسي، مقدمة ابن خلدون، جمهرة أنساب، لابن حزم، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، طاهر الزاوي.

عليها، وأن يبحثوا عن بديل يلبي فطرتهم التي ركزها الله عز وجل في نفوس كل البشر، فكانت هذه مقدمة لما بعدها حيث تهيأت نفوسهم لقبول الإسلام دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

قال تعالى : ﴿ **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الروم : ٣٠] .

وقال تعالى : ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

الفصل الثالث

حدوده

يجدر بنا ونحن بصدد ذكر الشمال الإفريقي أن نهتم بتعريف حدوده الجغرافية من وإلى، بحيث تتضح معالمه الحدودية القديمة والجديدة للقارئ، ويتصور المنطقة تصوراً صحيحاً شاملاً.

يقول الأستاذ الحسين بن محمد شواط في تعريفه لحد إفريقية : « بأن إفريقية بكسر الهمزة - وهو المشهور - وقيل بفتحها، النسبة إليها إفريقي، وقد اختلف الجغرافيون في تحديد هذه البلاد على أقوال، أهمها :

[١] **قيل** : هي الأرض الواقعة بين برقة وطنجة وعلى هذا فهي تشمل المغرب والجزائر، وتونس، والجزء الأكبر من ليبيا.

[٢] **وقيل** : هي ما بين برقة وتاهرت، أي الجزائر، وتونس، و الجزء الأكبر من ليبيا.

[٣] **وقيل** : حدها من طرابلس إلى بجاية، أي أنها تشمل تونس وجزءاً من الجزائر وجزءاً من ليبيا.

[٤] **وقيل** : إنها بين طرابلس وقُسَّنطينه ، أي : ما يقارب حدود البلاد التونسية حالياً.

[٥] **وقيل** : هي مدينة القيروان [١] .

ولا يخفى أن كل هذه التعريفات تدور حول تحديد المعالم الحدودية لإفريقية أما الشمال الإفريقي فمعالمه واضحة حيث إنه يشمل الدول الخمس المعروفة الآن

---

(١) **انظر** : مدرسة الحديث في القيروان، من الفتح إلى منتصف القرن الخامس الهجري، للأستاذ/ الحسين ابن محمد شواط، (١ / ٣١-٣٢).

بدول المغرب العربي، وهي: ليبيا، وتونس، والجزائر، والمغرب وموريتانيا.

وينص على ذلك الدكتور سعد زغلول بقوله :

« بلاد المغرب مصطلح يقصد بها الكتاب العرب كل الأقاليم الواقعة غرب مصر، والتي تشمل القارة الإفريقية ، والجزائر بصحرائها المترامية إلى تخوم السودان، وأخيراً المغرب - الذي كان يعرف إلى عهد قريب باسم مراكش نسبة إلى عاصمته الجنوبية - ويمتد طبيعياً نحو الجنوب إلى تخوم السنغال والنيجر» [١] .

---

(١) تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال، (ص٦١).

الباب الثالث

ليبيا قبل الفتح الإسلامي

لقد تحدثنا في الباب الثاني عن الشمال الإفريقي على الجملة بشيء من الإيجاز، بيد أننا سوف نتناول في هذا الباب ليبيا ومعالمها الجغرافية، وعناصره البشرية وديانتها الرسمية قبل الفتح الإسلامي بشيء من التفصيل بعدما أجملنا.

الفصل الأول

معالم ليبيا

المبحث الأول

أصل التسمية

لقد تقرر في علم الآثار أن نسبة لفظة «ليبو» أو «لوبا» أو «ريبوا» كان يطلقها أهل مصر على القبائل التي تسكن غرب وادي النيل، أما اليونانيون فكانوا يطلقون اسم «ليبي» على شعوب شمال إفريقيا كله باستثناء المصريين.

ذكر الأستاذ طاهر الزاوي في تحديد أصل تسمية المنطقة بليبيا:

«وقد عدد المقريزي في خططه كور مصر، فذكر من كور الجوف الغربي: كورة الإسكندرية، وكورة مريوط، وكورة لوبيا ومراقية .. وذكر في تحديد مصر أنها تحد من الجهة الغربية ببرقة ..» ونقل عن القضاعي ما نصه: «الذي يقع عليه اسم مصر من العريش إلى آخر لوبية ومراقية، وفي آخر أرض مراقية تلقي أرض طرابلس وهي برقة» [١].

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، للأستاذ/ الطاهر أحمد الزاوي، (ص ١٤-١٥).

ويقول جون رايت في ذلك : لقد وجد : « في النقوش المصرية للألف الثاني قبل الميلاد وصف للقبائل التي عاشت في صحراء غرب وادي النيل بأنها « ليبو » أو « ريبو » ، وبعد قرون من ذلك الوقت أطلق اليونانيون اسم « ليبي » على شعوب شمال إفريقيا كله باستثناء المصريين » (١) .

وبذلك يتقرر أن اسم ليبيا اسماً رسمياً منذ القدم، قد أطلقه اليونانيون على مدينة قورين – شحات –، ثم بعد ذلك عمم عليه سكان برقة وطرابلس، وكل من كان يقطن غرب منطقة النيل إلى بداية إفريقية – تونس الحالية –.

---

(١) تاريخ ليبيا ، لجون رايت، (ص١٣) .

المبحث الثاني

ليبيا في علم الآثار

إن جزءاً كبيراً من تدوين التاريخ البشري يعتمد على علم الآثار ومحفوظاته الأثرية والفنية، والمخطوطات القديمة فكان نصيب ليبيا من ذلك العلم النصيب الوافر، حيث وجدت الآلاف من الصور المنحوتة على الصخور في أكثر من عشرين موقعاً ، وكانت تحمل في طياتها الأمور الغريبة والعجيبة عن معالم ليبيا البشرية، والفنية والاجتماعية، والمناخية، والطبيعية التي تحتاج من أهل الفن أن ينظروا فيها نظرة تأمل وتدبر حتى يستطيعوا أن يقرءوا ما بين السطور، وما تحت الصور، ويربطوا الغائب بالشاهد من تاريخ المنطقة.

لقد نص المؤرخ الإنجليزي جون رايت في كتابه أنه قد تم العثور على صخور فنية في ليبيا وعلى هذه الصخور الفنية القديمة وجد العلماء آلاف الصور في أكثر من عشرين موقعاً، معظمها في فزان، وفي زاوية براك، ومرزق، وسبها وجبال تبستي، وفي موقع ببرقة قرب حدود مصر والسودان ، وفي أربعة أماكن من جبال منطقة طرابلس أيضاً، وكان أول من لاحظ أهمية هذه الرسوم الصخرية هو البحاثة الألماني (هنريش بارت) سنة ١٨٥٠م ، غير أنها لم تدرس بالتفصيل إلا في السنوات الثلاثين الماضية ، وبقي الكثير من الرسوم التي تحتاج إلى عشرات السنين لفحصها ودراستها .

اعتاد فنانوا ما قبل التاريخ رسم الحيوانات التي كانوا يصطادونها على سطح الصخور الناعمة ورسموا كذلك مناظر لرجال عراة يطلقون السهام على الوحوش الضخمة ، ومما يلفت النظر انقراض واختفاء هذه الحيوانات من ليبيا ، بل من إفريقيا الإستوائية على مسافة مئات الأميال جنوبي ليبيا.

وقد غطى فنانو الصيد القدماء سطوح الصخر الناعمة برسوم واضحة للفيلة والزراف، والتماسيح، ووحيد القرن، وفرس النهر والحيوانات الأخرى التي عاشت زمناً في تلك المنطقة التي أصبحت بعد ذلك من أكبر صحاري العالم، وليست هذه الصحراء الليبية قديمة للغاية فمنذ عشرة آلاف سنة، كان معظم شمال إفريقية مركزاً مثالياً للإنسان البدائي، بالنسبة للصيد وجمع الطعام،حيث كانت ترتع قطعان كبيرة من الحيوانات البرية التي ترعى السافانا والحشائش، ولابد أن الماء كان متوفراً لأفراس النهر، وقد وجدت بقايا متحجرة في أماكن بالصحراء لم يعد فيها نبات هذه الأيام [١] .

---

(١) المرجع السابق: (١٣-١٤).

المبحث الثالث

حدود ليبيا

إن أبرز معالم حدود ليبيا الجغرافية ثلاث جهات، برقة من الناحية الشرقية، وطرابلس من الناحية الغربية، وفزان من الناحية الجنوبية، أما جهة شمال البلاد طول ساحلها فهي مطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط، حيث يصح القول بأن: معالم الحدود الجغرافية لليبيا ابتدأت بحدود غرب مدينة مطروح شرقاً، وحدود غرب رأس أحدير غرباً، وحدود جنوب شرق غدامس غرباً، وحدود جنوب غرب جبل العوينات شرقاً.

الفصل الثاني

سكان ليبيا قبل الفتح الإسلامي

المبحث الأول

العنصر البربري

إن ليبيا تقع على شريط ساحل طويل ممتد إلى أقصى الحدود شرقاً وغرباً مما جعلها محطة لبني البشر على مختلف ألوانهم وأجناسهم، إلا أن الجنس البربري يعتبر من أقدم الأجناس التي عاشت في هذا الساحل الطويل، وهذا ما قرره صاحب كتاب تاريخ ليبيا.

يقول الأستاذ طاهر الزاوي وهو بصدد حديثه عن سكان ليبيا القدماء:

«أمة البربر أقدم أمة عرفها التاريخ في الشمال الإفريقي» (١).

وكلمة بربر إذا ما أطلقت تشمل كل من يتكلم لغة أو لهجة معقدة لا تفهم إلا عند بني جنسه، ويدخل في هذا الإطلاق أمة اليونان، وأمة الرومان، وأمة السودان.

يقول الأستاذ طاهر الزاوي: «وكلمة البربر أطلقت بأربعة إطلاقات في أربعة عهود مختلفة، فأطلقت في عهد هومير على القبائل المعقدة اللغة واللهجة حيثما وجدت، وأطلقت في عهد هيرودوت على الأمم الغريبة عن لغة اليونان وحضارتهم، وأطلقت في عهد بلتوس على الروم ما عدا سكان روما، وأطلقها العرب في عهدهم على الأمة التي تسكن الساحل الإفريقي، لأنهم يتكلمون بلغة ليست مفهومة للعرب، والعرب يطلقون كلمة البربر على الأصوات المتجمعة غير المفهومة» (٢).

---

(١)، (٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، للأستاذ/ الطاهر أحمد الزاوي، (ص ١٩-٢٠).

المبحث الثاني

العنصر القرمنتي

لقد عاش هذا العنصر فيما بين (٣٠٠٠-٢٥٠٠ ق.م) في الصحاري الليبية خاصة في مدينة فزان، وعلى رعي المواشي ذات القرون الطويلة ، والتجارة مع دول ما وراء البحر ومصر، مما جعله يتأثر بالحالة الدينية، والاجتماعية، والاقتصادية السائدة حينذاك خاصة مصر، ويعتبر هذا العنصر أول من قام بنقل الحصان والعربة من مصر إلى ليبيا.

يقول جون رايت بهذا الصدد: « كان لمصر تأثير اقتصادي، واجتماعي معتبر على قبائل الصحراء البدائية، ووجدت تجارة نشطة بين وادي النيل والغرب والجنوب الغربي، حيث يبدو أن الناس كانوا يعتنقون الديانة المصرية القديمة ويزاولون طقوس الدفن، ثم كان انتقال الحصان إلى ليبيا عن طريق مصر، وجاءت معه العربه ، بعد سنة ألف قبل الميلاد، استعملت بعض قبائل ليبيا وهم « القرمنيون » العربة والحصان لغزو قبائل صحراوية أخرى، ولبناء إمبراطورية في فزان وحولها وفي متحف القلعة بطرابلس نموذج لهذه العربات . . » ولا يعرف شيء عن أصل القرمنتيين الذين كانوا يرعون المواشي ذات القرون الطويلة في فزان القديمة ويحتمل أن يكونوا قد انتقلوا من الساحل نحو الجنوب، وربما كانوا هم الذين أحضروا الحصان والعربة من مصر، وربما أحضروا أيضاً أعمال الحديد لليبيا، ومع مرور الزمن أصبح القرمنتيون يتحكمون في طرق التجارة القادمة من ساحل البحر الأبيض المتوسط عبر الصحراء إلى إفريقيا الوسطى، كما سيطروا على مداخل الصحراء مدة تزيد عن ألف عام، وكان الفنيقيون واليونانيون الذين استقروا على الساحل يتاجرون عن طريقهم، ثم حاربوهم وأصبحوا فيما بعد حلفاء لهم، وقد استطاع القرمنتيون بعرباتهم، وأسلحتهم المتقدمة وتنظيمهم

الواضح، التغلب على قبائل صحراوية أخرى كانت غير منظمة ولا تركب شيئاً في قتالها ، وتستخدم أسلحة بدائية جداً» [١] .

ولا يخفى أن آثار العنصر القرمنتي، ومظاهر حضارته، ومملكته، لا زالت موجودة حتى وقتنا هذا في منطقة وادي الأجال من الجهة الجنوبية لليبيا، والتي تعتبر عاصمة القرمنتيين آنذاك، حيث مكنهم موقعهم الاستراتيجي أن يتحكموا في التجارة الواردة والصادرة إلى وسط إفريقية، ويصبحوا بذلك مركزاً هاماً للنقل والتجارة.

وهذا ما قرره المؤرخ جون رايت بقوله: «كانت البضائع تنقل من منطقة طربلس إلى وسط إفريقيا عن طريق ممرين تجاريين عظيمين يلتقيان على بعد ٢٥٠ ميلاً إلى الجنوب من غامس، ثم تواصلان السير كطريق واحد إلى نهر النيجر، وكان لمدن صبراتة وأودية ولبدة مزية على بقية المدن القرطاجية، لأنها تقع إلى الجنوب على مسافة ١٠٠ ميل على الأقل، ولذلك تكون أقرب مركز إلى أسواق إفريقيا الداخلية، وكان المسافرون الذين يريدون اختصار طريق من النيجر إلى البحر المتوسط يسلكون طريقاً تمر بغدامس وصبراتة، أما القرمنتيون فكانوا يسلكون عدة طرق بالعربات من فزان إلى النيجر، يحلمون بضائع البحر المتوسط إلى أعماق إفريقيا ويرجعون بالذهب والفضة والحديد والأحجار الثمينة، ويحضرون من الصحراء نفسها منتجاتها، كريش النعام والتمور وغير ذلك من السلع، وكان القرطاجنيون يدفعون لرجال القوافل أجورهم من العملة، ينفقونها في المدن، أو من الأطعمة والشراب والملابس، وكان القرمنتيون يحكمون من عاصمتهم في جرمة منطقة محدودة من الصحراء، ولكنهم كتجار كانوا يسيطرون على جميع البلاد من الأطلنطي إلى نهر النيل، ومن حدود السودان إلى سواحل البحر المتوسط» [٢] .

---

(١)، (٢) تاريخ ليبيا، (ص ١٦-١٧) .

المبحث الثالث

العنصر الفنيقي

لقد اختلف المؤرخون في أصل الفنيقيين، منهم من ذهب إلى أن أصلهم عربي وينحدرون من أصل سامي كان يسكن فلسطين وسواحل الشام ، وهذا ما ذهب إليه الأستاذ طاهر الزاوي ، ومنهم من قال: إن أصلهم كنعاني هاجروا إلى الشام، وسكنت أمة منهم اليونان ، وهذا ما نصره الأستاذ محمود شيت خطاب .

يقول الأستاذ الطاهر الزاوي مقرراً ما ذهب إليه: « الفنيقيون أمة عربية قديمة من الأصل السامي اشتهرت منذ القدم بالتجارة والأسفار البحرية، وكانت مواطنهم فلسطين وسواحل الشام، ومن أشهر مدنهم صيدا وصور، وطرابلس الشام، وبيروت،وكانوا يترددون على الشمال الإفريقي منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وأنشأوا على ساحله محطات تجارية كبيرة لنقل بضائعهم منها إلى الأسواق التي تروج فيها وكانت عنايتهم بالتجارة والصناعة بالدرجة الأولى في شئون حياتهم، ولا يبعد أن يكونوا هم الذين جاءوا بزراعة الزيتون إلى إفريقية » (١) .

ويقول الأستاذ محمود شيت خطاب ناصراً ما ذهب إليه: « الفنيقيون من الكنعانيين كبعض المغاربة الأقدمين، وفي سنة (٣٥٠٠) قبل الميلاد هاجرت إلى الشام أمم من الكنعانيين وسكنت أمة منهم في القطر الذي سماه اليونان فينقيا .

وتقع فينقيا في شواطئ أرض الشام في المنطقة المحصورة بين جبال لبنان والبحر الأبيض المتوسط، يبلغ اتساعها نحو خمسين كيلو متراً، ويبلغ طولها نحو خمسمائة كيلو متراً، وهي تمتد من جزيرة « أرواد » شمالاً إلى مدينة عكا جنوباً، وقد أطلق اليونانيون على هؤلاء الكنعانيين كلمة: الفنيقيين نسبة إلى الكلمة

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص (٣٠).

اليونانية فينكس، ومعناها عندهم: النخل واللون الأحمر، لأن هؤلاء الكنعانيين كانوا يلبسون اللون الأحمر، وكانوا يصورون النخل على نقودهم، وعاشت هذه الأمة العظيمة أكثر من (٣١٧٠ سنة) وأحسنت إلى الإنسانية، ومنها تعلمت الإنسانية القراءة والكتابة» (١) .

كما وأن تاريخ العنصر الفنيقي من خلال تطوره ينقسم إلى مرحلتين، مرحلة تأسيس مدينة صيدا سنة (١٥٠٠-١٢٠٩ق.م) والتي كانت آنذاك أعظم مدن الفنيقيين، ومرحلة تأسيس مدينة صور سنة (١٣٣١-١٢٠٩ق.م) والتي تزعمت فيه مدينة صور الإمبراطورية الفنيقية.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب: «ويقسم تاريخ الفنيقيين إلى عصرين:

العصر الأول : عصر صيدا ، والعصر الثاني : عصر صور :

أولاً: عصر صيدا: ويمتد من سنة (١٥٠٠) قبل الميلاد إلى سنة (١٢٠٩) قبل الميلاد، وفي هذا العصر أسس الفينقيون عدة مدن في فنيقيا، وكانت أعظم مدنهم هي مدينة صيدا، وكانت عاصمتهم، ولهذا سمي هذا العصر بعصر صيدا، وقد دامت عظمة هذه المدينة نحو (٢٣٠) سنة.

ثانياً: عصر صور: وهو يمتد من سنة ١٣٣١ قبل الميلاد إلى سنة ١٢٠٩ قبل الميلاد ، وفي هذا العصر تزعم أهل مدينة صور الإمبراطورية الفينقية، وصارت صور من أعظم مدن العالم،وقد استطاع الفنيقيون أن يعيدوا مجدهم الذي كان لهم في العصر الأول في أقصر وقت، وقد قوي اتصال أهل صور بأهل الشمال الإفريقي، وكونوا في موريتانيا ونوميديا وزوجيتان (تونس حالياً) مدناً كثيرة (٢) .

ففي هاتين المرحلتين من مراحل تاريخ الفنيقيين قامت لهم حضارة مدنية تعتبر آنذاك تقدماً عالي المستوى، يدل على اهتمامهم بجوانب تحصيل العلوم

---

(١) انظر : قادة فتح بلاد المغرب (١/ ٢٢).

(٢) انظر : قادة فتح بلاد المغرب (١/ ١١).

والتقنية، وتطوير المهن الحرفية، والصناعية والحربية، وتوطيد سرعة الاتصالات ، ولعل آثارهم الباقية في صبراتة، ولبدة ، وبعض ضواحي طرابلس تشهد بذلك .

يقول الأستاذ شيت خطاب مشيداً بحضارة الفنيقيين :

« قد أجمع المؤرخون على أن الفنيقيين كانوا أول من ركب البحر، وأول من صنع السفن البحرية، وكانوا في تلك العصور القديمة أعظم أمة تجارية صناعية، فكانوا ينظمون قوافل تسير في البر إلى الهند، وبابل، وآشور، وبلاد فارس، ولتبيع مصنوعاتهم في تلك الأقطار، كما نظموا قوافل بحرية كانت تذهب إلى شواطئ البحر، تعرض المصنوعات الفنيقية على أمم البحر الأبيض المتوسط، وصاروا يرسلون إلى شواطئ الأقطار البعيدة جاليات منهم لتؤسس مدناً فينيقية تجارية، لتكون مركز الاتصال بينهم وبين تلك الأمم ، كما أسسوا في إقليم طرابلس الغرب مدينة « تزسيوم » وأطلقوا على تلك الجهة كلمة « تزاسين » ، ومعنى ذلك في لغتهم: الأرض الكثيرة المياه ، وهم الذين أنشأوا في تونس إقليم « زوجيتان » وسموا تلك الجهة بهذا الاسم.

وظلوا سادات البحر الأبيض المتوسط يفعلون ما يشاءون ولا ينازعهم فيه أحد إلى سنة (١٥٠٠) قبل الميلاد ، ففي هذا العصر ظهر في البحر سفن أمم جديدة، أخذت الحضارة والصناعة وأصول الملاحة من الفنيقيين،وكان من أعظم هذه الأمم الإغريق، التي صارت تحارب سفن الفنيقيين وتضايقهم في شرق البحر الأبيض المتوسط، وكانت لفنيقيا مستعمرات كثيرة في البحر الأوسط، فلما ضايقها الإغريق تركت تلك الجهة وولت وجهها شطر بلاد المغرب، فمن هذا التاريخ اشتد اتصال الفنيقيين بالمغاربة وأحدثوا في شمال إفريقية مدناً كثيرة [١] .

ويقول في موضع آخر: « وقد استطاع الفنيقيون أن يعيدوا مجدهم الذي

---

(١) المرجع السابق: (١ / ٢٤,٢٥,٢٦) .

كان لهم في العصر الأول في أقصر وقت، وقد قوي اتصال أهل صور بأهل إفريقيا وكونوا موريتانيا ، ونوميديا، ونزوجيتان (تونس حالياً) ومدناً كثيرة، وقد استولوا على جزيرة (مالطة) وجعلوها محطة لسفنهم التي كانت تسير في البحرالأبيض المتوسط، وظل الفنيقيون متمتعين بسيادة البحر الأبيض المتوسط إلى سنة (٣٣١) قبل الميلاد، ففي هذه السنة احتل الإسكندر المقدوني مدينة صور وخرب معظمها وأذاق أهلها العذاب الأليم، وبهذا الحادث انتهى مجد الفنيقيين وعظمتهم، ورث ملكهم أبناؤهم القرطاجنيون، وقد عاش أهل صور متمتعين بالعز (٨٧٨) سنة، وعاشت الأمة الفينقية أكثر من (٣١٧٠) سنة [١] .

سبحان الله ! فقد أصبحت تلك الأمم والحضارات أثراً بعد عين، وها نحن نسطر في تاريخها وحضارتها كأن لم تكن، وهذا كما لا يخفى تحقيق لسُنن الله الثابتة، التي تقرر أن الله سبحانه يمهل الأمم الكافرة ويعطيها شيئاً من التمكين الدنيوي والقوى الظاهرة، إذا أخذت بالأسباب والسُنن الكونية قال تعالى: ﴿ **كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً** ﴾ [الإسراء: ٢٠] .

ولكن يأخذها أخذ عزيز مقتدر لكفرها وشرها وتمردها على منهج الله القويم، وهكذا كان حال الأمة الفنيقية المشركة الكافرة بربها، فقد وصلت إلى قمة الحضارة المدنية -كما مرَّ معنا- حتى ظن أهلها أنهم قادرون عليها،إلا أنها كانت تعبد الأصنام الأحياء منها والأموات،حتى أصبحت هذه الأوثان والأصنام والهياكل معلماً من معالم حضارتها!! فكان من أبرز معالم تمردها عن منهج الله، وكفرها بخالقها تلك الأصنام المسماة بأصنام هرقل المحيطة بجبل طارق، والتي كانوا يتقربون إليها بالأضاحي، والنذور، والدعاء، والخوف، والرجاء!! فلما فعلوا ذلك أتاها أمر ربنا فجعلها حصيداً كأن لم تغن بالأمس، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾ [الفتح:٢٣] .

---

(١) المرجع السابق: (١/ ٢٦).

المبحث الرابع

العنصر القرطاجني

إن العنصر القرطاجني امتداد طبيعي للعنصر الفينيقي، إذ تعتبر الصلة بنيهما بمثابة صلة الأب بابنه، وكان سبب وصولهم إلى شمال إفريقية اعتناء الأجداد الفنيقيين بإنشاء المدن وتطويرها خاصة في الشمال الإفريقي، فقد أسسوا مدينة قرطاجنة (تونس) (سنة ٨٤٠ق.م) وكان في عهد الأميرة (ديدون) أو (أليسا) حيث قدمت هذه الأميرة وجماعتها، واستقرت في قرطاجنة التي كان يبلغ تعداد سكانها حوالي مليون نسمة، وبذلك أسست أكبر إميراطورية حينئذٍ إذ كانت تملك شواطئ الشمال الإفريقي، وأغلب أراضي إسبانيا، وأكثر جزائر البحر الأبيض المتوسط، وكان نظام هذه الإمبراطورية السياسي يدار على نمط النظام الجمهوري المعاصر في مدنها الثلاث الرئيسية - قرطاجنة إفريقية وهذه اعظمها، وقرطاجنة الجزيرة الخضراء بالأندلس عند جبل طارق، وقرطاجنة الخلفاء بكورة تدمير بالأندلس، حيث كان هناك مجلسٌ مكونٌ من مائة عضو من أهل الحل والعقد، وكان لهم رئيسان ينتخبان كل سنة.

يقول الأستاذ طاهر الزاوي : « وكان نظام حكمها زمن القرطاجنيين أشبه بالجمهوري، وكان يدير شئون الحكم مجلس مكون من مائة عضو من الأعيان والتجار، وكان لهم رئيسان ينتخبان كل سنة، وديانتهم الوثنية، وأكبر آلهتهم بعل » (١) .

وبعد ست سنوات من استقرار الإمبراطورية القرطاجنية في الشمال الإفريقي بدأت الإمبراطورية بإرسال حملات عسكرية على قبائل البربر التي كانت تسكن

---

(١) قادة الفتح العربي في ليبيا : (ص٣١).

المنطقة من حدود برقة الشرقية، إلى ساحل أوروبا الجنوبية حتى جبل طارق الذي كان يسمى آنذاك أعمدة هرقل ، وكان الغرض من هذه الحملات إخضاع هذه القبائل لسلطان الإمبراطورية ونفوذها .

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب :

« وفي سنة (٤٨٠ق.م) صار القرطاجنيون يغيرون على القبائل البربرية التي كانت تسكن السواحل حتى أخضعوها لسلطانهم، وشمل نفوذهم من حدود برقة الشرقية إلى بحر الظلمات، كما شمل ساحل أوروبا الجنوبي إلى جبل طارق الذي كان يُسمى إذ ذاك أعمدة هرقل » (١) .

وفي بدايات سنة (٢٦٤ ق.م) قامت صراعات عنيفة بين إمبراطورية الرومان التي كانت تقطن سواحل أرووبا الجنوبية، وإمبراطورية القرطاجنيين، دامت أكثر من مئة عام انتهت بتغلب الإمبراطورية الرومانية على القرطاجنيين، حيث انتقلت بعد ذلك زعامة الشمال الإفريقي بأسره إلى الإمبراطورية الرومانية الواقعة جنوب أوروبا .

يقول الأستاذ شيت خطاب في ذلك : (في سنة ٢٦٤ ق.م) اشتبكت قرطاجنة في صراع عنيف مع الرومان دام أكثر من مائة سنة، وأخيراً تغلب عليها الرومان سنة (١٤٦ق.م) وقضوا عليها القضاء النهائي، ومحو آثارها من الوجود، فتحولت زعامة الدنيا من شمال إفريقية إلى جنوب أوروبا » (٢) .

وهكذ تحققت فيها سُنَّة الله سبحانه في أخذه للأمم الكافرة الظالمة، التي تبغي في الأرض بغير الحق، فقد سلط عليهم الرومان فمزقوهم شر ممزق .

قال تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾.

[الأنعام : ١٢٩] .

---

(١) ، (٢) قادة فتح بلاد المغرب : (١/ ٢٧).

المبحث الخامس

العنصر الروماني

فبعد الحروب الطويلة التي دامت حوالي مئة عام بين الإمبراطورية القرطاجنية والإمبراطورية الرومانية ومن هذه الحروب ثلاث حروب هامة الأولى : كانت سنة (٢٦٤ ق.م) وانتهت بانهزام القوات الرومانية في إفريقية وانهزام القوات القرطاجنية في صقلية ، والثانية : كانت سنة (٢١٨ ق.م) وانتهت سنة (٢٠٢ ق.م) والتي انتصر فيها القائد العسكري هنبغل القرطاجني على القوات الرومانية في إيطاليا،ثم أعاد الرومان الكرة عليه في معركة زاما سنة (٢٠٢ ق.م) ففر إلى الشام ومات في أنطاكية، والثالثة كانت سنة (١٤٩ ق.م) وانتهت (١٤٦ ق.م) بانتصار الرومان على القوات القرطاجنية، مما أتاح الفرصة للقبائل البربرية بقيادة « ماكسن » للانضمام إلى القوات الرومانية هرباً من قسوة القرطاجنيين واستبداداهم .

يقول الأستاذ محمود شيت مقرراً ذلك لقد : « أصبحت الدولة الرومانية أعظم دولة في العالم بعد قضائها على قرطاجنة، فقد وقعت ثالث حروب بين الرومان والقرطاجنيين في المدة ما بين (سنة ٢٦٤ ق.م) إلى (١٤٦ ق.م) .

فالحرب الأولى : ابتدأت من (سنة ٢٦٤ ق.م) وانتهت (سنة٢٤١ ق.م) انهزم فيها الجيش الروماني في إفريقية، وانهزم الجيش القرطاجني في صقلية .

والحرب الثانية : ابتدأت (سنة ٢١٨ ق.م) ، وانتهت (سنة ٢٠٢ ق.م) ، انتصر فيها (هنبعل) القائد القرطاجني في إيطاليا في معركة (كان) وقتل فيها من الرومان ما يربو على السبعين ألفاً، وكانت (سنة ٢١٦ ق.م) وكان (هنبعل) من أكبر قواد القرطاجنيين، وكاد يقضي في هذه المعركة على روما لولا تقاعس دولته عن إمداده بالمال والجند لخلاف كان بينه وبين بعض الرؤساء، وانتصر عليه

الرومان في معركة (زاما) (سنة ٢٠٢ ق.م) ففر إلى الشام ومات في أنطاكية.

الحرب الثالثة : ابتدأت (سنة ١٤٩ق.م) ، رجحت فيها كفة الرومان على القرطاجنيين، واستمات القرطاجنيون في الدفاع عن عاصمتهم فانتهز البربر فرصة رجحان كفة الرومان فانضموا إليهم بزعامة (ماكسن) البربري، فملك الرومان قرطاجنة وخربوها، وأحرقوها بالنار، فأصبحت أثراً بعد عين، وكان ذلك سنة (١٤٦ق.م) [١].

وبتلك المعركة الثالثة التي تعتبر الفيصل في الحروب التي نشبت بين الرومان والقرطاجنيين والتي زال فيها ملك قرطاجنة من الوجود بعد أن دام نحو سبعمائة سنة واستولى الرومان على سواحل ليبيا، وتونس، والجزائر، أما سواحل المغرب الأقصى فلم يستطيعوا الاستيلاء عليها لقيام أهلها بمقاومة مسلحة بقيادة (تاكفراس) لمدة تسع سنوات تقريباً، ولكن بعد ذلك تم الاستيلاء على ناحية المغرب الأقصى (سنة ٤٢ بعد الميلاد) ، وجعلوا عاصمته مدينة « تينجيس ، طنجة الحالية » ، ثم أقاموا عدة مدن عصرية وربطوا بينها بطرق معبدة تشبه الطرق الحديثة، وأنشئوا على مداخلها ومخارجها أبراجاً وقلاعاً تصد الغارات التي قاوم بها المناوئون للإمبراطورية الرومانية.

ولكن ما لبثت الإمبراطورية الرومانية بعد أن أعادت الحياة العمرانية في البلاد حتى قام الحاكم العام الروماني (بونيفاس) بتمرد على سلطان الإمبراطورية الرومانية، وأعلن عصيانه على سلطة روما التي كانت في حالة حصار وتعاني سكرات الموت!! ، ولم يكن لهذا الحاكم قوى عسكرية محلية يستطيع أن يقاوم بها ضربات سلطة روما، فلجأ إلى أعداء الرومان الذين كانت لهم مملكة ودولة قوية في إسبانيا يستعين بها للقضاء على سلطة روما، وكان هذا العدو لسلطة

---

(١) قادة فتح المغرب العربي: (١/ ٢٢)

روما همًّا واستجاب الوندال بقيادة (جينسريك) فلبوا مباشرة نداء الحاكم الروماني ودخلوا إلى المغرب بجيش مدجج بالأسلحة تعداده نحو ثمانين ألف جندي، وانضم إليهم أكثر أهل المنطقة الكارهين للاحتلال الروماني .

وبذلك كانت القاصمة للحاكم العام الروماني الذي رأى أن الوندال انتهزوا الفرصة بدخلوهم للمنطقة وجعلوها تابعة لهم، وأقاموا فيها دولتهم وأصبحت قرطاجنة عاصمة لدولة الوندال بقيادة جينسريك، وهنا أدرك الحاكم العام الروماني (بونيفاس) خطأه في استعانته بالوندال، وكانت هذه نهاية الإمبرطورية الرومانية في الشمال الإفريقي .

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب بهذا الصدد:

« قد ظل المغرب خاضعاً للرومان إلى (سنة ٤٢٩ ميلادية) ففي هذه السنة أعلن الحاكم العام الروماني (بونيفاس) العصيان على حكومة روما، التي كانت ضعيفة في ذلك العصر، وقد استعان بأعداء الرومان على حرب دولته ، وهم « الوندال » الذين كانوا يحتلون في ذلك الوقت جنوب إسبانيا، فاسرع ملك الوندال وهو « جينسريك » إلى بلاد المغرب ومعه « ثمانون ألف جندي » وانضم إليهم كثير من المغاربة لأنهم يكرهون الاحتلال الروماني لبلادهم ولكن « بونيفاس » أدرك أنه أخطأ عندما رأى الونداليين يحتلون المغرب لأنفسهم، فصار يحاربهم إلى أن انتصروا عليه واحتلوا شواطئ المغرب، وتونس، والجزائر، وجعلوا عاصمتهم مدينة « قرطاجنة »، وغادر « بونيفاس » بلاد المغرب (سنة٤٣١م) وبقيت فيها بعض الجيوش التي أرسلتهم إليها الإمبراطورية الشرقية لإعانة روما (سنة ٤٣٥م) وفي هذه السنة خرج آخر جندي للرومان من المغرب، وبذلك انتهى عصر الرومان الذي دام (٣٩٣ سنة)[١] .

---

(١) قادة فتح المغرب: (١/ ٣٢)

المبحث السادس

عنصر الونـدال

لقد تقرر في كتب التاريخ أن عنصر الوندال يرجع أصله إلى الجرمانيين الذي يطلق عليهم اسم الألمان في عصرنا الحاضر، وكان سبب تواجدهم في إسبانيا بعد الإستيلاء على فرنسا في القرن الرابع الميلادي عدة عوامل منها : التوسع وبسط النفوذ ، وتأمين جوانب المعيشة ، ومحاولة الوصول إلى الشمال الإفريقي كعمق استراتيجي لمملكتهم في جنوب إسبانيا .

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب :

الـونـدال هم من الأصـل الجرمـانـي- الألمان - زحفوا في القرن الرابع الميلادي على إسبانيا فاحتلوها وأقاموا بها دولة عظيـمة، ولما ضعفت الدولة الرومانية صارت تهاجمها القبائل المتبربرة من شمال أوروبا، وتستولى على أراضيها، وكان من جملة القبائل التي هاجمت الإمبراطورية الرومانية قبائل الوندال، وبعد أن احتلو فرنسا تقدموا إلى إسبانيا واستقروا في جنوبها في إقليم الأندلس، وإليهم ينسب هذا الإقليم، فقد كان يُسمى فاندولوسيا نسبة إليهم » [١] .

وفي فـتـرة تمرد الحـاكـم العـام الرومـاني بونيـفـاس - كـمـا مر مـعنا - على الإمبراطورية الرومانية في روما، وطلب الاستعانة من الوندال بقيادة جينسريك، فكان الوندال في ذلك الوقت يملكون القـوى العـسكرية الرهيـبـة المكونة من أسطول ضخم من السفن الحربية، وتعداد هائل من القوى البشرية، مما حفزهم لتلبية طلب الحاكم العام الروماني الاستعانة بهم، ودخلوا المنطقة بعزيمة الاستيلاء -لا الاستعانة - لصالح المملكة الوندالية، وكان لهم ما خططوا ونفذوا، حتى أصبحوا فيما بعد تخشاهم الدولتان الشرقية والغربية .

---

(١) المرجع السابق : (١ / ٣٢) .

يقول الأستاذ شيت خطاب بهذا الصدد: «لقد مكث جينسريك أكثر من ثلاثين سنة قاهراً منصوراً، تخشاه الدولتان الشرقية والغربية، فلما مات (سنة ٤٧٧ ميلادية) تولى ابنه «هنريك» وكان قاسياً على الكاثوليك، فقبض (سنة ٤٨٣) على خمسة آلاف من رهبانهم وشردهم في الصحراء، واغتصب أموالهم وكنائسهم، وفي (سنة ٥٢٣ م) تولى على الوندال (هلدريك)، وكان ضعيف الإدارة منحل العزيمة، فخلعوه وولوا مكانه «جليمير» فاستنجد «هلدريك» المخلوع بجوستنيان قيصر القسطنطينية لاسترجاع ملكه، فكانت فرصة اغتنمها جوستنيان لطرد الوندال من إفريقية، فهاجم «بيليساريوس» القائد الروماني قرطاجنة (سنة٥٤٤ميلادية) وأسر ملك الوندال «جليمير» واسترد جميع الأملاك التي كانت تابعة للوندال وأعادها إلى بيزنطة «القسطنطينية» وزالت دولة الوندال بعد أن ملكت نحو مئة سنة» [١].

المطلب الأول
عودة الرومان إلى الشمال الإفريقي بقيادة بيزنطة

فلما أزاح ملك الوندال «جليمير» الملك السابق المخلوع ضعيف العزم والإرادة «هلدريك» استغاث هذا المخلوع بالإمبراطورية الرومانية واستنجد بقيصر القسطنطينية جوستنيان لاسترجاع ملكه، فوقعت المملكة الوندالية في الشَّرَك نفسه الذي وقعت فيه القوات الرومانية بقيادة بونيفاس - كما مر معنا -.

فلما وصل هذا النداء لجوستنيان انتهز الفرصة الثمينة، فأعلن الحرب على الوندال وأرسل على الفور قواته المدججة بالأسلحة الفتاكة بقيادة قائده الماهر «بيليساريوس» إلى قرطاجنة وكان ذلك (سنة ٥٣٤م)، فأسر ملك الوندال جليمير، واستولى على

(١) قادة فتح المغرب العربي: (١/ ٣٤).

كل المناطق الخاضعة لمملكة الوندال، وأعاد كل أملاك الوندال إلى مملكة بيزنطة « القسطنطينية » وزالت دولة الوندال من بعد أن ملكتها نحو مئة سنة.

يقول الأستاذ طاهر الزاوي في ذلك : « ولما خلع هلدريك »استنجد بجوستنيان قيصر القسطنطينية لاسترجاع ملكه ، وكانت فرصة اغتنمها جوستنيان لطرد الوندال من إفريقية وإرجاعها إلى ملك روما،فأنجده وأعلن الحرب على الوندال، وهاجم بيليساريوس القائد الرومي قرطاجنةسنة ٥٢٤م ، وأسر ملك الوندال « جليمير » واسترد جميع البلاد التي كانت تابعة للوندال إلى مملكة بيزنطة » [١] .

وفي هذه الحقبة من الزمان أسس الرومان في الشمال الإفريقي حضارة مدنية راقية، فقد أقاموا العمران المتطور، والصهاريج الضخمة، السواقي الشاهقة، والسدود المنيعة، وأصلحوا البنية التحتية، والفوقية للبلاد على الجملة،حتى أحس أهالي المنطقة بهذا الاعتناء الخاص بهم من طرق الرومان فطفق الأهالي ينتحلون كل مقومات الحياة الرومانية لدرجة الاندماج الكامل، ويتركون عاداتهم البربرية، حتى وصل بجند الإمبراطورية الرومانية أن تنتخب سفاروس القائد البربري لعرش الأمبراطورية(سنة ١٩٣م) .

يقول الأستاذ طاهر الزاوي: « ومع طول الزمن وتعاقب السنين اندمج بربر السواحل في الروم بسنة تقليد الضعيف للقوي، واستحسان المغلوب ما عليه الغالب من عادات وتقاليد، ونسي بعضهم قوميتهم وعاداتهم، وأصبحوا رومان في كل مقومات الحياة حتى زالت الفوارق بينهم وبين الروم، وبهذا الاندماج أمكنهم أن يتولوا أكبر المناصب في الدولة، فإن سبتيم سيفاروس – وهو بربري الأصل – انتخبه الجند إمبرطوراً لعرش الروم(سنة ١٩٣م) » [٢] ، ولكن تفشى

---

(١) ،(٢) انظر : تاريخ الفتح العربي في ليبيا :(ص٣٦,٣٥) .

الانحلال الاجتماعي، وكثرة الدسائس والمؤامرات والخصومات، والمذاهب الدينية والسياسية أوهن من تعلق نفوس الناس بالإمبراطورية البيزنطية ، مع وجود عامل مهم ألا وهو اشتداد ساعد الفرس في القرن السادس، ومع اشتداد هذه العوامل أخذت الإمبراطورية البيزنطية تفرض الأموال الطائلة على الأهالي للاستعداد لمقابلة الفرس، واستخدمت القوة والاضطهاد في نزع هذه الأموال، وأسكتت أصوات الناقمين منهم، مما حدا بالأهالي أن يقفوا موقف المعادي فكانت بداية نهاية الإمبراطورية الرومانية.

يقول الأستاذ محمود شيت: « ولقد كان للانحلال الاجتماعي أثر بالغ على انحلال الدولة، فقد كانت نفوس الناس قد وهنت ، وكان الأباطرة أنفسهم أسبق الناس إلى حلقات الملاعب والمسرات ، وكانت النساء كذلك سباقات إليها يخالطن الرجال في تبذل انتهى بالمجتمع كله إلى تدهور سريع، ومن هنا نشأت الدسائس والمؤامرات التي تتصل بهذه الألوان من العبث، فنخرت عظام الدولة الواهنة، وأخذت دائرتها تتسع حتى شملت بلاط الإمبراطور، فأحالته مسرحاً لكثير من الخصومات والجرائم والآثام، وكلما انتصر في القصر حزب ارتفعت له في نواحي الدولة أعلام ، بعضها أنصار، وبعضها مذاهب مختلفة في الدين والسياسة، وكلما مات حاكم نزل البلاء بأشياعه وأتباعه ومناصريه في العقيدة والرأي وندمائه في المباهج والشراب.

وكانت بيزنطة كلما ازداد بها الضعف انسلخ عنها جزء من أملاكها، وكلما اشتد ساعد جار اقتطع منها على قدر ما يستطيع، حتى إذا كان القرن السادس واشتد ساعد الفرس أقبلوا ينهبون أرض الدولة انتهاباً، فاقتطعوا أكثر آسيا الصغرى والشام ومصر، وأخذوا يستعدون للمضي إلى شمال إفريقيا، فلم يكن للدولة بد من أن تبذل ما قد بقي في كيانها الواهن من قوة لتدفع خطرهم، حتى إذا تمكنت من ذلك على يد هرقل، لم يبق لها بعد ذلك من القوة ما يقيمها على أرجلها، إذ كانت الحروب قد كلفتها الثمن الغالي فأنشأت تعتصر دماء من بقي

لها من الرعايا ، حتى كادت توردهم موارد التلف، بدءوا يحتجون ويعترضون، فلجأ الحكام إلى العنف لإسكات أصوات الناقمين منهم، فاشتد الحنق وتأصلت الكراهية بين الجانبين، ولم يكد الفريقان يحسان بما بينهما من خلاف بسيط في مسائل الدين، حتى خيل لهم الحقد الدفين أن الخلاف بعيد يتناول كل مرافق الحياة، فنشبت الفتنة وأهوى الحاكم على رأس المحكوم بسياط الظلم، وأبى المحكوم أن يجيب وأن يطيع، فعظِم الاضطهاد وسالت الدماء، واشتعلت بعض نواحي الدولة كمصر وإفريقية بهذه النار الحامية فأتت على ما فيها » [١] .

ولكن رغم هذا الكبت، وزيادة ضيق الأهالي بالرومان، وعجز المملكة البيزنطية عن متابعة الأحداث وتذليل الصعاب للأهالي، إلا أن - المملكة البيزنطية - ظلت تسيطر على مقاليد الأمور في الشمال الإفريقي على الجملة حتى (سنة ٦٤٧م) ، ثم كان بعد ذلك عام الفتح الذي دحر فيه الكفر وأهله، ودخل الناس فيه في دين الله أفواجاً.

ولابد لنا من تعليق :

فرغم كثرة الحروب التي خاضها الرومان ، ورغم ظلمهم للرعية وبطشهم ، إلا أنهم قد احتفظوا بكامل قوتهم العسكرية وظلوا رغم ظلمهم قوة لا يُستان بها ، فلقد كانوا يُنفقون على الجيش بسخاء ، وكانوا يضعون موارد الدولة تحت تصرف القادة العسكريين ، وكان للجنود وضع متميز بالدولة الرومانية . . . . . ولكن المستشرقين وأذنابهم يحاولون التقليل من قيمة انتصار المسلمين رغم قلة عَدَدهم ، وتواضع عددهم على الرومان ، بإدعاء أن الدولة الرومانية كانت منهكة القوى والظلم الاجتماعي كان متفشيًا وكذا وكذا . . . .

نقول لهم : كان الأمر كذلك ولكنهم حشدوا يوم اليرموك قرابة ربع مليون جندي ، وكان من بينهم ثمانون ألف فارس وثلاثون ألفًا من الرماة ، وكل الجيش متدرع بالحديد في مقابل (٤٠ ألف جندي مسلم) !! .

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب : (١ / ٣٦) .

المبحث السابع

العنصر الإغريقي

ويقصد بالعنصر الإغريقي سكان جزيرة اليونان الحالية، فهذا العنصر اشتهر منذ القدم بالهجرة من موطنه الأصلي بحثاً عن الرزق الأمان، وطلباً للاستقرار والاطمئنان، وقد وقع اختياره من أول وهلة على منطقة برقة الواقعة جنوب شمال موطنه الأصلي، وحيث تعتبر أقرب الأماكن إليه وأشبهها طقساً ومناخاً وبيئة بموطنه الأصلي.

فقد قام هذا العنصر بإرسال مجموعات استكشافية إلى عدة مدن واستقر أمرهم بعد عملية الاستكشاف على اختيار مدينة قورينا «شحات حالياً» التي تقع على هضبة ترتفع على سطح الأرض قرابة ٢٤٠٠ قدماً ، قرب نبع دائم، وكان ذلك سنة (٦٣١ ق.م) وأصبح أرسطوكليس أول ملك لها، ثم تولى ابنه أرسيلوس بعده، ثم باتوس الذي شهدت فترة حكمه توسعاً في مملكته وزيادة قدوم المهاجرين اليونان، ومما أخاف القبائل الأصلية أن يطردوا من هذه المنطقة نظراً لزيادة عدد الوافدين من اليونان فاستنجدوا بأهل مصر لطلب العون على طرد اليونانيين، فاستجاب فراعنة مصر لنداء هذه القبائل الليبية وكان ذلك سنة (٥٧٠ ق.م)

يذكر جون رايت في كتابه تاريخ ليبيا: «بعث اليونانيون مجموعات استكشافية ولم ينجحوا في الاستقرار في الأماكن التي اتخذوها في بداية أمرهم في جزيرة «بلاثيا» ، وبتشجيع من كاهنة دلفي تحول اليونانيون إلى «أزريس» ولكنهم بعد ست سنوات لبوا دعوة رجال القبائل المحلية لمشاهدة مكان أفضل لاستقرارهم، وكان هذا المكان هو مدينة «شحات» فيما بعد، ذات المطر الغزير، وهناك وعلى بعد عشرة أميال من البحر، وعلى هضبة ترتفع عن سطح الأرض

قرابة ٢٤٠٠ قدماً، قرب نبع دائم، أقيمت مدينة شحات « قورينا » (سنة ٦٣١ قبل الميلاد)، وأصبح (أرسطو كليس) الذي سمي (باتوس) الأول ملكاً لها، وتلاه في الحكم ابنه (أرسيلوس) الأول، حيث حكم ستة عشر عاماً، ثم باتوس الثاني الذي شهد حكمه قدوم المهاجرين من جنوب اليونان وجزر إيجة، وقد أزعج القبائل الليبية المجاورة توسع المستعمرة، لأن الليبيين كانوا يرغبون في أن يشاركوا الأجانب خيرات أرضهم لا أن يطردوا منها، وتدهورت العلاقات مع اليونانيين بعد أن كانت ودية في البداية، والتفت الليبيون إلى مصر يطلبون العون، ولبى نداءهم الفرعـون إبريس (أهابرة) في (سنة ٥٧٠ ق.م) حيث سار نحو برقة يقود جيشاً كبيراً، ولكن اليونانيين كسبوا حرباً مفاجئة وقتل إبريس، وجاء وريثه في الملك ، فقام بتحسين العلاقات مع برقة بأن تزوج ابنة (باتوس) [1] ، ذلك بعد الصراعات والنزاعات التي بين القوم، وأخذت طريقها بين الملأ في ذاتها حيناً، والشعب والملأ حيناً آخر، وقد قتل أرسيلسو الثاني بعد أن أجبر على الخروج من قورينا إلى مدينة في الجبل الأخضر شرق ليبيا وهناك تم اغتياله، وفي (عام ٥٢٥ ق.م) احتل الفرس مصر، فطلبت الملكة فرتينا أم الملك أرسلوس النجدة ، فتقدم الفرس لغزو برقة وهاجموا مدنية المرج، ثم ما لبثت أن استسلمت، وواصلوا مسيرهم إلى مدينة بنغازي.

يقول جون رايت لقد: « كان حكم أرسيلوس بداية لنزاعات داخلية دائمة، انتهت بخلافة ابنه « أرسيلوس »الثالث، فبعد أن اضطر « أرسيلوس » الثاني للهرب من البلد كوَّن جيشًا وهزم « قورينا » ، ثم أجبر على الرحيل مرة أخرى ، والتجأ إلى المرج ، ولكنه اغتيل هناك، وفي (عام ٥٢٥ ق.م) احتل الفرس مصر ، وطلبت منهم النجدة الملكة « فرتينا » أم الملك أرسيلوس الثالث، للانتقام لمقتل

(١) تاريخ ليبيا (٢٩، ٣٠).

ولدها - فتقدم الفرس لغزو برقة - وتركوا قورينا دون أن يلحقوا بها أذى، ولكنهم هاجموا المرج التي استسلمت بعد حصار طويل سنة ٥١٥ ق.م وسار الغزاة غرباً إلى الموقع الذي توجد فيه بنغازي اليوم، ولكنهم في طريق عودتهم إلى مصر فقدوا كثيراً من رجالهم على أيدي رجال القبائل، وماتت الملكة « فرتينا » فيما بعد » (١) .

وخلال هذه الفترة من الزمان استعادت برقة استقلالها، وأُسست مدينة « يوسبر أيدس » (سنة ٥١٥ ق.م)، ثم أنشئت بعد ذلك عدة مدن يونانية أخرى على طول الساحل، منها مدينة توركا - العقورية - مدينة تولمايتا - الدرسية حالياً - مدينة أبولونيا - مرسى سوسة - وفي عام (٥١٥-٤٧٠ ق.م) ، تولى عرش شحات كل من الملك تابتوس الرابع، أرسيلوس، والتعيس، ولكن رغم النزاعات الحادة والصراعات القوية بين مدن برقة إلا أنهم توحدوا في وجه قرطاجنة التي لم تعترف أبداً بحقوق الإغريق التجارية في الشمال الإفريقي .

لذلك اهتم الإغريق بالزراعة إلى جانب التجارة، حيث جلبوا الحبوب الجديدة واعتنوا بإصلاح الأراضي التي كانت تغل ثلاثة مواسم في سنة واحدة كما يقول « هيرودوت » فما أن أهلت بداية القرن الخامس قبل الميلاد حتى أصبحت شحات واحدة من أكبر عواصم عالم الإغريق تجارياً، ومعمارياً ومناخاً وموقعاً جغرافياً، بل أصبحت محطة فكرية هامة جداً آنذاك، فقد ساهم أفلاطون بذاته في كتابة قانون قورينا، وقد درس أفلاطون الفلسفة في قورينا ، وعاش فيها الرياضي المشهور « تيردور » وكان بها مدرسة للفلسفة، وربما كان أرسيطيبوس القوريني هو الذي أنشأها ، كما أن قورينا كانت مركزاً طبياً شهيراً في صفاء هوائها ونقائه ، وجودة طقسها وجمال طبيعتها .

---

(١) المرجع السابق (٣٥,٣٦) .

يقول جون رايت: « قد ازدهرت منطقة برقة بصفة عامة تحت حكم البطالمة الذين قاموا ببناء أسوار دفاعية للمدن الخمس: أبولونيا، وبرنسية وشحات، وتوسيرا، وطولميد - طلميثة - والتي كونت اتحاداً فيما بينها، وفي ذلك الوقت بنيت بعض المستوطنات اليهودية بالمنطقة، وفي (سنة ١٦٠ ق.م) حدث نزاع في مصر بين حكامها الثلاثة بومبي الثالث ويوجريستس وأخيه فيلومستر، والتجأ الأخير فطلب مساعدة الرومان الذين تدخلوا وأعطوا يوجريتس حكم برقة، وهذا بدوره حكم عشرين عاماً، وأوصى بانتقال البلد إلى حكم الرومان بعد موته (عام ٦٩ ق.م).

وعاشت منطقة برقة فترة عشرين عاماً في فوضى أهلية قبل أن تنتقل إلى حكم الرومان الصارم، حيث عين مجلس الشيوخ الرماني حاكماً لها اسمه «كورنيليوس مرسيلينوس» (سنة ٧٥ق.م)،وخلال الحروب الأهلية الرومانية التي انفجرت، بعد ذلك بقليل استغل أتباع «بومبي» مدينتي قورينا وبرنسية كقاعدة للانطلاق منها عبر «ترتيكا» للالتحاق بجيش بومبي الرئيسي في تونس، وقد استقر الوضع في العالم الروماني بعد معركة «أكتيوم» (سنة٣١ ق.م)، والتي كانت فاصلة لدرجة أن أهالي برقة استمروا لمدة ثلاثة قرون يؤرخون بها، وقد وحد الرومان برقة مع جزر «كريت» كمقاطعة واحدة لمدة ٣٠٠سنة ».

وهكذا انتهت تلك الدول التي عمرت في الأرض أعواماً عديدة، وآماد مديدة، شيدوا فيها الصروح الكبيرة، وأقاموا فيها القصور المنيعة، وعتوا في الأرض فساداً، وصالوا واستطالوا على رقاب الناس بغير منهج الله القويم، ولكن ذهبوا وتركوا كل ذلك فما بقي من تلك الدول إلا أثراً بعد عين !!، ولقد عبر عن تلك النهايات شاعر الزهد أبو العتاهية رحمه الله تعالى بأبيات مؤثرات، يحملن في طياتهن العبر البالغة لمن يعتبر، فقال:

المبحث الثامن

النوميديون

إن النوميديين من قبيلة ماسيلي البربرية، والتي كان يتزعمها آنذاك القائد العسكري مسينيسا الذي كانت تربطه علاقة وثيقة بالإمبراطورية الرومانية، مما جعل قبيلة ماسيلي البربرية تدعم الإمبراطورية الرومانية في حربها مع القوات القرطاجنية بأربعة آلاف فارس مدججين بالأسلحة، وهذا ما جعل الإمبراطورية بعد انتصارها على القرطاجنيين أن تعيد لقبيلة ماسيلي بقيادة زعيمها مسينيسا جميع أراضيها، مما حدا بالقائد مسينيسا أن يفكر في توحيد قبائل البربر وتأسيس مملكة نوميدية تجمع تحت ظلها كل قبائل البربر، واستطاع أن يحقق ما أراد.

يقول جون رايت في ذلك: «عن طريق الحرب والقوة، أصبحت مدينة طرابلس رومانية، ففي (عام ٢٨٩ ق.م) أخذت قرطاجنة «مسينيسا» في صقلية من الإغريق، وبذلك غدت في احتكاك مباشر في روما، وقد سطا الأسطول الروماني في مدن قرطاجنة على ساحل شمال إفريقيا خلال الحرب «البونية» الأولى (٢٦٤-٢٤١ق.م) وفقدت قرطاجنة صقلية، ثم اندلعت الحرب البونية الثانية (سنة ١٢٨ق.م) وتم غزو إيطاليا وخربها (هانيبال) القائد القرطاجني، وردت روما على ذلك فأرسلت سفنها الحربية إلى الساحل الإفريقي الشمالي فهزمت القرطاجنيين (عام ٢٠١ ق.م) في معركة «زيما» على الحدود الليلبية التونيسية الحالية، وربما كان نجاح الرومان راجعاً إلى مساعدة «مسينيسا» زعيم قبيلة «ماسيلس» النوميدية، الذي دعم الرومان بأربعة آلاف فارس في لحظة حاسمة.

وقد كوفئ «مسينيسا» على مساعدته بأن اشترطت روما على قرطاجنة في معاهدة سالم (سنة ٢٠١ ق.م) أن تعيد «لمسينيسا» جميع الأراضي التي كانت

له أو لأجداده في أي وقت مضى، وكان مسينيسا يرى أن المعاهدة تعطيه الحق في حجز أجزاء من منطقة قرطاجنة ليضيفها إلى المملكة النوميدية التي كان يعمل على تأسيسها آنذاك، كان مسينيسا هذا قائداً موهوباً، وقد استطاع توحيد رجال القبائل البدائيين النوميديين وتحويلهم إلى أمة عظيمة على غرار النموذج القرطاجني، وكان هذا إنجازاً رائعاً أدى إلى تشكيل دولة لأهالي الصحراء لأول مرة» [١] .

ولكن مسينيسا لم يكتفِ بإقامة مملكته بين تلك القبائل فحسب، بل قام بحملة عسكرية على مدينة طرابلس وضواحيها، وسهل جفارة ونواحيها، وتوجه إلى مدينة لبدة، وأوية، وصبراتة، وحاصرهن ، فلما رأت المملكة القرطاجنية خطر المملكة النوميدية عليها، وأنها لا قِبَل لها بها ، قدمت تعويضات ومبالغ مالية هائلة لمسينيسا قائد الحملة لتأخيره عن المضي قدماً في حملاته العسكرية للمناطق الخاضعة للمملكة القرطاجنية.

وبعد تأزم القضية لم تجد المملكة القرطاجية بداً من خوض حربٍ خاسرة ضد المملكة النوميدية ، مما استدعى الإمبراطورية الرومانية للتدخل لمناصرة المملكة النوميدية التي كانت حليفة لها، وانتهت هذه الحروب التي دامت قرابة أربع سنوات بتدمير قرطاجنة ومدنها وضمت كل مقاطعاتها إلى ولاية الرومان.

يقول جون رايت عن عجز القرطاجنيين أمام المملكة النوميدية: «عجز القرطاجنيون أمام مسينيسا، لأن شروط السلام لم تكن تسمح لهم بشن حرب ضده دون موافقة الرومان الذين كانوا يؤيدون سلب الأراضي من الأعداء المهزومين، واستولى مسينيسا على منطقة طرابلس حوالي (عام ١٦٥ ق.م) وبحجة منعه من مطاردة حصار لبدة، وأوية، وصبراتة، توجهت قرطاجنة إلى

---

(١) تاريخ ليبيا (ص٤٠) .

روما كي تتدخل لوقف اعتداءات مسينيسا، وقد سوت بعثة من مجلس شيوخ روما ذلك النزاع بأن أمرت قرطاجنة بتسليم المدن لمسينيسا ثم أمرت بدفع تعويضات له لتباطئها في عملية التسليم، وبذلك خضع الساحل الطرابلسي كله لمسينيسا، وامتدت مملكته (سنة ١٦١ق.م) من غرب الجزائر إلى سرت.

وبعد عشر سنوات تأزمت قضية شمال إفريقيا، وأصبحت روما تشعر بأن مملكة النوميديين القوية كانت مصدراً خطيراً عليها، كما كانت قرطاجنة من قبل، وعندما دخلت قرطاجنة (سنة ١٥٠ ق.م)، في حرب يائسة مع مسينيسا تدخلت روما ، واعتبرت مهاجمة قرطاجنة للنوميديين خرقاً لشروط اتفاقية السلام لعام (٢٠١ ق.م) وأعلنت الحرب على قرطاجنة، وكان هناك دافع آخر لدخول روما هذه الحرب، وهو أنها أرادت الحد من طموح مسينيسا الواسع في جعل قرطاجنة عاصمة لمملكته ، وبعد أربع سنوات من الحرب والحصار، استسلمت قرطاجنة لروما، واستبعد أهلها ، وخربت المدينة العظيمة (١٦٤ق.م) ، وضمت مناطقها في شمال تونس إلى ولاية إفريقيا الرومانية، لمنع مسينيسا من احتلالها [١] .

وبعد وفاة مسينيسا تولى ابنه الأكبر مسبسا زمام الأمور فترة من الزمن ثم مات، فتولت من بعده زمام الأمور قيادة مشتركة بين أبناء مسبسا وأبناء أخوه جرجوثا الذي انفرد بالسلطة بعد ذلك، وفي هذا العهد ساءت العلاقة بين الرومان والمملكة النوميدية مما حدا بالرومان إلى شن حرب ضروس على المملكة النوميدية، تم فيها اعتقال جرجوثا، وتعيين أخوه جوبا كصنيعة رومانية، إلا أن الحرب الداخلية الأهلية زادت الأمر سوءاً مما دعى الرومان إلى ضم المملكة النوميدية وإخضاعها لسلطان الإمبراطورية الرومانية، وأصبحت بذلك مقاطعة

---

(١) تاريخ ليبيا (ص ٤٠).

إفريقيا القديمة (القرطاجنية)، ومقاطعة إفريقيا الجديدة (المملكة النوميدية) جزءاً من الإمبراطورية الرومانية .

يصور صاحب كتاب تاريخ ليبيا الأحوال التي أدت إلى انهيار المملكة النوميدية فيقول: « وانتهت حالة شبه الاستقلال للمدن (سنة ٤٩ ق.م) عندما اندلعت الحروب الداخلية بين « يوليوس قيصر » وبومبي، وكان ملك نوميديا – جوبا الأول – من المؤيدين لبومبي، وأجبر « جوبا » دولة لبدة على تقديم الجيوش والمعدات، ولكن بعد هزيمة بومبي (سنة ٤٨ ق.م) وموته، واعتصم أتباعه بإفريقية ، وأصبحت لبدة مركزاً لهم، ورست جيوش يوليوس قيصر في إفريقيا (سنة ٤٧ ق. م) ، وقضت على جيش بومبي في العام التالي.

وضمت روما مملكة النوميديين إلى مقاطعة إفريقيا الجديدة، وعُرفت مقاطعة تونس الأصلية باسم « إفريقية القديمة » ، وكعقاب للبدة على مساعدتها لبومبي جعلت مدينة لبدة خاضعة لروما، وغرمت مليون لتر من الزيت كل عام، وأصبحت علاقة منطقة طرابلس سيئة مع روما بعد الحرب، وبعد ود قديم، حيث صارت جزءاً من الإمبراطورية الرومانية » (١) .

قلت: إن الباب الذي مضى يذكرنا بقول الله تعالى : ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٧] .

وقال: ﴿ **فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾ [فاطر: ٤٣] .

وقال تعالى: ﴿ **سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ** ﴾ [غافر: ٨٥] .

إنك أيها القارئ الكريم تستطيع أن تتأمل في عدة سُنن من سُنن الله الجارية في

---

(١) تاريخ ليبيا (ص ٤١)

الشعوب والأمم والحضارات والدول من خلال الباب الماضي.

ومن أهم هذه السنن:

[أ] أن هلاك الأمم يكون بفشو الظلم وعدم إقامة العدل، ويكون ذلك عندما تختل الموازين، وتنعدم القيم، وتنحرف الفطرة، ويغيب منهج الله في دنيا الناس، وفي تحكم الأقوياء في الضعفاء، ويشرعون قوانين أرضية تجعل المجتمع طبقات فيه العبيد والسادة، ومن حق السادة أن يفعلوا ما يريدون تلبية لأهوائهم وإشباعًا لنزواتهم، فعند ذلك ينزل العقاب وتقع القاصمة.

قال تعالى: ﴿ **وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ** ﴾. [الأنبياء:١١].

[ب] أن انهيارالأمم والشعوب وزوالها يكون بأجل، وأن آجال الأمم أطول من آجال الأفراد، قال تعالى: ﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ** ﴾ [الأعراف:٣٤]

وقال تعالى: ﴿ **وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا** ﴾. [الكهف:٥٩].

[جـ] أن الأمم والشعوب بحاجة دائمة إلى من يذكرها ويردها إلى الصواب، لأنه مع تطاول الزمن تنحرف عن الحق لأسباب عديدة، ولذلك كان من رحمة الله بالإنسان أنه لم يتركه لفطرته وحدها أو لعقله وحده، ولذلك أرسل الله الرسل وأنزل الكتب.

وإذا تأملت وجدت غير ذلك من السنن التي مضت، ولا تزال تمضي في الشعوب والدول والأفراد والحضارات، والأمم، وأن سُنن الله لا تحابى أو تجامل ولا تتغير ولا تتبدل.

[د] أن الترف والفساد من أسباب زوال الأمم، فإذا ما تجبرت أمة من الأمم وعلت

في الأرض وأصابها البطر والكبرياء هيأ الله لها أسباب الانهيار والزوال ، قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً** ﴾ [الإسراء:١٦] .

أي : أمرناهم بالأمر الشرعي من فعل الطاعات وترك المعاصي فعصوا وفسقوا فحق عليهم العذاب والتدمير جزاء فسقهم وعصيانهم والترف، وإن كان كثرة المال والسلطان من أسبابه ، إلا أنه حالة نفسية تصيب الشعوب والأمم فتتمرد على منهج الله ، وليس كل ثراء ترفاً.

الباب الرابع

الفتح الإسلامي لشمال إفريقية

تمهيد:

كان حال الشمال الإفريقي قبل الفتح يلفظ آخر أنفاسه السياسية، والعسكرية، والدينية، والاجتماعية، فبعد دخول القائد جستنيان قرطاجنة واستسلام آخرملوك الوندال جليمر أخذت الدولة في انحدار سريع وتساقط غريب حيث كانت الإدارة المدنية فيها في غاية من الفساد،كما وأن الاضطهاد الديني والاستغلال المالي ، وفوضى الجيش أصبحت تنذر الإمبراطورية بأخطار عظيمة .

فحاولت قيادات الإمبراطورية البيزنطية إجراء بعض الإصلاحات التي تطيل عمرها إلا أنها باءت كلها بالفشل، وحيث ترتب على هذه الإصلاحات بروز دور الكنيسة الإفريقية الذي يعتبر الخطر القاتل للإمبراطورية الذي تمثل في تنازع العاصمتين الكبيرتين–القسطنطينة وإفريقية– على سيادة العالم المسيحي آنذاك ، ما ترتب عليه أن أصيبت الكنيسة الإفريقية بأزمة زعزعت أعماقها .

فقد ظهر فيها مذهب سرجيوس بطريق قسطنيطينية الذي يقول بالطبيعة الواحدة الإلهية والإنسانية معاً، والذي وقف إلى جانبه هرقل رغبة منه في اكتساب تأييد اليعاقبة، وعارضت الكنيسة الإفريقية ووجهت الاحتجاجات ضد هذا المذهب إلى الإمبراطور والبابا ، وانتهي الأمر بأن أعلنت أسقفية قرطاجنة عدم صلاحية الإمبراطور.

وتعقد الموقف عندما وصل إلى إفريقية جماعات من الرهبان والراهبات الذين خرجوا من مصر ، فراراً من الاضطهاد وبعداً عن مواطن الخطر في الوقت الذي

كان المسلمون يفتحون فيه مصر.

كانت هذه حالة المسيحية في الشمال الإفريقي قبل ظهور الإسلام: مذاهب منشقة وفساد إداري وعدم نظام ، وإشاعة الرشوة، وتسلط الرومان ، وانقسامات البربر، وفساد العدالة الاجتماعية، والظلم والجور ، مما كان مهداً خصباً لانتشار الإسلام وقبوله كدين فيه خيري الدنيا والآخرة [١] .

(١) راجع كتاب تاريخ المغرب العربي (ص ١٢٤)

الفصل الأول

دواعي الفتح الإسلامي

المبحث الأول

الأمة المسلمة ودورها الريادي

لقد تقرر في بدهيات هذا الدين أن غاية وجود الأمة المسلمة في هذه الحياة هو توحيد الله، وتحقيق عبوديته الشاملة في كل مناحي الحياة وإلى الممات ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فإذا كانت تلك غاية العبودية الشاملة التي تشمل الأمة المسلمة ومن حولها من بني البشر، كان لزاماً على الأمة المسلمة أن تقوم في ذاتها بامتثال الإسلام عقيدة وسلوكاً،ونظام حياة متكاملٍ،ثم حمل هذه الأمانة لأجل تبليغها للناس أجمعين، والجهاد في سبيل الله وأداء الأمانة إلى أصحابها، وإزالة كل العقبات التي تقف بوجه آداء هذه الأمانة إلى الناس أجمعين ، حتي لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وبذلك يتحقق بسط سيادة الشرع الحكيم على كل بني البشر، ويصبح الجميع يدينون بحاكمية الله سبحانه المطلقة المتمثلة في خضوع الجميع لأحكام الله ورسوله.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

و« إذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد بقصد أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العيا ، فمن منع قوتل باتفاق المسلمين » (١) .

بيد أن علينا أن ننوه هنا بأن أصل الجهاد في سبيل الله ليس لحمل الناس على اعتناق الإسلام كرهاً، كلا !، بل لإزالة الجواحز والعقبات المانعة من سماع دين الفطرة التي فطر الناس عليها.

---

(١)السياسة الشرعية: لابن تيمية (ص ١٨)

قال تعالى: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ..** ﴾ [البقرة:٢٥٦] .

إلا أنه يشرع لإزالة العقبات والموانع والحواجز التي تمنع بسط حكم الله سبحانه على الأرض، ودخول الناس كلهم تحت سلطان حكمه تبارك وتعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً** ﴾ [البقرة:٢٠٨] .

كذلك يشرع لرفع الظلم عن المستضعفين في الأرض كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ** ﴾ [النساء: ٧٥] .

وبهذه الأهداف السامية، والمطالب العالية قام إمام المجاهدين وسيد الأولين والآخرين ﷺ، فقد أرسل الكتب والرسل إلى القادة الملوك والزعماء حينذاك، وأرسل السرايا والجيوش لإزالة الحكام الذين تمردوا على منهج الإسلام، فكانت سرية عبد الله بن جحش أول هذه البعوث، واستمر ﷺ في إرسال البعوث والسرايا لإزالة الحواجز البشرية والأعراف الجاهلية، والموانع النفسية، والعوائق المادية المانعة من سماع الإسلام وتفهمه بل قاد ﷺ هو بذاته بعض البعوث والغزوات، والتي كان آخرها غزوة تبوك سنة ٩هـ.

والناس في كل هذه المعارك والغزوات مخيرون بين ثلاثة: إما أن يدخلوا في الإسلام ويكونوا للمسلمين إخواناً، وإما أن يختاروا البقاء على كفرهم، ويؤدوا الجزية، ويخضعوا لسطان الله وحكمه، ولهم ما لنا وعليهم ما علينا، وإما أن يرفضوا هذا وذاك فيكون السيف فاصلاً بيننا وبينهم وبذلك يتحقق قوله تعالى: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ..** ﴾ [البقرة:٢٥٦]

وهكذا سار على نحو هذا المنهج القويم، والقواعد الجهادية الحكيمة، والأسس النبوية الراشدة، الخلفاء الراشدون الذين حملوا أعباء هذا الدين وطافوا أصقاع الأرض يبذلون الغالي والنفيس في سبيل تبليغ هذا الدين للناس أجمعين طاعة لله ورسوله، ورحمة بالناس وإشفاقاً عليهم، قال تعالى: ﴿ **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الفتح:٢٩] .

وقال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء:١٠٧] .

المبحث الثاني

مبشرات الفتح الإسلامي

لقد تقرر في السيرة النبوية والأحاديث الصحيحة أن رسول الله ﷺ بَشَّر المؤمنين بعدة بشائر، ومن تلك البشائر بشارته ﷺ بفتح كثير من الممالك والبلاد كفتح العراق وجهة المشرق، كما وعد سراقة بن مالك بن جعشم سواري كسرى أثناء هجرته المباركة من مكة إلى المدينة، وهذا نص البشارة التي وعد فيها ﷺ سراقه بسواري كسرى الذي كان آنذاك إمبراطور المشرق، فقد جاء في سيرة ابن هشام قوله: «**فكتب لي كتاباً في عظم أو في رقعة**، أو في خرقة، **ثم ألقاه إليّ فأخذته، فجعلته في كنانتي، ثم رجعت**»[١] .

وكذلك وعد ﷺ عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه بذلك حيث قال له: «**فوالذي نفسي بيده لَيُتمَنَّ الله هذا الأمر، حتى تخرج الظعينة من الحيرة، حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد ، وليفتحن كنوز كسرى بن هرمز**»[٢] .

أما المبشرات بفتح الشام، فقد بشر بها ﷺ وفد تميم الداري حين قدومه إلى المدينة بقوله: «**إذا هلك كسرى، فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر، فلا قيصر بعده،والذي نفسي بيده لتُنفقن كنوزهما في سبيل الله عز وجل**»[٣] .

ولا شك أن هذه بشارة كانت واضحة وجلية بفتح الشام والعراق وبلاد فارس، أما عن بشارة فتح جنوب أوروبا وشرقها، فقد جاءت بها الأحاديث الصحيحة كالتي تبشر بفتح مدينة القسطنطينية الهرقلية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية آنذاك، ومدينة رومية الإيطالية عاصمة البابوية الكاثوليكية.

---

(١) سيرة ابن هشام، (٢ / ٩٧م).
(٢) سيرة ابن هشام (٤ / ٥٨١).
(٣) البداية والنهاية (٧ / ٥٩).

فقد سُئل عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أي المدينتين تفتح أولاً، القسطنطينية أم رومية ؟!!. فدعا عبد الله بصندوق له حلق، فأخرج كتاباً فقال: «بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذ سئل رسول الله ﷺ أي المدينتين تفتح أولاً ؟، فقال: [مدينة هرقل] - يريد القسطنطينية - (١).

كما وقد جاءت الأحاديث الصحيحة ببشارة فتح مصر المقوقسية التي قال فيها ﷺ: « **إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا افتتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة، ورحماً** » أو قال: « **ذمة وصهراً** » (٢)، يشير بذلك إلى هاجر أم إسماعيل عليه السلام، وإلى مارية القبطية أم إبراهيم، التي أهداها المقوقس حاكم مصر لرسول الله ﷺ وأنجبت ابنه إبراهيم.

وبعد فلا ريب أن هذه المبشرات قد أضافت رصيداً ماديًّا، ومعنويًّا وحسيًّا على أن الفتوحات الإسلامية كانت وفق رؤية واضحة المعالم، بأبعادها المرسومة سواءٌ البعيدة المدى أو القريبة، حتى جعلت أبا هريرة رضي الله عنه يقول حين افتتحت الأمصار زمن عمر وعثمان رضي الله عنهما: «افتحوا ما بدا لكم، فوالذي نفس أبي هريرة بيده، ما افتتحتم من مدينة، ولا تفتحونها إلى يوم القيامة، إلا وقد أعطى الله سبحانه محمداً ﷺ مفاتيحها قبل ذلك».

إن الفتوحات الإسلامية خاضعة لمشيئة الله التي جعلت لكل شيء قدراً، «ما افتتحتم من مدينة ولا تفتحونها إلى يوم القيامة، إلا وقد أعطى الله سبحانه محمداً ﷺ مفاتيحها قبل ذلك» إذ لا مكان للعفوية والارتجالية في هذا الدين السماوي القويم، فإن كل تحركات هذا الدين القيم كانت محسوبة في علم الله عز وجل، مسطرة في اللوح المحفوظ، لذلك كانت قيادة الرسول ﷺ لتلك الفتوحات

(١) رواه الدارمي، وأحمد، وابن أبي شيبة والحاكم.
(٢) فتح الباري (٦ / ٨٠).

التي افتتحها والمبشرات التي أخبر عنها ، كل ذلك كان وفق خطة ربانية شاملة ترفض الارتجالية ، وخطة عسكرية منظمة تستنكف عن العفوية ، كما قال عنه ربنا تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾ . [النجم : ٣ ، ٤] .

وجاء في الحديث الصحيح: **«والذي نفسي بيده ، لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني ، ولا أجد ما أحملهم عليه ، ماتخلفت عن سرية تغدو في سبيل الله ، والذي نفسي بيده لوددت أني أُقتل في سبيل الله ، ثم أحيا ، ثم أُقتل ، ثم أحيا ، ثم أُقتل ، ثم أحيا ، ثم أُقتل »** [1] .

---

(١) البخاري، كتاب «الجهاد والسير»، – باب تمني الشهادة – (٣/٢٦٨) رقم(٢٤٩٧)

المبحث الثالث

دعاوى المستشرقين... شبهات وردود

إن الاستشراق والمستشرقين من ولادتهم في القرن ا لعاشر الميلادي في أحضان الكنيسة برعاية اليهود ، إبان الفتح الإسلامي لأوروبا ، حينما توجهت أنظار العالم إلى هذا الفتح الجديد، فخافوا أن ينصرف أتباعهم إلى هذا الدين العظيم، فرأوا – بزعمهم – أن أنجح حيلة لمواجهة هذا المد العظيم ، محو صورته الوضيئة والإعجاب به في نفوس أتباعهم على وجه الخصوص، وفي نفوس أتباعه على وجه العموم، وذلك بالطعن فيه وتشويه محاسنه والتنفير منه، فكان أول مُخطط لهذا المكر والكيد النصراني المدعو «بطرس الجليل» رئيس دير كلوي ، الذي راقب الصراع بين الإسلام والنصرانية، واستنتج أن القوة المسلحة لا تجدي نفعاً في محاربة الإسلام والمسلمين ، وإنما ينبغي اللجوء إلى الغزو الفكري، لذلك توجهت محاولات الغزو للقرآن الكريم بترجمته إلى اللاتينية والطعن فيه وتشويه حقائقه ، ثم الطعن في شخص الرسول الكريم ﷺ، في عالمية دعوته ووسائلها الجهادية والدعوية، وما شاكل ذلك من شبهات أوْهَنُ من بيت العنكبوت !! .

ولكن نظراً لعدم تخصص هذا البحث في تقصي عمل الاستشراق والمستشرقين، وشبهاتهم والرد عليها، نكتفي بإيراد بعض شبهاتهم التي هي وثيقة الصلة ببحثنا هذا، ولكل مقام مقال كما قيل.

الشبهة الأول : دعوى عدم وجود استراتيجية للفتوحات الإسلامية :

يقول المستشرق «أنتوني نتنج» وهو يجزم برأيه: « والحملات بعيدة جداً على أن تكون نتيجة لتدبير مقصود هادي ، إذ يبدو أنها بدأت كغارات قصد منها أن توجد مخارج جديدة للروح الحربية التي كانت تسود القبائل، والتي

حظر عليها أن تشتبك في معارك أخوية »[١] .

ويقرر فيليب حتى الذي يمثل خلاصة رأي المستشرقين في هذه الدعوى: « كان على أولي الأمر بعد إخضاع الجزيرة أن يوجهوا الجيوش الحسنة الاستعداد إلى بلدان جديدة، وقد جعل الإسلام من المؤمنين إخوة ، حتى إن الغزو بين القبائل - والغزو قديم العهد في الحياة البدوية - لم يبق أمراً ترضي عنه السلطة، ولكن كان من الصعب كبح القبائل المتوثبة للغزو والقتال، فكان على أولي الأمر أن يوجهوا القبائل في سبل ومنافذ جديدة ... وهكذا بدأت بشكل غزوات تنفيساً للروح الحربية المتأججة في قلوب أبناء القبائل، وخلقاً للمجال الحيوي خارج الجزيرة المكتظة بالسكان »[٢] .

لا شك أن هذه الدعوى باطلةٌ من أصلها، وواهية مردودة بالنصوص الثابتة، والوقائع الصحيحة، فلو تأمل عاقل في دين الإسلام لوجده من النظرة الأولى أنه دين يحث أتباعه ويأمرهم النظام في حياتهم الخاصة والعامة، وبالتفكير والتأمل في كل حركاتهم وسكناتهم، وبالرؤية العميقة للأحداث، والنظرة البعيدة للأهداف، فخذ لذلك مثلاً للإيضاح والتبيان لما قررناه شعيرة الصلاة فحسب، والتي تعتبر من أبرز مظاهر التدين بدين الإسلام، فانظر في كيفية أدائها على سبيل المثال بصورها الجماعية في حالة الحرب، وتحديد دور الإمام فيها والمأموم، والسابق والمسبوق، فما أن نتأمل في تلك الشعيرة وكيفية أدائها فتقر بأن هذا الدين عظيم ، أساسه التنظيم ، والدقة في حالات الحرب والسلم.

فإذا كان ذلك في شعيرة الصلاة التي لا فيها إراقة دماء ولا إهدار أموال، ولا تغريب عن الأهل والأوطان، فكيف يتصور من دين هذا سمته في شعيرة تعبديه

---

(١) راجع كتاب « دواعي الفتوحات الإسلامية »، ودعاوي المستشرقين للدكتور / جميل عبد الله المصري (٣٥).
(٢) نفس المصدر (ص ٣٥).

كالصلاة ، يأمر بشعيرة جهادية عسكرية تتضمن القتال والاستشهاد ، وإهدار المال والتضحية بالأولاد، والتغريب عن الأوطان والإخوان، بدون وضع خطة جهادية بأبعادها الاستراتيجية، لإقامة هذه الشعيرة التعبدية ؟!! (١) .

لذلك كان على أصحاب هذه الشبهات أن يقفوا مليًّا عند سيرة الرسول ﷺ ويتأملوا بعد تخطيطه وأهدافه ﷺ منذ بداية الرسالة، وكيف قام في مكة بتبليغ دعوة الإسلام لزعماء القبائل، وسادة القوم، وملوك الناس آنذاك، يدعوهم بدعاية الإسلام على أن يؤازروه وينصروه، فكان له ما قصد، فقد قبل أهل المدينة تلك الدعوة وقائدها ﷺ التي كانت بداية إرهاصات قيام دولة الإسلام الأولى التي هاجر إليها ﷺ فيما بعد، حيث قام بتثبيت دعائم الدولة الجديدة، وتحمل عبء نشر الدعوة للناس أجمعين وذلك بإرسال الرسل، والاستعداد للجهاد في سبيل الله وفق خطط واضحة المعالم، والأبعاد، والمضامين والأهداف والمقاصد .

وهكذا استمر الخلفاء الراشدون من بعده ﷺ على هذا النمط من التحرك المدروس بأبعاده الشمولية وأهدافه الشرعية، يحدوهم في كل ذلك حب الخير للناس أجمعين في الدنيا والدين، وبهذه الروح وتلك الإستراتيجية استطاعوا أن يفتحوا قلوب الناس ليدخلوا في دين الله أفواجاً حتى وصلوا إلى بلاد الصين ، والروس ، وقلب أوروبا ومجاهل إفريقية ، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : **« فوالذي نفسي بيده ليتمن الله هذا الأمر ، حتى تخرج الظعينة من الحيرة ، حتى تطوف البيت في غير جوار أحد ،وليفتحن كنوز كسرى بن هرمز »** (٢) .

الشبهة الثانية: أن الفتوحات الإسلامية كانت حروباً دينية :

وجماع هذه الشبهة يلخصها الدكتور جميل المصري بقوله : «إن المسلمين

---

(١) هذه الفكرة من الأخ عبد الحكيم الصادق، أثناء حوار.

(٢) سيرة ابن هشام (٤ / ٥٨١)

أصحاب عقيدة ، ولكنهم توسلوا بالتعصب الأعمي، وأخضعوا الناس لمبادئهم بالقهر والإرغام ، وخاضوا إلى ذلك بحار الدم والقسوة، وأنهم كانوا يحملون القرآن بإحدى يديهم ، والسيف باليد الأخرى » (١) .

ونقول رغم هذا الإفك المبين، ومواقف هؤلاء المبطلين الذين يعرفون حقيقة الإسلام ودعوته أكثر من بعض المسلمين، كما قال تعالى فيهم: ﴿ **يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ** ﴾ [البقرة:١٤٦]، بيد أن الله سبحانه أقام حجته عليهم ودحض شبهاتهم بأقلامهم، وألسنتهم حيث سخر لهم من يفند شبهاتهم من بني جنسهم ومن جلدتهم ويتكلمون بألسنتهم ، ومن أولئك المستشرقين روزنتال .

يقول المستشرق روزنتال:

« ... وقد نمت المدينة الإسلامية بالتوسع لا بالتعمق، وداعية إلى العقيدة، مناقشة لتلك الحركات الفكرية الموجودة ... وفوق كل ذلك فيتقدم الإسلام وتهاوت الحواجز القديمة من اللغة والعادات ، وتوفرت فرصة نادرة لجميع الشعوب والمدنيات لتبدأ حياة فكرية جديدة على أساس المساواة المطلقة بروح المنافسة الحرة » (٢) .

ويقول فون كيرمير:

« كان العرب المسلمون في حروبهم مثال الخلق الكريم، فحرم عليهم الرسول قتل الرهبان، والنساء والأطفال، والمكفوفين، كما حرم عليهم تدمير المزارع، وقطع الأشجار وقد اتبع المسلمون في حروبهم هذه الأوامر بدقة متناهية، فلم ينتهكوا الحرمات، ولا أفسدوا المزارع، وبينما كان الروم يرمون السهام المسمومة، فإنهم لم يبادلوا أعداءهم جرماً بجرم ، وكان نهب القرى وإشعال النار قد درجت

---

(١) دواعي الفتوحات الإسلامية (ص ٣٩) .

(٢) المرجع السابق(ص ٤١) .

عليها الجيوش الرومانية في تقدمها وتراجعها ، أما المسلمون فقد احتفظوا بأخلاقهم المثلى ، فلم يحاولوا من هذا شيئاً » (١) .

وأجاد المستشرق غوستاف لوبون بالفعل في طريقة عرضه لعدم إكراه المسلمين الناس على الإسلام، وبين أن الإسلام انتشر بالدعوة وبدون إكراه (٢) .

يقول الدكتور جميل المصري : « والواقع أن مصادرنا لم تبخل علينا بالنصوص الموثقة التي لا تدع مجالاً للشك في أن المسلمين لم يكرهوا أحداً على اعتناق الإسلام، منفذين أمر الله سبحانه وتعالى : ﴿ **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة:٢٥٦] .

وأما إقبال الشعوب على الإسلام فكان بسببه ما لمسوه في الإسلام نفسه، فهو النعمة العظمية، ولما لمسوه من المسلمين من التخلق بأخلاق الإسلام والالتزام بأحكامه وأوامره ونواهيه، ولما لمسوه في القادة والجند الذين كانوا يقومون بالدعوة بالتطبيق العملي، فتميزت مواقفهم بأنبل المواقف التي عرفها التاريخ العالمي ، فقد كان الخلفاء والقادة يوصون جندهم بالاستعانة بالله ، والتقوى وإيثار أمر الآخرة على الدنيا ، والإخلاص في الجهاد ، وإرادة الله في العمل، والابتعاد عن الذنوب » (٣) .

الشبهة الثالثة : أن الفتوحات الإسلامية كانت حروباً قومية :

لا يخفى عليك أن هذه الشبهة مردودة من أصلها إذ إن أكبر خصومة للدعوة الإسلامية كانت من قِبَل العرب سواءٌ أكانوا عرب مكة، أم عرب الشام والعراق، بل التاريخ يثبت أن هؤلاء العرب المتنصرة وغيرهم ، هم الذين وقفوا في عدة

---

(١) المرجع السابق (ص٤١) .
(٢) المرجع السابق : (ص٤٢) .
(٣) المرجع السابق : (ص ٥٥) .

معارك مع الفرس، والروم ضد المسلمين، فكيف يكون أعداء الدعوة الإسلامية سبباً في الفتوحات الإسلامية ، هذا بهتان عظيم ؟!! .

ولكن لا بأس أن نذكر لك فحوي شبهة القوم، حتي يتضح لك أنها ليست بشبهة وإنما هي المكر والكيد!! وهذا نص الشبهة كما ذكره الدكتور جميل المصري : « وجود العرب في الشام والعراق ومصر، الذين اعتبروا العرب من بني جنسهم، يربطهم مالا يربطهم بأولئك الحكام السابقين من الروم والفرس » .

واعتبروا أن هذه الفتوحات : « من سلسلة الصراع بين الشرق والغرب، استرد بها الشرق الأدنى مجده السامي الغابر » (١) وذهب إلى هذه الدعوى الباطلة من المستشرقين بروكلمان في كتاب تاريخ الشعوب الإسلامية، وكلود كاهي، وبرنرد لويس في كتاب العرب في التاريخ، وموريس لومبارد في كتابه : الجغرافيا التاريخية .

الشبهة الرابعة: الفتوحات الإسلامية كانت لأسباب اقتصادية :

ولا ريب أن من تأمل هذه الشبهات وأسباب إثارتها عند هؤلاء المستشرقين ، يجد أن هؤلاء المستشرقين قد انطلقوا لتقييم حركة الفتح الإسلامي من منظورهم النصراني البحت ، الذي قد تجسم في دوافع حركتهم الاستشراقية، حيث كان أول دافع لهم في حركتهم تلك بعد فشلهم في الحروب الصليبية، كان الدافع الديني، ثم الباعث الاقتصادي الذي سيطر على أذهان القائمين على حركة الاستشراق سيطرة كاملة، وما تحركات حركة الاستشراق المعاصرة بقيادة أميريكا، وفرنسا، وبريطانيا، وألمانيا، وإيطاليا، في منطقة الشرق الأوسط، وإفريقيا، وشرق آسيا إلا دليل على ذلك، وما حرب الخليج ودوافعها عنا ببعيد !! .

---

(١) دواعي الفتوحات الإسلامية، ودعاوي المستشرقين (ص ٥٥).

لذلك فهم يحاكمون حركة الفتح الإسلامي الرباني بحركتهم الاستشراقية الجاهلية التي مبناها الكفر بالله واليوم الآخر، حيث إنهم لا يتحاكمون إلى كتاب سماوي ، بل يرفعون لواء المنهج العملي في البحث والنقد الأكاديمي -كما يزعمون- لهذا سوف نحاكمهم إلى المنهج العلمي في البحث والنقد، ويكون ذلك على محورين لا غير:

المحور الأول :

لماذا لا يلتزمون بقواعد البحث العلمي ، والنقد الأكاديمي ، حيث عمدوا لمحاكمة حركة الفتح الإسلامي صاحبة الكتاب السماوي والدستور الإلهي، التي لها من المراجع العلمية والبشرية مالم يكن من قبل، ولا من بعد لحركة قط، إلى حركتهم الاستشراقية الجاهلية التي ليس بها سند سماوي، ولا دستور إلهي، ولا مرجعية علمية ! ، أتكون هذه المحاكمة عادلة والحال كما مر معنا ؟! ، أفتونا يا أصحاب المناهج العملية ، والقواعد الأكاديمية الاستشراقية المسمومة.

المحور الثاني :

ثم بعد ذلك قرروا في أنفسهم ما قَرَّروه من الشبهات حيال حركة الفتح الإسلامي الرباني، ونظروا في المصادر الإسلامية ليتخيروا كلمات، أو يبتروا نصوصاً، أو يتصيدوا عبارات موهمة قد قيلت في سياق معين، فيقطعونها من سياقها وسابقها ولاحاقها لكي تؤيد ما قرروه من شبهاتهم !! ، ويعرضوا جملة وتفصيلاً عن النصوص المحكمات الواضحات ويتسللون منها لواذاً !! ، أهذا منهج عملي في البحث عن الحقائق ؟!! ، أهكذا تكون قواعد النقد الأكاديمي ؟!!.

الفصل الثاني

بدايات الفتح المبارك

إرهاصات الفتح :

لقد سبق الفتح الإسلامي لليبيا ، إرهاصات ، وأحداث،وقضايا سياسية، ونزاعات عرقية، وثورات محلية في مدينتي برقة وطرابلس ، التي كان لها أثر بالغ في تغيير مجريات الأحداث السياسية والدينية في المنطقة، وتمهد لتهيئة نفوس أهالي ليبيا لقبول الفتح الإسلامي ، حيث إنهم كانت قد بلغتهم أخبار فتح المسلمين لبلاد الشام ومصر، فتطلعوا إلى الخلاص على أيدي المسلمين من أولئك البيزنطيين وحكمهم الجائر التعسفي، لذلك حاول نفر من أهالي ليبيا التمرد على نظام الإمبراطورية البيزنطية ، والخروج إلى ناحية مصر ، وما أن وصل هؤلاء النفر حتى أعلنوا إسلامهم ودخلوا في دين الله سبحانه ، وأعطوا ولاءهم لقيادة المسلمين بقيادة عمرو بن العاص ، ونيابة عن خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

المبحث الأول

حملة عمرو بن العاص ﷺ على برقة

ولما كان الحال في ليبيا كذلك ، فقد قرر عمرو بن العاص ﷺ بناء على تلك المعلومات، أن يضع استراتيجية أمنية وقائية لمصر من الناحية الغربية ، حتى يأمن شر الروم القاطنين بناحية برقة وطرابلس، بعد أن أمن فتوحاته الشامية وذلك بفتحه الإسكندرية ، لذلك قرر عمرو بن العاص ﷺ إرسال عقبة بن نافع الفهري ﷺ كمقدمة استطلاعية لفتح الشمال الإفريقي، وكان ذلك في (عام ٢٢ هـ - ٦٤٢م) على الراجح من الأقوال.

يقول ابن عذاري بهذا الصدد: «إن عمرو بن العاص بعد أن فتح مصر وجه عقبة بن نافع الفهري إلى زويلة، وبرقة فافتتحهما، ثم توجه بنفسه إلى برقة، فصالح أهلها، ولا يستبعد أن تكون حملة عقبة بن نافع هذه عبارة عن سرية استطلاعية وإنها هي التي جعلت عمرو بن العاص يمكث بقية (سنة ٢١هـ/ ٦٤١م) ثم إن الفتح قد تم في الشهور الأولى من (سنة ٢٢ هـ/ ٦٤م) ثم واصل عمرو سيره إلى طرابلس في (سنة ٢٢ هـ/ ٦٤٢ م) أو في أواخرها» [١].

يبدو لي أن فتح برقة لم يكلف عمرو بن العاص ﷺ كبير عناء، إذ أن جيشه الذي فتح به مصر لا يتجاوز تعداده اثنى عشر ألفاً، مع الأخذ في الاعتبار أن نسبة الجيش الذي وجهه لفتح برقة ثم طرابلس تعداده كان ضئيلاً قياساً مع حجم قوات الإمبراطورية البيزنطية التي كانت ترابط بتلك المنطقة ، إلا أن القوة الحقيقية ليست في تعداده وشكله، وإنما تكمن في إيمانه بالله واليوم الآخر، وحبه

---

(١) ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، للدكتور صالح مصطفى مفتاح المزيني، ص (٢٨) .

للموت في سبيل الله مع ممارسة فن القتال وخبرته الطويلة في ذلك.

يقول الدكتور صالح مصطفى: «فلما انتهى عمرو بن العاص ﷺ من فتح الإسكندرية، وتنظيم أمورها، سار ببقية جيشه إلى مدينة برقة، ثم أصبح مجموع جيشه بعد أن وصلته الإمدادات لا يزيد على اثني عشر ألفاً، وإذا أدخلنا في حسابنا ما فقده عمرو ﷺ من جند استشهدوا في فتح مصر وما تركه من جند للدفاع عنها، أدركنا قلة عدد جيش المسلمين، الذي وصل به إلى برقة الأمر الذي سهل عليه مهمة السير إلى برقة دون أن يتطلب الإعداد لذلك مجهوداً كبيراً، فلم يكن من الصعب على جيش مثل هذا العدد أن يقطع الطريق فيما بين مصر وبرقة دون أية صعوبة، وقد ساعده على ذلك ما عرف به الجند المسلمون في عصرهم الأول من بساطة في التجهيز للحرب ، والتزود لها وخبرة بفنون القتال في الصحراء» (١) .

والجدير بالذكر، أنه يجب التنوية هاهنا بخصلة هامة قد ساعدت عمرو بن العاص ﷺ أثناء فتح برقة، وهذه خصلة تعتبر منقبة لأهالي برقة ، ألا وهي عدم مقاومتهم للجيش الإسلامي رغبة في العيش تحت ظل الحكم الإسلامي العادل بقيادة عمرو بن العاص، ورغم سجيتهم التي ألفت الحروب والتمرد على أنظمة الإمبراطوريات الفنيقية، الإغريقية، وورومانية، والبيزنطية وغيره، ولذلك تعتبر هذه النقطة عاملاً هاماً من العوامل التي ساعدت الجيش الإسلامي في فتح برقة بدون كبير عناء.

يقول الأستاذ طاهر الزاوي: «وسار بجيشه عمرو بن العاص إلى برقة لفتحها، فلم يحاربه أهلها، وآثروا أن يدخلوا تحت حكم الإسلام ويتمتعوا بما فيه من حرية وعدالة» (٢) .

---

(١) ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، (ص٢٩).
(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (ص ٤٠).

يقول الدكتور صالح مصطفى: « وعندما وصل جيش الفاتحين إلى برقة ضرب عليها الحصار، وتتفق معظم المصادر على أن برقة وهي مدينة انطابلس [١] قد فتحت صلحاً، وأن أهلها قد عاهدوا عمرو بن العاص ﷺ على أن يدفعوا مبلغاً من الجزية مقدارها ثلاثة عشر ألف دينار، وقد اختلف في سبب تحديد الجزية وعللها بعضهم بأنها كانت تمثل عدد الحالمين ممن أثروا البقاء على مسيحيتهم، ولم يعتنقوا الإسلام فحقت عليهم الجزية باعتبارهم أهل ذمة » [٢] .

ولا يخفى أن أحكام أهل الذمة، وكيفية أخذ الجزية منهم، وتحديد قيمتها، كل ذلك مسطر في كتب الفقه بشكل مفصل، وما قصدت التكلم في ذلك وإنما قصدت الإشارة إلى بعض مقاصد أخذ الجزية من أهل الذمة في دولة المسلمين، وهذه المقاصد تدور حول عدة نقاط نذكر منها: تقرير مبدأ لا إكراه في الدين، ولكن عليهم أن يدخلوا بذلك تحت سلطان الدولة المسلمة، وعدم التمرد عليها في حالتي الحرب والسلم، وبدفعهم الجزية تعصم دماؤهم وأموالهم وأعراضهم إلا بحق الإسلام ، وبذلك تعطي لهم فرصة معايشة أهل الإسلام بالإسلام لكي يجاوروا أهله وتكون فرصة للدخول فيه، وبدفعهم الجزية يكونون قد ساهموا في نفقات الدفاع عن أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وحرماتهم التي كلفها الإسلام لهم، وأخيراً المساهمة في بيت مال المسلمين الذي يضمن الكفالة والإعاشة لكل عاجز عن العمل، بما في ذلك أهل الذمة بدون فرق بين المسلمين دافعي الزكاة وأهل الذمة دافعي الجزية، فالكل ينعم بعدل الإسلام ورحمته بضمان تلك الواجبات وغيرها .

---

(١) انطابلس: اسم برقة قبل الفتح الإسلامي وهي كلمة رومية معناها بالعربية، خمس مدن، تسمى الآن العقورية، وشحات، وبنغازي، وسوسة، إلخ.

(٢) ليبيا منذ الفتح حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، (ص ٢٩) .

وبهذه الروح والأخلاق، وبتلك العدالة والإنصاف، استجاب كثير من الشعوب لنداء الفطرة، دين العدل والمساواة، دين رب الأرض والسماء، بمجرد دخول جيوش المسلمين الصادقين إلى أراضيهم، فأصبحوا إخواناً في العقيدة، وحملوا مع الفاتحين الرسالة، وأدوا الأمانة.

فإذا كان ذلك كذلك فيجب الاهتمام بأمر إعداد العدة والجهاد في سبيل الله على منهاج النبوة والخلافة الراشدة،وذلك بإقامة هذه الفريضة كما ينبغي، حتى تقام أحكام كثيرة بدونها لا تُقام، بل تتعطل بالكلية، كما قال تعالى: ﴿ **قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ** ﴾ [التوبة: ٢٩] .

وبعد فقد واصل عمرو بن العاص رضي الله عنه مسيرته المباركة بعد أن استسلمت مدينة برقة إلى ناحية مدينة طرابلس ، خلال مسيره ناحية الغرب، ثم فتح بقية المدن التابعة لبرقة مدينتي توكرة، وبنغازي، ثم وصل إلى مدينة أحدابية التي رفع معظم أهلها شعار الصلح على أن يدفعوا خمسة آلاف دينار فرعوني، ولكن ما لبثوا على دفع الجزية إلا قليلاً حتي أسلم معظم سكانها بعد أن رأوا من الفاتحين من العدالة والمساواة ، والصدق والأمانة ، والطهارة والعفة، ما لم يروه من قبل في جيوش تلك الأمبراطوريات الهالكة !!.

يقول الدكتور صالح المصطفى بهذا الصدد : « وبعد أن خضعت مدينة برقة للجيش الإسلامي، تابع عمرو بن العاص سيره مع الطريق الساحلي القديم مستهدفاً مدينة طرابلس، ففتح في طريقه بقية مدن برقة مثل توكير (توكرة)، وبرنيق (بنغازي)، وكانتا طلالاً مهجورة أوعلى الأقل كانت حالتهما قد تدهورت بحيث لم تستحقا أن تذكرا في أخبار الفتح، وكانتا من قبل مدنيتين هامتين في الإقليم، وفي نفس السنة ٢٢ هـ/ ٦٤٢م وصل عمرو بن العاص رضي الله عنه

في مدينة أجدابية فافتتحها صلحاً على أن يدفع أهلها خمسة آلاف دينار، وقد أسلم معظم أهلها، وبينما عمرو بن العاص يواصل سيره نحو طرابلس، كان يعمل على تثبيت فتح برقة وتأمين مواصلاته، ولذلك أرسل عقبة بن نافع على رأس قوة من الجيش لغزو المناطق الداخلية من برقة، بينما واصل هو مسيره مع معظم الجيش نحو طرابلس» (١) .

ولا يخفى أن الدور الذي قام به عقبة بن نافع رضي الله عنه خلال هذه الحملة المباركة، كان دور الإسناد، والاستطلاع، والتأمين، حيث أمّن لحملة عمرو بن العاص رضي الله عنه مناطق الجنوب حتى وصل مدينة زويلة فافتتحها، بذلك استطاع عمرو بن العاص رضي الله عنه أن يسير نحو جهة الغرب وهو آمن من الجهات الثلاث، جهة الشرق لقبول أهلها الإسلام، وجهة الجنوب لقبول أهل الإسلام والدخول في طاعة جيش عقبة، أما جهة الشمال كانت متمثلة في شريط البحر الأبيض المتوسط، وكان آنذاك جهة أمنة ، فما بقيت إلا جهة الغرب، لذلك وجه معظم الجيش نحو طرابلس، وماحولها من المدن، فكان له ماقصد .

يقول الدكتور صالح مصطفى: «أما عقبة بن نافع فقد توجه بتلك القوة في اتجاه الجنوب تاركًا ودان (٢) على يمينه، وفاتحاً المناطق الداخلية حتى بلغ مدينة زويلة فافتتحها وفرض على أهلها ثلاثمائة رأس من الرقيق، وبذلك يكون عقبة بن نافع قد مهد لقيام الإسلام في مناطق نائية في الصحراء الجنوبية، إلى حد أن عمرو بن العاص رضي الله عنه قد كتب إلى الخليفة يُعلمه أنه قد ولى عقبة بن نافع المغرب، فبلغ زويلة ، وأن مَنْ بين زويلة وبرقة سِلْم كلهم ، حسنة طاعتهم، قد

---

(١) المرجع السابق: (ص ٣٠، ٣١) .

(٢) **ودان**: مدينة في جنوب سرت، وكانت مضمومة إليها وهي جزيرة لا تقصر في رخص التمور وكثرتها وجودتها عن أوجلة، ويذكر البكري أن ودان مدينة في بلاد البربر، وهي من حيز برقة يسكنها قوم من العرب، وبينها وبين قصر ابن ميمون ستة أيام، انظر: معجم ما استعجم(٤ / ١٣٧٥) .

أدى مسلمهم الصدقة ، وأقر معاهدهم بالجزية ، وأنه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى أنه يطيقونه، وأمر عماله جيمعاً : « أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها على الفقراء ، ويأخذوا الجزية من أهل الذمة ، فتُحمل إلى مصر، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العُشر ، ونصف العُشر ، ومن أهل الصلح صلحهم » .

وحينما كان عقبة يتجه نحو الجنوب كان عمرو بن العاص يسير نحو طرابلس وفي طريقه إليها مر بسرت [١] ، ولم يواجه عناءً في فتحها، إذ لم يذكر أحد أنها فتحت عنوة أو صلحاً، مما يدل على أنها لم تكن ذات خطر، فاكتفى المسلمون باستسلامها، ثم ساروا في طريقهم إلى لبدة [٢] ، فوجدوها خراباً مهدمة وحولها قليل من السكان خليط من البربر والروم فافتتحوها دون مقاومة [٣] .

---

(١) **سرت** : وهي مدينة كبيرة على سيف البحر الأبيض المتوسط .

(٢) **لبدة** : تقع شرق طرابلس بنحو(١٢٤ ك.م) أسست في أوائل القرن العاشر قبل الميلاد، احتلها الروم(سنة ٤٢ ق.م) انظر : الزاوي : معجم البلدان الليبية،(٥-٦) .

(٣) المرجع السابق :(٣١-٣٢) .

المبحث الثاني

حملة عمرو بن العاص على طرابلس

ولما انتهى عمرو بن العاص من فتح برقة وتأمين حدودها ، تقدم بمعظم جيشه جهة الغرب حتى بلغ مدينة طرابلس ذات الحصون المنيعة، والأسوار الحصينة التي كانت تحيط بها من جميع الجهات شرقاً، وغرباً وجنوباً إلا ناحية الشمال التي كانت مطلة على البحر، فلما رأى عمرو تلك الحصون المنيعة والأسوار الحصينة اختار موقعاً من ناحية الشرق ورابط فيه ، وكان يرسل طلائعه تلك إلى الأسوار لعلهم يجدون مدخلاً إلى داخل المدينة .

يقول الدكتور صالح مصطفى: « ثم تقدم عمرو بن العاص بجيشه حتي وصل إلى مدينة طرابلس، وكان محصنة، إذ أن الأسوار تحيط بها من جميع الجهات، فيما عدا الجهة البحرية حيث كان الميناء، ورابط عمرو رضي الله عنه في موضع مرتفع يشرف على المدينة من جهة الشرق وظل محاصراً لها لمدة شهر » (١) .

ويقول الأستاذ طاهر الزاوي وهو بصدد الحديث عن مناعة مدينة طرابلس وأسوارها :

« وقد كان سور طرابلس من المناعة بحيث لم يقدر المسلمون أن يتسوروه، كما لم يقدروا أن يقتحموا أبوابه، وكان السور يحيط بالمدينة من جهة الشرق، والغرب ، والجنوب ، ولم تكن مسورة من الشمال بينها وبين البحر » (٢) .

وهكذا استمر عمرو بن العاص في رباطه وحصاره لمدينة طرابلس قرابة الشهر أو يزيد ، حتى منّ الله عليهم بتلك الحصون التي ظن أهلها أنها مانعتهم من الله،

---

(١) المرجع السابق : (٣٢-٣٣) .

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، (ص٦٣-٦٤) .

فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف في قلوبهم الرعب ، فقد تمكنت مفرزة من طلائع الجيش المسلم خلال تجوالها الاستطلاعي حول مدينة طرابلس من العثور على معبر إلى داخل المدينة خلال جهة السور الغربية الشمالية ، حيت نزلوا إلى البحر فوجدوا أن هناك سبيل للدخول من تلك الفجوة التي كانت بين نهاية السور وسطح البحر ، فدخلوها من فورهم ، وكانت تلك بداية نهاية الحصار الذي طال قرابة الشهر.

يقول الأستاذ طاهر الزاوي :

« وبقي المسلمون على حصارها نحو شهر لا يقدرون منها على شيء، وكانت رسلهم تغدو وتروح حول السور علهم يجدون فجوة توصلهم إلى داخل المدينة فلم يجدوا، وفي ذات صباح ذهب سبعة من المسلمين للاستكشاف أوللصيد كما يقول ابن عبد الحكيم، وكانوا مسلحين بسيوفهم ررماحهم، وساروا حتي وصلوا إلى جهة السور الغربية الشمالية فوجدوا السور غير متصل بالبحر لأنها لم تكن مسورة من الناحية الشمالية كما ذكرنا ، وقد يكون البحر في حالة جزر مما زاد في اتساع الطريق بين نهاية السور والبحر، ورأوا من الممكن الوصول إلى داخل المدينة من هذه الفجوة، فدخلوها من فورهم من ناحية الكنيسة القديمة، وهو مكان مرتفع يقع في الشمال الغربي من المدينة، وقد أعملوا سيوفهم في رقاب الروم، وعلت أصواتهم بالتهليل والتكبير، وسمع عمرو وبقية المسلمين تكبير إخوانهم داخل السور فأسرعوا إليهم، وتكاثر المسلمون،وعلت سيوفهم رقاب الروم فذهلوا وذعروا فلم يسعهم إلا الفرار » [١].

ويبدو واضحاً من هذه القصة أن سكان مدينة طرابلس من الروم وغيرهم لم تكن لهم المقدرة على مقاومة جيوش المسلمين، لذلك تم الاستيلاء على المدينة

---

(١) تاريخ الفتح في ليبيا (٦٣,٦٤) .

بدون كبير عناء ، ولا مقاومة تذكر لا خارج السور ولا داخله ، حيث فر من فر، وأما من بقي منهم داخل المدينة ، فقد اختاروا الدخول في أمن المسلمين ، وحيث كفلوا لهم حماية أنفسهم وأعراضهم ، ومعابدهم ، وأملاكهم .

يقول الأستاذ الطاهر الزاوي:

« ولما تم استيلاء العرب [١] على المدينة أمنوا من بقي فيها وكفلوا لهم أموالهم، ومنعوا التعدي على أعراضهم وأنفسهم، ولم يذكر أحد من المؤرخين أن الروم قاوموا العرب بالسيف حينما اقتحموا عليهم المدينة، مما يدل على أنهم كانوا في حكم المستسلمين ، ويقال: إن المسلمين بنوا فيها مسجداً ، وإن مسجد أحمد باشا بني على أنقاضه » [٢] .

---

(١) وددنا من شيخنا الفاضل أن يسمي هذه الجيوش بما سماها الله عز وجل في كتابه، قال تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ بدل تسميتهم بالعرب، لأن هذا الدين دين عالمي، وهذه الجيوش مختلطة من جميع الأجناس التي استسلمت لله ودخلت في دين الله أفواجاً ، فكيف إذن حصر هذه الأجناس في جنس واحد؟ بل كيف تسمي هذه الفتوحات الإسلامية بفتوحات عربية كما سمي شيخنا الفاضل مصنفه بهذا الإسم « تاريخ الفتح العربي في ليبيا ».

(٢) تاريخ الفتح العربي (ص٣٥).

المبحث الثالث

حملة عمرو بن العاص على صبراتة

وقبل مغادرة عمرو بن العاص ﷺ مدينة طرابلس إلى صبراتة (١) ، قام بتثبيت أركان الحكم فيها، وتأمينها ضد هجمات الروم الخارجية، حيث هدم بعض أسوار المدينة مخافة تحصن الأهالي ومقاتلة المسلمين عند مغادرتهم لمدينة طرابلس ، ثم بعد ذلك جد السير بهذه الحملة المباركة ، إلى مدينة صبرة - صبراتة - التي تقع غربي مدينة طرابلس اتجاه الحدود الليلبية التونسية، حيث وجه خيله بقيادة عبد الله بن الزبير إلى مدينة صبراتة، ففتحها على حين غفلة من أهلها، وكان ذلك في الصباح الباكر وقت فتح أبوابها، وإخراج الماشية منها لترعى خارج السور.

يقول الدكتور صالح مصطفى: « وبعد أن تم لعمرو بن العاص فتح مدينة طرابلس، وجه خيله على غفلة إلى مدينة صبرة -وهي في اتجاه الحدود التونسية- بقيادة عبد الله بن الزبير، وكان أهل المدينة قد تحصنوا عندما علموا بمحاصرة عمرو بن العاص لمدينة طرابلس ، ولكن عندما امتنعت مدينة طرابلس، اطمأن أهل صبرة ، وظنوا أن عَمْراً لا طاقة له بهم، ولكن عَمْراً كان قائداً بارعاً، فما أن ظفر بمدينة طرابلس حتى جرد خيلاً كثيفة من ليلته، وأمرهم بسرعة السير، فتقدمت الخيل إلى هذه المدينة في الصباح الباكر، وكان أهلها قد اطمأنوا، وفتحوا أبواب المدينة ، وأخرجوا ماشيتهم لترعى فاستطاع ذلك الجيش أن

---

(١) **صبراتة:** مدينة قديمة تقع غربي مدينة طرابلس بنحو (٦٧ كم) على ساحل البحر الأبيض المتوسط أنشأها الفينقيون حوالي (٩٠٠ أو ٨٠٠ ق.م) وهي مدينة من أعظم المدن التي كانت في الشمال الإفريقي، وكانت أكبر من طرابلس، وأعظم منها عمراناً ومدنية، وأروج تجارة (راجع تاريخ الفتح العربي في ليبيا) ، (٦٦) .

يحتوي على المدينة بسهولة ويسر»[١].

ولما فتح الله عليهم مدينة صبراته رأى عمرو بن العاص رضي الله عنه قائد الحملة المباركة أن التقدم بهذا الجيش الذي استمر في فتح البلدان من برقة وضواحيها، مروراً بأجدابية وريفها، ووقوفاً على سرت وطرقها ، ووصولاً إلى ودان ونخيلها، وحصاراً لطرابلس وفتحها، وأخيراً صبراتة واستسلامها له فيه إضعافٌ لقوته، وتشتيت لجهوده، وتحفيز للعدو لضربه، خاصة وأن رجال مخابراته قد أخبروه بأن هناك تجمعات من الروم والقبائل المحلية بدأت تلتقط أنفاسها وترتب أمورها لمحاربته، فلما رأى ذلك أدرك أن التقدم بدون استئذان الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيه نوع من التجاوزات العسكرية المقررة لفتح برقة وطرابلس، لذلك كتب إليه يستأذن في التوغل داخل إفريقية، وأن يمده بالمدد المناسب، وفق الأهداف الجديدة لفتح برقة ومن حولها.

يقول الدكتور صالح مصطفى:

« ولم يشأ عمرو أن يتقدم لقلة القوة التي معه، ولأنه يعلم أن مدناً كثيرة للروم والقبائل المحلية ما زالت أمامه، كما أن عيونه أخبرته بكثرة تجمعاتهم في تلك المدن، ومن أجل ذلك وتنفيذاً لما تقتضيه الخطط الحربية أراد أن يستأذن الخليفة عمر بن الخطاب في التقدم نحو إفريقية طالباً منه المدد إذا ما وافق الخليفة على ذلك فكتب له يقول: «إن الله قد فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ، ويفتحها الله على يديه فعل»[٢].

---

(١) ليبيا منذ الفتح العربي (ص ٣٥)

(٢) المرجع السابق، (ص ٣٦-٣٧)

المبحث الرابع

حملة عمرو بن العاص على مدينة شروس وعودته إلى مصر

لا يخفى أن مدينة شروس الواقعة في جبل نفوسة والتي كانت تدين بدين النصارى، تعتبر قريبة جداً لمدينة صبراتة، لذا حاول عمرو بن العاص ﷺ أن يجتهد في فتح هذه المدينة قبل وصول رد خليفة المسلمين عمر بن الخطاب ﷺ فتقدم إليها وما زال بها حتى فتحها، ولكن ما أن فتحها حتى جاءه رد خليفة المسلمين عمر بن الخطاب على رسالته بشأن الاستراتيجية العسكرية الخاصة بشئون إفريقية ينص فيها على عدم التوسع بالجيش في فتح هذه الأقاليم.

وهذا نص رسالة خليفة المسلمين عمر بن الخطاب ﷺ: «لا إنها ليست بإفريقية ولكنها المفرقة ، غادرة مغدور بها ، لا يغزوها أحد ما بقيت »[1] .

ولهذا السبب وغيره رجع عمرو بن العاص من جبل نفوسة وتوجه إلى طرابلس، وما أن أقام فيها حتى وصله كتاب المقوقس يخبره فيه بأن الروم يريدون نكث العهد، ونقض ماكان بينهم وبينه، وقد كان عمرو بن العاص قد أبرم عهداً مع المقوقس قبل خروجه من الإسكندرية متوجهاً إلى برقة ، بألاً يكتمه المقوقس أي أمر يحدث بعده.

يقول الدكتور صالح مصطفى:

«ولهذه الأسباب رجع عمرو بن العاص من نفوسة بكتاب عمر ﷺ، أضف إلى ذلك أن عمرو بن العاص كان قد عقد عهداً بينه وبين المقوقس، قبل أن يغادر الإسكندرية، على ألا يكتمه المقوقس أمراً يحدث، وعندما وصل عمرو عائداً إلى

---

(١) نفس المصدر (ص ٣٧) .

إقليم طرابلس، أتاه كتاب المقوقس يذكر له فيه أن الروم يريدون نكث العهد، ونقض ما كان بينهم وبينه، فانصرف عمرو راجعاً مبادراً لما أتاه الكتاب إلى مصر» (١) .

وهكذا أنجز عمرو بن العاص هذا الفتح المبارك الذي تجاوز فتح الأراضي إلى فتح القلوب التي آمنت بالله رباً، وبالإسلام ديناً ومنهجاً، وبمحمد ﷺ نبيّاً ورسولاً، فعاشت تلك الشعوب حياة العدل والمساواة والتسامح والإخاء في ظل الشريعة السمحاء على أيدي أولئك الفاتحين الذين يبتغون بذلك الفتح وجه الله ورضوانه.

يقول الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - بهذا الصدد:

«لقد كان الفتح الإسلامي فتحاً فريداً في تاريخ البشرية كلها، لم تعرف له من قبل ولا من بعد نظيراً، لم يكن فتحاً للأرض وكنوزها، إنما كان فتحاً لقلوب ساكني الأرض، وغرس بذرة العدل، والتسامح والمساواة، والإخاء فيها، وإن أي إنسان مخلص للإنسانية، يعرف طبيعة الفتح الإسلامي، ويدرك أهدافه وبواعثه ليتمنى أن لو كان مد الإسلام الأول قد غمر الأرض جميعاً، وألقى البذرة الطيبة الخيرة.

إن الحروب الإسلامية والفتوحات ملحوظ فيها أن تحقق إلى جانب حرية الدعوة وحرية العقيد ة، العدالة المطلقة لجميع الناس فإذا هي لم تحمل هذه المقدمات معها لأهلها وللبلاد المفتوحة كذلك، لم تكن حرباً إسلامية ولا فتحاً إسلاميّاً، ولم تر ثمرتها على ضم رقعة من الأرض إلى العالم الإسلامي، وزيادة رقعة الأرض لم تكن يوماً ذات قيمة في حساب الإسلام، إنما القيمة كلها لتحقيق النظام العادل الكامل الذي يقوم على الشريعة الإسلامية المنبثقة من العقيدة الإسلامية ، وهذا الذي كان يضيف إلى الإسلام شعوباً وقلوباً ، وهذه هي غاية الفتح الإسلامي لا الأرض ولا الفيء، ولا الغنيمة، ولا الغلبة على البلاد والعباد» (٢) .

---

(١) المرجع السابق: (ص ٣٨).

(٢) راجع كتاب «دراسات إسلامية» لسيد قطب (٤٤،٤٥،٤٦).

المبحث الخامس

فاتح ليبيا في سطور

المطلب الأول

اسمه، ونسبه، وميلاده

اسمه ونسبه: لقد تقدم فيما مضى أن قائد فتح برقة وطرابلس هو عمرو بن العاص السهمي القرشي، وكنيته أبو عبد الله، وأبو محمد [١]، وأمه سلمى بنت حرملة [٢]، وتلقب بالنابغة، وهي من عنزة [٣].

ميلاده: وأما فيما يتعلق بميلاده، فإن الكتب التي ترجمت لعمرو رضي الله عنه فيما أعلم لم تنص على تحديد السنة التي ولد فيها، لكن روى البيهقي عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال: «أذكر ليلة ولد عمر بن الخطاب».

يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله بعد أن ذكر هذا الأثر:

«فكان عمره لما ولد عمر رضي الله عنه سبع سنين» [٤].

إسلامه: لقد أسلم عمرو في شهر صفر، سنة ثمان للهجرة، وكان إسلامه هو وخالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة رضي الله عنهم في وقت واحد [٥].

ولقد سئل عمرو رضي الله عنه عن سبب تأخر إسلامه إلى هذا الوقت فقال: «إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدم وسن، توازي حلومهم الجبال، وما سلكوا فجّاً فتبعناهم إلا وجدناه سهلاً، فلما أنكروا على النبي ﷺ أنكرنا معهم، ولم نفكر في أمرنا،

---

(١)، (٢)، (٣) القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ: للدكتور عبد الله الرشيد، (ص٦٠٣) اعتمدت على هذا الكتاب في ترجمة عمرو بن العاص،

(٤)، (٥) راجع المصدر السابق (ص ٦٢٥،٦٢٦).

وقلّدناهم ، فلما ذهبوا وصارالأمر إلينا، نظرنا في النبي ﷺ فإذا الأمر بَيِّنٌ فوقع في قلبي الإسلام » (١) .

ولا يخفى أن قصة إسلامه وشدة حيائه من النبي ﷺ قد وردت في صحيح مسلم، حيث قال عمرو رضي الله عنه : « ... لقد رأيتني وما أحد أشد بُغضاً لرسول الله ﷺ مني، ولا أحب أن أكون قد استمكنت منه فقتلته .. فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت : ابسط يمينك فلأبايعك فبسط يمينه ، قال : فقبضت يدي، قال : [**مالك يا عمرو ؟!!**] قال : قلت : أردت أن أشترط ، قال : [**تشترط بماذا ؟**] قلت : أن يغفر لي، قال : [**أما علمت أن الإسلام يهدم ماكان قبله، وأن الهجرة تهدم ما قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟**] ، وما كان أحد أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ ولا أجَلَّ في عيني منه، وما كنتُ أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له ، ولو سُئلْتُ أن أصِفَهُ ما أطَقْتُ لأني لم أكن أملأ عيني منه » (٢) .

المطلب الثاني

مناقبه

لا يخفى أن له من المناقب الجليلة والأخلاق النبيلة، والمواقف الحميدة، مما يجعل هذه السطور غير كافية لأداء حق هذا القائد الصحابي الجليل، ولكن يمكن أن تجمل هذه المناقب الجليلة والمواقف الحميدة في عدة نقاط.

[١] أن الرسول ﷺ لم يعدل به أحداً من الصحابة، قد جاء عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قوله : « ماعدل بي رسول الله ﷺ وبخالد أحداً منذ أسلمنا

---

(١) المرجع السابق (ص ٦٢٥، ٦٢٦) .

(٢) رواه مسلم « كتاب الإيمان »، باب كون الإسلام يهدم ماكان قبله ، وكذا الهجرة والحج (١ / ١١٢) رقم (١٢١) .

في حرب » [١] .

[٢] **شـهادة رسـول الله ﷺ له بالإيمان** : كـمـا جـاء عـن أبـي هريرة ﷺ : « أن رسول الله ﷺ قال : [**ابنا العاص مؤمنان ، هشام ، وعمرو**] [٢] .

[٣] **شهادة رسول الله ﷺ له بأنه من صالحي قريش** : فقد جاء عن أبي مليكة قال : قال طلحة بن عبيد الله سمعت رسول الله ﷺ يقول : [**إن عمرو بن العاص من صالحي قريش**] [٣] .

---

(١) وهذا الحديث أخرجه البيهقي باب إسلام عمرو بن العاص (٤ ، ٣٩) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢ / ٣٥٣,٣٢٧) ، الحاكم في كتاب معرفة الصحابة ، باب ذكر مناقب هشام ابن العاص ، المستدرك على الصحيحين (٣ / ٢٤٠) وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم .

(٣) أخرجه الترمذي ، كتاب المناقب ، باب مناقب عمرو بن العاص رقم (٣٨٤٤) .

المبحث السادس

أهم صفاته القيادية

المطلب الأول

الشجاعة

من الصفات التي كان يتمتع بها عمرو الشجاعة، فقد كان جريئاً مقداماً ذا شخصية جبارة، لا يهاب خوض غمار الحرب، ولا يخشى الموت، ومن المواقف التي برزت فيها هذه الصفة: ما حدث في معركة اليرموك، حين اشتد القتال بين الروم والمسلمين، حيث أصاب الروم أعين سبعمائة من المسلمين مما اضطرهم إلى الفرار من الميدان، فرأى عمرو أن الموقف يحتاج إلى ثبات فبقي في مكانه ومعه أصحاب الرايات وقاتلوا الروم ببسالة وقوة حتى انتصر عليهم ، ومن هذا يتبين أثر تحلي القائد بهذه الصفة في كسب النصر.

المطلب الثاني

الرأي السديد والعقل الراجح

كان عمرو رضي الله عنه ذا رأي سديد وعقل راجح ، فهو معدود من دهاة العرب المقدمين في الرأي ، ومما يدل على سداد رأيه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا استضعف رجلاً في رأيه قال: « أشهد أن خالقك وخالق عمرو واحد » يريد خالق الأضداد.

وقد وقع الإجماع على أنه أحد دهاة العرب، وفي ذلك يقول الثعالبي ـ رحمه الله ـ : « ووقع الإجماع على أن الدهاة أربعة معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة ابن شعبة، وزياد بن أبيه رضي الله عنهم » ولرجاحة عقله رضي الله عنه بعثته قريش إلى الحبشة للتفاوض مع النجاشي بشأن ردّ المهاجرين إلى مكة.

المطلب الثالث

بُعد النظر

كان عمرو ﷺ يتمتع بصفة بُعد النظر ، فهو يقدِّر كل الاحتمالات ويفترض أن أصعبها يمكن أن يقع، ولهذا كان يأخذ بمبدأ الحيطة، ويشهد ذلك أنه حين فزع أهل المدينة لبس سلاحه ، وقصد المسجد ، بينما تفرق الناس .

عن عمرو بن العاص ﷺ قال: «كان فزع بالمدينة، فأتيت على سالم مولى أبي حذيفة، وهو محتب بحمائل سيفه، فأخذت سيفاً فاحتبيت بحمائله ، فقال رسول الله ﷺ : [**يا أيها الناس : ألا كان فزعكم إلى الله وإلى رسوله؟**] ، ثم قال: [**ألا فعلتم كما فعل هذان الرجلان المؤمنان**] (١) .

المطلب الرابع

القدرة على جمع المعلومات

يُعد جمع المعلومات عن العدو من الأمور الضرورية لتقدير الموقف العسكري، ووضع الخطة المناسبة له، ولهذا كان عمرو ﷺ يحرص على جمع المعلومات عن عدوه وعن طبيعة الأرض التي سيقاتل فيها.

ومن الأمثلة على ذلك: ما حدث في غزوة ذات السلاسل، حيث استعان بأخواله من «بِلى» في إمداده بالمعلومات الضرورية عن أعدائه، مما كان سبباً في انتصاره عليهم.

ولما كان الاستطلاع أمراً ضرورياً لوضع صورة القائد عن عدوه، وسلاحه، وخططه العسكرية وحلفائه ، فإن عَمْراً كان يقدر قيمة هذا الأمر حق قدره سواء

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٢٠٣) ، والنسائي بسند حسن ، انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٣/ ٣) .

كان ذلك باستطلاعه الشخصي أو بإرسال العيون والأرصاد، ومن الأمثلة على اهتمامه بالاستطلاع الشخصي ما قام به ﷺ من استكشاف مقر قائد الروم « أرطبون » حيث اطلع على مواطن الضعف في مواقع جيش الروم .

المطلب الخامس
الماضي الناصع المجيد

من الصفات القيادية التي توافرت لعمرو ﷺ الماضي المجيد، فهو من بني سهم، وهذا البطن من قريش انتهى إليهم الشرف في الجاهلية، حيث كانت لهم السيادة والسلطان في مكة.

وقد اختص بنو سهم من بين بطون قريش الأخرى بأنهم كانوا أصحاب الحكومة ، وهي: أشبه ما تكون بالقضاء، وفض المنازعات في المسائل الدقيقة حيث كان يحتكم القرشيون وغيرهم من العرب إلى زعماء بني سهم الذين اشتهروا بسداد الرأي، والحلم، والدهاء، والحزم.

إن لبني سهم أيضاً الرئاسة على الأمور الخاصة بآلهتهم وهي قريبة الشبه في عصرنا بالأوقاف العامة، وكان الشأن في ذلك: أن يقوم صاحب هذه الوظيفة بالتصرف في هذه الأموال وفق القواعد التي جروا عليها في العمل بأموال أوثانهم.

وأما أبوه العاص بن وائل بن هشام ، فقد كان من أشراف قريش وذوي الجاه فيهم، ومن أبرز الأدلة على ذلك، أن عمر بن الخطاب لما أسلم وَثَبَتْ عليه قريش حتى أيقن بالهلاك ، وبينما هم قائمون على رأسه، إذ أقبل العاص بن وائل فقال لهم: خلواعن الرجل، أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبكم؟ ، وعندئذٍ انفض المشركون عن عمر.

كما كان عمرو نفسه من ذوي الشرف في الجاهلية، ومن عرفوا بسداد الرأي والحزم، فقد حاز الشرف من جميع جوانبه، فهو ذو نسب شريف، كما أنه تربى في بيت شريف هو بيت العاص بن وائل، وعاش في بلد شريف هو مكة المكرمة.

المطلب السادس

اتخاذ القرارات الصحيحة

وتنفيذها في الوقت المناسب

من الصفات القيادية التي كان يتحلى بها عمرو رضي الله عنه اتخاذ القرارات الصحيحة، فقد كان يعمل على اتخاذ قراراته، ثم يقوم بعد ذلك بتنفيذها بدقة كاملة، حتي تؤدي الغرض منها، ومن الأمثلة على ذلك: ما رآه عمرو من ضرورة اجتماع المسلمين في اليرموك، إذ أن هذا القرار يحقق مصلحة كبيرة في هذا الظرف الحاسم، وهو حدة المسلمين وإظهار هيبتهم أمام عدوهم حتى لا يطمع فيهم، كما أنه يدفع مفسدة عظيمة وهي تفرق الجيوش الذي هو مظنة الفشل والخذلان، مما يغري أعداءهم بالهجوم عليهم، وبذلك تحيق بهم الهزيمة.

وقد كان عمرو رضي الله عنه يعتمد في ذلك على أسس اتخاذ القرارت ابتداء من الاستطلاع، وجمع المعلومات، وتقدير الموقف، وحساب ميزان القوى، ووضع جميع العوامل الضرورية في الحسبان، مثل الطبيعة الجغرافية، والأهمية الاستراتيجية للموقع والطبيعة البشرية، سواء كانت في جانب جنده، أو لدى جنود أعدائه، حتى ينتهي بإصدار القرار المناسب في وقته (١).

---

(١) راجع هذه الصفات، كتاب القيادة العسكرية (٦٢٧، ٦٢٨، ٦٣٢).

المبحث السابع

قواعد ومبادئ في الاستراتيجية العسكرية

فإذا كانت تلك صفات شخصية عمرو القائد المحنك البارع ، فما هي إذاً أُسس استراتيجية الحربية التي طبقها في تلك الفتوحات الإسلامية؟ .

المطلب الأول

الحرص على تطوير القدرة الحركية

لما وصل عمرو ﷺ إلى مصر حرص على تطوير القدرة الحركية لجيشه، وذلك بالاستيلاء على السفن الموجودة في جزيرة «الروضة» لاستخدامها في نقل قواته، كما أن استخدامه لمنطقة غرب النيل كان وسيلة لضمان استخدام القدرة الحركية لقوات المسلمين على أفضل وجه.

ثم إن إصراره على هدم أسوار الإسكندرية لم يكن إلا وسيلة لإزالة كل ما يعيق من استخدام القدرة الحركية، وكان اهتمام عمرو بالشئون الإدارية ، والتنظيمية ، والاقتصاد وغيرها ، إنما هو من أجل القدرة الحركية وتوفير الظروف المناسبة لاستخدامها على أفضل وجه ممكن.

ومما سبق يتبين : أن هذا المبدأ لدى عمرو ﷺ يقوم على ركيزتين أساسيتين هما : الركيزة الأولى : إزالة السدود والحواجز التي يمكن أن تعيق القدرة الحركية، الركيزة الثانية، اختيار محاور العمليات التي تساعد المسلمين على تطبيق هذا المبدأ.

المطلب الثاني

الشدة على أعداء المسلمين

عندما قام عمرو بفتح الإسكندرية الثاني (سنة ٢٥ هـ) غدر أهل قرية تسمى (خربة)، ولما وصل عمرو إلى الإسكندرية وفتحها وجه مولاه ويسمى «وردان» فقتلهم وخرب قريتهم، وتسمى الآن: «خربة وردان».

ومن هذا الموقف، نستنتج أن شدة عمرو وصلابته تزداد عندما يتعرض المسلمون للغدر، وذلك لكي يردع الأعداء عن التمادي في ارتكاب مثل هذا الخُلق الذميم، وحتى يحفظ للمسلمين هيبتهم ويضمن لهم الأمن والسلامة، وبعد أن فتح عمرو الإسكندرية وضع السيف في رقاب الروم الذين كانوا بها، ثم كلموه في ذلك فرفع السيف عنهم، وبنى في ذلك الموضع مسجداً يعرف: بمسجد الرحمة في الإسكندرية.

ومن هذا الموقف: ينبغي أن يعلم أن عَمْراً ﷺ كان يترك في مثل تلك الظروف القاسية التي تدعو إلى الشدة والصلابة مجالاً للرحمة والشفقة، فعندما يأتيه من يطلب الرحمة فإنه يستجيب له، لأنه كان ينطلق من منطق البناء والإصلاح، لا بالحقد أو حب الانتقام.

وقد كان عمرو ﷺ صلباً عند خوض القتال، ففي بلبيس - مثلاً - قام بتصفية قوات العدو وإبادتها كاملة، ومن الجدير بالذكر أن استعمال الشدة لدى عمرو ﷺ في المجتمع الجديد إنما هومجرد وسيلة وليس غاية في حد ذاته، لمتطلبات البناء السلمي الذي يفتقر إلى الاستقرار والهدوء.

المطلب الثالث

ادخار القوي

لقد كانت قوات المسلمين في جميع الحروب التي خاضوها أقل من قوات أعدائهم،ولهذا فكر القادة العسكريون اقتداءً بالرسول القائد ﷺ في إيجاد البديل الذي يعوض عن هذا النقص في العدد والمعدات، فطبقوا مبدأ ادخار القوى.

ومن هؤلاء القادة: عمرو بن العاص رضي الله عنه فقد كان يحسن تطبيق هذا المبدأ كلما دعته الضرورة إليه، ومن الأمثلة على ذلك: أن عَمْراً رضي الله عنه عندما أراد فتح أجنادين وجد أن «أرطبون» الروم قد وضع قوتين لهما شأنهما في كل من «إيلياء» و«الرملة» ففصل عمرو جيشه إلى قوتين صغيرتين ، وعين على كل واحد منهما قائداً ، وأمرهما بمنع أي تحرك لقوات الروم إلى «أجنادين» ، أما القوة الرئيسية فإنه جعل مهمتها مقاتلة جيش الروم، وبهذا الأسلوب تحقق لعمرو النصر على أعدائه الرومان.

المطلب الرابع

خفة الحركة

كان عمرو رضي الله عنه يؤمن بمبدأ خفة الحركة، ويُحسن تطبيقه في الوقت المناسب، ومن الأمثلة على ذلك: أن عَمْراً رضي الله عنه عندما احتل «طرابلس» أمرقواته بالتوجه إلى صبراتة – ليلاً – فتحركت القوات بقيادة عبد الله بن الزبير فدخلها صباحاً ، واستسلم أهل المدينة دون قتال، وفي ذلك يقول ابن عبد الحكم: «كان من بسرت متحصنين .. فلما بلغهم محاصرة عمرو مدينة طرابلس ، وأنه لم يصنع فيهم شيئاً ، ولا طاقة لهم به آمنوا ، ولما ظفر عمرو بن العاص بمدينة طرابلس جرد خيلاً كثيفة من ليلته وأمرهم بسرعة السير فصبحت خيله مدينة «سرت» ، وقد فتحو أبوابهم لتسرح ماشيتهم، فدخلوها فلم ينج منهم أحد، واحتوى جند عمرو على ما فيها ورجعوا إلى عمرو»[١] .

(١) المرجع السابق: (ص ٦٣٤).

المبحث الثامن

أعمال عمرو بن العاص في عهد الرسول ﷺ

لقد قام عمرو رضي الله عنه بأعمال جليلة في عهد الرسول ﷺ وكان من أهم هذه الأعمال الآتية :

[١] قيادة سرية ذات السلاسل لصد هجوم قضاعة على المدينة.

[٢] هدم سواع بعد فتح مكة.

[٣] دعوة ابْنَي الجلندي « جيفر، وعباد » إلى الإسلام وقد ذهب عمرو رضي الله عنه إلى عمان ودعاهما إلى الإسلام وصدقا بالنبي ﷺ، وخليا بين عمرو وبين الصدقة والحكم فيما بين قومهم وكانا له عوناً على من خالفه [١] .

المطلب الأول

أعماله في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما

عقد أبو بكر الصديق لعمرو بن العاص رضي الله عنه لواء الجهاد ووجهه لحرب قضاعة حين ارتدت عن الإسلام، ثم وجهه أبو بكر رضي الله عنه بعد ذلك إلى فلسطين، وأمره بنجدة أبي عبيدة بن الجراح ومشاورته.

وفي معركة اليرموك كان عمرو رضي الله عنه على الميمنة، وكان لمشاركته أثر كبير في انتصار المسلمين، كما كان لعمرو رضي الله عنه مشاركة فعالة في حركة الفتح الإسلامي بالشام ، فقد قام بمشاركة شرحبيل بن حسنة في فتح بيسان ، وسبرذجة ، وأجنادين [٢] .

---

(١) **انظر** : الطبقات الكبرى لابن سعد، (١ / ٢٦٢)، جوامع السيرة لابن حزم ، (ص٢٣،٢٩) .

(٢) **انظر** : « تاريخ الطبري » (٣ / ٦٠٥) ، و« الكامل » لابن الأثير (٢ / ٤٩٨) .

كما قام ﷺ بفتح غزة، وسَبَسْطِية، ونابُلُس، واللُّدّ، ويُبْنَي، وعَمْواس، وبيت جِبْرِيل ، ويافا، ورَفَح، وبيت المقدس، ولم يقتصر عمرو ﷺ على فتح بلاد الشام وحدها ، بل شمل أيضاً بعض مشاهير بلاد مصر، حيث كان عمر بن الخطاب ﷺ وقد أصدر أمره إلى عمرو ﷺ بعد الفراغ من فتوح الشام أن يسير بمن معه من الجند إلى مصر، فخرج ﷺ حتى وصل إلى العريش ففتحها .

كما شملت حركة الفتح أيضاً : الفرما، والفسطاط، وحصن بابليون، عين شمس، والفيوم، والأشمونين، وأخميم ، والبشرود ، وتنيس ودمياط، وتونة، ودميرة، وشطا، ودقهلة ، وبنا ، وبصير، والإسكندرية ، وبلاداً إفريقية أخرى مثل: برقة وزويلة وطرابلس [١] .

المطلب الثاني

عمرو رجل الآخرة

إن مما يجب التنويه به في هذا المقام ، أن حرص عمرو ﷺ على تولي القيادة العسكرية وغيرها ، من الولايات ، إنما كان يدفعه إليه الإخلاص للإسلام والمسلمين ، والرغبة في ثواب الله تعالى ، ويدل على ذلك الأمر ما يأتي :

أولاً : شهادة الرسول ﷺ له بالإيمان .

ثانياً: جوابه للرسول ﷺ لما دعاه إلى الاستعداد لغزوة ذات السلاسل، فعن موسى بن على عن أبيه قال: سمعت عمرو بن العاص يقول: بعث إليَّ رسول الله ﷺ فقال: «**خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني**» فأتيته وهو يتوضأ فصعَّد فيَّ النظر ثم طأطأه فقال: «**إني أريد أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة**» قال: قلت: يا رسول الله ما أسلمت من أجل

---

(١) المرجع السابق(٦٣٤-٦٤٢) القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ .

المال، ولكني أسلمت رغبة في الإسلام ، وأن أكون مع رسول الله ﷺ فقال : « **يا عمرو نِعْمَ المال الصالح للرجل الصالح** »(١) .

ثالثاً: بكاؤه عند موته وخوفه من الله في تلك الوَلايات التي صارت إليه، وقد ورد في صحيح مسلم ما يدل على ذلك في حديث طويل: «عن ابن شماسة المهري قال: حضرنا عمرو بن العاص ﷺ وهو في سياق الموت، فبكى طويلاً وحول وجهه إلى الجدار... وفيه قال: ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي بها»(٢) .

ولقد ثبت أنه كان يدعو في آخر حياته بهذا الدعاء:

« اللهم إنك أمرتنا فأضعنا ، ونهيتنا فارتكبنا ، فلا برئ فأعتذر ، ولا عزيز فأنتصر ، ولكن لا إله إلا أنت ، وما زال يقولها حتى مات »(٣) .

ففي هذه البراهين الساطعة قطع لألسنة المتقولة الذين يتهمون عَمراً بأنه إنما آمن طمعاً في المال أوحبّاً للرياسة، وقد زيف الروافض في سيرة عمرو بن العاص ونسبوا إليه روايات ظلماً وزوراً ، ومن ذاك قصة التحكيم التي فنَّدها الإمام أبو بكر ابن العربي في كتابه النافع «العواصم من القواصم»، ففنَّد قاصمة التحكيم.

فقال في كتابه القيم: «وقد تحكم الناس في التحكيم فقالوا فيه ما لا يُرضي الله ، وإذا لاحظتموه في الكتب الأكثر عدم الدين ، وفي الأقل جهل بَيِّن، والذي يصح من ذلك ما روى الأئمة الثقات كخليفة بن خياط والدار قطني، أنه لما خرج الطائفة العراقية في مائة ألف ، والشامية في سبعين أو تسعين ألفاً ، ونزلوا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٢٠٢،١٩٧) وأخرجه الحاكم في كتاب البيوع، باب لا بأس بالغني لمن اتقى ثم قال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه وافقه الذهبي.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله، وهكذا الهجرة والحج، (١/ ١١٢) رقم (١٢١).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٧٦).

على الفرات بصفين ، اقتتلوا أول يوم وهو الثلاثاء على الماء فغلب أهل العراق عليه، ثم التقوا يوم الأربعاء لسبع خلون من صفر سنة سبع وثلاثين، ويوم الجمعة وليلة السبت، ورفعت المصاحف من أهل الشام ودعوا إلى الصلح، وتفرقوا على أن تجعل كل طائفة أمرها إلى رجل، أبو موسى من جهة عليّ ﷺ ومن جهة معاوية عمرو بن العاص ، وكان أبو موسى رجلاً تقيّاً عالماً أرسله النبي ﷺ إلى اليمن مع معاذ، وقدمه عُمَرُ وأثنى عليه بالفهم ، وزعمت الطائفة التاريخية الركيكة أنه كان أبله ، ضعيف الرأي مخدوعاً في القول ، وأن عمرو كان ذا دهاء وأرب حتي ضربت الأمثال بدهائه تأكيداً ، لما أرادت من الفساد ، وتبع ذلك بعض الجُهال بغضاً وصنفوا فيه حكايات .

وإنما بنوا ذلك على أن عمراً غدر بأبي موسى في قصة التحكيم فصار له الذكر في الدهاء والمكر، وقالوا : إنهما لما اجتمعا بأذرع من دومة الجندل تفاوضا اتفقا على أن يخلعا الرجلين، فقال عمرو لأبي موسى : اسبق بالقول فتقدم فقال : إني نظرت فخلعت عليّاً من الأمر، ولينظر المسلمون لأنفسهم كما خلعت سيفي هذا من عاتقي، وقال عمرو : إني نظرت فأثبت معاوية على الأمر كما أثبت سيفي هذا في عاتقي وتقلده فأنكره أبو موسى فقال عمرو : كذلك اتفقنا وتفرق الجمع على ذلك الاختلاف .

ورد القاضي أبو بكر بن العربي عليه هذه الرواية ، وذكر عاصمة من تلك القاصمة ، فقال : هذا كله كذب صراح ما جرى منه حرف قط، وإنما هو شيء اخترعته المبتدعة ، ووضعته التاريخية ، فتوارثه أهل المجانة والجهارة بمعاصي الله (١) .

---

(١) انظر : العواصم من القواصم، لأبي بكر ابن العربي المالكي (١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩) .

نقد الرواية الباطلة في قضية التحكيم والتي طعن من خلالها عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري رضي الله عنهما :

ولما لحادثة التحكيم من أهمية في التاريخ السياسي للدولة الإسلامية، فإنه من الضروري إجلاء حقيقة وقائعها، حيث أسيء تصور هذا الحادث، بقدر ما أسييء تفسيره، فنتج عن الأمرين خلط كثير وإساءة إلى مكانة الصحابة وقدرهم، حيث باتت القصة الشائعة بين الناس عن حادث التحكيم تتهم بعضهم بالخداع والغفلة، وتتهم آخرين بالصراع حول السلطة ، وبإخضاع هذه الرواية للنقد والتحليل يلاحظ عليها أمران: ضعف سندها واضطراب متنها، وأما سندها ففيه راويان متهمان في عدالتهما ، أبو مخنف لوط بن يحيى، وأبو جنان الكلبي.

الأول : ضعيف ليس بثقة «أبومخنف لوط بن حيي».

قال فيه الإمام أبو حاتم : متروك ، وقال فيه الدارقطني: ضعيف، وقال فيه ابن معين: ليس بثقة، وقال فيه ابن عدي: شيعي محترف صاحب أخبارهم، وقال فيه الذهبي: أخباري تالف لا يوثق به (١) .

أما الثاني : أما أبو جنان الكلبي: قال فيه ابن سعد :كان ضعيفاً (٢) ، وقال البخاري وأبو حاتم: كان يحيي القطان يضعفه، وقال عثمان الدارمي: ضعيف، وقال النسائي: ضعيف (٣) .

يكفي أن في الرواية المذكورة وجود شيعي محترف طعن في عدالته أهل الجرح والتعديل، وهذا من ناحية النسد، أما من ناحية المتن فهناك أمورعدة تبطل الرواية والذي يهمنا في هذا المبحث أن القول بأن أبا موسى الأشعري كان في

(١) انظر: تحقيق مواقف الصحابة في الفتن، د. محمد أمحزون (٢/ ٢٥٣)..
(٢) ابن سعد في «الطبقات» (٦/ ٣٦٠).
(٣) انظر: تحقيق مواقف الصحابة في الفتن (٢/ ٢٥٣).

قضية التحكيم ضحية خديعة عمرو بن العاص ينافي الحقائق التاريخية الثابتة عن فضله وفطنته وفقهه ودينه، التي تثبت له بتوليه بعض أعمال الحكم والقضاء في الدولة الإسلامية منذ عهد الرسول ﷺ فقد استعمله النبي ﷺ على زبيد وعدن، واستعمله عمر ابن الخطاب رضي الله عنه على البصرة ، وبقي والياً عليها إلى مقتل عُمَرْ ، وكذلك استعمله عثمان بن عفان على الكوفة، وبقي والياً عليها إلى أن قتل.

إن مما يؤكد عدم صحة الرواية المذكورة عن قضية التحكيم أن العلماء انتقدوها ورووا خلافها في كتبهم، فقد أخرج الدارقطني عن حصين بن المنذر أنه جاء فضرب فسطاطه قريباً من فسطاط معاوية، فبلغ نبأه معاوية، فأرسل إليه، فقال: «إنه بلغني عن هذا - عمرو بن العاص - الذي بلغني عنه فأتيته فقلت له: أخبرني عن الأمر الذي وليت أنت وأبو موسى كيف صنعتما فيه؟ ، قال: قد قال الناس في ذلك ما قالوا، والله ما كان من الأمر على ما قالوا، ولكن قلت لأبي موسى: ما ترى في هذا الأمر؟ قال: أرى أنه في النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنهم، قلت: فأين تجعلني أنا ومعاوية؟ فقال: إن يستعن بكما ففيكما معونة ، وإن يستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما »(١) .

وليس من شك في أمر الخلاف الذي رأى الحكمان رده إلى الأمة أو إلى أهل الشورى ليس إلا الخلاف بين عليّ ومعاوية حول قتلة عثمان ، وهو ما أطبقت على ذكره المصادر الإسلامية (٢) .

إن سهام الروافض المسمومة وآرائهم المحمومة وجهت للطعن في عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري، وغيرهم من الصحابة وحرص المستشرقون على نشر الروايات المطعونة سنداً ومتناً وروّج لها أذنابهم من أهل الفكر الغربي والعلماني.

---

(١) العواصم من القواصم، لأبي بكر المالكي (ص ١٧٨) .

(٢) انظر: تحقيق مواقف الصحابة في الفتن(٢ / ٢٣٣) .

الحجة في عدالة الصحابيين الجليلين :

إن الصحابي الجليل أبا موسى الأشعري تولى أعمال الحكم والقضاء في الدولة الإسلامية منذ عهد رسول الله ﷺ على زبيد وعدن واستعمله عمر على البصرة، وبقي والياً عليها إلى أن قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأقره عثمان رضي الله عنه على البصرة، ثم على الكوفة، وبقي والياً عليها إلى أن قُتِلَ عثمان، فأقره عليّ رضي الله عنه فهل يتصور أن يثق رسول الله ﷺ، ثم خلفاؤه من بعده برجل يمكن أن تجوز عليه مثل الخدعة التي ترويها قصة التحكيم؟ ، هذا وقد شهد الصحابة وكثير من علماء التابعين لأبي موسى رضي الله عنه بالرسوخ في العلم، والكفاءة في الحكم، والفطنة والكياسة في القضاء، فهذه شهادة عمر عن أنس قال: «بعثني الأشعري إلى عمر، فقال لي: كيف تركت الأشعري؟ ، قلت: تركته يُعلم الناس بالقرآن، فقال: أما إنه كيس ولا تسمعها إياه» (١) .

وقال الشعبي : كتب عمر في وصيته: «ألا يقرّ عامل أكثر من سنة، وأقروا الأشعري أربع سنين» (٢) .

وقد ثبت عن أبي موسى أيضاً أنه كان ممن حفظ القرآن كله على عهد الرسول ﷺ وكان من المشهورين بتعليمه للناس، فإذا علم أن مدار حياة الناس في ذلك العهد – في سلمهم وحربهم – كان على فقه القرآن والسنة، وعلمت مكانة أبي موسى من ذلك حتي خصه عمر بن الخطاب بكتابه المشهور في القضاء وسياسة الحكم (٣) فكيف يتصور غفلته إلى هذا الحد! ، فلا يفقه حقيقة النزاع الذي كلف بالحكم فيه، وصدر فيه قرار لا محل له، وهو قرار عزل الخليفة الشرعي بدون مبرر يسوغ هذا العزل ، وقرار عزل معاوية المزعوم ثم يقع منه ومن عمرو ابن

---

(١) ابن سعد الطبقات (٤ / ١٠٨) .

(٢) انظر: تحقيق مواقف الصحابة في الفتن (٢ / ٢٢٧) .

(٣) انظر: تحقيق مواقف الصحابة في الفتن (٢ / ٢٢٩) .

العاص ما نسب إليهما من السب والشتم، وهو أمر يتعارض مع ما عرف وتواتر عن الصحابة ﷺ من حسن الخلق وأدب الحديث بينهم ثم أن يخطئ الحكم في القضية التي أوكل إليه النظر في أمرها،ويرون ذلك أيضاً هو شأن عمرو بن العاص الذي يعتبر من أذكياء العرب وحكمائهم، وقد أمره رسول الله ﷺ أن يقضي بين خصمين في حضرته، وبشره حيث سأله : يا رسول الله : أقضي وأنت حاضر؟ بأن له إن أصاب أجران، وإن أخطأ أجر واحد حيث قال : «**إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب له أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر واحد** »(١) .

إن قبول تلك الرواية الرافضية الكاذبة طعن في ورع وتقوى ونزاهة الصحابي الجليل عمرو بن العاص الذي بيَّنت الأحاديث فضله وعمق إيمانه .

إن التاريخ الإسلامي أصبح غرضاً ومرمى لسهام أعداء الإسلام على مختلف مذاهبهم وعقائدهم، ويحاولون أن يوجدوا فجوة بين الإسلام وتاريخه الزاهر حتي يتسنى لهم عزل النشء عن الإسلام وشريعته وتراثه العلمي، ولذلك يبذلون قصارى جهدهم لنفث السموم في المجتمع الإسلامي .

لقد حاول المستشرقون ومن قبلهم الروافض أن ينشروا كل رواية باطلة تنقص من شأن الصحابة الكرام، وتطعن في تاريخ الأمة المجيد، وتصور تاريخهم بأنه صراع على السلطة والسيادة والنفوذ .

ولذلك يجب الحذر من كل رافضي كاذب ومستشرق عربيد وعلماني فاجر وكل من سار على نهجهم، ولا بد من الدفاع المستميت عن تاريخنا الخالد والهجوم الشجاع على أوكار الكذابين، ويكون هذا الهجوم المبارك بقذائف الحق العلمية المملوءة بالحقائق الساطعة والأدلة القاطعة والبراهين الدامغة .

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام (٨ / ١٥٧) رقم (٧٣٥٢)، ومسلم رقم (١٧١٦) .

الفصل الثالث

تثبيت دعائم الإسلام في المنطقة

لقد كان من مقاصد حملة عمرو بن العاص ﷺ لبرقة وطرابلس وبقية مناطق ليبيا، فتح البلاد وأزالة الطاغوت الروماني عن قلوب العباد حتى تتضح لهم السبل، وتتفرق لهم الطرق، وتصبح لهم حرية الاختيار: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٥٦] .

وبعد ذلك: ﴿**فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾ [الكهف: ٢٩] .

ثم كان بعد ذلك الحملة المباركة التي كانت سبباً في دخول ذلك النور إلى تلك المناطق المظلمة بعبادة الأصنام والتقرب إليها بالقرابين، واتخاذ الأنداد والأرباب من البشر من دونه سبحانه وتعالى ، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد .

المبحث الأول

حملة عبد الله بن سعد على إفريقية

لقد تقرر في كتب التاريخ أن عمرو بن العاص ﷺ لما فتح ليبيا بداية ببرقة وانتهاء بطرابلس وصبراتة، رجع بعد ذلك إلى مصر حيث كانت ولايته ، ولما تولى عثمان بن عفان ﷺ خلافة المسلمين عزله عن ولاية مصر، وعقدها لعبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي كان صاحب ميمنة عمرو بن العاص ، في فتوحاته الشامية والمصرية.

يقول الأستاذ محمود شيت: « كان عبد الله مع جيوش المسلمين التي فتحت أرض الشام، فلما سار عمرو بن العاص لفتح مصر، كان عبد الله قائداً للميمنة منذ توجه من « قيسارية » إلى أن فرغ من حربه، فشهد فتح مصر، وكان صاحب ميمنة عمرو بن العاص في فتوحاته، وفي حربه هناك كلها، وكان عمرو بن العاص يبعثه إلى أطراف « إفريقية » غازياً ويمده بالجنود فيعود من غزواته ظافراً غانماً » (١) .

يقول الدكتور صالح مصطفى: « وفي (سنة ٢٦ هـ/ ٦٤٦ م) عزل عمرو بن العاص ﷺ عن ولاية مصر واستعمل عليها عبد الله بن سعد ﷺ وكان عبد الله بن سعد يبعث جرائد الخيل ، كما كانوا يفعلون في أيام عمرو بن العاص فيصيبون من أطراف إفريقية ويغنمون » (٢) .

ويبدو لي أن جرائد الخيل هذه لم تكن داخلة ضمن الأهداف العامة للحملة التعليمية لترسيخ مبادئ وأُسس الدين الحنيف عند أهالي برقة وطرابلس، ولكن

---

(١) قادة فتح المغرب العربي (١ / ٥٤).

(٢) ليبيا من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية (ص ٣٩).

هذه الجرائد كان تقصد إفريقية - تونس - تمهيداً لفتحها ومعرفة وضعها، فكان حال هذه الجرائد أشبه ما يكون بكتائب الاستطلاع التي تعتبر مقدمة الجيش وعيونه، فلمّا اجتمعت عند عبد الله بن سعد معلومات كافية عن إفريقية، من ناحية مداخلها ومخارجها، وقوتها وعددها ، وموقعها الجغرافي الاستراتيجي، كتب حينئذٍ إلى خليفة المسلمين عثمان بن عفان ﷺ يخبره بهذه المعلومات الهامة عن إفريقية، ويستأذن بناءاً على تلك المعلومات بفتحها، فكان له ما طلب.

يقول الدكتور صالح مصطفى: «ولما استأذن عبد الله بن سعد الخليفة عثمان ابن عفان في غزو إفريقية، جمع الصحابة واستشارهم في ذلك، فأشاروا عليه ففتحها ، إلا أبو الأعور سعيد بن زيد، الذي خالفه متمسكاً برأي عمر بن الخطابِ في ألا يغزو إفريقية أحد من المسلمين .

ولما أجمع الصحابة على ذلك، دعا عثمان للجهاد، واستعدت المدينة عاصمة الخلافة الإسلامية لجمع المتطوعين وتجهيزهم وترحيلهم إلى مصر، لغزو إفريقية تحت قيادة عبد الله بن سعد، وقد ظهر الاهتمام بأمر تلك الغزوة جليّاً فهذا يتضح من الذين خرجوا إليها من كبار الصحابة ، ومن خير شباب آل البيت، وأبناء المهاجرين الأوائل ، وكذلك الأنصار فقد خرج في تلك الغزوة، الحسن والحسين، وعبد الله بن الزبير، وابن عباس، وابن جعفر، وغيرهم.

هذا وقد خرج من قبيلة مهرة، وحدها في غزوة عبد الله بن سعد ستمائة رجل، ومن غنث سبعمائه رجل، ومن ميدعان سبعمائة رجل، وعندما بات الاستعداد تامًّا خطب عثمان فيهم ، ورغبهم في الجهاد، وقال لهم: «لقد استعملت عليكم الحارث ابن الحكم إلى أن تقدموا على عبد الله بن سعد فيكون الأمر إليه، وأستودعكم الله» ويقال: إن عثمان ﷺ قد أعان هذه الغزوة بألف بعير يحمل عليها ضعفاء الناس.

وعندما وصل هذا الجيش إلى مصر، انضم إلى جيش عبد الله بن سعد، وتقدم من الفسطاط تحت قيادة عبد الله ذلك الجيش الذي يقدر بعشرين ألفاً يخترق الحدود المصرية الليبية، وعندما وصلوا إلى برقة انضم إليهم عقبة بن نافع الفهري، ومن معه من المسلمين، ولم يواجه الجيش الإسلامي أية صعوبة أثناء سيرهم في برقة، وذلك لأنها ظلت وفية لما عاهدت المسلمين عليه من شروط زمن عمرو بن العاص، حتى إنه لم يكن دخلها جابي خراج، وإنما كانت تبعث بخراجها إلى مصر في الوقت المناسب، مما يؤكد بقاء برقة على عهدها لعمرو بن العاص، وقد ذكر أنه سُمِعَ يقول: « قعدت معقدي هذا، وما لأحد من قبط مصر على عهد إلا أهل انطابلس، فإن لهم عهداً يوفي لهم به » كما أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان يقول: « لولا مالي بالحجاز لنزلت برقة، فما أعلم منزلاً أسلم ولا أعزل منها » (١).

وهكذا أغَذَّ السير بهذه الحملة المباركة نحو إفريقية وكان ذلك بعد انضمام قوات عقبة بن نافع إليها، إلا أن سعداً قائد الحملة ما فتئ يرسل الطلائع والعيون في جميع الاتجاهات لاستكشاف الطرق وتأمينها، ورصد تحركات العدو وضبطها، تحسباً لأي كمين، أو مباغتة تطرأ على حين غفلة، فكان من نتائج تلك الطلائع الاستطلاعية أن تم رصد مجموعات من السفن الحربية تابعة للإمبراطورية الرومانية، حيث كانت هذه السفن الحربية قد رست في ساحل ليبيا البحري بالقرب من مدينة طرابلس، فما هي إلا برهة من الزمن حتى كان ما تحملة هذه السفن غنيمة للمسلمين، وقد أسروا أكثر من مائة من أصحابها، وتعتبر هذه أول غنيمة ذات قيمة أصابها المسلمون في طريقهم لفتح إفريقية.

يقول الدكتور صالح مصطفى بهذا الصدد: « وبعد انضمام عقبة بن نافع إلى هذا الجيش اتجه صوب إفريقية، وكان عبد الله بن سعد يرسل الطلائع في كل

---

(١) المرجع السابق: (ص٤٥).

الاتجاهات الضرورية، لاستطلاع أحوال المناطق المختلفة، وكانت هذه الطلائع تعود إلى القائد بالأخبار جالبة معها البقر والشياه وعلف الدواب، ولما دنا الجيش من طرابلس تقدمته إليها إحدى تلك الطلائع التي كان يرسلها عبد الله بن سعد، فوجد أفرادها مراكب للروم راسية على الساحل، فحملوا عليها وغنموا ما فيها وأسروا مئة من أصحابها، غير أنهم لم يتعرضوا للأهالي بشئ، وذلك لأنهم تحصنوا داخل مدينتهم، وكان هذه أول غنيمة أصابها المسلمون، وكانت هذه المراكب قد وصلت إلى طرابلس، إما للتجارة أو لتعزيز من كان لها من الروم ، إلا أن طليعة الجيش الإسلامي حالت دون تحقيق أحد الهدفين ، ولم يتحصَّنْ أهل طرابلس بها امتناعاً على ذلك الجيش، وإنما أخافتهم حادثة المراكب، فالتزموا بيوتهم خشية أن يأخذهم عبد الله بن سعد بتهمة التواطؤ مع السفن الرومية » (١) .

بيد أن عبد الله بن سعد ﷺ اكتفى من أهالي مدينة طرابلس بذلك الموقف السلبي حيال تلك السفن الرومانية، حيث التزموا بيوتهم ولم يتفاعلوا مع ذلك الحدث، لذلك جد السير به إلى إفريقية، وبث طلائعه وعيونه في كل ناحية، حتى وصل جيشه إلى مدينة سبيطلة بأمان ، وهناك التقى الجمعان ، جيش المسلمين بقيادة عبد الله بن سعد، وجيش جرجير حاكم إفريقية، وكان تعداد جيشه يبلغ حوالي مائة وعشرين ألفاً، وكان بين القائدين اتصالات مستمرة، ورسائل متبادلة ، فحواها عرض الدعوة الإسلامية على جرجير ودعوته للدخول في الإسلام، ويستسلم لأمر الله سبحانه، أو أن يدفع الجزية، ويبقى على دينه خاضعاً لسيادة الإسلام، ولكن كل تلك العروض رفضها وأصر واستكبر هو وجنوده!! فلما كان ذلك وضاق الأمر بالمسلمين فكر القائد عبد الله بن سعد، وقال لجنوده : أيها الناس عليكم بقتال من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، عليكم

(١) المرجع السابق: (ص ٢٣).

بقتال هؤلاء ، فنشبت المعركة بين الجمعين وحمي الوطيس بينهما لعدة أيام ، حتى وصل مدد بقيادة عبد الله بن الزبير، وكانت نهاية هذا المستكبر الطاغي جرجير على يديه .

يقول الدكتور صالح مصطفى: « وصل جيش المسلمين إلى مدينة سبيطلة، وفي هذا المكان التقى جيش عبد الله بن سعد ، مع جيش جرجير الذي بلغ مائة وعشرين ألفاً، وتبودلت الرسائل بين القائدين، على أن يقبل جرجير الإسلام أو يدفع الجزية غير أنه رفض ذلك فضاق أمر المسلمين، واختلفوا مع عبد الله بن سعد في الرأي فدخل فسطاطه مفكراً، بينما تأهب جرجير، للحرب، وجعل ابنته على ديدبان وأقسم بأن من يقتل قائد المسلمين زوجه ابنته ، وكان ذلك تشجيعاً لجيشه على قتال المسلمين ، فبلغ ذلك عبد الله بن سعد ، فأقسم أن من يقتل جرجير نفسه نفله ابنته ، والتحم الجيشان وانتصر المسلمون، وقتل جرجير على يد عبد الله بن الزبير » (١) .

وبذلك كانت نهاية إفريقية إلا أن جرجير كان نصرانيّاً تابعاً لديانة الإمبراطورية الرومانية، لذلك لما وصل إلى الروم أخبار ما حل بجرجير وجنوده، أخذتهم الحمية ﴿ **بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ﴾ [المائدة : ٥١] وقرروا مقاتلة عبد الله بن سعد ومن معه، وأخذ الغنائم التي غنمها من إفريقية، فلما أحس عبد الله بن سعد بخطورة ذلك التجمع الروماني رأى رغبة منهم في إبرام الصلح نظراً لعدة نقاط عسكرية منها : بعد جيش المسلمين عن مركز الإمداد والنجدة، ومخافة تواطؤ قوى الروم والبربر ضده خاصة وأن المعركة التي كانت مع جرجير سقط فيها من الشهداء العدد الكثير، ولكن قبل إبرام الصلح معهم أرسل إلى نائبه على مصر يطلب منه إرسال سفن إليه في أقرب وقت ممكن لحمل الغنائم التي غنمها من إفريقية .

---

(١) المرجع السابق : (ص٤٥) .

يقول الدكتور صالح مصطفى: « فلما رأى الروم الذين بالساحل ما حل بجرجير وأهل سبيطلة، غارت أنفسهم وتجمعوا، وكاتب بعضهم بعضاً في حرب عبد الله بن سعد إياهم، فخافوا وراسلوه، وجعلوا له جعلاً على أن يرتحل بجيشه، وألا يعترضوه بشيء ، ووجهوا إليه ثلاثمائة قنطار من الذهب في بعض الروايات، وفي البعض الآخر مائة قنطار، جزية في كل سنة على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم، فقبل ذلك منهم وقبض المال، وكان في شرط صلحهم أن ما أصاب المسلمون قبل الصلح فهو لهم، وما أصابوه بعد الصلح ردوه عليهم، وانصرف راجعًا إلى مصر بعد أن أقام بإفريقية سنة وثلاثة أشهر، أو سنة وشهراً في رواية أخرى » (١) .

ويقول أيضاً: « وتذكر الرواية أنه عندما وصل إلى طرابلس وافته المراكب فحمل فيها أثقال جيشه، وقصد هو وأصحابه إلى مصر سالمين، ووجه إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه بالأموال التي معه من الخمس وغيره، ومن المرجح أن تكون السفن التي وافته في طرابلس من السفن التي غنمها المسلمون في سورية والإسكندرية، إذ يذكر إرشيبالد: أنه قد سهل على العرب بفضل استيلائهم على دور الصناعة البيزنطية في الإسكندرية وسورية أن تكون لديهم سفن حربية وإما حاضرة إما سهلة الإنشاء » (٢) .

بيد أن هناك روايات تنص على عودة عبد الله بن سعد لإفريقية بعد وصوله إلى مصر، وذلك حين نقض أهلها العهد، وكانت ذلك في سنة ثلاث وثلاثين، فانتصر عليهم وقام بتثبيت دعائم النظام الإسلامي هناك، وأقر أهلها على الإسلام والجزية.

---

(١)، (٢) نفس المصدر السابق (٤٦).

المبحث الثاني

فاتح إفريقية ﴿تونس﴾ في سطور

المطلب الأول

اسمه، وإسلامه، ووفاته

اسمه: عبد الله بن سعد بن أبي السرح بن حبيب بن حذيفة بن حسل بن عامر بن لؤي القرشي العامري ، **ويكنى**: أبا يحيى، واسم أبي السرح الحسام، وأمه أشعرية، واسمها مهابة بنت جابر الأشعرية ، أرضعت عثمان بن عفان ، فعبد الله بن سعد أخو عثمان بالرضاعة.

إسلامه: أسلم عبد الله قديماً وهاجر إلى المدينة المنورة، فهو من السابقين الأولين، وكان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ ثم افتتن وخرج من المدينة إلى مكة، ولما فتح المسلمون مكة المكرمة، عهد رسول الله ﷺ إلى المسلمين بقتل نفر من الكفار سماهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، منهم عبد الله بن سعد، ففر ابن سعد إلى أخيه بالرضاعة عثمان رضي الله عنه فاستأمن له رسول الله ﷺ فأمنه فأسلم عبد الله ذلك اليوم وحسن إسلامه ، ولم يظهر منه بعد ذلك ما ينكر عليه.

ولقد بايعه رسول الله ﷺ يومئذٍ على الإسلام وقال: الإسلام يجب ما قبله، ولكن عبد الله كان يفر من رسول الله ﷺ أينما رآه خجلاً منه ، فذكر ذلك عثمان لرسول الله ﷺ فقال: **[الإسلام يجب ما كان قبله]** فكان عبد الله بعد ذلك يجلس مع رسول الله ﷺ وحسن إسلامه بعد ذلك وعرف فضله وجهاده، فأصبح وثيق الإيمان كامل الشعور بجلال الإسلام وتبعاته، وكل قول يخالف ذلك لا قيمة له من الناحية التاريخية الصحيحة (١) .

---

(١) انظر: قادة فتح المغرب العربي (جـ١/٥١،٥٢،٥٣).

وفاته: وبعد الفتنة التي انتهت بمقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه اعتزل عبد الله بن سعد الناس، وأقام بمدينة عسقلان معتكفاً عن اللذات، واستعداداً للرحيل من هذه الدنيا الفانية إلى الآخرة الباقية، وكان من دعائه في تلك الخلوة: «اللهم اجعل خاتمة عملي صلاة الصبح»، وقد استجاب الله سبحانه لهذا الرجل الصالح المجاهد، ففي ذات يوم عند طلوع الفجر توضأ، ثم صلى الصبح، فقرأ في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب والعاديات، والثانية فاتحة الكتاب وسورة أخرى، ثم سلم عن يمينه، ثم ذهب ليسلم عن يساره، فقبض الله روحه وكان له ما أراد.

وكان ذلك (سنة ٣٦ هـ/٦٥٦م)، ودفن بموضع معروف يقال له مقابر قريش بعسقلان في الشام، إلا أن صاحب كتاب «الفوائد الجلية في تاريخ العائلة السنوسية» عبد الملك بن عبد القادر بن علي، يذهب إلى أنه دفن في أوجلة في إحدى واحات ليبيا، ولا يخفى أن ما ذهب إليه صاحب كتاب «قادة فتح المغرب العربي» أصح من حيث ترجيح الرواية وضبط التواريخ والآثار [1].

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب (١/ ٦٤،٦٥).

المبحث الثالث

مناقب عبد الله بن سعد رضي الله عنه

لا ريب أن عبد الله بن سعد رضي الله عنه كان صاحب ميمنة عمرو بن العاص في فتوحاته لأرض الشام ومصر، بل كان يرسله يقود حملات جهادية بنفسه على جنوب وغرب مصر من أراضي إفريقيا، التي كانت فيما بعد سبباً لفتح ليبيا وتونس، وبلاد المغرب، والسوادان وماحوله، لذلك فعلى هذه الشعوب أن تذكر هذا الرجل صاحب الفضل عليها بعد الله سبحانه ، بأفضل ما يذكر به الخلف الصالح سلفهم الصالح فهو الذي كان سبباً في دخول الإسلام لتلك البلاد وقلوب العباد، وكفى بذلك شرفاً ومنقبة، لذا نحاول أن نتناول بإيجاز ذكر بعض مناقب هذا القائد الصحابي الجليل في مسيرته الجهادية الدعوية.

المطلب الأول

جهاده في مصر

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب: « كان عبد الله مع جيوش المسلمين التي فتحت أرض الشام، فلما سار عمرو بن العاص لفتح مصر، كان عبد الله معه قائداً للميمنة منذ توجه من قيسارية إلى أن فرغ من حربه، فشهد فتح مصر وكان صاحب ميمنة عمرو بن العاص في فتوحاته وفي حروبه هنالك كلها، وكان عمرو بن العاص يبعثه إلى أطراف إفريقية غازياً ويمده بالجنود فيعود من غزواته ظافراً غانماً » (١) .

---

(١) المرجع السابق: (١/ ٥٣، ٥٤).

المطلب الثاني

جهاده في إفريقية

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب:

«لما ولي عبد الله بن سعد مصر والمغرب بعث المسلمين في جرائد الخيل ، فأصابوا من أطراف إفريقية وغنموا، وكتب عبد الله إلى عثمان بن عفان وأخبره بقرب إفريقية من بلاد المسلمين ، واستأذنه في غزوها واستشار عثمان من عنده من الصحابة، فأشار أكثرهم بالإقدام على غزو إفريقية، فوجه عثمان العساكر من المدينة في خلق كثير كان منهم عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن جعفر، والحسن الحسين ﷺ ، لذلك سمي هذا الجيش بجيش العبادلة، وسار عبد الله بن سعد بجيشه البالغ تعداده عشرين ألفاً، سنة ست وعشرين، وسار عبد الله إلى إفريقية، فلما وصلوا إلى برقة لقيهم عقبة بن نافع ومن معه من المسلمين - وكان عقبة ومن معه حامية هناك - فساروا جميعاً إلي طرابلس الغرب فقاتلوا من عندها من الروم . . . ولقد افتتح عبد الله بن السرح إفريقية سهولها وجبالها، وفتح الله على يديه فتحاً عظيماً وانتصر على ملك البربر جرجير في موقعة سبيطلة، وأذلت تلك الواقعة أهل إفريقية وأصابهم رعب شديد، فإذا كان كل ذلك ليس فتحاً مستداماً ، بل غارة فكيف يكون الفتح؟!!» [1] .

(١) المرجع السابق: (١/ ٥٣، ٥٤)

المطلب الثالث

جهاده في قبرص

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب: «وفي سنة ثمان وعشرين للهجرة، أجاب عثمان بن عفان معاوية بن أبي سفيان حين كان على أرض الشام إلى فتح قبرص، وقال له: لا تنتخب الناس ولا تقترع بينهم! خيرهم فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه، فسار المسلمون من الشام إلى قبرص، وسار إليها عبد الله بن سعد من مصر فاجتمعوا عليه ، فصالحهم على جزية قدرها سبعة آلاف دينار كل سنة، وفتح المسلمون قبرص وكان لعبد الله فضل كبير في فتحها »[١] .

المطلب الرابع

جهاده في بلاد النوبة

يقول في موضع آخر: « بعث عمرو بن العاص عقبة بن نافع لفتح النوبة، فقاتل المسلمون بالنوبة قتالاً مريراً ، إذ كان أهلها ماهرين برمي السهام ، فرشقوا المسلمين بالنبل حتي جرح عامتهم، فانصرفوا بجراحات كثيرة وحدق مفقودة ولم يصالحهم عمرو بن العاص، ولم يزل يهاجمهم بن حين وآخر حتى عزل عن مصر وولي ابن سعد فغزاهم سنة إحدى وثلاثين هجرية، فقاتله الأساود من أهل النوبة قتالاً شديداً، فأصيبت يومئذٍ عيون كثيرة من المسلمين، فقال شاعرهم:

لم تر عيني مثل يوم دُمقلة   والخيل تعدو بالدروع مثقلة

فسأل أهل النوبة عبد الله بن سعد المهادنة، فهادنهم وعقد لأهل « مقرة » بعد دخول جيش المسلمين « دنقلة » عقداً يضمن استقلال بلادهم ويحقق للمسلمين الاطمئنان إلى حدودهم الجنوبية وفتح النوبة للتجارة والحصول على عدد من

---

(١) قادة الفتح لبلاد المغرب (١ / ٦١، ٦٢، ٦٣).

الرقيق في خدمة الدولة الإسلامية ، وقد اختلط المسلمون بالنوب والبجة ، واعتنق كثير منهم الإسلام» (١) .

المطلب الخامس
جهاده في إفريقية ثانياً

ويقول أيضاً : «وفي سنة ثلاث وثلاثين هجرية، أعاد عبد الله الكرة على إفريقية حين نقض أهلها العهد ، فانتصر عليهم وأعاد النظام إلى ربوعهم، وأقرهم على الإسلام » (٢) .

المطلب السادس
جهاده في البحر (غزوة ذات الصواري)

وقال أيضاً: «وفي سنة إحدى وثلاثين هجرية غز عبد الله غزوة : ذات الصواري في البحر من ناحية الإسكندرية، فلقيه قسطنطين بن هرقل في جمع لم تجمع الروم مثله مذ كان الإسلام، فخرجوا في خمسمائة مركب أو ستمائة والمسلمون في مائتي مركب، وحين علم عبد الله بخبر قدوم الروم بهذا الحشد الكثيف، قام بين ظهراني الناس فقال: «بلغني أن ابن هرقل قد أقبل إليكم في ألف مركب، فأشيروا عليَّ ! فما كلمه رجل من المسلمين!! فكرر عليهم طلب الاستشارة فأجاب في المرة الثالثة رجل من أهل المدينة كان متطوعاً مع عبد الله بن سعد فقال: «أيها الأمير إن الله جل ثناؤه يقول: ﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة:٢٤٩] ، فقال عبد الله: اركبوا باسم الله،

(١) المرجع السابق: (١/ ٦١).
(٢) نفس المصدر السابق: (١/ ٦٣) .

فركبوا، وإنما كان في كل مركب نصف شحنته، إذ قد خرج النصف الآخر إلى البر للقتال في منطقة أخرى ، قدم أهل الشام وعليهم معاوية بن أبي سفيان، وعلى البحر عبد الله بن سعد، وكانت الريح على المسلمين ، فأرسى المسلمون والروم، وسكنت الريح، فقال المسلمون : الأمان بيننا وبينكم، فباتوا والمسلمون يقرءون القرآن ويصلون، وأصبحوا وقد أجمع الروم أن يقاتلوا ، وقربوا سفنهم وقرب المسلمون سفنهم، فربطوا بعضها إلى بعض، وصف عبد الله بن سعد المسلمين على نواحي السفن وجعل يأمرهم بقراءة القرآن، ويأمرهم بالصبر.

واقتتل الطرفان بالسيوف والخناجر، فقُتِلَ من المسلمين بشر كثير، وقتل من الروم ما لا يُحصى، وصبر المسلمون يومئذٍ صبراً لم يصبروا مثله في موطن قط، فجرح قسطنطين ملك الروم وقائدهم في هذه المعركة فانهزموا، ولم ينج منهم إلا الشريد، في هذه المعركة بالذات تعرضت حياة عبد الله لخطر داهم، فقد قرن مركبه بمركب من مراكب الروم، فكاد مركب العدو يجر مركب عبد الله إليهم، إلا أن أحد رجاله ضرب السلسلة التي تربط المركبين بالسيف ، فقطعها وبذلك نجا عبد الله من الموت أو الأسر.

لقد أظهر عبد الله في معركة « ذات الصواري » بطولة فائقة ، تلك الغزوة التي أبعدت خطر الروم بعد اندحارهم عن مصر وأرض الشام » (١) .

---

(١) **انظر** : أسد الغابة لمعرفة الصحابة (٣ / ١٥٦)

المبحث الرابع

مبادئ في الاستراتيجية العسكرية

لقد تقدم - فيما سبق - أن هذا القائد والصحابي الجليل عبد الله بن سعد صاحب تلك المعارك العظيمة، كان قديراً في وضع الاستراتيجيات الهادية، والقواعد العسكرية ، ومن تلك المبادئ والقواعد التي أسس بنيانها هذا الصحابي الجليل في حياته الجهادية منها: إتقان إدارة الجيش كمّاً وكيفاً، استقرار المؤخرات، حشد القوى، الاقتصاد في القوى، التعرض، الاستعلام والاستطلاع، إعداد الخطة البديلة، المحاربة في ميادين القتال، المناورة الحربية .

يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب بهذا الصدد:

« وكان قديراً على وضع الخطط العسكرية المناسبة وكان يحرص على إنجاز استعداداته الضرورية قبل كل معركة يخوضها، ويجيد تحشيد قواته ، ويكمل قضاياها الإدارية ، ويرسل العيون والأرصاد لتزويده بأنباء العدو المفصلة ، كل ذلك يساعده على وضع خطة مُثلَى تؤمن له النصر المبين » [١] .

(١) المرجع السابق (١ / ٧٣) .

المبحث الخامس

أهم صفاته القيادية

لقد كان عبد الله بن سعد رضي الله عنه ذا مؤهلات قيادية عالية المستوى، تؤهله أن يكون قائداً لتلك الفتوحات المباركة، أو يخوض غمار تلك المعارك الطاحنة خاصة معركة «ذات الصواري» ومن تلك الصفات القيادية التي كان يتحلى بها: الشجاعة ، وعدم الاستبداد بالرأي ، وكثرة استشارته لإخوانه، وقبوله للرأي الثاني والانصياع له بكل رحابة صدر ، وكان لا يتأثر بكلام الناس ، ويفضل أن يكون غازياً لا والياً.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب :

«وكان يمتاز باستشارة ذوي الرأي من رجاله قبل المعركة وفي أثنائها ، ولا يأنف أبداً من الانصياع للرأي الصائب بكل رحابة صدر، بل كان يشجع كل من له رأي سليم على إظهاره ليطبقه فوراً، وتلك ميزة صاحب الشخصية الرصينة القوية التي لا تؤثر عليها تقولات الناس، والظاهر من سير معاركه التي خاضها أنه كان يؤثر أن يكون في ساحات القتال غازياً ، على أن يكون في القصور والياً » (١) .

---

(١) نفس المصدر (١/ ٧٣).

المبحث السادس

أعماله في عهد الخليفتين عمر و عثمان رضي الله عنهما

لقد تولى عبد الله بن سعد رضي الله عنه أعمالاً كثيرة ومناصب عظيمة، ففي عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولاه الصعيد المصري وفي عهد الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه ولاه مصر كلها، وكان ذلك (سنة ٢٥ هـ) .

أما المناصب القيادية الميدانية التي باشرها عبد الله بن سعد، منها ولاية الميمنة في جيش عمرو بن العاص، وولاية قيادة جيش فتح إفريقية، وكل ذلك كان في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أما في عهد عثمان بن عفان فقد ولاه قيادة فتوحات أرض النوبة، ومدينة قبرص وغيرها.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب : « وتولى عبد الله - صعيد - مصر بعد فتحها، وكان عمر بن الخطاب هو الذي ولاه الصعيد، فعقد عثمان بن عفان لعبد الله على مصر كلها مضافاً للصعيد وغيره، وعزل عمرو بن العاص عن مصر، وكان ذلك سنة خمس وعشرين هجرية ... » (١) .

وأخيراً:

يبقى التاريخ دائماً وأبداً ذاكراً لعبد الله بن سعد رضي الله عنه فتحه لبلاد تونس الخضراء، وشرقي الجزائر، وقبرص، والنوبة، ونشره لدعوة الإسلام في تلك الربوع، كما أنه يذكر له معاركه البحرية بالتقدير والإعجاب خاصة معركة ذات الصواري، ويذكر له أنه قضى حياته كلها مجاهداً لإعلاء كلمة الله ، رضي الله عنه من صحابي جليل ، فهو الإداري الحازم ، والبطل الشجاع ، والقوى الأمين ، والقائد الفاتح » (٢) .

---

(١) ، (٢) المرجع السابق: (١ / ٧٤) .

الفصل الرابع

معاوية بن حديج وأبرز معالم عهده

توطئة:

بعد أن عاد عبد الله بن سعد رضي الله عنه إلي مصر من غزوة ذات الصواري (عام ٣٥هـ) حيث علم بخبر فتنة الخروج على خليفة المسلمين عثمان بن عفان رضي الله عنه فلما علم ذلك خرج من مصر متوجهاً إلى المدينة حيث عاصمة الخلافة ومقر الخليفة، ولكن ما لبث في المدينة إلا قليلاً، حتى وافاه خبر مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ثم استخلف من بعده الإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه الذي بدوره أعاد ترتيب ولاته وعماله في المنطقة، فكان من ضمن أولئك عبد الله بن سعد حيث ولى قيس بن سعد بن عبادة والياً مكانه.

وهكذا كان والي مصر عبد الله بن سعد القائد الجندي، الذي لم يتأثر بتلك المناصب التي قلما ينزل عنها بشر بيسر إلا إذا كان من أولي التقى والنهي، ونحسب أن فاتح إفريقية من أولئك والله حسبه، لذلك عندما أحس بنشوب الفتنة بين المسلمين اختار مدينة عسقلان التي كانت بعيدة عن مواطن الفتنة مكاناً لخلوته يتعبد الله فيها، حتي توفاه الله وهو في آخر ركعة من صلاة الصبح، فرضي الله عنه وأرضاه، وأدخله فسيح جناته، اللهم أمين.

ثم توالت الأحداث واستلم معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه مقاليد الخلافة (سنة ٥١ هـ/ ٦٦٥م) حيث عزل فيها عبد الله بن عمرو بن العاص والي مصر للمرة الثانية عن منصبه، وعين معاوية بن حديج والياً على مصر، وعقبة بن نافع عاملاً على إفريقية.

يقول الدكتور صالح مصطفى :

« أما بالنسبة (سنة ٥٠هـ/ ٦٧٠م)، وذلك بعد أن عزل معاوية بن أبي سفيان عبد الله بن عمرو بن العاص عن مصر ، وولاها معاوية بن حديج ، وفي السنة التي تليها (٤٨هـ / ٦٦٨م) كان معاوية بن حديج عاملاً على مصر وإفريقية إلي أن عزله معاوية بن أبي سفيان ﷺ عن ولاية إفريقية وأقره على ولاية مصر فقط (سنة ٥٠هـ/ ٦٧٠م) هذا فضلاً على أنه في هذه الفترة كان عقبة بن نافع في إفريقية [١] .

---

(١) ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر (٤٨).

المبحث الأول

حملة معاوية بن حديج على ليبيا وإفريقية

لقد تقدم فيما مضى أن معاوية بن أبي سفيان خليفة المسلمين قد عين معاوية ابن حديج والياً على مصر ، ولما استقرت سلطة الخلافة كلف معاوية بن حديج أن يتوجه إلى إفريقية نظراً لخبرته بها وسابقة العلم الجهادية فيه ، وكان جيشه تعداده قرابة عشرة آلاف مقاتل ، وكان الجيش الإسلامي يضم في صفوفه أكابر فقهاء الصحابة وتابيعهم أمثال : عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير، وعبد الملك بن مروان، ويحيي بن أبي الحكم بن العاص وغيرهم .

يقول الدكتور صالح مصطفى: « أما في (سنة ٤٥ هـ/ ٦٦٥ م) فقد أرسل معاوية بن أبي سفيان ﷺ بعد أن توطدت سلطته في الخلافة معاوية بن حديج إلى إفريقية في عشرة آلاف مقاتل ، وكان معه عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير، وعبد الملك بن مروان ، ويحيي بن أبي الحكم بن العاص، وعدة من أشراف قريش » (١) .

ولقد ذكر في كتب التاريخ أن هذا الجيش الإسلامي بقيادة معاوية بن حديج ﷺ كان قد تحرك من مصر متجهاً إلى إفريقية عبر الأراضي الليبية التي كان قد رابط بها كل من عقبة بن نافع وشريك بن سمي ﷺ ، لذلك لم يجد جيش معاوية عند مروره بالأراضي الليبية كبير عناء ، بل لم يذكر أحد من المؤرخين أن معاوية وجيشه الإسلامي لقي أية مقاومة من الشعوب القاطنة في الأراضي الليبية ، ونظراً لالتزامهم إما بالإسلام ، أو بالجزية أو العهد .

وبعد عبوره منطقة طرابلس وحدودها توجه إلى تونس التي تعتبر القصد

---

(١) المرجع السابق: (٥٠) .

الأول من حملته المباركة ، وكانت استراتيجيته في تلك الحملة المباركة السيطرة على مفاصل إفريقية الثلاثة : بنزرت ، وسوسة ، وجلولاء.

وهكذا كانت البداية فقصد معاوية بجيشه إلي سبيطلة، وسبقته أخباره، وبلغ قيصر الروم خبر هذا الغزو، فأرسل نجدة إلي قرطاجنة عن طريق البحر، والتقى المسلمون بالروم والبربر بقرب (الجم) فهزموهم، واستعد الروم للقائه في جلولاء، ليكون دفاعهم عن سبيطلة في مواقع بعيدة عنها، وهناك جمعوا جيشاً لا يقل عن ثلاثين ألف مقاتل، وتواقع الفريقان خارج أسوار المدينة، ولم يلبثوا أن رجحت كفة المسلمين على الروم، فدخلوا المدينة منهزمين وتحصنوا وراء أسوارها، وحاول المسلمون اقتحامها عليهم فلم يقدروا وجرح عامتهم واستشهد كثير منهم فتركوها.

ولكن لا يعلم جنود ربك إلا هو فبينما هم راجعون منها إذ بأحد أسوار المدينة قد تهدم وسقط دون أي عامل بشري، الله أكبر فتحت جلولاء، فرجع معاوية بجيشه المبارك مسارعين ودخلوا المدينة عنوه، وفر منها من نجا من القتل والأسر، وغنموا كل ماحوته المدينة، وكانت هذه الغنيمة من أكبر غنائم إفريقيا في الفتح الإسلامي (١) .

ثم واصل معاوية حملته المباركة للسيطرة على مفاصل إفريقيا، فقد بث السرايا في البلاد، وبعث عبد الله بن الزبير إلي مدينة سوسة البحرية التي ما استطاعت مقاومة قوات ابن الزبير ففتحها وثبت فيها دعائم الإسلام، وهكذا واصل معاوية رضي الله عنه عمله الاستراتيجي الذي يهدف إلى السيطرة على المدن الحيوية والاستراتيجية التي تعتبر مفاصل إفريقيا، فبعث رويفع بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه إلى مدينة جربة الاستراتيجية ففتحها.

---

(١) راجع: الفتح العربي في ليبيا (ص ٩٩) .

وبعد أن استتب الأمن في إفريقيا اتجه معاوية رضي الله عنه إلى جبل القرن الذي يسمى اليوم بجبل وسلات، واتخذ منه مقراً لقيادته لمنطقة إفريقيا، وبنى بتلك الناحية مساكن سماها قيروان، واحتفر بها آباراً تسمى باسمه (آبار حديج)، وأقام في هذا الجبل قرابة ثلاث سنين .

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب« واستقر معاوية في جبل القرن وجعله مقراً له، فبقي هناك ثلاث سنين ، وبنى بناحية القرن مساكن سماها : قيروان، واحتفر بها آباراً تسمى آبار حديج ، وهذه الآبار خارج باب تونس منحرفة عنه إلى الشرق عند مصلى الجنائز » [(١)] .

وأخيراً :

عاد معاوية بن حديج رضي الله عنه بعد ذلك إلى مصر بناءً على أمر من خليفة المسلمين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بعد أن قام بتثبيت دعائم الإسلام في المنطقة، وأسس القواعد الأولي لفتح أوربا، وتبليغ دعوة الإسلام إليها، وهكذا سطر التاريخ لمعاوية رضي الله عنه بماء الذهب تلك الآثار الطيبة في الشمال الإفريقي، فاللهم ارضَ عنه وادخله فسيح جنتك ، آمين.

(١) قادة فتح المغرب العربي (١ / ٨٠)

المبحث الثاني

معاوية بن حديج في سطور

المطلب الأول

اسمه، نسبه، وفاته

اسمه ونسبه: معاوية بن حديج بن جفنة بن قَتِيرة بن حارثة بن عبد شمس بن معاوية بن جعفر بن أسامة بن سعد بن أشرس بن شبيب بن السكون السكوني، يكنى: أبا نعيم: وقيل: أبا عبد الرحمن.

وقيل: إنه من حلوان وليس بشيء ، والصحيح أنه سكوني، أما قولهم: إنه سكوني، وقيل: تجيبي، وقيل: كندي، فمن يرى هذا يظنه تناقضاً، الحقيقة: أن السكوني من كندة وولد السكون شبيباً، فولد شبيب أشرس، فولد أشرس عدياً، وسعداً، وأمهما: تجيب بها يعرف أولادهما، فكل تجيبي سكوني، وكل سكوني كندي، فمن نسبه إلي جده الأقرب قال: وكلاهما صواب ، وأمه كبشة بنت معدي كرب الشاعرة .

صحب النبي ﷺ وروى عنه حديث: **«إن كان في شيء شفاء فشربه عسل، أو شرطة محجم، أو كية نار، وما أحب أن أكتوي»** (إسناده صحيح)، وهاجر إلي أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ووفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه والظاهر أنه كان صغيراً على عهد النبي ﷺ فلم يشهد غزواته لذلك نال معاوية شرف الصحبة، وما أعظمه من شرف، ولم ينل شرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد ﷺ (١) .

---

(١) المرجع السابق: (١/ ٧٦).

وفاته رضي الله عنه :

وفي سنة خمسين من الهجرة عزل معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حديج رضي الله عنهما عن إفريقيا ، وأقره على ولاية مصر، ووجه إلى إفريقيا عقبة بن نافع الفهري، ثم عزله عن مصر سنة إحدى وخمسين الهجرية، فمات بها (سنة اثنتين وخمسين هجرية – ٦٧٢م) (١) .

المطلب الثاني

مناقبه رضي الله عنه

لا يخفى أن معاوية بن حديج رضي الله عنه قد صاحب عمرو بن العاص رضي الله عنه في فتوحاته لأرض مصر والإسكندرية، وكان محل ثقته، وأهل لمشورته ورسوله الخاص لخليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لذلك كان محل ثقة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كذلك، وهذا إن دل فإنما يدل عي أن معاوية بن حديج كان من الشخصيات القيادية الهامة صاحبة المؤهلات الجهادية والقيادية في جيش عمرو ابن العاص، لذا سنحاول أن نتناول بإيجاز معالم هذه الشخصية، ومناقبها الجهادية ، وعقليتها العسكرية .

[١] جهاده في مصر والنوبة:

﴿ أ ﴾ شهد ابن حديج فتح مصر مع عمرو بن العاص، وكان رسوله إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بفتح مصر والإسكندرية، وقد ذكر معاوية بن حديج قصة وفادته إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بفتح الإسكندرية فقال: «بعثني عمرو

(١) المرجع السابق: (١/ ٨٧).

ابن العاص إلى عمر بن الخطاب بفتح الإسكندرية، فقدمت المدينة المنورة في الظهيرة .. فلما دخلت فإذا عمر بن الخطاب يتناول رداءه بإحدى يديه ويشد إزاره بالأخرى ، فقال: ما عندك ؟ ، قلت: خير يا أمير المؤمنين، فتح الله الإسكندرية ...».

ولا يخفى أن إيفاد معاوية بشيراً بالفتح دليلٌ على ثقة عمرو به واعتماده عليه وأنه كان شخصية لامعةً – في جيش المسلمين الذي فتح مصر– في جهاده وعقله ومنطقة وتصرفه، كما أنه يكون دليلاً على أنه كان مقبولاً من عمر بن الخطاب، إذ لايمكن أن يبعثه عمرو دون أن يكون موضع ثقة عمر وتقديره.

﴿ ب ﴾ وفي سنة إحدى وثلاثين هجرية شهد ابن حديج فتح النوبة تحت لواء عبد الله بن سعد بن أبي السرح، فذهبت عينه يوم دنقلة من بلاد النوبة، فأصبح أعوراً، وياله من وسام جهادي يقابل به الله يوم لا ينفع مال ولا بنون [١] .

[٢] جهاده في إفريقيا :

غزا ابن حديج إفريقيا ثلاث مرات، الأولى: سنة أربع وثلاثين هجرية في خلافة عثمان بن عفان، حيث كان عبد الله بن سعد بن أبي السرح والياً على مصر، وكان معه جماعة من المهاجرين والأنصار، ففتح مناطق شاسعة وغنم غنائم عظيمة واتخذ قيروان عند القرن، ولم يزل فيها حتى خرج إلى مصر.

وغزا معاوية إفريقيا سنة إحدى وأربعين هجرية ، ففتح مدينة بنزرت، وكان معه عبد الملك بن مروان، ولما سمع الروم بما أعطى البربر من أموال لعبد الله بن

---

(١) المرجع السابق:(١ /٧٨) .

سعد بن أبي السرح، ولمعاوية بن حديج، أجبروا البربر في إفريقيا على أن يعطوهم مثل ذلك فاعتذروا ، لأن ذلك ليس في طاقتهم، ولأنهم كرهوا معاملة الروم واستعبادهم وظلمهم لهم ، فوقع القتال بين خليفة جرجير ملك إفريقيا، وبين القائد الرومي ، فهزم هذا القائد خليفة جرجير، ففر إلي الشام ، واتصل هناك بمعاوية بن أبي سفيان، وزين له فتح إفريقيا واصفاً خيراتها وثرواتها ، ودله على عورات الروم، فبعث معاوية بن حديج لفتحها فغزاها سنة خمس وأربعين هجرية .

وقد وجهه معاوية بن أبي سفيان في جيش كثيف تعداده عشرة آلاف رجل، معهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ ، وجماعة من الصحابة والتابعين من بينهم عبد الملك بن مروان، ومضي معاوية حتي وصل إلي إفريقيا، وكانت تضطرم ناراً فنزل بجيشه على قمونية وهي قيروان إفريقيا ، وكان عامل جرجير هو ملك سبيطلة على رأس ثلاثين ألف مقاتل كان القيصر قد وجههم من القسطنطينية في البحر لمدافعة المسلمين عن إفريقيا فلم تغن قوات الروم شيئاً، إذ قاتلهم معاوية فهزمهم عن حصن « الأجم »، ثم بث السرايا في البلاد، وبعث عبد الله بن الزبير إلى « سوسة » ففتحها، وبعث رويفع بن ثابت الأنصاري بحراً إلى جربة ففتحها، ثم عاد أدراجه إلى طرابلس الغرب التي كان أميراً عليها، وبعث عبد الملك بن مروان إلى جلولاء ففتحها.

واستقر معاوية في جبل « القرن » وجعله مقراً له ، فبقي هناك ثلاث سنين، فبنى بناحية القرن مساكن سماها قيروان، واحتفر بها آباراً تسمى آبار حديج، وهذه الآبار خارج باب تونس منحرفة عنه إلى الشرق عند مصلى الجنائز.

لقد غز إفريقيا مراراً كثيرة كان آخرها سنة خمسين من الهجرة ، ولكن

المؤرخين اقتصروا على ثلاث غزوات منها، وهي أهم غزواته على ما يظهر وعاد معاوية بعد ذلك إلي مصر بعد أن خلد آثاراً حسنة في إفريقيا، وهو الذي بعث عقبة بن نافع سنة خمسين هجرية لغزو إفريقية (١) .

[٣] جهاده في البحر:

﴿ أ ﴾ كان معاوية بن حديج أول من غزا جزيرة « صقلية » إذ بعث إليها عبد الله ابن قيس ، فأصاب أصناماً وفضة مكللة بجوهر، وقد وجه معاوية جيشه هذا في مائتي مركب، وكان ذلك سنة ست وثلاثين هجرية.

﴿ ب ﴾ وفي سنة تسعه وأربعين هجرية ، وجه معاوية عقبة بن نافع الفهري في البحر لغزو الروم بأهل مصر (٢) .

(١) المرجع السابق: (١ / ٨١).
(٢) المرجع السابق: (١ / ٨٢).

المطلب الثالث

أهم صفاته القيادية

إن معاوية كان من الأبطال الصناديد، ومن الدهاة المحنكين، ومن رجالات الفتوح الكبار، وكان من ضباط أركان عمرو بن العاص في فتح مصر، ومن ضباط أركان عبد الله بن سعد بن أبي السرح في إفريقيا والنوبة، فلما تولى القيادة كان خبيراً بالمغرب، عارفاً لشئونه وطبيعة أرضه، ونقاط الضعف في أهله، وخبرة معاوية هذه سهلت له فتح كثير من بلاد المغرب.

والذي يتتبع قصة جهاده بإمعان، يجد أن معاوية ﷺ كان يهوى الجهاد، فكان يفضل دائماً أن يكون غازياً في ساحات الوغي على أن يكون والياً في باحات القصور.

لقد كان جندياً بالطبع، وكان من أسود المسلمين، سألت عائشة أم المؤمنين ﵂ يوماً رجلاً فقالت: «وكيف كان أميركم في غزواتكم؟» تعني معاوية بن حديج، فقالوا: «ما نقمنا عليه شيئاً»، وأثنوا عليه خيراً، وقالوا: «إن هلك بعير أخلف بعيراً، وإن هلك فرس أخلف فرساً، وإن أبق خادم أخلف خادماً»، فقالت: «استغفر الله! إن كنت لأبغضه من أنه قتل أخي، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من رفق بأمتي فارفق به، ومن شق عليهم فاشقق عليه**»، وهذا دليل على سهره على مصالح رجاله وحرصه عي راحتهم، ورضائهم وإعطائهم ما يستحقون.

لقد كان معاوية شجاعاً مقداماً ذا شخصية قوية نافذة، له قابلية ممتازة على إعطاء القرارات الصائبة، يتحمل المسئولية ولايتهرب منها ، ذا إرادة قوية ثابتة، يعرف مبادئ الحرب ويطبقها ويعرف نفسيات رجاله وقابليتهم، يثقون به،

ويبادلونه حبًّا بحب وتقديراً بتقدير، له تجربة طويلة في الحرب وماضي ناصع في الجهاد، لقد كان معاوية قائداً ممتازاً، قضى حياته كلها مجاهداً في سبيل الله في البر والبحر على حد سواء.

إن التاريخ يذكر له أنه نشر الإسلام بين عدد لا يُحصى من البربر، ونشر لغة القرآن بينهم، و يذكر له أنه فتح بلاداً شاسعة من شمال إفريقيا في تونس، والجزائر، والمغرب، ويذكر له أنه أول من غزا صقلية ، فمهد للمسلمين فتحها بعد ذلك، وذكر له أنه كان قائد القادة من الصحابة والتابعين، رضي الله عن الصحابي الجليل ، الإداري الحازم ، أمير البحر ، وقائد البر ، معاوية بن حديج السكوني (١) .

---

(١) المرجع السابق: (١ / ٨٨-٨٩) .
من أراد الاستزادة من ترجمة معاوية بن حديج: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، طبقات ابن سعد، معالم الإيمان لعبد الرحمن الأنصاري، فتح مصر والمغرب، لابن عبد الحكم، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي.

الفصل الخامس

عقبة بن نافع قائد فتح الشمال الإفريقي

توطئة :

لا يخفى أن عقبة بن نافع كانت له علاقة قديمة وطويلة ببرقة وطرابلس وإفريقيا، والشمال الإفريقي عموماً مما أكسبه خبرة جيدة بطبيعة البلاد، ومعرفة عادات ونفوس أهلها ، مما جعله في قائمة المرشحين عند أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ﷺ لقيادة الحملة الأخيرة لفتح إفريقيا .

المبحث الأول

بداية الفتح المبارك

لقد تقدم – فيما سبق – أن عقبة بن نافع كانت له خبرة بمناطق الشمال الإفريقي إجمالاً، حيث قد أرسله عمرو بن العاص إلى زويلة (سنة ٢٢ هـ) ففتحها، ثم عينه والياً على إفريقية بعد رجوعه إلى مصر، وبتلك الخبرة والخلفية سار عقبة إلي إفريقية في جيش رهيب ومهيب ، وكانت بداية مسيرة هذه الجحافل المباركة برقة ، لأنه كان مقيماً فيها، ثم سار حتى وصل سرت حيث أقام الجيش فيها فترة من الزمان، وتوجه خلالها عقبة إلى بلاد ودان، وجرمة، وفزان ففتحها ونشر فيها تعاليم الإسلام.

يقول الدكتور صالح مصطفى :

« من المرجح أن عقبة بن نافع قد خرج إلى إفريقية (سنة ٤٩ هـ/ ٦٦٩م) كما يذكر ابن عذارى أو في أولها ، ولا سيما أنه قد خرج بعد معاوية بن حديج كما يذكر ابن عبد الحكم، وكان مع عقبة بن نافع في هذه الغزوة بسر بن أبي أرطأة وشريك بن سمي المرادي، وتقدم عقبة بن نافع بقواته إلى أن وصل مغداش من سرت – وكان بسر بن أبي أرطأة، قد توجه إليها قبل ذلك (سنة ٢٦ هـ/٦٤٦م) من

سرت- فلما وصل عقبة إلى هذه المدينة علم بأن أهل ودان قد نقضوا العهد الذي سبق وأن عقدوه مع بسر بن أبي أرطأة في سنة ٢٣ هـ زمن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

فما كان منه إلا أن ترك جيشه واستخلف عليهم عمر بن عليّ القرشي، وزهير بن قيس البلوي، وسار بنفسه وبمن خف معه، وحتى قدم ودان فافتتحها، وجدع أذن ملكهم أدباً له، وأخذ منهم ما كان بسر ابن أبي أرطأة قد فرضه عليهم وهي ٣٦٠ رأساً، ثم واصل سيره إلى مدينة جرمة، ولما دنا منها وكان آخرها قصور خوار، جنوبي فزان، فعندما وصله عقبة،امتنع عليه، ولم يتمكن من فتحه، وظل محاصراً له شهراً، ثم تخلى عنه متجهاً إلى قصور كوار، وقطع أصبع ملكهم أدباً له، وحتى لا تسول إليه نفسه أن يحارب العرب -المسلمين- مرة أخرى وفرض عليهم ٣٦٠ عبداً.

ثم رجع إلى أهل خاوار حتى تجاوزهم، متظاهراً أنه لن يفتح هذا القصر حتي اطمأن أهله فرجع عليهم وتمكن من فتحه، ومن هناك انصرف راجعاً حتى وصل إلى مواضع زويلة اليوم، قاصداً جيشه الذي غاب عنه خمسة أشهر تحت إمرة عمر بن عليّ القرشي، وزهير بن قيس البلوي »(١).

وهكذا بعد هذه المسحة العسكرية لمناطق ليبيا والتي استغرقت من عقبة ومن معه حوالي نصف سنة، رجع بعدها إلى جيشه المرابط في مدينة سرت، ثم سار به إلى ناحية الغرب، وجنوب غرب ليبيا حيث فتح بلاد مزاتة، وأرسل بعدها سراياه إلي غدامس وفقصة، وسبيطلة ففتحوها.

يقول الأستاذ الطاهر الزاوي في ذلك:« وواصل - عقبة - سيره حتى وصل إلي معسكره غدامس بأرض سرت بعد أن غاب عنهم خمسة أشهر، ولم يلبث عقبة أن توجه إلى إفريقية، واتخذ له طريقاً غير الطريق الساحلي جنوبي جبل نفوسة، وأرسل خيلاً إلى غدامس ففتحها، وواصل سيره إلى إفريقية(٢).

(١) ليبيا من الفتح العربي، (ص٦١،٥٢).
(٢) تاريخ قادة فتح المغرب العربي (١/ ١٠٤).

المبحث الثاني

تأسيس أول مدينة إسلامية في الشمال الإفريقي

وهكذا وصل عقبة بن نافع سيره حتى وصل القيروان، وهناك رأى ضرورة إنشاء قاعدة أمنية للمسلمين تكون لهم مقراً ينطلقون منه لقتال أعداء الإسلام، وملجأ للراحة والتقاط الأنفاس، وترتيب الأمور، إلا أنه لم يعجبه المكان الذي اختاره معاوية بن حديج من الناحية العسكرية الأمنية، فقرر المسير إلي موضع مناسب عسكرياً، وأمنيًا واقتصادياً، فكان ذلك الموضع المختار لمدينة القيروان الحالية، التي كان تسكنها الحيوانات المفترسة، والوحوش الضارية آنذاك، حتى استنكر عليه بعض من رجاله في اختياره ذلك المكان الموحش !! .

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب:

« إن رجاله قالوا له : إنك أمرتنا بالبناء في شعاب وغياض لا ترام ، ونحن نخاف من السباع والحيات وغير ذلك من دواب الأرض، وكان في عسكره خمسة عشر رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ وسائر ذلك تابعون، فدعا الله عز وجل ، وجعل أصحابه يؤمنون على دعائه.

ومضى إلي السبخة وواديها ونادى: « أيتها الحيات والسباع، نحن أصحاب رسول الله ﷺ ، فارتحلوا عنا فإنا نازلون، ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه » ونظر الناس بعد ذلك إلى أمر عجب، فقد جعلت السباع تخرج من الشعاب تحمل أشبالها، والذئب يحمل جروه، والحيات تحمل أولادها، ونادى في الناس: « كفوا عنهم حتى يرتحلوا عنا » ، فلما خرج ما فيها من الوحوش والهوام، وهم ينظرون إليها نزل عقبة الوادي وأمرهم أن يقطعوا الشجر » (١) .

---

(١) تاريخ قادة فتح المغرب العربي (١/ ١٠٤).

فلما فرغ عقبة بن نافع من تشييد أول صرح إسلامي في الشمال الإفريقي، أردفه بمسجد كبير جعله منارة للعلم، وقبلة لطلاب العلوم الإسلامية، وملتقى للدعاة والعلماء المجاهدين، وكان ذلك(سنة ٥٥هـ) ، وبعد ذلك تفرغ أكثر لفتح ما بعد القيروان من مدن المغرب العربي، ومطاردة فلول الروم والبربر الذين لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر، وسوف نتناول هذه الفتوحات في المباحث القادمة إن شاء الله بشئ من التفصيل.

المبحث الثالث

فاتح المغرب في سطور

المطلب الأول

اسمه، ونسبه، ومولده، ونشأته

اسمه ونسبه:

هو عقبة بن عبد القيس بن عامر بن أمية بن الضرب بن الحارث بن فهر القرشي أبوه، نافع بن عبد القيس الفهري أسلم وكان مع عمرو بن العاص في فتح مصر وبعثه عمرو إلى برقة، وقد بقي إلي خلافة عثمان بن عفان ﷺ وأمه سبية من «عنزة» اسمها النابغة: فهو أخو عمرو بن العاص لأمه، وفي رواية أنه ابن خالة عمرو بن العاص، وفي رواية: أن عمرو بن العاص خاله، وفي رواية أنه ابن أخ العاص بن وائل السهمي لأمه، وعلى كل فعقبة من أقرباء عمرو بن العاص من جهة الأم أولاً: ومن جهة الأب أيضاً على اعتبار أنهما من قريش.

مولده ونشأته:

ولد عقبة قبل الهجرة بسنة واحدة، لذا فقد كانت نشأته في بيئة إسلامية خالصة، ذات طابع عسكري بحت، فحمل سلاحه مجاهداً في العصر الذهبي للفتح الإسلامي الخالد، وبرز في ساحات القتال متحملاً قسطه الأوفى من الجهاد بحرص واندفاع، وتجرد وإقدام، فقد ولد على عهد رسول الله ﷺ ولا تصح له صحبة، ويقال له صحبة وعلي كل حال فهو صحابي بالمولد وهو آخر من ولي المغرب من الصحابة، وقد تولى من صلب القيادة في أيام عمر بن الخطاب الذي لا يولي إلا الصحابة ولا يرضى أبداً أن يعمل صحابي تحت قيادة غير صحابي.

لقد تهيأ الجو المناسب والظروف المناسبة والبيئة المناسبة لعقبة، فاجتمع في تكوينه: الطبع الموهوب، والعلم المكتسب، ليكون قائداً من ألمع قادة الفتح الإسلامي على الإطلاق خاصة في مناطق المغرب العربي [١].

المطلب الثاني

استشهاده

رجع عقبة إلي القيروان، فلما انتهى إلى ثغر أفريقية وهي طبنة أذن لمن معه من أصحابه أن يتفرقوا ويقدموا القيروان أفواجاً ثقة منه بما نال من العدو وأنه لم يبق أحد يخشاه، ومال عقبة بخيل يسيرة يريد « تهودة » وكان معه حوالي ثلاثمائة فارس، فلما رآه الروم في قلة طمعوا فيه، فأعلوا الحصن وشتموه وهو يدعوهم إلى الإسلام، فلم يقبلوا منه، وبعث الروم إلى « كسيلة » الذي كان في عسكر عقبة مضمراً الغدر، فلما أرسل إليه الروم أظهر ماكان يضمره، جمع أهله وبني عمه، وقصد عقبة، فقال أبو المهاجر: عاجله قبل أن يقوى جمعه، وكان أبو المهاجر موثقاً في الحديد مع عقبة، فزحف عقبة على كسيلة، فتنحى كسيلة عن الطريق ليكثر جمعه، فلما رأى أبو المهاجر ذلك تمثل بقول أبي محجن الثقفي:

كفى حزناً أن ترتدي الخيل بالقنا ... واترك مشدوداً عليَّ وثاقيا
إذا قمت عناني الحديد وأغلقت ... مصارع دوني قد تصم المناديا

فبلغ عقبة ذلك، فأطلقه وقال له: الحق بالقيروان بالمسلمين وقم بأمرهم، وأنا أغتنم الشهادة، فلم يفعل، وقال: وأنا أيضًا أريد الشهادة ، وكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم، وتقدموا إلى البربر وقاتلوهم، فقتل المسلمون جميعهم ومعهم عقبة، وقتل معه زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين في

(١) المرجع السابق: (١ / ٩٠،٩١،٩٢،٩٣،٩٤).

أرض الزاب بتهودة.

وهكذا كان استشهاد عقبة بن نافع رضي الله عنه سنة ثلاث وستين هجرية ٦٨٣م، في معركة تهودة ، وكان مولده قبل الهجرة بسنة واحدة كما أسلفنا (سنة ٦٢١م) وقبره يُزار بالزاب ، كما أن أجداث الصحابة الشهداء الذين استشهدوا معه بمكانهم من أرض الزاب يُزارون لهذا العهد ، وقد جعل على قبورهم أسنمة ثم جصصت ، واتخذ على المكان مسجد عُرِفَ باسم عقبة، وهو في عداد المزارات [١] .

ولاريب أن ما أحدثه هؤلاء المعاصرون على قبور أولئك المجاهدين من الصحابة يعتبر انحرافاً واضحاً عن عقيدة عقبة وأصحابه رضي الله عنهم التي من أجلها أتوا من الجزيرة العربية إلى إفريقيا وقاتلوا وقتلوا فيها، لأنه كما لا يخفى أن أصل انحراف الأمم السالفة كان مرده إلى الغلو في صالحيهم، فقد جاء في الحديث الصحيح عن عائشة أن أم سلمة رضي الله عنها ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها وما فيها من الصور، فقال ﷺ : « **أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله** »

ويقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ بهذا الصدد :

« وهذه الأصنام كانت قبور ناس صالحين لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم، وما زال الشيطان يوحي إلى عباد القبور، ويلقي إليهم أن البناء والعكوف عليها من محبة أهل القبور من الأنبياء والصالحين، وأن الدعاء عندها مستجاب، ثم نقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء بها، والإقسام على الله به، فإن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه.

---

(١) المرجع السابق: (١/ ١١١-١١٢) .

فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعائه وعبادته، وسؤاله الشفاعة من دون الله واتخاذ قبره وثناً تعلق عليه القناديل والستور، ويطاف به ويستلم ويحج إليه ويذبح عنده، فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلي دعاء الناس إلي عبادته، واتخاذه عيداً ومنسكاً، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم وكل هذا مما قد علم بالضرورة من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث به رسول الله ﷺ (١) .

---

(١) فتح المجيد: (١٨٦) .

المبحث الرابع

مناقبه رضي الله عنه

إن عقبة بن نافع رضي الله عنه قد تولى مناصب قيادية جهادية في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصاحب في تلك المناصب القيادية قادة أجلاء أمثال القائد البارع عمرو بن العاص رضي الله عنه في فتوحاته لأرض مصر وطرابلس، وكذلك صاحب عبد الله بن أبي السرح، ومعاوية بن حديج في معاركهم في إفريقيا، وأخيراً قاد زمام المعارك والفتوحات في الشمال الإفريقي بنفسه، فجعله الله سبحانه وتعالى سبباً مباشراً في تثبيت دعائم الإسلام في تلك المناطق، فهل يا ترى يعرف أبناء هذه الشعوب «مصر، وليبيا، والسوادان، وتونس، والمغرب، وموريتانيا» فضائل هذا القائد المبارك الذي بذل روحه وكل مايملكه من أجل إيصال دعوة الإسلام إليهم؟ لذا نحاول أن نتناول بإيجاز ذكر بعض مناقبه وعملياته الجهادية، ومسيرته الدعوية وصفاته القيادية.

المطلب الأول

جهاده في مصروليبيا والنوبة

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب:

﴿ أ ﴾ شهد عقبة فتح مصر تحت لواء عمرو بن العاص واختط بها أول صرح إسلامي في الشمال الإفريقي كما أسلفنا، فاكتسب عقبة من معارك فتح مصر ومن أساليب عمرو بن العاص في إدارة القتال خبرة عملية وبرزت مواهبه القيادية بصورة مبكرة حينذاك.

﴿ ب ﴾ بعثه عمرو بن العاص على رأس جيش من المسلمين إلى «زويلة»

ففتحها صلحاً وصار ما بين برقة و« زويلة » سلماً للمسلمين ، وكان ذلك سنة إحدى وعشرين هجرية ، وقد كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يعلمه : أنه قد ولى عقبة بن نافع الفهري المغرب، فبلغ « زويلة »، وأن من بين « زويلة » و« برقة » سلم كلهم حسنة طاعتهم، وقد أدى مسلمهم الصدقة، وأقر معاهدهم بالجزية ، وأنه قد وضع على أهل « زويلة » ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه، وأمر عماله جميعاً أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها على الفقراء، ويأخذوا الجزية من أهل الذمة، فتحمل إلى مصر، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العُشر ونصف العشر ومن أهل الصلح صلحهم.

﴿ جـ ﴾ وفي هذه السنة، أي سنة إحدى وعشرين هجرية ، بعثه عمرو إلى النوبة فلقي المسلمون من « النوبة » قتالاً شديداً، ثم انصرف المسلمون من « النوبة »،وبذلك كان عقبة أول من مهد لفتح « النوبة » من المسلمين.

﴿ د ﴾ لقد قدر عمرو بن العاص أهمية الحدود الغربية والجنوبية لمصر، لذلك بعث عقبة إلى « زويلة » وسار هو إلى « ليبيا »، وبعث عقبة إلى « النوبة » وبذلك كان لعقبة فضل كبير في تأمين الحدود الغربية والجنوبية لمصر.

﴿ هـ ﴾ وحين كان عمرو بن العاص على مصر، كان عقبة على رأس المسلمين في حامية « برقة » وعزل عثمان بن عفان عمرو بن العاص عن مصر سنة خمس وعشرين وعقد عثمان لعبد الله بن سعد بن أبي السرح على مصر كلها مضافاً « للصعيد » وغيره، فأقره ابن أبي السرح على منصبه قائداً لحامية « برقة ».

﴿ و ﴾ سار عبد الله بن أبي السرح بجيشه الذي بلغ تعداده عشرين ألفاً، سنة ست وعشرين هجرية ، فلما وصلوا إلى « برقة » لقيهم عقبة فيمن معه من المسلمين الذين كانوا حامية هناك، فساروا جميعاً إلى « طرابلس » الغرب

فقاتلوا مَنْ عندها مِنَ الروم وشهد عقبة فتوحات ابن أبي السرح في إفريقية، وأبلى في جهاده تحت راية ابن أبي السرح أعظم البلاء.

﴿ ز ﴾ لقد كان عقبة على رأس حامية «برقة»، يحمي الحدود الغربية لمصر، فلا يدع الروم يهاجمون مصر من اتجاه ليبيا، وقد حافظ على تلك المنطقة حتى في أخطر الظروف والأحوال.

كما أنه حمى «برقة» من الروم، فأصبحت تلك المنطقة القاعدة المتقدمة للمسلمين التي ينطلقون منها إلى فتح «إفريقية» لذلك كان عقبة قد قدم فائدة عظيمة للمسلمين من الناحية العسكرية.

المطلب الثاني

جهاده في البحر

﴿ أ ﴾ بقي عقبة في «برقة» بعد ابن أبي السرح أيضاً في أيام معاوية بن حديج السكوني، وفي سنة تسع وثلاثين هجرية غز عقبة الروم في البحر بأهل مصر.

﴿ ب ﴾ وفي سنة تسع وأربعين هجرية في أيام معاوية بن حديج السكوني غزا عقبة الروم في البحر، فقضى الشتاء هناك بأهل مصر.

المطلب الثالث

جهاده في ليبيا

الفتح: بقي عقبة في «برقة» بعد عثمان بن عفان، وفي أيام عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ﷺ، وفي سنة إحدى وأربعين هجرية، استعمل عمرو بن العاص عقبة على «إفريقية» فانتهى إلى «لواتة»، وكانوا قد صولحوا

على صلحهم حتى نقضوا ذلك زمن معاوية بن أبي سفيان، فغزاها عقبة فتنحوا ناحية «طرابلس»، فقاتلهم عقبة حتى هزمهم، فسألوه أن يصالحهم ويعاهدهم، فأبى عليهم وقال: إنه ليس لمشرك عهد عندنا، إن الله عز وجل يقول في كتابه: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ [التوبة:٧]، ولكن أبايعكم على أنكم توفوني ذمتي، إن شئنا أقررناكم وإن شئنا بايعناكم وعقد عمرو لعقبة على «هوارة» فأطاعوا هم و«لواتة» ثم كفروا، فغزاهم عقبة من سنته فقتل وسبي، وفي سنة اثنتين وأربعين هجرية افتتح عقبة «غدامس» وقتل وسبي.

وفي (سنة ثلاث وأربعين الهجرية) افتتح «ودان» ثانية وهي من «برقة» وذلك سنة ست وأربعين الهجرية، فقد خرج عقبة في هذه السنة حتى نزل «مغداش» من «سرت» وكانت «ودان» نقضت عهدها الذي عاهدت عليه بسر بي أبي أرطأة سنة ثلاث وعشرين الهجرية، فترك عقبة جيشه في «مغداش» في أرض «سرت»، وخلف عليهم عمر بن على القرشي، وزهير بن قيس البلوي، وسار إلى «ودان» في أربعمائة فارس، وأربعمائة جمل، وثمانمائة قربة ماء: على كل جمل قربتان لحمل الماء، فلما وصلها أبي أهلها إلا العصيان، وعدم الطاعة، فحاربهم عقبة حتى أخضع البلاد بلداً بلداً ..

ولما استتب الأمر لعقبة في بلاد «ودان» سأل عقبة أهلها: هل من ورائكم من أحد؟ فقالوا له: جرمة، فسار إليها ثماني ليال من «ودان»، فلمادنا منها دعا أهلها إلى الإسلام فأجابوا فنزل منها على ستة أميال ، وخرج ملكهم يريد عقبة، فأرسل عقبة خيلاً فحالت بين ملكهم وبين موكبه ، فأمشوه راجلاً حتى أتى عقبة وقد لغب، وكان ناعماً، فجعل يبصق الدم، فقال له : لم فعلت هذا بي وقد أتيتك طائعاً ؟ ، فقال عقبة: أدباً لك إذا ذكرته لم تحارب المسلمين، وفرض عليه ثلاثمائة وستين عبداً.

ومضى من فوره لإنجاز فتح بلاد « فزان » حتى أتى على آخرها ، ونشر الإسلام

في ربوعها ، وهذه أول مرة دخل فيها المسلمون بلاد « فزان » فاتحين ، وسأل عقبة أهل فزان هل من ورائكم أحد ؟ فقالوا : أهل خاور ، وهو قصر عظيم على رأس المفازة في وعورة على ظهر جبل ، وهو قصبة كاوار ، فسار إليه خمس عشرة ليلة ، فلما وصل إليها دعا أهله إلى الإسلام ، فأبوا ، وطلب منهم الجزية فامتنعوا بحصنهم فحاربهم وأقام عليهم وحاصرهم شهراً دون جدوى ، وتقدم بجيشه جنوبًا لفتح بقية بلاد كاوار ، ففتحها حتى أتى على آخرها وقبض على ملكهم وقطع إصبعه ، فقال : لِمَ فعلت هذا بي ؟ فقال عقبة : أدبًا لك إذا أنت نظرت إلى أصبعك لم تحارب المسلمين ، ثم فرض عليهم ثلاثمائة وستين عبداً .

ولقد أقدم عقبة على التغلغل في الصحراء بقوات قليلة خفيفة، لأن الحركة في الصحراء صعبة جداً بقوات كبيرة لقلة الماء فيها، ولأن قوات الروم النظامية لن تستطيع القتال في مثل هذا الميدان، وإنما ميدانها المناطق الساحلية التي تتوفر فيها المياه والقضايا الإدارية الأخرى، فليس أمام عقبة غير قوات سكان الصحراء الأصليين، هؤلاء قليلون يمكن التغلب عليهم بقوات خفيفة قليلة كما فعل عقبة ... ذلك ما حدا بعقبة على الإقدام لفتح تلك المناطق الصحراوية بقوات خفيفة منتخبة، فعلاً انجز واجبه وحقق هدفه في الفتح الصحراوي بسهولة ويسر.

وسار عقبة بجيشه إلى المغرب، وجانب الطريق الأعظم وأخذ إلى أرض « هوارة » فافتتح كل قصر بها، ومضي إلى « صفر »، فافتتح قلاعها وقصورها، ثم بعث خيلاً إلى « غدامس » فاستعاد فتحها ثانية، والظاهر أنها نقضت عهدها بعد فتحها الأول، فاضطر عقبة إلى فتحها ثانية وتوجه إلى « قفصة » فافتتحها، ثم افتتح « قسطيلة » ثم انصرف إلى القيروان.

لقد طهر عقبة بهذا الفتح كل المقاومات المعادية بين « برقة »، و« القيروان »، فأصبحت هذه المنطقة خالصة للمسلمين ، حَرِية أن تكون قاعدة رصينة تنطلق منها القوات الإسلامية لفتح شمال إفريقية حتى المحيط الأطلسي.

المطلب الرابع

تأسيسه أول مدينة إسلامية في الشمال الإفريقي

واخيراً:

قد واصل عقبة بن نافع ﷺ حملته الطويلة والشاقة في تلك الصحاري الحارة، التي قد بذل فيها الغالي والنفيس من أجل إخراج أهالي تلك المناطق من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام يبتغي بذلك وجه الله سبحانه.

أقول: لقد وصل هذا البطل أخيراً إلى القيروان القديم الذي كان في مدينة قمونية،حيث بناه معاوية بن حديج ﷺ فلما نظر إلي الموقع من الناحية الاستراتيجية، لم يعجبه اختيار هذا الموقع الذي كان يقع في الوسط الشرقي لإفريقية حيث لم يكن ضارباً في الجهة الشمالية فيكون في منعة جبلية، ولا ضارباً في الجهة الجنوبية فيكون في منعة رملية !!.

لذا قرر هذا القائد صاحب النظرة الاستراتيجية بأن يختار موقعاً استراتيجيًا ، بحيث يكون دار منعة وعزة للمسلمين وأهلهم، وقاعدة حربية لغزو القواعد الصليبية في عقر دارها، ويكون قاعدة علمية فقهية جهادية حركية لتوريث الدين القيم لمن أسلم من أبناء الشمال الإفريقي أو الجنوب الأوروبي وتثبيت دعائمه حتى لا يرتد أهالي هذه المناطق لجهلهم بالدين وتعاليمه .

فكان له خططه ، فقد وقع اختياره على مدينة القيروان الحالية التي تقع قريبة من ساحل البحر الأبيض المتوسط حيث يمكنه رصدالأعداء الصليبيين ومطاردتهم ، ثم قربها إلى ناحية الأرض وبها سبخة ، حيث يوجد بها كميات كبيرة من الأعشاب والأشجار التي تأكلها الإبل ، وبهذا يكون قد أمن القضية الغذائية .

يذكر الأستاذ محمود شيت خطاب قول عقبة لرجاله: «إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه للإسلام، فإذا تركها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلي الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا مدينة عز للإسلام إلى آخر الدهر»، فاتفق الناس على ذلك، وأن يكون أهلها مرابطين قرب البحر ليتم لهم الجهاد والرباط.

وقال لعقبة بعض أصحابه: قربها من البحر ليكون أهلها مرابطين، فقال لهم: إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية فيهلكها، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها معه صاحب البحر، لأن صاحب المركب لا يظهر من اللجة حتى يستره الليل، فهو يسير إلى ساحل البحر إلى نصف الليل، فيخرج فيقيم في غارته إلى نصف النهار، فلا تدركها منه غارة أبداً، فإن كان بينها وبين البحر ما لايجب فيه التقصير، فأهلها مرابطون، ومن كان على البحر فهم حرس لهم، وهم عسكر معقود إلى آخر الدهر، وميتهم في الجنة.

فاتفق رأيهم على ذلك فقال: قربوها من السبخة، فقالوا: إنا نخاف أن تهلكنا الذئاب ويهلكنا بردها في الشتاء، وحرها في الصيف، فقال: لا بد لي من ذلك، لأن أكثر دوابكم من الإبل، وهي التي تحمل عسكرنا، والبربر قد تنصروا وأجابوا النصارى إلى دينهم، ونحن إذا فرغنا من أمرها لم يكن لنا بد من المغازي والجهاد، ونفتح الأول منها فالأول، فتكون إبلنا على باب مصرنا في مرعاها آمنة من غادرة البربر والنصارى، فركب إلى موضع القيروان اليوم وكان غيضة كثيرة الأشجار مأوى الوحوش والحيات، فأمر بقطع ذلك وإحراقه.

وكان مع عقبة عشرة آلاف فارس، وانضاف إليه من أسلم من البربر فكثر جمعه فأمر ببناء القيروان سنة خمسين الهجرية، وأنجز بناءها سنة خمس وخمسين الهجرية، وبنى المسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم، ومساكنهم، وكان محيطها ثلاثة آلاف وستمائة باع، فأصبحت المدينة معسكراً للمسلمين وأهلهم وأموالهم يأمنون من ثورة تكون من أهل البلاد، فقوي جنان من هناك

من الجنود بمدينة القيروان، وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها، وكان عقبة في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا فتغير وتغنم، ودخل كثير من البربر في الإسلام، واتسعت خطة المسلمين ، ورسخ الدين ، وصارت القيروان مدينة كبيرة وعاصمة الإسلام في المغرب، وأصبحت القيروان القاعدة الأمنية للمسلمين في شمال إفريقية» (١) .

المطلب الخامس

جهاده من القيروان إلى المحيط

وبعد أن أصبحت القيران القاعدة الأمنية للمسلمين في شمال إفريقية، واطمأن عقبة بن نافع ﷺ على الفتوحات التي أنجزها وفق الخطة الاستراتيجية المقررة لفتح الشمال الإفريقي، وحيث كانت بدايتها فتح برقة وسرت شرقاً، وزويلة وغدامس جنوباً، ومروراً بطرابلس، وسبيطلة غرباً، وأخيراً وقوفًا بالقيروان قلب الشمال الإفريقي، حيث أسس أول مدينة إسلامية في المنطقة.

وهكذا جد السير بالقائد المبارك لتنفيذ الخطة المرسومة، فقد جهز الجيش، واستخلف على المدينة زهير بن قيس البلوي ﷺ إلا أن عقبة الرجل الشهيد ﷺ قد أحس بأن هذه المعارك التي يريد أن يخوضها هي آخر عهده بدنيا الناس، لذلك رأى أن يجمع أهله وأولاده يلقي عليهم آخر نظرة، ويوصيهم وصية مودع، فقال لهم بعد أن جمعهم:

وصية مودع :

وهذا نص الوصية كما نقلها بن عذارى: « فدعا بأولاده قبل مغادرته القيروان، وقال لهم: إني قد بعت نفسي من الله عز وجل، فلا أزال أجاهد من

---

(١) المرجع السابق: (١/ ١٠٥، ١٠٦).

كفر بالله ، ثم قال: يا بني أوصيكم ثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها، إياكم أن تملئوا صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن، فإن القرآن دليل على الله عز وجل، وخذوا من كلام العرب ما يهتدي به اللبيب، ويدلكم على مكارم الأخلاق، ثم انتهوا عما وراءه، وأوصيكم ألا تداينوا ولو لبستم العباء، فإن الدَّيْنَ ذلٌّ بالنهار وهم بالليل، فدعوه تسلم لكم أقداركم ، وأعراضكم، وتبق لكم الحرمة في الناس ما بقيتم ، ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيجهلوكم دين الله، وفرقوا بينكم وبين الله تعالى، ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط، فهو أسلم لكم، من احتاط سلم ونجا فيمن نجا، ثم قال: عليكم سلام الله، وأراكم لاتروني بعد يومكم هذا، ثم قال: « اللهم تقبل نفسي رضاك ، واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك » (١) .

يا خيل الله اركبي :

يقول الأستاذ خطاب : « وسار عقبة في عسكر عظيم حتى انتهى إلي مدينة « باغاية »، لا يدافعه أحد، والروم يهربون في طريقه يميناً وشمالاً، فحاصرها، وقد اجتمعوا بها وقاتلهم قتالاً شديداً، فانهزموا عنه وقتل فيهم قتلاً ذريعاً، وغنم منهم غنائم كثيرة، واحتمى بها المنهزمون داخل أسوار المدينة ، فكره المقام عليهم.

ورحل عقبة فنزل على تلمسان، وهي من أعظم مدائنهم فانضم إليها من حولها من الروم، والبربر، فخرجوا إليه في جيش ضخم، والتحم القتال ووقع الصبر، حتى ظن المسلمون أنه الفناء، ولكنهم هاجموا الروم هجوماً عنيفاً، حتى ألجأوهم إلى الزاب، فسأل عن أعظم مدينة في بلاد الزاب، فقيل له: « أربة » وهي دار ملكهم، وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية كلها عامرة، فامتنع بها من هناك

(١) البيان المغرب :(١ / ٢٣) .

من الروم والنصارى ، وهرب بعضهم إلى الجبال، فاقتتل المسلمون ومن بالمدينة من النصارى، ثم انهزم النصارى وقتل كثير من فرسانهم.

ورحل عقبة إلى « تاهرت » فاستغاث الروم بالبربر، فأجابوهم ونصروهم، فقام عقبة في الناس خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: « أيها الناس إن أشرافكم وخياركم الذين ﷺ وأنزل فيهم كتابه، بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان على قتال من كفر بالله إلى يوم القيامة، وهم أشرافكم والسابقون منكم إلي البيعة، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة، أنتم اليوم في دارغربة ، وإنما بايعتم رب العالمين ، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلباً لرضاه وإعزازاً لدينه ، فأبشروا فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى، وربكم عز وجل لا يسلمكم، فالقوهم بقلوب صادقة، فإن الله عز وجل جعل بأسه على القوم المجرمين »، والتقى المسلمون بأعدائهم وقاتلوهم قتالاً شديداً، فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة العدو، ولكنهم انتصروا أخيراً، فانهزمت الروم البربر، وأخذهم بالسيف وكثر فيهم القتل، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم.

وسار عقبة حتى نزل على طنجة، فلقيه بطريق من الروم اسمه « يليان » فأهدى له هدية حسنةونزل على حكمه، وأراد عقبة فتح الأندلس، وفقال له يليان: اتترك كفار البربر خلفك، وترمى بنفسك في بحبوحة الهلاك مع الفرنج، وتقطع البحر بينك وبين المدد؟! فقال عقبة: وأين كفار البربر؟ فقال: في بلاد السوس وهم أهل نجدة وبأس، فقال عقبة: وما دينهم؟ فقال: ليس لهم دين ولا يعرفون أن الله حق، وإنما هم كالبهائم، وكانوا على دين المجوسية يومئذٍ، فتوجه عقبة، فنزل على مدينة وليلي بإزاء جبل « زرهون »، وهي يومئذٍ من أكبر مدن المغرب فيما بين النهرين العظيمين « سبو – رزغة » وهذه المدينة هي المسماة اليوم على لسان العامة بـ« قصر فرعون »، فافتحها عقبة وغنم وسبى .

وانتهى عقبة إلى « السوس الأدنى » وهو مغرب طنجة، فقاتل جموع البربر الكثيرة، وقتل منهم قتلاً ذريعًا ، وبعث خيله في كل مكان هربوا إليه، ثم سار حتى وصل إلى السوس الأقصى، وقد اجتمع له البربر في عالم لا يحصى، فلقيهم وقاتلهم وهزمهم وسار عقبة حتى بلغ « ماليان »، ورأى البحر المحيط، فقال: « يارب، لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك ، ثم قال: اللهم اشهد، إني قد بلغت المجهود ، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد من دونك » [١] .

تأمل هذه العبارات المشحونة بحب الله ورسوله، وبروح المعاني الجهادية ، وبحرارة الشهادة، وحيوية عبودية الله سبحانه وتعالى وتوحيده ، فقد استشهد قائدنا عقبة بن نافع رضي الله عنه بعدما قال هذه الكلمة التي تكتب بماء الذهب وهو حينذاك ينظر إلى المحيط الهادي ، وكان ذلك سنة ثلاث وستين الهجرية ، (٦٨٣م) في معركة تهودة.

---

(١) المرجع السابق: (١ / ١١٠، ١١١) .

المبحث الخامس
أهم صفاته القيادية

لقد كان عقبة بن نافع ﷺ مثلاً في العبادة، والأخلاق، والورع، والشجاعة والحزم، والتخطيط، والتفكير الاستراتيجي، مما جعل أراء المسلمين في عهود مختلفة لا يبغون عنه حولاً في تسلم مناصب حربية كبيرة جداً لقيادة أحذر المعارك في الشمال الإفريقي وغربه،فقد قاد حملة تأمينية على برقة لتأمين الحدود الغربية لمصر، وكان ذلك في عهد عمر بن الخطاب ﷺ وأوائل عهد عثمان بن عفان ﷺ وقاد حملة على إفريقية في عهد عمرو بن العاص، وعلى طرابلس في عهد عبد الله ابن أبي السرح، وبقي قائداً عليهما حتى عهد عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ﷺ لذا سوف نتناول في شخصية عقبة بن نافع أهم صفاته القيادية ومبادئه العسكرية التي أسس بنيانها في معاركه الجهادية المباركة.

المطلب الأول
صفاته القيادية

لقد ذكر الأستاذ محمود شيت خطاب أهم صفات عقبة ﷺ القيادية حيث قال: «كان عقبة يؤمن أن رأس سلاحه في حربه تقوى الله وحده وكثرة ذكره، والاستعانه به، والتوكل عليه، والفزع إليه وسؤاله التأييد والنصر والسلامة والظفر، وكان يؤمن أن النصر من الله جل ثناؤه، وكان يعتقد أن الانتصارات الإسلامية هي انتصارات عقيدة يحملها إلى العالم مؤمنون صادقون، ويذود عنها حماة قادرون، وكان يحب رجاله ويحبونه، ويثق بهم ويثقون به، وقد بلغت ثقتهم حدًّا جعلهم يعتقدون أنه مجاب الدعوة ، فكان يتفقد أصحابه فيما يعود

عليهم بالنفع ، ويستزيد محسنهم بالتكرمة ، ويغض الطرف عن مسيئهم في الأمور الطفيفة غير ذات البال، ويستعتب مقصرهم بحسن الأدب استعتاب مستعتب له، غير مغتنم للزلة ولا متعرض للعثرة ولا مستريح إلى كشف غامض للعورة » (١) .

ويقول أيضاً: « كان ميمون النقيبة، كامل العقل، طويل التجربة، بعيد التصوب، بصير بتدبير الحرب ومواضعها، ومواضع الفرص والحيل والمكايدة، يحسن تعبئة الخاصة ، ويدخل الأمن عليهم والخوف على عدوهم، مع طلب السلامة لنفسه وأصحابه من العدو، وكان حسن السيرة عفيفاً صارماً ، متيقظاً سخيّاً ... وكانت له قابلية على إصدار القرارات السريعة الصائبة، ذا إرادة قوية ثابتة ، وشخصية رصينة متزنة، يتحمل مسئوليته كاملة بلا تردد ، وله نفسية لا تتبدل في حالتي النصر والاندحار يعرف نفسيات مرءوسيه وقابليتهم ، وله ماضٍ ناصع مجيد » (٢) .

المطلب الثاني
أهم مبادئه العسكرية الاستراتيجية

لا يخفى أن تفرغ عقبة بن نافع للعمل الجهادي، وما كان يتمتع به من صفاته القيادية، وكفايته ومقدرته العسكرية مما جعله صاحب نظرية في المبادئ الاستراتيجية كمبدأ المباغتة وتحشيد القوات، والاقتصاد في المجهود، والالتفاف والمحافظة والمعنويات، والأساليب التعريضية، وإقامة المسالح، وتأمين خطوط المواصلات، وتذليل الأمور الإدارية، استخدام القواعد الأمنية والاستخبارية، والاستطلاعية، كل ذلك كان يطبقه في أعماله الجهادية وفتوحاته الإسلامية.

(١) قادة فتح بلادالمغرب (١/١٠٧).
(٢) المرجع السابق: (١/١٣٣).

وينص اللواء الركن محمود شيت خطاب لما قررناه من مبادئ استراتيجية في أعمال عقبة الجهادية وفتوحاته الإسلامية: « وعند تطبيق أعماله العسكرية على مبادئ الحرب، نجد أنه طبق مبدأ المباغتة في حروبه، وكانت حروبه تعرضية، يعمل على « تحشيد قواته » قبل المعركة، ويقتصد بالمجهود، ويطبق مبدأ « الأمن » ويعمل على « إدامة المعنويات » ويذلل « الأمور الإدارية » كافة لقواته، ويحسب لها أدق حساب ، لقد كان عقبة من ألمع القادة الممتازين الذين برزوا في الصدر الأول من أيام الفتح الإسلامي » (١) .

ويقول في موضع آخر: « وبدون مبالغة ولا تحيز، فإنه في خلال هذه الفترة القصيرة، قد حقق – عقبة – أعمالاً عسكرية باهرة بلغت حد الروعة والإعجاز، لقد انطلق بكل اندفاع وحماسة لتحقيق الآمال ، آماله في فتح إفريقية من القيروان ، حتى المحيط الأطلسي، وأنجز ذلك في وقت قد لا يصدقه العقل عند دراسته من الناحية العسكرية البحته » (٢) .

---

(١) المرجع السابق (١/ ١٣٤) .

(٢) المرجع السابق (١/ ١٣٤) .

الفصل السادس
قادة فتح المغرب الأوسط والأقصى

المبحث الأول
أبو المهاجر دينار

لا ريب أن أبا المهاجر دينار بن أبي دينار، قد كان من ضمن قيادات عقبة بن نافع الميدانية، التي قامت بحمل أعباء فتح المغرب الأدنى، والأوسط، والأقصى، مع عقبة بن نافع، وبعد أن عزل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه عقبة خلال ولايته على إفريقية سنة خمس وخمسين هجرية ، تم تعيين التابعي أبي المهاجر دينار بن أبي دينار رحمه الله من قبل والي مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري والياً على إفريقية، إلا أن معاوية خليفة المسلمين بعد برهة من الزمان أعاد عقبة حيث كان، وأصبح أبو المهاجر عند ذلك جندياً من جنود عقبة بن نافع في حملته المباركة على الشمال الإفريقي.

إذن من هو أبو المهاجر ؟ ، وما هي أبرز معالمه في فترة ولايته وما بعدها؟ ، وما هي أهم صفاته القيادية ؟ ، وكيف قضى نحبه؟ ، كل ذلك سوف نتناوله بشيء من الإيجاز في هذا المبحث وتلك المطالب.

المطلب الأول
جهاده في فترة ولايته

لا يخفى أن أبا المهاجر دينار بن أبي دينار كان يمتاز بمزايا عسكرية ميدانية عالية، وضبط إداري رفيع المستوى، وخبرة بطبيعة إفريقية كافية، كما جعلت مسلمة بن مخلد والي مصر يختاره لهذا المنصب الخطير، ويعقد له لواء الحملة.

ويقول اللواء الركن محمود شيت خطاب: « عقد مسلمة بن مخلد لأبي المهاجر على الجيش الذي خرج معه إلى إفريقية، وبعد إنجاز أبي المهاجر تدابيره الإدارية وإعداده خطط الفتح، سار بجيشه إلى قرطاجنة عاصمة الروم في شمال إفريقية، لأن الروم لا زالوا قوة في ساحل المغرب من بنزرت إلى طنجة ، وأن هذا الساحل الخصب المتحضر هو مرتعهم وموطنهم، فلابد من تطهير تلك المناطق منهم ليتخلص المسلمون نهائيّاً من مستعمري إفريقية القدامى، وليحولوا بينهم وبين إشاعة التآمر والدس على الفتح الإسلامي.

ونازل أبو المهاجر « قرطاجنة » فاستغلقت وتحصنت بالأسوار العالية، فشدد أبو المهاجر عليهم الحصار، ولما علموا بأن المسلمين لن يبرخوا حتى يحققوا هدفهم بفتح قرطاجنة ، طلبوا الصلح، فصالحهم أبو المهاجر بإخلاء جزيرة « شريك » التي كان الروم يتخذونها دوماً مثابة لحشد جيوشهم فيها قبل مهاجمة المسلمين، وذلك لكي يتخذها أبو المهاجر قاعدة أمامية لجنوده يرتكز في عملياته العسكرية عليها وبهذا أثبت أبو المهاجر بأنه ينظر بعيداً من الناحية العسكرية، فيفضل المواقع السوقية « الاستراتيجية » التي تفيده في الفتح على المال الذي كان بإمكانه أن يفرضه على أهل قرطاجنة مقابل إقرار الصلح بين الطرفين.

وفي رواية : أن أبا المهاجر بعث حنش بن عبد الله الصنعاني -صنعاء الشام- إلى جزيرة شريك ففتحها وكان هدف أبي المهاجر من فتح جزيرة شريك أن يراقب الروم ويصدهم إذا هموا بالمسير إلى المسلمين بسهولة أثناء غزوه للبلاد، لأن بإمكان قوة الروم المرابطة في تلك المنطقة أن تهدد بسهولة ويسر خطوط المواصلات لأبي المهاجر في حالة تغلغل قواته غرباً وجنوباً » (١) .

وسار أبو المهاجر مع الساحل باتجاه الغرب لا يعترض طريقه أحد، حتى وصل

---

(١) انظر : قادة فتح بلاد المغرب (١ / ١٣٩) .

« ميلة » في الجنوب الشرقي لبجاية وتبعد عنها بحوالي خمسين ميلاً، فوجدها مستعدة للقتال، وكان فيها طائفة من البربر والروم قد تحصنوا فيها، فنازلها أبو المهاجر وفتحها، وغنم ما فيها واستقر فيها، كانت « ميلة » تتوسط المغربين الأدنى والأوسط، فهي أحسن مكان يراقب أبو المهاجر منه أمور البربر والروم في تلك الأصقاع ، فجعل أبوالمهاجر ميلة مقره وأقام فيها سنتين ، وكان خلال هذه المدة يتصل بالبربر وينشر فيهم الدين، ويريهم حقيقة الإسلام.

وكانت الزعامة في المغربين الأوسط والأقصى لقبيلة أوربة لكثرة عددها وغناها وحضارتها ومناعة مواقعها، وكان رئيسها كسيلة بن لمزم الأوروبي، وكان كسيلة قوي الشخصية ذكي الفؤاد، غيوراً على وطنه، وكان البربر يحبونه ويجلونه، وكان نصرانيّاً متمسكاً بدينه، ورأى كسيلة أبا المهاجر في ميلة فعلم أنه لابد أن يسير لافتتاح المغرب الأوسط والأقصى، فذهب في المغربين الأوسط والأقصى يدعو البربر لمكافحة المسلمين والاستعداد لحربهم، وإجلائهم عن البلاد، واستطاع كسيلة أن يجمع جيشاً من البربر والروم، فسمع أبو المهاجر بجمعه، فسار إليه.

وكان كسيلة قد عسكر بتلمسان، فقصده أبو المهاجر، والتقى الجيشان هناك، فدارت المعركة حامية بينهم، فانتصر المسلمون، وأسر كسيلة، فحمل إلى أبي المهاجر، فأحسن إليه أبو المهاجر وقربه ، وعامله معاملة الملوك ، وتمكن أبو المهاجر من البلاد وظفر بكسيلة، فأظهر الإسلام فاستبقاه أبو المهاجر واستخلصه، وانتهى إلى العيون المعروفة بعيون أبي المهاجر، فهو أول أمير للمسلمين وطئت خيله المغرب الأوسط، صالح أبو المهاجر بربر إفريقية وفيهم كسيلة الأوربي، وصالح عجم إفريقية، ثم رجع إلى القيروان وأقام بها » (١) .

(١) المرجع السابق: (١/ ١٣٩، ١٤٠، ١٤١).

المطلب الثاني

استشهاده

لقد ذكر في كتب التاريخ أن عقبة بن نافع بعد رجوعه إلى ولاية إفريقية مرة ثانية ، وإزاحة أبي المهاجر عنها، قرر مواصلة الفتح من حيث توقف أبو المهاجر، وكانت آخر محطة توقف فيها أبو المهاجر أثناء حملته المباركة مدينة طنجة التي قد أسر رئيسها كسيلة، فأراد عقبة رضي الله عنه التوجه إليه بجيشه إلا أن أبا المهاجر أخبره بأن أهالي طنجة قد أسلموا، وأن قائدهم كسيلة معنا، وليس هنالك عدو لنا، إلا أن عقبة رضي الله عنه كان يخشي ارتدادا كسيلة وأهله، نظراً لتجربته الطويلة مع أهالي إفريقية في نقضهم للعهود وخيانتهم للمواثيق، ولذلك أَغَذَّ السير بعقبة نحو طنجة وما حولها.

يقول اللواء محمود شيت خطاب بهذا الصدد: « فلما انتهى إلى ثغر إفريقية وهي طبنة أذن لمن معه من أصحابه أن يتفرقوا وقدموا للقيروان فوجا صوب فوج ثقة منه بما نال من معظم الأرض ، وأنه لم يبق أحد يخشاه ومال عقبة بخيل يسيرة يريد « تهوذة » وكان معه حوالي ثلاثمائة فارس، فلما رآه الروم في قلة طمعوا فأغلقوا الحصن وشتموه، وهو يدعوهم إلى الإسلام فلم يقبلوا منهم وبعث الروم إلى « كسيلة » الذي كان في عسكر عقبة مضمراً للغدر، فلما أرسل إليه الروم أظهر ما كان يضمره وجمع أهله وبني عمه وقصد عقبة ، فقال أبو المهاجر:عاجله قبل أن يقوى جمعه ، وكان أبو المهاجر موثقاً في الحديد مع عقبة ، فزحف عقبة على كسيلة ، فتنحى كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه، فلمارأى أبو المهاجر ذلك تمثل بقول أبي محجن الثقفي:

كفى حزناً أن ترتدي الخيل بالقنا ... واترك مشدوداً عليَّ وثاقيا
إذا قمت عناني الحديد وأغلقت ... مصارع دوني قد تصم المناديا

فبلغ عقبة ذلك، فأطلقه وقال له: الحقْ بالقيروان وقم بأمر المسلمين، وأنا أغتنم الشهادة فلم يفعل ذلك، وقال: وأنا أيضاً أريد الشهادة وكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم، وتقدموا إلى البربر وقاتلوهم، فقتل المسلمون جميعهم ومعهم عقبة، وقتل معه زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين في أرض الزاب بـ« تهوذة ».

وهكذا كان استشهاد أبي المهاجر - رحمه الله - سنة ثلاث وستين الهجرية (٦٨٣م) في معركة تهوذة، وقبره إلى الآن جاثم على أرض مدينة الزاب، معلماً من معالم البطولة والتضحية في سبيل هذا الدين العظيم الذي رفع الناس من وشائج الطين، وروابط الدماء إلى قمم الروابط والوشائج.. وشيجة الدين وروابطه، فرحم الله أبا المهاجر، الذي هجر الأوطان، والإخوان والأحباب والمال والأنساب، في سبيل رفع راية **لا إله إلا الله محمد رسول الله**، في سماء الشمال الإفريقي، وغرسها في أرضية قلوب العباد في تلك البلاد، فأبو المهاجر ما فتئ يبذل فيها الغالي والنفيس حتى سقاها أخيراً بدمه الزكي، ودماء إخوانه الطيبين الأبرار، فهل يا ترى يعي أبناء هذه الشعوب أحفاد المجاهدين المتقين معاني كلمة **لا إله إلا الله محمد رسول الله**، وهل يسعون لنشرها، وهل يقدِّمونه في سبيلها الغالي والنفيس، كما فعل أسلافهم من المجاهدين والعلماء من قبل ؟! .

المبحث الثاني
أهم صفاته القيادية ومبادئه الحربية

لقد كان أبوالمهاجر رحمه الله يتحلي بصفات ومميزات لا تجدها إلا عند السادة والقادة الصلحاء، مما جعلته يصف في مصف قادة الفتح الإسلامي البارزين، ومن تلك الصفات القيادية التي كان يتحلى بها، والمبادئ العسكرية التي استخدمها في حروبه الجهادية وفتوحاته الإسلامية ما يلي:

المطلب الأول
أهم صفاته القيادية

فقد كان يتحلى بتقوى الله، والتوكل عليه، والفزع إليه مخلصاً وفيّاً شهماً غيوراً، وكان يمتاز بالحكمة وبعد النظر والتعامل مع الأحداث بسياسة حكيمة، وكان محباً لرجاله ناصحاً لهم محبوباً لديهم، حسن السيرة، عفيفاً شجاعاً سخياً، بعيد النظر، صحيح القرارات والخطط.

ويقول الأستاذ محمود شيت خطاب:

«لقد كان أبو المهاجر من أولئك القادة الذين يقاتلون بسيوفهم وعقولهم، يقاتل بسيفه عندما لا يجد مفرّاً من ذلك، ويقاتل بعقله فيعامل الناس بالحسنى وبالسياسة الحكيمة وبالمنطق السليم، وبالعقيدة البناءة المنشأ.

لقد جعل أبوالمهاجر رأس سلاحه في حربه تقوى الله، والاستعانة به، والتوكل عليه، والفزع إليه ومسألته بالتأييد والنصر، وكان محبّاً لرجاله محبوباً منهم، يثق بهم ويثقون به» (١).

---

(١) المرجع السابق: (١/١٤٧-١٤٨).

المطلب الثاني

أهم مبادئه الحربية الاستراتيجية

لا ريب أن المدة التي عاشها أبو المهاجر في ساحات الفداء والعمل الجهادي، قد أكسبته خبرة حربية، وعقلية استراتيجية، وكفاءة سياسية، فقد طبق خلال عمله في ساحات الفداء مبادئ حروب المدن، والعصابات، كمبدأ الحصار، والمباغتة والتعرض، وتحشيد القوة، والاقتصاد في المجهود، والتعاون، والالتفاف، والمرونة، والمحافظة على المعنويات وتأمين طرق المواصلات واختيار المقصد وإدامته.

يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب معترفاً بأن أبا المهاجر كان قائداً حربيًّا بدرجة امتياز، يقول: «كان كامل العقل، طويل التجربة بصيراً بتدبير الحرب ومواضعها، ومواضع الفرص والحيل والمكايد، حسن التعبئة، وحسن السيرة عفيفاً صارماً حذراً متيقظاً شجاعاً سخيّاً، بعيد النظر، وصحيح القرارات والخطط.

وعند تطبيق أعمال أبي المهاجر العسكرية على مبادئ الحرب، نجد أنه طبق مبدأ «اختيار المقصد وإدامته»، فهو لم ينس أن هدفه نشر الإسلام لجعل الفتح مستداماً، فهو داعية أولاً وقائدٌ ثانياً، وأنه طبق مبدأ «التعرض» فكانت معاركه كلها تعرضية، وأنه طبق مبدأ «تحشيد القوة» قبل البدء بحركاته، فاستفاد من كل مقاتل مسلم، ولم يبق في القيروان إلا الشيوخ والنساء، وأنه طبق مبدأ «الاقتصاد بالمجهود» فلم يفرط بقواته دون مبرر، وأنه طبق مبدأ «الأمن» فلم يستطع العدو مباغتة قواته في أية معركة وأنه طبق مبدأ «التعاون» فوحد جهود رجاله لإحراز النصر، وأنه طبق مبدأ «الأمور الإدارية» بشكل ملحوظ، لقد كان أبو المهاجر قائداً ممتازاً» [1].

ويقول في موضع آخر: «ما فعله أبو المهاجر في مصالحة أهل قرطاجنة بغرض

---

(١) المرجع السابق: (١/١٤٨).

إخلاء جزيرة شريك التي يتخذها الروم قاعدة متقدمة لحركاتهم ضد المسلمين، حتى يحرم الروم من تلك الحيوية، وحتى يستفيد منها المسلمون كقاعدة متقدمة لهم في حركاتهم ضد الروم، لقد فضل أبو المهاجر جزيرة شريك الموقع السوقي الاستراتيجي على المال والغنائم، وهذا دون شك، قرارعسكري في منتهى الأهمية، و له دلالته الواضحة على ما كان يتمتع به أبو المهاجر من بعد النظر، وتفكير عسكري سليم» (١) .

ويقول أيضاً: «وفي أيام قيادته في إفريقية عانى أبو المهاجر في إفريقية حرب الحصار لقرطاجنة فأجبر أهلها على طلب الصلح والرضوخ إلى شروط أبي المهاجر، وهذا النوع من الحروب يتميز القائد الذي يعاينها بالضبط الشديد والصبر الجميل، كما عانى حروب الميدان حول تلمسان، وناهض جيوشاً كثيفة للبربر وهذا النوع من الحروب، يتميز القائد الذي يعاينها بالشجاعة والإقدام، وبالقابلية على إعطاء القرارات السريعة الصحيحة، وبالحرص على جمع المعلومات عن العدو، وعن أرض المعركة وبالكفاية الممتازة في إدارة المعركة التعبوية» (٢) .

فرحم الله أبا المهاجر رحمة واسعة، وأدخله فسيح جناته، فقد هاجر، وثابر، وصابر ورابط، وأوذي، وجاهد، واستشهد في سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا الله ، وأن يكون الدين كله لله.

قال تعالى: ﴿ **فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ** ﴾ [آل عمران: ١٩٥] .

---

(١) المرجع السابق: (١ / ١٤٦) .
(٢) المرجع السابق: (١ /١٤٧) .

المبحث الثالث

زهير بن قيس البلوي رضي الله عنه

إن زهير بن قيس البلوي رضي الله عنه يعتبر من قيادات فتح الشمال الإفريقي إذ إنه كان صاحب لواء فتح مدينة تونس القديمة، وقاطع دابر فلول الروم والبربر الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، الذين تحصنوا في بعض الحصون حول مدينة قرطاجنة القديمة.

المطلب الأول

اسمه، نسبه

هو : زهير بن قيس البلوي يكنى أبا شداد، يقال له صحبة، وجزم بعضهم بصحبته، فقال: «هو من الصحابة» شهد فتح مصر وكان فتحها سنة عشرين هجرية، ومعنى ذلك أن زهيراً ولد في أيام الرسول ﷺ وهو صحابي المولد.

روى زهير عن جماعة من الصحابة، وروى عنه جماعة من التابعين، وقد عده بعضهم من الصحابة [(١)] الذين شهدوا فتح مصر ، فلذلك نال زهير شرف الصحبة ولم ينل شرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد، إذ من الواضح أنه كان صغيراً على عهد النبي ﷺ [(٢)] .

المطلب الثاني

جهاده

﴿ ١ ﴾ شهد زهير فتح مصر تحت لواء عمرو بن العاص، وغزا إفريقية ووليها، وفي سنة اثنتين وستين هجرية رد يزيد بن معاوية عقبة بن نافع الفهري إلى إفريقية فاستخلف على القيروان زهيراً، وترك معه جنداً تعدادهم خمسة آلاف رجل مع الذراري والأموال لإعمار القيروان والمحافظة عليها من الغزاة.

---

(١) **انظر** : أسد الغابة في معرفة الصحابة (٢/١١٥) .

(٢) **انظر** : قادة فتح بلادالمغرب (١/١٠٥) .

﴿ ٢ ﴾ ولما استشهد عقبة بن نافع الفهري في تهوذة سنة ثلاثة وستين هجرية قصد كسيلة بن لمزم القيروان في جمع كثير من الروم والبربر، فعزم زهير على القتال، فخالفه حنش الصنعاني وعاد إلى مصر فتبعه أكثر الناس، فاضطر زهير إلى العودة معهم، فصار إلى برقة وأقام بها، وقد زحف كسيلة البرنسي إلى القيروان سنة أربعة وستين هجرية ، وانتزعها من يد المسلمين في المحرم، فعظم البلاء على المسلمين، فقام زهير بن قيس خطيباً في الناس، فقال: « يا معشر المسلمين: إن أصحابكم قد دخلوا الجنة ، وقد مَنَّ الله عليهم بالشهادة ، فاسلكوا سبيلهم يفتح الله لكم دون ذلك ».

فقال حنش الصنعاني: « لا والله ما نقبل قولك، ولا لك علينا ولاية، ولا عمل أفضل من النجاة بهذه العصابة من المسلمين إلى مشرقهم» ثم قال: « يا معشر المسلمين ! من أراد منكم القفول إلى مشرقه فليتبعني » فاتبعه الناس ولم يبق مع زهير إلا أهل بيته ، فنهض في إثره ولحق بقصره ببرقة، فأقام بها مرابطاً إلى دولة عبد الملك بن مروان .

وأقبل كسيلة البرنسي بعساكره، فلما قرب من القيروان، خرج من كان بها من المسلمين، إذ لم يكن لهم طاقة بقتاله لعظيم ما اجتمع معه من البربر والروم، فأمن كسيلة من بقي في القيروان من المسلمين، وأقام بالقيروان أميراً على سائر إفريقية والمغرب كله، وعلى من فيه من المسلمين، إلى أن ولي الخلافة عبد الملك ابن مروان، ولم يقم بالقيروان من المسلمين إلا أصحاب الذراري والأثقال، فأمنهم كسيلة وثبت قدمه بالقيروان، واستمر أميراً على بالبربر ومن بقي بها من المسلمين وأضرم المغرب ناراً، وفشت الردة في البربر، إلى أن استقل عبد الملك بالخلافة وأذهب آثار الفتنة من المشرق، فالتفت إلى المغرب لإعادة الفتح الإسلامي المجيد .

ولما استقل عبد الملك بن مروان بالخلافة بعد قضائه على الفتنة الداخلية كان

زهير مرابطاً في برقة منذ استشهاد عقبة بن نافع الفهري، فذكر عند عبد الملك من بالقيروان من المسلمين وأشار عليه أصحابه بإنفاذ الجيوش إلى إفريقية لاستنقاذهم من يد «كسيلة»، وأن يعز الإسلام بها كما كان في أيام عقبة فقال لهم عبد الملك: من للأمر مثل عقبة؟ فاتفق رأيهم ورأي المسلمين على زهير، وكان من رؤساء العابدين، وأشراف المجاهدين، فوجه إليه عبد الملك، وأمره بالخروج على أعنة الخيل في من معه من المسلمين لغزو إفريقية، فسر ذلك زهيراً وسارع إلى الجهاد.

ولكن زهيراً كتب إلى عبد الملك يعلمه بكثرة الروم والبربر، وبقلة من معه من الرجال والأموال، فأرسل عبد الملك إلى أشراف المسلمين ليحشدوا إليه الناس من الشام وأفرغ عليهم أموال مصر، فسارع الناس إلى الجهاد واجتمع منهم خلق عظيم، فأمرهم إن يلحقوا بزهير، فلما وصلوا إليه خرج بهم إلى إفريقية، فلما دنا من القيروان نزل بقرية يقال لها «قلشانة» وذلك في سنة تسعة وستين هجرية، فبلغ ذلك كسيلة وكان في خلق عظيم من الروم، والبربر، فدعا كبارهم وأشرافهم وشاورهم وقال لهم: «أرى أن ننزل بـ«ممس» لئلا يركبنا من بالقيروان فنهلك، ولأن بالقيروان خلقاً كثيراً من المسلمين ولهم علينا عهداً فلا نغدر بهم، نخاف إن قاتلنا زهيراً أن يثب هؤلاء وراءنا، فإذا نزلنا ممس أمناهم وقاتلنا زهيراً، فإن ظفروا بنا تعلقنا بالجبال ونجينا، كما أن الماء بـ«ممس» كثير، فأجابوه إلى ذلك، ورحل إلى ممس فبلغ ذلك زهيراً، فلم يدخل القيروان بل أقام ظاهرها ثلاثة أيام حتى أراح واستراح.

وفي اليوم الرابع زحف زهير في آلاف من المقاتلة، وجمع له كسيلة قبيلة البرانس وسائر البربر ولقيه بممس من نواحي القيروان، وأشرف زهير على عسكر كسيلة في آخر النهار، فأمر الناس بالنزول، فلما أصبح زحف إليه، وأقبل كسيلة ومن معه، والتحم الفريقان، فنزل الضر وكثر القتل في الجانبين حتى يئس الناس من الحياة، ولم يزل كذلك حتى انهزم كسيلة وقتل، ومضى الناس في طلب البربر

والروم، فلحقوا كثيراً منهم وقتلوهم، وجدوا في طلبهم إلى وادي ملوية وادي بطنجة بالمغرب، وفتحت «شقبنارية» وقلاع أخر، وفتحت مدينة تونس، وفي هذه الواقعة ذل البربر وفنت فرسانهم، ورجالهم وخضدت شوكتهم، وقتل رجال البربر الروم وملوكهم وأشرافهم، وفزع أهل إفريقية واشتد خوفهم، فلجئوا إلى الحصون والقلاع، واضمحل أمر الروم فلم يعد لهم شأن يُذكر، وخاف البربر من زهير والمسلمين خوفاً شديداً، وكسرت شوكة «أوربة» من بينهم، واستقر جمهورهم بديار المغرب الأقصى وملكوا مدينة «ولَيلي» وكانت فيما بين فاس ومكناسة ، ولم يكن لهم بعد هذه الواقعة ذكر.

وعاد زهير إلى القيروان، فرأى إفريقية ملكاً عظيماً، فأبى أن يقيم بها وقال: إني ما قدمت إلا للجهاد، وأخاف أن أميل إلى الدنيا فأهلك، وكان من رؤساء العابدين وكبراء الزاهدين، فترك القيروان آمنة، انصرف عنها، وأقام بها كثير من أصحابه فترك القيروان آمنة، لخلو البلاد من عدو ذي شوكة، ورحل في جمع كثير إلى مصر، فبلغ الروم خروجه من إفريقية إلى برقة، فأمكنهم مما يريدون فخرجوا إليها في مراكب كثيرة وقوة عظيمة من القسطنطينية ونهبوا، ووافق ذلك قدوم عسكر زهير، فأمر عسكره بالمسير إلى الساحل طمعاً بأن يدرك سبي المسلمين فيستنقذهم، وأشرف على الروم، فإذا هم في خلق عظيم، فلم يقدر على الرجوع، وقد استغاث به المسلمون وصاحوا، والروم يدخلونهم المراكب، فنادى أصحابه: النزول، فنزلوا، وكان أكثرهم من التابعين، ونزل الروم إليهم، وتلقوهم بعدد عظيم، فتلاحم القتال وتكاثرت عليهم الروم فقتل زهير وأشراف من كانوا معه من العرب ، ولم ينج منهم أحد، وعاد الروم بما غنموا إلى القسطنطينية [1].

---

(١) المرجع السابق: (١/ ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٦، ١٥٧).

المطلب الثالث

استشهاده

لقد كان زهير ﷺ من رؤساء العابدين، وأشراف المجاهدين صاحب فضل ودين، وكان من العباد المخبتين، وكان من العلماء المتفقيهن، شهد فتح مصر سنة عشرين هجرية، وشارك في معارك عقبة بن نافع ﷺ وقام باسترداد إفريقية من كسيلة وقتله، ثم بعد نهايته من استرداد إفريقية بلغته معلومات خطيرة، فحواها تحشد الروم من قسطنطينية وصقلية على شواطئ برقة، ومنهم من نزل إلى برقة وقد أخذوا السبي والأموال من المسلمين.

فتوجه لتوه ناحية برقة، فلما أشرف من مرتفعات برقة على الروم ورائهم ماذا يفعلون بسبي المسلمين لم يكن له بد من خوض هذه المعركة، وأن يبذل الغالي والنفيس في شواطئ درنة وشحات، فأكرمه الله بالشهادة وثلة ممن معه في تلك المعركة، ودفنوا في مدينة درنة وقبورهم لا زالت موجودة حتى الآن وتسمى مقبرة الصحابة، كان ذلك سنة ست وسبعين هجرية، فرضي الله عنهم وأدخلهم فسيح جناته، ورحم الله زهيراً، حقًّا إنه كان مجاهداً من المهد إلى اللحد.

المطلب الرابع

أهم صفاته القيادية وتطبيقاته الحربية

أهم صفاته القيادية :

لقد امتاز بصفات قيادية عدة منها: الشجاعة، والإقدام، والذكاء، والصبر، والنجدة، والشهامة، والورع، والتقوى، والزهد، وكان يحب رجاله ويحبونه، ويثق بهم، وكان ذا تجربة طويلة عملية في الحروب، مارسها منذ قدر على حمل السلاح حتى يوم استشهاده.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب: «كان زهير من رؤساء العابدين وأشراف

المجاهدين، صاحب فضل ودين، وكان من العباد المخبتين، وكان من العلماء المتفقهين» [١].

ويقول في موضع آخر: «لقد كان زهير من رجالات السلف الصالح: شجاعة، وبطولة، وإيمانا، وورعاً ... نشأ زهير في بيئة مخلصة تتسم بالشجاعة والإقدام، وترعرع في أيام الجهاد الأولى، وفي العهد الذهبي للفتح الإسلامي» [٢].

تطبيقاته الحربية: لقد طبق زهير في معاركه مبادئ حربية كثيرة منها: التحشد، والأمور الإدارية، وحماية خطوط المواصلات، وجمع المعلومات، والعمليات الاستطلاعية، والتعرض.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب بعد حديثه عن طلب زهير من عبد الملك يسأله الإمداد بالرجال والأموال: «فأرسل عبد الملك إلى أشراف العرب ليحشدوا إليه الناس من الشام، وأفرغ عليهم أموال مصر، وبذلك طبق زهير مبدأي التحشد والأمور الإدارية على أحسن وجه» [٣].

ويقول في موضع أخر: «لست أشك أن حامية منطقة برقة التي خلفها زهير وراءه لحماية تلك المنطقة من العرب، ولحماية خطوط مواصلاته، لا يمكن أن تكون في ظلام دامس بعيدة عن الأحداث لا تهتم بالحصول على المعلومات عن نيات العدو المتربص، فلا بد أن يكون له مصادر مختلفة مهمتها الحصول على المعلومات عن العدو من البربر في مختلف الأماكن والأصقاع» [٤].

أخيراً: رضي الله عن الصحابي الجليل، والمجاهد من المهد إلى اللحد، الذي أعاد إفريقية إلى حظيرة الإسلام، وقدم نفسه في سبيل إنقاذ أعراض المسلمين وديارهم، المجاهد الشهيد، زهير بن قيس البلوي.

---

(١) المرجع السابق: (١/١٦٣).
(٢) المرجع السابق: (١/١٦٣).
(٣) المرجع السابق: (١/١٦٥).
(٤) المرجع السابق: (١/١٦٧).

المبحث الرابع

حسان بن النعمان الأزدي الغساني

بعد أن استقر ملك عبد الملك بن مروان التفت إلى الشمال الإفريقي وأوضاعه العسكرية والسياسية، فرأى أن يندب لتحقيق أهدافه السياسية والعسكرية في تلك المنطقة حسان بن النعمان، فكتب له بقيادة الحملة على الشمال الإفريقي، فمن هو حسان بن النعمان ؟ .

المطلب الأول

نسبه وأيامه الأولى

هو حسان بن النعمان بن عدي بن مغيث بن عمرو بن مزيقياء بن عامر ماء السماء بن الآزد، أهله من الغساسنة ملوك الشام الذين كانوا موالين للإمبراطورية البيزنطية قبل الفتح الإسلامي، فأسلم بعضهم وبقي بعضهم نصرانياً، فنشأ وترعرع في بيت عريق له ماض مجيد في القيادة والحكم، انتقل جده عمرو بن مزيقياء الذي كان من ملوك اليمن إلى أرض الشام، فكان من أولاده وأحفاده ملوك بني غسان.

كان حسان من التابعين، وقد حدث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكانت له مكانة مرموقة عند بني أمية وعند الناس ، حتى أطلق عليه لقب: الشيخ الأمين [١] .

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء(٤ / ١٤٠) .

المطلب الثاني

جهاده

﴿ ١ ﴾ لما بلغ عبد الملك بن مروان مقتل زهير بن قيس البلوي، وأصحابه اشتد عليه وعلى المسلمين ذلك ، وكانت المصيبة بزهير وأصحابه مثل المصيبة بعقبة بن نافع الفهري، وأصحابه، وسأل أشراف المسلمين عبد الملك بن مروان أن ينظر إلى أهل إفريقية، ويؤمنهم من عدوهم ويبعث الجيوش إليهم، فقال عبد الملك: «ماأعلم أحداً أكفأ بإفريقية من حسان بن النعمان الغساني» ولما قتل عبد الله بن الزبير سنة ثلاث وسبعين الهجرية أصبح عبد الملك بموقف يساعده على إرسال الجيوش إلى إفريقية، إذ اجتمع المسلمون عليه، فجهز جيشاً كبيراً واستعمل عليهم وعلي إفريقية حسان بن النعمان، وسيرهم إليها في سنة أربع وسبعين هجرية ، وقيل: بعد سنة ٧٦ هـ .

﴿ ٢ ﴾ ودأب حسان على إنجاز استحضارات جيشه الذي بلغ تعداده أربعين ألفاً أقامه أولاً في مصرعدة لما يحدث، وكتب إليه عبد الملك يأمره بالنهوض إلى إفريقية ويقول له: «إني أطلقت يدك في أموال مصر، فأعط من معك ومن ورد عليك، وأعط الناس واخرج إلى بلاد إفريقية على بركة الله وعونه».

﴿ ٣ ﴾ ومضى حسان في جيشه الكبير، حتى نزل طرابلس الغرب، فاجتمع إليه من كان بها، ومن كان خرج معه من إفريقية وطرابلس، فأرسل مقدمة جيشه إلى إفريقية، وعليها محمد بن أبي بكير، وهلال بن ثروان اللواتي وزهير بن قيس، ففتح البلاد وأصاب غنائم كثيرة، وهذا يدل على أنه اجتاز برقة وطرابلس دون أن يلقي مقاومة، وأن جيشه ازداد عدده بالتحاق سكان تلك المنطقة من المسلمين به، وأنه لاقى مقاومات طفيفة في طريقه من طرابلس إلى القيروان من الحاميات الرومية المتفرقة في المدن الواقعة على طريق جيش حسان، ففتح البلاد

وأصاب غنائم كثيرة، وكان تولي هلال بن ثروان اللواتي، وهو أول بربري مسلم تسند إليه قيادة قوة من المسلمين يدل على أن المسلمين كسبوا لأنفسهم أنصاراً من أهل البلاد يدلونهم في مسيرهم وينصرونهم ويقاتلون معهم جنباً إلى جنب.

﴿ ٤ ﴾ وما كاد حسان ينجز استحضارات جيشه من كل الوجوه، إلا وسأل أهل إفريقية: من أعظم الملوك بها قدراً؟ فقالوا: صاحب قرطاجنة «دارا» ملك إفريقية، وقرطاجنة هي المدينة العظمى، قريعة رومة وضرتها وإحدى عجائب الدنيا، وكان يومئذٍ بها جموع من الروم لا تحصى، ولم يكن المسلمون قط حاربوها وفتحوها عنوة، بل كانوا يحاصرونها ويفرضون على أهلها مالاً أو بلاداً مجاورة كجزيرة شريك.

فلما وصل حسان إلى قرطاجنة رأى بها من الروم والبربر ما لا يحصى كثرة، فقتل منهم عدداً كثيراً، فلما رأوا ذلك اجتمع رأيهم على الهرب، فركبوا مراكبهم وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس، ففتحها عنوة، فسلبها وغنم ما فيها وأرسل إلى ما حولها من العمال، فاجتمعوا مسرعين، فأمرهم بهدم قرطاجنة وقطع القناة عنها.

وانصرف حسان عن قرطاجنة عائداً إلى القيروان، فعلم أهل بواديها وأقاليمها بهروب ملك قرطاجنة عنها، فبدروا إليها فدخلوها، ورحل إليها حسان ونزل عليها فحاصرها حصاراً شديداً حتى دخلها بالسيف فقتلهم قتلاً ذريعاً وسباهم وأرسل لمن حوله فاجتمعوا إليه مسارعين خوفاً من عظيم سطوته وشدة بأسه، فلما أتوه ولم يبق منهم أحد، أمرهم بتخريب قرطاجنة وهدمها، فخربوها حتى صارت كأمس الغابر.

والظاهر أنه هدم بعض أسوارها لكي لا يحتمي به المدافعون مرة أخرى ، وقطع القناة عنها لكي يحرم المدافعين عنها من المياه العذبة، وهذان العاملان نفذهما في فتحه الأول لقرطاجنة، ومن إجرائه هذا، يبدو أنه استهدف من تخريب تلك

المرافق في قرطاجنة الناحية العسكرية، الحيوية فقط، حتى يحرم الروم وغيرهم من اللجوء إليها أو الدفاع عنها نهائيًا ، ولكنه لم يقم بتدمير مرافقها الحيوية كافة، لأن الأحداث المقبلة تدل بوضوح على أن المسلمين لم يخربوها تماماً، وإنما بقيت على درجة كبيرة من المنعة ، حتى إن الروم تحصنوا بها مرة أخرى بعد ذلك بسنوات، وهذا ما يفهم من قول النويري: «فهدم المسلمون ما أمكن منها» (١) .

وتنبه حسان بعد هذا الحادث إلى أن الروم لا زالوا على شيء من القوة والكثرة في نواحي كثيرة من المناطق المحيطة بقرطاجنة ، وأنه لا زالت هناك مدائن وحصون يجتمعون بها بعد أن انقطع رجاؤهم من قرطاجنة نفسها ، فقد بلغه أن الروم والبربر قد اجتمعوا في «صطفورة» و«بنزرت» وهما مدينتان، فسار إليهم وقاتلهم ولقي منهم شدة وقوة، ولكن المسلمين صبروا، فانهزم الروم، وكثر القتل فيهم ففتح المسلمون تلك البلاد، ولم يترك حسان موضعاً من تلك البلاد إلا وطأه، وخاف أهل إفريقية خوفاً شديداً، ولجأ المنهزمون من الروم إلى مدينة «باجة» فتحصنوا بها، وتحصن البربر بمدينة «بونة» (٢) ، فعاد حسان إلى القيروان لأن الجراح قد كثرت في أصحابه، فأقام بها حتى صحوا.

لقد كانت معركة قرطاجنة الأولى هي التي أدت إلى هروب القوة الضاربة للروم إلى الأندلس، وإلى صقلية، وإلى المناطق المحيطة بقرطاجنة، وأما المعركة الثانية ومعركة «صطفورة»، و«بنزرت» فهي التي أدت إلى تشتيت فلول قوات الروم وبعض حلفائهم البربر، وكانت تلك المعارك من معارك استثمار الفوز، وطهر حسان منطقة قرطاجنة من قوات الروم الباقية ومن حلفائهم، وكان قرار حسان في الإقدام على المعركة الحاسمة قراراً صائباً ، لأن تلك القوات لو تركت وشأنها لزاد عددها ولوجدت موطئ قدم ورأس جسر يهيئ للروم العودة مرة

---

(١) نهاية الأرب، (ص٧٤ ب) نقلاً عن قادة فتح المغرب (١/ ١٨٠)

(٢) بونة: مدينة حصينة بإفريقية تقع على البحر، انظر: معجم البلدان (٢/ ٣٠٩)

أخرى إلى قرطاجنة وما حولها من القسطنطينية أو من صقلية، أو من الأندلس، فيستعيدون ما خسروا من مدن ومناطق أخرى، ويجبرون المسلمين مرة أخرى على خوض معركة كبيرة لا يمكن معرفة نتائجها ولا تؤدي إلا إلى خسائر فادحة في الأرواح والموارد، كما تؤدي إلى مضاعفات قد تعرقل ترسيخ أقدام الفتح الإسلامي في إفريقية وتؤخر إنجاز الفتح الإفريقي.

وكان قراره في العودة إلى القيروان ، وإقامته فيها حتى برأت جراح أصحابه (١) ، وأراح به أياماً، أكمل تدابير جيشه الإدارية، كان قراره هذا صائباً، لأنه كان لابد للجرحى أن يشفوا من جراحهم، ولابد للجيش من راحة بعدما نال من رجاله طول القتال ، ولابد للقضايا الإدارية من معالجة وإعداد ، وبذلك أصبح جيشه حاضراً للقتال مرة أخرى.

﴿ ٥ ﴾ وسأل حسان أهل القيروان عمن بقي من أعظم ملوك إفريقية ليسير إليه فيبيده أو يُسلم، فدلوه على امرأة بجبل أوراس يقال لها: الكاهنة، وجميع من بإفريقية من الروم خائفون منها، وجميع البربر مطيعون لها، فإن قتلتها دان لك المغرب كله، ولم يبق لك فيه مضاه ولا معاند، وكانت هذه الكاهنة تخبرالبربر بأشياء من الغيب، ولهذا سُميت الكاهنة، كانت بربرية (٢) ، وقد اجتمع إليها البربر بعد قتل كسيلة، وهي إذ ذاك ملكة «جراوة» من قبائل البربر الكبيرة، وهي

---

(١) **انظر**: رياض النفوس للمالكي(١ / ٣٢).

(٢) **قلت**: «الكهنة هم الذين يأخذون عن مسترقي السمع، وكانوا قبل المبعث كثيرين وأما بعد مبعث النبي ﷺ فإنهم قليل، لأن الله تعالى حرس السماء بالشهب وكانت ولا زالت الشياطين من الجن تخبر أولياءها من الإنس، والإسلام حرم ذلك، قال تعالى: ﴿ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم﴾ [الانعام:١٢٨] وإخبار الجن الإنس فيه كذب وزور واختلاف، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [من أتى كاهناً فصدقه لما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد] (رواه ابو داود)، هكذا يا أخي الحبيب كانت الشعوب والقبائل، والأمم قبل مجيء الإسلام في تيه وضلال وركام من التصورات الباطلة.

يومئذٍ أعظم ملوك البربر، بل هي ملكة البربر دون منازع، وكان لهذه الكاهنة بنون ثلاثة ورثوا رئاسة قومهم عن سلفهم، وربوا في حجرها، فاستبدت عليهم واعتزت على قومها بهم، ولما كان لها من الكهانة، فانتهت إليها رئاستهم ووقفوا عند إشارتها.

وعزم حسان على قصدها، فخرج إليها بجيوشه، ولما بلغ موضعاً يقال له: «مجانة» [(١)] نزل بها، وكانت قلعة لم تفتح، فتحصن بها الروم، فمضي حسان وتركهم، وبلغ الكاهنة أمره فزحفت من جبل «أوراس» في عدد لا يحصى، فنزلت في مدينة «باغاية» [(٢)] فأخرجت من بها وهدمتها، لأنها ظنت أن حسان يريد حصنها ليحصن به منها، وأقبل حسان حين بلغه الخبر إلى وادي «مكناسة» [(٣)]، فقيل له: إنها قد أقبلت في عدد لا يحصي، فقال: دلوني على ماء يسع العسكر الذي أنا فيه، فمالوا إلى نهر «نيني» [(٤)] فنزل عليه، وزحفت إليه الكاهنة حتى أتت أسفل النهر فنزلت عليه، ودنا الطرفان من بعضهما، فأبى حسان أن يقاتلها آخر النهار، وأبى أن يقاتلها بالليل، وبات الفريقان على مصافهم، فما أصبحوا حتى زحف بعضهم على بعض، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وعظم البلاء فظن المسلمون أنه فناء، فانهزم حسان بعد بلاء عظيم، وقتل من المسلمين خلق كثير، فسمي ذلك اليوم يوم البلاء، وسمي النهر الذي التقوا عليه: نهر البلاء، فاتبعته الكاهنة بمن معها، حتى خرج من حد «قابس» فأسلم إفريقية ومضى على وجهه، وأسرت من أصحابه ثمانين رجلاً منهم خالد بن يزيد العبسي، وكان رجلاً مذكوراً، فأحسنت إسارهم، إلا خالد بن يزيد، وكان أذكر من كان مع حسان فحبسته عندها، ثم عمدت إلى دقيق شعير مقلو فأمرت فلت

---

(١) **مجانة**: بلد بإفريقية بينها وبين القيروان خمس مراحل: انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٣٨٦).
(٢) **باغية**: مدينة كبيرة بين مجانة وقسطنطينة، انظر: معجم البلدان (٢/٤١).
(٣) **مكناسة**: مدينة بالمغرب في بلاد البربر، تبعد عن مراكش أربعة عشرة مرحلة من الشرق.
(٤) **نيني**: نهر في إفريقية، انظر: معجم البلدان (٨/٢٦٩).

بزيت، والبربر تسمي ذلك «البسيسة»، وقالت لخالد: ما رأيت في الرجال أجمل منك وأشجعَ وأنا أريد أن أرضعك فتكون أخاً لولدي، فعمدت إلى دقيق الشعير الملتوت بزيت، وجعلته على ثدييها، ودعت ولديها، وقالت: كلا معه على ثدي، ففعلا، فقالت: قد صرتم إخوة، وكانت الكاهنة من جماعة البربر لها رضاع إذا فعلوه يتوارثون بينهم [١].

كما يبدو أن الإحسان إلى الأسرى كان من تقاليد البربر العريقة،حيث إنهم دأبوا على الإحسان إلى الأسرى في معاركهم السابقة، فكيف لا تحسن إليهم الكاهنة بعد معركة نيني؟ وقد يكون لتقرب خالد بن يزيد منها أثركبير على إحسانها هذا، فمن المحتمل جداً أن خالداً بذل جهوده بعد أن أصبح أسيراً عند الكاهنة لإنقاذ إخوانه الأسرى، فكان له ما أراد.

واكتفت الكاهنة بهزيمة المسلمين في جبل الأوراس، ثم تتبعت حسان حتى أخرجته من حدود إفريقية، ولم تسر إلى القيروان فتقضي على المسلمين فيها وتسيطر على هذا البلد كما فعل «كسيلة» من قبل ؟ .

لقد استخلف حسان أبا صالح على إفريقية، وقد كانت القيروان عامرة بالمسلمين، فلماذا لم تقض عليهم الكاهنة وتقض على عاصمة المسلمين في إفريقية مدينة القيروان ؟ .

يبدو أن الكاهنة لم تكن ترجو شيئاً أكثر من خلاص منازل قبيلتها وملك أبنائها في أوراس، فاكتفت بإبعاد القوة التي كانت تهدد سلامة الأوراس وسكانها [٢]، وما دام المسلمون الذين في القيروان ضعفاء مسالمين، فلا خطر

---

(١) هذه الصورة من الرضاع لا يعرفها الإسلام، ويشترط أن يكون الرضاع دون الحولين ويتحقق معه وصول لبن حقيقي إلى جوف الرضيع مما يعتبر إرضاعاً، وقد اختلف الفقهاء في عدد الرضعات، وأميل إلى كونه بخمس رضعات مشبعات فما أكثر.

(٢) انظر: فتح العرب للمغرب، د. حسين مؤنس (ص ٢٤٩).

على الكاهنة منهم ، كما أن تهديد الكاهنة للقيروان بالدمار وسكانها ، غير المحاربين بالفناء، لا يخلو من إثارة البربر المسلمين على الكاهنة مما يؤدي إلى خلق المتاعب والمشاكل لها دون مبرر.

مهما يكن من شيء، فقد بقيت القيروان على حالها لم تمسها الكاهنة بسوء، فبقي من بها من المسلمين يقوم بأمرهم أبو صالح، ولم تحفل الكاهنة لهم ، وإنما عادت إلى «الأوراس» وبهذا لا نخطئ إذا وصفنا حركة الكاهنة بأنها لم تكن أكثر من ثورة محلية في ناحية من نواحي البلاد لا انتقاص تام ، وكان حسان يفهم هذه الحركة هذا الفهم ، ولهذا أقام في طرابلس ينتظر المدد وينظم أموره هناك [١] .

﴿ ٦ ﴾ طفق حسان يرفق في سيره طمعاً فيمن نجا من أصحابه أن يلحقوا به ، وذلك أثناء انسحابه من معركة نيني، مما يدل على أن المسلمين الذين استقروا في القيروان كانوا غيرمحاربين، فلما فصل من قابس كتب إليه أمير المؤمنين: «لقد بلغني أمرك وما لقيت وما لقي المسلمون، فانظر حيث لقيت كتابي هذا، فأقم ولاتبرح حتى يأتيك أمري» فلقيه الكتاب وهو نازل لمكان يقال له اليوم قصور حسان، فبنى هناك قصراً لنفسه ونزل قصوراً من حيز برقة فسميت قصور حسان، وكانت «أنطابلس» و«لوبية» و«مراقية» إلى حد «أجدابية» من عمل حسان، فأقام بعمل برقة خمس سنوات [٢] .

وتوافدت على حسان فرسان المسلمين ورجالها من قبل أمير المؤمنين عبد الملك ابن مروان، فدعا حسان عند ذاك برجل يثق به وبعثه إلى خالد بن يزيد، فأتاه فقال له: إن حسان يقول لك: ما يمنعك من الكتابة إلينا؟ وبعث حسان مع هذا الرجل بكتاب يستعلم من خالد الأمور، فكتب خالد في ظهر كتاب حسان: «إن

---

(١) انظر: فتح العرب للمغرب، (ص ٢٤٩) ، نقلاً عن قادة المغرب (١/ ١٨٦).
(٢) انظر : ابن الأثير (٤/ ١٤٣).

البربر متفرقون، لا نظام لهم و لا رأي عندهم، فاطو المراحل وجد في «السير» وجعل الكتاب في خبزة وجعلها زاداً للرجل ووجهه إلى حسان، وكان خالداً قد أنضج الخبز فاحترق الكتاب بالنار، فلما كسر حسان الخبزة وقرأ الكتاب الذي كتبه إليه خالد وجده قد أفسدته النار، فقال له حسان: «ارجع إليه»، وعاد الرجل إلى خالد، فكتب إلى حسان بما كتب أولاً وأودعه قربوس [1] السرج حفره ووضع الكتاب وأطبق عليه حتى استوى وخفي مكانه [2].

يجدر بنا أن نتوقف قليلاً هنا، فقد بذل حسان قصارى جهوده لاستطلاع أمر الكاهنة، فاستطاع أن يحصل على معلومات قيمة عن تفرق البربر فلا نظام لهم، ولا رأي عندهم، كما أن تدابير الكتمان التي اتخذها خالد بلغت حد الروعة والإتقان، فهو يخفي رسالة إلى حسان تارة في الخبز الذي عمل على إنضاجه حتى يستوي وخفي مكانه، ولن يستطيع ضابط استخبارات ممتاز محترف في الوقت الحاضر أن يتخذ تدابير أكثر حذراً وأدق مما فعله خالد في تدابيره تلك، وبذلك استطاع أن يوصل إلى حسان علم ما يحتاج إليه [3].

﴿ ٧ ﴾ ملكت الكاهنة المغرب كله خمس سنوات، فلما رأت إبطاء المسلمين عنها قالت للبربر: إن المسلمين إنما يطلبون من إفريقيا المدائن والذهب والفضة، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي! فلا أرى لكم إلاخراب كلها، حتى ييأس منها المسلمون، فلا يكون لهم رجوع إلى آخر الدهر! فوجهت قومها إلى كل ناحية يقطعون الشجر، ويهدمون الحصون، فذكروا أن إفريقيا كانت ظلاً واحداً من طرابلس إلى «طنجة» وقرى متصلة، ومدائن منتظمة، حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات، ولا أوصل بركات، ولا أكثر مدائن وحصوناً من إقليم إفريقيا والمغرب.. وخرج يومئذٍ من النصارى والأفارقة خلق كثير، مستغيثين مما

(١) القربونس: حمو السرج.
(٢) انظر: فتحوح مصر والمغرب، لابن عبد الحكم، (ص-٢٧٠).
(٣) نفس المصدر نقلاً عن قادة فتح بلاد المغرب العربي (١/١٨٨).

نزل بهم من الكاهنة، فتفرقوا على الأندلس وسائر الجزائر البحرية.

لقد أضر هذا العمل التخريبي بقضية الكاهنة ضرراً عظيماً، لأنه إذا كان قد وجد من أهل البلاد من يؤيدها في مناهضة العرب وطردهم من البلاد، فليس فيهم من يقف مكتوف الأيدي إزاء التخريب الذريع الذي اختارته الكاهنة للبلاد على يديها وأخذوا يعارضون الكاهنة ويناجزونها، فاضطرب الأمر بيدها، وانقلب أمر البلاد من سيء إلى أسوأ.

هكذا تضعضع سلطان الكاهنة في بلادها: إدارة سيئة، وظلم للناس، وتخريب للبلاد، وحكم مرتجل لا هدف له ولا غاية.

وقد أخطأت الكاهنة في تقديرها لأهداف المسلمين من الفتح، فقد كان هدفهم استكمال فتح البلاد ونشر الإسلام في ربوعها، فلم تكن همتهم منصرفة إلى المدائن والمزارع، وإنما إلى أهل البلاد أنفسهم، ولهذا لم يكن لعمل الكاهنة التخريبي أثر في نفس حسان ولافي سياسته، ولم تجنِ الكاهنة من أعمالها إلا سخط أهل البلاد عليها وتركهم إياها وميلهم إلى جانب المسلمين.

﴿ ٨ ﴾ هذه أخبار الكاهنة فماذا عن الروم وحركاتهم في إفريقيا بعد هزيمة حسان أمام الكاهنة، وفي أثناء بقائه متحفزاً في صور من أرض برقة وجد الروم في خروج حسان من إفريقيا فرصة سانحة لاستعادتها وبسط سلطانهم عليها من جديد، وكان الإمبراطور الجديد - لينتيوس - الذي خلف جستنيان الثاني (سنة ٧٤هـ/٦٩٥م) قد أهمه سقوط قرطاجنة في يد العرب وتخريب حسان لها، إذ لم يجد تسليم هذا الجزء الكبير من الإمبراطورية - دون مقاومة - أمراً سهلاً على نفسه، كما يقول ديل، فما كادت أخبار هزيمة حسان على نهر نيني ترد إليه، حتى عجل بالعمل فقد أعد حملة كبيرة لإفريقيا، ويبدو أنه بذل في إعدادها جهداً عظيماً، لأنه تخير لقيادتها قائداً من أشهر قواد الدولة وأقدرهم هو البطريق يوحنا وأعد أسطولاً كبيراً لنقل الجند إلى إفريقيا.

وظهر الأسطول البيزنطي في مياه قرطاجنة في (سنة ٧٨ هـ/٦٩٧م) وتمكن من الاستيلاء على المدينة، وضرب المسلمين الذين كانوا فيها «الذين على رأسهم أبو صالح» وقسا في معاملة من وقع تحت يده من المسلمين قسوة زائدة، حتى إنه كان ليقتل الكفار بيده - كما يقول تيوفانس ونقفور - فلما تم له ذلك، اكتفى بها وأراح في قرطاجنة طيلة شتاء هذه السنة، ولم يكلف نفسه عناء الشروع في عمل آخر [١].

﴿٩﴾ بهاتين الحركتين: حركة الكاهنة، وحركة البطريق يوحنا، تم انتقاص إفريقيا على المسلمين، وخرجت من يدهم جملة، ولم يبق في طاعتهم شبر واحد من الأرض مما يلي قابس غرباً، وكان التقاسم بين البطريق والكاهنة سهلاً لا اختلاف فيه، أقامت هي في الجنوب في السهل الداخلي، بينما اهتم يوحنا بأن يعيد الرباط الذي يمتد من «سوسة» إلى «شقبنارية».

كان حسان في شغل شاغل لإعداد جيشه وتنظيمه وتسليحه، وإكمال قضاياه الإدارية لاستعادة إفريقيا، وتوطيد أركان الإسلام في ربوعها، بينما كانت الكاهنة وكانت الروم في الجهة الثانية يثيرون التذمر ويغرسون الأحقاد ويشيعون الفوضى -كل ذلك يسر لحسان استعادة فتح إفريقيا وتحقيق أهداف المسلمين في أرجائها.

﴿١٠﴾ أقام حسان خمس سنوات على مقربة من سرت في المكان المسمى: قصور حسان، يلح على عبد الملك بن مروان لإرسال الإمدادات إليه، فلماذا تأخرعبد الملك طيلة هذه المدة عن تلبية طلبات حسان الملحة المشروعة؟.

كان عبد الملك في هذه الفترة بالذات مشغولاً بمكافحة الفتن الداخلية ... وهكذا مرت هذه الفترة الحافلة: ثورات داخلية لابد من تحشيد الجيوش للقضاء

---

(١) انظر: فتح العرب للمغرب (٢٥٤)، نقلاً عن قادة فتح المغرب العربي (١/١٩١).

عليها، وغزوات للروم في (سنة سبع وسبعين هجرية وثمانين هجرية)، هذه الغزوات ضرورية لأمن الدولة الإسلامية، وكل ذلك حتى لا يهاجم الروم دار الإسلام، لأن هذا الهجوم هو أنجح وسائل الدفاع كما تنص عليها نظم الحروب .. وطاعون ذريع في أرض الشام لا يُبقي ولا يذر .. كل ذلك منع عبد الملك بن مروان من تلبية طلبات حسان الملحة لتدعيمه بالإمدادات العسكرية من أجل استعادة فتح إفريقيا وقطع دابر الروم والبربر فيها .

﴿ ١١ ﴾ وسير عبد الملك إلى حسان الجنود والأموال، وتوافدت عليه فرسان المسلمين ورجاله، حتى إذا اكتملت استحضاراته للقتال وتهيئة جيشه ماديّاً ومعنوياً، أمره عبد الملك بالمسير إلى إفريقيا وقتال الكاهنة، فرحل حسان إليها في أواخر سنة إحدى وثمانين هجرية ، وبلغ الكاهنة خبره، فرحلت من جبال الأوراس في خلق عظيم، ولما اقترب حسان من الكاهنة، خرجت ناشرة من شعرها، فقالت : يا بني! انظروا ماذا ترون في السماء؟ ، فقالوا : نرى شيئاً من سحاب أحمر، فقال : لا وإلهي، لكنها وهج خيول العرب، ثم قالت لخالد بن يزيد : إني إنما تبنيتك لمثل هذا اليوم، أنا مقتولة، أوصيك بأخويك هذين خيراً، فانطلق فخذ لهما أماناً! فانطلق خالد فلقي حساناً، فأخبره خبرها، وأخذ لابنيها الأمان ... ثم التحم القتال واشتدت الحرب والنزال ، فانهزمت الكاهنة ، فاتبعها حسان حتى قتلها .

كانت هذه المعركة بين المسلمين وبين الكاهنة وجيشها في سنة اثنتين وثمانين هجرية (٧٠١ م) وبعد مقتل الكاهنة أخلد البربر إلى الطاعة، واطمأنت نفوس أكثرهم إلى الإسلام (١) ، وبذلك قضى المسلمون على آخر حركة قام بها أهالي البلاد لردهم ، إذ كانت الكاهنة هي الحصن الأخير الذي احتمى وراءه أهل

---

(١) انظر : فتح العربي في ليبيا، (ص١٣٩).

البلاد ، فلما سقطت انتهت كل مقاومة ولم تبق أمام المسلمين غير مقاومة طفيفة من بعض قبائل البربر .

﴿ ١٢ ﴾ وعاد حسان إلى القيروان بعدما حسن إسلام البربر، وطاعتهم، وذلك في (شهر رمضان سنة اثنتين وثمانين هجرية) (١) ، ليريح جيشه وليكمل نواقص قواته الإدارية، فلما استراح جيشه وانجز حسان استحضاراته اتجه إلى شمال القيروان إذ لازالت هناك بقاع يحكمها الروم وقلاع يسيطر عليها البربر، وكانت جبال زغوان في شمال القيروان وفي جنوب قرطاجنة لا تزال موطناً لمقاومة البربر والروم، ولعل قربها من قرطاجنة جعلها الخط الدفاعي الأول عن تلك المدينة، فأرسل إليها حسان مولاه أبا صالح فنازلها ثلاثة أيام دون جدوى، فأسرع إليها حسان بنفسه ففتحها صلحاً .

ولم يبق على حسان إلا استعادة وفتح قرطاجنة ، وكان يوحنا ورجاله من الروم قد حصنوها وأعادوا ما تهدم من أسوارها، وكانوا يرقبون حركات حسان، فسار إليهم، فتحصنوا بها، وحاصرهم حسان فنشبت معركة طاحنة بين الطرفين انهزم في أعقابها يوحنا هزيمة شنيعة، فالتجأ إلى قرطاجنة محتمياً بها، وانهزم الأسطول البيزنطي في موقعة كبيرة سقطت بعدها قرطاجنة في يد حسان، فأدرك اليأس البطريق يوحنا، فجمع أجناده وتولى بيزنطة، ليعود منها مرة أخرى بعدة قوى، ولكنه كان واهماً لأن الظروف لم تسمح له بعد ذلك بالعودة إلى قرطاجنة قط .

كانت للروم سفن بباب النساء، فحملوا نسائهم وأولادهم ليلاً، وأسلموا المدينة ولم يبق بها إلا الملك المسمى بمرياف وأهله وولده، فكتب إلى حسان : « هل لك أن تعاهدني في أهلي وولدي وأشترط لنفسي ما شئته من المنازل وأسلم لك المدينة ؟ » .

---

(١) البيان المغرب (١ / ٢٩) ، نقلاً عن قادة المغرب (١ / ١٩٨) .

ولم يكن للمسلمين علم بفرار الروم منها، فأجابه حسان إلى ذلك، فاشترط الأرض المسماة بمرياف، وهي إذ ذاك قرى كثيرة، ثم أمكنه من المدينة فلم يجد فيها غيره، وغير أهله وولده، فوفى له حسان بما أعطاه من العهد، وأقام مرياف مالكاً لهذه الأرض، وهذه الناحية بمرياف في تونس (١) .

ولما فتح حسان قرطاجنة أرسل أسطوله إلى الجزر المتصلة بساحل إفريقية ففتحها . . . وكان قد استمد عبد الملك بن مروان، فأمده بأسطول تحت قيادة عبد الملك بن قطن، فطهر الجزر التي كانت مكمناً للأعداء، كما بعث إلى فاس خيلاً ففتحها، وبهذا خلصت إفريقية لحسان، ولم تعد هناك قوة تعارضه أو تنتقص من أمارته على البلاد، نعم، بقيت بضع نوحي لم يصل إليها المسلمون بعد، وبعض قبائل لم تعلم بمقدمهم، ولكن ذلك لا يمنع من القول بأن الفتح الحربي قد تم، وأن واجب حسان الآن هو الاهتمام بنواحي أخرى في تلك البلاد لنشر الإسلام، وتقرير أمور البلاد، وخراجها وشئونها وما إلى ذلك، أدرك حسان بثاقب فكره وبعد نظره، أن استعادة فتح قرطاجنة لا يمنع الروم من الإغارة عليها بحراً مرة أخرى ولاتحصن فيها من جديد ما لم ينشئ ميناء جديداً، ويكون له أسطول بحري قوي ، ولم يلبث حسان أن وقع اختياره على ترشيش، فبدأ يحصن المدنية من جديد، ويبدو أن مدينة ترشيش كان قد اضمحل أمرها ، حيث بدأ المسلمون يعيدون بناءها ولم يبق منها إلا دير يقيم فيه بعض الرهبان، قد كان العرب يسمعون أصوات بعض الرهبان طول الليل في صلواتهم ليستأنسون بهم، فقالوا: هذه البقعة تونس، وقيل: إن المسلمين سموها: تونس لجمالها ولما تدخله من الأنس والبهجة على القلوب، وبهذا استطاع حسان أن

(١) انظر: المسالك والممالك للبكري، (ص ٣٧) نقلاً عن قادة فتح المغرب (١/ ١٩٩).

ينشئ مدينة ثانية بإفريقية، وإذاكانت القيروان قد أصبحت من يوم أنشئت محرساً بريًّا ومعسكراً بحريًّا وميناء جديداً للبلاد يقوم مقام قرطاجنة..

وبقيام هذه المدينة ، حيل بين الروم وبين إفريقية فلم يعودوا يستطيعون النزول إلى أرضها، فأمن المسلمون شرهم وأصبح وجودهم منصرفاً إلى تنظيم البلاد تمهيداً للإسلام، دون أن يزعجهم الروم بهجماتهم المفاجئة بين الحين والحين.

المطلب الثالث

إصلاحاته

أولاً: في سنة اثنتين وثمانين:

استقامت إفريقية لحسان فدوَّن الدواوين، وصالح على الخراج ، وكتبه على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية من البربر، ثم أوعز إليه عبد الملك بن مروان باتخاذ دار الصناعة لإنشاء الآلات البحرية حرصاً على مراسم الجهاد، ونزل موضع القيروان، وبنى مسجد جماعتها ، وخطط مدينة تونس، وبدأ بنيانها، وحفر قناة تصل بحيرة تونس بالبحر.

تلك إصلاحات مهمة جداً، منها إدارية مثل بناء تونس وحفر قنواتها وبناء مسجد القيروان، ومنها إصلاحات عسكرية، كتجنيد جيش البربر، ومنها إنشاء أسطول بحري إسلامي.

ثانياً: تدوين الدواوين والإصلاحات الإدارية:

دون حسان الدواوين، وأقام لكل وظيفة من وظائف الدولة الكبرى ديواناً فيه الكتبة والرؤساء والمسئولين ، ونظم الجيش وقسمهم على الثغور وفرض لهم العطاء من بيت المال ، وأقام العلم على النواحي الإدارية من خراج وزكاة وجند

وما إلى ذلك مما كان في غير إفريقية من بلاد المسلمين إذ ذاك ، وأقام حسان المساجد في المدن والقرى، وأقام فيها الفقهاء للصلاة والوعظ، والإرشاد والفتوى في المسائل الدينية، وأقام المدارس الابتدائية بجانب كل مسجد لتعليم أبناء المسلمين دينهم ، وتحفيظهم القرآن الكريم ، وتطبع على ألسنتهم بلغته واختار حنش بن عبد الله الصنعاني عاملاً على الزكاة، وفرض حسان الجزية والخراج على من أقام على دينه من النصارى، وعين القضاة للنواحي، وأقام الحراس في النُّهُج والطرقات لحفظ الأمن، وقسم الأراضي بين قبائل البربر، فعين لكل قبيلة خطتها ، وألزم كل قبيلة زراعة أرضها ودفع زكاتها لبيت مال المسلمين.

وقد عد حسان أرض البربر وبلادهم مفتوحة صلحاً، لذلك أقر الأرض في أيدي البربر وجعلها لهم، واعتنى حسان بالمدن والقرى فمهد الطرق للسابلة، وأصلح القنوات للري، وجدد بناء مسجد القيروان ووسعه . . .

واعتنى بالقاعدة المتقدمة البحرية التي أنشأها في إفريقية، وأنشأ مرفأها «الميناء» ودار الصناعة ولم يكن لأهل المغرب أي لغة يتفاهمون بها كلهم، وطريقة يكتبون بها ما يريدون كتابته، ولما كانت العربية هي لغة القرآن والإسلام فقد بدءوا يقبلون عليها ويتعلمونها، فجد حسان كل الجد في تعليم العربية للبربر، لأنها أصل الدين.

وضرب حسان السكة للمغرب دنانير وفلوساً، كان الناس يتعاملون بسكة القوط والبيزنطيين، وهي تحمل رسم ملوكهم وشعارات دولهم.. وكان حسان قد قضى على الروم سياسيًّا وعسكريًّا، وبقي لهم سبب ديني يربط الطوائف النصرانية من الروم الإفريقيين ببيزنطة وهي العلاقات الكنيسية، فقطعها خوفاً من أن يتذرع بها البيزنطيون ويتصلون بالمغرب ، فوصل الكنيسة القرطاجنية بالكنيسة المرقصية الأرثوذكسية في مصر وقطعها عن الكنيسة الكاثوليكية في

روما وبيزنطة [١] .

ثالثاً : مؤسس ولاية المغرب :

بهذا اكتملت الأسباب لتكون المغرب بلاداً إسلامية صرفة يحكمها عامل خليفة المسلمين ويدين أهلها بالإسلام، ويتخذون العربية لغة.

وسواء أكان السبب الأكبر في ذلك هو بساطة العقيدة الإسلامية أو لم يكن، فإن المغرب الإسلامي القديم اختفى بأديانه ومذاهبه المختلفة ، وحضاراته الهالكة ، وحل محله المغرب، أمة واحدة ذات دين واحد ولغة واحدة وحضارة واحدة ، ووجهة واحدة ، وكان لحسان أثر بالغ في ذلك ... ولقد كان حسان بحق المؤسس الأول لولاية المغرب الإسلامي العربي [٢] .

---

(١) **قلت**: ولأهل الذمة حقوق وعليهم واجبات، بيننا وبينهم عقد يُعرف بعقد أهل الذمة، وهو تأمين من أجاب المسلمين إلى دفع الجزية من الكفار وتعهد للمسلمين بالتزام أحكام الشريعة الإسلامية في الحدود كالقتل والسرقة والعرض، ويتولى عقد الذمة الإمام أو نائبه من أمراء الأجناد فقط، أما غيرهما فليس له حق في ذلك، بخلاف الإجارة والتأمين، فإنه لكل مسلم ذكر أو أنثى أن يجير ويؤمن، وقد أجارت أم هانئ بنت أبي طالب رجلاً من المشركين يوم الفتح فأتت الرسول ﷺ فذكرت له ذلك فقال: **[قد أجرنا من أجرت، وأمّنّا من أمنتي يا أم هانئ]** ولأهل الذمة على المسلمين حفظ أرواحهم وأموالهم وأعراضهم، وعدم أذيتهم ما وفوا بعهدهم ولم ينكثوه، لقوله ﷺ : **[من آذى ذمياً فأنا خصمه يوم القيامة]** فإن هم نكثوا عهدهم ونقضوه بارتكاب ما من شأنه نقض العهد حلت دماؤهم ، دون نسائهم وأموالهم، وأن لا يؤخذ المرء بذنب غيره، وينتقض عهد الذمة بأمور منها: الامتناع عن بذل الجزية،وعدم التزامهم بأحكام الشرع التي كانت شرطاً في العقد، وتعديهم على المسلمين بقتل، أو قطع طريق، أو تجسس، أو إيواء جاسوس للعدو، أو زنى بمسلمة، وينقض العهد أيضاً: بأن يذكروا الله ورسوله أو كتابه بسوء ، أما الخراج الذي ضربه حسان على البربر فهو: ما يضرب على الأراضي التي فتحها ا لمسلمون عنوة، فإن الإمام مخير عند احتلاله فتحه أرضاً بالقوة بين أن يقسمها بين المقاتلين وبين أن يوقفها على المسلمين، ويضرب على من هي تحت يده من مسلم وذمي خراجاً سنوياً معلوماً ينفق بعد جبايته في صالح المسلمين العام ، كما فعل عمر رضي الله عنه فيما فتحه من أرض الشام، والعراق، ومصر، ولو صالح الإمام العدو على خراج معين من أرضه، ثم أسلم أهل تلك الأرض، فإن الخراج يسقط عنهم لمجرد إسلامهم بخلاف ما فتح عنوة، فإنه وإن أسلم أهله فيما بعد، يستمر مضروباً على تلك الأرض.

(٢) قادة فتح بلادالمغرب (١ / ٧٢-٢١٥).

المطلب الرابع

أهم صفاته القيادية ومبادئه الحربية

لقد كان حسان قائداً عبقرياً قام في حملته على إفريقية والشمال الإفريقي بعدة أعمال تنم عن شخصيته القيادية، فقد قضى على قوة الروم، وفتت قوة البربر وفتح قرطاجنة عاصمة الروم في إفريقية، وضيق الخناق على قوات الروم حتى قواتها الضاربة، ثم قاتل البربر وقضى على الكاهنة، ثم بذل قصارى جهده لنشر الإسلام بين البربر، فأصبح بين صفوفه اثنا عشر ألفاً من المقاتلين الشجعان بدلاً من أن يكون هؤلاء في صفوف أعدائه فما هي صفات هذا القائد العبقري الفذ، ومبادئه الاستراتيجية التي طبقها في حملته الجهادية ؟ .

أهم صفاته القيادية :

لقد كان حسان رجلاً عاقلاً، رزيناً، مخلصاً وفيّاً، صادقاً، نقياً، ورعاً، أميناً حتى كان يسمى : الشيخ الأمين، وكان يتمتع بصفة بعد النظر، واستخدام العقل في محل العقل، والسيف محل السيف، شجاعاً، مقداماً، شهماً، ذكياً فطناً متيقظاً، له القدرة على إعطاء القرارات السريعة الصحيحة .

أهم مبادئه الحربية :

مبدأ جمع المعلومات عن العدو، مبدأ اختيار المقصد وإدامته، مبدأ التعرض، مبدأ المباغتة، مبدأ تحشيد القوات، مبدأ الاقتصاد بالمجهود، مبدأ إدامة المعنويات، مبدأ الأمور الإدارية (١) .

---

(١) راجع المرجع السابق :(١/ ٢١٨، ٢١٩) .

المطلب الخامس

استشهاده

لقد مكث حسان أميراً على إفريقية قرابة اثنتي عشرة سنة، قائداً، ومقاتلاً، عبقرياً، سياسياً ماهراً، حتى تم عزله في ولاية عبد العزيز بن مروان أخي عبد الملك خليفة المسلمين لولاية مصر، وكان ذلك سنة خمس وثمانين الهجرية، وقد لزم حسان بيته بعد عزله ، ثم غز بلاد الروم فاستشهد في تلك الغزوة.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب:« وقد لزم حسان بيته بعد عزله، ثم غزا بلاد الروم فمات هناك... وفي رواية: أنه توفى سنة ثمانين هجريةغازياً في أرض الروم » (١) .

ولكن هل بعد استشهاده ينسى التاريخ هذا القائد البطل، والسياسي العبقري وما سطره بعرقه ودمه من فتوحات في سبيل نشر هذا الدين القويم؟! أليس يذكر التاريخ له أنه: « خاض معركة حاسمة من الدرجة الأولى ضد الروم وقضى على آمالهم نهائياً في البقاء في إفريقية، ويذكر له أنه خاض معركة حاسمة من الدرجة الأولى ضد البربر ، فأصبحوا بعدها مع المسلمين لا عليهم، ويذكر له أنه فتح قرطاجنة فحرم الروم من عاصمتهم، التي كانت في نفس الوقت القاعدة الأمنية لهم في إفريقية.

ويذكر له أنه فتح مدينة فاس ، ويذكر له أنه نشر في ربوع إفريقية الإسلام بين البربر، ويذكر له أنه أنجز إصلاحات حيوية في إفريقية،كانت ولا تزال الجذور العريقة لبقاء هذه البلاد إسلامية ، ويذكر له، أنه جعل الفتح الإسلامي في إفريقية فتحاً « مستداماً »: صمد أمام الغزو العسكري الغربي، وأمام الغزو الفكري الغربي، وتحمل من أجل الحفاظ على عقيدته وإسلامه كثيراً من التضحيات

---

(١) المرجع السابق: (١/ ٢٠٥).

بالأرواح والأموال ، رضي الله عن التابعي الجليل ، السياسي المحنك ،الإداري الحازم ، الداعية الحصيف ، البطل الشجاع ، المفكر الفذ ، القائد الفاتح ، حسان ابن النعمان الغساني » (١) .

صدق قول الشاعر إذ يقول:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

(١) المرجع السابق: (١ / ٢٢٠) .

المبحث الخامس

موسى بن نصير اللخمي

تولى موسى بن نصير رحمه الله منصب والي إفريقية والمغرب سنة اثنتين وثمانين الهجرية بعد عزل القائد العبقري حسان بن النعمان عن ولاية تلك المنطقة ؟!.

المطلب الأول

اسمه ونسبه، وميلاده ونشأته

اسمه ونسبه:

« هو موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد، ويُكنى: أبا عبد الرحمن من بني لخم، ويقال له: إنه مولى لخم، وقيل: إنه من أراشة من بلى، ويذكر أولاده أنه من بكر بن وائل، وغيرهم يقول: إنه مولى.

إنه عربي، أبوه نصير كان أسمه: نصراً فصغر، كان من بين سبايا « عين التمر » الذين سباهم خالد بن الوليد المخزومي سنة اثنتي عشرة هجرية، فقد وجد خالد أربعين غلاماً يتعلمون الإنجيل عليهم بابا مغلق فكسره عنهم، وقال: وما أنتم؟ فقالوا: رهبان، منهم نصير أبو موسى بن نصير، وكان نصير ينسب إلى بني « يشكر » فقسمهم خالد في أهل البلاد، فأصل موسى من عين التمر، وقد أعتق نصيراً بعض بني أمية ، فرجع إلى الشام، ثم أصبح على حرس معاوية وعلى جيوشه ، وكانت منزلته عنده مكينة [1] .

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٤ / ٤٩٦).

ميلاده ونشأته:

« ولد موسى سنة تسع عشرة هجرية (٦٤٠م) في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقرية يقال لها « كفر متري » ونشأ في بيت له صلة مباشرة بالجندية، قريباً من قادة الفتح الإسلامي، وقادة الفكر الإسلامي في الشام دار الخلافة بتماس شديد بمعاوية بن أبي سفيان، ومن حوله من قادة الفتح والفكر، بكنف أبيه نصير الذي كان يمتاز بالجرأة والصراحة والورع، فكان لكل ذلك أثره البالغ في حياة موسى قائداً وإنساناً » [1] .

وعندما أشتد عوده، وظهرت عليه بوادر النجابة والحيوية ، وأكسبه الزمان تجربة وعلمًا ، ولاه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما أيام خلافته البحر ، فغزا قبرص وبنى هناك حصوناً مثل « الماعوصة » و« بانس »، وغير ذلك من الحصون التي بناها في « قبرص » وكان نائب معاوية عليها، وكان معاوية قد فتح « قبرص » سنة ثمان وعشرين هجرية، وفي سنة أربع وستين شهد موسى معركة « مرج راهط » مع الضحاك بن قيس الفهري الذي كان يدعو سرًّا إلى عبد الله بن الزبير ثم دعا إلى نفسه، فلما قتل الضحاك وانتصر عليه مروان بن الحكم لجأ موسى إلى عبد العزيز بن مروان فحماه وأنقذ حياته من خطر داهم ، وبذلك ابتدأت الصلة الوثيقة بين عبد العزيز بن مروان وموسى بن نصير، ثم أصبح بعد ذلك وزيراً ومستشاراً لوالي مصر عبد العزيز بن مروان، ولما تولى عبد الملك الخلافة عمل موسى مساعداً لأخيه بشر بن مروان على الكوفة والبصرة، ثم تولى أمور العراق، ثم عزل وجاء الحجاج فخاف موسى بن نصير منه فذهب إلى عبد العزيز بن مروان الذي أصلح ما وقع من جفوة بين موسى ابن نصير وعبدالملك بن مروان .

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب (١ / ٢٢١، ٢٢٢) .

المطلب الثاني

جهاده في البر

بعد أن عزل عبد العزيز بن مروان والي مصر حسان بن النعمان والي إفريقية ولّى مكانه موسى بن نصير، وكان ذلك في أواخر سنة خمس وثمانين الهجرية أو في أوائل سنة ست وثمانين الهجرية.

أولاً: عندما توافدت الجيوش، قام موسى بن نصير خطيباً، فكان مما قاله: «وإنما أنا رجل كأحدكم، فمن رأى مني حسنة، فليحمد الله، وليحض على مثلها، ومن رأى مني سيئة، فلينكرها، فإني أخطئ كما تخطئون، وأصيب كما تصيبون، وقد أمر الأمير أكرمه الله لكم بعطاياكم وتضعفيها ثلاثاً، فخذوها هنيئاً مريئاً، من كانت له حاجة فليرفعها إلينا، وله عندنا قضاؤها على ما عز وهان، ومع المواساة إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وهكذا أنجز موسى قبل أن يدخل إفريقية حشد جيشه وأكمل استحضاراته الإدارية، وساوى نفسه برجاله، وأعطاهم ما يستحقون من أعطيات وضاعفها لهم ثلاثاً، وفتح بابه على مصراعيه لتلبية احتياجاتهم كلها، لقد بدأ موسى بداية موفقة جداً في تحمل مسئوليته الجسيمة.

ثانياً: وسار موسى متوجهاً إلى المغرب، وكان الأمن هناك غير مستتب، فلما وصل إفريقية وبها صالح الذي استخلفه حسان بن النعمان على إفريقية، وجد أن البربر قد طمعوا في البلاد بعد مسير حسان، فجمع الناس وألقى فيهم خطاباً بين فيه بوضوح الخطوط العريضة لسياسته العامة في الفتح، قتال العدو القريب أولاً، حتى إذا انتهى من أمره تغلغل بعيداً بالتدريج لقتال العدو البعيد.

ثالثاً: وتنفيذاً لهذه الخطة العسكرية الحكيمة، بدأ باستعادة جبل «زغوان»، وما حوله وبينه وبين القيروان مسيرة يوم كامل، وبنواحي زغوان قبائل من البربر، فبعث إليهم موسى خمسمائة فارس، فاستعاد فتح زغوان وسبى،

فكان ذلك السبي أول سبي دخل القيروان، كما وجه ابنه عبد الله بن موسى إلى بعض نواحي إفريقية فأتى بسبي كثير، ثم وجه ابنه مروان فأتى كذلك بسبي كثير، واستطاع موسى بن نصير أن يقضي على جيوب المقاومة في إفريقية، وخضعت له قبائل البربر، وجعل من منطقة القيروان وما حولها قاعدة أمنية ينطلق منها موسى بن نصير وهو آمن على خطوط مواصلاته، لتنفيذ خططه في الفتح متغلغلاً في المغرب الأوسط والمغرب الأقصى، وبعد أن تم لموسى إخضاع المغرب الأوسط من صحراء درعة إلى السوس الأقصى إلى بلاد المصامدة، تطلع موسى نحو طنجة التي كانت تخضع للأمير الرومي يليان «جوليان» منذ أيام عقبة بن نافع.

رابعاً: خرج موسى من القيروان لفتح طنجة، وجعل على مقدمته مولاه طارق بن زياد، فلم يزل يقاتل ويفتح مدائنهم حتى بلغ مدينة طنجة وهي قصبة بلادهم وأهم مدائنهم ، فلما دنا موسى من طنجة بث السرايا، فانتهت خيله إلى السوس الأدنى فوطئهم وسباهم، وأدوا إليه الطاعة ، وولى عليهم والياً فأحسن فيهم السيرة.

وحاصر موسى طنجة حتى افتتحها ونزلها، وهو أول من نزلها واختط فيها للمسلمين، فأسلم أهلا وخطها موسى قيرواناً للمسلمين، وسار موسى إلى مدائن على شط البحر فيها عمال لصاحب الأندلس، قد غلوا عليها وعلى ما حولها، ورأس تلك المدائن «سبتة» وعليها يليان «جوليان» فقاتله موسى، فألفاه في نجدة وعدة وقوة فلم يطقه، فرجع إلى مدينة طنجة وأقام هناك بمن معه ، وأخذ في الغارات على من حولهم والتضييق عليهم، والسفن تختلف إليهم بالميرة والإمداد من الأندلس من قبل ملكها غيطشة، فهم يذبون عن سبتة ذبًّا شديداً، ويحمون بلادهم حماية تامة وكانت سبتة مدينة حصينة قريبة من الأندلس ، مما ساعد على صمودها بوجه المسلمين الفاتحين.

وكان بطنحة من البربر بطون البتر والبرانس من لم يكن دخل في الطاعة، فوضع موسى على ساحل طنجة حامية للرباط مؤلفة من ألف وسبعمائة رجل عليهم ابنه مروان، ولكن مروان انصرف وخلف على جيشه طارق بن زياد، وبذلك تم فتح المغرب الأقصى إلا إقليم سبتة، وانتشر الإسلام فيه، عاد موسى إلى القيروان بعد أن استعمل على طنجة وأعمالها مولاه طارق بن زياد، وترك عنده تسعة عشر ألفاً من البربر بالأسلحة والعدة الكاملة ، وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم ، وترك موسى عندهم خلقاً يسيراً من العرب ليعلّموا البربر القرآن وفرائض الإسلام .

المطلب الثالث

جهاده في البحر

﴿١﴾ مهد موسى لجهاده في البحر بالاهتمام بعمران مدينة تونس وتوسيع دار الصناعة بها، وشق القناة التي توصل بين الميناء « رادس » وبين المدينة على طول اثني عشر ميلاً حتى أقحمه دار الصناعة ، صارت مشتى المراكب إذا هبت الأنواء بالرياح،حيث أمر بصناعة مئة مركب .

﴿٢﴾ أمر موسى بالتأهب لركوب البحر، وأعلمهم أنه راكب بنفسه، فرغب الناس وتسارعوا فلم يبق شريف ممن كان معه إلا وقد ركب الفلك، فعقد موسى لواء هذه الغزوة لابنه عبد الله بن موسى بن نصير، وولاه عليهم وأمرهم وأمره، ثم أمره أن يتوجه إلى هدفه، إنما أراد موسى بما أشار من مسيره، أن يركب أهل الجلد، والنكاية والشرف، فسميت هذه الغزوة غزوة الأشراف، وسار عبد الله بن موسى بن نصير في مركبه، وكانت تلك الغزوة أول غزوة غزيت في بحر إفريقية « البحر الأبيض المتوسط » فأصاب في غزوته تلك صقلية، افتتح مدينة فيها، فبلغ سهم الرجل مائة دينار ذهباً، وكان المسلمون ما بين الألف إلى التسعمائة، ثم انصرف قافلاً سالماً ، وكان ذلك في سنة خمس وثمانين هجرية

﴿٣﴾ وبعث موسى عياش بن أخيل على مراكب أهل إفريقية، فشتا في البحر، وأصاب مدينة يقال لها: « سرقوسة » ثم قفل في سنة ست وثمانين هجرية ، وكان عبد العزيز بن مروان أمير مصر قد بعث عطاء بن أبي نافع الهذلي في مراكب أهل مصر إلى « سردانية » فأرسى بـ « سوسة » فأخرج إليه موسى ما يحتاجه من الأمور الإدارية « الأرزاق، وسلاح، وتجهيزات » وكتب إليه « إن ركوب البحر قد فات في هذا الوقت وفي هذا العام ، فلا تغرر نفسك، فإنك في تشرين الآخر، فالزم مكانك حتى يتسيَّرْ ركوب البحر ، فلم يكترث عطاء بنصيحة موسى، وشحن مراكبه ثم رفع متوجهاً إلى هدفه، وفي سردانية غنم المسلمون غنائم ضخمة ، ثم انصرف قافلاً فأصابته ريح عاصف، فغرق عطاء وأصحابه .

وفي سنة تسع وثمانين هجرية عقد موسى لعبد الله بن مرة على بحر إفريقية فأصاب « سردانية » وفتح مدائن، فبلغ سبيها ثلاثة آلاف رأس سوى الذهب والفضة والمواد الأخرى، وفي سنة تسع وثمانين هجرية جهز موسى ولده عبد الله، فافتتح جزيرتي « ميورقة » و« منورقة » وهما جزيرتان في البحر بين صقلية وجزيرة الأندلس .

المطلب الرابع
جهاده في الأندلس

﴿١﴾ كان فتح الأندلس نتيجة طبيعية لتمام فتح المغرب، لأن الأندلس هو الجناح الغربي للمغرب، ولأن الأندلس كان المجال الحيوي للفتح الإسلامي بعد إنجاز فتح المغرب الإفريقي، واستقرار الفتح فيه بانتشار الإسلام، وبوجود القوة الضاربة في جانب المسلمين، ولم يستعص على موسى غير مدينة سبتة لمناعتها ووصول الإمدادات إليها من إسبانيا القوطية عن طريق البحر، وكان يحكمها من قبل القوط في إسبانيا حاكم اسمه جوليان ويسميه المسلمون يليان أو بوليان، وقد اختلفت المصادر في شخصية بوليان هذا، فبعضها يذكر أنه قوطي، وبعضها

يزعم أنه رومي، وبعضها ينسبه إلى بربر غمارة . . . وبدأت حركة استقلالية في أطراف البلاد ظلت مستمرة حتى دخول المسلمين أرض الأندلس.

﴿٢﴾ غزوة طريف:

وكان موسى يتوق إلى فتح الأندلس، وكان عامله على طنجة هو طارق بن زياد يتطلع إلى الأندلس أيضاً، وبينما كان موسى يرقب الفرص لتحقيق هذه الأمنية، إذ جاءته رسالة من « يوليان » يعرض فيها تسليم معقله « سبتة » ويدعوه إلى فتح إسبانيا ، وجرت بينهما المفاوضة في هذا المشروع الخطير، وهنا تختلف الرواية في هذا الاتصال، فيقال إن موسى ويوليان اتصلا بالمراسلة، وقيل: إنهما اتصلا بالمقابلة الشخصية ، وإن يوليان هذا استدعى موسى إلى سبتة، وهناك جرت المفاوضات بينهما، وقيل: إنهما اجتمعا في سفينة في البحر، وعلى أي حال فقد استجاب موسى لدعوة يوليان وكان هدف يوليان الانتقام من لذريق الذي اعتدى على ابنته، وكذلك الوفاء لغيطشة صديقه الوفي الملك السابق قبل لذريق.

واهتم موسى بمشروعه اهتمامًا كبيراً، فكتب إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بأمر هذا المشروع، فكتب إليه الوليد بأن يختبرها بالسرايا،وأن لا يغرر بالمسلمين، فبعث موسى رجلاً من البربر يسمى طريفاً، ويُكنى بأبي زرعة ، في مائة فارس وأربعمائة راجل فجاز في أربعة مراكب حتى نزل ساحل البحر في الأندلس فيما يحاذي طنجة، وهو المعروف اليوم بـ« جزيرة طريف »، سُمِّيت باسمه لنزوله هناك، فأغار منها على ما يليها إلى جهة الجزيرة الخضراء ، وأصاب سبايا ومالا كثيراً، ورجع سالماً.

﴿٣﴾ فتح طارق :

وفي رجب سنة اثنتين وتسعين الهجرية (نيسان – أبريل ٧١١ م) جهز موسى جيشاً من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد الليثي،

فعبر البحر من سبتة بجيشه تباعاً في سفن يوليان، ونزل بالبقعة الصخرية المقابلة التي لا تزال تحمل اسمه حتى اليوم، أعني « جبل طارق »، وتوالت انتصارات طارق، ففتح مدينة قرطاجنة الجزيرة، ثم زحف غرباً وفتح المنطقة المحيطة بقرطاجنة ، وأقام قاعدة حربية في موضع يقابل « الجزيرة الخضراء » وعليه أقيمت هذه المدينة فيما بعد، وبعد معارك محلية أكمل المسلمون فتح الجزيرة الخضراء وسيطروا على المجاز إلي الأندلس، فزحف لذريق لصد المسلمين، فكتب طارق إلي موسى بأن لذريق زحف إليه بما لا قبل له به، فأرسل إليه موسى « مدداً من خمسة آلاف من المسلمين وعلى رأسهم طريف بن مالك ، وأغلبهم من الفرسان، وبهم كملت عدة من مع طارق اثنى عشر ألفاً التقى الجيشان في يوم الأحد ٢٨ رمضان سنة اثنتين وتسعين هجرية (١٩ تموز - يوليو سنة ٧١١ م) على وادي « برباط » أو وادي « لكة » قرب مدينة « شذونة » واستمرت المعركة ما يقرب من ثمانية أيام، وانتهت بهزيمة القوط هزيمة ساحقة، كانت هذه المعركة هي المعركة الحاسمة التي فتحت أبواب الأندلس للمسلمين.

أحدث انتصار طارق في وادي « لكة » دوياً هائلاً في المشرق والمغرب، وتسامع الناس من أهل بر العدوة بالفتح على يد طارق بالأندلس وسعة الغنائم فيه ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب، فلحقوا بطارق .

وبدأ طارق يجني ثمار جهده وانتصاره في وادي لكة ففتح « شذونة » عنوة، ثم مضى إلى « المدور » ثم عطف على « قرمونة »، ثم اتجه إلى إشبيلة فصالحه أهلها على الجزية، ومنها زحف إلى إستجة وكانت تؤلف المركز الأول للمقاومة، إذ كانت فلول القوط قد تجمعت هناك، فظفر طارق بصاحب المدينة وأرغمه على الصلح وفرض عليه الجزية .

وفرق طارق جيشه من إستجة فبعث مغيثاً الرومي مولى الوليد بن عبد الملك

إلي قرطبة في سبعمائة فارس، وبعث جيشاً آخر إلي « مالقة »، كما بعث جيشاً ثالثاً إلي « البيرة » أما هو فسار إلي كورة « جيان » بمعظم جنوده في طريقه إلي « طليطلة » وعبر طارق الوادي الكبير، فدخل « طليطلة » سنة ٩٣ هجريةدون مقاومة تذكر.

لقد تغلغل طارق تغلغلاً عميقاً في أنحاء الأندلس، بشكل لا يتناسب مع ما لديه من قوات، فماذا كان رد فعل موسى بن نصير القائد العام بالمغرب كله، والمسئول الأول تجاه القائد الأعلى في الشام؟ (١) .

﴿٤﴾ خطبة طارق الشهيرة :

« أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدو من أمامكم، وليس والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه، وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلاما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً، ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العافية من أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النكوص، إلا وأنا أبدأ بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً، استمتعتم بالأرفه الألذ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظكم فيه بأوفى من حظي .. وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المومنين من الأبطال عزباناً، رضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختانا ثقة منه بأريحيتكم للطعان، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان،

---

(١)قادة فتح بلاد المغرب (١ / ٢٤٠، ٢٥١).

ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون غنيمة خالصة لكم من دونه، ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى ولي أنجدكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين، واعلموا أني أول مجيب إلي ما دعوتكم إليه، وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى، فاحملوا معي، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في هزيمتي هذه واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يخذلون» (١) .

قلت : تضاربت الأقوال في صحة نسبة هذه الخطبة إلي طارق، فقد ذهب المؤرخ الشامي شوقي أبو خليل إلى إثباتها وعلق على هذه الخطبة فقال: يحلو لبعض المعاصرين التحذلق فقالوا: طارق بربري.. فلا يعقل مطلقاً أن يخب خطبة محبوكة فصيحة مثل هذه الخطبة الرائعة، التي وازن فيها في ترغيب ساحر أخَّاذ بين الدين والدنيا.

فأي موجب للشك في نسبة هذه الخطبة لطارق، وطارق اشتهر في قومه بالفصاحة..، ماذا يفيد الإرتياب في أمر تتشابه دلائل عديدة في مراجعنا وبشكل صريح، علماً أن الأدلة لا تتكامل على نقضه ففي نفح الطيب، وصف لطارق يقول: «إن طارقاً كان حسن الكلام، ينظم ما يجوز كتبه»... علماً أن والد طارق «زياد» أسلم منذ أيام عقبة بن نافع... لذلك شب طارق في بيت مسلم، لقنه تعاليم الإسلام، أبوه من ناحية، وموسى من ناحية ثانية.

عجباً للأجانب :

شرقيهم وغربيهم، إن وجدوا في تاريخهم قصة أو قولاً أو حادثة تنهض

---

(١) نفح الطيب ١/ ٢٢٥ .

بجيلهم، وتثبت في نفوس النشء روحاً وتربطهم بأمتهم وذاتيتهم، صححوها وإن لم يروا إلا مرجعاً واحداً من مراجعهم، بل قد يختلقون أحداثاً، وينسجون قصصاً يلصقونها برجالاتهم لما في ذلك من مصلحة للجيل وفائدة للنشء، وخير للأمة، وعجباً لنا... ما بالنا؟! ، مراجعنا تذكر أن طارق كان حسن الكلام ، ينظم ما يجوز كتبه ، وترعرع في بيت مسلم يتلى فيه قرآن كريم ، ثم يأتينا من يقول: ما أظن ، وكان اجتيازه البحر في شهر رجب سنة اثنتين وتسعين هجرية (٧١٠ م) [١] .

المطلب الخامس

طارق بن زياد في سطور

اسمه ونسبه :

أورد ابن عذاري المركشي، صاحب «البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب» نسب طارق بن زياد فقال: «هو طارق بن زياد بن عبد الله بن لغو بن ورقجوم بن نير عغسن بن ولهاص بن يطوفت بن نفزاو... فهو نضري» [٢] .

وفي دائرة معارف الشعب جاء: «وقد اختلف مؤرخو العرب في أصله – أصل طارق – فذهب بعضهم إلى أنه كان فارسياً همذانياً، وذهب فريق آخر ومنهم الحميدي صاحب جذوة المقتبس، إلى أنه كان بربرياً من إفريقية، ومن قبيلة نفزة البربرية، وأنه لم يكن بربري الأصل، وإنما كان ينتسب إلى الصدقة [٣] .

وذهب شوقي أبو خليل إلى أنه: « كان بربري الأصل... فقد قيل: إنه طويل القامة، ضخم الهامة، أشقر اللون، وتنطبق هذه الصفات على عنصر البربر» إن

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب(١ / ٢١٤) .

(٢) البيان المغرب(١ /٤٣) .

(٣) دائرة معارف الشعب(٢ / ٢٣٧) .

الأدلة الصادقة تؤكد نسبة طارق إلى البربر.

قلت: وإخواننا المسلمون من البرابرة أبطال وشجعان تربوا في أحضان القرآن، وأشربت قلوبهم تعاليمه، وأصبحوا أصحاب رسالة خالدة صنعت منهم الأبطال على مر العصور والأزمان فهم إلي الإسلام منتسبون وبه يعتزون وما تقوم به المنظمات النصرانية واليهودية، والدول الغربية من إحياء النعرات البربرية والعربية في أوطاننا ما هي إلا هباءً منثوراً ، وستتحطم جهودهم على صخرة الإسلام الخالدة ، الأيام كفيلة بذلك .

إن إخواننا البرابرة عندما أكرمهم الله بالإسلام قدموا كل ما يملكون في سبيل عقيدتهم ودينهم، بل نستطيع أن نقول إن الجيوش الإسلامية الضاربة التي اصطدمت بالإسبان اعتمدت بعد الله على إخواننا البرابرة الذين اندفعوا خلف طارق في سبيل هذا الدين ونشره للعالمين ، إن هذه العقيدة صهرت المنتسبين إليها عرباً وعجماً في بوتقة الإسلام العظيمة، أي بربري يستطيع أن يقول ما قيل في الخطبة، وهل من الضروري أن يكون جده عنترة ، أو زهير بن أبي سلمى، أو عمرو بن كلثوم حتى يقول ما قيل في الخطبة؟ هات طفلاً من الصين أو من أواسط إفريقيا، أو من صحراء نيفادا، وأنشئه على تلاوة وحفظ القرآن، كما نشأ طارق لخرج خطيباً مصقعاً، حسن الكلام ينظم ما يجوز كتبه، فما بالنا نشكك في خطبة طارق؟ [١] .

ويقول شوقي أبو خليل أيضاً : إنني ما زلت أيام الطفولة، أيام الصف الرابع الابتدائي عندما كانت هذه الخطبة ضمن برنامج القراءة، تعلوها صورة خيالية لطارق يخطب في الجموع، والسفن تحترق في المضيق ما زلت أذكر شعورنا عندما شرح المعلم لنا فتح الأندلس، وقصة حرق السفن والخطبة ، لقد عشنا

---

(١) فاتح الأندلس طارق بن زياد(٤٥، ٤٦) .

لحظات كأننا ننظر إلي الحادثة تقع أمامنا، وما زلت أحفظ قسماً من الخطبة حتى يومنا هذا، وإن لم يكن حفظها غيباً، وما رددت كلماتها إلا وشعرت بعزة وبروح معنوية تدب في النفس، مع كبرياء القلب، وفخر بتاريخ إسلامي مجيد [١] .

مناقشة إحراق السفن:

وشك آخر يذكره كثيرون، عما اشتهر عن إحراق طارق لسفنه، ونحن نذكر في هذا لصدد ثلاث نقاط تدعونا للتفكير ملياً قبل رفضنا فكرة الإحراق :

يقول شوقي أبو خليل :

﴿١﴾ لم تتضافر الأدلة على تدعيم الشك أو ترجيحه والعكس صحيح، تتضافر الأدلة على تدعيم الإحراق .

﴿٢﴾ وفي رواية ابن حبان، الموصوف بأنه صاحب لواء التاريخ في الأندلس، وأفصح الناس بالتكلم فيه، وأحسنهم تنسيقاً له ، عندما ذكر المدد الذي أرسله موسى لطارق، قال: « وكان عمل من السفن عدة » أي جاء المدد على سفن غير السفن التي أقلت طارقاً وجنده إلى أرض الأندلس.. وهذا يؤيد الإحراق، وإلا فلا معنى لعبارة تحشر حشراً، يشعها من وصف بأنه صاحب لواء التاريخ في الأندلس، وأفصح الناس بالتكلم فيه !!! .

إن عبارة « وكان عمل من السفن عدة » عبارة تستدرك جواباً لمن يسأل: لقد أحرقت السفن، فكيف نقل المدد؟ فيأتينا الجواب واضحاً: « وكان عمل من السفن عدة » وتاريخ غزوات العرب، أوضح أن موسى بن نصير، قد اهتم ببناء السفن والأساطيل على طول ساحل المغرب، ومن جبل طارق وحتى طرابلس الغرب وبصريح العبارة، جاء في نفح الطيب: « وكان موسى منذ وجه طارقاً لوجهه، قد أخذ في عمل السفن حتى صار عنده منها عدة كثيرة، فحمل إلي

---

(١) نفس المصدر (٤٤،٤٥) .

طارق فيها خمسة آلاف من المسلمين مدداً، كملت بهم عدة من معه اثني عشر ألفاً » وهذ جواب جلي واضح، لمن يسأل: ومن أين جاء موسى بالسفن وقد أحرق طارق السفن التي كانت معه؟! وقبيل المعركة أرسل لذريق من يستطلع أمر المسلمين، فعاد من استطلع ليقول لذريق: « فقد جاءك منهم من لا يريد، إلا الموت أو إصابة ما تحت قدميك، قد حرقوا مراكبهم أياساً لأنفسهم من التعلق بها ».

﴿٣﴾ صفحات من التاريخ العربي والإسلامي، تحمل أحداثاً مماثلة في الإحراق، لقد أحرق القائد الفارسي سفنه باليمن في نصرة سيف بن ذي يزن، وأحرق المسلمون سفنهم في صقلية ثانية، وفي كريت « أقريطش » مرة ثالثة في مستهل القرن الثالث الهجري » [١] .

قلت: ومع احترامي للقول المائل إلى الإحراق إلا أن بث الشجاعة في النفوس له طرق عدة، كما يمكن أن ترجع السفن إلى قواعدها سالمة، وينقطع أمل المجاهدين في ا لرجوع من حيث جاءوا.

﴿٤﴾ بين موسى وطارق:

بلغت موسى أخبار فتوحات طارق فغضب موسى لعصيان طارق لأوامره فقد أمره موسى ألا يتعدى قرطبة على قول، أو موضع هزيمة لذريق – في وادي لكة – على قول آخر، فسارع موسى إلى عبور المجاز ودخول الأندلس، وقيل: إنما جاز موسى باستدعاء من طارق إياه، فقد كتب طارق إلى موسى: « إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية، فالغوث.. الغوث » فلما آتاه الكتاب نادى الناس واجتمع العسكر.. فاستخلف عبد الله بن موسى على إفريقية وطنجة والسوس، وكتب ساعة قدم عليه كتاب طارق إلي مروان ابن موسى ابنه يأمره بالمسير، فسار مروان بمن معه، حتى أتي المجاز، فأجاز بمن زحف معه في جموعه، لقد كان نزول

---

(١) فاتح الأندلس طارق بن زياد (٤٥، ٤٦) .

موسى إلى الأندلس لسبب حربي، وهو تدعيم الفتح وترصينه، حتى يحول دون وقوع كارثة أكيدة على المسلمين من جراء تغلغل طارق في الأندلس تغلغلاً لا يتناسب مع ما لديه من رجال.

أما ما تواتر في كتب التاريخ العربي من أن موسى ما كاد يسمع بأخبار الفتح حتى أكل الحسد قلبه، وقرر أن ينال هو الآخر نصيبه من شرف الفتح، وأنه أساء معاملة طارق وضربه بالسوط فليس بصحيح ، إذ لا يعقل أن يصدر مثل ذلك عن تابعي جليل وفاتح عظيم كموسى، ثم إن طارقاً كان مولى موسى، يعمل بأوامره وينفذها نصاً وروحاً، وكان يكتب إليه أخبارالفتح أولاً بأول، فلو أن موسى حسد طارقاً أو أساء الظن به لاستطاع إزاحته من طريقه ، وذلك بعزله واستدعائه إلى القيروان ، ولايستطيع طارق مخالفة أوامر موسى في شيء.

إن كل الدلائل تشير إلى أن طارقاً كان مثالاً للطاعة والنظام، فقد بعث بأولاد غيطشة إلي مولاه موسى عندما وصلوا إلي طليطلة وقالوا له: أنت أمير نفسك أم على رأسك أمير؟ فقال طارق: بل على رأسي أمير وفوق ذلك الأمير أمير عظيم، وهذا يدل على منتهى الضبط وتقدير المسئولية والالتزام بسلسلة المراجع، ولعل أوضح دليل على أن موسى قدم الأندلس لمعونة طارق لا لتأديبه، وأن موسى قدم الأندلس لأغراض عسكرية بحتة، وأن موسى لم يذهب للقاء طارق بعد نزول أرض الأندلس وإنما انصرف إلى فتح كبار البلاد الجنوبية والغربية التي خلفها طارق دون فتح، وذلك لحماية جناح طارق الأيسر من جهة، ولتدعيم قواعد الفتح المتقدمة في الأندلس ولتثبيت قوات العدو بإشغالها في جبهات عديدة بقوات المسلمين الضاربة، فلما تم له ذلك سار موسى إلى طارق ولقيه في طليبرة على مقربة من طليطلة وحين التقيا قال موسى لطارق: «يا طارق إنه لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يمنحك الأندلس، فاستبحه هنيئاً مريئاً»، فقال طارق: «أيها الأمير! والله لا أرجع عن قصدي هذا ما لم أنتهي إلى

البحر المحيط أخوض فيه بفرسي »، ولم يزل طارق يفتح ومعه موسى إلى أن بلغ جليقية وهي على ساحل البحر المحيط.

وكان عبور موسى إلي الأندلس في رمضان سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١٢ م) من طنجة على رأس جيش قوامه ثمانية عشرة ألفاً من قريش والعرب ووجوه الناس.. ولقد كان ترصين قواعد الفتح المتقدمة وتأمين خطوط ومواصلات الفتح وحماية الجناح الأيسر الغربي لمنطقة فتح طارق، الأهداف الحيوية الأولى التي حققها موسى بعد إنزال قواته الأندلس.

فتح إشبيلية :

وتحرك بقوته نحو إشبيلية، وكانت من أعظم قواعد الأندلس وأتقنها بنياناً وأكثرها آثاراً وكان دار ملك قبل غلبة القوطيين على الأندلس.

فتح ماردة :

وكانت ماردة أيضاً دار مملكة لبعض ملوك الأندلس في سالف الدهر، وهي ذات عز ومنعة، وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر فائقة الوصف، فحاصرها أيضاً، وكان أهلها في منعة شديدة وبأس عظيم، فنالوا من المسلمين دفعات وردوهم، وعمل موسى دبابة دب المسلمين تحتها إلي برج من أبراج أسوارها وجعلوا ينقبونها ، وقتل في هذا البرج كثير من المسلمين، فسمي ذلك الموضع « برج الشهداء »، واستمر موسى محاصراً لماردة، ودخلها صلحاً سنة أربع وتسعين الهجرية.

فتح إشبيلية ثانية :

وحين كان موسى محاصراً « ماردة »، ثار عجم إشبيلية وتمردوا وقاموا على من فيها من المسلمين، فلما أن فتح ماردة وجه عبد العزيز بن موسى في جيش إلى إشبيلية ففتحها وقتل أهلها، ولم يغادر عبد العزيز بن موسى إشبيلية إلا بعد أن ترك في إشبيلية وباجة ولبلة حاميات إسلامية لتؤمنها من أي تدبير يقوم به

القوط، وكانت حامية باجة قوية بقيادة قائد عربي معروف هو عبد الجبار قائد ميسرة موسى، وجد بني زهرة أحد بيوت إشبيلية التي سيكون لها شأن.

مقتل لذريق:

لقد أدرك موسى أن مراكز المقاومة القوطية وعلى رأسها لذريق بدأت تتجمع في منطقة الجزء الشمالي من غرب الأندلس بالذات لعرقلة مسيره، والرفادة من وعورة المنطقة ظنًّا منهم أن المسلمين لن يستطيعوا الوصول إليها، فقدر موسى موقف عدوه تقديراً صائباً، لذلك استدعى طارقاً ليلقاه في منتصف الطريق بين ماردة وطليطلة حيث التقى بطارق في موضع يقال له: تايد أو تايتر وهو نهر في المنطقة، وخرج طارق معظماً، ونزل بين يديه، فعاتبه موسى على مخالفته لرأيه في سرعه لاقتحام الأندلس من الوسط، فاعتذر إليه طارق واستلطفه حتى رضي عنه موسى.

اتبع موسى وطارق الطريق الروماني القديم الممتد من ماردة إلى سلمنقة ومضى في فج منسوب إليه بحذاء نهر سمي منذ ذلك الحين بوادي موسى، وظن لذريق وأصحابه أن الفرصة قد سنحت للهجوم على المسلمين، وانقضوا على جيش موسى من ناحية يسميها بعض المؤرخين من المسلمين «السواقي»، وهي «سيجويلادي لوس كونيخورس» بالقرب من بلدة تماس، وهناك وقعت المعركة الحاسمة الثانية في سنة أربع وتسعين هجرية (٧١٢م)، وفي هذه المعركة لقي لذريق حتفه على يد مروان بن موسى بن نصير وهزم القوط هزيمة نكراء.

فتح طليطلة ثانية:

ويبدو أن اشتباك المسلمين مع القوط في هذه الموقعة الحاسمة قد شجع نفراً من بقايا القوط وأنصارهم في طليطلة على نقض طاعة المسلمين، فانتهزوا فرصة خروج طارق وجنده منها، ووثبوا عليها فاضطر موسى إلى فتحها من جديد ودخولها دخول الظافر، وفي طليطلة سلم طارق إلى موسى الكنوز التي غنمها

من الكنائس وغيرها عند فتحه طليطلة لأول مرة ، فأقام بها موسى طوال فصل الشتاء من سنة أربع وتسعين هجرية يدبر أمرها، ثم ضرب عملة ذهبية وأخرى برونزية لصرف رواتب الجند، وذلك بدل السكة القوطية لطليطلة ثم بعث موسى برسولين إلى الوليد بن عبد الملك ينهيان إليه أخبار هذا الفتح العظيم، ووقع اختياره على التابعي على بن رباح وكان رجلاً صالحاً في نحو الثمانين من عمره ومغيثاً الرومي، فاتح قرطبة، ومولى الوليد بن عبد الملك، فلما دخل وفد موسى إلي الوليد، قال على بن رباح: « يا أمير المؤمنين: تركت موسى بن نصير في الأندلس، وقد أظهره الله ونصره، وفتح على يديه ما لم يُفتح على يد أحد ، وقد أوفدني إلى أمير المؤمنين في نفر من وجوه من معه، بفتح من فتوحه، ثم دفع إليه الكتاب من عند موسى فقرأه الوليد، فلما أتى على أخره خر ساجداً » .

فتح شمال الأندلس :

ولما انقضى فصل الشتاء واطمأن موسى إلي هدوء ما بيده من البلاد، عزم على متابعة الفتح فأخذ يستعد للسير نحو الشمال لإكمال فتح شبه جزيرة الأندلس، جمع جيوشه، وأكمل أمورها الإدارية، ثم زحف بها نحو « سرقسطة » الواقعة على الضفة اليمنى من نهر أبرة وكان طارق على مقدمته وسار موسى خلفه في جيوشه، فارتقى إلى الثغر الأعلى، وافتتح سرقسطة وأعمالها، وأوغل في البلاد وطارق أمامه لا يمران بموضع إلا فتح عليهما، وأغنمهما الله تعالى ما فيه، وقد ألقى الله الرعب في قلوب العدو، فلم يعارضهما أحد إلا بطلب الصلح، وموسى يجيء على أثر طارق في ذلك كله، ويكمل ابتداءه، ويوثق للناس ما عاهدهم عليه، ولم تكد طلائع المسلمين تشرف على سرقسطة حتى رعب أسقفها « بنسو » ومن معه من الرهبان، فجمعوا كتبهم المقدسة وذخائرهم الموروثة وقرروا الهجرة من البلد والفرار بهذه الذخائر، فلم يلبث موسى أن أرسل إليهم رسولاً يؤمنهم ويعطيهم عهده، فسكنت مخاوفهم وعدلوا عن مغادرة المدينة، وفتحت

المدينة البيضاء «سرقسطة» أبوابها للمسلمين سنة أربع وتسعين للهجرة، ولم يكد المسلمون يستقرون في هذا البلد حتى قام التابعي حنش بن عبد الله الصنعاني بإنشاء مسجد للمدينة، وقد قدر لهذا المسجد أن يتسع حتى أصبح مسجداً جامعاً وظل قروناً متوالية مناراً للإسلام وأهله في هذه لنواحي.

وبعد فتح سرقسطة فتح موسى «وشقة» و«لاردة» و«طرّكونة».. وحين أوغل موسى وجاوز سرقسطة، اشتد ذلك على الناس وقالوا: أين تذهب بنا؟!، حسبنا ما بأيدينا ، وكان موسى قام حين دخل إفريقية وذكر عقبة بن نافع: لقد كان غرر بنفسه حين توغل في بلد العدو عن يمينه وعن شماله وأمامه وخلفه، أما كان معه رجل رشيد؟! فسمعه حنش الصنعاني، فلما بلغ موسى ذلك المبلغ من التغلغل عمقاً في الفتح - قام حنش فأخذ بعنانه، ثم قال: «أيها الأمير إني سمعتك وأنت تذكر عقبة بن نافع تقول: لقد غرر بنفسه وبمن معه ، أما كان معه رجل رشيد؟! وأنا رشيدك اليوم أين تذهب؟ تريد أن تخرج من الدنيا ؟! ، أو تلتمس أكثر مما آتاك الله عز وجل وأعرض مما فتح الله عليك، دوخ لك؟ إني سمعت من الناس مالم تسمع، وقد ملئوا أيديهم وأحبوا الدعة، فضحك موسى ثم قال: أرشدك الله وكثر في المسلمين من أمثالك ، ثم انصرف قافلاً إلى الأندلس وهو يقول: أما والله لو انقادوا إليَّ لقدتهم إلى رومية «روما» ، ثم يفتحها الله على يدي إن شاء الله» (١).

ولكن موسى استطاع أن يعيد إلى الجنود نشاطهم وحماستهم للفتح وبينما كان يعد العدة لفتح جليقية، إذ أتاه مغيث الرومي رسول الوليد بن عبد الملك يأمره بالخروج من الأندلس وأن يكف عن التوسع في البلاد، وأن يشخص إلى

---

(١) **قلت**: وهذه هي العلاقة بين القيادة والجنود في الجيوش الإسلامية مبنية على التناصح والتعاون على البر والتقوى والسمع والطاعة في العُسر واليُسر والمنشط والمُكره ما دامت القيادة تقود الجنود إلى مرضاة الله والقيادة تسمع للنصح ما دام فيه حق وإرشاد.

دمشق، فساءه ذلك وقطع به عن إرادته، إذ لم يكن في الأندلس بلد لم تدخله العرب إلى وقته غير جليقية، فكان شديد الحرص على اقتحامها، ولكن قدوم مغيث لم يصرف موسى عن المضي في إتمام هذه الغزوة التي صاحبها التوفيق إلى هذه الساعة،فبذل جهده للبقاء في الأندلس بعض الوقت ريثما يتم فتح جليقية.

ولاطف مغيثاً - من أجل ذلك - وسأله إمهاله، إلى أن ينفذ عزمه على الدخول إلى جليقية وللمسير معه في البلاد أياماً، يكون شريكه في الأجر والغنيمة، ففعل مغيث ومشى معه... فلما اطمأن موسى إلى ذلك، بادر إلى السير شمالا لفتح قشتالة القديمة تأميناً للحدود الشمالية لإقليم طليطلة .. سار موسى بنفسه على الضفة الشرقية لنهر إبره في إقليم قشتالة فأطاعه معظم من مرّ بهم من رؤساء هذه الناحية.. وهكذا وصلت جيوش موسى حتى البحر المحيط، فاطمأن إلى أنه فتح شبه الجزيرة كلها، لذلك شعر أنه لم يعد هناك معنى للاسترسال في الفتح .. ولما انتهى موسى في فتوحه إلى هذا الحد القصي، كان لابد أن يعود لا إلى طليطلة أو قرطبة فقط، بل إلى دمشق رأساً، فقد كان مغيث الرومي رسول الخليفة يتعجله، وكان الوليد بن عبد الملك معجلاً عليه لايريده أن يتمهل إذ إن رسولاً آخر من الوليد يكنى أبا نصر بعثه إلى موسى بعدما استبطأه في القفول.

عودة موسى وطارق إلى المشرق :

أخذ موسى في طريق العودة في أواخر خمس وتسعين هجرية « منتصف صيف ٧١٤م » وكان مغيث الرومي قد خف للقائه، فالتقيا بنواحي ليون، وهناك أدركهما طارق عائداً من اشترقه ، وساروا جميعاً إلى إشبيلية حيث ركبوا البحر، وقد اختار موسى إشبيلية عاصمة للأندلس، واستخلف عليها ابنه عبد العزيز وترك معه حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهر ي وزيراً معيناً، وترك معه العساكر ووجوه القبائل ومن يقوم بحماية البلاد وسد الثغور وجهاد العدو،

واستخلف موسى ابنه عبد العزيز على إفريقية، وابنه مروان على « طنجة » و« السوس »، ومر في طريق عودته بـ « القيروان » ثم قدم مصر سنة خمس وتسعين كانون الأول « ديسمبر ٧١٤م » ثم ذهب إلي فلسطين وبلغ دمشق سنة ست وتسعين الهجرية

لما قدم موسى على الوليد قبل وفاته بأربعين يوماً وهذا ما نرجحه ومعه غنائم ضخمة يعجز عنها الوصف، ولكن الظاهر أن قلب الوليد كان متغيراً على موسى، فلم يحسن لقاء موسى، ثم لم يلبث الوليد أن لقي ربه وخلفه أخوه سليمان وهو أشد من أخيه غضباً على موسى، لهذا كان طبيعيّاً ألا ينتظر موسى خيراً كثيراً وأن يدرك أن أيام مجده وعزه قد مضت مع أمس الدابر [١] .

وقد نسب المؤرخون إلى سليمان بن عبد الملك أنه أساء معاملة موسى بن نصير وأبقاه في حر الشمس حتى كاد يُغمى عليه من شدة التعب والجهد والحر، وأن سليمان حبسه وأمر بتقصي حسابه فأغرمه مغرماً عظيماً، وما نسبه المؤرخون لا يصح لأن سليمان ترك أولاد موسى ولاة على إفريقية، ولأن موسي كان أثيراً على نفس يزيد بن المهلب وزير سليمان وصاحب الأمر في دولته، ولأن عمر بن عبد العزيز كان من أقرب المقربين إلى سليمان، ومن المستحيل أن يرضى عمر بن عبد العزيز عن مثل تلك التصرفات دون أن يقول كلمته لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، ولأن سيرة سليمان الذي وصفه المؤرخون بأنه مفتاح الخير، وأطلق الأسرى، وخلى السجون وأحسن إلى الناس، واستخلف عمر بن عبد العزيز ، لاتستقيم مع اتهامه بالتنكيل بموسى وهو شيخ كبير له ماض ناصع مجيد في خدمة المسلمين.

---

(١) **قلت**: من خلال دراستي لسيرة موسى بن نصير لاحظت انه محسود وله أعداء، وهم الذي أوغروا قلب الوليد وسليمان عليه، ثم إن مجده وعزه إنما يكون في طاعة ربه وحرصه على نشر دينه وبحثه عن الشهادة في سبيله : ﴿ما عندكُم ينفدُ وما عندَ اللَّه باقٍ﴾

لقد كان موقف سليمان من موسى موقفاً سليماً، وحقائق التاريخ تعلو دائماً على المبالغات المدسوسة عن قصد أو عن غير قصد، ولكن، لماذا عزل الوليد بن عبد الملك موسى عن إفريقية والأندلس، وأقر سليمان هذا العزل؟ ، ولماذا استدعى الوليد موسى من ساحات القتال على عجل ولم يمهله حتى يحقق نياته التوسعية في الفتح ؟ .

أسباب استدعاء موسى إلى دمشق وعزله :

يبدو أن الوليد ومن بعده سليمان اعتقدا أن موسى غرر بالمسلمين، وإنه عرضهم للمهالك بتغلغله إلى حدود بعيدة في الأندلس، كما أنهما خشيا من طموح موسى في التغلغل إلي بلاد أبعد من الأندلس فيقود المسلمين إلى رومية، وأن موسى: « أجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية ويتجاوز إلى الشام دروبه، ودروب الأندلس، ويخوض إليه ما بينها من أمم الأعاجم النصرانية، مجاهداً فيهم، مستلحماً لهم، إلى أن يلحق بدار الخلافة »، فنما هذا الخبر إلى الوليد، فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب، ورأى أن ما هم به موسى غرر بالمسلمين إن لم يرجع وكتب له بذلك عهده، ففت ذلك في عزم موسى، وقفل عن الأندلس بعدما أنزل المرابطة والحامية بثغورها، ،أنزل ابنه عبد العزيز لسدها وجهاد عدوها، والظاهر أن الخلفاء لم يكونوا مطمئنين على المسلمين في الأندلس حتى بعد الوليد وسليمان، فقد فكر عمر بن عبد العزيز في إقفال المسلمين من الأندلس وإخلائها، إذ خشي تغلب العدو عليهم، فإذا كان هذا ما يعتقده عمر ابن عبد العزيز الذي تولى الخلافة سنة تسع وتسعين هجرية، فلماذا نلوم الوليد وقد استدعى موسى سنة خمس وتسعين هجرية ، والفتح كان في أوله، والأندلس بعيدة عن دار الخلافة.

لقد كان طموح موسى في التوسع بالفتح، سبباً واضحاً لاستدعائه إلى دار دمشق، وهذا السبب – فيما أرى – من الأسباب الجوهرية التي جعلت الوليد

يستدعيه وهناك سبب آخر وهو أن خصوم موسى دسوا عليه عند الخلفاء أنه يفكر بالاستقلال عن الخلافة وزينوا له ذلك بأساليبهم وكان موسى بوسعه أن يستقل عن الخلافة ، ولكن إيمانه العميق بتعاليم الإسلام وتمسكه والتزامه بها جعله لا يفكر بذلك حتى إن المهلب ابن أبي صفرة سأله عن ذلك فقال موسى : « والله لو أردت ذلك ما نالوا من أطرافي طرفاً ، ولكني آثرت الله ورسوله، ولم نر الخروج عن الطاعة والجماعة » .

المطلب السادس
أهم صفاته القيادية، ومبادئه الحربية

كان موسى إداريًّا حازماً، استطاع السيطرة على منطقة ولايته في إفريقية والمغرب والأندلس سيطرة كاملة بناءة منشئة بكل كفاية وجدارة، وقد أعانته عقليته الجبارة على التفكير العميق في تطوير البلاد التي تحت نفوذه، وكان من أولئك الولاة الذين يفكرون بما يعملون، ويعرفون ما يريدون ، وينفذون ما يخططون .

لقد كان من مزايا موسى أنه : كان النصر في ركابه، والحزم في قراراته، والخلق الكريم من مزاياه، والحق رائده، والعدل سيرته ، الكرم هدفه، والمواهب السامية خصاله، كان عاقلاً شجاعاً كريماً، وقد بذل جهوداً عظيمة لنشر الإسلام في إفريقية والمغرب، ترك رجالاً من الدعاة ليعلموا البربر القرآن وفرائض الإسلام، وفي سنة خمس وثمانين هجرية تم إسلام أهل المغرب الأقصى، وحولوا المعابد التي كان بناها المشركون إلى القبلة ، جعلوا المنابر في مساجد الجماعات فاستأمن البربر إليه وأطاعوه، وبهذه الخطة العملية الرائعة استطاع موسى أن ينشر الإسلام في ربوع المغرب، وبذلك أشاع الانسجام الفكري بين العرب والبربر بغرس تعاليم الإسلام في نفوس البربر، فأصبحوا من العرب قوة موحدة هائلة وجدت لها

متنفساً في فتح الأندلس، فربط موسى بهذا الفتح مصير الفاتحين من العرب المسلمين وإخوانهم البربر المسلمين، وجعلهم يدافعون عن عقيدة واحدة بقيادة واحده ، لتحقيق هدف واحد هو: إعلاء كلمة الله ، ونشر دينه في الأرض ، حتى تكون كلمة الله هي العليا.

ومن أعمال موسى الإدارية :

ضرب أول عملة إسلامية في الأندلس، ومن أعماله الإدارية التي تتسم بالطابع العسكري أيضاً تحسينه « دار الصناعة » التي كانت بتونس، والتي أسسها حسان بن النعمان حيث استطاع موسى بن نصير أن يسورها ويجري البحر إليها مسيرة اثني عشر ميلاً،حتى أقحمه دار الصناعة، ثم أمر بصناعة مئة مركب، فأصبح بإمكان هذا الدار إنشاء المراكب وتدريب البحارة وتصليح السفن، مما سهل على موسى جهاده البحري وفتح الأندلس.

ومن أعماله الإدارية الخالدة :

نشره اللغة العربية بين البربر، وذلك بإرسال المعلمين والاختلاط الشديد بين العرب والبربر، كما أن إقبال البربر على الإسلام أدى إلى إقبالهم على تعلم اللغة العربية وانتشارها بينهم، مما كان له أكبر الأثر على عروبة المغرب، كما أن اتجاه موسى العملي إلى عدم التفرقة بين العرب المسلمين والبربر المسلمين،في إسناد المناصب إلى الأكفاء منهم جعل من البربر المسلمين سنداً قوياً للعرب المسلمين، وجعل منهم فاتحين يسيرون جنباً إلى جنب مع إخوانهم العرب المسلمين ، ولعل تولية طارق بن زياد، وهو بربري، أخطر المناصب القيادية، هو خير دليل على عدم تفرقة موسى بين المسلمين من بربر وعرب،وأن الكفاءة وحدها هي التي كانت تقدم وتؤخر في نظر موسى،مما جعل البربر يبذلون قصارى جهدهم في الفتح سواء كان ذلك في ساحات إفريقية والمغرب أو في ساحات الأندلس أو جزائر البحر الأبيض المتوسط، لقد كان موسى رجل دولة بكل ما في الكلمة من معاني.

أهم مبادئه الحربية الاستراتيجية :

إنه كان عرف مزايا الأمم التي قاتلها، فيحارب تلك الأمم على هدى وبصيرة ولأنه كان يعرف مزايا الخيل وما يستفاد منها في الحروب وما لا يستفاد، ومن مزاياه الحربية تجربته الطويلة في معاناة الحروب، وإنه كان ذا رأى وتدبير وحزم وخبرة في الحرب، ومن مزاياه أسلوبه الفذ في معالجة الحصون والمدن المنيعة، فقد كان ماهراً في الحصار، وفي قتال المدن، وعنايته الكبيرة بحماية المواصلات، وتفريق قوات العدو لضربها متفرقة على انفراد، كان يطبق مبدأ اختيار المقصد وإدامته ، ومبدأ التعرض ، ومبدأ المباغتة ، ومبدأ الأمن ، ومبدأ تحشيد القوة ، ومبدأ المرونة، ومبدأ إدامة المعنويات ، ومبدأ الأمور الإدارية [١] .

المطلب السابع
وفـــاتــه

فقد توالت المصائب على الشيخ المجاهد البطل موسى بن نصير بعد وصوله إلى دمشق سنة ست وتسعين هجرية (٧١٤م) ، ولعل من أعظم ما أصابه مقتل ابنه عبد العزيز في الأندلس، وفي سنة سبع وتسعين هجرية حج بالناس سليمان بن عبد الملك، فأمر موسى بالشخوص والحج معه فذكر موسى لسليمان أنه ضعيف، فأمر له سليمان بثلاثين نجيباً موقورة، وبحجرة من حجره، فحج سليمان، وحج معه موسى ، وتوفي موسى في وادي القري، سنة سبع وتسعين الهجرية، وكان عمره حينها ثمان وسبعين سنة قمرية، لأنه ولد سنة سبع عشرة هجرية كما مر بنا، وصلى عليه مسلمة بن عبد الملك.

وهكذا أغمض البطل عينيه إلى يوم القيامة ، ولكن التاريخ لم يغمض عينيه

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (٤ / ٤٩٦).

عن مآثره الخالدة، ذلك لأنه كان قد جمع من خلال ما أعانه الله سبحانه به على ما بنى له من المجد المشيد، والذكر الشهير المخلد، الذي لا يبليه الليل والنهار ولا يعفي جديده بلى الأعصار.

فعلى الأجيال الصاعدة أن تذكر لموسى أنه فتح المغرب الأقصى واستعاد فتح المغرب الأوسط، وأنه رصن الفتح الإسلامي في الشمال الإفريقي، وأنه فتح الأندلس وقسماً من جنوب فرنسا، وأنه كان من أعظم قادة الفتح الإسلامي، رضي الله عن التابعي الجليل، الإداري الحازم ، والبطل المغوار ، القوي الأمين ، القائد الفاتح، موسى بن نصير اللخمي » (١) .

ولابد وأن نذكر أن موسى – رحمه الله – كان يُقْرَنُ بخالد بن الوليد ﷺ ، حيث لم ينهزم له جيش ولم يُفَل له سيف ، وكان الخلفاء يعرفون له فضله وكفاءته ، ولم يشكُّوا في إخلاصه وولائه ... وما تغيَّر عليه الوليد أو سليمان إبنا عبد الملك ... أما الوليد ... فقد وشى بعض الحاقدين على موسى عند الوليد أنه لم يذكره في دعاء صلاة الاستسقاء ، فغضب الوليد من الواشي وقال له : وهل أُذكر في مقام يُذكر فيه الله ، إن عدت لذلك ضربت عنقك ...

وأما سليمان فقد جهز موسى وأراد صحبته في موسم الحج تكريمًا له ... وتوفى موسى بالمدينة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام ، وكان رحمه الله قد دعا أن يتوفاه الله شهيداً ، أو بأرض المدينة ، فاستجاب الله له .

(١) راجع: قادة فتح المغرب العربي (١/ ٢٢١-٣٠٩).

المبحث السادس

عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي

إن عبد الله بن الزبير ابن أبيه ، فاتح صبراته ، وسوسة ، يعتبر من أبرز قيادات فتح ليبيا في زمن الفتح المبارك، فمن هو هذا القائد ، وما هي أهم أعماله الجهادية ، وصفاته القيادية؟ ، كل ذلك سوف نتناوله في هذه العجالة بشيء من الإيجاز .

المطلب الأول

اسمه، ونسبه، وميلاده

اسمه، ونسبه :

هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد القرشي الأسدي، فأبوه أحد العشرة المبشريه بالجنة، فهو ابن حواري رسول الله ﷺ، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين ، وجدته لأبيه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ وعمة أبيه خديجة بنت خويلد أم المؤمنين ، وخالته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنهم أجمعين.

ميلاده :

هاجرت أمه أسماء بنت أبي بكر من مكة وهي حامل به ، فولدته بـ « قباء » في السنة الأولى من الهجرة، فهو أول مولود في الإسلام من المهاجرين بالمدينة، فحنكه رسول الله ﷺ بتمرة لاكها في فيه ثم حنكه بها، فكان ريق رسول الله ﷺ أول شيء دخل جوفه، ثم دعا له وبارك عليه، وأذن أبو بكر الصديق في أذنه حين ولد .

أيامه الأولى:

أحضره أبوه الزبير إلى رسول الله ﷺ ليبايعه وعمره سبع سنين أو ثماني سنين ، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً تبسم ثم بايعه.

لقد نشأ عبد الله في بيت كريم الآباء والأمهات والعمات والخالات في محيط كله نور وهدى، وجهاد، وفداء، قريباً من رسول الله ﷺ، وهكذا نشأ في محيط مناسب ليكون بطلاً مسدداً ، فنال شرف الصُّحبة ولم ينل شرف الجهاد تحت لواء الرسول ﷺ القائد لصغر سنه .

المطلب الثاني

جهاده

﴿١﴾ شهد عبد الله معركة اليرموك الحاسمة بين المسلمين والروم مع أبيه فلما انهزم الروم يوم اليرموك جعل يجهز على جرحاهم وشهد خطبة عمر بـ« الجابية ».

وشهد ابن الزبير فتح مصر، وكان أحد الشهود على وثيقة الصلح بين المسلمين وبين أهل مصر، وذلك سنة عشرين هجرية ، وشهد مع عمرو بن العاص فتح ليبيا، فلما انتهى عمرو من فتح طرابلس أمر الخيل بالإسراع إلي صبراتة لفتحها ، وبقي هو في طرابلس للإشراف على أمورها، وأسرعت الخيل بقيادة عبد الله بن الزبير، فصبحوها من ليلتهم على غرة، فوجدوا أبواب السور مفتوحة وأهلها مشغولين بإخراج الحيوانات للمرعى، فاقتحموها عليهم بالقوة وأوقعوا فيهم القتل حتى استسلموا ومن فرّ منهم وركب البحر هارباً إلى صقلية، وهدم المسلمون سورها خوفاً من تحصن الروم بها مرة ثانية، وغنموا كل ما فيها وكان شيئاً كثيراً، وأرسلوا إلى عمرو بن العاص في طرابلس يخبرونه بما فتح الله عليهم فحضر إلى صبراتة .

﴿٣﴾ وشهد عبد الله فتح « إفريقية » أيام عثمان بن عفان تحت لواء عبد الله بن سعد بن أبي السرح، وكان الفتح على يديه فقد سيره عثمان في جماعة إلى « إفريقية » سنة ست وعشرين هجرية ليأتيه بأخبار الفتح، فسار مجداً حتى وصل إلى المسلمين هناك وأقام معهم ولما وصل كثر الصياح والتكبير عن المسلمين، وسمع « جرجير » يقول: « من قتل عبد الله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوِّجه ابنتي » فحضر ابن الزبير إلى عبد الله بن سعد وقال له: « تأمر منادياً ينادي: من يأتي برأس جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده » فركب الرعب قلب « جرجير ».

ثم إن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن سعد: « إن أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في أمداد متصلة ببلاد هي لهم، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم، وقد رأيت أن نترك غداً جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين، نقاتل نحن الروم في باقي المعسكر إلى أن يضجروا ويملوا، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون، ركب من كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون، ونقصدهم على غرة، فلعل الله ينصرنا عليهم »، فأحضر ابن سعد جماعة من أعيان الصحابة، واستشارهم فوافقوه على ذلك.

وفي صباح الغد، نفذ سعد خطة ابن الزبير هذه، فأقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم - وخيولهم عندهم مسرجة - ، ومضى الباقون فقاتلوا الروم إلي الظهر قتالاً شديداً، فلما أذن بالظهر وهم الروم بالانصراف على العادة، لم يتركهم ابن الزبير وألح عليهم حتى أتعبهم... عند ذلك أخذ ابن الزبير من كان مستريحاً من شجعان المسلمين وقصد الروم، فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم، وحملوا حملة رجل واحد وكبروا، فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون.

ونظر عبد الله فرأى « جرجير » وقد خرج من عسكره على برذون أشهب ومعه

جاريتان تظلانه بريش الطواويس وبينه وبين عسكره أرض بيضاء ليس فيها أحد، فاختار ثلاثين فارساً من المسلمين وأخذهم معه ... ثم انطلق إلى الوجه الذي فيه «جرجير» وخرج صامداً له وما يظن جرجير وأصحابه إلا أن ابن الزبير رسول إليه حتى وصل إليه ودنا منه، فعرف الشر، فثنى برذونه مولياً، ولكن ابن الزبير أدركه فطعنه وأذاقه السيف وحز رأسه ونصبه في رمحه وكبر .. فحمل المسلمون من الوجه الآخر وانهزم الروم بعد أن قتل ابن الزبير «جرجير» فقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة، وأخذت ابنة «جرجير» سبية، فنفلها عبد الله بن سعد عبد الله بن الزبير، وكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار.

ولما أراد ابن أبي السرح أن يبشر عثمان بالفتح قال لابن الزبير:

«أنت أولى بهذا» فأرسله إلى عثمان بشيراً، فأخبره بما فتح الله عليه ، فأمره عثمان أن يخطب ، فلما خطب قال عثمان: «كأنه أبو بكر» لقد كان فتح «إفريقية» على يديه.

﴿٣﴾ وتولى حرب «إفريقية» معاوية بن حديج السكوني بعد عبد الله بن سعد بن أبي السرح، فكان ابن الزبير ساعده الأيمن في مهمته الشاقة، فقد كان ابن الزبير مع ابن حديج في جهاده، حين وجهه معاوية بن أبي سفيان في جيش كثيف تعداده عشرة آلاف رجل وفتح قمونية، وبث السرايا في البلاد وبعث عبد الله بن الزبير إلى «سوسة» ففتحها وكان ذلك سنة خمس وأربعين هجرية .

﴿٤﴾ وحضر عبد الله بن الزبير إلى الشام لغرو «القسطنطينية» أيام معاوية بن أبي سفان فشهد حصارها وذلك سنة تسع وأربعين وقيل سنة خمسين .

المطلب الثالث

موقفه من الأحداث السياسية

لقد كان ابن الزبير أيام عثمان بن عفان ﷺ أحد المقربين إليه، فلما حاصره أهل الأمصار، دافع عنه دفاعاً مستميتاً في يوم «الدار»، فقد استخلفه عثمان على «الدار» قائداً للمدافعين عن عثمان، فكان هو الذي يقاتل بالصامدين دفاعاً عن عثمان، فيخرج الكتيبة ويباشر القتال بنفسه، فجرح بضعة عشر جرحاً غائراً وكان يقول: «جرحت بضعة عشر جرحاً، وإني لأضع اليوم يدي على بعض تلك الجراحات، فأرجو أن تكون خير أعمالي» كما كان يقول ابن الزبير . . . وفي ذلك يقول عبد الرحمن بن أرطأة الجسري يمدحه ويلوم رجلاً:

فلو كنت مثل ابن الحواري لم ترم وجالدت يوم الدار إذ عظم الخطب
ولكن عبد الله طاعن دونه وضارب يوم الدار أذكره الضرب

لقد كان عبد الله يدين بالطاعة للخليفة القائم ما دام هذا الخليفة على الحق، وكان يربأ بنفسه أن يشارك أهل الفتن في إثارتها بقلبه أو لسانه أو سيفه.

وبعد مقتل عثمان بن عفان، شهد معركة «الجمل» وفيه بضع وأربعون جرحة، وأعطت عائشة ﵄ الذي بشرها بأنه لم يمت عشرة آلاف، ثم سجدت شكراً لله، ولم يكن أحد أحب إليها بعد رسول الله ﷺ وبعد أبيها من ابن الزبير، وما سمعت تدعو لأحد من الخلق مثل دعائها له، وأوصت له بحجرتها.

واعتزل ابن الزبير حروب علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ﵄ كما اعتزل غيره من كبار الصحابة، وهذا يدل على شدة تعلقه بوحدة كلمة المسلمين وابتعاده عن إراقة دمائهم، ولست أرى في اشتراك عبد الله في معركة الجمل دليلاً عكسياً لكراهية سفك دماء المسلمين، إذ كان ملتاعاً من قتل عثمان وكان لا يريد عقوق والدته وخالته عائشة أم المؤمنين، يرى أن لرأيها في المطالبة بدم عثمان والحث على معاقبة قاتليه وزناً لابد من احترامه وأخذه بعين الاعتبار.

قلت : والموقف الصحيح من الحرب التي وقعت بين الصحابة الكرام ﷺ هو الإمساك عما شجر بينهم إلا فيما يليق بهم ﷺ لما يسببه الكلام في ذلك من توليد العداوة والحقد والبغض لأحد الطرفين، وذلك من أعظم الذنوب، وقبل أن أذكر أقوال السلف فيما شجر بين الصحابة أقدم بعض النصوص التي فيها إشارة إلى ما وقع بين الصحابة من الاقتتال، وبما وصفوا به فيها ، **وتلك النصوص هي:**

﴿١﴾ قوله تعالى: ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ [الحجرات: ٩] .

ففي هذه الآية أمر الله تعالى بالإصلاح بين المؤمنين إذا ما جرى بينهم قتال، لأنهم إخوة، وهذا الاقتتال لا يخرجهم عن وصف الإيمان حيث سماهم الله عز وجل مؤمنين وأمر بالإصلاح بينهم فإذا كان حصل اقتتال بين عموم المؤمنين ولم يخرجهم ذلك من الإيمان، فأصحاب رسول الله ﷺ الذين اقتتلوا في موقعة الجمل وبعدها أول من يدخل في اسم الإيمان الذي ذكر في هذه الآية فهم لا يزالون عند ربهم مؤمنين إيماناً حقيقياً، ولم يؤثر ما حصل بينهم من شجار في إيمانهم بحال لأنه كان عن اجتهاد (١) .

﴿٢﴾ روى الإمام أحمد والبخاري ومسلم رحمهم الله عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : [**لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان وتكون بينهما مقتلة عظيمة ودعواهما واحدة**] فالمراد بالفئتين جماعة علي ومعاوية، والمراد بالدعوة الإسلام على الراجح، وقيل: المراد اعتقاد كل منهما الحق.

﴿٣﴾ روى الإمام أحمد ومسلم: عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : [**تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين**]،

---

(١) انظر: العواصم من القواصم، لابن العربي، (ص١٦٩، ١٧٠)

والفرقة المشار إليها في الحديث هي ماكان من الاختلاف بين على ومعاوية رضي الله عنهما، وقد وصف ﷺ الطائفتين معاً بأنهما مسلمتين وأنهما متعلقتين بالحق، والحديث علم من أعلام النبوة، إذا وقع الأمر طبق ما أخبر به الرسول ﷺ، وفيه الحكم بالإسلام على الطائفتين: أهل الشام وأهل العراق، لاكما يزعمه فرقة الرافضة والجهلة الطغام من تكفيرهم أهل الشام، وفيه أن أصحاب على أدنى الطائفتين إلي الحق، وهذا هو مذهب أهل السُنَّة والجماعة أن عليًّا هو المصيب وإن كان معاوية مجتهداً وهو مأجور إن شاء الله ، ولكن عليًّا هو الإمام فله أجران كما ثبت في صحيح البخاري من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [**إذا اجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر**].

﴿ **٤** ﴾ وروى البخاري بإسناده إلي أبي بكرة قال: بينما النبي ﷺ يخطب جاء الحسن فقال النبي ﷺ: [**إن ابني هذا سيد ، ولعل الله يصلح به بين فئتين من المسلمين**] ، ففي هذا الحديث رد واضح على الخوارج الذين كفَّروا عليًّا ومن معه ، ومعاوية ومن معه بما تضمنه الحدث من الشهادة للجميع بالإسلام، لذا كان سفيان ابن عيينة يقول: « قوه فئتين من المسلمين تعجبنا جداً » قال البيهقي: وإنما عجبهم لأن النبي ﷺ سماهما جميعاً مسلمين وهذا خبر من رسول الله ﷺ لما كان من الحسن بن على بعد وفاة على في تسليمه الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان » .

روى ابن سعد بإسناده إلى محمد بن عليّ – المعروف بابن الحنفية – قال: قال عليّ: إني لأرجو أن أكون وطلحة والزبير من الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿ **وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ** ﴾[الحجر:٤٧] كما شهد رضي الله عنه بالحسنى للقتلى من الفريقين في موقعة صفين، فقد روى ابن أبي شيبة بإسناده إلى يزيد بن الأصم قال: سئل على عن قتلى صفين فقال: قتلانا في الجنة وقتلاهم في الجنة » فالواجب على المسلم أن يسلك في اعتقاده فيما حصل بين

الصحابة الكرام رضي الله عنهم مسلك الفرقة الناجية أهل السُّنَّة والجماعة وهو الإمساك عما حصل بينهم رضي الله عنهم ولا يخوض فيه إلا بما هو أليق بمقامهم .

قال الشاعر:

دع ما جرى بين الصحابة في الوغي ... بسيوفهم يوم التقى الجمعان
فقتيله منهم وقاتلهم لهم ... وكلاهم في الحشر مرحومان

عودة إلي ابن الزبير رضي الله عنه : اعتزل ابن الزبير حروب علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان .. وبايع معاوية بعد انتهاء الفتنة الكبرى، وعادت الوحدة الشاملة إلي صفوف المسلمين ، وكان معاوية بن أبي سفيان إذا لقيه قال: « مرحباً بابن عمة رسول الله وبابن حواري رسول الله ﷺ ، ويأمر له بمائة ألف » .

وسمع معاوية رضي الله عنه رجلاً يقول:

ابن رقاش ماجد سميدع ... يأتي فيعطي عن يد أو يمنع

فقال: « ذاك عبد الله بن الزبير » ودخل على معاوية وعنده جماعة فيهم مروان ابن الحكم، وسعيد بن العاص، فأوسع له معاوية عن سريره، فلما انصرف عبدالله أقبل مروان على معاوية وقال له: « لله درك من رئيس قبيلة يضع الكبير ولا يدني إلا صغيراً، فقال معاوية: نفس عصام سودت عصاماً » .

خلافة ابن الزبير رضي الله عنهما : (١)

{ ١ } لما مات معاوية بن أبي سفيان سنة ستين هجرية، امتنع ابن الزبير عن الدخول في طاعة يزيد بن معاوية، ولما توفي يزيد بن معاوية أوصى بالخلافة لابنه معاوية فبايعه أهل الشام، ولم يمض على خلافته يوماً وقيل: ثلاثة أشهر حتى مات، وكان ابن الزبير قد دعا لنفسه في مكة وجاءته بيعة معظم الأقطار، فأرسل

(١) خلافة ابن الزبير، نقلاً من محاضرات الشيخ عبد العزيز نور ولي، الذي درسنا الدولة الأموية في الجامعة الإسلامية بالمدينة، ولقد أجاد في الرجوع إلى المصادر الموثوقة فاكتفيت بها.

ولاته إليها، وقد اعتبره الذهبي وابن كثير أميراً للمؤمنين، وقال الذهبي: بويع له بالخلافة عند موت يزيد سنة أربع وستين هجرية، وحكم على الحجاز، واليمن، مصر، والعراق، وخراسان، وبعض الشام، ولم يتوثق به الأمر، ومن ثم لم يعده بعض العلماء في أمراء المؤمنين، وعد دولته زمن فرقة، فأن مروان غلب على الشام ثم مصر، وقام عند مصرعه ابنه عبد الملك بن مروان وقاوم ابن الزبير وقتل رحمه الله، ونقل ابن كثير أن ابن حزم اعتبره أميراً للمؤمنين آنذاك.

﴿ ٢ ﴾ لم يكن الصراع في الشام صراعاً قبلياً في بداية الأمر، ولم يكن انقسام أهل الشام قيسية ويمانية نتيجة تنافس بين الطرفين، وذلك لأنه لم يكن معاوية ولا يزيد قد فضلا أحد الطرفين على الآخر بل قربا كلا الفريقين، وإنما ظهر هذا الانقسام، لأن أهل الشام كانوا من بني كلب اليمانية، أما الفاتحون لهذه البلاد فكانوا من القيسية واليمانية، وكان أهل البلاد الأصليين لا يرغبون في انتقال الخليفة من بلد إلى آخر، لذلك رضوا مبايعة ابن الزبير الذي كان مقره الحجاز، وبخاصة أنه رفض طلب الحصين في الانتقال إلى الشام لتتم البيعة له.

أما القيسية الذين سكنوا الشام فلم يكن يهمهم أين يكون مركز الخلافة بقدر اهتمامهم بشخصية الخليفة، وكانوا أعلم بالصحابة وأقدارهم من غيرهم، لذلك كانوا يرون أنه لا يتحقق هذا المنصب إلا لأحد صحابة رسول الله ﷺ، لذلك بايعوا ابن الزبير وعلى رأسهم الضحاك بن قيس الفهري،أما اليمانية من أهل الشام فكانوا على ولائهم لبني أمية، ولذلك اضطرب الناس، فخرج اليمانية إلى الجابية لمبايعة شخص من بني أمية، وأما القيسية فخرجوا إلى مرج راهط، اجتمع الكلبية في الجابية ورشح ثلاثة للخلافة: مروان بن الحكم، وعمرو بن سعيد بن العاص، وخالد بن يزيد بن معاوية، ورجحت أخيراً كفة مروان بن الحكم، وذلك ليكون نداً لابن الزبير، سار مروان إلى مرج راهط، واستطاع الكلبية أن يستولوا على دمشق ويضعوا أيديهم على بيت المال، وبذلك أمدوا

مروان بالمال والرجال ونشب القتال بين جيش الضحاك، وانتهت تلك الموقعة التي دعيت بموقعة مرج راهط، بانتصاراليمانية على القيسية، واستقر أمر مروان في الشام، ثم اتجه مروان إلى مصر لأهميتها بالنسبة للشام، واستطاع انتزاعها وطرد عامل ابن الزبير منها وأخذ بيعتها لنفسه، ولكن مروان لم يعش طويلاً فقد مات في رمضان سنة (٦٥ هـ) ، وعهد بالبيعة إلى ابنه عبد الملك من بعده.

حركة التوابين في العراق:

اتجه عبيد الله بن زياد والي العراق عاملاً عليها من قبل مروان ليلقى فيها حركة التوابين وهم جماعة من أهل الكوفة بقيادة الصحابي سليمان بن صرد فتنادوا بأخذ الثأر من قتلة الحسن، وندموا على تفريطهم وخذلانهم له، وقد بلغ عددهم أربعة آلاف مقاتل، اتجهت هذه الجماعة إلى عين الوردة، ولما علم بهم عبيد الله أرسل إليه حصين بن نمير بجيش الشام الذي بلغ عدده اثنى عشر ألفاً ، ولما التقى الجيشان دعا كل فريق الآخر إليه، فأما جيش الشام فدعا التوابين إلى الدخول في طاعة مروان، وأما التوابون فدعوا جيش الشام إلى تسليم قتلة الحسن، وعلى رأسهم عبيد الله بن زياد، ولما امتنع كل فريق منهم في إجابة الآخر إلى طلبه، اشتبكا في قتال مرير، انتهى بانتصار جيش الشام، ومقتل سليمان بن صرد وعدد كبير من جيشه، وعاد الباقون إلى الكوفة، ولم يطاردهم جيش الشام، وسميت تلك الموقعة بموقعة عين الوردة.

قال ابن كثير - رحمه الله - :

لو كان هذا العزم والاجتماع قبل وصول الحسين إلى تلك المنزلة لكان انفع له وأنصر من اجتماع سليمان وأصحابه لنصرته بعد مقتله بأربع سنين.

حركة المختار الثقفي بالكوفة:

استغل المختار بن أبي عبيد الثقفي فشل حركة التوابين، فدعا الناس إليه زاعماً أنه سيأخذ بثأر الحسين ، فانضم إليه الشيعة، وكان شعاره «بثارات الحسين» كما

استغل الموالي فأخذ يدعوهم إلي الانضمام إليه زاعماً أنه يريد التسوية بين العرب والفرس، ودعا لمحمد بن الحنفية الإبن الثالث لعليّ بن أبي طالب ﷺ مدعياً أن الإمامة انتقلت إليه ، فانضم إليه الشيعة والفرس والسبئية ، كما استطاع استمالة إبراهيم بن الأشتر النخعي.

التقى جيش المختار بقيادة إبراهيم بن الأشتر النخعي بجيش عبيد الله سنة ٦٧هـ ودارت بينهما معركة سميت بموقعة الخاذر، انتصر فيها جيش إبراهيم وقتل فيها عدد هائل من جيش عبيد الله، كما قتل عبيد الله بن زياد نفسه، وهذه الموقعة زادت من شعبية المختار، وصار سيد الكوفة بلا منازع، أحس عبد الله بن الزبير بخطر المختار فأرسل إليه أخاه مصعباً الذي نظم جيشه، وانضم إليه المهلب بن أبي صفره ، وبدأت حقيقة المختار تنكشف لأصحابه، فبدءوا ينفضون عنه وعلى رأس من انفض عنه قائد جيشه إبراهيم بن الأشتر، التقى المختار وجيشه مع مصعب وجيشه في موقعة هزم فيه المختار وقتل، وذلك في رمضان من سنة ٦٧ هـ.

وقد ذكر العلماء أنه المقصود بالكذاب في قوله ﷺ : [**إن في ثقيف كذابًا ومبيراً**] ، ومما يدل على أنه كذاب ما أخرجه الإمام أحمد عن رفاعة القتباني قال: كنت أقوم على رأس المختار، فلما تبينت كذابته هممت وأيم الله أن أسل سيفي فأضرب عنقه حتى ذكرت حديثاً حدثنيه عمرو بن الحمق قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [**من أمَّنَ رجلاً على نفسه فقتله أعطي لواء الغدر يوم القيامة**] وفي رواية: « إني دخلت على المختار فألقى لي وسادة وقال : لولا أن أخي جبريل قام عن هذه لما ألقيتها لك، قال: فأردت أن أضرب عنقه فذكرت حديثاً حدثنيه أخي عمرو بن الحمق قال: قال رسول الله ﷺ : [**أيما مؤمن أمَّنَ مؤمناً على دمه فقتله فأنا من القاتل بريء**] وأيضاً ما ذكره الهيثمي عن أبي إسحاق قال: قلت لعبد الله بن عمر ﷺ: إن المختار يزعم أنه يوحى إليه، قال: صدق ﴿ **وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ** ﴾ [الأنعام: ١٢١] .

ثورة الأشدق والقضاء عليها :

عاد عبد الملك بن مراوان بعد القضاء على ثورة الأشدق [١] لحرب مصعب، والتقى الجيشان في دير الجاثليق، وكاتب عبد الملك قواد مصعب يعدهم ويمنيهم إذا بايعوه فأخفوا ذلك عن مصعب إلا أن إبراهيم بن الأشتر الذي أطلع مصعباً على كتاب عبد الملك وأشار عليه بقتل قواده لإخفائهم أمر الكتب التي جاءتهم، ولا بد أن يكون جاءهم ما جاءه ، ولكن مصعباً رفض ذلك، فأشار عليه بإبعادهم على الأقل حتى تنجلي الحرب، ولكن مصعباً رفض هذا الرأي أيضاً، واشتعلت الحرب بين الطرفين ، وانخذل أصحاب مصعب عنه، وانضموا لعبد الملك، فانتصر جيش الشام، وقتل مصعب وإبراهيم وجماعة، وكافأ عبد الملك الجنود الذين انضموا إليه، ثم سار إلى الكوفة ودخلها وبايعه أهلها، ثم انتقل منها إلى البصرة فبايعه أهلها أيضاً، وتمكن عبد الملك من العراق سنة ٧١هـ ، وبقي في الحجاز .

قلت : إن رأي إبراهيم بن الأشتر كان صائباً في إبعاده قادة حرب مصعب عن سير المعركة، ولكن الله قضى أمراً كان مفعولاً .

المطلب الرابع
وفاة عبد الله بن الزبير

أرسل عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي لقتال ابن الزبير في ذي الحجة سنة ٧٢ هـ فحاصر مكة ورماها بالمنجنيق فَقُتِلَ بها خلق كثير، وما زال الحجاج يحث جيشه على قتال أهل مكة وأهل مكة يخرجون إليه طالبين الأمان، ويتخلون عن ابن الزبير حتى انفض عنه معظم أصحابه، ولم يبق معه إلا القليل،

---

(١) هو عمرو بن سعيد الأشدق الأموي ... عينه عبد الملك بن مروان على دمشق ، فثار عليه وتحصن بها وأخذ أموال بيت المال ، حيث غادرها عبد الملك إلى قرقيسيا .

فدخل عبد الله بن الزبير إلي أمه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهم يشكو خذلان الناس له ويستشيرها في أمر القتال فقالت له: أنت والله يا بني أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على الحق وتدعو إليه، فامض فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك فيلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت أردت الدنيا، فبئس العبد أنت! ، أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك ، وإن قلت: كنت على حق، ولما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار، ولا أهل الدين؟ وإلى كم خلودك؟! القتل أحسن، فدنا منها وقَبَّلَ رأسها، وقال: هذا والله رأيي، والذي قمت به داعياً إلي يومي هذا... ما ركنت إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن يستحل حرمه، ولكن أحببت أن أعلم رأيك، فزدتيني بصيرة مع بصيرتي، فانظري يا أماه ، فإني مقتول من يومي هذا، فلا يشتد حزنك، وسلمي لأمر الله ، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عملاً بفاحشة، ولم يَجرُ في حكم، ولم يغدر في أمان ، ولم يتعمد ظُلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغني ظُلم عن عمالي فرضيت به بل أنكرته ، ولم يكن شيء آثر عندي من رضى ربي ...» (١) .

وخرج للقتال حتى قتل فأخذ الحجاج جسده وأمر به فصلب، وكان مقتله في جمادى الأولى (سنة ٧٣هـ) ، وبذلك دخلت الحجاز في طاعة عبد الملك، وأخذت البيعة له فيها (٢) .

---

(١) **انظر**: سير أعلام النبلاء(٣/٣٦٣-٣٨٠) .

(٢) راجع سير أعلام النبلاء(٣/٣٧٩) .

المطلب الخامس

أهم صفاته القيادية ومبادئه الحربية

لقد كان يمتاز بصفات أهلته للقيادة ومن تلك الصفات: أنه كان شهماً فصيحاً شديد البأس، ذا أنفة، له نفس شريفة وهمة عالية، وكان صواماً قواماً، بالحق قوالاً، وللرحم وصالاً، شديداً على الفجرة، ذليلاً للأتقياء والبرره، حافظاً للقرآن، مبارزاً للشجعان.

وكانت له قابلية لإعطاء القرار السريع الصحيح، ذا إرادة قوية ثابتة، يتحمل المسئولية بلا تردد، يعرف مبادئ الحرب، له نفس لا تتبدل في حالتي النصر والإنحدار، خبيراً بنفسيات رجاله وقابلياته، يثق بجنوده ويبادلونه ثقة بثقة وحباً بحب، ذا شخصية قوية نافذة، له ماض ناصع مجيد.

وكان يحض على تطبيق أكثر مبادئ الحرب أهمية في حروبه، وقد ظهر عملياً بوضوح أنه طبق مبادئ: اختيارالمقصد، وإدامته والتعرض، والمباغتة، وتحشيد القوة، والأمن، والمرونة، والتعاون، وإدامة المعنويات، والأمور الإدارية.

فرحم الله عبد الله بن الزبير فقد كان الساعد الأيمن لأبيه الزبير في حروبه وخدمته العامة منذ شبابه الباكر حتى قتل الزبير، وكان من أبرز قادة الفتح الإسلامي في إفريقية، وأن على يديه كان انتصار المسلمين في معركتهم الفاصلة ضد جرجير، فرضي الله عن الصحابي الجليل، التقي الورع، الخطيب البليغ، وبطل الإسلام، القائد الفاتح عبد الله بن الزبير الأسدي القرشي [١].

(١) انظر: قادة فتح المغرب العربي (٣/ ٤٥-٩٥).

المبحث السابع

عبد الملك بن مروان الأموي

إن عبد الملك بن مروان هو فاتح المدينة الشهيرة جلولاء ، كما أنه قاد الناس في معركة حاسمة في أرض بلاد الروم ، الذي قال فيه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : « ولد الناس أبناء، وولد مروان أباً» ، فمن هو عبد الملك بن مروان ياترى؟! .

المطلب الأول

اسمه، نسبه، ميلاده، ونشأته ووفاته

اسمه ونسبه:

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص القرشي الأموي .

أبوه : مروان بن الحكم ،كاتب عثمان ورئيس ديوانه .

أمه : عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية .

ميلاده : ولد عبد الملك سنة ست وعشرين هجرية [١] (٦٤٦م) بالمدينة في خلافة عثمان بن عفان، وشهد يوم الدار، مع أبيه وهو ابن عشر سنين، وهو أول من سمي : عبد الملك في الإسلام .

نشأته :

نشأ عبد الملك نشأة إسلامية منذ صغره، فلم يدرك لحظة في الجاهلية، وقد حفظ القرآن في سن مبكرة ، وتلقى الثقافة العربية الإسلامية لغة وأدباً وعلماً ، فبلغ في كل ذلك نشأناً بعيداً ، ويعد من الطبقة الثانية من التابعين، وكان أول ما

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤ / ٢٤٦) .

شاهده مجد الدولة الإسلامية وسيادتها، وتأثر بأعمال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسيرته وتتلمذ على عثمان فنشأ ورعًا قارئاً القرآن ، عاملاً بتعاليمه، مكباً على العلم.

وفاته:

وفي مرض موته قيل: كيف تجدك؟ ، فقال: أجدني كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ .

[الأنعام: ٩٤] .

وعندما ثقل جعل يلوم نفسه ويضرب يده علي رأيه وقال: وددت أني كنت أكتسب يوماً بيوم ما يفوتني، وأشتغل بطاعة الله ، ولما احتضر عبد الملك أمر بفتح الأبواب من قصره، فلما فتحت سمع قصاراً بالوادي، فقال: ما هذا؟ ، فقالوا: قصار فقال: يا ليتني كنت قصاراً أعيش من عمل يدي، فلما بلغ سعيد ابن المسيب قوله قال: الحمد لله الذي جعلهم عند موتهم يفرون إلينا ولا نفر إليهم.

ولما اشتد مرضه قال بعض الأطباء: إن شرب الماء مات، فاشتد عطشه، فقال: يا وليد اسقني ماء، فقال: لا أعين عليك، فقال لابنته فاطمة: اسقيني ماء فمنعها الوليد، فقال: لتدعنها أو لأخلعنك لم يبق بعد هذا شيء ، فسقته فاطمة، فمات ودخل عليه الوليد وابنته فاطمة عنده تبكي، فقال: كيف أمير المؤمنين؟ ، فقالت: هو أصلح !.

المطلب الثاني

جهاده قبل خلافته وبعدها

قبل خلافته :

شتا المسلمون بأرض الروم سنة اثنتين وأربعين هجرية ، وهو أول مشتى شتوه بها، فاستعمله معاوية بن أبي سفيان على أهل المدينة، وعبد الملك يومئذٍ ابن ست عشرة سنة، فركب عبد الملك بالناس البحر، وغزا إفريقية تحت لواء معاوية ابن حديج السكوني، مرتين: مرة سنة إحدى وأربعين هجرية ، وغزاها سنة خمس وأربعين هجرية ، فبعثه ابن حديج إلى « جلولاء » ففتحها، وقد سار عبد الملك إلى « جلولاء » على رأس ألف رجل فحاصرها أياماً دون جدوى، وحين أراد الانصراف وسار بهم رأى غباراً كثيفًا ، فظن عبد الملك أن العدو يطارد قواته ، لذلك كرَّ راجعاً فرأى سور جلولاء قد وقع ، فدخلها المسلمون وغنموا ما فيها .

واختلف الناس في الغنيمة، فكتب ابن حديج في ذلك إلى معاوية ابن أبي سفيان، فكتب « أن العسكر ردء للسرية، فقسم ذلك بينهم، فأصاب كل رجل منهم لنفسه مائتي دينار وضرب للفرس بسهمين، ولصاحبه بسهم، فقال عبد الملك: « فأخذت لفرسي ونفسي ستمائة دينار واشتريت بها جارية »، كما غزا بلاد المغرب مع معاوية بن حديج علي بعث أهل المدينة سنة خمسين هجرية ، فذكر من كفايته وغنائه ومجاهدته في تلك البلاد شيئاً كثيراً.

بعد خلافته :

[أ] في إفريقية:

بعث عبد المللك زهير بن قيس البلوي لاسترداد إفريقية من الروم وحلفائهم البربر، وذلك سنة تسع وستين هجرية ، فانتصر ودخل القيروان، ولكنه قتل بعد

ذلك، وبعد مقتل زهير اختار عبد الملك بن مروان قائداً قديراً هو حسان بن النعمان الغساني ، فسيره إلى إفريقية ، وجعل له الولاية عليها، وذلك سنة ثلاث وسبعين هجرية ، ففتح قرطاجنة، وأتم تحرير الشمال الإفريقي .

[ب] في بلاد الروم :

حاصر المسلمون القسطنطينية أيام معاوية بن أبي سفيان سبع سنوات وكادوا أن يفتحوها ، فلما نشبت الاضطرابات الداخلية بين المسلمين اضطر عبد الملك إلى عقد هدنة مع الروم لينصرف إلى معالجة الأزمات الداخلية بين المسلمين ، وفي سنة ثلاث وسبعين استعاد عبد الملك بن مروان سيطرته علي الدولة الإسلامية فعين أخوه محمد بن مروان والياً علي الجزيرة « وأرمينية » ليكون القائد في الجهة المتاخمه للروم ، وقطع إرسال النقود التي كان يرسلها للروم ، فأعلن أمبراطور الروم جستنيان الثاني الحرب وقدم بجيش كبير لغزو المسلمين ، فلاقاه محمد بن مروان، ودارت بين الطرفين معركة طاحنة هزم فيها الروم هزيمة شنيعة، وكان ذلك سنة أربع وسبعين هجرية .

وبعد استقرار الأوضاع في دار الإسلام، بدأ التوغل الإسلامي في داخل الأراضي البيزنطية، فكانت الطوائف تخرج بانتظام للإغارة على هذه الأراضي بقيادة محمد بن مروان، وغيره من أمراء بني أمية، وفي سنة إحدى وثمانين هجرية بعث عبد الملك بن مروان، عبد الله بن عبد الملك ففتح « قاليقالا » وهي إحدى مدن الروم الكبيرة، وفي سنة أربع وثمانين تمكن عبد الله بن عبد الملك من فتح مدينة أخرى رئيسه

داخل دولة الروم في آسيا الصغري وهي مدينة « المصيفة »وفي سنة سبع وسبعين هجرية غزا عبد الملك بنفسه الروم، ففتح مدنية « هرقلة » .

وهكذا اندفعت قوات المسلمين تفتح المعاقل وتستولى على الحصون بعد تحقيق الوحدة في عهد عبد الملك.

[جـ] في المشرق :

ضم عبد الملك بن مروان سنة ثمان وسبعين هجرية خراسان وسجستان إلى أعمال الحجاج بن يوسف الثقفي، فبعث المهلب على خراسان بعد فراغه من قتال الخوارج ، فاستعاد خراسان وسجستان وفتح مدناً أخرى ومناطق جديدة .

المطلب الثالث

أعماله في فترة خلافته

استقبل عبد الملك الخلافة لهلال شهر رمضان سنة خمس وستين هجرية ، فكان على أرض الشام ، ومصر ، وكان عبد الله بن الزبير علي البلاد الإسلامية الأخرى (١) .

[١] في طريق الوحدة:

فقد بذل عبد الملك قصارى جهده لإعادة الوحدة الشاملة إلى البلاد الإسلامية ... فكان له ذلك حيث انطلق من نقطة الصفر سنة خمس وستين هجرية ، حيث تولى الخلافة ، وحيث كان عرشه مزعزع الأركان حتى في دمشق نفسها، وانتهى في سنة ثلاث وسبعين الهجرية إلى القمة حيث دانت له الدولة الإسلامية كلها، وأعاد الوحدة الشاملة إلى دار الإسلام.

---

(١) **قلت** : إن خلافة عبد الملك بن مروان تبدأ على الصحيح بعد مقتل ابن الزبير ويؤيد ذلك ما أخرجه البخاري أن عبد الله بن عمر كتب إلى عبد الملك بمبايعته له، وذكر ابن حجر أن ذلك كان بعد مقتل ابن الزبير، فحتى لو لم تسلم بخلافة لعبد الملك في الفترة السابقة، لأنها أقل ما يُقال عنها أنها زمن فرقة، وطرق انعقاد الخلافة تكون بالاختيار أو الاستخلاف، كاختيار الأمة للصديق ﷺ أو كاستخلاف الصديق للفاروق، وهناك طريق آخر تجب الطاعة بموجبه، ويحرم الخروج عليه بسببه، ولكنه ليس من الطرق الشرعية، ولا يجوز إلا للضرورة من أجل مصلحة المسلمين وحقن دمائهم وذلك هو طريق القهر والغلبة والاستيلاء على الحكم ما دام قائماً في الناس بالشرع فقد بايع عبد الله بن عمر عبد الملك بن مروان وبالسيف أخذ الملك وأمر له بالسمع والطاعة على كتاب الله وسُنَّة نبيه.

[٢] بعد الوحدة الشاملة :

[أ] إشاعة الاستقرار:

قضى على الخوارج في البحرين سنة ثلاث وسبعين هجرية ، وأعاد بناء الكعبة على ما كانت عليه قبل عبد الله بن الزبير، وبعث المهلب ابن أبي صفرة إلى حرب الأزارقة ، وانطلقت الجيوش الإسلامية للفتح ولاستعادة المناطق التي استعادها العدو في إيران وبلاد الروم وإفريقية، وولى الحجاج سنة خمس وسبعين هجرية العراق .

وفي سنة اثنتين وثمانين هجرية ثار عبد الرحمن بن الأشعث علي الحجاج فاستطاع الحجاج بمساعدة عبد الملك القضاء على أكبر ثورة داخلية هددت كيان الدولة الإسلامية بعد الوحدة وذلك سنة ثلاث وثمانين الهجرية .

وكان من ثمرات الوحدة أن أعادت الدولة الإسلامية كامل سيطرتها على ما فتحه الخلفاء الأولون، وذلك من نهر جيحون شرقاً إلى قرطاجنة غرباً، وإلى أعمال بلاد الروم شمالاً ، بعد أن كان عبد الملك يدفع الإتاوة لإمبراطورية القسطنطينية قبل الوحدة.

[ب] إصدار العملة :

في سنة ست وسبعين هجرية ضرب عبد الملك الدنانير والدراهم ، وهو أول من أحدث ضربها في الإسلام .. وبذلك حقق عبد الملك للدولة الإسلامية استقلالها المالي.

[جـ] تعريب الدواوين:

بقيت أهم دواوين الدولة الإسلامية -ديوان الخراج- وهي التي كانت تشرف على الشئون المالية للدولة تستعمل اللغات الأجنبية، كما كانت حالها في عهود الدول السابقة قبل ظهور الإسلام، فقام بتعريبها، وبذلك أصبحت اللغة االعربية

هي لغة جميع الدواوين ، وكان من نتائج ذلك إبطال اللغات الأجنبية ، فتحقق نصر اللغة العربية على تلك اللغات الأجنبية والأقاليم ، فكانِ هذا من أكبر عوامل انتشار العربية بعد عامل القرآن الكريم .

المطلب الرابع
أهم صفاته القيادية ومبادئه الحربية

لا شك أن عبد الملك قبل خلافته كان يعتبر من فقهاء المدينة الأربعة المعدودين، وكان أديباً، عَدوه من القلة الذين لا يلحنون، وكان سياسياً محنكاً ذكيّاً، وكان رجل دولة بكل ما في الكلمة من معاني : يختار الرجال الأوفياء الأمناء، ويولي الأمور للمختارين من الرجال، ويرى أن قوتهم قوة له وللدولة، وضعفهم ضعف عليه وعلى الدولة، وكان يجمع ولا يفرق، ويوحد ولا يشتت، ويعد ولا يظلم ويصالح ولا يخاتل.

أما مميزاته في ميادين الوغي :

فإنه كان لا يستبد برأيه، بل كان يستشير رجاله المقربين في كل صغيرة وكبيرة قبل أن يقدم على تنفيذ أي عمل عسكري، وكانت له موهبة فذة في اختيار الرجال المناسبين للعمل المناسب، وكان يبذل جهوده السلمية قبل خوض كل معركة وحتى أثناءها لتجنب ويلات الحرب، وكان يحاول بكل طاقته استمالة رجال خصمه باذلاً لهم الوعود السخية والمناصب المرموقة والمال الكثير، كان يولي ثقته الكاملة لرجاله، ويتجنب أمر تبديل رأيه فيهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، كان ذا رأي سديد، بصيراً بالحرب شجاعاً بالسيف.

فرحمة الله علي التابعي الجليل، الإداري الحازم، القائد الفاتح، العالم الأديب، بطل الوحدة، ورجل الدولة، عبد الملك بن مروان الأموي (١) .

---

(١) راجع كتاب قادة فتح المغرب (٢/٩٥-١٥٢) .

المبحث الثامن
رويفع بن ثابت الأنصاري

رويفع الصحابي الجليل رضي الله عنه فاتح جزيرة جربة في تونس الخضراء، الذي عاش حياة الجهاد حتى استشهد في سبيل الله ، وقد اعتزل الأحداث السياسية ولم يشارك فيها لا بلسانه ولا بسيفه، حتى انشكفت الغمة، وعادت الوحدة الشاملة إلى المسلمين، فمن هذا الصحابي، وكيف كانت حياته الجهادية؟ .

المطلب الأول
اسمه ونسبه

هو رويفع بن ثابت بن سكن بن عدي بن حارثة الأنصاري ، من بني مالك بن النجار كان صحابياً، روى عن النبي ﷺ وروى عنه جماعة من التابعين، ولكننا لا نعرف متى أسلم ولا عن جهاده تحت لواء الرسول القائد ، فقد نال رويفع شرف الصحبة ولكنه لم ينل شرف الجهاد تحت لواء النبي ﷺ .

المطلب الثاني
جهاده

كانت أرض الشام ميدان جهاد رويفع، فلما أنجز المسلمون فتحها سار رويفع تحت لواء عمرو بن العاص لفتح مصر، وليبيا، والنوبة، كما شهد معارك الفتح التي خاضها عبد الله بن أبي السرح لفتح إفريقية، ومعاوية بن حديج السكوني لفتح المغرب .

وفي سنة خمس وأربعين هجرية غزا معاوية بن حديج السكوني المغرب فاستعاد فتح طرابلس الغرب، وترك فيها رويفع بن ثابت والياً عليها سنة ست

وأربعين هجرية فغزا إفريقية « تونس » ودخلها سنة سبع وأربعين هجرية وفتح جزيرة جربة التي كان يسكنها البربر،ثم انصرف من عامه إلى طرابلس مقر عمله.

المطلب الثالث
حياته

كان رويفع صحابياً جليلاً، لم يشارك فيما حدث بين علي بن أبي طالب ومعاوية من قريب أو من بعيد، بل بقي مستقراً في مصر حتى انكشفت الغمة وعادت الوحدة الشاملة بين المسلمين.

سكن مصر واختط بها داراً، وقد ولاه معاوية بن حديج أيام معاوية بن أبي سفيان طرابلس الغرب سنة ست وأربعين هجرية ، وتولى برقة لمسلمة بن مخلد حتى كانت وفاته وهو أمير عليها من قبل مسلمة بن مخلد سنة ست وخمسين هجرية (٦٧٦ م) ، وقبره مشهور في الجبل الأخضر بـ« برقة » في مدينة البيضاء وهو آخر من توفي من الصحابة هناك، روى عن النبي ﷺ ثمانية أحاديث، وكان فقيهاً من أصحاب الفُتيا من الصحابة وكان خطيباً مفوهاً [١] .

المطلب الرابع
أهم صفاته القيادية ومبادئه الحربية

لقد كان رويفع الأنصاري إدارياً حازماً، قوياً، صادقاً، وفيّاً، تقيّاً، كريماً، سخيّاً، وقد بذل قصارى جهده مجاهداً في سبيل الله في ميادين أرض الشام ومصر والشمال الإفريقي.

وقد شهد معارك كثيرة برية وبحرية، فقد سار بجيشه بحراً إلى جزيرة جربة وفتحها وقضى على فساد أهلها الذين كانوا يفسدون في البر والبحر، فنشر فيهم

---

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة (٢ / ٨٨) .

الدين الحنيف وضمهم إلى البربر المسلمين.

لقد كان سلاح رويفع في حربه تقوى الله وحده، وكثرة ذكره والاستعانة به، والتوكل عليه، والفزع إليه ومسألته النصر والتأييد والسلامة والظفر، وكان يسوس رجاله سياسة حكيمة قوامها المحبة المتبادلة والهيبة منهم له، والمحبة من بعضهم لبعض، يتفقد من أمور أصحابه جميع ما يعود نفعه عليهم ويتزيد محسنهم بالتكرمة ويجعل عامة أصحابه في لين الكلمة بمنزلة الخاصة ، من غير أن ينقص أحداً من ذوي البلاء حقه وثوابه.

وكان شجاعاً مقداماً، كامل العقل طويل التجربة بعيد الصوت، مأمون النقيبة ، بصيراً بتدابير الحرب ومواضعها، حسن التعبئة لأصحابه في أحوال التعبئة، مدخلاً الأمن عليهم والخوف على عدوهم مع طلب السلامة لنفسه وأصحابه من العدو، حسن السيرة عفيفاً صارماً متيقظاً سخيّاً ... لقد كان قائداً ممتازاً.

وأخيراً:

يذكر التاريخ لرويفع الأنصاري ﷺ أنه قضي حياته كلها مجاهداً، وإدارياً، ورافق أعلام الفتح الإسلامي من مبدأ سيرها إلى أرض الشام، من المدينة المنورة إلى نهاية مستقرها في الشمال، ويذكر له أنه من الدعاة الأوائل الذين نشروا الإسلام بأرض الشام، ومصر، والمغرب عامة والبربر خاصة.

ويذكر أنه فتح جزيرة جربة ومات بعيداً عن أهله، فاستقرت نفسه مطمئنة في سفوح الجبل الأخضر من أرض ليبيا في برقة حيث لا يزال أهلها يذكرونه بالتقدير والإكبار.

إنه نسي نفسه من أجل عقيدته والمصلحة العامة العليا، فذكره الناس في أيامه ولا يزالون، رضي الله عن الصحابي الجليل، والإداري الحازم، التقي، النقي، الفارس البطل، القائد الفاتح، رويفع بن ثابت الأنصاري النجاري [١] .

---

(١) المرجع السابق: (٢/١٥٣-١٥٦).

الباب الخامس

عهد الولاة

الفصل الأول

كتاب يهدي وسيف يحمي

لقد فقه صحابة رسول الله ﷺ معاني كتاب يهدي، وسيف يحمي ، حيث إنهم حملوا السلاح عندما حان وقت حمل السلاح، وفتحوا الكتاب كذلك في وقته المناسب، فلم يكن هناك تعارض عندهم بين طلب العلم الشرعي وتدريسه، وبين حمل السلاح وتطبيق أيات الكتاب في أرض الواقع، لايوجد اختلاف بين هذه وتلك ، فلكل وقت فريضة ، وهكذا كان حقيقة علم الصحابة ﷺ وعلى هذا الطريق سار أئمة أهل السُنَّة والجماعة.

المبحث الأول

كتائب الدعاة والمجاهدين نحو الشمال الإفريقي

إن بداية الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا كان سنة اثنتين وعشرين هجرية بقيادة الصحابي الجليل عمرو بن العاص ﷺ واستمرت بعد تلك الحملات الجهادية علي شمال إفريقية حتى كانت حملة القائد الجليل موسى بن نصير اللخمي رحمه الله حيث أكمل فتح الشمال الإفريقي عام ثمان وثمانين هجرية .

ولقد قدم المسلمون خلال فتوحاتهم المباركة للشمال الإفريقي الألوف من الشهداء و الدماء والأشلاء في ساحات الوغي والفداء، التي دامت قرابة ست وستين سنة، وكان من بين أولئك الشهداء أكابر قيادات الفتح الإسلامي منهم (القائد : عقبة ابن نافع الفهري، وأبو المهاجر وزهير بن قيس البلوي) فرحم الله

الجميع وأدخلهم فسيح جناته.

سبحانه واستفاضة بيانه إلى كافة الناس أجمعين، وبسط سيادة القرآن والسُّنَّة في جميع مناشط العباد والبلاد.

وهكذا اندمجت جيوش الفقهاء والمحدثين والدعاة مع إخوانهم في الدين من البربر وغيرهم من سكان شمال إفريقية، حيث تراهم حيناً في تعليمهم أصول دينهم وفروعه، وحيناً آخر في تربيتهم على كيفية تطبيق مبادئه في أرض الواقع، وحيناً في إعدادهم كدعاة وقادة لحمل العبء معهم، حتى أصبحوا كالرجل الواحد والجسد الواحد: [**إذا اشتكى منه عضو اشتكى معه سائر الجسد**]، فالأهداف أصبحت متحدة والوسائل مشتركة، والمقاصد واحدة، وزالت بفضل الله تلك الفوارق التي تكون عادة بين الفاتحين وأهل البلاد الأصليين وأصبحوا بنعمة الله إخواناً: [**لا فرق بين عربي وعجمي إلا بتقوى الله**].

لقد اكتمل فتح هذه المنطقة عسكرياً سنة ثمان وثمانين هجرية بقيادة موسى بن نصير رحمه الله وما أن استقرت الأوضاع السياسية وتقسم الولاة، والأمراء التي أخذت قرابة عشر سنوات من قيادة المنطقة حتى كان عهد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز الذي تولى إدارة سدة الخلافة عام تسع وتسعين هجرية ، حيث عين إسماعيل بن عبيد الله والياً على الشمال الإفريقي وكان يمتاز بحسن السيرة والسلوك مما جعله يؤثر في قبائل البربر تأثيراً إيجابياً بالغاً.

يقول صاحب كتاب فتوح مصر وأخبارها : « تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه سنة تسع وتسعين هجرية ، فولى إسماعيل بن عبيد الله على حرب المغرب، وخراجه وصدقاته، في المحرم سنة مئة هجرية ، وكان إسماعيل حسن السيرة، وأسلم في زمانه جميع البربر طوعاً ورغبة واقتناعاً » [١] .

وبتلك التقريرات الإيجابية عن قبائل البربر التي قدمت من الشمال الإفريقي

---

(١) فتوح مصر وأخبارها، (ص٢١٣).

إلي خليفة المسلمين عمر بن عبد العزيز جعلت الخليفة عمر بن عبد العزيز يعجل باتخاذ خطة تعليمية لنشر الإسلام في الشمال الإفريقي : وكان أهم أهداف الخطة التعليمية التربوية :

الهدف الأول :

اختيار علماء ربانيين اشتهروا بالعلم والفقه والدعوة والتجرد للإشراف على التربية والتعليم.

الهدف الثاني :

وضع خطة بعيدة المدى لنشر تعليم اللغة العربية، ومحو الأمية في أوساط القبائل البربرية حتى يسهل عليها بعد ذلك فهم القرآن والسنة والتعامل معهما.

الهدف الثالث :

الاهتمام بربط الناس بالقرآن المجيد الذي هو حبل الله المتين ، ويكون ذلك بفتح الكتاتيب وجمعيات تحفيظ القرآن وتجويده .

الهدف الرابع :

البلاغ الواضح المبين لعقائد أهل السُنَّة والجماعة.

الهدف الخامس :

تعليم الناس الحلال والحرام.

وهكذا شرع خليفة المسلمين عمر بن عبد العزيز بتنفيذ هذه الخطة الواعية، بعد تقريرها وتأطرها وفق المبادئ الإسلامية والأسس الحركية، حيث تم تعيين أفضل عشرة من فقهاء التابعين ذوي الصفات المطلوبة من الناحية العلمية الأكاديمية، ومن الناحية العلمية السلوكية التربوية لهذه المهمة الجهادية الصعبة.

وبعد ذلك تحركت القافلة العلمية الدعوية في مهمتها الجهادية نحو الشمال الإفريقي حيث استقر بها المسير في مدينة العلم وقلعة الجهاد، مدينة القيروان

عاصمة العلم في الشمال الإفريقي آنذاك ، وما أن حطت القافلة رحالها، والتقطت أنفاسها من مشقة الطريق حتى طفقت ترتب أمورها، وتجهز أدواتها، وتحصي مواطن الخير، ومواقع العلم حتى تبدأ من حيث انتهى من كان قبلها من أهل العلم والفضل والجهاد، وهكذا استمرت القافلة العلمية في تنفيذ مهمتها الجهادية في أواسط القبائل البربرية ووفق خطة استراتيجية، لنشر الإيمان وإحياء السُنَّة وإماتة البدعة، واستفاضة العلم ورفع الجهل، وإقامة العدل، وإزالة الظلم.

وقد نجحت هذه القافلة الدعوية في مهمها الجهادية أيما نجاح، إذ استطاعت في مدة وجيزة أن تبليغ دعوة الله إلى كافة أبناء تلك الأصقاع التي شملت الشمال الإفريقي، وامتدت عبر البحر إلى الأندلس، وجنوب فرنسا، بيد أنا نقرر بأن لهذا النجاح المتفوق عوامل ساعدت على تحقيقه في فترة وجيزة، ومن أهم تلك الأسباب والعوامل ما يلي:

أولاً: الحالة السياسية آنذاك :

كانت هذه الحقبة من الزمان التي امتازت بهدوء سياسي واستقرار نسبي قد سبقها حلقات جهادية بين الكر والفر، فكانت آخر هذه الحلقات الجهادية حلقة موسى بن نصير والتي تولى بعدها عمر بن عبد العزيز ﷺ خلافة المسلمين فشكل عهده حلقة من حلقات الاستقرار السياسي، والاستتباب الأمني في ربوع البلاد وقلوب العباد.

ثانياً: الحالة النفسية الفكرية:

لقد استقر في نفوس أولئك الدعاة العلماء المجاهدين من التابعين، أنه لا يستقيم أمر الفكر والدعوة إلا باستقامة القلوب، ولا تتأثر الشعوب بكلام إلا بكلام القلوب، والذي كان لعامل إخلاصهم لله، وصدقهم مع ربهم، والتزامهم بسُنَّة الرسول ﷺ، وورعهم عن حطام الدنيا الأثر البليغ في نفوس قبائل الأمازيغ البربرية.

ثالثاً: الحالة السلوكية الحركية:

إن هذا الدين ليس شعارات ترفع، ولافتات تصنع ، وكلمات تسبك ، وعبارات تنثر، وإنما هو ما وقر في القلب وصدقه العمل، وهكذا كانت حقيقة الحالة السلوكية الحركية لتلك القافلة العلمية الدعوية الجهادية في أوساط القبائل البربرية، العمل قبل القول: وبذلك تأثرت القبائل البربرية برجال القافلة الدعوية الجهادية في نواحي العقيدة السليمة، والعبادة الصحيحة، والأخلاق الرفيعة مما ساعد علي صبغ الحياة البربرية كلها بصبغة إسلامية في جانب اعتقاد جنان، ونطق اللسان، وتطبيق الأركان ﴿ **صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ** ﴾ [البقرة:١٣٨] .

رابعاً : جمال الشريعة الإسلامية:

لا شك بأن حق الأمة الجهاد وحق العلم البيان، وحق الدعوة الحكمة والتدرج، لذلك فقد أخذت هذه القافلة المباركة على عاتقها تطبيق حق الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، حيث استطاعت هذه القافلة الدعوية من تطبيق حق الدعوة بالكلمة والتدرج في استيعاب القبائل البربرية، وذلك بتقديم الإسلام والدعوة بسهولة ويسر ، **مما جعل القبائل البربرية تدخل في دين الله أفواجاً وبالتدرج واهتمت ببيان الآتي:**

أولاً: بيان مقاصد الشريعة :

وذلك بتقرير نشر مبادئ رفع الحرج عن العباد في الإسلام ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ [الحج:٧٨]، وتأصيل مبادئ العبادات الشرعية علي قواعد اليسر، ورفع الحرج والتدرج وفق القوانين السنية واعتبار المصالح البشرية.

ثانياً: إبراز مكانة مكارم الأخلاق في الإسلام :

لا ريب أن فحوى الرسالة المحمدية – على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم –

كان لإتمام مكارم الأخلاق كما قال ﷺ : [**بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**] (١) وتلك المكارم تشمل العقائد، والتصورات، والسلوكيات حيث العفة، والأمانة، والصدق، والشهامة،الإحسان، والإكرام، والأخوة في الدين والإيثار، والعدل والإنصاف، وبتطبيق تلك الأخلاق الإسلامية في المنطقة المغربية أصبح ابن الكاهنة - التي حاربت الإسلام والمسلمين- بعد دخوله في الإسلام قائداً من قواد المغرب الأقصى في عهد القائد الزعيم حسان بن النعمان الذي قاسى من أمه الأمرين !!.

ثالثاً: تحقيق روح العدل والإنصاف :

وكان ذلك متمثلاً في رفق ولاة المسلمين بالرعية، وتطبيق المبادئ العدلية كما جاءت بها الرسالة المحمدية علي القوي والضعيف، مما جعل قبائل البربر تنظر إليهم نظرة إعجاب وتقدير، وتسرع في الانضمام إلى صفوف هذا الدين العظيم دين الإسلام شريعة، وعبادة، وعقيدة حتى أصبح منهم دعاة للإسلام، وقادة للجهاد حملوا الإسلام دعوة ودولة إلى ربوع الأراضي الأندلسية، والساحات الفرنسية، والجزر الإيطالية، والمجاهل الإفريقية.

تأسيس أول جامعة إسلامية في الشمال الإفريقي:

لاشك أن أول ما ينبغي على الجيش الفاتح تحقيقه هو إيجاد مدينة يستقر بها المسلمون، وتكون محط رحال الجند منها تنطلق سراياهم وبها يحتمون عند الخطر، ولتكون المنطلق الطبيعي لنشأة الحياة الإسلامية، وتثبيت شعائر الدين، وإقامة أحكامه في البلد المفتوح، إلا أن هذه الغاية لم تكن سهلة المنال في إفريقية، لصعوبة مراس أهلها وكثرتهم وبعدها عن مركز الخلافة، هذا يعني انعدام المدد المستمر، كما يعني أن اهتمام الخليفة سينصب أولاً على البلاد القريبة منه، ولذلك فإن مشاكل المشرق كثيراً مما كانت تصرف أنظار ولي الأمر

---

(١) رواه أحمد في مسنده(٢ / ٣٨١) وصححه احمد شاكر.

عن التفكير في وضع إفريقية ، ولهذه الأسباب لم يتمكن المسلمون من تأسيس مدينة القيروان إلا بعد أكثر من عشرين سنة من بداية الفتح، ولقد استهوت ناحية القيروان المسلمين منذ غزوة العبادلة سنة ٢٧هـ فإن أبا السرح قد نزل فيها مدة وضرب فسطاطه في أرضها . . .

كما لا يخفى أن أول من بني مساكن للجند فيها وسماها (قيروان) هو معاوية بن حديج سنة ٤٥ هـ وكان ذلك عند القرن، (وهو جبل قريب من القيروان)، وفي هذه الغزوة توفي الصحابي أبو زمعة البلوي، وبه سميت مقبرة القيروان بعد ذلك بالبلوية، مما يؤكد قرب المساكن التي بناها ابن حديج من موقع القيروان . .

ولما قدم عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ ، لاحظ كثرة ارتداد البربر، لذلك قرر ضرورة تأسيس مدينة للمسلمين من العرب والبربر لتحفظ عليهم دينهم، ودنياهم، فقال لأصحابه : « إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلي الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكن عزاً للإسلام إلى آخر الدهر » .

فاتفق رأيهم على ذلك، ونظر عقبة فيما بناه ابن حديج فلم يعجبه، فتحول عنه قليلاً وأمرهم بالبناء بعد أن استشارهم حول الموقع الذي امتاز بطيب مرعاه، وبعده عن البحر حتى لا يطرقه العدو ليلاً، وكان المكان وادياً كثير الشجر وتأوي إليه الوحوش والسباع فنادى فيهم عقبة بقول :« يا أهل الوادي إنّا حالون إن شاء الله، فاظعنوا، ثلاث مرات قال (الراوي) : فمارأينا حجراً ولا شجراً إلا يخرج من تحته دابة حتى هبطن بطن الوادي ، ثم قال: انزلوا بسم الله » [1] .

---

(١) **تكاد المصادر تجمع على ذكر هذه الحادثة وهذه المصادر هي**: تاريخ خليفة بن خياط، فتوح مصر والمغرب، فتوح البلدان، تاريخ الطبري، البداية والنهاية، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، وأول من ذكرها خليفة في تاريخه وقد نقلها عنه الحافظ بن حجر في كتابه الإصابة وحكم على إسنادها بانه حسن، ومع ذلك شكك في صحتها بعض المعاصرين، زاعمين أنها مجرد أسطورة أملتها الظروف التي أحاطت بتأسيس القيروان ولا يوجد مانع شرعي من حدوثها.

فنزلوا وقطعوا الأشجار، وبنى المسجد الجامع ودار الإمارة وبنى الناس بيوتهم ومساجدهم، واستمر البناء خمس سنوات كان عقبة أثناءها يرسل السرايا لتوسيع الفتح، ودعوة البربر للإسلام وعظمت مدينة القيروان، وقصدها البربر المسلمون للتعليم والاشتراك مع إخوانهم الفاتحين.

ولما تولى أبو المهاجر إمارة إفريقية بنى مدينة تيكروان على ميلين من مدينة القيروان فانتقل أكثر أهل القيروان إليها، فلما عاد عقبة في إمارته الثانية أعاد عمارة القيروان، وكان في معسكره هذه المرة خمسة وعشرين صحابياً فجمعهم في وجوه العسكر، ودار بهم حول المدينة، وجعل يدعو، وهم يؤمنون ومما قاله في دعائه: «اللهم املأها علماً وفقهاً، وأعمرها بالمطيعين والعابدين، واجعلها عزاً لدينك، وذلاً لمن كفر بك، وأعز بها الإسلام وأهله، وادمغ بها أهل النفاق والأهواء والشك والضلالة» [(١)].

وسرعان ما اتسع بناء القيروان حتى اشتمل سورها على أربعة عشر باباً وسبعة محارس، وقسمت إلى أرباض، وحارات، وشوارع ، وأزقة، وأسواق، وحمامات، وقد وصفت القيروان في كتب الجغرافيين والمؤرخين بأوصاف جليلة تنبيء بعظمتها وتدل على فضلها، ومن ذلك قول الإدريسي: «ومدينة القيروان أم الأمصار، وقاعدة أقطار، وكانت أعظم مدن المغرب قطراً، وأكثرها بشراً، وأيسرها أموالاً، وأوسعها أحوالاً، وأتقنها بناءً ، وأنفسها همًّا ... والغالب علي فضلائها التمسك بالخير والوفاء بالعهد والتخلي عن الشبهات، واجتناب المحارم والتفنن في محاسن العلم ...» [(٢)].

أهمية القيروان في نشأة الحياة العلمية بإفريقية:

لا يخفى أن مدينة القيروان تعتبر أول جامعة إسلامية في شمال إفريقية، بل

(١) مدرسة الحديث في القيروان، للحسين بن محمد (١/ ٤٤،٤٥،٤٦،٤٧،٤٨).

(٢) مدرسة الحديث في القيروان (١/ ٤٨).

أصبحت لفترة طويلة قبلة علم لكل سكان القارة الإفريقية ، وسكان جنوب البحر الأبيض المتوسط، لذلك أصبحت مدينة القيروان الجامعة الإسلامية صاحبة الرسالة العلمية، والأنشطة الدعوية يصبو إليها الناس من كل حدب وصوب ، يعتكفون فيها لتحصيل العلم تفسيراً وحديثاً وفقهاً في أروقة هذه المدينة العلمية صاحبة الرسالة الإسلامية في القارة الإفريقية .

ولا ريب أن هنالك ثمة أسباب جعلت مدينة القيروان تحتل الصدارة العلمية في القارة الإفريقية ، وهذه الأسباب تكمن في الآتي:

السبب الأول:

بإنشاء مدينة القيروان أصبحت إفريقية ولاية إسلامية جديدة وجزءاً لا يتجزأ من العالم الإسلامي، وبالتالي سيعيش المسلمون فيها حياتهم العادية، علي رأسها التعليم وبث الثقافة الإسلامية، فإن القيروان مدينة رسالة، وعي أهلها تلقى مسئولية نشر الإسلام في المغرب، فكما كانت منطلق الجيوش الفاتحة، كانت كذلك منطلق الدعاة إلى الأنحاء لنشر الإسلام، وقد شعر الصحابة بهذه المكانة للقيروان منذ تأسيسها، فقد قالوا لعقبة عندما أراد تحديد قبلة الجامع: إن أهل المغرب يضعون قبلتهم علي قبلة هذا الجامع فأجهد نفسه في تقويمه .

السبب الثاني:

لقد تم بناء الجامع وهو المدرسة الأولى في الإسلام، ولا شك أن الصحابة الذين كانوا في جيش عقبة قد جلسوا للتدريس فيه على النمط الموجود في مدن المشرق آنذاك، فقد كان مع عقبة أثناء القيروان ثمانية عشرة صحابياً وقد مكثوا بها خمس سنوات كاملة كان عملهم فيها – ولا شك – نشر اللغة العربية وتعليم القرآن والسنة في جامع القيروان، وذلك أثناء بناء مدينة القيروان، حيث لم تكن هناك غزوات كبيرة تتطلب غياباً طويلاً عن القيروان، أما في غزوة عقبة الثانية فقد كان معه خمسة وعشرون صحابياً وسائر جيشه من التابعين، وقد انتشرت

رواية الحديث النبوي الشريف في هذه الفترة ، مما دعا عقبة أن يوصي أولاده ومن ورائهم جميع المسلمين بتحري حديث الثقات وعدم كتابة ما يشغلهم عن القرآن .

السبب الثالث :

لقد استقطبت القيروان أعداداً هائلة من البربر المسلمين الذين جاءوا لتعلم الدين الجديد ، قال ابن خلدون عند حديثه عن عقبة : « فدخل إفريقية وانضاف إليه مسلمة البربر، فكبر جمعه ودخل أكثر البربر في الإسلام، ورسخ الدين »، ولاشك أن الفاتحين قد خصصوا لهم من يقوم بهذه المهمة .

ومن القيروان انتشر الإسلام في سائر بلاد المغرب، فقد بنى عقبة بالمغربين الأقصى والأوسط عدة مساجد لنشر الإسلام بين البربر، كما ترك صاحبه شاكراً في بعض مدن المغرب الأوسط لتعليم البربر الإسلام، ومن قبله تألف أبو المهاجر كسيلة وقومه وأحسن إلى البربر، فدخلوا في دين الله أفواجاً، ودعم حسان بن النعمان جهود عقبة في نشر الإسلام بين البربر، إذ خصص ثلاثة عشر فقيهاً من التابعين لتعليم البربر العربية والفقه ومبادئ الإسلام، وواصل موسى بن نصير هذه المهمة عندما : « أمرالعرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين » (١) ، وترك في المغرب الأقصى سبعة وعشرين فقيهاً لتعليم أهله .

السبب الرابع :

كان كثير من أفراد الجيش قد صحبوا معهم زوجاتهم، ومنهم من اتخذ بإفريقية السراري وأمهات الأولاد، قال أبو العرب :« روى بعض المحدثين أن عبد الله ابن عمر بن الخطاب لما غزا مع معاوية بن حديج كانت معه أم ولد له، فولدت له صبية وماتت، فدفنها في مقبرة قريش بباب سلم، فاتخذتها قريش مقبرة يدفنون

---

(١)البيان المغرب (١ / ٤٢)نقلاً عن مدرسة الحديث بالقيروان.

فيها لمكان تلك الصبية »[١] .

ومن هنا كان لابد من الاهتمام بتعليم النشء المسلم مبادئ الإسلام واللغة العربية، لذلك فقد نشأت الكتاتيب بالقيروان في وقت مبكر جداً، فقد روي عن غياث بن شبيب أنه قال: « كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله ﷺ يمر بنا ونحن غلمة بالقيروان فيسلم علينا ونحن في الكُتَّاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه »[٢]، وكان سفيان بن وهب قد دخل القيروان مرتين أولاهما سنة ٦٠ هـ ، أي بعد الانتهاء من تأسيس القيروان بخمس سنوات، والثاني سنة ٧٨ هـ .

السبب الخامس:

إن الموقع الجغرافي لمدينة القيروان كان له دور كبير في إثراء الحياة العلمية وإنعاشها، فقد كانت في موقع متوسط بين الشرق والغرب يمر بها العلماء والطلبة من أهل المغرب والأندلس في ذهابهم إلى المشرق، فيسمعون علمائها، وكثير منهم يصبح أهلاً للعطاء عند عودته فيسمع منه أهلها كما فعل بقي بن مخلد المسند القرطبي (٢٠١-٢٧٦ هـ) ، والمحدث دارس بن إسماعيل القاسي (٣٥٧هـ) وغيرهما كما كان يدخلها من كان يقصد المغرب أو الأندلس من أهل المشرق .

السبب السادس :

لقد كانت التجارة في القيروان رابحة والسلع فيها نافقة، ولذلك أمَّها كبار التجار من المشرق والمغرب وكثير منهم من المحدثين والفقهاء ، فكان ذلك عاملاً مهمّاً في ازدهار الحياة العلمية بالقيروان، قرأ عبدُ الرحمن المقّريُّ الحديث وقدم إفريقية سنة (١٥٦هـ) ، وكيلاً لأحد التجار وسمع منه أهل القيروان ، كما قدمها عبد العزيز بن يحيى المدني (٢٢٦ هـ) ، وأتي معه بمسك يبيعه، وقد

(١) مدرسة الحديث في القيروان (١ / ٥٢) .

(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٢ / ٢٥٨) .

سمع منه محمد بن سحنون وبشر كثير من أهل القيروان، بل من هؤلاء من تاجر بالكتب ، فقد جلب أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي ولد (سنة ٢٨٨ هـ) إلى القيروان عدة أحمال من الكتب في مطلع القرن الرابع، فباع كثيراً منها، وحمل ما تبقى منها فباعه في بلاد الأندلس.

السبب السابع:

ومما أسهم في إثراء الحياة العلمية كون القيروان آنذاك هي العاصمة السياسية، ذلك أنه كلما جاء أمير جديد اصطحب معه مجموعة من العلماء والأدباء، كما فعل يزيد بن حاتم(١٥٥-١٧٠)ومنهم من كان يرسل في طلب العلماء والكتب النادرة من المشرق كما فعل إبراهيم بن أحمد بن الأغلب (٢٦١-٢٨٩ هـ) .

السبب الثامن :

وكان بُعدُ القيروان عن مركز الخلافة سبباً آخر لإثراء الفكر، إذ إنها كانت ملاذاً آمناً لأولئك الذين لاحقتهم جيوش الخلافة بالمشرق وضيقت عليهم فقد شهد آخر القرن الأول ومطلع القرنين الثاني وفوداً عدة من الدعاة إلى المذهب الخارجي، كما كان بها عدد من المعتزلة وكان كل من هؤلاء يبث فكره في مسجد عقبة بن نافع بالقيروان حتى منعهم الإمام سحنون رحمه الله.

السبب التاسع :

كما أن القيروان اكتسبت نوعاً من الاحترام والتعظيم باعتبارها البلد الذي أسسه صحابة رسول الله ﷺ وظهر به على أيديهم كثير من الكرامات، واستقر بها بعضهم مدة من الزمن، وهي آخر ما دخله الصحابة من بلاد المغرب، حتي وصفها أبو إسحاق الجياني بقوله: « القيروان رأس وما سواها جسد ، وما قام برد الشبه والبدع إلا أهلها، ولا قاتل وقتل على إحياء السُّنَّة إلا أئمتها » [1] .

---

(١) مدرسة الحديث في القيروان (١ / ٥٥).

وقد لهج المؤلفون القدامى بفضل القيروان على سائر بلاد المغرب في المجال العلمي، ومن ذلك ما وصفها به مقديش بأنها : « منبع الولاية والعلوم ، فهي لأهل المغرب أصل كل خير، والبلاد كلها عيال عليها، فما من غصن من البلاد المغربية إلا منها علا، ولا فرع في جميع نواحيها إلاعليها ابتنى، كيف لا ومنها خرجت علوم المذاهب، وإلى أئمتها كل علم ينسب ... ولا ينكر هذا لاخاص ولا عام، ولا يزاحمها في هذا الفضل أحد على طول الأمد والأيام » (١) .

« وهكذا أصبحت القيروان دار العلم بإفريقية، برز فيها كبار المحدثين، والفقهاء والقراء، رحل إليها أهل المغرب والأندلس لطلب العلم ، وقد نافح أهلها عن مذاهب السلف فصارت دار السُّنَّة والجماعة بالمغرب » (٢) .

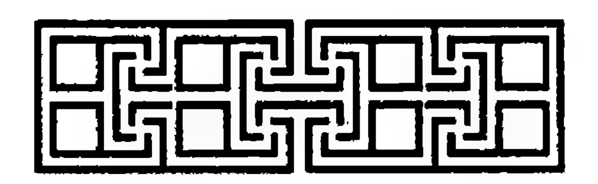

(١) حُسن البيان ، للشيخ محمد النيفر ، (ص١٨٩) نقلاً عن مدرسة الحديث في القيروان(١ / ٥٥) .
(٢) مدرسة الحديث في القيروان(١ / ٥٥) .

الفصل الثاني

الصحابة الذين دخلوا ليبيا واستقروا في مدينة القيروان

بدأت أجيال المحدثين في القيروان بالصحابة رضي الله عنهم ، فقد دخلوا إفريقية فاتحين ومعلمين، أسسوا مدينة القيروان –كما سبق– فكسبت بذلك شرفاً على مدى الأزمان، وهم أول من نشر فيها علم الكتاب والسُنَة قولاً وعملاً، ومن هنا سأبدأ الحديث عمن نزل القيروان من الصحابة رضي الله عنهم وأثرهم في نشر السُّنَّة به وبإفريقية عموماً.

المبحث الأول

عددهم وتحقيق القول في ذلك [١]

إن مما يلاحظه الناظر في كتب تاريخ المغرب وتراجم رجاله كثرة من دخل إفريقية من الصحابة ، قال ابن عذارى: « دخل إفريقية من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين الأولين ناس كثير» [٢]، وقد استمر قدومهم إليها من (سنة ٢٧ هـ) إلى (سنة ٧٨ هـ) ، وكان دخلها في كل غزوة جمع غفير منهم، ويتضاءل عدده مع مرور الزمن، فقد كان عدة جيش عبد الله بن سعد سنة ٢٧ هـ عشرين ألفاً أكثرهم أصحاب رسول الله ﷺ ، كما كان مع معاوية بن حديج في غزواته الثلاث بشر كثير من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، أما عقبة بن نافع فقد صحبه في غزوته الأولى سنة ٥٠ هـ على الراجح – كما أسلفت – ثمانية عشر صحابيًّا ، وفي غزوته الثانية (٦٢هـ) خمسة وعشرون صحابياً، كما

---

(١) اعتمدت في هذا الفصل على كتاب مدرسة الحديث في القيروان، وهو أهمها، وكذلك بعض كتب التراجم.

(٢) البيان المغرب (١/ ٨).

دخلها خالد بن ثابت الفهري(سنة ٥٤ هـ) أميراً ودخلها سفيان بن وهب الخولاني(سنة ٦٠ هـ) و(سنة ٧٨ هـ) وهو آخر من دخلها من الصحابة وعلى هذا يكون عدد من وقع التصريح بأسمائهم ضئيلاً جداً بالنسبة للعدد الحقيقي، فقد صرح أبو العرب باسم سبعة عشر منهم.

وذكر المالكي تسعة وعشرين صحابياً، وقد عَدَّ منهم عقبة بن نافع ، وهو لا صحبة له، وذكر الدباغ ثلاثين صحابياً، وقد ذكر فيهم عقبة بن عامر وهو لم يدخلها، وذكر صاحب الشجرة واحداً وأربعين، وقد تعقبت [(١)] عشرة منهم ، وتبين لي أن ثمانية منهم من كبارالتابعين، لم تثبت لهم صحبة، وواحد لم يدخلها وواحد كرره ، فتمحص له منهم واحدٌ وثلاثون صحابياً.

وبعد النظر في مختلف المصادر والمراجع ولَمِّ شتات هذه المسألة تحصل لدي عدد خمس وأربعين صحابياً ممن له رواية، أي بزيادة أربعة عشر رجلاً على أكبر عدد سبقت إليه فتعداد الصحابة الذين نزلوا القيروان وإفريقية ، وهو ما تمحص لصاحب الشجرة وقد تقدم أنه واحد وثلاثون.

وهذا عدا المخضرمين – وهم ثلاثة – ومن ولدوا علي عهد الرسول ﷺ وَتُوُفِّيَ وهم دون سن التمييز، وقد بلغ عددهم ثمانية عشر رجلاً فيما وقفت عليه بعد البحث، وهؤلاء عدادهم عند المحدثين في كبار التابعين من حيث الرواية [(٢)] .

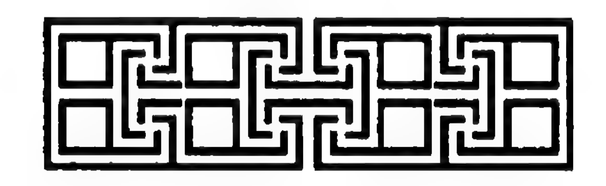

(١) المتعقب هو الأستاذ الحسين بن محمد شواط، صاحب كتاب مدرسة الحديث في القيروان.

(٢) **انظر**: مدرسة الحديث(٢ / ٤٦٥) .

المبحث الثاني

أثر الصحابة الرواة في نشر السُنَّة بالقيروان وإفريقية

لقد ضنت علينا المصادر بالمعلومات المنشودة المتعلقة بالنشاط العلمي للصحابة في القيروان، وأغفلتها إغفالاً تاماً، وقد قمت (١) بتتبع تراجم هؤلاء الصحابة في كتب أهل المشرق والمغرب، وكتب التاريخ العامة والخاصة، لعلي أظفر بما ينير الطريق في هذه المسألة، ولذلك فقد تضخمت مصادر تراجم الصحابة ، ولا حظت أن اهتمام المشارقة بإظهار الجانب العلمي للأفارقة والقيروانيين - وخاصة في مجال الحديث- قليل جداً، حتى إنهم نادراً ما يشيرون في ترجمة الصحابي إلى دخوله إفريقية ، فضلاً عن أن يتحدثوا عن نشاطه العلمي فيها، أما أهل القيروان فإن أغلب ما صنفوه في الحديث وفي تاريخ بلادهم وتراجم رجالها قد فقد، وأهمه مسند المحدث محمد ابن سحنون (ت٢٥٦ هـ)، وقد وصف بأنه كبير ، ولعله إن وجد يسد هذه الثغرة، **والذي يمكن قوله في هذه المسألة بناء على ما توافر من المادة العلمية هو :**

﴿١﴾ أن الصحابة ﷺ عموماً منهل علمي طبيعي لنشر سُنَّة النبي ﷺ ، وقد أمرهم ﷺ بالتبليغ عنه ما استطاعوا ، وقد هجروا أوطانهم وتفرقوا في الأمصار بعد وفاة الرسول ﷺ للقيام بهذه المهمة السامية ، لذلك فإن قلة المادة الواردة في هذا الشأن بخصوص القيروان لا تعني عدم قيامهم بنشر السُنَّة فيها ، إنما تفسر بقلة التدوين وضياع أكثر ما دون.

﴿٢﴾ إن الظروف العامة لإفريقية والقيروان في فترة الفتح لم تساعد علي طول استقرار الصحابة فيه، وهذا يعني عدم وجود واسطة مستقرة من الصحابة لرواية

---

(١) القائم بهذا الأمر هو صاحب كتاب مدرسة الحديث.

السنة، فكانوا يقدمون للغزو، وخلال ذلك ينشرون علوم الكتاب والسُنَّة، ثم يعودون للمشرق، فلما تم الفتح النهائي واستقرت الأوضاع كان أ غلب الصحابة قد توفوا، والباقون ضعفت قواهم - لكبر السن - عن القدوم إليها، لهذا كان أثرهم فيها أقل مما هو في بلاد المشرق.

﴿٣﴾ إن أطول فترة مكثها الصحابة في شكل جماعي بالقيروان هي الفترة التي أسسوا فيها هذه المدينة، ودامت مدة خمس سنوات (٥٠ - ٥٥ على الراجح) وكان عددهم ثمانية عشر صاحبياً في غزوة عقبة الأولى، ومن الطبيعي أنهم في هذه المدة الطويلة قد قاموا برواية علوم الكتاب والسُنَّة ، ونشرها بين من أسلم من البربر، ومن استقر في القيروان من عرب الفتح، ولا سيما ما يحتاج إليه في العبادات والمعاملات، خاصة وقد تم بناء المسجد الجامع، وبنى الناس مساجدهم ودورهم من حوله، ولم تكن هناك حروب في هذه الفترة.

﴿٤﴾ لقد تكرر دخول كثير من الصحابة الرواة إلى إفريقية ثم القيروان بعد تأسيسها، فقد دخلها عبد الله بن سعد مرتين (٢٧، ٣٣ هـ) ودخلها معاوية بن حديج ثلاث مرات (٣٤ ،٤١ ، ٤٥هـ) وعبد الله بن عمر مرتين (٢٧، ٤٥هـ) وعبد الله بن الزبير مرتين (٦٠ ، ٧٨ هـ) وغيرهم.

ولهذا التردد علي إفريقية أثر كبير في نشر الصحابة للسُنَّة ، وذلك لأن هؤلاء قد عرفوا البلاد وطباع أهلها، فهم أقدر علي معرفة مداخلها وأصلح الطرق لنشر العلم بها، ولا شك أنه قد أصبح لهم بها أصحاب وتلاميذ.

﴿٥﴾ إن كثيراً من الصحابة الفاتحين قد اتخذوا بإفريقية السراري وأمهات الأولاد كما ذكرت المصادر، فقد ولد لعبد الله بن عمر طفلة بموضع القيروان، ولجبلة بن عمرو عقب بإفريقية، كما كان لقيس بن يسار أولاد بإفريقية منهم: أبو محرز القاضي وغيرهم، ووجود عقبهم بها دليل على استمرار أمهات الأولاد فيها بعد عودة الصحابة، ولا شك أنهن سينشرن بإفريقية ما تعلمنه من الصحابة

من السُنَّة القولية والعملية.

﴿ ٧ ﴾ إن معظم من دخل إفريقية من الصحابة له رواية عن النبي ﷺ بل إن منهم جماعة من الكثيرين، مثل عبد الله بن عمرو له ٢٦٣٠ حديثاً، وابن عباس له ١٦٦٠ حديثاً، وابن مسعود له ٨٤٨ حديثاً، وعبد الله بن عمر له ٧٠٠ حديثاً، وغيرهم، ولا يمكن لهؤلاء أن يتوقفوا عن نشر العلم الغزير، فإن ذلك أصبح سجية من سجاياهم وطبعاً من طباعهم لا تكتمل حياتهم بدونه.

﴿ ٨ ﴾ لقد ثبتت الرواية في إفريقية عن عشر من أصحاب رسول الله ﷺ وهم:

جبلة بن عمرو الأنصاري: وحديثه عندهم عن طريق سليمان بن يسار الذي غزا معه إفريقية سنة ٤٥ هـ، واستقر فيها عند ذلك مدة وأخذ عنه من أهلها خالد بن أبي عمران وغيره.

رويفع بن ثابت الأنصاري: حدث رويفع بإفريقية وسمع منه حنش ابن عبد الله الصنعاني، الذي كان معه في فتح جزيرة جربة، وقد استقر حنش بعد ذلك في القيروان وبقي فيها إلى أن توفي سنة ١٠٠ هـ.

زياد بن الحارث الصدائي: انفرد أهل إفريقية برواية حديث الصدائي الطويل فيخبر بإسلامه وما سمعه من النبي ﷺ وقد رواه عبد الرحمن بن زياد الإفريقي عن زياد بن نعيم عن الصدائي.

سفيان بن وهب الخولاني: سيأتي الحديث في ترجمته وعن طول مكثه في القيروان، وأثر ذلك في نشره للسُنَّة، وتلاميذه القيروانيين.

عبد الله بن سعد بن أبي السرح: ذكر ابن عبد الحكم بسنده إلى عبد الله ابن ربيعة، قال: صلى عبد الله بن سعد للناس بإفريقية المغرب، فلما صلى ركعتين سمعوا جلبة في المسجد، فأرعبهم ذلك وظنوا أنه العدو، فقطع الصلاة، فلما لم ير شيئاً خطب الناس، وقال: إن هذه الصلاة اختصرت، وأمر مؤذن الصلاة، ثم

أعادها [١].

عبد الله بن عمر بن الخطاب: حدث ابن عمر بإفريقية، وذلك في غزوته الثانية.

فضالة بن عبيد الأنصاري: حدث في إفريقية بحديثين، رواهما عنه حنش الصنعاني، الذي كان معه في فتح جربة سنة ٤٧ هـ ، وسمعهما منه أهل القيروان.

أبو زمعة البلوي: وبه سميت البلوية، إحدى مقابر القيروان، فيما بعد وروى عنه أهل إفريقية أنه حين حضرته الوفاة بها : أمرهم أن يسووا قبره بالأرض.

أبو اليقظان: دخل إفريقية مع ابن حديج سنة ٤٥ هـ ، ومنها غزا صقلية وحدث فيها بهذا الحديث: عن ابن عَشَّانة المعافري قال: سمعت أبا اليقظان صاحب رسول الله ﷺ بصقلية يقول: أبشروا، والله لأنتم أشد حباً لرسول الله ﷺ - ولم تروه - من عامة من رآه [٢].

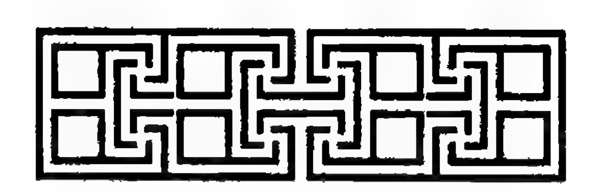

(١) فتوح مصر، (ص ٢٦٢) ، والحديث ضعيف في سنده ابن لهيعة، وهو ضعيف في حفظه.

(٢) مدرسة الحديث في القيروان (٢ / ٢٧٩) .

المبحث الثالث

كبار الصحابة أو الصحابة الرواة

[١] الحسن بن علي بن ابي طالب ابو محمد رضي الله عنه :

دخل إفريقية سنة ٢٧ هـ مع عبد الله بن سعد، وقد صحب النبي ﷺ وحفظ عنه ثلاثة عشرة حديثاً روى له البخاري في صحيحه، وأصحاب السُنن الأربعة وأحمد في مسنده .. اختلفوا في تاريخ مولده ووفاته اختلافاً كثيراً، والأكثر علي أنه ولد سنة ٣ هـ، وتوفى في حدود سنة ٥٠ هـ(١) .

والحسن بن علي أمه فاطمة الزهراء بنت نبينا ﷺ، وقد وردت أحاديث كثيرة في بيان مناقبه رضي الله عنه ومن هذه المناقب ما رواه البخاري بإسناده إلى أبي بكرة رضي الله عنه قال: سمعنا النبي ﷺ على المنبر والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرة، وإليه مرة ويقول : [**ابني هذا سيد ، ولعل الله يصلح به بين فئتين من المسلمين**](٢) ، وهذا الحديث فيه منقبة للحسن رضي الله عنه فقد أخبر النبي ﷺ بأنه سيد، ووصفه ﷺ للفئتين بالعظيمتين كما في رواية للبخاري (٣) ، لأن المسلمين كانوا يومئذٍ فريقين فرقة مع الحسن رضي الله عنه وفرقة مع معاوية رضي الله عنه وهذه معجزة عظيمة من النبي ﷺ إذ أخبر بهذا فوقع مثل ما أخبر، أصل القضية أن علي بن أبي طالب لما ضربه عبد الرحمن بن ملجم المرادي يوم الجمعة وليلة السبت وتوفي ليلة الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان، سنة أربعين من الهجرة وبويع لابنه الحسن بالخلافة في شهر رمضان من هذه السنة ، وأقام الحسن أياماً يفكر في أمره، ثم رأى اختلاف الناس فرقة من جهته وفرقة من جهة معاوية ولا يستقيم الأمر، ورأى

---

(١)مدرسة الحديث في القيروان (٢ / ٤٨٤).

(٢)صحيح البخاري (٢ / ٣٠٦).

(٣)صحيح البخاري (٢ / ٣٠٦).

النظر في إصلاح المسلمين وحقن دمائهم أولى من النظر في حقه فسلم الخلافة لمعاوية في الخامس والعشرين من ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين، وقيل: من ربيع الآخر، وقيل: في غرة جماد الأول وكانت خلافته ستة أشهر إلا أياماً وسمي هذا العام عام الجماعة، وهذ االذي أخبر به النبي ﷺ: [**لعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين**] (١).

فالحديث فيه علم من أعلام النبوة ومنقبة للحسن بن علي، فإنه ترك الملك لا لقلة ولا لذلة ولا لعلة، بل لرغبته فيما عند الله لما رآه من حقن دماء المسلمين فراعى أمر الدين ومصلحة الأمة (٢).

وفاته: كانت وفاته سنة خمسين من الهجرة بالمدينة المنورة (٣).

[٢] الحسين بن علي بن أبي طالب أبو عبد الله رضي الله عنه:

هو أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي السبط الشهيد بكربلاء ابن بنت رسول الله ﷺ فاطمة الزهراء رضي الله عنها وريحانته في الدنيا، ولد بعد أخيه الحسن، وكان مولده سنة أربع للهجرة مر بليبيا في غزوة العبادلة، له صحبة ورواية، عدد أحاديثه ثمانية، أخرج له أصحاب الكتب الستة، الإمام أحمد وغيرهم، وقد وردت أحاديث صحيحة في بيان مناقبه ومناقب أخيه الحسن، روى أبو عبد الله الحاكم بإسناده إلى ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: [**الحسن والحسين سيدا شباب الجنة ، وأبوهما خير منهما**] (٤) ومن إكرام الله له ولأخيه الحسن أنهما ماتا شهيدين تكميلاً لكرامتهما ورفعاً لدرجتهما أحدهما مات مسموماً، والآخر مقتولاً (٥).

---

(١) صحيح البخاري (٢/٣٠٦).
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/١٤٤-١٤٥)، معالم السنن (٤/٣١١).
(٣) فتح الباري (١٣/٦٦).
(٤) انظر: صفة الصفوة (١/٧٦٢)، فتح الباري (٧/٩٥).
(٥) البداية والنهاية (٨/٤٦).

مقتل الحسين : لما مات معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما واستخلف من بعده ابنه يزيد قام أهل الكوفة بمكاتبة الحسين بن علي رضي الله عنهما وذكروا له أنهم في طاعته، فخرج إليهم الحسين، فسبقه عبيد الله بن زياد إلى الكوفة، فخذل غالب الناس عنه، فتأخروا رغبة ورهبة، وقتل ابن عمه مسلم بن عقيل، وكان الحسين قد قدمه قبله ليبايع الناس، فجهز إليه عسكراً فقاتلوه رضي الله عنه إلى أن قتل وجماعة من أهل بيته [١] .

قلت: وأهل السُنَّة يعتقدون أن الحسين رضي الله عنه قتل مظلوماً، وأن قتله من أعظم المصائب التي وقعت في الإسلام، وهم يلتزمون بما شرعه الله عند المصائب من الاسترجاع، وإن تقادم عهد المصيبة، وما يفعله الشيعة في يوم عاشوراء ليس من الإسلام في شيء، بل هو من أمور الجاهلية التي لم يفعلها رسول الله ﷺ ولا أحد من السابقين الأولين ومن التابعين لهم بإحسان، ولا من عادة أهل البيت، ولا غيرهم، وقد شهد مقتل عليّ أهلُ بيته ، وشهد مقتل الحسين من شهده من أهل بيته، وقد مرت على ذلك سنون ، وهم متمسكون بسُنَّة رسول الله ﷺ في المصائب من صبر واسترجاع وحزن بدون جزع ولا تسخط على إرادة المولى.

مقتله: مات رضي الله عنه قتلاً في يوم عاشوراً من شهر المحرم إحدى وستون هجرية [٢] .

[٣] عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (حبر الأمة وترجمان القرآن) :

هو عبد الله بن عباس بن عبدالمطلب أبو العباس، غزا إفريقية مع ابن أبي سرح سنة (٢٧ هـ) ، ومر ببرقة ، وطرابلس ، وهو الذي تولى قسمة الغنائم في جيش العبادلة ، وهو من أكثر الصحابة فتوى ورواية ، له (١٦٦٠ حديثاً) ، أخرج له

---

(١) **انظر** : الكامل لابن الأثير (٤/ ٤٦-٩٣).

(٢) **انظر** : البداية والنهاية (٨/ ١٦٢).

الجماعة وأحمد وغيرهم، ومن تلاميذه الذين سكنوا القيروان، حنش بن عبد الله الصنعاني [١] .

وابن عباس هو ابن عم رسول لله ﷺ وحبر الأمة، ومفسر كتاب الله وترجمانه، وكان يقال له: الحبر والبحر، وروى عن رسول الله ﷺ شيئاً كثيراً، وعن جماعة من الصحابة، وأخذ عنه خلق من الصحابة، وأمم من التابعين ، وله مفردات ليست لغيره من الصحابة لا تساع علمه، وكثرة فقهه، وكمال عقله ، وسعة فضله ، ونبل أصله رضي الله عنه وأرضاه، وأمه أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية أخت ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين وهو والد والد العباسيين، هاجر مع أبيه قبل الفتح فاتفق لقياهما بالنبي ﷺ بالجحفة وهو ذاهب لفتح مكة، فشهد الفتح وحنين والطائف عام ثمان ، قيل: كان فتى سنة تسع وصحب النبي ﷺ ولزمه، وأخذ عنه وحفظ، وضبط الأقوال، والأفعال والأحوال، وأخذ عن الصحابة رضي الله عنهم علماً عظيماً مع الفهم الثاقب والبلاغة والفصاحة، والجمال والأصالة والبيان [٢] .

وقد وردت في بيان فضله أحاديث كثيرة صحيحة عن رسول الله ﷺ كان في بيت ميمونة فوضعت له وضوءاً من الليل قال: فقالت ميمونة زوجة النبي ﷺ وخالة ابن عباس رضي الله عنهما: يا رسول الله وضع لك هذا عبد الله بن عباس فقال: [**اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل**] [٣] .

وفاته : توفي بالطائف سنة ثمان وستين رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة مثواه.

[٤] عبد الله بن جعفر بن ابي طالب، ابو جعفر:

هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، بن عبد مناف بن عبد المطلب ابن هاشم أبو جعفر القرشي الهاشمي، وأمه أسماء بنت عميس الخثعمية، أخت ميمونة

---

(١) مدرسة الحديث في القيروان(٢ / ٤٩٤) .

(٢) انظر: عقيدة أهل السنة الجماعة في الصحابة الكرام لناصر بن علي(١ /٣٨٧) .

(٣) انظر: المسند في الفتح الرباني(٢٢ / ٢٩٢) .

بنت الحارث لأمها، ولد بأرض الحبشة لما هاجر أبواه إليها وهو أول من ولد بها من المسلمين وحفظ عن النبي ﷺ وروى عنه رضي الله عنه وأرضاه، مر بليبيا في جيش العبادلة، له خمسة وعشرون حديثاً، أخرج له الجماعة وأحمدوغيرهم، ووردت له بعض المناقب دلت على عظيم شأنه وعلو مكانه.

ومن مناقبه رضي الله عنه: أنه كان من الذين شبهوا بالنبي ﷺ خَلقاً وخُلقاً ودعا له ولإخوانه ودعا له خاصة أن يبارك في تجارته، فقد روى الإمام أحمد بإسناده إلى عبد الله ابن جعفر أن النبي ﷺ أمهل آل جعفر ثلاثاً أن يأتيهم ثم أتاهم فقال: [**لا تبكوا على أخي بعد اليوم ادعوا إليّ ابنى أخي**]، قال: فجيء بنا كأنا أفرخ، فقال: [**ادعو إلى الحلاق**] فحلق رءوسنا، ثم قال: [**أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب، أما عبد الله فشبيه خَلْقي وخُلُقي**]، ثم أخذ بيدي فأشالها فقال: [**اللهم اخلفْ جعفراً في أهله وبارك لعبد الله في صفقة يمينه**]، «قالها ثلاث مرات».

وكان ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا سلم على عبد الله بن جعفر قال: «السلام عليك يا ابن ذي الجناحين» [١].

وكان ممن اشتهروا بالجود والبذل والعطاء، ذكر الذهبي أن أعرابياً قصد مروان، فقال: ما عندنا شيء، فعليك بعبد الله بن جعفر، فأتى الأعرابي عبد الله، فأنشأ يقول:

أبو جعفر من أهل بيت النبوة ... صَلاتُهُم للمسلمين طُهُور
أبا جعفر ضَنَّ الأميرُ بماله ... وأنت على ما في يَدَيْكَ أميرُ
أبا جعفر يا ابن الشهيد الذي له ... جناحان في أعلى الجنان يطيرُ
أبا جعفر ما مثلك اليومَ أرتجي ... فلا تتركني بالفلاة أدور
أبا جعفر إن الحجيج ترحلوا ... وليس لي رحيل فاعلمن بعير

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/٤٥٩).

فقال عبد الله : يا أعرابي سار الثِّقل، فعليك بالراحلة بما عليها، وإياك أن تُخْدع عن السيف، فإني أخذته بألف دينار [١] .

وفاته : ذكر الذهبي أقوالاً في وفاته منها أنه : مات سنة ثمانين ، وقيل : سنة أربع وخمس وثمانين ، وقيل : تسعين [٢] .

[٥] عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي القرشي رضي الله عنهما :

هو عبد الله بن عمر بن نفيل القرشي العدوي أبو عبد الرحمن مر بأرض الأمل ليبيا في غزوة العبادلة وحدث ابن عمر بإفريقية، وذلك في غزوته الثانية سنة ٤٥ هـ ، روى عنه ميسرة الزرودي، وهو من أهل إفريقية، كما سأله يزيد بن قاسط وهو من أهلها أيضاً وتجمع عنده بعض أهلها ، فلما أرادوا أن يفارقوه طلبوا نصحاً وسألوه عن بعض الأحكام ، ومن هذه الأحكام ما ذكره المالكي : أنا أبا سعيدالمقبري استسلف بإفريقية ديناراً جريجيرياً من رجل على أن يعطيه منقوشاً بمصر، فسأل ابن عمر عن ذلك فقال : « لولا الشرط الذي فيه لم يكن به بأس » وعزاه المالكي إلى موطأ ابن وهب، ومدونة سحنون، وهكذا يكون أهل إفريقية قد تعلموا من هذا الصحابي مواعظ وأحكاماً تفيدهم في دينهم، كما أن في سؤال أهل إفريقية له، واجتماعهم إليه، وطلبهم أن يزودهم من علمه دليل على أنهم كانوا حريصين على الاستفادة من وجود الصحابة بينهم، وأنهم على وعي بدور الصحابة في الرواية وتعليم أمور الدين [٣] .

علمه : عرف ابن عمر رضي الله عنهما بالعلم والفقه، وطول ملازمته النبي ﷺ وحفظ القرآن وفهم آياته وأحكامه، وعاش طويلاً فاحتاج الناس إلى علمه وفقهه، ويتحلى إلى جانب علمه النافع الغزير بالتواضع والورع والدقة، فلا يفتي، ولا

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣ / ٤٥٩) .

(٢) نفس المصدر.

(٣) مدرسة الحديث في القيروان (٢ / ٤٧٦) .

يجيب عما لم يقع، واشتهر بالرواية عن رسول الله ﷺ .

قال النووي - رحمه الله - : « واعلم أن ابن عمر رضي الله عنهما أحد الستة الذين هم أكثر الصحابة رواية عن النبي ﷺ وهم : أبو هريرة، ثم ابن عمر، ثم أنس، وابن عباس، وجابر، وعائشة رضي الله عنهم » [١] قال رسول الله ﷺ في حقه : « **نعم الرجل عبد الله لو كان يُصلي من الليل** » [٢] فما ترك ابن عمر قيام الليل ولا حتى في الليلة التي استشهد فيها والده الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

عرضت عليه الخلافة مرات عديدة، منعه الخوف من الله أن يتقلدها، وقال الذهبي : هو أحد الأعلام في العلم والعمل، وهو من أهل بيعة الرضوان، وممن كان يصلح للخلافة، فعين لذلك يوم الحكمين مع وجود مثل الإمام علي، وفاتح العراق سعد ونحوهما رضي الله عنهما، ومناقبه جمة، أثنى عليه النبي ﷺ ووصفه بالصلاح [٣] .

وقال سعيد بن المسيب فيه يوم وفاته : وما في الأرض أحد أحب إليَّ أن ألقى الله عز وجل بمثل عمله منه ، وكانت سنة وفاته (٧٤ هـ) [٤] .

[٦] - عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شَمْخ بن فار بن مخزوم الهذلي، الإمام الحبر، فقيه الأمة، أبو عبد الرحمن الهذلي المكي المهاجري البدري، حليف بني زهرة كان من السابقين الأولين، ومن النجباء العالمين، شهد بدراً، وهاجر الهجرتين، وكان يوم اليرموك على النفل، ومناقبه غزيرة، روى علماً كثيراً [٥] .

دخل ليبيا في غزوة العبادلة مع جيش عبد الله بن أبي سرح، روى عن النبي

---

(١) تهذيب الأسماء (١ / ٢٨٠) للنووي .
(٢) الطبقات لابن سعد (٤ / ١٤٧).
(٣) انظر : أعلام النبلاء (٣ / ٢٠٣).
(٤) نفس المصدر .
(٥) سير أعلام النبلاء (١ / ٤٦١).

ﷺ (٨٤٨ حديثاً) أخرج أحاديثه أصحاب الكتب الستة والإمام أحمد في مسنده، والطبراني في معجمه، ولقد حفظ سوراً عديدة من القرآن من فيّ رسول الله ﷺ وبرع في الحفظ وإتقان التلاوة، وبقي ابن مسعود ملازماً للنبي ﷺ حتى أخذ عنه معظم سور القرآن مشافهة، وقد تحدث بذلك فقال: « والله لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة، والله لقد علم أصحاب النبي ﷺ أني من أعلمهم بكتاب الله وما أنا بخيرهم، قال شقيق: فجلست في الحِلق أسمع ما يقولون، فما سمعت أحداً يقول غير ذلك » (١) .

وطلب النبي ﷺ من ابن مسعود رضي الله عنه ذات يوم أن يقرأ عليه القرآن، فقال ابن مسعود: « أقرأ عليك وعليك أُنزل؟» قال: [**إني أشتهي أن أسمعه من غيري**] ، قال: فقرأت النساء حتى إذا بلغت: ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا** ﴾ [النساء: ٤١] .

قال لي: [**كف ، أو أمسك**] ، فرأيت عينيه تذرفان (٢) .

هذا الصحابي الجليل والعالم النحرير، والعابد الزاهد، والفقيه الفذ، والمجاهد الكبير كان في جيوش الفاتحين للشمال الإفريقي، ومر ببلادنا ليبيا، وكان معلماً مربياً للجنود الذين معه وكذلك لإخوانه الذين دخلوا في دين الله أفواجاً، كانت أقواله ومواعظه حكماً، تحيا بها القلوب، وكان يوصي الناس في أخذ العلم، وأن يأخذوه من أكابرهم فقال في ذلك: « لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم، فإذا أخذوه من أصاغرهم هلكوا » (٣) . وتوفي هذا البحر الزاخر من العلوم والمعارف سنة اثنتين وثلاثين هجرية في المدينة المنورة (٤) .

---

(١) **انظر**: البخاري مع الفتح رقم(٥٠٠٠) .
(٢) **انظر** : البخاري مع الفتح، رقم(٥٠٥٥) .
(٣) أعلام المسلمين عبد الله بن مسعود ، لعبد الستار الشيخ،(٣٣٩) .
(٤) أسد الغابة(٣ / ٣٩٠) .

[٧] عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما :

هو عبد الله بن عمرو بن العاص السهمي الإمام الحبر العابد، صاحب رسول الله ﷺ، وابن صاحبه،أبو محمد، وقيل: أبوعبد الرحمن، وقد أسلم قبل أبيه وكان اسمه العاص، فلما أسلم غيره النبي ﷺ بعبد الله، له مناقب وفضل ومقام راسخ في العلم والعمل حمل عن النبي ﷺ علماً جمًّا (١)، مر ببلادنا في غزوة العبادلة ودخل إفريقية وكان يكتب ما يسمعه من النبي ﷺ، بناء على الإذن النبوي الشريف له، وكان غزير العلم، له (٧٠٠ حديث) أخرج له أصحاب الكتب الستة (٢)، وأحمد وغيرهم، من تلاميذه الذين نشروا العلم بالقيروان: عكرمة مولى ابن عباس.

شدة عبادته:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «زوجني أبي امرأة من قريش، فلما دخلتْ عليّ، جعلت لا أنحاش لها مما بقي بي من القوة على العبادة، فجاء أبي إلى كنته، فقال: كيف وجدتِ بعلكِ؟، قالت: خير رجل من رجلٍ لم يُفتِّش لنا كنفاً، ولم يقربْ لنا فراشاً، قال: فأقبل عليّ، وعنفني بلسانه، ثم قال: أنكحتك امرأة ذات حسب فعضلتها وفعلت، ثم انطلق، فشكاني إلى النبي ﷺ فطلبني، فأتيته، فقال لي: [**أتصوم النهار وتقوم الليل؟**] قلت: نعم، قال: [**لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأمس النساء، فمن رغب عن سُنَّتي فليس مني**] (٣).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: جمعت القرآن، فقرأته كلَّه في ليلة، فقال رسول الله ﷺ: «**اقرأه في شهر**»، قلت: يا رسول الله، دعني أستمتع من قوتي وشبابي، قال: «**اقرأه في عشرين**»، قلت: دعني أستمتع، قال:

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣ / ٨٠)
(٢) مدرسة الحديث بالقيروان (٢ / ٤٩٥)
(٣) سير أعلام النبلاء (٣ / ٩٠)

«**اقرأه في سبع ليال**» ، قلت : دعني يا رسول الله ﷺ أستمتع، قال : فأبى [١] ، وصح أن رسول الله ﷺ نازله إلى ثلاث ليال ، ونهاه أن يقرأه في أقل من ثلاث [٢] .

وفاته: مات عبد الله ليالي الحرة سنة ثلاث وستين ، وقيل: توفي في مصر، وقيل: بالطائف، وقيل: بمكة، وقيل: بالشام [٣] .

[٨] المقداد بن عمرو رضي الله عنه :

هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة القضاعي الكندي البهراني ويقال له: المقداد بن الأسود، لأنه ربي في حجر الأسود بن عبد يغوث الزهري ، فتبناه وقيل: بل كان عبداً له أسود اللون، فتبناه ، ويقال: بل أصاب دماً في كندة، فهرب إلى مكة، وحالف الأسود، شهد بدراً والمشاهد، وثبت أنه كان يوم بدر راكباً علي فرسه وهو أحد السابقين للإسلام [٤] ، وكان أحد السبعة الذين كانوا أول من أظهروا الإسلام، مر ببلادنا الحبيبة في غزوة العبادلة في جيش عبد الله بن أبي السرح، روى (٤٢ حديثاً)، وأخرج له أصحاب الكتب الستة، الإمام أحمد في مسنده ومالك في موطئه [٥] .

دروس من سيرته يوم بدر:

عندما استشار رسول الله ﷺ أصحابه أثناء خروجه لملاقاة المشركين في بدر تكلم المقداد بعد أبي بكر وعمر فقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحق لوسرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال

---

(١) المرجع السابق(٣ / ٨٣) .
(٢) المرجع السابق(٣ / ٨٤) .
(٣) نفس المرجع السابق(٣ / ٩٤) .
(٤) سيرأعلام النبلاء(١ / ٣٨٦-٣٨٩) .
(٥) مدرسة الحديث في القيروان(٢ / ٥٠٠) .

له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له ، وفي رواية البخاري: « قال: ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك ، قال ابن مسعود ﷺ : فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره قوله » .

خوفه من الإمارة :

عن المقداد بن عمرو قال: استعملني رسول الله ﷺ على عمل ، فلما رجعت قال لي: كيف وجدت الإمارة؟ ، قلت: يا رسول الله ما ظننت إلا أن الناس كلهم خَوَلٌ لي، والله لا أولي على عمل ما دمتُ حيّاً.

حرصه على الجهاد :

ذكر الذهبي أن أبا راشد الحُبْراني وافي المقداد فارس رسول الله بحمص علي تابوت من توابيت الصيارفة، قد أفضل عليها من عِظَمِه، يريد الغزو، فقلت له: قد أعذر الله إليك، فقال: أَبتْ علينا سورة البحوث (التوبة): ﴿**انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً**﴾ [التوبة: ٤١] .

وفاته: توفي ﷺ سنة ثلاث وثلاثين وصلى عليه عثمان بن عفان وقبره بالبقيع (١) .

[٩] أبو ذر الغفاري ﷺ :

هو جندب بن جنادة بن عبيد بن حزام بن غفارة بن مليل بن بكر ابن عبد مناف ابن كنانة، أحد السابقين الأولين، من نجباء أصحاب محمد ﷺ ، قيل: كان خامس خمسة في الإسلام، ثم إنه رُدَّ إلى بلاد قومه فأقام بها بأمر النبي ﷺ له بذلك، فلما هاجر النبي ﷺ ، هاجر أبو ذر ﷺ ولازمه وجاهد معه، وكان يفتي في خلافة أبي بكر، وعمر وعثمان (٢) .

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٨٨) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٦-٧٨) .

مر بليبيا ودخل الشمال الإفريقي في غزوة العبادلة، روى عن النبي ﷺ (٢٨١ حديثاً)، أخرج له أصحاب الكتب الستة وغيرهم.

قال في حقه رسول الله ﷺ [**ما أقلت الغبراء، ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق لهجة من أبي ذر**] (١).

قال عنه الذهبي : « كان رأساً في الزهد، والصدق، والعلم والعمل، قوالاً بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، على حدة فيه » (٢).

وتجد في كتب الشيعة اتهاماً لعثمان رضي الله عنه بأنه ظلم أبا ذر ونفاه إلى الربذة وهذا اختلاق منهم، وإفك مبين، وإنما الذي حدث أن أباذر رضي الله عنه هو الذي اختار الربذة بنفسه، وأن عثمان دعاه من الشام ليكون معه في المدينة بعد أن اختلف أبو ذر مع معاوية رضي الله عنهما في الشام، وقال عثمان لأبي ذر: « أحببت أن أجعلك بين أصحابك وخفت عليك جهل الناس »، قالت أم ذر: « والله ما سيّر عثمان أبا ذر – تعني الربذة – ولكن رسول الله ﷺ قال [**إذا بلغ البناء سلعاً، فاخرج منها**] وكان أبو ذر لا يستجيز ادخار النقدين الذهب والفضة، وكان يحدث ويقول: لا يبيتن عند أحدكم دينار ولا درهم، ولا تبر ولا فضة، إلا شيء ينفقه في سبيل الله، أو يعده لغريم، فقال: هذا دال على فضل إنفاقه وكراهية جمعه، لا يدل على تحريم (٣).

وفاته : توفي رضي الله عنه في الربذة في (عام ٣٢ هـ) ، وحضر دفنه عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه الذي مات بعده بقليل.

[١٠] عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما :

حضر بدراً مع المشركين، ثم أسلم وهاجر قبيل الفتح، وأما جده أبو قحافة

---

(١) مدرسة الحديث في القيروان (٢ / ٤٨٥–٤٨٦) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢ / ٤٦–٧٨) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٢ / ٦٧) .

فتأخر إسلامه إلى يوم الفتح، وكان عبد الرحمن أسن أولاد الصديق، وكان من الرماة المذكورين والشجعان قتل يوم اليمامة سبعة من كبارهم دخل إفريقية ماراً بليبيا في جيش العبادلة ، له أحاديث ثمانية أخرج له أصحاب الكتب الستة وأحمد وغيرهم وهو الذي أمره النبي ﷺ في حجة الوداع أن يعتمر بأخته عائشة من التنعيم، توفي سنة (٥٣ هـ)(١) .

[١١] أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصاري رضي الله عنه :

هو كعب بن عمرو الأنصاري السلمي المدني البدري العقبي الذي أسر العباس رضي الله عنه يوم بدر، وشهد العقبة وله عشرون سنة، وهو الذي انتزع راية المشركين يوم بدر، ومناقبه كثيرة، وهذا الصحابي الذي شهد بدراً وبايع في العقبة مر ببلادنا ودخل الشمال الإفريقي في جيوش الفاتحين، له أحد عشر حديثاً، أخرج له مسلم، والأربعة والبخاري في الأدب المفرد، والإمام أحمد وغيرهم، توفي سنة (٥٥ هـ) بالمدينة (٢) .

[١٢] فضالة بن عبيد رضي الله عنه :

هو فضالة بن عبيد بن نافذ بن قيس بن صهيب بن أصرم بن جحْجَبَي الفقيه، أبو محمد الأنصاري الأوسي، صاحب رسول الله ﷺ من أهل بيعة الرضوان، ولي الغزو لمعاوية، ثم ولي قضاء دمشق ، وكان ينوب عن معاوية في الإمارة إذا غاب، حدث في إفريقية بحديثين رواهما عنه حنش الصنعاني، الذي كان معه في فتح جربة (سنة ٤٧هـ) وسمعهما من أهل القيروان، أخرج له مسلم، والأربعة، وأحمد وبقي بن مخلد، وابن منده (٣) .

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢ / ٤٧١) .

(٢) مدرسة الحديث بالقيروان (٢ / ٥٣٧).

(٣) مدرسة الحديث بالقيروان (١ / ٤٧٨، ٤٩٦) .

قاضي دمشق:

كان أبو الدرداء رضي الله عنه يقضي على دمشق، فلما حضرته الوفاة أتاه معاوية عائداً، فقال: من ترى للأمر بعدك؟ قال: فضالة بن عبيد، فلما توفي قال معاوية لفضالة: إني قد وليتك القضاء فاستعفي منه، فقال: والله ما حبيتك بها، ولكني استترت بك من النار، فاستتر منها ما استطعت.

تأمله في آية ووصيته لابن محيريز:

ذكرالذهبي رحمه الله أن فضالة قال: لأن أعلم أن الله يتقبل مني مثقال حبة أحب إليّ من الدنيا، وما فيها، لأنه تعالى يقول: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾.

[المائدة:٢٧].

وعن ابن محيريز قال: قلت لفضالة أوصني: فقال: خصال ينفعك الله بهن، إن استطعت أن تعرف ولا تُعرف، فافعل، وإن استطعت أن تسمع ولا تتكلم فافعل، وإن استطعت أن تجلس ولا يُجلس إليك، فافعل (١).

وفاته: قال معاوية رضي الله عنه حين توفي فضالة، وهو يحمل نعشه، لابنه عبد الله بن معاوية: تعال اعقبني، فإنك لن تحمل مثله أبداً، وكانت سنة وفاته (٥٣ هـ)، وقيل: (٥٩ هـ)(٢).

[١٣] سلمة بن الأكوع رضي الله عنه:

هو سلمة بن عمرو بن الأكوع، واسم الأكوع: سنان بن عبد الله، أبوعامر وأبو مسلم، ويقال: أبو إياس الأسلمي الحجازي المدني، قيل: شهد مؤته، وهو من أهل بيعة الرضوان، قال مولاه يزيد: سمعته يقول: بايعت رسول الله ﷺ على الموت، وغزوت معه سبع غزوات (٣).

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/١١٦).

(٢) نفس المصدر (٣/١١٧).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/٣٢٦).

شجاعته: أغار عبد الرحمن بن عُيينة على الإبل التي كانت في ضواحي المدينة فقتل راعيها، وطرد الإبل وهو وأناس معه في خيل ، وكان مع سلمة رباح غلام النبي ﷺ فأقعده على فرس ليُعلم رسول الله ﷺ ، وقام على تل ونادى: يا صباحاه واتبع القوم فجعل يرميهم وحده ويقول:

أنا ابن الأكوع واليوم يوم الرُّضَع

حتى لحقت به خيل رسول الله ﷺ وعلي رأسهم أبو قتادة وتغلبوا على العدو، وقال رسول الله ﷺ في ذلك : [**خير فرساننا أبو قتادة ، وخير رجَّالتنا سلمة**] [١] .

ولقد دخل هذا الصحابي الجليل إفريقية مارًّا ببرقة وطرابلس في جيش العبادلة سنة (٢٧ هـ) ، روى(٧٧حديثاً)،أخرج له الجماعة وأحمد والطبري وغيرهم[٢] .

وكان رسول الله ﷺ يردفه خلفه في الغزو أحياناً ومسح رسول الله ﷺ علي وجهه مراراً واستغفر له مراراً، حدث إياس بن سلمة عن أبيه قال: « أردفني رسول الله ﷺ مراراً، ومسح على وجهي مراراً، واستغفر لي مراراً عدد ما في يدي من الأصابع » [٣] .

وفاته : استأذن رسول الله ﷺ في البدو، وخرج في آخر حياته إلى الربذة، وقبل وفاته بليال نزل إلى المدينة ، وتوفي سنة أربع وسبعين هجرية ، وكان من أبناء التسعين ، وحديثه من عوالي صحيح البخاري [٤] .

[١٤] المسور بن مخرمة ﷺ :

هو المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن قصي بن كلاب، الإمام الجليل، أبوعبد الرحمن، وأبو عثمان القرشي الزهري، وأمه عاتكة

---

(١) نفس المصدر (٣ / ٣٢٧-٣٣٠) .

(٢) مدرسة الحديث في القيروان (١ / ٤٩٢) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٣ / ٣٣٠) .

(٤) نفس المصدر السابق (٣ / ٣٣١) .

أخت عبد الرحمن بن عوف زهرية أيضاً، له صحبة ورواية، عداده في صغار الصحابة كالنعمان بن بشير، وابن الزبير وكان ممن يلزم عمر ويحفظ عنه، دخل إفريقية ماراً ببرقة وطرابلس مع ابن أبي السرح ، وهو الذي حرض عثمان على غزو إفريقية ، بلغت أحاديثه اثنين وعشرين حديثاً أخرج له أصحاب الكتب الستة وأحمد وغيرهم.

كان كثير الصيام، وكان إذا قدم مكة طاف لكل يوم غاب عنها سبعاً، وصلي ركعتين، وشاهد القادسية مع سعد بن أبي وقاص، وكان من خواص ابن الزبير، وكان ابن الزبير لا يقطع أمراً دون المسور في مكة.

وفاته : قيل قتل في حصار الحجاج لابن الزبير في مكة (سنة ٧٣هـ) ، ورجح الذهبي أن وفاته (سنة ٦٥ هـ) ودفن في مكة [(١)] .

[١٥] سفيان بن وهب الخولاني:

الصحابي المعمر، أبو أيمن الخولاني المصري، اختلفوا في صحبته والصحيح أن له صحبة ورواية، كما ذكر ابن حجر في تعجيل المنفعة وغيره، غزا المغرب زمن عثمان، ودخلها غازياً مرة أخرى (سنة ٦٢ هـ) ، وأميراً (سنة ٧٨ هـ) ، حدث بالقيروان ومن تلاميذه في الشمال الإفريقي مسلم بن يسار، وبكر بن سوادة ، له ثلاثة أحاديث انفرد بها أهل مصر وإفريقية، أخرج له الطبراني في الكبير والحاكم وأبو يعلى، وأحمد وابن منده، وأبو نعيم.

وفاته : قيل (٨٢ هـ) بإفريقية، وقيل: (٩١هـ)

١٦ - بلال بن الحارث المزني، أبو عبد الرحمن:

دخل إفريقية سنة ٢٧هـ ، في غزوة العبادلة، وكان يحمل لواء قومه مزينة، وعدتهم أربعمائة وقيل: ثمانمائة، له صحبه ورواية، أحاديثه ثمانية، روى له الأربعة

---

(١) أسد الغابة (٤/٣٩٩) .

(أبو داود، والنسائي، والترمذي، وابن ماجة) وأحمد،ومالك، توفي سنة ٦٠هـ

[١٧] جبلة بن عمرو الأنصاري:

دخل جبلة إفريقية مع معاوية بن حديج، في آخر غزواته سنة ٤٥هـ وبقي بها مدة، لأن هذه الغزوة قد دامت قرابة أربع سنوات حتى إنه أخذ عنه من أهلها خالد ابن أبي عمران وغيره، وكان له أثر في نشر السُنَّة بالشمال الإفريقي.

[١٨] جرهد بن خويلد الأسلمي:

دخل إفريقية مع ابن أبي سرح، له ثمانية أحاديث، أخرج له البخاري في صحيحه، وأبو داود، والترمذي،والإمام أحمد،وبقي بن مخلد، توفي سنة٦١ هـ

[١٩] الحارث بن حبيب بن خزيمة القرشي العامري:

نزل مصر، منها غزا إفريقية،واستشهد بها في بعض غزوات معاوية ابن حديج.

دخل الشمال الإفريقي في غزوة العبادلة، وقد أمره عثمان ﷺ على الجيش حتي يصلوا إلى عبد الله بن سعد في مصر، له حديث واحد في مسند بقي بن مخلد، وأخرج له الإمام أحمد في مسنده.

[٢٠] حمزة بن عمرو الأسلمي، أبو صالح:

شهد فتح إفريقية، له بها آثار محمودة، له عن النبي ﷺ تسع أحاديث، أخرجة له البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي وغيره، من تلاميذه سليمان بن يسار، وقد دخل القيروان بعد ذلك واستقر بها، توفي هذا الصحابي الجليل سنة ٦١ هـ

[٢١] خالد بن ثابت الفهمي:

دخل إفريقية مرتين: الأولى مع ابن حديج (سنة ٤٥هـ) والثانية أميراً عليها من قبل مسلمة بن مخلد سنة ٤٥ هـ، وكان خالد ولي الإمارة على عهد عمر وغيره، ولم أعثر على من نسب له رواية عن النبي ﷺ.

[٢٢] ربيعة بن عباد الدؤلي :

صحب النبي ﷺ وروى عنه، شهد غزوة إفريقية مع عبد الله بن سعد، وله بها آثار، له خمس أحاديث، أخرج له الطبراني في الكبير، وأحمد في المسند، توفي سنة ٩٥ هـ.

[٢٣] أبو رمثة البلوي :

لم يذكر تاريخ دخول أبي رمثة إلى إفريقية، وأجمعوا على صحبته ووفاته بها، كان له عن النبي ﷺ ثمانية أحاديث، أخرج له أبو داود، والترمذي، والنسائي، وأحمد.

[٢٤] زياد بن الحارث الصدائي :

له صحبة ورواية، وبعد في المصريين وأهل المغرب، دخل إفريقية وشهد فتوحاتها، ولم يذكر التاريخ زمن دخوله، وله عن النبي ﷺ أربعة أحاديث.

[٢٤] أبو زمعة البلوي :

اشتهر بكنتيه، وقد اختلفوا في اسمه اختلافاً كثيراً، والأكثر علي أنه عبيدة ابن أرقم دخل إفريقية مع ابن حديج سنة ٤٥ هـ، وتوفي بها، وسميت مقبرة البلوية في القيروان باسمه، وقد ذكروا أن قلنسوته دفنت معه وفيها من شعر رسول الله ﷺ، له حديثان، أخرج له البغوي في معجمه، وأبو نعيم في معرفة الصحابة، وابن عبد الحَكَم في فتوحه.

[٢٦] سلكان بن مالك :

ذكر فيمن غزا المغرب من الصحابة ، ولم يحددوا تاريخ دخوله، ولم يسندوا إليه رواية.

[٢٧] أبو خبيس البلوي :

غزا إفريقية وعداده في المصريين من الصحابة، له حديث واحد.

[٢٨] عبد الله بن أنيس الجهني :

أبو يحيى المدني حليف الأنصار، شهد فتح إفريقية مع ابن أبي سرح، له ٢٤ حديثاً، أخرج له مسلم، والأربعة، ومالك، أحمد، والبخاري في الأدب المفرد، وتوفي سنة (٥٤ هـ) .

[٢٩] قيس بن يسار بن مسلم الكناني :

نقل المالكي في « رياض النفوس » عن بن يونس أن قيساً هذا صحابي، وذكر أنه دخل إفريقية مع عقبة بن نافع (سنة ٥٠ أو ٦٢ هـ) وله عقب بإفريقية : منهم : أبو محيريز القاضي .

[٣٠] أبو لبابة الأنصاري :

اختلفوا في اسمه كثيراً، فقيل : بشر، وقيل : رفاعة بن المنذر، وقيل : غير ذلك له خمسة عشر حديثاً، أخرج له البخاري، ومسلم وأبو داود، وابن ماجة، اختلفوا في تاريخ وفاته، والقبر الذي فوق مقبرة قابس بتونس قبره، وقيل : توفي سنة ٤٠ هـ ، أما الإمام ابن حبان فقال : إنه توفي في المدينة .

[٣١] مسعود بن الأسود البلوي :

غزا إفريقية، عداده في أهل مصر، وهو الذي استأذن عمر في غزو إفريقية، وحديثه عند أهل القيروان من طريق علي بن رباح الذي سكن القيروان .

[٣٢] المسيب بن حزن القرشي المخزومي أبو سعيد :

شهد فتح إفريقية مع ابن أبي سرح، له سبعة أحاديث، لم يرو عنه غير ابنه سعيد بن المسيب، وهو من سادة التابعين، أخرج له البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وأحمد، وبقي بن مخلد .

[٣٣] المطلب بن أبي وداعة السهمي :

غزا إفريقية مع عبد الله بن أبي سرح في جمع من بني سهم كما ذكر ابن

يونس وغيره ، له تسعة أحاديث ، أخرج له مسلم، والأربعة ، ومالك ، وأحمد ، وغيرهم.

[٢٤] المنذر الأسلمي الإفريقي:

نسب إلى إفريقية لكونه سكنها وتوفي بها، واختص أهلها بحديث، من طريق أبي عبد الرحمن الحبلي، دفن في طرابلس وقبره مشهور [١] .

ونكتفي بذكر هذا الكم من الأخيار الذين دخلوا وشاركوا في فتح الشمال الإفريقي، بل منهم من قد ساهم مساهمة مباشرة في بناء مدينة القيروان، وأقاموا صرح الإسلام الشامخ في ربوع البلاد، وفي قلوب العباد، ونشروا علوم القرآن وعلوم سُنَّة النبي ﷺ القولية والفعلية، كما تلقوها عن الرسول ﷺ .

وأخيراً : ننقل لك بعض الأبيات من نونية القحطاني ،أي محمد عبد الله بن محمد القحطاني الأندلسي في مدحه لصحابة رسول الله ﷺ :

قال: إن خير الأنبياء محمد	وأجل من يمشي على الكثبان
وأجل صحب الرسل صحب محمد	وكذاك أفضل صحبه العمران
رجلان قد خلقا لنصر محمد	بدمي ونفسي ذانك الرجلان
فهما اللذان تظاهرا لنبينا	في نصره وهما له صهران
بنتاهما أسنى نساء نبينا	وهما له بالوحي صاحبتان
أبواهما أسنى صحابة أحمد	يا حبذا الأبوان والبنتان
وهما وزيراه اللذان هما هما	لفضائل الأعمال مستبقان
وهما لأحمد ناظراه وسمعه	وبقربه في القبر مضطجعان
كانا على الإسلام أشفق أهله	وهما لدين محمد جبلان

---

(١) راجع مدرسة الحديث في القيروان (٢/٤٩٥-٥٠١)وتجدر الإشارة بان الشيخ الحسين بن محمد بن شواط في كتابه القيم مدرسة الحديث في القيروان، قد ذكر خمسة وأربعين صحابياً باسمائهم إلا أني اكتفيت بذكر هؤلاء، ومن أراد المزيد فليراجع هذا المصدر القيم.

أصفاهما أقواهما أخشاهما | أتقاهما في السر والإعلان
أسناهما أزكاهما أعلاهما | أوفاهما في الوزن والرجحان
صديق أحمد صاحب الغار الذي | هو في المغارة والنبي اثنان
أعني: أبا بكر الذي لم يختلف | من شرعنا في فضله رجلان
هو شيخ أصحاب النبي وخيرهم | وأمامهم حقاً بلا بطلان
وأبو المطهرة التي تنزيهها | قد جاءنا في النور والفرقان
أكرم بعائشة الرضى من حرة | بكر مطهرة الإزار حصان
هي زوج خير الأنبياء وبكره | وعروسه من جملة النسوان
هي عرسه هي أنسه هي إلفه | هي حبه صدقاً بلا أدهان
أو ليس والدها يصافي بعلها | وهما بروح الله مؤتلفان
لما قضى صديق أحمد نحبه | دفع الخلافة للإمام الثاني
أعني به الفاروق فرق عنوة | بالسيف بين الكفر والإيمان
هو أظهر الإسلام بعد خفائه | ومحا الظلام وباح بالكتمان
ومضي وخلى الأمر شورى بينهم | في الأمر فاجتمعوا على عثمان
من كان يسهر ليله في ركعة | وتراً فيكمل ختمة القرآن
ولي الخلافة صهر أحمد بعده | أعني علي العالم الرباني
زوج البتول أخا الرسول وركنه | ليت الحروب منازل الأقران
سبحان من جعل الخلافة رتبة | وبنى الأمامة أيما بنيان
واستخلف الأصحاب كي لا يدعي | من بعد أحمد في النبوة ثاني
أكرم بفاطمة البتول وبعلها | وبمن هما لمحمد سبطان
غصنان أصلهما بروضة أحمد | لله در الأصل والغصنان

أكرم بطلحة والزبير وسعدهم ... وسعيدهم وعابد الرحمن
وأبي عبيدة ذي الديانة والتقى ... وامدح جماعة بيعة الرضوان
قل خير قول في صحابة أحمد ... وامدح جميع الآل والنسوان
دع ما جرى بين الصحابة في الوغي ... بسيوفهم يوم التقى الجمعان
فقتيلهم منهم وقاتلهم لهم ... وكلاهما في الحشر مرحوما
والله يوم الحشر ينزع كل ما ... تحوي صدورهم من الأضغان
والويل للركب الذين سعوا إلى ... عثمان فاجتمعوا على العصيان
ويل لمن قتل الحسين، فإنه ... قد باء من مولاه بالخسران
لا تركنن إلى الروافض إنهم ... شتموا الصحابة دون ما برهان
لعنوا كما بغضوا صحابة أحمد ... ووداده فرض علي الإنسان
حب الصحابة والقرابة سنة ... ألقى بها ربي إذا أحياني [1]

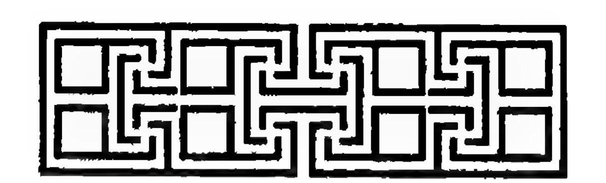

(١) نونية القحطاني (٢١-٢٥).

الخلاصة :

[١] **إن الباحث المسلم للتاريخ عليه أن يهتم باللب والغاية في دراسة التاريخ** : مع الاعتناء بالأخبار وتحقيقها والتركيز على العلل والأسباب مع تفسير هذه الحوادث والاهتداء إلى الروابط التي تجمع بينها وتجعل منه وحدة متماسكة الحلقات متفاعلة الجزئيات.

[٢] **إن علم التاريخ لا ينفصل عن علوم الشريعة** : بل هو فرع من فروعها يغرف منه المربون في مجال التربية والسلوك، والحديثيون في ميدان علم الرجال،والجرح والتعديل، وقد استخدمه علماء الحديث في دحض حجج الكذابين والوضاعين.

[٣] **إن فوائد علم التاريخ كثيرة جداً منها** : التربية بالأحداث وتنمية السلوك النافع والتأثر بالقدوات، واستيعاب الربانية في حياة الشعوب والأمم والدول والمجتمعات.

[٤] **من أهم السُنن التي تظهر لدارس التاريخ** : سوء عاقبة المكذبين، وسُنة إناطة التغيير البشري بالبشر، وسنة الأيام سجال بين الناس، وسُنة زوال الأمم بالعلو والطغيان، وسُنة هلاك الأمم بالظلم، والإجحاف ، وسنة لكل أمة أجل ، وسُنة نصر الله للمؤمنين، وسُنة ابتلاء المؤمنين، وسُنَّة التدافع بين الحق والباطل، وغير ذلك من السنن.

[٥] **ومن فوائد دراسة التاريخ، التعرف علي معالم تاريخ الإنسانية مثل** : معرفة تاريخ الأنبياء، معرفة سيرة النبي ﷺ ، والتعرف على تاريخ الخلفاء الراشدين، والتعرف على سير العلماء والمجاهدين والدعاة، ومعرفة أثر الإسلام في حياة البشرية.

[٦] **إن دراسة التاريخ تعين الباحث المسلم على التأكيد على جملة من الحقائق الهامة في حياة البشرية مثل** : أول شيء عرفته البشرية هو

توحيد الله، وحقيقة أن الله خالق كل شيء، وحقيقة أن الإنسان خُلِقَ سوياً، وحقيقة أن الإنسان يحتاج إلى الذكرى والصبر على المشاق.

[٧] **إن دراسة التاريخ تكسب القادة العاملين تجارب ضخمة** : في سياسة الدول والأمم والشعوب، وتفتح لهم أبواباً في السياسة الشرعية وعلم المقاصد والمصالح والمفاسد.

[٨] **إن دراسة التاريخ تُكسب الإنسان حصانة فكرية** : بمنهج أهل السُنَّة والجماعة تحفظه من البدع والأهواء وتعين المسلم الحريص علي فهم ومعرفة القرون الفاضلة لتكون نبراساً له في حياته المعاصرة.

[٩] **إن دارسة التاريخ تكسب الباحث مقدرة خاصة لتفسير الحوادث الإنسانية** : وتستمد هذه المنهجية من عقيدة الأمة وكتاب ربها وسُنة نبيها ﷺ ولها طرق خاصة بها في إثبات الحوادث التاريخية تعتمد علي الدقة والدليل والبرهان.

[١٠] **إن من سمات المنهج العلمي في كتابة التاريخ الإسلامي** : استعمال الدليل والوثيقة بعد التأكد منهما ، وحسن الاستدلال والتنظيم والترتيب، والإيمان الكامل، بكل ما دل عليه الكتاب والسُنة، ومن ذلك الإيمان بالغيب، وبالجزاء والحساب، والقضاء والقدر، ورد كل ما خالفهما وغير ذلك من السمات.

[١١] **إن كتابة التاريخ الإسلامي له غاية ووسائل تحققه** : ومن أسمى غاياته وأهدافه الارتباط بالعقيدة الإسلامية في تصوراتها وأحكامها ، كما أن المنهج التاريخي يعتبر وسيلة من وسائل تثبيت العقيدة وتحقيقها في الواقع العملي، كما ينبه للأخطاء والانحرافات التي وقع بها المسلمون ويحاول أن يربيهم من خلال الأحداث والتنبيه علي ترك الانحراف

والالتزام بالاستقامة، كما يهتم المنهج الإسلامي في كتابه التاريخ ببيان فساد التصورات والعقائد الجاهلية، وتعريتها ببيان تناقضها ليحذر المسلم.

[١٢] **إن من وسائل تحقيق المنهجية في كتابة التاريخ** : التصور الصحيح المستمد من الشريعة ومن مصادرها المتعددة ثم الرجال الأمناء الصادقون الذين يحملون التصور ، ويعملون علي تحقيقه في واقع حياتهم.

[١٣] **إن في منهج كتابة التاريخ الإسلامي قواعد في التصور،والاعتقاد من أهمها** : الإيمان بوحدة الأمة الإسلامية ، ووحدة التاريخ الإسلامي، ووحدة الحضارة الإسلامية، ولا بد من الفهم الصحيح لعقيدة الإيمان بالغيب ومعرفة حق الصحابة وتميز أهل القرون الأولى، وكذلك لا بد من التأكيد في التفريق بين أخطاء البشر وأحكام الإسلام.

[١٤] **إن أهم قواعد المصادر في كتابة التاريخ** : اعتماد المصادر الشرعية وتقديمها علي كل مصدر، إذ أن التاريخ الإسلامي جزء لايتجزأ من الدراسات الإسلامية، وهو تاريخ أمة ذات عقيدة محركة ، حضارة متميزة، وأخلاق إنسانية انبثقت عن تلك العقيدة الصحيحة.

[١٥] **إن من أشهر علماء الأمة في كتابة التاريخ** : الإمام أبا جعفر بن حرير الطبري، وخليفة بن خياط ، وابن كثير، وابن خلدون وقد شقوا هذا الطريق وتركوا لنا تراثاً متميزاً في هذا المجال.

[١٦] **لقد سكن الشمال الإفريقي أجناس عدة من البشر أهمها** : البرابرة والرومان والأفارقة والإفرنج.

[١٧] **إن من أهم الديانات التي انتشرت في الشمال الإفريقي قبل الفتح الإسلامي** : النصرانية، والمجوسية، والوثنية.

[١٨] **إن لفظة الشمال الإفريقي تطلق على الإقليم** : الذي يبدأ من نهاية الحدود المصرية غربًا إلى المغرب الأقصى غرباً، وتدخل فيه كل من ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا.

[١٩] **إن الحضارات القديمة عاشت ونمت وازدهرت في الشمال الإفريقي ومن أهمها** : حضارة السكان الأصلية من البرابرة، ومن الحضارات الوافدة : الفنيقية والقرطاجنية والرومانية والوندالية والإغريقية والنوميدية، إلا أنها اندثرت وتركت لنا معالم وآثاراً تعين علي مبدأ الاعتبار والاتعاظ بالأقوام السابقة.

[٢٠] **لقد استفحل أمر النصرانية في الشمال الإفريقي** : إلا أن التفرقة العقيدية والمذاهب الفكرية، والصراعات المذهبية الحادة مزقته، وخصوصاً الصراع العنيف الذي نشب بين الأرثوذكسية البيزنطية والكاثوليكية الرومانية وكان هذا الصراع من أهم عوامل ضعف الدولة القائمة مما جعل أهالي الشمال الإفريقي يقومون بضربات مسددة ضد النصرانية المنحرفة ويتمردون على دولتها المتعسفة ويتطلعون إلى الدين الصحيح لترتوي من ينابيعه المنعشة.

[٢١] إن موقع ليبيا الاستراتيجي جعلها حلقة وصل بين جنوب البحر المتوسط وداخل إفريقية، فأهل ليبيا احترفوا التجارة منذ أزمان موغلة في القدم.

[٢٢] إن تلك الأمم والدول والشعوب التي سكنت الشمال الإفريقي مضت فيها سُنَّة الله التي لا تتبدل ولا تتغير، ويحتاج الدارس للتاريخ أن يقف وقفة متأمل معتبر، ومتعظ خائف، ومفكر دقيق.

[٢٣] **إن دعاوي المستشرقين في حركة الفتح الإسلامي بعيدة عن الدليل وخاوية من البرهان** : و تتهاوى أمام الحقائق الساطعة والأدلة الناصعة

والنقد الموضوعي، والبحث التحليلي المبني علي المنهجية العلمية والمعرفة التاريخية الصحيحة.

[٢٤] **يشهد التاريخ أن أهالي برقة قبلوا دعوة الإسلام بدون مقاومة** : وإنما برضى وتسليم لدين الفطرة، وكانت برقة القاعدة الأصلية في غزوات الفتح والدرع الحصين عند الملمات، ونقطة الانطلاق والتوغل في الشمال الإفريقي ومجاهيل الصحراء الكبرى.

[٢٥] إن الصحابي الجليل والقائد الأعلى للفتوحات في الشمال الإفريقي عمرو بن العاص رضي الله عنه تعرض لحملات مشينة لتلطيخ سيرته العطرة، ولقد وجهت قذائف الحق وصواريخ الإيمان إلى تلك الحملات وبينت سلامته مما نسب إليه وأنها بهتان وظلم وزور.

[٢٦] إن عدالة الصحابيين الجليلين أبي موسى الأشعري ، وعمرو بن العاص تقوم على أُسس علمية وحقائق تاريخية وأدلة دامغة، وبراهين ساطعة.

[٢٧] إن عمرو بن العاص رضي الله عنه توقف في فتوحاته عند طرابلس بأمر من الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

[٢٨] إن عثمان رضي الله عنه الخليفة الثالث أمر عبد الله بن أبي سرح رضي الله عنه بمواصلة الفتح بعد أن جمع الصحابة واستشارهم في المدينة، وأشاروا عليه بفتحها إلا أن سعيد ابن زيد خالف رأي الصحابة متمسكاً برأي عمر رضي الله عنه في ألا يغزو إفريقية أحد من المسلمين.

[٢٩] **لقد تولى قيادات حملات الفتح الإسلامي للشمال الإفريقي قادة عظام** : تميزوا بالقدرة القيادية، والكفاءة الحربية، وتحلوا بالروح العالية في نشر الإسلام ودعوته، والجهاد في سبيله مدة زمنية زادت عن سبعين سنة.

[٣٠]**كان قادة الفتح على التوالي هم**: عمرو بن العاص، وعبد الله بن سعد، ومعاوية بن حديج، وعقبة بن نافع، وأبو المهاجر دينار، وزهير بن قيس البلوي، وحسان بن النعمان الغساني، وموسى بن نصير اللخمي، وكانت سيرة كل قائد من هؤلاء مليئة بالدروس والعبر والحكم، والتخطيط البعيد.

[٣١]**من أشهر معارك الشمال الإفريقي** : حتى زمن حسان معركة سبيطلة بإفريقية وقعت بين عبد الله بن سعد، والقائد الرومي « جرجير » وانهزم فيها الجيش البيزنطي، وقتل قائدهم جرجير.

[٣٢]**ومعركة قمونية** :بالقرب من القيروان حالياً نشبت بين القائد معاوية بن حديج وجيش الروم بقيادة نقفور، انهزم فيهاجيش الروم وقتل قائدهم.

[٣٣]**معركة تهوذة** :وقعت بين عقبة بن نافع، وكسيلة، وانهزم فيهاجيش المسلمين، واستشهد القائد الفاتح العظيم عقبة بن نافع، بتهوذة.

[٣٤]**معركة ممس** : « تقع بين القيروان وبين ولاية تبسة » نشبت بين القائد الصحابي زهير بن قيس البلوي، وكسيلة انهزم فيه جيش قبيلة (أوربة).

[٣٥]**معركة وادي مسكيانة** : وقعت بشرق الجزائر بين القائد حسان بن النعمان والكاهنة انتصرت الكاهنة على حسان.

[٣٦]**معركة بئر الكاهنة** : وقعت بين حسان بن النعمان وجيش الكاهنة انتصر فيها حسان، وقتلت الكاهنة عام ٨٢ هـ.

[٣٧]**ومن معارك الأندلس الخالدة** : في تلك المرحلة معركة جزيرة طريف بين المسلمين بقيادة طريف بن مالك وبين القوط الإسبان عام ٩١هـ.

[٣٨]**معركة جبل طارق** :وقعت بين جيش طارق بن زياد والحامية المسيحية

القوطية، وانتصر فيها طارق وفتح الجبل الذي سمي باسمه حتى الآن، وكان ذلكعام ٩٢ هـ .

[٣٩] **معركة «وادي لكة أو شذونة»** : وقعت بين طارق بين زياد، والملك القوطي لذريق ، انتصرفيها المسلمون، وكانتعام ٩٢ هـ ، وتعتبر هذه المعركة حاسمة، لأنها فتحت أبواب الأندلس للمسلمين.

[٤٠] لقد استقر الإسلام فعلياً في الشمال الإفريقي في عهد الخليفة المصلح عمر بن عبد العزيز، ولقد ساعدت بعثة الفقهاء العشرة التي أرسلها عمر بن عبد العزيز على تثبيت العقيدة الإسلامية، وتطهير النفوس، وتعليم الناس كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ .

[٤١] لقد كان بجانب كتائب الجهاد المسلح سرايا وجنود من كبار الصحابة الفقهاء العلماء، ساهموا في فتح الشمال الإفريقي، ومن أشهرهم الحسن والحسين ابنا علي، وأبو ذر الغفاري ، والمقداد بن عمرو ، وعبد الله بن عباس، وابن عمر، وابن مسعود، وغيرهم كثير، وكان لهم أثر في نشر السُّنَّة والعلوم الإسلامية بين أهالي الشمال الإفريقي .

[٤٢] إن أمة الإسلام التي حملت دينها لتشعه علي أهالي الشمال الإفريقي حملت معها حضارة متميزة عن حضارات الشمال الإفريقي التي قبلها والتي كانت وثنية أو ذات ديانة منحرفة عن الصراط المستقيم، ولذلك ظهرت أخلاق وضيعة في سلوكهم ومارسوا على أهالي الشمال الإفريقي ظلماً عظيماً وعسفاً وخيماً وكان دافعهم هو الطمع في خيرات البلاد الكثيرة، وحملوا عنهم ديانة عبادة الأوثان والانغماس في الشهوات، فانطمست البصائر وزاغت الأبصار وضاع التوحيد، ونزلوا في درجة أحط من منزلة الحيوانية، وجرت فيهم وسُنَّة الله في أخذ من

يقع في الذنوب والمعاصي والشرك ويبتعد عن منهج الله ونداء الفطرة.

[٤٣] إن عظمة الفتوحات الإسلامية تظهر إذا قارنتها مع من سبق في الشمال الإفريقي من الغزاة الطامعين.

[٤٤] إن كل الجيوش الإسلامية التي دخلت الشمال الإفريقي كان داعيها ومحركها في حركة الجهاد العقيدة والحرص على هداية الناس وإزالة العوائق التي تحول بينهم وبين دين الفطرة.

[٤٥] إن الدولة الإسلامية منذ عصورها الأولى حرصت على الامتداد الطبيعي وضم الشمال الإفريقي لحظيرتها الميمونة.

[٤٦] إن أهالي البلاد انصهروا مع الفاتحين في محاضن الإسلام العظيمة وحملوا لواء الإسلام والدفاع عنه والتوسع من أجل الدعوة في سبيله.

[٤٧] لقد ظهر دور العلماء والمحدثين والفقهاء من الصحابة والتابعين في إدخال القبائل في الإسلام وتعليمها وتزكيتها.

[٤٨] إن حركة المد والجزر والتوسع والانكماش في الفتوحات الإسلامية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً باستقرار الخلافة والتغلب علي الفتن الداخلية.

[٤٩] إن البحر المتوسط أصبح ببركة الفتح الإسلامي بحراً إسلامياً تابعاً للخلافة.

وهذه بعض النتائج التي وصلت إليها وقد ملت إلى الاختصار الشديد خوفاً من الإطالة والإطناب .

وأسأل الله العلي العظيم رب العرش الكريم أن يتقبل هذا الجهد المتواضع قبولاً حسناً وأن يبارك فيه وأن يجعله من أعمالي الصالحة التي أتقرب بها إليه، وأختم الكتاب الأول بقول الله تعالى: ﴿ **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ** ﴾ [الحشر: ١٠] .

ويقول الشاعر:

أنا الفقير إلى رب البريات — أنا المسكين في مجموع حالاتي

أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي — والخير إن يأتينا من عنده يأتي

لا أستطيع لنفسي جلب منفعة — لا عن النفس لي دفع المضرات

والفقر لي وصف ذات لازم أبداً — كما الغني أبداً وصف له ذاتي

وهذه الحال حال الخلق أجمعهم — وكلهم عنده عبد له آتي

« سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك ».

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كتبه

علي محمد محمد الصلابي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

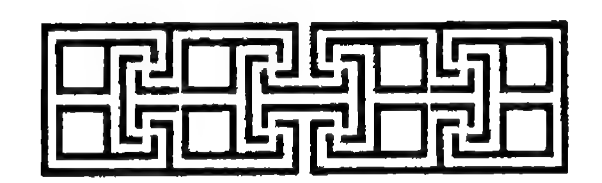

أهم مراجع هذا الكتاب

[١] أثر الحديث في نشأة التاريخ عن المسلمين د. بشار عواد، طبعت في بغداد، سنة ١٩٦٦م.

[٢] إعادة كتابة تاريخ صدر الإسلام د. أكرم ضياء العمري، محاضرة مطبوعة على الآلة الكتابة.

[٣] اختصار علوم الحديث الشيخ إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق محمد إبراهيم البنا وزميله، ط: دار الشعب بمصر.

[٤] إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لمحمد بن أبي بكر الزرعي، المشهور بابن قيم الجوزية، تصحيح محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت

[٥] أسد الغابة لمعرفة الصحابة لأبي الحسن علي بن محمد الجزري، دار الفكر، طبعة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

[٦] البداية والنهاية في التاريخ- عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي – م طبعة السعادة – القاهرة.

[٧] البيان المغرب في أخبار المغرب-أبو عبد الله محمد بن عذارى المراكشي، مكتبة صادر، بيروت.

[٨] البدر الطالع، محمد بن علي الشوكاني، نشر دار الباز، بمكة.

[٩] التاريخ والحضارة الإسلامية، أحمد شلبي، طبعة مكتبة وهبة.

[١٠] الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، أحمد بن خالد الناصري السلاوي – القاهرة – ١٣١٠هـ.

[١١] الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق علي محمد البجاوي، مطبعة نهضة مصر.

[١٢]الإصابة في تمييز الصحابة ، شهاب الدين أبوالفضل أحمد بن علي بن محمد علي الكناني العسقلاني المعروف بابن حجر العسقلاني، المطبعة الشرقية.

[١٣]العبر ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة الكويت. ١٩٦١م.

[١٤]الصحاح ، إسماعيل الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور، الطبعة الثانية، دار العلم للملايين، بيروت.

[١٥]الأعلام ، لخير الدين الزركلي، دارالعلم للملايين، طبعة سنة ١٩٧٩م.

[١٦]الكامل في التاريخ ، لعلي بن محمد الشيباني، دار صادر، بيروت.

[١٧]المسالك والممالك ، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري المعروف بالكرفي، تحقيق د. محمد جابر عبد العال الحسيني، مطابع دار القلم، القاهرة ١٣٨١هـ.

[١٨]القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ ، د. عبد الله بن محمد الرشيد، دار القلم، الطبعة الأولى. ١٤١٠هـ/١٩٩٩م.

[١٩]الطبقات الكبرى ، محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.

[٢٠]العواصم من القواصم ، لأبي بكر بن العربي، مكتبة السنة، الطبعة الخامسة، ١٤٠٨هـ، عابدين. القاهرة.

[٢١]الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ، للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا، دار الشهاد، القاهرة.

[٢٢]المختصر في علم التاريخ ، لمحمد بن سليمان الكافيجي، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٦٣م.

[٢٣]الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، محمد عبد الرحمن السخاوي، دار الكتاب العربي، حققه حسام المقدسي.

[٢٤] تاريخ الأمم والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٣٥٨هـ.

[٢٥] تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق د. أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة،دار القلم، ط٢، سنة ١٣٩٧هـ.

[٢٦] تذكرة الحفاظ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تصحيح عبد الرحمن المعلمي، دار إحياء التراث العربي.

[٢٧] تفسير التاريخ الإسلامي، د. عماد الدين خليل، الطبعة الأولى، ١٩٧٥م، دارالعلم للملايين.

[٢٨] تدريب الراوي، جلال الدين عبد لرحمن بن أبي بكر، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، الطبعة الثانية، دارالكتب الحديثة.

[٢٩] تفسير القرآن الكريم، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق محمد إبراهيم البنا وزميله، طبعة دار الشعب بمصر.

[٣٠] تاريخ بغداد، أحمد بن علي بن ثابت البغدادي ، المكتبة السلفية بالمدينة.

[٣١] تاريخ المغرب العربي ، سعد زغلول عبد الحميد ، القاهرة (١٩٦٥م .

[٣٢] تاريخ الفتح العربي في ليبيا، للطاهر أحمد الزاوي، دارالتراث العربي، ليبيا، الطبعة الثالثة.

[٣٣] تاريخ ليبيا، جون رايت، كتاب مصور، دار الفرجاني، طرابلس، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م.

[٣٤] تحقيق مواقف الصحابة في الفتن، د. محمد محزون، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

[٣٥] تهذيب الأسماء واللغات، الإمام النووي، المطبعة المنبرية، مصر.

[٣٦] جمهرة أنساب العرب، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، تحقيق وتعليق عبد السلام هارون، مطبعة المعارف، القاهرة، ١٣٨٢هـ.

[٣٧] جامع بيان العلم وفضله، ليوسف بن عبد البر النمري القرطبي، دارالكتب الحديثة.

[٣٨] جامع الرسائل، للشيخ أحمد عبد السلام بن تيمية الحراني، تحقيق محمد رشاد سالم، مطبعة المدني.

[٣٩] جوامع السير، لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، تحقيق د. إحسان عباس، د. ناصر الدين الأسد، مراجعة أحمد محمد شاكر، طبعة إدارة إحياء السُّنَّة.

[٤٠] حسن البيان عما بلغته إفريقيا في الإسلام من السطوة والعمران، محمد النيفر، المطبعة التونسية، ١٣٥٣هـ.

[٤١] دواعي الفتوحات الإسلامية وداوي المستشرقين، د. جميل عبدالله المصري.

[٤٢] دراسات إسلامية، سيد قطب، طبعة دارالشروق.

[٤٣] رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير أخبارهم وفضائلهم لأبي عبد الله بن أبي عبد الله المالكي، نشره الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥١م.

[٤٤] سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقق الدكتور صلاح الدين المنجد، مطبعة المعارف، القاهرة.

[٤٥] سيرة النبي ﷺ، أبو محمد عبد الملك بن هشام، مطبعة حجازي، القاهرة، ١٣٥٦م.

[٤٦] سنن ابن ماجة، محمد بن إسماعيل القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، الحلبي، بمصر.

[٤٧] سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، طبع المكتب الإسلامي.

[٤٨] سُنن أبي داود ، سليمان بن أشعث السجستاني ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد ، طبع دارالفكر ، بيروت .
[٤٩] سُنن الترمذي ، محمد بن عيسى ، تحقيق أحمد شاكر ، دار إحياء التراث .
[٥٠] شذرات الذهب ، ابن العماد الحنبلي ، مطبعة القدس ، القاهرة ، ١٣٥٠هـ .
[٥١] طبقات ابن سعد ، محمد بن سعد ،دار صادر ، بيروت ، ١٣٧٦هـ .
[٥٢] صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج القشيري ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ، دار إحياء التراث العربي .
[٥٣] صفة الصفوة ، للإمام أبي الفرج ابن الجوزي ، دارالمعرفة ، بيروت .
[٥٤] علم التاريخ عند العرب ، عبد الحميد العبادي ، فصل ملحق بعلم التاريخ ، لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة .
[٥٥] علم التاريخ عند المسلمين ، فرانز روزنثال ، ترجمة صالح أحمد العلي ، طبعة مكتبة المثني ، بغداد .
[٥٦] عقيدة أهل السُنَّة والجماعة في الصحابة الكرام ، د. ناصر بن علي ، مكتبة الرشيد ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م .
[٥٧] عبد الله بن مسعود ، أعلام المسلمين ، عبدالستار الشيخ ، دارالقلم ، دمشق ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .
[٥٨] فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ، للشيخ عبد الرحمن بن حسن الشيخ ، الطبعة الخامسة ، ١٢٩١هـ .
[٥٩] فاتح الأندلس ، طارق بن زياد ، شوقي أبو خليل ، دار الفكر ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٠م .
[٦٠] في التاريخ فكرة ومنهاج ، لسيد قطب ، الدارالسعودية للنشر ، جدة ، ط١ ، ١٣٨٧هـ .
[٦١] فتوح مصر والمغرب ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبدالحكم القرشي ، مطابع لجنة البيان العربي .

[٦٢] فتح الباري شرح صحيح البخاري ، المكتبة السلفية، القاهرة .

[٦٣] قصائد الزهد ، محمد أحمد السيد ، مكتبة السوادي للتوزيع، الطبعة الثالثة، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م .

[٦٤] قادة فتح المغرب العربي ، محمود شيت خطاب ، دارالفكر، الطبعة السابعة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .

[٦٥] في ظلال القرآن ، لسيد قطب ، دار الشروق ، بيروت .

[٦٦] فتح العرب للمغرب ، حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٤٧م .

[٦٧] لمحات في التربية ، محمد أمين المصري،طبع دار الفكر، بيروت، ط٤ ،سنة ١٣٩٨هـ .

[٦٨] لسان العرب لابن منظور، قدم له عبد الله العلايلي، إعداد وتصنيف يوسف خياط، طبعة دار لسان العرب، بيروت .

[٦٩] ليبيا منذ الفتح العربي حتي انتقال الخلافة الفاطمية إلي مصر ، د. صالح مصطفى مفتاح المزيني، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، الطبعة الثالثة، ١٩٩٤م .

[٧٠]لسان الميزان ، أحمد بن علي العسقلاني، ط٢، دار الأعلمي للمطبوعات، بيروت .

[٧١]اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، محمد فؤاد عبد الباقي، نشر دارالباز ، بمكة .

[٧٢]منهج كتابة التاريخ الإسلامي ، محمد صامل العلياني السلمي، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .

[٧٣]مقدمة ابن خلدون لعبد الرحمن بن خلدون ، دا رإحياء التراث العربية ، بيروت .

[٧٤] مفاتيح العلوم لمحمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي، الطبعة الثالثة، سنة ١٤٠١هـ، مكتبة الكليات الأزهرية ، بمصر.

[٧٥] مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، طبعة دار صادر، بيروت.

[٧٦] مجموع الفتاوى، لأحمد بن عبد الحليم الحراني، الطبعة الثانية، مكتبة ابن تيمية.

[٧٧] مناقب عمر بن الخطاب، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ، تحقيق الدكتورة زينب القاروط، الطبعة الأولى، دارالكتب العلمية، بيروت.

[٧٨] مدرسة الحديث في القيروان، الحسين بن محمد شواط، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

[٧٩] ميزان الاعتدال، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق علي البجاوي، دارالمعرفة، بيروت.

[٨٠] معجم ما استعجم، للبكري ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ١٦٦٤هـ/١٩٦٨م.

[٨١] معجم البلدان الليبية، لطاهرالزاوي، الطبعة الأولى، طرابلس، ليبيا، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

[٨٢] نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، أبو العباس أحمد القلقشندي، القاهرة، ١٩٥٩م. الطبعة الأولى.

[٨٣] نفح الطيب أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٦٧هـ، الطبعة الأولى.

[٨٤] نونية القحطاني، لأبي محمد عبد الله بن محمد الأندلسي، الطبعة الثالثة، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، مكتبة السوادي للتوزيع.

[٨٥] نماذج من شعر إيليا أبو ماضي، عبد اللطيف شرارة، دارصادر، بيروت، ١٩٦٥م.

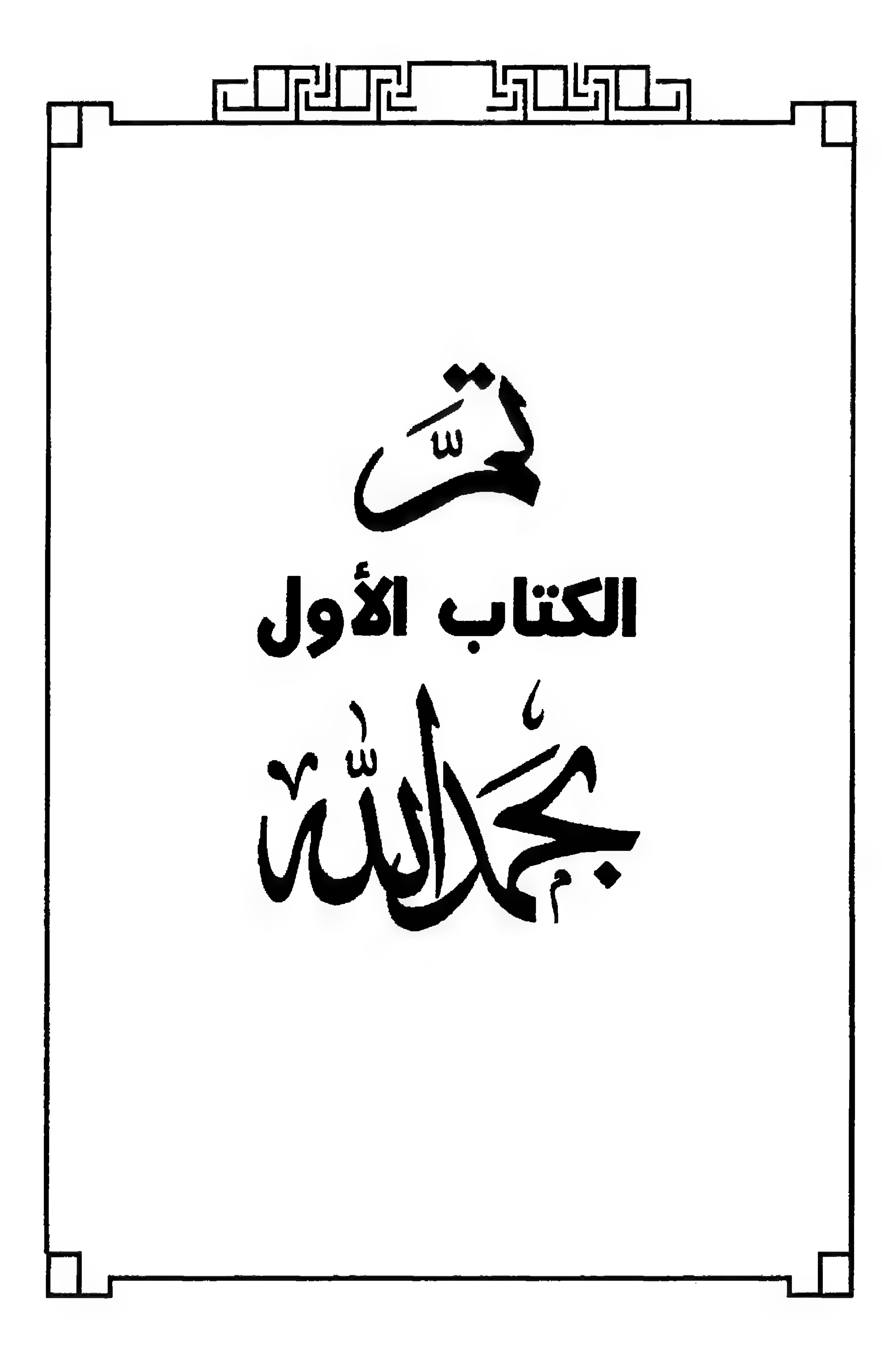
تم
الكتاب الأول
بحمد الله

الكتاب الثاني

عصر الدولتين الأموية والعباسية

وتأثير فقه الخوارج على الحياة السياسية

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ .

[آل عمران:١٠٢] .

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ﴾ [النساء:١] .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا** ﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد :

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت.

هذا الكتاب الثاني: [صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي] .

يتحدث عن **[عصر الدولتين الأموية والعباسية وتأثير فقــه الخوارج على الحياة السياسية]** ، فيعطي صورة واضحة عن جذور الأمويين، ورجالهم ودولتهم وخلفائهم وينقل أقوال علماء أهل السُنَّة في بعض خلفاء بني أمية ويوضح دورهم في الجهاد والدعوة ويتعرض لما وقع فيه بعض الخلفاء من انحراف وظلم وجور وتعسف، ويقف عند الأسباب التي ساهمت في سقوط الدولة الأموية، ويتحدث عن القتال الذي حدث في أواخر الدولة الأموية بين الخوارج وولاة بني أمية.

وكذلك يسلط الأضواء على دولة بني العباس ومراحلها والعصور التي مرت

بها ويعرّف بخلفائها، ويتكلم عن الصراع المرير الذي حدث بين الخوارج في الشمال الإفريقي وخلفاء بني العباس.

ويتحدث عن نشأة الخوارج وفرقهم وأحاديث الرسول ﷺ فيهم، ويبين خطورة أفكارهم وعقائدهم على الأمة، وكيف انتقال الفكر الخارجي إلى الشمال الإفريقي، ويتعرض لخلاف علماء الفرق في الحكم على الإباضية و يناقش عقائدهم من منظور أهل السُنَّة والجماعة، ويعطي فكرة عن دولة الأغالبة وأمرائهم ودور علماء أهل السُنَّة في نشر الفقه والحديث وتعليم الناس والحكم بينهم بالكتاب والسنة ومحاربة المبتدعة ويؤرخ لدخول مذهب الإمام مالك في الشمال الإفريقي، وأسباب انتشاره في الإقليم ويختص بترجمة موسعة للإمامين العظيمين أسد بن ا لفرات، وسحنون بن سعيد، ويلقي الضوء على دورهم العلمي والدعوي والجهادي في الشمال الإفريقي ويعطي فكرة عن نظام الحكم في دولة الأغالبة ويتعرض لأسباب سقوطها بنوع من الإيجاز.

ويشير إلى أهمية معرفة سنن الله وكيفية التعامل معها من خلال الوقائع التاريخية ودور العلماء الربانيين في قيادة الأمة نحو المجد والعزة والكرامة، وجهودهم العظيمة في القضاء على البدع ومحاربتها بالأدلة والبراهين والحجج، وتحصين جمهور المسلمين بعقيدة أهل السُنَّة والجماعة التي جاءت في كتاب الله و سُنة رسوله ﷺ والتي ساهمت في بناء سياج فكري عقدي عند جمهور المسلمين، منع من دخول البدع، بل تحطمت أمام ذلك البناء الشامخ الذي وضع الأمور في نصابها بدون تمييع أو تخليط.

وهذا الجهد المتواضع لم يأت بجديد، وإنما هو جمع وترتيب ومحاولة للتحليل والتفسير للأحداث التاريخية التي وقعت في هذه الحقبة الزمنية، والتي تأثرت بالمشرق الإسلامي في حركتها التاريخية، فإن كان خيراً فمن الله وحده، وإن أخطأت السبيل فأنا عنه راجع إن تبين لي ذلك، والمجال مفتوح للنقد والرد

والتعليق والتوجيه.

وهدفي من هذا الكتاب :

﴿ ١ ﴾ التأكيد على أن أصول المد الإسلامي في الشمال الإفريقي سُنِّيَّةٌ في المعتقد والعبادة والأخلاق والتشريع، أي ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه.

﴿ ٢ ﴾ تسهيل مبدأ الاعتبار والاتعاظ بمعرفة أحوال الدول وعوامل بنائها، وأسباب سقوطها، والنظر في سنن الله في الآفاق وفي الأنفس والمجتمعات.

﴿ ٣ ﴾ الاهتمام بمعرفة عقيدة أهل السُنَّة والجماعة وتربية أبناء الأمة عليها، وكشف معتقدات الخوارج التي تخالف القرآن والكريم وسُنَّة سيد المرسلين ﷺ وإجماع العلماء الراسخين.

﴿ ٤ ﴾ التعريف ببعض العلماء العاملين والفقهاء الراسخين، مثل: علي بن زياد العبسي، والبهلول بن راشد، وأسد بن الفرات، وسحنون بن سعيد والتركيز على دورهم العلمي والفقهي، والتربوي والجهادي.

﴿ ٥ ﴾ إثراء المكتبة الإسلامية التاريخية بالأبحاث المنبثقة عن عقيدة صحيحة، وتصور سليم بعيدة عن سموم المستشرقين، وأفكار العلمانيين الذين يسعون لقلب الحقائق التاريخية من أجل خدمة أهدافهم.

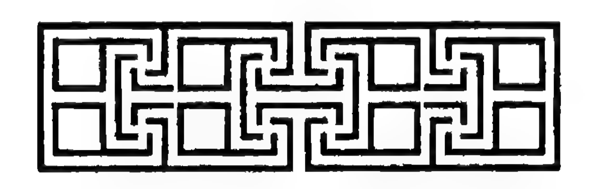

خطة الكتاب :

قد قمت بتقسيمه إلى سبعة فصول :

الفصل الأول : الدولة الأموية ويشتمل على ستة مباحث :

المبحث الأول: الجذور التاريخية للأسرة الأموية.

المبحث الثاني: الخلافة الأموية.

المبحث الثالث: يزيد بن معاوية.

المبحث الرابع: الوليد بن عبد الملك.

المبحث الخامس: سليمان بن عبد الملك.

المبحث السادس: عمر بن عبد العزيز.

الفصل الثاني: عصر الولاة ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: نبذة تاريخية عامة عن الحالة في عصر الولاة.

المبحث الثاني: نبذة عن ولاة الدولة الأموية.

المبحث الثالث: أسباب سقوط الخلافة الأموية.

الفصل الثالث: الخلافة العباسية ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: ظهور الدعوة العباسية وتطورها.

المبحث الثاني: العصور العباسية.

المبحث الثالث: العصر العباسي الثاني.

المبحث الرابع: العصر العباسي الثالث.

الفصل الرابع: الخوارج في الشمال الإفريقي ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: نشأة الخوارج.

المبحث الثاني: أهم فرق الخوارج.

الفصل الخامس : الإباضية ويشتمل على خمسة مباحث :

المبحث الأول: نسب الإباضية وفرقهم.

المبحث الثاني: موقف الإباضية من الخلفاء الراشدين.

المبحث الثالث: بعض عقائد الإباضية ومناقشتها.

المبحث الرابع: حقيقة الإيمان وحكم مرتكب الكبيرة.

المبحث الخامس: مسألة الإمامة والخلافة.

الفصل السادس: أهم ثورات الإباضية ويشتمل على مبحث واحد هو:

المبحث الأول: ثورات الإباضية في أواخر الخلافة الأموية وبداية العباسية.

الفصل السابع: دخول المذهب المالكي إلى ليبيا ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: دخول الموطأ والاهتمام به في الشمال الإفريقي.

المبحث الثاني: ترجمة الإمام مالك بن أنس.

المبحث الثالث: أسباب انتشار المذهب المالكي.

المبحث الرابع: أصول مذهب الإمام مالك.

الفصل الثامن: دولة الأغالبة ويشتمل على ثمانية مباحث:

المبحث الأول: إبراهيم بن الأغلب.

المبحث الثاني: العلامة أبو حفص عبد الجبار بن خالد.

المبحث الثالث: ولاية زيادة الله بن الأغلب.

المبحث الرابع: أسد بن الفرات.

المبحث الخامس: سحنون بن سعيد.

المبحث السادس: نظام الحكم عند الأغالبة.

المبحث السابع: أهم أعمال دولة الأغالبة.

المبحث الثامن : أسباب سقوط دولة الأغالبة.

ثم الخلاصة.

وأخيراً أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً خالصاً لوجهه الكريم، وأن يثيبني على كل حرف كتبته، ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب.

« سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

كتبه

علي محمد محمد الصلابي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

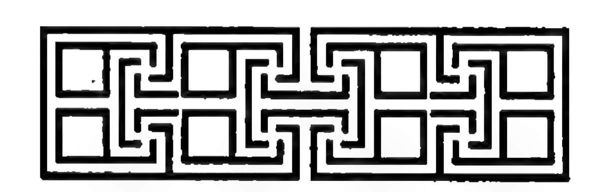

الفصل الأول

الدولــة الأمويــة (•)

إن الدولة الأموية تعرضت للعداء من طوائف اليهود والنصارى والمستشرقين والروافض، حيث سعوا بكل إمكاناتهم البشرية، ووسائلهم الإعلامية لتشويه دورها في حماية الإسلام ونشره والدعوة إليه والجهاد في سبيله.

لذلك رأيت من المفيد لأبناء المسلمين ، أن نتناول بشيء من التفصيل فترة الدولة الأموية وخلفائها من منظور أهل السُنَّة والجماعة ، حتى يحيط المسلم بتصور صحيح لهذه الدولة ورجالاتها وعلمائها وقيادتها، وما قدمته من إنجازات عظيمة في مسار الحركة العلمية، والجهادية، والسياسية، والدعوية خصوصاً في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز صاحب الفضل بعد الله في استقرار إقليم الشمال الإفريقي، وكان ذلك بعد إرساله للفقهاء العشرة الذين انتشروا بين القبائل وشرعوا في تعليم الناس القرآن الكريم، والسنة المطهرة، واللغة العربية، واهتموا بتزكية النفوس وتوريث العلوم للأجيال، كما لا يخفى على القارئ الكريم أهمية دراسة الدولة الأموية التي كان إقليم الشمال الإفريقي جزءاً منها، يتأثر بسياستها سلباً وإيجاباً.

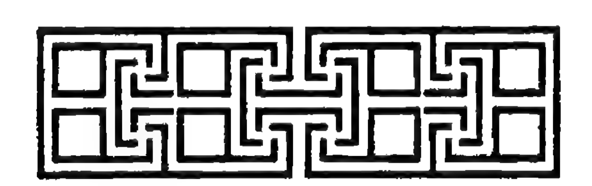

(•) كانت محاضرات الأستاذ عبد العزيز نور ولي، والدكتور محمد ضيف الله بطاينة في الجامعة الإسلامية في المدينة في كلية الدعوة وأصول الدين هي التي فتحت لي آفاقاً في دراسة الدولة الأموية، واعتمدت عليها في بحثي هذا في الرجوع إلى المصادر الأصلية.

المبحث الأول
الجذور التاريخية للأسرة الأموية

إن جذور الأسرة الأموية ترجع في الأصل إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وفي عبد مناف يلتقي بنو أمية مع بني هاشم. ولقد ولد لأمية الكبير الذي ينتسب إليه الأمويون من الأولاد الذكور: أبو سفيان واسمه عنبسة، وهو أكبر أولاده، وسفيان، وحرب، وأبو عمرو، والعاص، وأبو العاص، وكان يقال لأبي العاص الأمير، وكان من حكماء قريش، والعيص، وأبو العيص (١) .

وقد ولد لأبي العاص عفان، وولد لعفان عثمان الذي كان من أوائل من آمن بالرسول ﷺ وهاجر الهجرتين،وجاهد بنفسه وماله،وتزوج ابنتي رسول الله ﷺ ، **وأما العاص فقد ولد له أبناء كثيرون منهم :**

[١] أبو العاص بن أمية الحكم:

وقد أسلم الحكم يوم الفتح، وكان له من الأولاد: مروان الذي كان كاتب عثمان بن عفان في خلافته وصاحب خاتمه .

[٢] سعيد بن العاص:

وكان سعيد من أشراف قريش وفصحائها، أمره عثمان بن عفان بإملاء المصحف على زيد بن ثابت، واستعمله على الكوفة، وغزا بالناس طبرستان وفتحها، واعتزل أثناء الفتنة ، وولاه معاوية بن أبي سفيان المدينة ، وكان يعاقب بينه وبين مروان بن الحكم في ولايتها.

[٣] ومن أولاد سعيد بن العاص خالد:

وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية، أسلم قديماً قيل خامس الذين أسلموا

---

(١) انظر: جمهرة النسب، لهشام الكلبي (١/ ٢٨).

وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، وقدم في فتح خيبر، وأسهم له الرسول ﷺ وحضر عمرة القضاء، وحضر فتح مكة وحنينا والطائف وتبوك، واستعمله الرسول ﷺ على صدقات اليمن، وظل عاملاً عليها حتى توفي الرسول ﷺ فرجع خالد عن عمله وفي خلافة أبي بكر الصديق كان أول لواء عقده أبو بكر إلى الشام لواء خالد بن سعيد، ثم عاد فعزله لشيء بلغه عنه.

[٤] أبان بن سعيد بن العاص بن أمية:

أسلم بين الحديبية وخيبر، وهو الذي أجار عثمان بن عفان يوم بعثه الرسول ﷺ إلى قريش عام الحديبية وحمله على فرس، ثم ركب خلفه حتى دخل مكة وقال:

أقبل وأدبر ولا تخف أحداً بنو سعيد أعزة الحرم

وأمَّره الرسول ﷺ على بعض السرايا منها سرية إلى نجد، ثم أستعمله على البحرين لما عزل العلاء بن الحضرمي عنها، ولم يزل عليها حتى توفي الرسول ﷺ فرجع عنها.

[٥] عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية:

أسلم بعد أخيه بيسير، وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، وقدم زمن خيبر، وحضر فتح مكة وخيبر وحنينًا والطائف وغزوة تبوك، واستعمله الرسول ﷺ على قرى عربية منها تبوك وخيبر وفدك، وظل عاملاً عليها إلى أن توفي الرسول ﷺ فرجع وخرج في خلافة أبي بكر إلى الشام غازيًا، فقتل في وقعة أجنادين وقيل قتل يوم اليرموك.

[٦] عبد الله بن سعيد بن العاص بن أمية:

واسمه الحكم فسماه الرسول ﷺ عبد الله، وكان كاتباً محسناً، فأمره الرسول ﷺ أن يعلم الكتابة في المدينة وقتل يوم اليمامة، وقيل قتل يوم مؤتة، وقيل في

أولاد سعيد بن العاص بن أمية، إنه ما فتحت بالشام كورة إلا وجد عندها رجل من بني سعيد بن العاص ميتاً .

[٧] وولد لأبي العاص بن أمية، أسيد، وولد لأسيد من الأولاد:

عتاب، وأسلم عتاب يوم الفتح، واستعمله الرسول ﷺ على مكة عام الفتح حين خرج إلى حنين، ورزقه كل يوم درهماً، وقيل للرسول ﷺ استخلفت هذا الأعرابي فقال ﷺ: «**إني رأيته في المنام أخذ حلقة باب الجنة ففتح له فدخل**».

[٨] وولد لحرب بن أمية:

صخر وهو أبو سفيان، وكان أبو سفيان من أشراف قريش وكان ذا حلم ورأي ودهاء، وقيل كان أفضل قريش رأياً في الجاهلية ثلاثة: عتبة وأبو جهل وأبو سفيان. ولم يسلم إلا عام الفتح وجعل الرسول ﷺ في فتح مكة مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، وشهد أبو سفيان حنيناً مع الرسول ﷺ وأعطاه الرسول ﷺ مائة وأربعين أوقية وأعطى ابناه يزيد ومعاوية ، وفقئت عين أبي سفيان يوم الطائف وشهد اليرموك فأصاب عينه الأخرى سهم ففقئت هي الأخرى . ومات عام (٣١ هـ ، وقيل ٣٢هـ ، وقيل ٣٣هـ) ولأبي سفيان من الأولاد: حنظلة، قتله حمزة بن عبد المطلب يوم بدر كافراً، وعمرو بن أبي سفيان أسر يوم بدر، ويزيد ابن أبي سفيان الذي يقال له يزيد الخير، ولاه أبو بكر على الأجناد الذي بعثهم إلى فتح الشام، ولما فتحت الشام ولاه عمر بن الخطاب على فلسطين، ولما مات معاذ بن جبل بالطاعون استخلفه على الشام، ولما مات يزيد استخلف عمر بن الخطاب أخاه معاوية بن أبي سفيان. وعتبة بن أبي سفيان، ولاه عمر بن الخطاب الطائف وصدقاتهم وولاه معاوية بن أبي سفيان مصر بعد موت عمرو بن العاص. وعنبسة بن أبي سفيان، كان والياً على الطائف لأخيه معاوية، وعزله معاوية وولاها عتبة ولعنبسة ولد اسمه عثمان، وكان عثمان فاضلاً ، فلما مات يزيد بن معاوية أراد بنو أمية أن يبايعوه على الخلافة. ومعاوية بن أبي سفيان الذي سبق

التعريف به في غير موضع [١] .

والملاحظ مما سبق :

أن هنالك رابطةً قوية بين عبد شمس بن عبد مناف وبين هاشم بن عبد مناف، وبين المطلب بن عبد مناف، وبين نوفل بن عبد مناف، إلا أن بني أمية كانوا أكثر عدداً من غيرهم، لذلك قد عاندوا الدعوة الإسلامية في بداية مراحلها نظراً لحجمهم البشري، وثقلهم السياسي، وتواجدهم الاقتصادي، ثم ما لبثوا أن انقشعت عنهم حمية الجاهلية، ودخلوا في دين الله أفواجاً، وأصبحوا أبرز قيادات الدعوة الإسلامية فيما بعد .

وهذا ما قرره ابن خلدون إذ يقول: كان لبني عبد مناف في قريش جُمُلٌ من العدد والشرف لا يناهضهم فيها أحد من سائر بطون قريش، وكان فخذاهم، بنو أمية وبنو هاشم جميعاً، ينتمون لعبد مناف وينتسبون إليه، وقريش تعرف ذلك وتسأل لهم الرياسة عليهم، إلا أن بني أمية كانوا أكثر عدداً من بني هاشم وأوفر رجالاً [٢] .

ويقول المقريزي تحليلاً لوصول بني أمية للخلافة دون بني هاشم: لما كان بنو هاشم من قريش اختصها الله سبحانه بهذا الأمر أعني الدعوة إلى الله تعالى والنبوة والكتابة فحازت بذلك الشرف الباقي، وكانت أحوال الدنيا من الخلافة والملك ونحوه زائلة، لهذا زواها الله تعالى عنهم تنبيهاً على شرفهم وعلو مقدارهم، فإن ذلك هو خيرة الله لنبيه محمد ﷺ .

وقد ناقش المقريزي في كتابه: (النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم) قضية استعانة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين ببني أمية على العمالات

---

(١) المرجع السابق: ٣٥ - ٣٦ ، راجع انساب الأشراف للبلاذري: ٤/ ١٢٥-١٣٣ .

(٢) **انظر** : تاريخ ابن خلدون: (٣/ ٢) .

والولايات دون بني هاشم فقال: وقد ظهر لي أن ولاية الرسول ﷺ بني أمية الأعمال كانت إشارة منه ﷺ إلى أن الأمر سيصير إليهم [١] .

وتفسير المقريزي مرجوح، فاختيار الله عز وجل محمد ﷺ للرسالة لم يكن لاعتبارات عائلية هاشمية إزاء الأموية، وقد قاوم بعض بني هاشم الدعوة أول الأمر، ومنهم من مات من غير أن يسلم، ولم يقل أحد بالموازنة بين الرسالة والدعوة من جهة إزاء الخلافة والملك من جهة أخرى، أو بين محمد ﷺ رمزاً لبني هاشم إزاء الأمويين أو غيرهم، وقام بأمر الخلافة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر، وهو قريشي من بني تيم، ثم عمر بن الخطاب، وهو قريشي من بني عدي، وخلفهما عثمان بن عفان، وهو قريشي من بني أمية، ثم خلفه علي بن أبي طالب، وهو قريشي من بني هاشم، وخلف علياً الحسن بن علي، وهو قريشي من بني هاشم، ثم آلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان وهو قريشي من بني أمية. ولعل وصول الخلافة إلى بني أمية بعد الخلاف الذي وقع بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، أوحى للمقريزي الاسم الذي أطلقه على كتابه الآنف الذكر، وذهب فيه ذلك المذهب من القول وعلى أية حال، فإن ما نأخذه من كلام المقريزي وغيره أن بني أمية كانوا كثيري العدد، وأصحاب فعاليات وخبرات، واستعانة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين بهم في الولايات والعمالات كان في بعض معانيه ومدلولاته ، لما كان لبني أمية من المكانة والكفاية في الإدارة والسياسة.

وجعل المقريزي استعانته عليه السلام بهم من العوامل التي قوت نيتهم في طلب الخلافة وقال المقريزى: فإذا كان رسول الله ﷺ أسس هذا الأساس، وأظهر بني أمية لجميع الناس بتوليتهم أعماله فيما فتح الله عليه من البلاد، كيف لا يقوى ظنهم، ولا ينبسط رجاؤهم، ولا يتحد في الولاية أملهم [٢] .

---

(١) التنازع والتخاصم: (٦٣-٦٤) .

(٢) التنازع والتخاصم: (٤٧-٥٧) .

وهذه العلاقة بين الرسول ﷺ وبين بني أمية، ذهب إلى النزاع والتخاصم بين بني أمية جعلها المقريزي السبب في النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم، وجعل وجهة نظره هذه مدخلاً لفهم كل ما يتعلق ببني أمية في تاريخ الدعوة الإسلامية وما قبلها ، وقد أخطأ المقريزي في ذلك ولا شك .

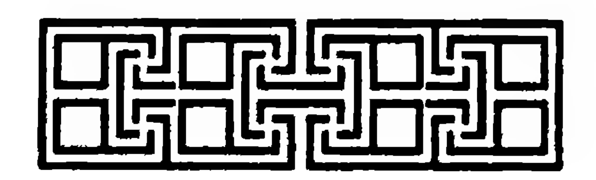

المبحث الثاني
الخلافة الأموية

نتناول في هذا المبحث أبرز القيادات السياسية الأموية التي كانت تمسك بزمام الأمر في مرحلة الدولة الأموية بعد العهد الراشدي، حيث إن هذه القيادات قد امتازت بميزات في عهودها الذهبية والتي كانت من أبرزها الفتوحات الإسلامية التي شملت أصقاعاً كبيرة من الأرض شرقاً وغرباً ، وبراً وبحراً ، وإليك تراجم ومناقب هذه القيادات السياسية الأموية (•) .

أولاً: معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠ ت):

[أ] نبذة عنه قبل الخلافة:

هو معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي، وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس. ولد معاوية قبل البعثة بخمس سنين ، وأسلم عقب صلح الحديبية (١) ، وهذا هو الثابت الصحيح (٢) . كان أبوه من سادات قريش ، وصاحب العير يوم بدر، وتفرد بالسؤدد بعد يوم بدر، فهو صاحب النفير في يوم أُحد وما بعدها ، ثم أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه، وكانت له مواقف مشرفة وآثار محمودة في يوم اليرموك وما قبله وما بعده (٣) .

صحب معاوية رسول الله ﷺ وكان من كتّابه، وروى عنه أحاديث وقد أخرج له الجماعة (٤) .

(•) نقلاً من محاضرات الشيخ عبد العزيز نور ولي .

(١) أسلم معاوية ﷺ عقب الحديبية ، ولكن أخفى إسلامه خوفًا من أبيه أبي سفيان .

(٢) الاستيعاب: ٣/٣٧٢ ـ أسد الغابة: ٦/٤٣٢ .

(٣) المرجع السابق: ٢/٨٣، أسد الغابة: ٢/٣٩٢ .

(٤) روى معاوية ﷺ (١٦٣) حديثًا عن النبي ﷺ .

منها: ما أخرجه الإمام مسلم عنه أنه قال - معاوية -: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة** »(١).

وعنه أيضاً انه قال: إياكم وأحاديث إلا حديثاً كان في عهد عمر فإن عمر كان يخيف الناس في الله عز وجل، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين** ». وسمعت رسول الله ﷺ يقول: « **إنما أنا خازن، فمن أعطيته عن طيب نفس، فيبارك له فيه، ومن أعطيته عن مسألة وشره كان كالذي يأكل ولا يشبع** »(٢).

وعنه أيضاً، أنه خطب يوم عاشوراء في المدينة فقال: أين علماؤكم؟ يا أهل المدينة! سمعت رسول الله ﷺ يقول لهذا اليوم: « **هذا يوم عاشوراء، ولم يكتب الله عليكم صيامه، وأنا صائم فمن أحب منكم أن يصومه فليصم، ومن أحب أن يفطر فليفطر** »(٣).

وأيضاً عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه **قال**: خرج معاوية على حلقة في المسجد فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله، قال: آلله أما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقل حديثاً عنه مني، وأن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه، فقال: « **ما أجلسكم ؟** » قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام، وما منّ به علينا، قال: « **آلله ما أجلسكم إلا ذاك** » ، قال: « **أما أني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة** »(٤).

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الصلاة، باب فضل الأذان (١/ ٢٩٠) رقم ٢٩٠.
(٢) المرجع السابق: ١٠٣٧،٣٨٧.
(٣) المرجع السابق: رقم الحديث ١١٢٩.
(٤) صحيح مسلم: كتاب الصلاة، باب فضل الأذان (١/ ٢٩٠) رقم ٢٧٠١.

وكان معاوية تحت لواء أخيه يزيد بن أبي سفيان في فتوح الشام، ولما توفي يزيد في خلافة عمر رضي الله عنه ولى أخاه خلفاً له فيما كان والياً عليه من ولاية الشام، ثم في خلافة عثمان رضي الله عنه ضم له الشام كلها، وافتتح سنة (٢٧ هـ) جزيرة قبرص، ولما ولي عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه كانت بينه وبين معاوية موقعة صفين التي انتهت بتحكيم الحكمين. ثم لما ولي الحسن رضي الله عنه تنازل له بالبيعة فانعقدت الكلمة على خلافته وأجمعت الرعية على بيعته في سنة (٤١ هـ) .

[ب] منزلة معاوية بن أبي سفيان :

ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**يغزو فئام من الناس فيقال لهم فيكم من رأى رسول الله - ﷺ - فيقولون نعم فيفتح لهم ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم فيكم من رأى صحب رسول الله - ﷺ - فيقولون نعم فيفتح لهم**».. الحديث (١) . فعلق الحكم برؤية رسول الله ﷺ كما علقه بصحبته، وبهذا دل على أن كل من لقي رسول الله ﷺ مؤمناً به ومات على ذلك يعد صحابياً (٢) ، ولاشك أن معاوية منهم رضي الله عنه .

وقد نهى رسول الله ﷺ عن سب الصحابة رضي الله عنهم فقال: «**لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**» (٣) ، كما نهى عن لعن المؤمن وقال: « **لعن المؤمن كقتله** » (٤) ، وأصحاب رسول الله ﷺ خيار المؤمنين كما ثبت ذلك بقوله ﷺ: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم** » (٥) . وقد استعان به رسول الله ﷺ وجعله كاتبًا للوحي والرسول ﷺ لم يكن يستعين بمنافق ، كما استعان به أبو

---

(١) صحيح مسلم: في فضائل الصحابة باب: ٥٢.

(٢) الإصابة لابن حجر: ١ / ١٠.

(٣) صحيح البخاري : في فضائل الصحابة باب: ٥، صحيح مسلم: في فضائل الصحابة باب: ٥٤.

(٤) صحيح البخاري : في الأدب باب: ٤٤، صحيح مسلم: في الإيمان باب: ٤٧.

(٥) صحيح مسلم : في فضائل الصحابة باب: ٥٢.

بكر الصديق وعمر الفاروق رضي الله عنهما، وهما لم يستعينا بمنافق ولا بذي قرابة، ولا تأخذهما في الله لومة لائم، بل إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان من أعظم الناس فراسة وأخبرهم بالرجال.

وثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال عن الحسن بن علي رضي الله عنهما: « **ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به فئتين من المسلمين** » (١) . وهذا النص الصحيح الصريح بين أن ما فعله الحسن رضي الله عنه محمود مرضي لله ورسوله. وإذا كانت فرقة معاوية هي الفرقة الباغية فهي مؤولة بفعلها والمتأول المجتهد كأهل العلم والدين الذين اجتهدوا فأخطئوا، وقال تعالى: ﴿ **رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا** ﴾ .

[البقرة: ٢٨٦] .

وثبت في الصحيح أن الله استجاب هذا الدعاء (٢) .

يقول ابن تيميه رحمه الله: أما إذا كان الباغي مجتهداً ومتأولاً ولم يتبين له أنه باغي بل اعتقد أنه على الحق وإن كان مخطئاً لم تكن تسميته باغياً موجبة لإثمه فضلاً عن أن توجب فسقه، وقد شهد القرآن بأن أقتتال المؤمنين لا يخرجهم عن الإيمان بقوله تعالى: ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾[الحجرات: ٩-١٠] .

وسائر أهل السُنَّة والجماعة وأئمة الدين لا يعتقدون عصمة أحد من الصحابة ولا القرابة ولا السابقين ولا غيرهم إلا الأنبياء ، بل يجوز عندهم وقوع الذنوب منهم والله تعالى يغفر لهم بالتوبة ويرفع بها درجاتهم ويغفر لهم بحسنات ماحية، أو بغير ذلك من الأسباب قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ**

(١) صحيح البخاري: كتاب الفتن، باب: ٢٠.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب: ٥٧.

المتقون (٣٣) لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين (٣٤) ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾[الزمر: ٣٢-٣٥] .

وأخيراً ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال عن معاوية رضي الله عنه : «**لا أشبع الله بطنه**» ، ومن هذا الباب قول النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه : « **ثكلتك أمك يا معاذ** » وهو لا يقصد حقيقتها ، وقد تبع مسلم رحمه الله هذا الحديث بالحديث الذي رواه البخاري: أن الرسول ﷺ قال: « **اللهم إنما أنا بشر فأيما عبد سببته أو جلدته أو دعوتُ عليه وليس لذلك أهلاً، فاجعل ذلك كفارة وقربة تقربه بها عندك يوم القيامة** » [١] .

فركب مسلم من الحديث الأول وهذا الحديث فضيلة لمعاوية رضي الله عنه .

[جـ] ولاية العهد:

تولى أبو بكر الصديق رضي الله عنه الخلافة بعد أن تمت له البيعة الخاصة في سقيفة بني ساعدة ثم البيعة العامة في المسجد على المنبر، وقد طعن البعض في خلافته لأنها تمت فلته ، أي على عجل ، وبلغ ذلك الكلام عمر رضي الله عنه في آخر موسم الحج ، فقام خطيبًا في الناس حين عاد إلى المدينة وقال : لا يغترن امرؤ أن يقول إنما كانت بيعة أبي بكر فلته ، ألا وإنها كانت كذلك ولكن الله وقى شرها « يقصد عمر أن السرعة في اختيار أبي بكر كانت خيراً لأنها حسمت مادة الخلاف في سقيفة بني ساعده » ، ثم أكمل أمير المؤمنين عمر كلامه وقال : ... وليس فيكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر [٢] .

بويع أبو بكر رضي الله عنه ثم إنه بعد استشارته لكبار الصحابة أخذ البيعة بعده لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه لما لمسه من أفضلية تؤهله لهذه المهمة وكان ذلك عندما أحس بدنو أجله [٣]، ثم إن عمر رضي الله عنه حصرها في أهل الشورى الذين توفي رسول الله

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الدعوات باب: ٣٤، صحيح مسلم في كتاب البر والصلة، باب: ٢٥.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير : ٨/١٢٣.

(٣) انظر : قصة السقيفة في صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب: ٥ .

ﷺ وهو عنهم راض وكان ذلك أيضاً عند دنو أجله، واختير عثمان بن عفان رضي الله عنه من بينهم [١] ، ثم كانت الفتنة التي أدت إلى مقتل عثمان رضي الله عنه وطلب الثوار عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لمبياعته بالخلافة، فأبى فلما ألحوا عليه أخبرهم أن ذلك ليس لهم إنما هو لأهل بدر، ورفض قبولها إلا إذا بايعه أهل الشورى، وتمت له البيعة منهم [٢] .

ومن الملاحظ في تلك الفترة أن اختيار الخليفة يكون من بين أفاضل الناس، وتتم بيعتهم أولاً ببيعة أهل الحل والعقد، كما أن اختيار الخليفة للخليفة الذي بعده لا ينظر فيه إلى صلة القرابة، وقد كانت بداية تولية ذوي القرابة في عهد معاوية رضي الله عنه عندما أخذ البيعة لابنه يزيد ليكون خليفة بعده، فكيف تم ذلك؟.

ذكر المؤرخون أن بداية هذا الأمر كان إشارة من المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عندما أحس بأن معاوية رضي الله عنه يرغب في عزله عن ولاية الكوفة، مما دفع معاوية إلى رده إليها ليوطن له الأمر فيها، وقد سبقت هذه القصة لإظهار دهاء المغيرة لذلك لا نؤكد هذه البداية حتى تتبين صحة الرواية أرسل معاوية إلى زياد بن أبيه يستشيره في الأمر فطلب زياد منه التريث، وأرسل إلى يزيد رجلاً من خاصته يحثه على ترك ما هو عليه، وكان مشغولاً بالصيد واللهو وذلك ليسهل على أبيه أمر مبايعته بالخلافة.

أما البداية الفعلية فكانت بعد وفاة المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه، فقد عزم معاوية في سنة ست وخمسين على ذلك وأرسل إلى عبيد الله ابن زياد بأخذ البيعة لابنه من أهل العراق وكان والياً عليها، ثم أرسل إلى بقية الأمصار بذلك فجاءته بيعتهم إلا أهل المدينة ومكة مما دفع معاوية إلى الشخوص بنفسه إليهم لأخذ البيعة.

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢ / ٢٧٤ .

(٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب: ٨ .

إن معاوية في اختياره لخليفة من بعده اقتدى في الجملة بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما[١]، وقد كان يريد بذلك أن لا تقع الأمة في خلاف في هذا الشأن وبخاصة مع اتساع الدولة واختلاف الأهواء[٢]، ولكن هل كان مصيباً في اختياره لابنه من بعده؟ إن أحوال الناس في عهد الشيخين تختلف عن أحوالهم في عهد معاوية، فكما لاحظنا أن الناس في تلك الفترة ينشدون أفضلهم، أما في عهد معاوية فكان بعض ولاة الأمر قد مالوا إلى الدنيا، كما أن الشوكة التي تدعم الخلافة انتقلت إلى الشام والعراق بعد أن كانت في عهد الشيخين في الحجاز، لذلك نرى أن عليًّا رضي الله عنه انتقل إلى الكوفة، كما أن دعوة الحصين بن نمير لعبد الله بن الزبير في الانطلاق معه إلى الشام، لتتم البيعة له كانت لنفس الغرض[٣].

لمس معاوية كل ذلك إضافة إلى تحسن أحوال يزيد كما أسلفنا، ودفعه هذا إلى أخذ البيعة له، ولا ننسى الفطرة الإنسانية لحب الأب لابنه لا نشك في تأثيرها على معاوية رغم ما نقل بأن معاوية خطب فقال: اللهم إن كنت إنما عهدت ليزيد لما رأيت من فضله فبلغه ما أملت وأعِنْهُ وإن كنت إنما حملني حب الوالد لولده وإنه ليس لما صنعت به أهلاً فاقبضه قبل أن يبلغ ذلك.

ولعل معاوية رضي الله عنه اجتهد في اختياره ليزيد، وليس من نافلة القول أن نذكر أنه أخطأ في اجتهاده، وبخاصة مع وجود من هو أفضل منه في الأمة، وقد أنكر عليه بعض الصحابة ذلك منهم عمرو بن حزم، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: لعمري لقد أصبح يزيد بن معاوية واسط الحسب في قريش غني عن المال غني عن كل خير، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله لم يسترع عبداً**

---

(١) تحذير العبقري من محاضرات الخضري للتباني: ١٩٣.

(٢) التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر ٤/ ١١٩.

(٣) تحذير العبقري من محاضرات الخضري للتباني: ١٩٣.

رعية إلا وهو سائله عنها يوم القيامة كيف صنع فيها ؟ ، وإني أذكرك الله يا معاوية في أمة محمد مَنْ تستخلف عليها »[١] .

وكان رد الأحنف بن قيس عندما طلب معاوية رأيه فيه اتزان وحُسن تخلص [٢] فقال: (نخافكم إن صدقنا ونخاف الله إن كذبنا، وأنت يا أمير المؤمنين أعلم بيزيد في ليله ونهاره، وسره وعلانيته، ومدخله ومخرجه، فإن تعلمه لله تعالى وللأمة رضا فلا تشاور فيه، وإن كنت تعلم غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة، وإنما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا)، ورفض بعضهم مبايعته مثل الحسين وعبد الله بن الزبير [٣] .

[د] وفاته :

كانت وفاة معاوية رضي الله عنه في شهر رجب سنة ٦٠ هـ [٤] .

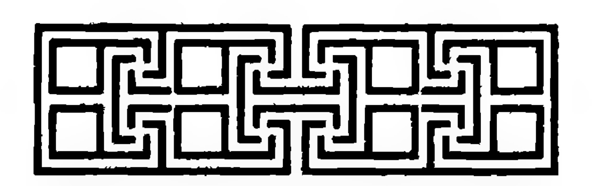

(١)الإصابة لابن حجر: ٢/ ٥٢٥، المطالب العالية: ٤/ ٣٢٨.

(٢)الكامل لابن الأثير: ٣/ ٢٥١.

(٣)تاريخ الطبري: ٥/ ٣٠٣.

(٤)البداية والنهاية: ٨/ ١٤٥.

المبحث الثالث

يزيد بن معاوية (٦٠ - ٦٤ هـ)

[أ] نبذة عنه قبل الخلافة:

هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان القرشي الأموي، وأمه ميسون بنت بحدل الكلبية (١) ولد سنة خمس أو ست أو سبع وعشرين في خلافة عثمان رضي الله عنه (٢)، كان يزيد في الجيش الذي غزا القسطنطينية سنة ٤٩ هـ، والذي كان فيه من الصحابة أبو أيوب الأنصاري وابن عباس وابن عمر وابن الزبير وغيرهم (٣)، وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: « **أول جيش يغزو مدينة قيصر مغفور لهم** » (٤). وقد أخذ أبوه البيعة له في حياته (٥)، فلما مات معاوية تولى الخلافة في رجب سنة ٦٠ هـ (٦).

ب - خلافة يزيد وما ورد فيها:

حرص يزيد على أن تتم البيعة له خاصة من النفر الذين عارضوا ذلك في حياة أبيه، فأرسل إلى واليه على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفبان بذلك، فطلب الوليد هؤلاء النفر، فأما الحسين فاستمهله حتى يبايع الناس فأمهله فخرج إلى مكة، وأما ابن الزبير رضي الله عنه فلم يجب الوليد وانطلق إلى مكة قبل الحسين، وأما ابن عمر رضي الله عنهما فقال: إذا بايع الناس بايعت وكان لا يحب الخروج على جماعة المسلمين (٧).

---

(١) السير: ٤/ ٣٥، البداية والنهاية: ٨/ ٢٢٩.
(٢) البداية والنهاية: ٨/ ٢٢٩، تهذيب التهذيب: ١١/ ٢٦٠.
(٣) البداية والنهاية: ٨/ ٤٢.
(٤) صحيح البخاري: في الجهاد باب: ٩٣.
(٥) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٠١ - ٣٠٧.
(٦) المرجع السابق: ٥/ ٢٢٢ - ٢٢٣.
(٧) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٣٩-٣٤٢.

اخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « **حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين فأما أحدهما فبثثته وأما الأخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم** »[١] .

قال ابن حجر - رحمه الله -: حمل العلماء الوعاء الذي لم يبثه على الأحاديث التي فيها تبيين أسامي أمراء السوء وأحوالهم وزمنهم، وقد كان أبو هريرة رضي الله عنه يكني عن بعضه ولا يصرح خوفاً على نفسه منهم[٢] والذي يؤكد ذلك ما رواه عن النبي ﷺ قال: « **هلاك أمتي على يد غلمة من قريش** » .

فقال مروان: لعنة الله عليهم غلمة؟ قال أبو هريرة: لو شئت أن أقول بني فلان وبني فلان لفعلت، وفي رواية: إن شئت أن أسميهم بني فلان وبني فلان[٣] . وأورد ابن حجر رواية أخرى فيها إشارة صريحة لخلافة يزيد، وهي دعاء أبي هريرة رضي الله عنه: أعوذ بالله من رأس الستين وإمارة الصبيان[٤] ، وشرح قوله إمارة الصبيان بأن يزيد كان غالباً ينتزع الشيخ من إمارة البلدان الكبار ويوليها الأصاغر من أقاربه[٥] ، قلت[٦] : لا شك أن قوله رأس الستين يقصد به يزيد، وهذا لا يعني أن بقية النص هو قوله «إمارة الصبيان» تقصده أيضاً، فقد يكون المقصود به غيره ممن جاء بعده، وقد يكون المقصود به يزيد على أنه ولي الخلافة في سن صغيرة بالنسبة لمن قبله من الخلفاء، والله أعلم، وأما ما أخرجه أبو يعلى عن عبيدة: «**لا يزال أمر أمتي قائماً حتى يثلمه رجل من بني أمية يقال له يزيد**» فهو خبر باطل لا يصح إسناده.

[جـ] طاعة أولي الأمر :

قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ**

---

(١) صحيح البخاري: في العلم باب:٤٢ .

(٢) فتح الباري:١/ ٢١٦ .

(٣) صحيح البخاري: في الفتن، باب:٣ .

(٤) فتح الباري:١/ ٢١٦ .

(٥) فتح الباري:١/ ٢٦١ .

(٦) القائل هو الشيخ عبد العزيز ولي صاحب المرجع المنقول عنه هذه المباحث.

منكم ﴾ [النساء: ٥٩] وقد أمر النبي ﷺ بطاعة ولي الأمر ولو كان حبشياً كما في الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « **اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة** » [1]، وقد نهى رسول الله ﷺ أشد النهي عن الخروج عليهم، فقال: « **خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم** ». قيل: يا رسول الله أفلا ننابذهم بالسيف عند ذلك؟، قال: « **لا ما أقاموا فيكم الصلاة، ألا من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئاً من معصية، فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعن يداً من طاعة** » [2].

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **إنها تكون بعدي أثرة** [3] **وأمور تنكرونها** »، قالوا: يا رسول الله كيف تأمر من أدرك منا ذلك؟، قال: « **تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم** » [4].

ولا شك أنه بذل لهم النصح، لأن الرسول ﷺ قال: « **إن الدين النصيحة** ». قالوا لمن يا رسول الله؟، قال: « **لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم** » [5]. ومذهب أهل السُّنَّة والجماعة أن هؤلاء يشاركون فيما يحتاج إليهم فيه من طاعة الله فنصلي خلفهم، ونجاهد الكفار معهم، ويستعان بهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود، وغلبة الأمر ليزيد وعبد الملك والمنصور فإما يقال يجب منعه من الأمر وهذا رأي مرجوح يؤدي إلى سفك

---

(١) صحيح البخاري كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية.

(٢) صحيح مسلم كتاب الإمارة، باب خيار الأئمة وشرارهم: (٣/١٤٨٢).

(٣) المراد أنكم ستجدون بعدي قوماً يفضلون أنفسهم عليكم في الفيء ونحوه جامع الأصول لابن الأثير: (٤/٦٥).

(٤) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب قوله ﷺ: « **سترون بعدي أموراً تنكرونها** ».

(٥) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة.

الدماء وإن كان الخارج دَيِّنًا ، وقال من خرج على إمام ذي سلطان إلا كان ما تولد عن فعله من الشر أعظم مما تولد من الخير، كالذين خرجوا على يزيد في المدينة، وكابن الأشعث الذي خرج على عبد الملك في العراق وغيرهم، وغاية هؤلاء إما أن يغلبوا وإما أن يُغلبوا ثم يزول ملكهم فلا يكن لهم عاقبة، فاهل الحرة مثلاً هُزموا وهزم أصحابهم فلا أقاموا ديناً ولا أبقوا دنياً، والله تعالى لا يأمر بأمر لا يحصل به صلاح الدين وصلاح الدنيا وإن كان فاعل ذلك من عباد الله المتقين ومن أهل الجنة وكان أفاضل المسلمين ينهون عن الخروج والقتال في الفتنة.

ولهذا استقر أمر أهل السُنَّة على ترك القتال في الفتنة للأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ (١) وساروا يذكرون هذا في عقائدهم ويأمرون بالصبر على جور الأئمة وترك قتالهم (٢) .

[د] موقعة كربلاء:

أرسل أهل الكوفة إلى الحسين في مكة يحثونه على القدوم إليهم لمبايعته ومناصرته، فأرسل الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب إليها يستعلم الخبر، فخرج حتى قدمها، ونزل على رجل من أهلها يقال له ابن عوسجة وبايعه من أهل الكوفة اثنا عشر ألفا ، وعزل يزيد النعمان على ولاية الكوفة وولاها عبيد الله بن زياد.

اقبل عبيد الله مع وجوه أهل البصرة، ودخل الكوفة متلثماً فمر على مجالس أهل الكوفة وكان لا يمر على مجلس فيسلم عليه إلا رد عليه أهل المجلس قائلين: وعليك السلام يا بن بنت رسول الله ﷺ ظانين بانه الحسين، حتى انتهى إلى قصر الإمارة، فأرسل مولاه ليأتيه بخبر مسلم ابن عقيل، فتحول مسلم عندما علم بقدوم ابن زياد إلى دار هانئ بن عروة المرادي ، وكان قد كتب إلى الحسين يعلمه

---

(١) **انظر** : جامع الأصول لابن الأثير: ١٠ / ٣ .

(٢) راجع شرح العقيدة الطحاوية : ٣٥٧-٣٧٠ .

بمبايعة اثنا عشر ألفاً ويأمره بالقدوم.

واستطاع مولى ابن زياد أن يعرف منزل مسلم ويعلم مولاه بذلك، فطلب عبيد الله هانئ وأمره بأن يأتيه بمسلم فرفض فحبسه عنده، فلما علم مسلم بالخبر جمع آلاف من أهل الكوفة وحاصر قصر عبيد الله، فجمع عبيد الله رؤساء العشائر في قصره وأمرهم أن يصرفوا عشائرهم الذين مع مسلم عنه، فجعل كلا منهم يكلم عشيرته حتى انفضوا عن مسلم ولم يبق منهم أحد، ولم تمض تلك الليلة حتى قبض على مسلم وقتل، وكان هانئ قد قتل أيضاً (١).

وخرج الحسين بأهله من مكة منطلقاً إلى الكوفة، ولما اقترب من الكوفة علم بمقتل مسلم فهمَّ بالعودة إلا أن إخوة مسلم وبنوه طلبوا الثأر، فسار حتى لاقتهم أوائل خيل عبيد الله، فعدل الحسين بمن معه إلى كربلاء، وأرسل عبيد الله إلى عمر بن سعد وجيشه لملاقاة الحسين ومن معه وكان قد ولاه الري، فطلب عمر بن سعد إعفاءه فأبى، فتوجه إلى الحسين فخيره الحسين بين ثلاث: أن يسمح له بالعودة إلى المدينة، أو تركه يذهب إلى يزيد فيضع يده في يده، أو أن يلحق بأحد الثغور، فقبل عمر بن سعد منه، وكتب إلى عبيد الله بذلك، ولكن عبيد الله أبى إلا أن يضع الحسين يده في يده وذلك بتحريض من شمر بن ذي الجوش، فرفض الحسين النزول على حكم ابن زياد، والتحم الفريقان في قتال غير متكافئ، وانتهى بمقتل الحسين رضي الله عنه في العاشر من المحرم (٦١ هـ)، وحمل رأسه إلى عبيد الله (٢).

إن مقتل الحسين بن عليّ رضي الله عنهما اخبر عنه نبينا ﷺ أخرج الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن يحيي عن أبيه: أنه سار مع علي رضي الله عنه وكان صاحب مطهرته فلما حاذى نينوى وهو منطلق إلى صفين فنادى علي رضي الله عنه: اصبر أبا

(١) تاريخ الطبري: ٥/٣٤٧-٣٥١.
(٢) المرجع السابق: ٥/٣٨٢-٤٧٠.

عبد الله اصبر أبا عبد الله بشط الفرات، قلت وما ذاك؟ قال: دخلت على النبي ﷺ ذات يوم وعيناه تفيضان. قلت: يا نبي الله أغضبك أحد ما شأن عيناك تفيضان؟ قال: « **بل قام من عندي جبريل قبل، فحدثني أن الحسين يقتل بشط الفرات، قال فقال: هل لك إلى أن أشمك من تربته، قال: قلت: نعم فمد يده فقبض من تراب فأعطانيها فلم أملك عيني أن فاضتا** » [١].

وقد كره كثير من الصحابة وغيرهم خروج الحسين، بل إن البعض أشار عليه بعدم الخروج، ومنهم عبد الله بن عمر وابن عباس وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهم، وقال سعيد بن المسيب رحمه الله: لو لم يخرج لكان خيراً له [٢]، ولكنه قدر الله الذي أخبر به الصادق المصدوق ﷺ.

وأما يزيد فقد ورد أنه بكى على الحسين لما علم بمقتله، وقال لما وصل الخبر إليه: لقد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين، لعن الله ابن زياد، أما والله لو أني صاحبه لعفوت، فرحم الله الحسين[٣]. وقد أكرم أهله وقرب ابنه علي بن الحسين، ولكن يؤخذ عليه عدم معاقبته لعبيد الله، وهذا لا يعني أنه شريكه في قتل الحسين، وذلك لأن قتل الحسين ذنب وترك القود من عبيد الله ذنب، ولكن ليس هذا الذنب مثل ذلك [٤].

بل إن الذين أخرجوه من مكة برسائلهم وكتبهم ثم تركوا نصرته عندما قدم عليهم وكانوا في جيش عمر بن سعد هم الذين يؤخذون بقتله، كما ثبت في الصحيح أن رجلاً سأل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن دم البعوض، فقال ممن أنت؟ قال: من أهل العراق، قال: انظروا إلى هذا يسألني عن دم البعوض، وقد قتلوا ابن النبي ﷺ سمعت النبي ﷺ يقول: « **هما ريحانتاي من الدنيا** » [٥].

---

(١) المسند: ١/٨٥، م٢/٦٤٨، وقال محققه: إسناده صحيح.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٣/٢٩٦.
(٣) تاريخ الطبري: ٢/٢٤٩.
(٤) منهاج السنة: ٢/٢٤٩.
(٥) صحيح البخاري كتاب الأدب، باب: ١٨.

ولا شك أن قتل الحسين من أعظم الذنوب ، وفاعله والراضي به مستحق العذاب، ولكن ليس قتله بأعظم من قتل أبيه، ولا قتل زوج أخته عمر، ولا قتل زوج خالته عثمان (١) .

يقول ابن تيمية - رحمه الله -: إنه لم يكن في الخروج مصلحة لا في دين ولا في دنيا، بل تمكن أولئك الظلمة الطغاة من سبط رسول الله ﷺ حتى قتلوه مظلوماً شهيداً، وإن في خروجه وقتله من الفساد ما لم يحصل ولو قعد في بلده، فإن ما قصده من تحصيل الخير ودفع الشر لم يحصل منه شيء، بل زاد الشر بخروجه وقتله ونقص الخير بذلك، وصار سبباً لشر عظيم، وإن قتل الحسين مما أوجب الفتن كما كان قتل عثمان كذلك (٢) .

وقال أيضاً: وصار الناس في قتل الحسين رضي الله عنه ثلاث أصناف: طرف يقول إنه قتل بحق، لأنه أراد أن يشق عصا المسلمين، وطرف يقول: إنه هو الإمام الواجب طاعته، أما الطرف الوسط فهم أهل السُّنَّة الذين يقولون: إنه قتل مظلوماً شهيداً ولم يكن متولياً أمر الأمة (٣) .

وأما رأس الحسين وأنه حمل إلى يزيد فصار ينكثه بقضيب في يده فغير صحيح، والرواية الثابتة في ذلك أن رأس الحسين حمل إلى عبيد الله بن زياد فجعل في طست فجعل يبكي وقال في حسنه شيئاً، فقال أنس: كان أشبههم برسول الله ﷺ وكان مخضوباً بالوسمة (٤) .

هـ - موقعة الحرة :

خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية وبايعوا ابن الزبير الذي دعا لنفسه بعد مقتل

---

(١) المنتقى: ٢٨٨. (٢) منهاج السنة: ٢ / ٢٤١.

(٣) المصدر السابق: ٢ / ٢٤٧، وانظر رسالة سؤال في يزيد بن معاوية (الفتاوى: ٤ / ٤٨١).

(٤) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب: ٢٢، **والوسمة**: نبت يُخْتَضَب به، يميل إلي السواد، (فتح الباري: ٧ / ٢٤٧).

الحسين في مكة، أعلن أهل المدينة ذلك سنة ٦٣ هـ ، وأخرجوا عامل يزيد منها وهو عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وأجلو بني أمية منها، وولوا أمرهم عبد الله بن مطيع على قريش وعبد الله بن حنظلة على الأنصار، واعتزل الناس علي بن الحسين وعبدُ الله بن عمر ولم يخلعا يزيداً، كما امتنع محمد بن الحنفية عن خلعه، ولما علم يزيد بذلك أرسل مسلم بن عقبة المري على رأس جيش كبير ليعيد المدينة إلى طاعته، وطلب منه أن يدعوهم لذلك ثلاثة أيام وإذا رفضوا العودة إلى الطاعة يقاتلهم ، وسار مسلم إلى المدينة والتقى ببني أمية الذين أخرجوا منها، وكان أهل المدينة قد أخذوا العهد منهم ألا يعينوا أحداً عليهم، فطلب مسلم منهم عند لقائه بهم أخبار المدينة فسكتوا ولم يجيبوه، وأشار عليه عبد الملك بن مروان أن يأتي المدينة من شرقها وامتثل مسلم لهذه المشورة وجاء المدينة من حرة واقم ، ودعا أهلها ثلاثاً، فلما كان اليوم الرابع خيرهم بين الطاعة وبين القتال، فاختاروا الأخرى ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، ثم انهزم أهل المدينة وقتل من الفريقين كثير من الناس (١) .

لقد أنكر بعض الصحابة والتابعين خروج أهل المدينة على يزيد، ورفض بعضهم خلعه فهذا عبد الله بن عمر ﷺ جمع ولده وحشمه ويقول: إني سمعت النبي ﷺ يقول: «**ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة**» ، وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإني لا أعلم غدراً أعظم من أن يبايع رجل على بيع الله ورسوله ثم يذهب ينصب له القتال ، وإني لا أعلم أحداً منكم خلعه ولا بايع في هذا الأمر إلا كانت الفيصل بيني وبينه (٢) .

ولم يكتف ابن عمر ﷺ بذلك بل جاء إلى عبد الله بن مطيع محذراً وحدثه بحديث النبي ﷺ : « **من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له،**

---

(١) البداية والنهاية: ٨/ ٢٢٠-٢٢٣ .

(٢) صحيح البخاري: كتاب الفتن، باب: ٢١ .

ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » [١] . وكان قد ذهب وفد من أهل المدينة إلى يزيد قبل موقعة الحرة فرحب بهم وأكرمهم، ولما رجعوا مشى عبد الله بن مطيع وأصحابه إلى محمد ابن الحنفية وطلبوا منه خلع يزيد فأبى، فقال ابن مطيع إن ابن يزيد يشرب الخمر ويترك الصلاة ويتعدى حدود الكتاب، فقال: ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرته وأقمت عنده فرأيته مواظباً على الصلاة محباً للخير يسأل عن الفقه ملازماً للسنة. قالوا: فإن ذلك كان منه تصنعاً لك، قال: وما الذي خاف مني أو رجا حتى يُظهر إليَّ الخشوع؟ أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر فلئن كان يطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه، وإن لم يطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا، قالوا: إنه عندنا الحق وإن لم نكن رأيناه ، فقال لهم: أبى الله ذلك على أهل الشهادة، فقال: ﴿ **إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [الزخرف:٨٦] ولست من أمركم في شئ قالوا: فلعلك تكره أن يتولى الأمر غيرك فنحن نوليك أمرنا، قال: ما أستحل القتال على ما تريدونني عليه تابعاً ولا متبوعاً، قالوا: فقد قاتلت مع أبيك؟ قال: جيئوني بمثل أبي أقاتل على مثل ما قاتل عليه. فقالوا فمر ابنك أبا القاسم بالقتال معنا، قال: لو أمرته قاتلت، قالوا: فقم معنا مقاماً تحض الناس فيه على القتال. قال سبحان الله آمر الناس بما لا أفعله ولا أرضاه، إذاً ما نصحت في الله عباده، قالوا: إذا نكرهك، قال: إذن آمر الناس بتقوى الله ، ولا يرضون المخلوق بسخط الخالق وخرج إلى مكة.

[و] مسألة استباحة المدينة ثلاثة أيام:

لقد ذكرت المصادر استباحة المدينة ثلاثة أيام حسب وصية يزيد لمسلم، وترتيب تلك المصادر حسب الأهمية:

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب: ١٣.

أولاً : تاريخ الطبري (ت - ٣١٠) :

والطبري في نقله للروايات يحمل القارئ مسئولية البحث فيها، والرواية التي ذكرت ذلك هي رواية أبي مخنف لوط بن يحيى، وهذا نص عبارته وهو ينقل كلام يزيد لمسلم في ذلك : (فإذا أظهرت عليهم فأبحها ثلاثاً، فما فيها من مال أو رقة - الدرهم - أو سلاح أو طعام فهو للجند، فإذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس). ثم عندما نقل الحدث قال : (وأباح مسلم المدينة يقتلون الناس ويأخذون الأموال، فأفزع ذلك من كان فيها من الصحابة) [١] . فهو إضافة إلى أنه لم يذكر أكثر مما ذكرنا في ذلك شخصية افتقدت ثقة أصحاب كتب الرجال، حيث قال عنه ابن عدي : شيعي محترف صاحب أخبارهم، وقال الذهبي : أخباري تالف لا يوثق به، فهو متهم بالتشيع مع ضعفه، وهنا يجب علينا الحذر من الروايات التي يسوقها عن الأمويين وبخاصة يزيد المكروه من قبل عامة الشيعة، أما الروايات الأخرى في الطبري فلم تذكر مسألة إباحة المدينة.

الثاني : الكامل لابن الأثير (ت - ٦٣٠):

وابن الأثير منهجه كما في مقدمة كتابه نقل اشمل الروايات وأتمها من تاريخ الطبري في فترة القرون الثلاثة الأولى، وبالتالي هو نقل رواية أبي مخنف [٢] .

الثالث : تاريخ اليعقوبي (ت - ٢٨٤):

هو معروف ميوله الشيعية وتفضيله لروايات الشيعة في كتابه.

الرابع: الإمامة والسياسة والمنسوب لابن قتيبة (ت - ٢٧٦):

ويكفي هذا الكتاب أنه لا تصح نسبته لابن قتيبة ، وهو مشحون بالجهل والركاكة والكذب والتزوير ، وهو الذي أسهب في وصف واقعة الحرة إسهاباً

---

(١) تاريخ الطبري: ٨ / ٢٣٦ .

(٢) الكامل في التاريخ: ١ / ٥ .

كبيراً ومروعاً [١] .

الخامس: الأغاني لأبي فرج الأصفهاني (ت - ٣٥٦) : [*]

وكتاب الأغاني هو كتاب سمر أكثر من كونه كتاب تاريخ، وقد تحامل فيه على من هو أجل من يزيد من الصحابة رضوان الله عليهم مثل خالد بن الوليد، ولا ننسى ميوله الشيعية إضافة إلى ميوله الفارسية [٢] .

السادس: الفخري في الآداب السلطانية لابن الطقطقي (ت - ٧٠٩):

وهو بالإضافة إلى تأخره عن الأحداث فقد كان شيعياً حيث إن سمات التشيع واضحة في كتابه ثم تأتي المصادر الأخرى التي تنقل عن هذه المصادر [٣] .

[ز] محاصرة ابن الزبير:

بعد أن انتهى مسلم بن عقبة من أهل المدينة اتجه إلى مكة للقضاء على ثورة ابن الزبير رضي الله عنهما الذي رفض البيعة ليزيد وخرج عليه بعد استشهاد الحسين رضي الله عنه ، ولكن المنية عاجلت مسلم بن عقبة قبل أن يصلها وخلفه الحصين بن نمير السكوني، فانتهى إلى مكة لأربعة بقين من المحرم سنة ٦٤ هـ ونزل بظاهرها وحاصرها حتى ربيع الأول حيث رميت الكعبة بالمنجنيق، واشتعلت فيها النار، وبقي الحصار مضروباً على مكة حتى جاء الخبر في ربيع الأول بوفاة يزيد بن معاوية، وقد وصل الخبر لابن الزبير قبل أهل جيش الشام فلم يصدقوه حين أبلغهم بذلك، فلما تيقنوا من ذلك اجتمع الحصين بابن الزبير وحثه على الانطلاق معه إلى الشام لتتم البيعة له لكنه أبى فتركه الحصين وانطلق بجيشه عائداً إلى الشام.

---

(١) العواصم من القواصم: ١٩١ .

(*) قالوا في ترجمته أنه كان فاسقًا زنديقًا يشرب الخمر ويجلس إلى القصّاصين .

(٢) انظر السيف اليماني في نحر الأصفهاني لوليد الأعظمي .

(٣) راجع إباحة المدينة وحريق الكعبة بين المصادر القديمة والحديثة للعريان .

[ح] وفاة يزيد وأقوال العلماء فيه:

كانت وفاة يزيد بن معاوية في الرابع عشر من ربيع الأول من سنة ٦٤ هـ [١]، وقد مر معنا قول محمد بن الحنفية فيه، وقال نوفل بن أبي عقرب: كنت عند عمر بن عبد العزيز فذكر رجل يزيد بن معاوية فقال: قال أمير المؤمنين يزيد، فقال عمر تقول أمير المؤمنين يزيد وأمر به فضرب عشرين سوطاً [٢].

وقال الذهبي: مقدوح في عدالته، وليس بأهل أن يروى عنه، وقال أحمد بن حنبل: لا ينبغي أن يروى عنه[٣].

وقال أيضاً: يزيد ممن لا نسبه ولا نحبه، وله نظراء من خلفاء الدولتين، وكذلك ملوك النواحي، بل فيهم من هو شر منهم، وإنما أعظم الخطب لكونه ولي بعد وفاة النبي ﷺ بسبع وأربعين سنة والعهد قريب، والصحابة موجودون كابن عمر الذي كان أولى بالأمر منه ومن أبيه وجده [٤].

وقال ابن تيمية - رحمه الله -:

افترق الناس في يزيد بن معاوية ثلاث فرق:

فالفريق الأول يقول: إنه كان كافراً منافقاً، والفريق الثاني يقول: إنه كان رجلاً صالحاً وإمام عدل، وادعى بعضهم أنه كان صحابياً، بل إن فريقاً منهم رفعه إلى مقام النبوة، أما الفريق الوسط فيقولون: إنه كان ملكاً من ملوك المسلمين له حسنات وسيئات، ولم يكن صحابياً ولم يكن كافراً، وهذا قول أهل العقل والعلم والسنة والجماعة [٥].

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٩٩.

(٢) تهذيب التهذيب ابن حجر: ١/ ٣٦١.

(٣) ميزان الاعتدال للذهبي: ٤/ ٤٤٠.

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي: ٤/ ٣٥.

(٥) الفتاوى لابن تيمية: ٤/ ٤٨١.

المبحث الرابع

الوليد بن عبد الملك

لقد ذكرت سيرة مروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان في الكتاب الأول.

[أ] نبذة عنه قبل الخلافة (٨٦-٩٦ هـ):

هو أبو العباس الوليد بن عبد الملك بن مروان القرشي الأموي، ولد سنة خمسين من الهجرة وكان مترفاً، وكان يلحن، وقرأ النحو شهوراً فلم ينفعه، وكان يكثر من قراءة القرآن (١) .

[ب] خلافته :

كان مروان بن الحكم قد أخذ البيعة لابنه عبد الملك ثم من بعده لأخيه عبد العزيز، وحاول عبد الملك في خلافته خلع أخيه عبد العزيز والبيعة لابنه الوليد، ولكنه صرف النظر عن ذلك، وقدر الله سبحانه وتعالى أن يتوفى عبد العزيز سنة ٨٥ هـ وبذلك مهدت البيعة للوليد ثم سليمان، فلما توفي عبد الملك تمت البيعة للوليد في شهر شوال سنة ٨٦ هـ (٢) .

[جـ] وفاته وبعض صفاته وأقواله :

مات الوليد بن عبد الملك في جمادى الآخرة سنة ست وتسعين وكانت مدة خلافته عشر سنين سوى أربعة أشهر (٣) . قال الذهبي: كان فيه عسف وجبروت وقيام بأمر الخلافة، وقد فرض للفقهاء والأيتام والزمنى والضعفاء وضبط الأمور، فالله يسامحه (٤) . وذكر ابن كثير أنه كان يبر حملة القرآن ويكرمهم ويقضي عنهم ديونهم (٥) .

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٤/٣٤٧-٣٤٨.
(٢) البداية والنهاية: ٩/٦٣-٦٤
(٣) سير أعلام النبلاء: ٤/٣٤٨.
(٤) البداية والنهاية: ٩/١٦٨
(٥) تاريخ الطبري: ٦/٤٩٦ .

ويؤكد هذا القول ما أورده الطبري : أن رجلاً من بني مخزوم أتاه يسأله في دينه فقال الوليد : نعم إن كنت مستحقاً لذلك، قال : يا أمير المؤمنين، وكيف لا أكون مستحقاً لذلك مع قرابتي ! قال : أقرأت القرآن؟ ، قال : لا، قال : أدن مني فدنا منه، فنزع عمامته بقضيب كان في يديه، وقرعه قرعات بالقضيب، وقال لرجل : ضم هذا إليك، فلا يفارقك حتى يقرأ القرآن، فقام إليه عثمان بن يزيد بن خالد، فقال : يا أمير المؤمنين إن علي ديّناً، فقال : أقرأت القرآن؟ ، قال : نعم فاستقرأه عشر آيات من الأنفال وعشر آيات من براءة، فقرأ، فقال : نعم، نقضي عنكم ونصل أرحامكم على هذا. وكان الوليد يقول لولا أن الله ذكر قوم لوط في القرآن ما ظننت ذكراً يفعل هذا بذكر [١] .

قال ابن كثير- رحمه الله - :

فنفى عن نفسه هذه الخصلة القبيحة الشنيعة والفاحشة المذمومة ، التي عذب الله أهلها بأنواع العقوبات وأحل بهم أنواعاً من المُثلات، التي لم يعاقب بها أحداً من الأمم السالفة وهي فاحشة اللواط التي قد ابتلي بها غالب الملوك والأمراء والتجار والعوام والكتّاب .. إلا من عصم الله منهم [٢] .

وفي خلافته فتحت السِند والأندلس وعادت سيرة الفتوحات التي كانت في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

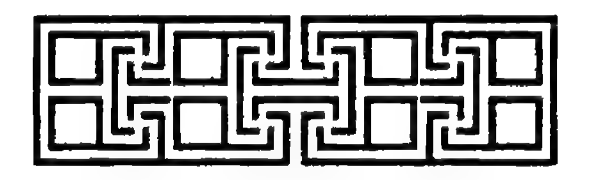

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) البداية والنهاية : ٩/ ١٦٩ .

المبحث الخامس

سليمان بن عبد الملك

[أ] نسبه:

هو سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية الخليفة أبو أيوب القرشي الأموى بويع له بعد أخيه الوليد سنة ستة وتسعين. كان ديناً فصيحاً عادلاً محباً للغزو يقال: نشأ بالبادية، وأمه وأم الوليد هي ولادة بنت العباس بن حزن العبسية.

جهز جيوشاً مع أخيه مسلمة براً وبحراً لمنازلة القسطنطينية، فحاصرها مدة حتى صالحوا على بناء مسجدها، وكان يستعين في أمر الرعية بعمر بن عبد العزيز، وعزل عمال الحجاج، وكتب: (إن الصلاة كانت قد أُميتت ، فأحيوها بوقتها، وهم بالإقامة ببيت المقدس، ثم نزل قنسرين [١] للرباط، وحج في خلافته).

[ب] بكاؤه في حجته :

رأى بالموسم الخلق، فقال لعمر بن عبد العزيز، أما ترى هذا الخلق الذي لا يحصيهم إلا الله، ولا يسع رزقهم غيره !؟ قال: يا أمير المؤمنين هؤلاء اليوم رعيتك وهم غداً خصماؤك فبكى وقال: بالله أستعين [٢] .

[جـ] توليته لعمر بن عبد العزيز:

ومن حسنات سليمان بن عبد الملك قبوله لنصيحة الفقيه العالم رجاء بن حيوة الكندي الذي اقترح على سليمان في مرض موته أن يولي عمر بن عبد

---

(١) بلدة بالشام بين حلب وأنطاكية، فتحها المسلمون سنة ١٧ هـ ، بقيادة أبي عبيدة بن الجراح.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٥ / ١١٢ .

العزيز، وكانت وصية لم يكن للشيطان فيها نصيب .

وقال ابن سيرين- رحمه الله - :

يرحم الله سليمان افتتح خلافته بإحياء الصلاة ، واختتمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز ، وكانت سنة وفاته سنة تسع وتسعين ، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز، وكان منقوشٌ في خاتمة : أومن بالله مخلصاً [١] .

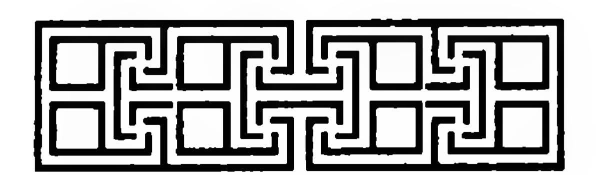

(١) سير أعلام النبلاء : ٥/١١١-١١٢ .

المبحث السادس

عمر بن عبد العزيز

(الخليفة الزاهد: ٩٩-١٠١هـ)

[أ] نبذة عنه قبل الخلافة :

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم القرشي الأموي، وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، وجدته من بني هلال، وقصتها مشهورة في امتناعها عن خلط الماء باللبن خوفاً من الله عز وجل واستجابة لنداء عمر بن الخطاب ﵁.

ولد عمر بن عبد العزيز سنة ٦١ هـ وقيل ٦٣ هـ، وعاش في المدينة يتزود بالعلم من علمائها، فعاش في نعمة أعمامه وحنان أخواله، فجمع بين خصال العلم والدين إلى جانب الترف والثراء، ثم ارتحل إلى مصر بجانب أبيه الذي كان والياً عليها، ولما بلغ سن الشباب تاقت نفس عمه عبد الملك إلى مصاهرته فزوجه ابنته فاطمة.

ولأه عبد الملك على المدينة فجمع فقهاءها وأخبرهم أنه لن يقطع بأمر إلا بعد مشورتهم وطلب العون منهم فكانوا خير عون له، ثم عزله الوليد عن ولاية المدينة فانطلق إلى الشام واستقر في دمشق يشير على الوليد وينصحه، ولما تولى سليمان الخلافة قرب إليه عمر بن عبد العزيز وكان ألين عريكة وأسمع للنصح من الوليد فكان يأخذ في كثير من الأمور بمشورة عمر ويسرع في إرضائه إذا أغضبه [١] .

[ب] خلافته وأسباب الإشادة بها:

بويع له بالخلافة بعهد من سليمان ابن عبد الملك ، في شهر صفر من سنة

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٥ / ١١٤، البداية والنهاية: ٩ / ٢٠٠

٩٩ هـ [١] وعد من الخلفاء الراشدين [٢]، رغم قصر خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، إلا أننا نلاحظ الإشادة بها في المصادر القديمة والمراجع الحديثة، ومن أصحاب النحل المختلفة إلا الحاقدين على الإسلام وأهله، فما سبب ذلك، مع أنه يمر بنا في دراسة التاريخ الإسلامي عدة خلفاء كان لهم أعمال جليلة، ومع ذلك لم يكن لهم ذكر وإشادة من مختلف الناس مثل عمر بن عبد العزيز.

يتلخص ذلك في الأسباب التالية :

[١] الانقلاب الشخصي :

عاش عمر بن عبد العزيز قبل توليه الخلافة ثرياً مترفاً، تلمس ذلك في ثيابه حيث تفوح منها رائحة عطرة عبر الطرقات، ومشيته التي اشتهرت باسمه، والتي كان الجواري يتعلمنها من حسنها وتبختره فيها، كما عرف عنه الظرف والأناقة في الملبس والمظهر، وكانت الحلة تشترى له بألف دينار فيستخشنها، وكان يرى العنبر في لحيته كالملح، كان أحسن الناس لباساً وأطيبهم ريحاً، وقد بلغت غلته في السنة أربعين ألف دينار، ولكنه إثر توليه الخلافة ينقلب انقلاباً مذهلاً، فبعد أن يلقي خطبته الأولى يجد مراكب الخلفاء الفخمة قد أعدت له فيشيح بوجهه عنها ويطلب بغلته ليركبها، ويأمر بتلك المراكب والفرش فتباع ويضم ثمنها إلى بيت المال، لقد تغيرت حاله ساعة تحمله للمسئولية فكأنه لا يتصل بماضيه، وذكرياته وآبائه وأهله بصلة، ولا يعرف غير جده عمر بن الخطاب رضي الله عنه أسوة له.

أصبح لا يملك إلا قميصاً واحداً لا يتعدى ثمنه بضعة دراهم يغسله يوم الجمعة ويتأخر لذلك عن المسلمين المنتظرين لسماع خطبته، ويخرج إليهم وقميصه لم يجف حرصاً على أداء الصلاة في وقتها، وهو الذي أمر المؤمنين أن

---

(١) البداية والنهاية: ٩ / ١٩٢.

(٢) سير أعلام النبلاء : ٥ / ١١٤. « هو سادس الخلفاء الراشدين لقول النبي ﷺ : « **الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً** » [رواه أحمد والترمذي وأبو داود بسند صحيح عن سفينة مولى رسول الله ﷺ] . فكان الحسن بن عليّ رضي الله عنهما هو خامس الخلفاء الراشدين .

يخبروه إذا حان وقتها حتى لا تشغله أمور الخلافة عن وقتها، وقد كان قبل توليه الخلافة يتأخر عنها أحياناً لأن مرجلته لم تنته من تمشيط شعره، وأصبح يأكل من الطعام الخشن الذي يتكون من الخبز والزيت ويتوق للحج ولكنه لا يجد المال الكافي لأدائه، ويتورع عن شم مسك الفيء، ويقول عن مشيته العمرية، والله ما رأيتها كانت إلا جنوناً، باختصار شديد نقول: تجرد من الدنيا بعد أن أقبلت صاغرة إليه [١] .

لذلك لا تعجب أبداً إذا رأينا في خلافته انقلاباً كبيراً في شئون الدولة وعودة إلى سيرة الخلفاء الراشدين فشخص استطاع أن يغير أحوال نفسه كل هذا التغيير سهل عليه أن يغير كل ما حوله ليوافق المنهج الذي التزم به.

[٢] عمله على إحقاق الحق ونشر العدل:

قال تعالى : ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا** ﴾ [المائدة :٤٨] .

وقال عز وجل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ [المائدة:٨] .

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [الشورى:٤٢] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « **سبعة يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله، الإمام العادل** .. » الحديث [٢] .

---

(١) عماد الدين خليل: ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز: ٢٥-٤٠، استفدت منه في سيرة عمر بن عبد العزيز.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأذان، باب: ٣٩.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن النبي ﷺ بعث معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن فقال: « **اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب** .. » الحديث [١] .

فالآيات والأحاديث السابقة أشارت إلى أهمية الحق والعدل، وحذرت أشد التحذير من الظلم، والمتتبع للتاريخ يجد أن كل دولة لم تقم على هذين المبدأين لا يكون لها ذكر حسن مهما قدمت من إنجازات، كما أن الدولة إذا انتشر فيها الظلم بشكل عام لا تعيش طويلاً ، كان عمر بن عبد العزيز حريصاً على هذين المبدأين في كل أعماله، فهو يرد المظالم إلى أهلها، فيبدأ بنفسه وأهل بيته فيقطع السجلات التي تخوله وأهل بيته امتلاك أرض جاءتهم بغير وجه حق، ويفتح بابه لكل طارق في مظلمة، بل إنه يطلب من كل من يصاحبه ويجالسه أن يوصل إليه حاجة من لا تصل إليه حاجته ويرشده إلى العدل عوناً له على الحق ويؤدي الأمانة إليه، وإلى الناس ولا يغتب أحد عنده وإلا فلا يصاحبه ويعزل الولاة الظلمة وكل من غمس يده في الدماء بغير حق، هذا وغيره من الأعمال كان لإحقاق الحق ونشر العدل بين الناس، ومن هنا كانت نظرة الناس إلى خلافته بعين الإكبار والإجلال رغم قصرها، ولعل هناك أسباباً أخرى ولكن هذين السببين في نظري من أهمها.

[جـ] أخلاقه :

تجمعت في عمر بن عبد العزيز صفات قل أن تجتمع في شخص أوتي السلطان، ونورد هنا بعض المواقف التي تمثل أخلاق عمر رحمه الله، حيث إن هذه المواقف تمثل أهمية خاصة لكل من أصبح راعياً لمجموعة من الناس.

■ كان عمر يعجبه أن يتأدم بالعسل، فطلب من أهله يوماً عسلاً ولم يكن عندهم شيء منه، ثم جاءوا به فأكل منه فأعجبه، ثم سأل امرأته من أين لك

---

(١) المصدر السابق: كتاب المظالم، باب: ٩.

هذا؟ فأخبرته امرأته أنها بعثت مولاها بدينارين على دواب البريد فجاء به، فطلب إحضار إناء العسل فأخذه وباعه ورد على أهله رأس المال وألقى بقيته في بيت مال المسلمين، وقال: نصبت دواب المسلمين في شهوة عمر (١) .

■ اشتهى يوماً تفاحاً فقام رجل من أهل بيته فأهدى له منه، فلما جاء به الرسول قال: ما أطيب ريحه وأحسنه، ارفعه يا غلام فأقرئ فلاناً مني السلام وقل له: إن هديتك قد وقعت منا بموقع بحيث تحب، فقال له أحدهم: يا أمير المؤمنين ابن عمك ورجل من أهل بيتك وقد بلغك أن النبي ﷺ كان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة؟ قال: ويحك الهدية للنبي ﷺ هدية وهي اليوم لنا رشوة (٢) .

■ قال رجاء بن حيوة سمرت مع عمر ذات ليلة فغشي السراج فقال لي: ما ترى السراج قد غشي؟ قلت: بلى وإلى جانبه ضيف راقد، قلت: أفلا أنبهه؟ قال: لا دعه يرقد. قلت: أفلا أقوم أنا؟ ، قال: لا ليس من مروءة الرجل استخدام ضيفه، وقام إلى بطاقة زيت فأخذها فأصلح السراج ثم ردها في موضعها ثم رجع، وقال: قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز(٣) .

■ خرج عمر في ليلة ومعه حرسه فدخل المسجد ، فمر في الظلمة برجل نائم فعثر به ، فرفع الرجل رأسه إليه وقال: أمجنون أنت؟ ، قال: لا ، فَهَمَّ به الحرس، فقال عمر: مه إنما سألني أمجنون أنت؟ ، فقلت له لا (٤) .

■ وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله زاهداً ورعاً حليماً متواضعاً ، وكان كثير البكاء خوفا من الله ، وكان يقوم الليل ولا يمر عليه يوم إلا نظر في المصحف فرضي الله عنه وأرضاه.

---

(١) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي: ٢١٠.
(٢) المرجع السابق: ٢١١.
(٣) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز: ٢٢٦.
(٤) المرجع السابق: ٢٣٢.

[د] وفاته وأقوال العلماء فيه:

كانت وفاة عمر بن عبد العزيز رحمه الله بخناصرة من دير سمعان بين حماة وحلب، لخمس بقين من رجب من سنة ١٠١ هـ وقد كانت خلافته سنتين وخمسة أشهر، وقيل في سبب وفاته السل، وقيل: إن أمراء بني أمية دسوا له السم، والله أعلم أي ذلك كان (١) .

قال الذهبي - رحمه الله - : كان هذا الرجل حسن الخَلْق والخُلُق كاملَ العقل، حسن السمت جيد السياسة، حريصاً على العدل بكل ممكن، وافر العلم، فقيه النفس ظاهر الذكاء، والفهم أواهاً منيباً قانتاً لله حنيفاً، زاهداً مع الخلافة، ناطقاً بالحق مع قلة المعين وكثرة الأمراء الظلمة الذين ملوه وكرهوا محاققته لهم، ونقصه أعطياتهم، وأخذه كثيراً مما في أيديهم مما أخذوه بغير حق، فما زالوا به حتى سقوه السم، فحصلت له الشهادة والسعادة، وعد عند أهل العلم من الخلفاء الراشدين، والعلماء العاملين (٢) .

[هـ] دور عمر بن عبد العزيز في تعليم قبائل الشمال الإفريقي:

ومن حسنات عمر بن عبد العزيز العظيمة، إرساله للفقهاء العشرة إلى الشمال الإفريقي لتعليم أهلها دينهم، وإليك تراجم التابعين العشرة لتترحم عليهم وتدعوا لهم بالمغفرة والرحمة والرضوان على ما قدموه لأجدادنا من فقه وعلم وتزكية.

وقد بدأت بركات عهد عمر بن عبد العزيز على الشمال الإفريقي بتعيين أمير صالح عليها هو :

[١] إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر:

ولاه عمر بن عبد العزيز على إفريقية سنة (٩٩- ١٠١هـ)، فكان خير أمير، قال ابن خلدون :وأسلم جميع البربر في أيامه،وأرسل معه عشرة من فقهاء

(١) البداية والنهاية: ٩/ ٢٠٠، ٢١٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء: ٥/ ١٢٠ .

التابعين وعلمائهم يفقهون الناس في أمور الدين ويبينون لهم الحلال والحرام[١].

وكان هذا الأمير في غاية الزهد والتواضع حريصاً على نشر العلم وسار في أهل البلاد بسيرة العدل، وكان شديد الحفظ لحديث الرسول ﷺ فقد روى عنه ابن عساكر أنه قال: ينبغي لنا أن نحفظ حديث رسول الله ﷺ كما نحفظ القرآن.

أخرج له البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وأحمد وغيرهم. ومكث في القيروان معلماً للناس، ناشراً للسنة، لمدة ثلاث وثلاثين سنة حيث توفي بها سنة ١٣١ هـ.

[٢] بكر بن سوادة الجذامي، أبو ثمامة (ت ١٢٨ هـ بإفريقية):

أقام في الشمال الإفريقي أكثر من ثلاثين سنة، محدثاً، ومفتياً، وفقيهاً، وقد انتفع به أهلها، ورووا عنه، أدخل إلى القيروان حديث عدد من الصحابة، منهم: عقبة بن عامر، وسهل بن سعد الساعدي، وسفيان بن وهب الخولاني، كما روى عن جماعة من التابعين منهم: سعيد بن المسيب، وابن شهاب الزهري، وقد قارب شيوخه الأربعين. روى عنه كثير من أهل القيروان منهم عبد الرحمن بن زياد، وأبو زرعة الإفريقي. وكان ثقة في حديثه، أخرج له مسلم والأربعة، والبخاري تعليقاً، وأحمد، والطبراني وغيرهم، وعداده في المصريين رغم طول مكثه بالقيروان ووفاته بها.

[٣] جُعثُل بن عاهان الرُّعيني القتباني، أبو سعيد، (ت حوالي ١١٥ هـ):

عده أبو العرب وابن حجر وغيرهما في التابعين، ولم يذكروا عمن روى من الصحابة، وكان محدثاً، فقيهاً، مقرئاً، تولى قضاء الجند بالقيروان، وبث فيها علماً كثيراً لمدة زادت عن خمسة عشر عاماً، وروى عنه من أهل القيروان عبيد الله بن زحر، وعبد الرحمن بن زياد، وبكر بن سوادة وهو زميله في البعثة العلمية.

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا: ١٤٨.

وثقه أكثر النقاد، وأخرج له الأربعة وأحمد وغيرهم: توفي في خلافة هشام ابن عبد الملك سنة ١١٥ هـ.

[٤] حبان بن جبلة القرشي: مولاهم، ودَفْعُ الوهم بأن عمر ﷺ أرسله لتفقيه أهل مصر (ت ١٢٥ وقيل ١٢٢ بالقيروان):

أدخل في الشمال الإفريقي حديث جملة من الصحابة منهم: ابن عباس، وابن عمر، وعبد الله بن عمرو، ووالده عمرو، وبقي يبث العلم في عاصمة الشمال الإفريقي في مدينة القيروان أكثر من خمس وعشرين سنة، انتفع به أهلها، وروى عنه كثيراً منهم، كعبد الرحمن ابن زياد، وعبيد الله بن زحر، وموسى بن علي بن رباح وغيرهم، وهو عند النقاد ثقة في حديثه، أخرج له البخاري في الأدب المفرد، وابن سنجر في مسنده والحاكم في المستدرك وغيرهم.

[٥] سعد بن مسعود التجيبي: أبو مسعود (ت بالقيروان)، ودفع الوهم بعده في الصحابة:

يروي عن جماعة من الصحابة، منهم: أبو الدرداء ويروي عن النبي ﷺ مرسلاً حتى وهم بعضهم فعدّه في الصحابة، ولذلك نبهت معظم المصادر على أنه لا صحبة له، وقد سكن القيروان وبث في الشمال الإفريقي علماً كثيراً، وكانت مجالسه مليئة بالحكم والمواعظ البليغة، وكان شديداً على الأمراء.

روى عنه من أهل القيروان: مسلم بن يسار الإفريقي، وعبيد الله بن زحر، وعبد الرحمن بن زياد الإفريقي، في جامع ابن وهب وغيره، وذكر الدباغ أنه توفي بالقيروان بعد أن بث فيها علماً كثيراً، ولم يذكر تاريخ وفاته.

[٦] طلق بن جعبان الفارسي:

وقيل: جابان، والصواب الأول كما في الإكمال، تابعي، لقي ابن عمر وسأله، وأكثر روايته عن التابعين، كان فقيهاً عالماً، روى عنه من أهل القيروان: موسى بن علي، وابن أنعم، ولم يذكروا مدة إقامته بها ولا تاريخ وفاته.

[٧] عبد الرحمن بن رافع التنوخي، أبو الجهم (ت بالقيروان سنة ١١٣ هـ):

دخل القيروان في وقت مبكر، سنة ٨٠ هـ ، وهو أجل قضاتها، وذلك على عهد حسان بن النعمان واستمر يبث فيها العلم ما يقارب ثلاثاً وثلاثين سنة، حتى انتفع به خلق كثير من أهلها.

وقد أدخل إلى القيروان حديث جماعة من الصحابة عرفنا منهم: عبد الله بن عمرو بن العاص. وحدث عنه من القرويين: عبد الرحمن ابن زياد الإفريقي، وعبيد الله بن زحر الكناني، وبكر بن سوادة الجذامي، وغيرهم.

أخرج له البخاري في الأدب المفرد وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه في سننهم، والفسوي في المعرفة والتاريخ، وغيرهم.

وقد ضعف النقاد حديثه، قال البخاري في التاريخ الكبير: (في حديثه مناكير). وقال ابن حبان في الثقات: (لا يحتج بخبره إذا كان من رواية ابن أنعم، وإنما وقع المناكير في حديثه من أجله). وقال في مشاهير علماء الأمصار: (من ثقات المصريين وإنما وقعت المناكير في روايته من جهة الإفريقي لا من جهته) وهو أول من ولي قضاء القيروان وتوفي بها سنة ١١٣ هـ .

[٨] عبد الله بن المغيرة بن أبي بُردة الكناني، (ت بعد سنة ١٢٣):

كان مقيماً في القيروان قبل زمن بعثة عمر بن عبد العزيز بمدة طويلة، وكان معروفاً لدى أهلها مشهوراً بينهم بالعدالة والتقى، وقد ولاه عمر بن عبد العزيز قضاء القيروان سنة ٩٩ هـ ، لما علمه من فضله ودينه وعلمه، فاستمر في منصبه إلى أن استقال منه سنة ١٢٣ هـ ، وكان زاهداً ورعاً عالماً، سار في أهل القيروان بالكتاب والسُّنَّة ونشر العلم بينهم لمدة طويلة زادت عن خمس وعشرين سنة ذكره ابن حبان في الثقات وأثنى عليه المصنفون بالفضل والدين والعلم.

[٩] عبد الله بن يزيد المعافري الحبلي، أبو عبد الرحمن (ت ..١ هـ بالقيروان على الصحيح):

دخل القيروان في زمن مبكر،ولعل ذلك كان مع موسى بن نصير سنة ٨٦ هـ

لأنه شهد فتح الأندلس، ثم عاد إلى القيروان، فسكنها وبنى بها داراً ومسجداً، ثم عين ضمن أفراد البعثة العلمية إلا أن وفاته كانت سنة ١٠٠ هـ، أي بعد سنة واحدة من التكليف الرسمي، ومع ذلك فقد قال عنه المالكي: (فانتفع به أهل إفريقية، وبث فيها علماً كثيراً).

أدخل إلى القيروان حديث جماعة من الصحابة ممن لم يدخلها: وزاد في إفشاء حديث من دخلها منهم، حدث عن ابن عمر، وعقبة ابن عامر، وابن عمرو، وأبو ذر، وروى عنه من أهلها عبد الرحمن بن زياد، وأبو كريب جميل بن كريب القاضي (ت ١٣٩)، وغيرهما.

وكان رجلاً صالحاً ورعاً شديد الإقبال على نشر السُّنَّة، وكان تأثيره في الحياة العلمية - خاصة الجانب الحديثي منها - بالقيروان كبيراً، وقد بنى فيها مسجداً لمجالسه العلمية.

أجمع النقاد على توثيقه، وحديثه عند مسلم، والأربعة، وابن وهب في جامعه، وأحمد وغيرهم.

[١٠] وهب بن حي المعافري:

وقد ذكر ابن أبي حاتم أن هناك من قلبه إلى: حي بن موهب وأن أبا زرعة قد صحح ذلك، غزا إفريقية قديماً، لأنه سأل ابن عباس المتوفى سنة ٦٨ هـ، عن آنية أهل المغرب كما في الرياض والمعالم، وهو من أفراد بعثة عمر، وقد سكن القيروان، وبث فيها علماً كثيراً، وبها كانت وفاته، وقد أدخل إلى القيروان حديث ابن عباس وغيره، وروى عن النبي ﷺ مرسلاً، وروى عنه من أهل القيروان عبد الرحمن بن زياد الإفريقي. ولم تظهر المصادر حاله من حيث التعديل والجرح [١].

هؤلاء الفقهاء العشرة من خيرة فقهاء التابعين أرسلهم عمر بن عبد العزيز إلى

---

(١) راجع هذه التراجم في الكتاب القيم، مدرسة الحديث بالقيروان: ٢ / ١٤ إلى ٥٢٢

الشمال الإفريقي ليفقهوا ويعلموا الناس دينهم فكانوا عند ظنه بهم وكانوا للناس قدوة صالحة. وقد سبق هؤلاء العشرة كثير من التابعين الذين قاموا بتعليم أهل البلاد أحكام الدين علماً وعملاً.

وكان لهؤلاء العشرة آثار هامة في الفقه والحديث وفي نشر السُنَّة العملية والاعتقادية الصحيحة، وساعدوا ولاة أمور المسلمين على مقاومة النحل الخارجية وتركيز أحكام الإسلام بين البربر، فقد روى المالكي أنه لما ثارت الخوارج على حنظلة بن صفوان بطنجة سنة ١٢٢هـ جمع حنظلة علماء إفريقية وهم الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية ليفقهوا أهلها فكتبوا هذه الرسالة ليقتدي بها المسلمون ويعتقدوا ما فيها: (.. فإن أهل العلم بالله وبكتابه وسُنَّة نبيه ﷺ يعلمون أنه يرجع جميع ما أنزل الله عز وجل إلى عشر آيات: آمرة وزاجرة ومبشرة، ومنذرة، ومخبرة، ومحكمة، ومتشابهة، وحلال وحرام وأمثال، فآمرة بالمعروف، وزاجرة عن المنكر، ومبشرة بالجنة، ومنذرة بالنار ومخبرة بخبر الأولين والآخرين، ومحكمة يعمل بها، ومتشابهة يؤمن بها، وحلال أمر أن يؤتى، وحرام أمر أن يُجْتَنب، وأمثال واعظة، فمن يطع الآمرة وتزجره الزاجرة فقد استبشر بالمبشرة وأنذرته المنذرة، ومن يحلل الحلال، ويحرم الحرام، ويرد العلم فيما اختلف فيه الناس إلى الله، مع طاعة واضحة ونية صالحة، فقد فاز وأفلح وأنجح وحيي حياة الدنيا والآخرة والسلام) (١).

إن هذه الرسالة تعتبر وثيقة عظيمة الأهمية إذ تدل على أصالة علم هذه البعثة العلمية، ووضوح أهدافهم الشرعية أمامها حتى أنهم أوجزوا فحوى الرسالة المحمدية - على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم - في عدة سطور موجزة. ونظراً لعظيم فائدتها عممت على أن تقرأ على منابر المساجد في جميع ضواحي إفريقية.

---

(١) انظر: رياض النفوس للمالكي: ١/ ١٠٢، ١٠٣.

الفصل الثاني

عصر الولاة (٩٦-١٨٤هـ)

المبحث الأول

نبذة تاريخية عامة عن الحالة في عصر الولاة(*)

يطلق عصر الولاة على تلك الحقبة الزمنية الواقعة بين انتهاء زمن الفتح وقيام دولة الأغالبة، وفي هذه الفترة كان حكَّام الشمال الإفريقي يُعيَّنون من قبل الخليفة، ويمتد نفوذهم إلى المغرب والأندلس إلى أن استقل بالأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك سنة ١٣٧ هـ .

لقد امتازت بداية هذا العصر بوئام عجيب بين الفاتحين وإخوانهم البربر المسلمين الذين أقبلوا في شغف على تعلم الدين الجديد، وانضموا إلى الجيش الإسلامي، وحدثت بينهم المصاهرات، وكثر بناء المساجد والكتاتيب في سائر البلاد الإفريقية، وأخذ أهل مدنها يقلدون العاصمة الإسلامية حتى في طرازها المعماري، وانتشرت الثقافة الإسلامية بين البربر، ولا غرابة في كل هذا فإن أول الولاة وهو محمد بن يزيد القرشي (٩٦–٩٩ هـ) قد استقر في إفريقية بأحسن سيرة وأعدلها، وكان يقسم ما يقبضه من غنائم على المسلمين من البربر والعرب على السواء.

وبذلك نَعِمَ البربرُ بعدالة الإسلام فكان لهذا التصرف أبعد الأثر في نفوسهم، وتدعمت هذه السيرة الحسنة بقدوم إسماعيل بن أبي المهاجر (٩٩–١٠١ هـ) والياً من قبل الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، فسار سيرة من أرسله (خير وال

(*) هذا المبحث أخذته من كتاب مدرسة الحديث في القيروان.

وخير أمير، وما زال حريصاً على دعاء البربر إلى الإسلام فأسلم بقية البربر على يديه)، وكان إذا عاد من الغزو افترش ذراعه فنام عليه وكان زاهداً متواضعاً من كبار العباد، فأقبل عليه البربر المسلمون يسمعون منه حديث رسول الله ﷺ، وقد كان في روايته من الثقات، أخرج له الجماعة إلا الترمذي.

ونظراً لاهتمام عمر بن عبد العزيز بتدوين السُنَّة وحرصه على نشرها فقد أرسل واليه ابن أبي المهاجر ضمن عشرة من التابعين، من ثقات رواة الحديث، لتفقيه أهل القيروان ونشر السُنَّة في ربوع إفريقية، وكانوا أهل علم وفضل اختط كل منهم داراً بالقيروان، وبنى مسجداً وكتّاباً لتعليم البربر وأبنائهم اللغة العربية ومبادئ الإسلام، وقد وصف كل منهم بأنه: (انتفع به أهل إفريقية وبث فيها علماً كثيراً).

ولا شك أن المقصود بالعلم هنا علم الرواية المتعلق بالكتاب والسُنَّة بصفة عامة، سواء من ناحية أدائها إلى طلابها بالإسماع والإقراء وغيرها، أو من ناحية تبليغ أحكامها المتعلقة بالعقيدة والعبادات والمعاملات والأخلاق، إذ أن المذاهب الفقهية المحددة بالأئمة الأربعة وغيرهم لم تكن قد ظهرت بعد، وقد استقر هؤلاء التابعون بالقيروان حتى عُدُّوا من أهلها، فقد اعتبرهم المالكي الطبقة الأولى من علماء القيروان، ومنهم من زادت إقامته بها على ثلاثين عاماً، وهم في كل ذلك لا يفترون عن القيام بمهمة نشر العلم بإفريقية.

إلا أن هذا التوجه لم يدم طويلاً بسبب فساد سياسة الولاة التالين ، فما أن توفي عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١هـ حتى سارع يزيد بن عبد الملك بعزل إسماعيل بن أبي المهاجر وتولية يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج وصاحب شرطته، وكان ظلوماً غشوماً أساء السيرة في البربر، وأراد وسم حرسه في أيديهم - وكان أكثرهم من مسلمي البربر - كما تفعل ملوك النصارى، ووضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة، متبعاً سيرة الحجاج في أهل العراق، فنقم عليه

البربر، واتفق حرسه على قتله، وقالوا: جعلنا بمنزلة النصارى، فلم يلبث أن قتلوه وتولى بعده بشر بن صفوان الكلبي (١٠٣-١٠٩ هـ) ثم عبيدة بن عبد الرحمن السلمي (١١٠-١١٤ هـ) فكان همهما الغزو، ولم يؤثر عنهما اهتمام بالعلم، إلا أن الثاني ظلم البربر وتعسف في معاملتهم فحنقوا عليه.

ثم قدمها عبيد الله بن الحبحاب سنة (١١٦ هـ) من قبل هشام بن عبد الملك فأتم بناء جامع الزيتونة، ودار الصناعة بتونس، وغزا صقلية وجنوب الصحراء إلا أنه استجاب لمطامع رؤسائه بالمشرق فإنهم كانوا يستحبون طرائف المغرب، ويبعثون فيها إلى عمال إفريقية.

واشتد استياء البربر المسلمين من هذه الأفعال القبيحة، ورأوا التناقض الصارخ بين تعاليم الإسلام وبين سلوك هؤلاء العمال، وأصبحت عندهم قابلية للتمرد في الوقت الذي فشت فيه النزعة الخارجية في إفريقية والمغرب، ونادى أصحابها بشعارات خارجية، ظاهرها فيه بعض الحق وباطنها ينطوي على شر عظيم، كالمساواة بين المسلمين ووجوب الخروج على الحكام الظلمة وغيرها، فصادف ذلك هوى في نفوس البربر، وتحمس كثير منهم لما نادى به دعاة الخوارج، إلا أنهم لم يعلنوا التمرد والعصيان إلا بعد أن يئسوا من إمكانية تبليغ صوتهم بالشكوى إلى الخليفة، ذلك ما ذكره الطبري حيث قال: فما زالوا - بربر إفريقية - من أسمع أهل البلدان وأطوعهم إلى زمان هشام ابن عبد الملك... فلما دب إليهم دعاة العراق واستشاروهم شقوا عصاهم، وفرقوا بينهم إلى اليوم.

وكان من سبب تفريقهم: أنهم ردوا على أهل الأهواء فقالوا: إنا لا نخالف الأئمة، بما تجني العمال، ولا نحمل ذلك عليهم، فقالوا لهم: إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك. فقالوا لهم: لا نقبل ذلك حتى نبورهم -،أي نختبرهم - فخرج ميسرة المظفري زعيم الصفرية في بضعة عشر إنساناً حتى قدم على هشام، فطلبوا الإذن، فصعب عليهم، فأتوا الأبرش - وزير هشام بن عبد الملك - فقالوا: أبلغ

أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده فإذا أصاب نفلهم دوننا. وقال تقدموا وأخّر جنده. فقلنا: تقدموا فإنه ازدياد في الأجر ومثلكم كفى إخوانه .. ثم إنهم عمدوا إلى ماشيتنا فجعلوا يبقرونها على السخال يطلبون الفراء الأبيض لأمير المؤمنين فاحتملنا ذلك، ثم إنهم ساومونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا فقلنا: لم نجد هذا في كتاب ولا سُنَّة ونحن مسلمون، فأحببنا أن نعلم عن رأي أمير المؤمنين ذلك أم لا؟ قال: نفعل. فلما طال عليهم ونفذت نفقاتهم ... كان وجههم إلى إفريقية فخرجوا على والي هشام فقتلوه واستولوا على إفريقية.

وهكذا اندلعت بإفريقية، والمغربّ ثورات لا نهاية لها، ابتدأت سنة ١٢٢ هـ وهي أول ثورة في إفريقية في الإسلام، وتضافرت جهود الإباضية والصفرية للإطاحة بحكومة القيروان، وأصبح هَمّ الخليفة في المشرق القضاء على هذه الثورات فكان يرسل الجيش تلو الآخر، وقد ذكروا أن هذه الحروب منذ أن استعرت إلى أن تم القضاء عليها، في عهد يزيد بن حاتم سنة ١٥٦ هـ بلغت ٣٧٥ موقعة ذهب ضحيتها آلاف القتلى، وقد شارك فيها العلماء مقاتلين وواعظين، فقد استنجد حنظلة بن صفوان بمن تبقى من بعثة عمر بن عبد العزيز لما ثارت عليه الخوارج، وقد دامت هذه الحروب أكثر من ثلاثين سنة تمكن الخوارج خلالها من الاستيلاء على القيروان مرتين، حيث استولى عليها الصفرية سنة ١٤٠ هـ لمدة سنة وشهرين، وقد ربطوا دوابهم في المسجد الجامع وقتلوا كل من كان فيها من قريش وعذبوا أهلها .. ثم وليها بعدهم الإباضية لمدة سنتين [١].

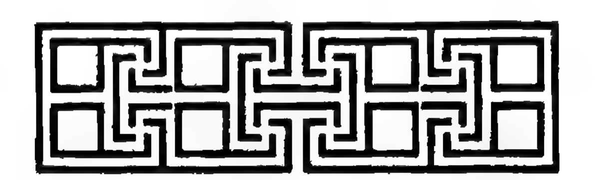

(١) مدرسة الحديث في القيروان: ١/ ٥٦ إلى ٦١.

المبحث الثاني

نبذة عن ولاة الدولة الأموية وخلفائهم في عصر الولاة

[١] يزيد بن عبد الملك:

هو الخليفة أبو خالد القرشي الأموي الدمشقي، استخلف بعهد عقده له أخوه سليمان بعد عمر بن عبد العزيز، وأمه عاتكة بنت يزيد ابن معاوية ولد سنة إحدى وسبعون. وكان لا يصلح للإمامة، مصروف الهمة إلى اللهو والغواني، مريض بنوع من السل، ومات بسود الأردن لخمس بقين من شعبان سنة خمس ومئة، فكانت دولته أربعة أعوام وشهراً، وعهد بالخلافة إلى أخيه هشام، ثم من بعده لولده الوليد بن يزيد.

[٢] يزيد بن أبي مسلم:

ولاه يزيد بن عبد الملك ولاية إفريقية وكان ظلوماً غشوماً أساء السيرة في البربر، وأراد وسم حرسه في أيديهم، و(كان أكثرهم من مسلمي البربر)، كما تفعل ملوك النصارى، ووضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة، متبعاً سيرة الحجاج في أهل العراق، فنقم البربر واتفق حرسه على قتله، وقالوا: (جعلنا بمنزلة النصارى) فلم يلبث أن قتلوه وولوا عليهم محمد بن يزيد – (وهي ولايته الثانية) وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك معتذرين من قتل يزيد بن أبي مسلم فقبل عذرهم وأقر ما فعلوه. وقد اقترن قتل يزيد بظهور دعوة الخوارج في إفريقية، وقد وصلت إليهم من القادمين من العراق، فلقنوها لمسلمي الشمال الإفريقي فاستجاب لها من كان في نفسه هوى وانغمس في الجهل وتأثر من سوء سيرة الولاة، وله أغراض في تدمير الخلافة الإسلامية.

[٣] ولاية بشر بن صفوان على أفريقية:

ولاه يزيد بن عبد الملك على إفريقية سنة ١٠٣هـ ، وقد نكَّل بآل موسى بن نصير تنكيلاً فظيعاً ، واستصفى أموالهم لنفسه، ثم رجع إلى يزيد فوجده قد توفي سنة ١٠٥هـ ، وتولى هشام بن عبد الملك فرده إلى إفريقية، وغزا صقلية، ورجع إلى القيروان فمات بها سنة ١٠٩هـ ، وكانت ولايته سبع سنين (١) .

[٤] الخليفة هشام بن عبد الملك:

ابن مروان أبو الوليد القرشي الأموي الدمشقي ولد بعد السبعين، واستخلف بعهد معقود له من أخيه يزيد، وكانت خلافته في شعبان سنة خمس ومئة، وأمه فاطمة بنت الأمير هشام بن إسماعيل بن هشام أخي خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي ، وكان هشام حريصاً جماعاً للمال، عاقلاً حازماً سائساً فيه ظلم مع عدل (٢) .

[٥] الخليفة هشام مع سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب أحد الفقهاء السبعة:

لما حج هشام بن عبد الملك دخل الكعبة فإذا هو بسالم بن عبد الله، فقال لسالم سلني حاجة، فقال: إني لأستحيي من الله أن أسأل في بيته غيره، فلما خرج سالم خرج هشام في أثره فقال له: الآن خرجت من بيت الله فسلني حاجة، فقال سالم: من حوائج الدنيا أم حوائج الآخرة؟، قال: من حوائج الدنيا ، فقال سالم: إني ما سألت الدنيا من يملكها، فكيف أسألها من لا يملكها ؟! (٣) .

من أقوال الخليفة هشام: (ما بقي علي شيء من لذات الدنيا إلا وقد نلته إلا شيئاً واحداً، أخ أرفع مؤنة التحفظ منه) . ومن شعره: ويقال: إنه ما حفظ له من الشعر سوى هذا البيت:

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا: ١٦١ .

(٢) البداية والنهاية: ٥ / ٢٤٤ .

(٣) البداية والنهاية: ٥ / ٣٦٨ .

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى إلى بعض ما فيه عليك مقال [١]

وفاته :

كانت وفاته بسبب ورم الحلق ، داء يقال له : الحرذوْن، وفي سكرات موته نظر إلى أولاده يبكون حوله فقال : جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء، وترك لكم ما جمع، وتركتم له ما كسب، ما أسوأ منقلب هشام إن لم يغفر الله له، وكان نقش خاتمه الحكم للحكم الحكيم، وكانت وفاته يوم الأربعاء لِستٍ بقين من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومئة

قال العلامة ابن كثير - رحمه الله -:

(لما مات هشام بن عبد الملك مات ملك بني أمية، وتولى وأدبر أمر الجهاد في سبيل الله، واضطرب أمرهم جدًّا، وإن كانت قد تأخرت أيامهم بعده نحو من سبع سنين، ولكن في اختلاف وهيج، وما زالوا كذلك حتى خرجت عليهم بنو العباس فاستلبوهم نعمتهم وملكهم وقتلوا منهم خلقاً وسلبوهم الخلافة [٢] .

[٦] ولاية عبيدة بن عبد الرحمن على إفريقية:

ولاه هشام بن عبد الملك على إفريقية في المحرم أو صفر سنة ١١٠هـ مكان بشر، وكان محل إقامته القيروان [٣] .

[٧] يزيد بن مسلم الكندي:

كان عاملاً على طرابلس من قبل عبيدة بن عبد الرحمن وكان المستنير بن الحبحاب الحرشي قد كلف بغزو صقلية من طرف عبيدة، فتثاقل عن غزوها حتى جاء الشتاء وصعب ركوب البحر، ثم جهز نفسه وغزاها، وبينما هو في طريقه إليها هاج به البحر، وأغرق كل ما معه من السفن بما فيها ومن فيها، ورمي

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء: ٥ / ٣٥١-٣٥٣ .

(٢) البداية والنهاية: ٥ / ٣٦٩ .

(٣) تاريخ الفتح العربي في ليبيا: ١٦١ .

بالسفينة بمن كان بها على طرابلس، فأمسكه يزيد حتى جاءه كتاب عبيدة يأمره بالقبض عليه وإرساله إليه موثوقاً، فنفذ يزيد أمر عبيدة وأرسل إليه ابن الحبحاب كما أمر، فأوجعه ضرباً، وطاف به القيروان، على حمار تشهيراً به لتقصيره في غزو صقلية، وتأخيره إلى وقت الشتاء حتى كان ذلك سبباً في غرق الجيش وخسارة المسلمين، وعزل هشام عبيدة سنة ١١٤هـ ودامت ولايته أربع سنين وستة أشهر [١] .

[٨] عبيد الله بن الحبحاب:

ولاه هشام بن عبد الملك على إفريقية في ربيع الآخر سنة ١١٦هـ ، وقيل سنة ١١٤ هـ ويقال: إنه هو الذي بنى جامع تونس، وقد ظهر لهشام في عدة مناسبات عجزه عن القيام بأمور المسلمين، فعزله في جمادى الأولى سنة ١٢٣ هـ [٢] .

يشعر المتتبع لأحداث إفريقية بأنه منذ أن تولى يزيد بن مسلم ١٠٢هـ إلى أن تولى كلثوم بن عياض سنة ١٢٣ هـ ، قد قل النشاط في إفريقية، وأهمل أمر الفتح ومحاولة إخضاع من لم يخضع من البربر. ولولا ما كان من أمر عبيدة لابن الحبحاب بغزو صقلية وفشله فيه لقلنا: إنه لم يكن هناك نشاط، ويظهر أن الخليفة هشاماً أدرك هذا خصوصاً لما ظهر له عجز عبيد الله بن الحبحاب، فتدارك الأمر وولى[٣] على إفريقية كلثوم بن عياض ليجدد النشاط في إخضاع من بقي مناوئاً للخلافة.

[٩] كلثوم بن عياض :

وبلغت أخبار الخوارج في إفريقية هشام بن عبد الملك، فولى عليها كلثوم بن عياض القشيري في جمادى الآخرة سنة (١٢٣هـ) وأرسله إليها في جيش قوامه

---

(١) المصدر السابق: ١٦١-١٦٢-١٦٣ .

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا: ١٦١-١٦٢-١٦٣ .

(٣) المصدر السابق نفسه.

اثنا عشر ألفًا ، وخرج معه أهل مصر، وأهل برقه، وأهل طرابلس، وزحف إلى الشمال الإفريقي متوغلاً سنة (١٢٣هـ) فلقيه ميسرة من رؤساء الخوارج الصفرية -بقرب طنجة- في جموع من البربر كثيرة واستماتوا في قتاله حتى قتلوه وهزموا جيشه، وقويت شوكة الخوارج واقتطعوا المغرب عن طاعة الخلفاء في المشرق(١) .

ويقول صاحب شذرات الذهب : هزمهم أبو يوسف الأزدي رأس الصفرية الخوارج، ولعل ميسرة هو أبو يوسف أو أحد قواده، واتبعت الخوارج من انكسر من المسلمين فثبت لهم حتى بلغ القشيري ابن عم كلثوم وانتصر عليهم، وقتل أبا يوسف الازدي رئيس الخوارج (٢) .

[١.] صفوان بن أبي مالك :

لما وصل كلثوم إلى طرابلس، وكان الحاكم عليها صفوان بن أبي مالك أعد صفوان جيشاً وخرج معه إلى إفريقية، فوصلوا القيروان في رمضان في هذه السنة وكان الجيش يقدر بثلاثين ألفاً ، وخرج كلثوم لقتال الخارجين عن الخلافة واستخلف على القيروان عبد الرحمن بن عقبة الغفاري ، وعلى الحرب مسلمة بن سوادة الجذامي القرشي.

وما زال بعض الرؤساء من البربر الذين اعتنقوا المذهب الخارجي يتربصون بالمسلمين ويتحينون الفرص للوثوب عليهم، ومن هؤلاء القادة عكاشة بن أيوب الفزاري، وهو من قبيلة هوارة من البرابرة الصفرية، وكان يقيم بنواحي قابس، فجمع هوارة وسار بها على مسلمة بن سوادة منتهزاً غياب عياض بن كلثوم عن القيروان، وأرسل عكاشة إلى صبراته فحصر أهلها في المسجد، وجعل عليها حبيب بن ميمون .

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي: ١ / ١٦١ .

وبلغ خبر ما حل بأهل صبراته إلى صفوان حاكم طرابلس، فخرج لنجدتهم، وحاول أخو عكاشة أن يدافع عن صبراته، فما لبث أن غلب على أمره ونجا برأسه منهزماً بعد أن قتل أكثر أصحابه من زناته وهوارة وغيرهم، ولحق بأخيه عكاشة في قابس، وكتب كلثوم بن عياض إلى صفوان بطرابلس يستنجده على عكاشة، فأنجده بأهل طرابلس ... ولكن جيوش الخوارج من البربر تكاثرت على كلثوم فقتل قبل أن يصل إليه صفوان في نجدته، ولما بلغ صفوان قابس بلغه قتل كلثوم وأصحابه فرجع إلى طرابلس، وتفرق جيش كلثوم، فرجع أهل إفريقية ومصر إلى إفريقية، وذهب أهل الشام إلى الأندلس وكان من بينهم عبد الرحمن بن حبيب الآتي ذكره، وكان ذلك سنة ١٢٤هـ أو ١٢٥هـ .

لم ييأس من بقي من المسلمين من النصر برجوع صفوان إلى طرابلس وقتل كلثوم بالرغم من مكانتهما المرموقة بينهم فتحصن سعيد بن بحرة وأصحابه بقابس وتنحى عنها عكاشة بنحو عشرين ك.م. وأعاد المسلمون جمع صفوفهم، فخرج عبد الرحمن بن عقبة الغفاري في أهل القيروان لقتال عكاشة فلقيه بين القيروان وقابس، فانهزم عكاشة وقتل عامة أصحابه ثم جمع جموعه وأعاد الكرة على عبد الرحمن، فهزم عكاشة وأعاد الكرة الثالثة فهزم، وفي الرابعة استعان بعبد الواحد ابن يزيد الهواري الصفري فخرج إليهم عبد الرحمن، فقتل عبد الرحمن وأصحابه وكان ذلك سنة ١٢٤ هـ وتقدم عكاشة وعبد الواحد في جيوشهم إلى القيروان (١) .

[١١] حنظلة بن صفوان الكلبي:

بعد قتل عبد الواحد بن عقبة كان عكاشة وعبد الواحد يهددون القيروان بجموعهما، وأسند هشام بن عبد الملك ولاية إفريقية والمغرب إلى حنظلة بن

(١) تاريخ الفتح العربي: ١٦٤-١٦٥ .

صفوان في صفر سنة ١٢٤ هـ فأخذ في الاستعداد للدفاع عن القيروان.

وكان عكاشة بن أيوب الفزاري وعبد الواحد بن يزيد من برابرة هوارة، ومن المتمذهبين بمذهب الخوارج الصفرية الذين يستحلون أموال أهل السنة، ويستبيحون نساءهم وقتلهم، وكان معهم من البربر جموع عظيمة قدرت بثلاثمائة ألف، ولما وصلوا القيروان خرج إليهم حنظلة فهزموه، وتقدموا لحصار القيروان فأعاد حنظلة جمع شمله وتأهب لقتالهم، وأخرج كل ما في خزانته من السلاح والعتاد، ودعا الله بطلب النصر وأمَّن المسلمون على دعائه ، وخرج للقائهم خارج القيروان، والتحم الجيشان بمكان يقال له القرن ، قرب القيروان وكانت حرباً في أبشع صور الحروب القاسية، فهبت ريح النصر على أهل السُنَّة وهزم الخوارج، وقتل عبد الواحد وجيء برأسه وبعكاشة أسيراً إلى حنظلة فقتله حنظلة، وقتل في هذه المعركة ما يزيد على مائة وسبعين ألفاً وكان هذا سنة (١٢٤ هـ) وتسمى واقعة القرن [١] .

وسمع الليث بن سعد الفقيه المصري المشهور بخبر هذه المعركة فقال: (ما غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب إليَّ من غزوة القرن) .

قلت: لكونها ضد الخوارج وقتالهم فيه أجر عظيم ومثوبة من رب العالمين وتحقيقاً لما جاء في قتالهم على لسان الصادق الأمين ﷺ .

[١٢] معاوية بن صفوان:

كان عامل حنظلة على طرابلس، فكتب إليه حنظلة يستنجده فأنجده بأهل طرابلس ولما وصل إلى قابس بلغه خبر هزيمة عكاشة وعبد الواحد، فأمره حنظلة أن يتقدم بجيشه إلى حرب الخوارج من البرابرة وغيرهم بنفزاوة فذهب إليهم وقاتلهم حتى قتل، فبعث حنظلة زيد بن عمرو الكلبي إلى جيش معاوية ورجع

---

(١) نفس المصدر السابق ، (ص: ١٦٦) .

به إلى طرابلس [١] .

[١٣] خلافة الوليد بن يزيد:

ابن عبد الملك بن مروان بن الحكم الخليفة أبو العباس الدمشقي الأموي ولد سنة تسعين، وقيل سنة اثنين وتسعين ، ووقت موت أبيه كان الوليد نيف عشرة سنة، فعقد له أبوه بالعهد من بعد هشام بن عبد الملك فلما مات هشام سلمت إليه الخلافة [٢] .

[١٤] موقف الإمام الزهري معه قبل الخلافة :

كان الإمام الزهري يقدح أبداً عند هشام في الوليد ويذكر أموراً عظيمة، وكان يقول يجب خلعه من ولاية العهد، فلا يقدر هشام ولو بقي الزهري لفتك به الوليد [٣] .

ولما أراد هشام خلع الوليد من ولاية العهد، قال الوليد:

كفرت يداً من منعم لو شكرتها ... جزاك بها الرحمن ذو الفضل والمنّ
أراك على الباقين تجني ضغينة ... فيا ويحهم إن مت من شر ما تجني
رأيتك تبني جاهداً في قطيعتي ... ولو كنت ذا حزم لهدَّمت ما تبني
كأني بهم يوماً وأكثر قيلهم ... ألا ليت أنا حين يا ليت لا تغني [٤]

قتله: وبسبب فسقه ومجونه ولهوه وشربه الخمر أراد الجند والرعية التخلص منه وقاد ذلك يزيد بن الوليد، فلما أحاطوا بالوليد نشر المصحف،وقال :أقتل كما قتل ابن عمي عثمان وكان مقتله في جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومئة .

---

(١) تاريخ الفتح العربي ص: ١٦٦ .

(٢) سير أعلام النبلاء: ٥ / ٣٧٠ إلى ٣٧٦ .

(٣) نفس المصدر السابق، وقال محقق الكتاب العلامة الشيخ شعيب الأرناؤوط: الخبر تالف من أجل الواقدي فإنه متروك.

(٤) المصدر السابق.

[١٥] خلافة يزيد بن الوليد:

ابن عبد الملك بن مروان الخليفة أبو خالد القرشي الأموي الدمشقي الملقب بالناقص، لكونه نقص عطاء الأجناد توثَّب على ابن عمه الوليد بن يزيد، وتم له الأمر، واستولى على دار الخلافة في سنة ست وعشرين ، ولكنه ما مُتِّع ولا بلع ريقه.

[١٦] خطبته عند قتل الوليد:

إني والله ما خرجت أشراً ولا بطراً، ولا حرصاً على الدنيا ولا رغبة في الملك وإني لظلوم لنفسي إن لم يرحمني ربي، ولكن خرجت غضباً لله ولدينه، وداعياً إلى كتاب الله وسنة نبيه، حين درست معالم الهدى وطفئ نور أهل التقوى، وظهر الجبار المستحل للحرمة، والراكب البدعة، فأشفقت إذا غشيكم ظلمه أن لا يقلع عنكم من ذنوبكم، وأشفقت أن يدعوا أناسا إلى ما هو عليه، فاستخرت الله ودعوت من أجابني فأراح الله منه البلاد والعباد.

أيها الناس : إن لكم عندي إن وليت أن لا أضع لبنة على لبنة ولا أنقل مالاً من بلد إلى بلد حتى أسُدَّ الثغور، فإن فضل شيء رددته إلى البلد الذي يليه، حتى تستقيم المعيشة وتكون فيه سواء، فإن أردتم بيعتي على ذلك بذلت لكم فأنا لكم، وإن ملت فلا بيعة لي عليكم، وإن رأيتم أقوى مني عليها، فأردتم بيعته، فأنا أول من يبايع ويدخل في طاعته وأستغفر الله لي ولكم.

وأول من خرج بالسلاح في العيد يزيد بن الوليد بين صفين من الخيل في السلاح في باب الحصن إلى المصلي.

وعظه لبني أمية :

وكان يقول لبني أمية إياكم والغناء، فإنه ينقص الحياء ويزيد في الشهوة، ويهدم المروءة وينوب عن الخمر، فإن كنتم لابد فاعلين فجنبوه النساء ، فإن

الغناء داعية للزنى.

وأصابته بدعة القدرية ودعا الناس إليها وقرب أصحاب غيلان الدمشقي الذي صلبه هشام بن عبد الملك لبدعته الشنيعة وهو عند المعتزلة أفضل من عمر بن عبد العزيز للمذهب.

وفاته:

كانت وفاته في سابع ذي الحجة سنة ست وعشرين ومئة، فكانت دولته ستة أشهر وآخر ما تكلم به وا حسرتاه وا أسفاه [١].

[١٧] الخليفة إبراهيم بن الوليد:

ابن عبد الملك الخليفة أبو إسحاق القرشي الأموي بويع بدمشق عند موت أخيه يزيد، وكان أبيض جميلاً وسيماً طويلاً أميل إلى السمن. ومكث في الخلافة سبعين ليلة، ثم خلع ووليها مروان بن محمد.

قال الذهبي - رحمه الله -: (وعاش إبراهيم إلى سنة اثنتين وثلاثين ومئة مسجوناً، وكان ذا شجاعة وأمه بربرية ولم يستقم له أمر، فكان جماعة يسلمون عليه بالخلافة وطائفة بالإمارة، وامتنع جماعة من بيعته. وقيل فيه من الشعر:

يُبَـايَعُ إبراهيمُ في كل جُـمْـعـةٍ ... ألا إنَّ أمْـراً أنـتَ واليـهِ ضَـائِـعُ

وفاته:

قتل يوم الزاب في سنة ١٣٢هـ

[١٨] استقلال عبد الرحمن بن حبيب عن الدولة الأموية:

هو عبد الرحمن بن حبيب بن عبيدة بن عقبة بن نافع، كان من أنصار كلثوم ومن المنهزمين في معاركه مع عكاشة إلى الأندلس سنة ١٢٣هـ وقتل والده حبيب

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٥ / ٣٧٤ إلى ٣٧٧.

مع كلثوم، وهو أول متغلب على إفريقية، واستقل بها أيام حكمه على بني أمية، وخلع طاعة أبي جعفر المنصور العباسي، ورجع من الأندلس إلى تونس في جمادى الأولى سنة (١٢٧هـ) ودعا أهلها إلى نفسه فأجابوه وحاول حنظلة أن يدخله تحت طاعته فأبى وقتل رسل حنظلة.

واعتزم عبد الرحمن أن يحتل القيروان ويضمها إلى تونس، فأرسل إلى حنظلة يطلب إليه التخلي عنها، وأنه مُصِرٌّ على حربه إن لم يفعل، وكان حنظلة تقيًّا ورعاً، فلم يسعه أمام إصرار عبد الرحمن على الحرب إلا أن يتنازل له عن القيروان حقناً لدماء المسلمين، وكان ذلك في جمادى الأولى سنة ١٢٩هـ ودخل عبد الرحمن القيروان، وتغلب على إفريقية كلها واستقل بها وكتب إليه مروان بن محمد بولايتها وفي سنة (١٣١ هـ) جدد سور طرابلس من جهة البر، وانتقل إليها الناس من كل مكان.

وفي هذه السنة (١٣٢ هـ) قتل مروان بن محمد، وانقرضت دولة بني أمية من المشرق، بعد أن ملكت إحدى وتسعين سنة وتسعة أشهر وخمسة أيام وولي الملك فيها أربع عشرة خليفة وظهرت على أعقابها دولة بني العباس والله يرث الأرض ومن عليها [1] .

قلت:

قال تعالى: ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾

[آل عمران: ٢٦] .

---

(١) **انظر**: تاريخ الفتح العربي، طاهر الزاوي، ص ١٦٧، ١٦٨

مروان بن محمد
آخر خلفاء الدولة الأموية

ابن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، أبو عبد الله الملك الخليفة الأموي يعرف بمروان الحمار، ومروان الجعدي نسبة إلى مؤدبه جعد بن درهم.

وكان مروان بطلاً شجاعاً داهيةً، رزيناً، جباراً، يصل السَّير بالسُّرى وسمي بمروان الحمار لشدة تحمله، كما قيل أصبر في الحرب من حمار، ولد سنة اثنتين وسبعين [1].

بويع له بالخلافة بعد قتل الوليد بن يزيد، وبعد موت يزيد بن الوليد، ثم قدم دمشق وخلع إبراهيم بن الوليد وهو آخر ملك من بني أمية وكانت خلافته خمس سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام، وبقي بعد أن بويع لأبي العباس السفاح بالخلافة العباسية تسعة أشهر.

فتح بلاداً كثيرة وحصوناً متعددة في سنين كثيرة وكان لا يفارق الغزو في سبيل الله وقاتل طوائف من الناس والكفار ومن التُرك والخزر وغيرهم فكسرهم وقهرهم، وقد كان بطلاً شجاعاً حازم الرأي لولا أن جنده خذلوه بتقدير الله عز وجل لما له في ذلك من حكمة لما سلب الخلافة لشجاعته وصرامته، ولكن من يَخْذُلُ اللهُ يُخْذَلَ ومن يَهُنِ اللهُ فما له من مُكْرِمٍ [2].

وفاته :

بعد انهزامه أمام جيوش العباسيين في معركة الزاب فر هارباً فلحقته طلائع من

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٦ / ٧٤

(٢) البداية والنهاية: ٥ / ٤٩

العباسيين لحقت به في مصر في منقطة أبو صير وعندما باغتته الخيل والتفت عليه من كل جانب استل سيفه وبقي يقاتل حتى قتل وكان من كلامه قبل أن يقتل: إن الجزع لا يزيد في الأجل، وإن الصبر لا ينقص الأجل.

وكان يتمثل بهذين البيتين:

ذل الحياة وهول الممات ... فإن كان لابد من ميتة

وكلاً أراه وخيماً وبيلاً ... فنسير إلى الموت سيراً جميلاً (١)

وذكر صاحب شذرات الذهب، أنه كان صائماً يوم قتله وكان يتمثل بقول الحجاج ابن حكيم:

متقلدين صفائحاً هندية ... وإذا دعوتهم ليوم كريهة

يتركن من ضربوا كأن لم يولد ... وافوك بين مكبرٍ وموحد

وكان نقش خاتمه:

رضيت بالله العظيم، وقيل اذكر الموت يا غافل، وكان مقتله يوم الاثنين عشر خلت من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومئة (٢).

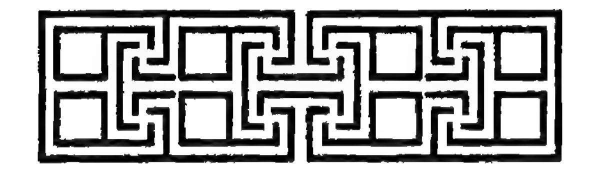

---

(١) مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية لسعدي أبو حبيب: ٨٢.

(٢) شذرات الذهب: ١/١٨٣.

المبحث الثالث

أسباب سقوط الخلافة الأموية

عندما كنت أقرأ كتاب (**مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية**) للكاتب السوري سعدي أبو حبيب تذكرت الدكتور محمد ضيف الله بطاينة الأردني الذي كان أستاذاً في الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية وعندما كنت في السنة الرابعة بكلية الدعوة كان من حسن حظ دفعتنا أن درّسنا الأستاذ الدكتور الفاضل في التاريخ الإسلامي، وكان المقرر ما يتعلق بالدولة الأموية ووزع علينا مذكرات ذات قيمة علمية استفدت منها في بحثي هذا، وكانت محاضراته من أروع المحاضرات، أداء وتحضيراً وصدقاً قال الشيخ ـ حفظه الله ـ : زال سلطان بني أمية من بلاد المشرق الإسلامي بمقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية لثلاث بقين من ذي الحجة سنة اثنين وثلاثين ومئة للهجرة، وقد حاول المؤرخون في العصر الحاضر أن يلتمسوا أسباب زوال سلطان بني أمية، فذكروا في هذا الجانب أسباباً عديدة نقسمها إلى الآتي:

أولاً: أسباب مباشرة:

تجمعت عن الهزائم المتلاحقة لجيوش بني أمية أمام جيوش العباسيين التي بدأت الثورة في خراسان، وأخذت تزحف من هناك نحو حاضرة الأمويين في دمشق، فالتقت مع جيوش بني أمية التي يقودها مروان بن محمد وهزمتها في معركة الزاب من عام ١٣٢هـ، ثم سارت جيوش العباسيين من بعد ذلك في اتجاهين أحدهما نحو العراق والآخر نحو الشام، وأما مروان بن محمد فأخذ يتراجع نحو بلاد الشام، فسار إلى قنسرين ثم إلى حمص ودمشق ثم إلى الأردن ثم إلى فلسطين ودخل من هناك إلى مصر، وقوات بني العباس تلاحقه حتى قتلته

في (أبو بصير بمصر) ، ولما علمت قوات بني أمية التي كانت محاصرة في واسط بالعراق بمقتل مروان استسلمت لبني العباس ودخلت في طاعتهم، وبذلك انتهى سلطان بني أمية، وانتقل إلى بني العباس.

ثانياً: الأسباب غير المباشرة:

ويمكن أن نجملها فيما يلي :

﴿ أ ﴾ أسباب تتعلق ببني أمية والخلفاء منهم وهي:

[١] ضعف شخصية بعض الخلفاء منهم.

[٢] بذخ بعض الخلفاء وإسرافهم.

[٣] تحكيم بعض الخلفاء أهواءهم في أمر قوادهم.

[٤] ولاية العهد وما يترتب عليها من صراع.

[٥] النزاع بين أفراد البيت الأموي على الخلافة.

﴿ ب ﴾ أسباب تتعلق بالرعية:

[١] العصبية العربية.

[٢] النزاع بين العرب والموالي.

[٣] قيام حركات المعارضة : الشيعة، الخوارج، الدعوة العباسية.

﴿ جـ ﴾ أسباب عامة:

[١] ازدياد الخطر البيزنطي.

[٢] المشكلات الاقتصادية.

وكل الأسباب السابقة عوامل لا ينكر تأثيرها على إضعاف سلطان بني أمية، إلا أن أبرز تلك العوامل التي واجهت بني أمية وكانت العامل الأساسي في زوال دولتهم ، نشوب الخلاف الذي دب بين أفراد البيت الأموي من أجل الخلافة .

لقد جرت محاولات من قبل كبار بني أمية لتحويل الخلافة عن أحدهم إلى غيره، ولكن هذه المحاولات بدت أكثر ضرراً وأبعد أثراً عندما أوشكت الخلافة أن تنتقل من أبناء عبد الملك بن مروان إلى أبنائهم، فازدادت المنافسة بين أبناء الأبناء ، واشتدت حتى صار عقلائهم يخشون أن يُفْضِي ذلك إلى زوال سلطانهم.

قال العباس بن الوليد بن عبد الملك، في نصحه لأخيه يزيد:

إني أعيذكم بالله من فتن	لا تلحمن ذئاب الناس أنفسكم
مثل الجبال تتسامى ثم تندفع	إن الذئاب إذا ما ألحمت رتعوا
إن البرية قد ملت سياستكم	لا تبقرن بأيديكم لبطونكم
فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا	فثم لا حسرة تغني ولا جزع

إلا أن ذلك النصح لم يُقبل ، وَقَتَلَ يزيدُ بنُ الوليدِ الوليدَ بنَ يزيد، فأدى ذلك إلى أمور أهمها:

ثار أهل حمص وأعلنوا الطلب بدم الوليد بن يزيد وهجموا على دار العباس ابن الوليد بن عبد الملك أخي يزيد وأخرجوه وأهله من بينهم وهدموا داره.

[أ] ثار أهل فلسطين وبايعوا يزيد بن سليمان بن عبد الملك.

[ب] ثار أهل الأردن وبايعوا محمد بن عبد الملك بن مروان ولكن يزيد بن الوليد استطاع أن يستميلهم.

[جـ] امتنع نصر بن سيار الذي كان والياً على خراسان من قِبَل الخليفة المقتول الوليد بن يزيد، امتنع من أن يسلم عمله للعامل الذي عين من قِبَل والي يزيد بن الوليد على العراق، لذلك وقعت الفتنة في خراسان بين مؤيد للخليفة القائم ومعارض. وبعد موت الخليفة يزيد بن الوليد زحف مروان ابن محمد بالجيش نحو دمشق يعلن الطلب بدم الخليفة المقتول الوليد بن

يزيد ولا يعترف بخلافة الخليفة إبراهيم بن الوليد، **وقد كلف مروان ذلك أن يشتبك مع:**

﴿ ١ ﴾ بشر بن الوليد بن عبد الملك الذي ولاه أخوه يزيد على قنسرين فأسره مروان وأسر أخاه مسروراً وحبسهما.

﴿ ٢ ﴾ اشتبك مروان مع جيش أرسله الخليفة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بقيادة سليمان بن هشام بن عبد الملك وهزمه في معركة عين الحر.

﴿ ٣ ﴾ أما في العراق فإن أهل الكوفة قالوا لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وكان زار الكوفة قالوا له: ادع إلي نفسك فبنو هاشم أولى بالأمر من بني مروان.

﴿ ٤ ﴾ انتفض أهل الشام وثاروا على مروان بعدما كان غلب على الشام، وكان الذي يحرضهم ثابت بن نعيم الجذامي فأضطر مروان إلى أن يحاربهم فحاربهم وأخضعهم لسلطانه.

﴿ ٥ ﴾ قال الجند لسليمان بن هشام بن عبد الملك ١٢٧هـ أنت أرضى من مروان عند أهل الشام وأولى منه بالخلافة فأطاعهم وأعلن الخروج على مروان فقاتله مروان وهزمه وهزم جمعه.

﴿ ٦ ﴾ أعلن الخوارج في هذه الأثناء الثورة فثار سعيد بن بهدل الشيباني في الجزيرة، وثار بسطام البهي في الجزيرة أيضاً وقتل سعيد الشيباني بسطاماً، ثم خلف من بعد سعيد في قيادة الخوارج الضحاك ابن قيس الشيباني، وقد استطاع هذا أن يستولي على العراق.

﴿ ٧ ﴾ كما ثار الخوارج في خراسان وثاروا في مكة والمدينة وبالرغم أن مروان بن محمد نجح في التغلب على ثورات الخوارج وإخضاع من ثار، سواء بالعراق أم في الشام، فإن المسلمين بعامة لم ينظروا بعين الرضى إلى أخذ

مروان الخلافة بحد السيف وقهر الناس، ودخلت النفوس نفرة، وتصدعت عصبة بني أمية في الشام وغيرها، وانعكس ذلك على موقف الجند في معركة الزاب بين مروان وبني العباس، ولم يخلصوا في القتال الإخلاص المعهود، وعندما تراجع مروان من معركة الزاب نحو الشام لم يجد في أثناء رجوعه معيناً ولا نصيراً من أهل الشام، ولم يكن حاله في مصر أفضل فقد تخلى الناس عنه هناك حتى قتل [١].

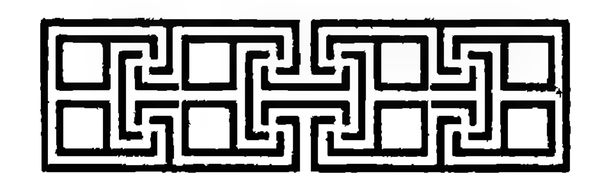

(١) من محاضرات الدكتور محمد ضيف الله بطاينة، في الجامعة الإسلامية ١٤١٤هـ.

الفصل الثالث

الخلافة العباسية

تنسب الخلافة العباسية إلى العباس بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ، وكان قيام هذه الخلافة في سنة (١٣٢هـ) وقبل البدء في دراسة هذه الخلافة نتطرق أولاً إلى كيفية نشأتها ؟ (•).

المبحث الأول

ظهور الدعوة العباسية وتطورها

لاحظنا أن الخلافة انتقلت إلى بني أمية أولاً: بتنازل الحسن بن علي رضي الله عنه لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وثانياً: بترسيخ مروان بن الحكم وابنه عبد الملك مبدأ التوارث في الحكم، ولكن الخلافة العباسية لم يكن ظهورها بنفس الشكل.

ظهرت في الخلافة الأموية دعوات معارضة منها دعوة آل البيت وقد تمثلت أولاً في خروج الحسين بن علي رضي الله عنه ثم حفيده زيد بن علي، كما ظهرت حركة المختار بن عبيد الثقفي التي نادت بإمامة محمد بن الحنفية، وهذه الحركة تدعى الكيسانية وتميزت هذه الحركة عن سابقاتها بأن لها مبادئ وأفكار مستقاة من أفكار السبئية التي أخذت عن المجوسية والهندوكية والمسيحية واليهودية [١].

ورغم أن محمد بن الحنفية لم يكن له علاقة بهذه الحركة إلا أن المختار استغل اسمه، ومع أن هذه الحركة قد هزمت إلا أن جذورها بقيت تعمل لتنشر أفكارها بين الناس، وقد انقسمت هذه الدعوة بعد وفاة محمد بن الحنفية إلى قسمين:

(•) جل الفصل أخذته من محاضرات الشيخ عبد العزيز نور ولي.

(١) راجع مبادئ الكيسانية في الملل والنحل للشهرستاني، وغيره من مصادر الفرق.

قسم ادعى أن محمد بن الحنفية لم يمت، وإنما اختفى في جبل رضوى[١]، وعنده عين ماء وعين عسل يأخذ منهما رزقه وهو المهدي المنتظر، وهذا القسم يدعى بالكربية نسبة إلى أبي محرب الضرير[٢]. وقسم آخر اعتقد موت محمد ابن الحنفية وانتقال الأمر من بعده لابنه أبي هاشم عبد الله بن محمد، ويدعى بالهاشمية نسبة لأبي هاشم[٣].

كان أبو هاشم طموحاً جمع حوله الأتباع وأحاط حركته بسرية تامة واستمر يزور البلاط الأموي لإبعاد الشبهة عنه، ورغم ذلك فقد أحس الخليفة سليمان بن عبد الملك بخطره ويقال: أنه دس له من سقاه السم وهو في طريقه إلى الحجاز، ولما أحس أبو هشام بدنو أجله مال إلى الحميمة[٤]. حيث يعيش محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وأولاده، وأطلعه على أخبار دعوته وعرفه بأتباعه ودعاته. وأعطاه كتاباً إليهم يأمرهم بطاعته، وهكذا انتقلت الدعوة الهاشمية إلى العباسيين وذلك سنة ٩٨هـ[٥].

[أ] مراحل الدعوة:

وجه محمد بن علي في عام ١٠٣هـ اثني عشر نقيباً إلى خراسان ليقوموا بالدعوة فيها، ثمانية من العرب وأربعة من غير العرب، ويرتبط بكل نقيب عدد من الدعاة يدعون الناس دون أن يبينوا مَن الإمام، وكانوا يحيطون عملهم بسرية تامة، واختيرت خراسان مركز للدعوة العامة لاضطراب أحوالها من حيث كثرة المشاحنات فيها بين القيسية واليمانية وقربها من بلاد ما وراء النهرين حيث يكثر

---

(١) رضوي: من جبل تهاة يقع بين المدينة وينبع (ياقوت: ٣/٥١).

(٢) عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق: ٣٧.

(٣) الملل والنحل: ١/٢٠١.

(٤) الحميمة: بلد في أطراف الشام قرب عمان (ياقوت: ٢/٣٠٧).

(٥) التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر: (٥/٤٣-٤٥)، فاروق عمر: طبيعة الدعوة العباسية، فصل تنظيم الدعوة وتفجيرها.

الفرس والموالي الذين يبتغون الحصول على امتيازات أكبر، ولبعدها عن مركز الخلافة الأموية، أما الكوفة فلا تصلح لدعوة عامة ولكن لدعوة خاصة سرية جداً وذلك لشدة المراقبة عليها من قبل ولاة بني أمية إضافة إلى خذلانها لكل دعوة بعد انضمامهم لها [١] .

أرسل محمد بن علي في عام ١٠٩هـ رجلاً قوياً متفهماً للمحيط الفارسي واسمه عمار ولقب بخداش فقام بنشاط واسع لنشر الدعوة في خراسان ولكنه اتصل بأصحاب المبادئ المنحرفة مثل الخرمية مما أغضب عليه محمد بن علي واستطاع ولاة بني أمية القبض عليه وقتله سنة ١١٨هـ [٢] .

توفي محمد بن علي في سنة ١٢٥هـ وانتقل الأمر من بعده لابنه إبراهيم الذي عمل على تنظيم الدعوة وإعطائها صفتين جديدتين :

[١] أن الدعوة والبيعة للرضا من آل البيت .

[٢] الأخذ بثأر شهداء آل البيت .

وانضم بذلك إلى هذه الدعوة الشيعة وأخذوا في تأييدها، كما أعطى الدعوة دفعة جديدة باختياره لأبي مسلم الخراساني قائداً عامًّا لها في خراسان على أن يستشير سليمان بن كثير الخزاعي الذي قام بالدعوة بعد خداش، وكان أبو مسلم شاباً مما جعل سليمان بن كثير أن يعطيه الثقة الكاملة في بداية الأمر، ولكنه أظهر كفاءة وقدرة أرغمت سليمان على الانسحاب، وانفرد أبو مسلم بالقيادة في خراسان سنة ١٢٨هـ [٣] .

استطاع أبو مسلم أن يضم إليه العرب اليمانية ومن ثَمَّ عمد إلى السيطرة على خراسان فتم له ذلك بتغلبه على نصر بن سيار والي بني أمية ثم وجه إبراهيم بن

---

(١) المرجع السابق: ٥/ ٤٣-٤٥ .

(٢) التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر: ٥/ ٤٣-٤٥ .

(٣) المرجع السابق: ٥/ ٤٣-٤٥ .

قحطبة الطائي على رأس جيش إلى العراق فانتصر على يزيد بن هبيرة والي الأمويين على العراق.

شك مروان بن محمد في أن الدعوة التي تنتشر في خراسان وراءها إبراهيم بن محمد العباسي فألقى القبض عليه، وكما أحس إبراهيم أنه مقتول لا محالة عهد بالأمر لأخيه أبي العباس وأمره بالخروج من الحميمة والتوجه إلى الكوفة، فسار أبو العباس بإخوته وأعمامه إليها، وهناك أخذت البيعة له رغم محاولة أبي سلمة الخلال القائم بالدعوة في الكوفة من نقل الأمر إلى العلويين، ثم وجه أبو العباس عمه عبد الله ابن علي إلى الشام لحرب بني أمية فسار عبد الله إليها وطرد مروان منها بعد أن هزمه في موقعة الزاب، ولما استقر الأمر له في الشام لاحق مروان ابن محمد حتى وقع في يديه في بوصير بمصر وقتل [١].

[ب] نظرة عامة في الدعوة العباسية:

﴿ ١ ﴾ يذكر كثيرٌ من الباحثين أن الدعوة العباسية هي ثورة فارسية ضد السيادة العربية التي تمثلت في الخلافة الأموية، ولكن لو تتبعنا هذه الدعوة في مراحلها المختلفة لوجدنا:

أولاً: أن النقباء الذين بعثهم محمد بن علي إلى خراسان كان معظمهم من العرب واختيار القواد في خراسان من الموالي لا يعني أنها ثورة فارسية، لأن اختيار قائد من الموالي لخراسان يناسب تلك البلاد كما اختير قائد عربي للعراق وعباسي للشام.

ثانياً: لو رجعنا إلى المصادر التاريخية لوجدنا أن مقاومة الدعوة لم تكن من العرب كما أن مؤيديها لم يكونوا من الفرس في خراسان، بل إن هناك كثيراً من الموالي حاربوا الدعوة في خراسان إلى جانب ولاة بني أمية، كما أن كثيراً من

---

(١) التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر: ٥/٤٣-٤٥

العرب وقفوا إلى جانب الدعوة وأيدوها.

ثالثاً: اختيار خراسان مركز للدعوة ليس دليلاً على موالاة الموالي لها حيث إن خراسان فتحت في عهد عثمان رضي الله عنه وفي فترة الخلافة الأموية انتقلت كثيرٌ من القبائل العربية للسكنى فيها، وأصبح عدد العرب فيها ما يقارب عدد سكانها الأصليين.

﴿ ٢ ﴾ كانت الدعوة الهاشمية التي قادها أبو هاشم بن محمد بن الحنفية دعوة متطرفة وكانت تعمل في الخفاء للقضاء على الخلافة الإسلامية بسبب ما اعتنقته من عقائد وأفكار فاسدة، وانتقال الأمر إلى بني العباس كان في صالح الدولة الإسلامية أولاً وأخيراً، وذلك لأن بني العباس كانوا على منهج أهل السُنَّة والجماعة بعكس تلك الطائفة، ورغم أن العباسيين رفعوا شعارات عامة أدت إلى انضمام طوائف مختلفة إليها، إلا أنهم لم يمكنوا تلك الطوائف من الأمر بعد قيام دولتهم واستقرار الخلافة لهم، بل حاربوا تلك الطوائف، واعتناق بعض قادة الدعوة لتلك العقائد المتطرفة لا يعني أن هذه الدعوة كانت ذات طبيعة متطرفة، بل إن العباسيين مثلوا الإسلام الصحيح في حركتهم كما أن عدم إدخالهم لمبادئ الغلو والرجعة والتناسخ هو الذي جذب المسلمين نحوهم أكثر من غيرهم من الفرق الأخرى ، ولو اعتنقت الدعوة العباسية تلك المبادئ لاتهمها أعداؤها بانحراف العقيدة واستغلوا ذلك في مناهضتهم لها [١] .

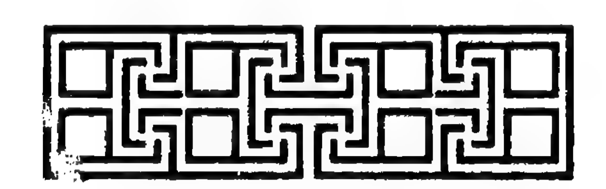

---

(١) طبيعة الدعوة العباسية: ١٢٧

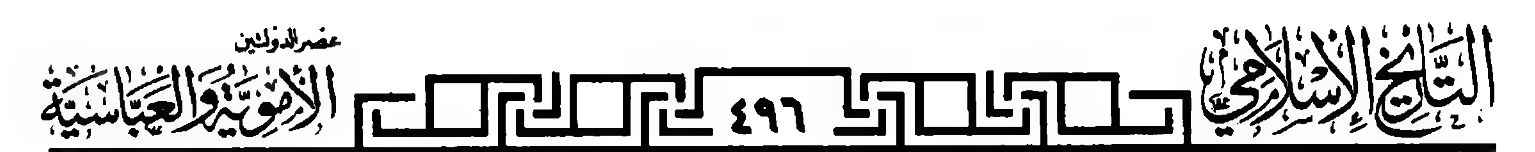

المبحث الثاني

العصور العباسية

امتد حكم العباسيين من سنة ١٣٢هـ إلى سنة ٦٥٦هـ وهي السنة التي سقطت فيها بغداد في أيدي المغول ، **وقسمت هذه الفترة إلى عدة عصور:**

[١] **العصر العباسي الأول** : يمتد من سنة ١٣٢هـ إلى سنة ٢٣٢هـ وهو عصر سيطرة الخلفاء كما يعرفه البعض بأنه عصر النفوذ الفارسي، ولكن التعريف الأخير فيه نظر (١) .

[٢] **العصر العباسي الثاني** : ويمتد من سنة ٢٣٢ إلى سنة ٣٣٤هـ، وهو يعرف بعصر النفوذ التركي .

[٣] **العصر العباسي الثالث** : ويمتد من سنة ٤٤٧هـ إلى سنة ٦٥٦هـ، وهو يعرف بالعصر السلجوقي (٢) .

[أ] العصر العباسي الأول:

تولى الخلافة في هذه الفترة تسعة خلفاء، والشجرة التالية تبين هؤلاء الخلفاء ومدة حكم كل واحد منهم. العباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، عبد الله، علي، محمد، إبراهيم:

[١] أبو العباس السفاح (١٣٢–١٣٦) .

[٢] أبو جعفر المنصور (١٣٦–١٥٨) .

[٣] المهدي (١٥٨–١٦٩) .

[٤] الهادي (١٦٩–١٧٠) .

---

(١) معركة حطين للذهبي: ١٠٩٩–١١٨٧.

(٢) عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العربي: ٣/ ١١٠٩،٦

[٥] الرشيد (١٧٠-١٩٣) .

[٦] الأمين (١٩٣-١٩٨) .

[٧] المأمون (١٩٨-٢١٨) .

[٨] المعتصم (٢١٨-٢٢٧) .

[٩] الواثق (٢٢٧-٢٣٢) .

[ب] شخصيات خلفاء العصر العباسي الأول:

أولاً : أبو العباس السفاح (١٣٢-١٣٦ هـ):

هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، كان شاباً مليحاً مهيباً أبيض طويلاً ووقوراً، مات وهو في أوائل العقد الرابع من عمره، وكان مشهوراً بجوده. بويع له بالخلافة سنة ١٣٢هـ في الكوفة وتوفي بالجدري في ١١ من ذي الحجة سنة ١٣٦هـ بالأنبار [١] .

ثانياً : أبو جعفر المنصور (١٣٦- ١٥٨ هـ):

هو عبد الله بن محمد بن علي، ولد سنة خمس وتسعين أو نحوها، ضرب في الآفاق ورأى البلاد، وطلب العلم وكان أسمراً طويلاً نحيفاً مهيباً، خفيف العارضين، ومُعَرَّق الوجه، رحْبَ الجبهة، وكان مهيباً شجاعاً ذا رأي وحزم، ودهاء وجبروت، وكان حريصاً على المال، تاركاً للهو واللعب، ذا فقه وأدب وعلم وكان صحيح الإسلام [٢] ، وكان حليماً رغم شدته، وكان يتصدى لمصالح الناس أول النهار، وينظر في مصالح أهله في آخره،ولا يرضى من عماله انشغالهم باللهو [٣] .

كان يلقب بأبي الدوانيق لشدة محاسبته للصُنَّاع، ومع ذلك كان جواداً بالمال في المهالك، وكان يعتبر نفسه من الملوك، فكان يقول: الملوك أربعة: معاوية

---

(١)البداية والنهاية: ١٠ / ٦٣.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٧ / ٨٣.

(٣)البداية والنهاية: ١٠ /١٢٨.

وعبد الملك وهشام بن عبد الملك وأنا [١] .

تولى الخلافة سنة ١٣٦ هـ وتوفي في ذي الحجة ١٥٨ هـ وكان سائراً إلى مكة للحج ودفن بها [٢] .

ثالثاً: المهدي (١٥٨-١٦٩ هـ):

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن علي ولد سنة سبع وعشرين ومئة، وكان جواداً مقداماً وكان محبوباً إلى رعيته محارباً للزندقة منكلاً بأهلها طلب العلم وتأدب وولي طبرستان في خلافة أبيه [٣] .

وقد لقب بالمهدي رجاء أن يكون الموعود في الأحاديث، فلم يكن هو، وقد تولى الخلافة سنة ١٥٨هـ وتوفي في المحرم من سنة ١٦٩هـ [٤] .

رابعاً: الهادي (١٦٩-١٧٠ هـ):

هو موسى بن محمد بن عبد الله بن محمد، ولد بالري وكان أبيض طويلاً جسيماً، وكان فيه ظلم وشهامة ولعب وكان شجاعاً فصيحاً لسناً أديباً مهيباً عظيم السطوة كان مثل والده في استئصال الزنادقة، وكان يكره تدخل النساء في شئون الدولة، وقد قال لأمه الخيزران، وكانت متصرفة في الأمور: لئن وقف ببابك أمير لأقتلنَّك، أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك، تولى الخلافة سنة ١٦٩، وتوفي في ربيع الأول من سنة ١٧٠هـ [٥] .

خامساً: الرشيد (١٧٠-١٩٣ هـ):

هو هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد، كان مولده بالري سنة ١٤٨هـ، وكان أبيض طويلاً جميلاً وسيماً يميل إلى السمن، وكان من أنبل الخلفاء وأحشم الملوك، ذا حج وجهاد وغزو وشجاعة ورأي، وفصاحة وعلم وبصر بأعباء الخلافة،

---

(١) السير: ٧/٨٣-٨٤ .

(٢) المصدر السابق: ٧/٨٧ .

(٣) المرجع السابق: ٧/٤٠٠-٤٠١ .

(٤) البداية والنهاية: ١٥٥، ١٦١ .

(٥) السير: ٧/٤٤١، ٤٤٣، ٤٤٤ .

وله نظر جيد في الأدب والفقه [١] . غزا بلاد الروم وهو صغير السن في خلافة والده ، ولما تولى الخلافة كان يغزو عاماً ويحج عاماً، وكان يصلي مائة ركعة في اليوم ، ويتصدق بألف صدقة، وكان يحب العلماء، ويعظم حرمات الدين ، ويبغض الجدل والكلام، ويبكي على نفسه، ولهوه وذنوبه لاسيما إذا وُعِظَ [٢] . كان الرشيد إذا حج أحج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج أحج ثلاثمائة بالنفقة السابغة والكسوة التامة، وكان تولية الخلافة سنة ١٧٠هـ، وتوفي بطوس في جمادى الأخرى سنة ١٩٣ هـ [٣] .

سادساً: الأمين (١٩٣-١٩٨ هـ):

هو محمد بن هارون بن محمد بن عبد الله، ولد سنة سبعين ومئة، وأمة زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر، كان كثير اللهو واللعب، فصيحاً أديباً، وقد تولى الخلافة سنة ١٩٣ هـ، وكثرت في عهده الفتن بسبب الصراع بينه وبين أخيه المأمون، وانتهى الأمر بمقتله سنة ١٩٨ هـ [٤] .

سابعاً: المأمون (١٩٨-٢١٨ هـ):

هو عبد الله بن هارون بن محمد بن عبد الله، ولد سنة سبعين ومئة، كان فيه تشيع واعتزال وجهل بالسُّنَّة الصحيحة، وكان سبب اعتزاله إجتماع جماعة منهم حوله فأخذ المذهب عنهم، وكان يحب العلم ولكن لم يكن ذا بصيرة فيه، وكان يحفظ القرآن، وكان له اطلاع بعلوم عدة مثل الفقه والطب والفرائض والنحو والكلام والغريب، وأمر بتعريب كتب الأوائل، وعمل مرصداً فوق جبل دمشق، ودعا إلى القول بخلق القرآن، وكان ذا حزم ورأي وعقل وهيبة وحلم، وكان

---

(١) المرجع السابق: ٩/٢٨٦-٢٩٥.

(٢) البداية والنهاية: ١٠/١٦٤.

(٣) السير: ٩/٢٨٦-٢٨٧.

(٤) البداية والنهاية: ١٠/٢٢٢-٢٣٠.

جواداً، ذا حافظة قوية، وكان حين توفي والده سائراً في غزو ما وراء النهر، وحدثت بينه وبين أخيه حوادث، وتولى الخلافة في المحرم سنة ١٩٨هـ ، وقد مال إلى رأي العلويين فترة، ثم قال في القرآن مقالته الفاسدة وامتحن العلماء من أجلها ولم يتركها حتى توفي في رجب سنة ٢١٨هـ (١) .

ثامناً: المعتصم (١١٨-٢٢٧ هـ) :

هو محمد بن هارون بن محمد بن عبد الله، ولد سنة ثمانين ومئة، كان ذا قوة وبطش وشجاعة وهيبة،ولكنه كان قليل العلم،وكان أمير الحج سنة ٢٠٠هـ ، وهو الذي فتح عمورية حين تولى الخلافة، وقد امتحن الناس بفتنة خلق القران، وكتب إلى الأمصار بذلك، وأخذ المؤذنين وفقهاء المكاتب بها، وأنشأ مدينة سامراء ، وجعل عسكره من المماليك الترك، وأسكنهم تلك المدينة، وكان له همة عالية في الحروب، ومهابة عظيمة في القلوب، وإنما كانت همته الإنفاق على الحرب لا في البناء ولا في غيره، وكان توليه للخلافة سنة ٢١٨ هـ ، وتوفي في ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ (٢) .

تاسعاً: الواثق (٢٢٧-٢٣٢ هـ) :

هو هارون بن محمد بن هارون بن محمد، ولد سنة ست وتسعين ومئة، وكان من الخلفاء الذين أحسنوا إلى الطالبيين حتى ما ترك فيهم فقير، ولكنه بقي على سيرة أبيه وعمه في القول بخلق القرآن، وكان وافر الأدب ، وكانت خلافته سنة ٢٢٧ هـ ، وتوفي في ذي الحجة سنة ٢٣٢ هـ (٣) .

[جـ] أهم سمات العصر العباسي الأول:

[١] بناء مدينة السلام (بغداد):

لقد بنيت في الخلافة الأموية عدة مدن، وكانت هذه المدن ذات صبغة

---

(١) المرجع السابق.

(٢) البداية والنهاية: ١٠ /٢٨٧-٢٨٨ .

(٣) السير: ١٠ /٢٧٢-٢٨٩

عسكرية، فهي عبارة عن معسكرات للجند، وكانت هناك مدن ذات صبغة إدارية، أما في العهد العباسي فإن الخلافة كانت مرتبطة ارتباطاً كبيراً بالجيش والموظفين، ولذلك كانت فكرة إنشاء المدن مثل بغداد وسامراء كانت تهدف إلى أن تكون المدينة الجديدة تضم دواوين الموظفين ومعسكر للجند ، بويع أبو العباس السفاح للخلافة في الكوفة، ولكنه أحس أنها لا تصلح مركزا للخلافة لميولها العَلَوِيَّةُ الواضحة ، لذلك لم يستقر بها، بل بدأ يتنقل بغية اختيار موقع جديد يكون مركزاً للخلافة، فبنى الهاشمية قرب الكوفة ثم انتقل إلى الأنبار وبنى قربها أيضاً مدينة سميت بنفس الاسم (الهاشمية) .

ثم تولى أبو جعفر المنصور الخلافة فبنى الرُّصَّافة قرب الكوفة، ثم قام برحلة بقصد البحث عن موقع مناسب للعاصمة الجديدة وذلك عام ١٤١ هـ حيث وجده بين نهري دجلة والفرات، فهذا الموقع بين النهرين يساعد في تحصين المدينة، كما أن هذين النهرين وما تفرع عنهما من جداول يساعدان في خصوبة الأرض، وهذا يوفر لسكان المدينة الغذاء وييسر لهم المواصلات النهرية، إضافة إلى اعتبارات مناخية واقتصادية أخرى كان لها تأثيرها في اختيار هذا الموقع ، دُعيت العاصمة الجديدة بمدينة السلام، وقد بدأ بناؤها عام ١٤٥هـ وحصنت المدينة بإحاطتها بالرصافة وبمعسكر وبحفر الخنادق حولها، كما حصنت المناطق المحيطة بها فقد اعتبر بناء الرصافة معسكر المهدي على الجانب الشرقي لدجلة سنة ١٥١هـ وبناء الرافقة على التخوم السورية سنة ١٥٥هـ ، من التحصينات لتلك المنطقة وبالتالي للعاصمة الجديدة، وزيادة لحماية المدينة نقلت الأسواق إلى خارج الأسوار حتى لا يتسنى للجواسيس الذين يأتون على شكل تجار لدخولها، وبني للسوق جامعاً خاصًا به لنفس الغرض، كما بنيت المدينة بشكل دائري ليسهل الدفاع عنها ، وبني قصر الخليفة ودواوين الدولة داخل الأسوار، وكانت للمدينة أربعة أبواب وهي: باب خراسان وباب الكوفة وباب البصرة

وباب الشام ، وعلى كل باب قبة وتعلو السور أبراج الحراسة والمراقبة، وقد تم بناؤها سنة (١٤٩هـ) [١] .

[٢] ظهور الثورات المنحرفة، ومن هذه الثورات:

ثورة الراوندية :

ظهرت هذه الثورة في عهد أبي جعفر المنصور وكان الراوندية يقولون بالتناسخ وادعوا ألوهية المنصور، وفي سنة (١٤١هـ) أتوا قصره وجعلوا يطوفون حوله ويقولون هذا قصر ربنا فقبض المنصور على رؤسائهم وسجنهم، فغضبوا وهاجموا السجن وأخرجوا رؤسائهم منه، وقصدوا نحو المنصور، فخرج إليهم بنفسه ولحقت به جيوشه وقضت عليهم [٢] .

ثورة المقنعية :

وهم أتباع المقنع اسمه عطاء، وكان يقول بالتناسخ ويزعم أن الله ظهر في صورة آدم، ولهذا سجدت له الملائكة، ثم نوح والأنبياء من بعده واحداً تلو الآخر، ثم تحول إلى أبي مسلم الخراساني ثم تحول إليه تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً، وكان قبيح الوجه أعور، ولذلك اتخذ قناعاً من ذهب على وجهه ، وكان يُري أتباعه قمراً يُرى من مسافة بعيدة، فعظم اعتقادهم به ومنعوه بالسلاح، وحاصره جيش المسلمين بقيادة سعيد الحريثي في قلعته سنة ١٦٣هـ ، وألحوا عليه في الحصار فلما أحس بالغلبة تحسى هو ونساؤه سمًّا فماتوا ، ودخل جيش المسلمين قلعته واستحوذوا على أمواله [٣] .

ثورة الخرمية :

أتباع بابك الخرمي الذي ظهر في آخر عهد المأمون، وكان يقول بالتناسخ

---

(١) تاريخ بغداد: ١/ ١٣، فاروق العمر: العباسيون الأوائل.
(٢) البداية والنهاية: ١٠/ ٧٨.
(٣) المصدر السابق: ١٠/ ١٤٩.

ووجود إلهين وإباحة النساء ، وقوي أمره في خلافة المعتصم وما زال المعتصم يرسل إليه الجيوش حتى قضى عليه سنة (٢٢٢هـ) [١] .

وهناك حركة سبناذ المجوسي سنة (١٣٧ هـ) ، خرج يطلب دم أبي مسلم الخرساني، وحركة أستاذ سيس في بلاد خراسان سنة (١٥٠ هـ) .

ويلاحظ في معتقدات هذه الحركات أنها امتداد لمعتقدات المزدكية التي أخذت عن المانوية والتي ظهرت أيام قباذ والد أنو شروان ، وكانت تقول بوجود إلهَين النور والظلمة، وكانوا ينهون الناس عن الخلاف والمباغضة والقتال، ولما كان أكثر ذلك يقع بسبب الأموال والنساء في نظرهم أباحوها وجعلوا الناس شركة فيهما كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ [٢] .

ونحب أن ننوه إلى أن المانوية كانت دعوة إلى اعتزال النساء لقطع النسل وإفناء النوع البشري ، حتى ينتصر إله النور بزعمهم ، وأما المزدكية فقد كانت على العكس من ذلك ، حيث أباحت اشتراك الناس في الأموال والنساء ... بل لقد أباحت الوقوع على المحارم والعياذ بالله [٣] .

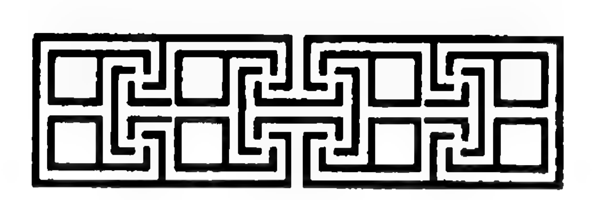

---

(١) محمود شاكر: ٥ / ٢٢١ .

(٢) التاريخ الإسلامي: ٥ / ٢١٩ .

(٣) يرجع إلى كتاب « ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين » ، الندوي .

المبحث الثالث

العصر العباسي الثاني

لا ريب أنه قد صاحب ظهور العصر العباسي الأول تشكيلات سياسية، وولايات أسرية ، وإمارات مذهبية مستقلة كالأغالبة، والأدارسة، وغيرهم، وكانت بدايات العصر العباسي لهذه الحقبة تعتبر منذ عهد الخليفة جعفر المتوكل (٢٣٢-٢٤٧ هـ) أما نهاية هذا العصر فكانت في آخر عهد الخليفة عبد الله المستكفي (٣٣٣-٣٣٤ هـ)

واليك ترتيب أسماء خلفاء الدولة العباسية في عهدها الثاني:

[١] جعفر المتوكل (٢٣٢-٢٤٧ هـ) .

[٢] محمد المنتصر (٢٤٧-٢٤٨ هـ) .

[٣] أحمد المستعين (٢٤٨-٢٥٢ هـ) .

[٤] محمد المعتز (٢٥٢-٢٥٥ هـ) .

[٥] محمد المهتدي (٢٥٥-٢٥٦ هـ) .

[٦] أحمد المعتمد (٢٥٦-٢٧٩ هـ) .

[٧] أحمد المعتضد (٢٧٩-٢٨٩ هـ) .

[٨] علي المكتفي (٢٨٩-٢٩٥ هـ) .

[٩] جعفر المقتدر (٢٩٥-٣٢٠ هـ) .

[١٠] محمد القاهر (٣٢٠-٣٢٢ هـ) .

[١١] محمد الراضي (٣٢٢-٣٢٩ هـ) .

[١٢] إبراهيم المتقي (٣٢٩-٣٣٣ هـ) .

[١٣] عبد الله المستكفي (٣٣٣-٣٣٤ هـ) .

أولاً: سمات العصر العباسي الثاني

[١] بَدْء النفوذ التركي:

كان المعتصم قد استخدم الجند الترك وأكثر من ذلك حتى زاد أذاهم في بغداد وتضايق الناس منهم، فبنى لهم مدينة (سر من رأى) [١] وكان هؤلاء الجند يستعان بهم في الجهاد والقضاء على الحركات الخارجية على الدولة [٢]، ولكن بدأ نفوذ هؤلاء الترك يزداد وبخاصة مع ضعف الخلفاء، وبدؤوا يتسلطون على أمور الدولة وأصبح الخليفة في كثير من الأحيان اسماً أو صورة في قصره ليس عليه إلا التوقيع على التعليمات أو إصدار الأوامر التي يفرضها عليه القادة، **وقد وصف أحد الشعراء ذلك بقوله:**

خليفة في قفص يقول ما قالا له
بين وصيف وبغا كما تقول الببغا

والذي ساعد في ضعف الخلفاء أن معظمهم تولوا الخلافة وهم لازالوا في سن لم تساعدهم على تمرس أمور الدولة، فنجد من الخلفاء من لم يتجاوز الثلاثين من عمره عند المبايعة مثل: المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتمد والمكتفي والراضي.

وهناك من لم يتجاوز العشرين، فالمعتز تولى الخلافة وهو في التاسعة عشرة، والمقتدر بويع له وهو لم يتجاوز الثالثة عشرة، أما من تجاوز الثلاثين منهم: المهتدي الذي بلغ الخامسة والأربعين حين بويع له، والمعتضد وكان عمره سبعاً وثلاثين حين تولى الخلافة، والقاهر وقد بلغ اثنين وثلاثين سنة حين تولى الخلافة، والمتقي أربعاً وثلاثين، والمستكفي أربعين سنة.

إضافة إلى أن معظم هؤلاء الخلفاء يتولى الأمر بمساعدة القادة الترك، وبالتالي

---

(١) التاريخ الإسلامي: ٦/ ١٢.

(٢) المصدر السابق: ٦/ ١٣.

يكون أداة طيعة في أيديهم، فنجد الجند الترك كانوا يرغبون في تولية محمد بن الواثق ، ولكنهم عدلوا عنه لصغر سنه إلى جعفر المتوكل بن المعتصم، ثم ابنه محمد المنتصر تولاها أيضاً بمساعدتهم بعد مقتل والده، ثم أحمد المستعين بن المعتصم بايعوه وعدلوا عن أولاد المتوكل خوفاً منهم أن يثأروا لأبيهم، ومحمد المعتز بن المتوكل بويع له بعد خلع عمه المستعين، وكذلك محمد المهتدي بن الواثق ولي بعد أن أُشْهِدَ على المعتز أمامه بأنه عاجز عن الخلافة واعترف بذلك، ثم أحمد المعتمد بن المتوكل الذي بويع له بعد مقتل المهدي، ثم أحمد المعتضد ابن طلحة الموفق بن المتوكل، ثم على المكتفي بن المعتضد، ثم جعفر المقتدر بن المعتضد الذي عهد إليه أبوه، وما لبث أن خلع ثم قتل وبويع محمد القاهر بن المعتضد بعد أن زهد فيها عبد الله بن علي المكتفي، ثم جاء محمد الراضي بن المقتدر بعد خلع عمه القاهر، ثم إبراهيم المتقي بن المقتدر الذي بويع له بعد أخيه، ثم أخيراً عبد الله المستكفي بن المكتفي الذي بويع له بعد خلع المقتدر.

كما أن تسلط بعضهم على بعض ساعد في ضعفهم فنجد المنتصر يتسلط على أبيه ، مما شجع الأمراء على قتله ،كما تسلط على أخويه المؤيد والمعتز ليخلعهما من ولاية العهد، كما وقع القتال بين المستعين والمعتز طلباً للخلافة، وانتهى الأمر بخلع المستعين ومبايعة المعتز، وقام المعتز بخلع أخيه المؤيد من ولاية العهد، وأبعد ابن عمه المهتدي، وأيضاً لصغر سن المقتدر حاول جماعة عزله وولوا ابن المعتز ولكن مؤيدي المقتدر استطاعوا استعادة الخلافة له وسجن ابن المعتز كما عذب القاهر عندما تولى الخلافة آل أخيه المقتدر.

ومع ضعف هؤلاء الخلفاء إلا أن بعضهم كان فيه صلاح، ومع ذلك فإن صلاحهم لم يفد رعيتهم كثيراً، فهناك المتوكل الذي نصر السُنَّة وقضى على فتنة خلق القرآن، والمهتدي كان ورعاً متعبداً صواماً عادلاً، والمعتضد كانت أيامه طيبة كثيرة الأمن والرخاء، أسقط المكوس ونشر العدل ورفع الظلم عن الرعية، ثم

المكتفي ساس الرعية بسيرة حسنة فأحبوه ودعوا له، والراضي كان سمحاً كريماً أديباً شاعراً محبًّا للعلماء، ثم المتقي كان كثير التلاوة للقرآن.

ولم تخل هذه الفترة من محاولات لبعض الخلفاء في التخلص من النفوذ التركي، فالمتوكل حاول نقل الخلافة إلى دمشق لذلك، كما كان المنتصر يصفهم بأنهم قتلة الخلفاء، وعاد المستعين إلى بغداد ليتخلص من نفوذهم ولم يقبل اعتذارهم وحذا المعتمد حذوه في العودة إلى بغداد ، لم يعد أحد من الخلفاء بعده إلى سامراء، وقد كان أخوه الموفق هو القائم بأمر الدولة، واستطاع الموفق برجاحة عقله وحسن تدبيره أن يسير أمور الدولة، كما جلس للمظالم وقاد الجيوش بنفسه للقضاء على ثورة الزنج ، ولكنه توفي قبل الخليفة، ثم المعتضد الذي جدد ملك بني العباس بعد أن كاد يزول وكان يسمى السفاح الثاني، وقد كانت فترة المعتمد والمعتضد (٢٥٦-٢٨٩ هـ) فترة انتعاش وقوة للخلافة بجهود الموفق وابنه المعتضد.

[٢] ظهور منصب أمير الأمراء:

بدأ ظهور هذا المنصب في خلافة الراضي (٣٢٢-٣٢٩ هـ) وذلك مع فساد وضع الوزراء وعجزهم واضطراب أحوال الدولة وكثرة الطامعين فيها، كل هذه الأمور دفعت الخليفة إلى استحداث هذا المنصب وتوليته لشخص يستطيع إدارة الدولة والنظر في كل شئونها، وكان أول من تولى هذا المنصب محمد بن رائق وكان والي البصرة وواسط، وامتاز بعلو الهمة والشجاعة والشهامة وتولى هذا المنصب سنة ٣٢٤ هـ(١) .

وبظهور منصب أمير الأمراء ضعف منصب الوزير وقل نفوذه، وذلك لأن أمير الأمراء أصبح هو حاكم الدولة بتسلمه لمقاليد الأمور، فهو الذي يولي ويعزل

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٥/ ٣٢٥.

الولاة، كما أن الأموال تجلب إليه فينفقها فيما يراه مناسباً، كما أصبح يدعى له على المنابر مع الخليفة ونقش اسمه على السكة تحت اسم الخليفة (١) .

ولكن سرعان ما أصبح هذا المنصب مطمع الطامعين، وكان أول من انتزعه «بحكم» الذي دخل بغداد سنة ٣٢٧ هـ، ومع فساد هذا المنصب فسدت أمور الدولة واضطربت أحوالها وأدى هذا إلى ضعف حالة الدولة العباسية، ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها، وأما بقية أنحاء الدولة فتولى أمورها أسر مختلفة مثل: الحمدانيين والساسانيين والبويهيين وغيرهم (٢) .

[٣] مقتل معظم خلفاء هذا العصر:

كان من أضرار النفوذ التركي على الخلافة العباسية، أنهم تسلطوا على الخلفاء أنفسهم، فإذا أحسوا من خليفة ميلاً عنهم أو نفور الناس منه لشدة خضوعه لقواده الترك عملوا على إزاحته وتولية غيره لتحقيق مصالحهم أو لاسترضاء العامة، ولما كان عزل الخليفة وخلعه لا يتأتى إلا إذا فقد الخليفة لشرط من الشروط الواجب توافرها فيه أو موته لجئوا إلى القتل وأحياناً إلى سمل العينين فيصاب بالعمى وبالتالي يفقد شرط الإبصار.

والخلفاء الذين قتلوا في هذا العصر هم: المتوكل حيث دبر ابنه المنتصر مع الترك مؤامرة لاغتياله، وكانت المحاولة الأولى لاغتياله في دمشق ولكنهم فشلوا، ثم كانت المحاولة الثانية التي تكللت بالنجاح على يد بعض قادة الترك بالسيف، ثم تلاه المنتصر الذي غضب على الترك، ففكروا في قتله وأوعزوا لطبيبه بذلك وأعطوه مالاً كثيراً ففصده بريشة مسمومة فمات. ثم المستعين الذي تنكر للترك وامتنع عن العودة إلى سامراء فخلعوه وبايعوا ابن أخيه المعتز، وقامت الحرب بينهما وهزم المستعين، ولكن القادة الترك لم يكتفوا بخلعه ونفيه فقد أوجسوا

---

(١) تاريخ عصر الخلافة العباسية، ليوسف العش: ١٨٢.

(٢) حسن إبراهيم حسن: ٣ / ٢٨.

خيفة من بقائه حيًّا، وزينوا للمعتز بقتله، ثم أرسلوا أحد حجاب القصر في شرذمة من الجيش فقتله.

ثم إنهم ما لبثوا أن قتلوا المعتز حيث دخل جماعة منهم إليه وجروه برجله إلى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه وأقاموه في الشمس، فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى من شدة الحرارة، ولازالوا يلطمونه، ثم أشهدوا عليه خلع نفسه وسلموه إلى من يعذبه فمنعوا عنه الماء والشراب ثلاثة أيام، ثم أدخلوه سرداباً وسد عليه بابه فمات، ثم المهتدي حيث ثار عليه الترك وأسروه ثم خلعوه ثم عذبوه حتى مات، ثم المقتدر الذي خلع مرتين ثم أعيد إلى الخلافة وأخيراً خرج عليه أحد قادة الترك، وانتهى الأمر بقتله، ثم القاهر الذي خلع وسملت عيناه وحبس واستمر في الحبس حتى مات سنة ٣٥٧ هـ ، ثم المستكفي الذي قتله الديلم بعد أن جروه من سريره وساقوه ماشياً إلى منزل معز الدولة، وسملوه وحبسوه، حتى مات سنة (٣٣٨هـ) [١] .

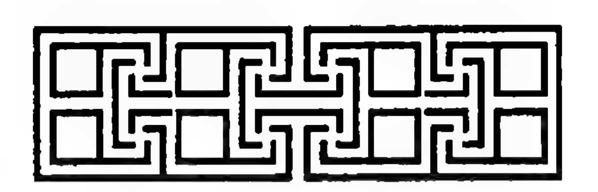

(١) **انظر** : الكامل في التاريخ في سنة وفاته أو خلعه في الجزء السادس، وتراجمهم في سير أعلام النبلاء في الجزء الرابع عشر والخامس عشر والتاريخ لحسن إبراهيم حسن الجزء الثالث.

المبحث الرابع

العصر العباسي الثالث

وهكذا انتهى العصر العباسي الثاني بتلك الفجائع المريرة، والأحقاد الدفينة، والمكائد الخبيثة. ثم أعقب هذا العصر عصر آخر يسمى في المنظومة السياسية بالعصر العباسي الثالث، حيث يؤرخ لهذا العصر منذ بداية عهد الخليفة المطيع لله ، وامتد هذا العصر من عام ٣٣٤هـ ، واستمر إلى نهاية عام ٤٤٧هـ حيث كانت نهاية خلافة الخليفة عبد الله القائم.

وتولى الخلافة في هذه الحقبة الزمانية أربعة خلفاء من بني العباس وهم :

[١] الفضل المطيع (٣٣٤-٣٦٣) .

[٢] عبد الكريم الطائع (٣٦٣-٣٨١) .

[٣] أحمد القادر (٣٨١-٤٢٢) .

[٤] عبد الله القائم (٤٢٢-٤٦٧) .

سمات العصر العباسي الثالث :

أولاً: سيطرة الأسرة البويهية على الحكم:

تنتسب الأسرة البويهية إلى بويه بن فناخسرو الديلمي، وكان علي ابن بويه الذي لقب بـ « عماد الدولة »، أحد قادة الديلم، ولكنه سرعان ما تملك البلاد، واستطاع هو وإخوته الحسن الملقب بـ « ركن الدولة »، وأحمد الملقب بـ « معز الدولة »، أن يستولوا على شيراز التي استقر فيها علي بن بويه وجعلها مركزاً لحكمه وعراق العجم حيث استقر الحسن بن بويه، وكرمان والأهواز حيث استقر أحمد، وكان الأخوين الحسن وأحمد يدينون بالولاء لأخيهم الأكبر علي بن بويه. زحف أحمد بن بويه معز الدولة إلى بغداد سنة ٣٣٤هـ ، واستقبله الخليفة

المستكفي استقبالاً حافلاً وقلده أمير الأمراء ومنحه وأخويه الألقاب ولكن سرعان ما ساءت العلاقة بين أحمد بن بويه والخليفة المستكفي ، حيث اتهم الخليفة بعمله في الخفاء على إزالته وإعادة الحكم للترك، فخلعه وبايع ابن عمه المطيع بالخلافة [١] .

وبتملك أسرة بني بويه على بغداد بدأ عهد جديد من عهود العصر العباسي سمي بالعصر البويهي لم يكن حال الخلافة العباسية في العصر البويهي بأحسن من حاله في العصر التركي الذي سبقه، فرغم أن مدة كل خليفة من خلفاء هذا العصر قد طالت إلا أنهم بقوا ضعافاً ليس لهم من الأمر شيء، وقد تتابع على الحكم في العراق من البوهيين أحمد بن بويه الذي لقب كما أسلفنا بمعز الدولة (٣٣٤-٣٥٦ هـ)، ثم ابنه بختيار الذي لقب بعز الدولة (٣٥٦-٣٦٧ هـ)، ثم عضد الدولة بن ركن الدولة الحسن ابن بويه (٣٦٧-٣٧٢ هـ)، ثم ابنه أبو كاليجار المرزبان الذي لقب بصمصام الدولة (٣٧٢-٣٧٦ هـ)، ثم أخوه شرف الدولة الذي انتزع الحكم منه (٣٧٦-٣٧٩ هـ)، ثم أخوهما أبو نصر الذي لقب ببهاء الدولة (٣٧٩-٤٠٣ هـ)، ثم جاء بعده ابنه أبو شجاع الذي لقب بسلطان الدولة (٤٠٣-٤١١ هـ)، ثم أخوه مشرف الدولة (٤١١-٤١٦هـ)، ثم أخوهما أبو طاهر الذي لقب بجلال الدولة (٤١٦-٤٣٥ هـ)، ثم أبو كاليجار بن سلطان الدولة (٤٣٥-٤٤٠ هـ)، ثم ابنه أبو نصر خسرو فيروز الذي لقب بالملك الرحيم (٤٤٠-٤٤٧ هـ) الذي انتهى عصر بني بويه به [٢] .

ثانياً: استفحال سلطان الشيعة :

لقد انتشر في هذا العصر سلطان الشيعة في مناطق متعددة من العالم الإسلامي آنذاك، سواء دويلات مستقلة لهم أو ظهور أحزاب شيعية مختلفة.

---

(١) التاريخ العباسي والفاطمي للعبادي: ١٦٢-١٦٣ .

(٢) التاريخ الإسلامي لحسن إبراهيم: ٣/٤٣-٦٣ .

[أ] البويهيون :

لقد كانت الأسرة البويهية التي تقلدت الحكم في بغداد وجعلت الخليفة تحت سيطرتها كانت هي نفسها تعتنق المذهب الشيعي، بل إنهم أظهروا عقيدتهم بكل وضوح وتحدوا الناس من أجلها فقد أمر معز الدولة سنة ٣٥١ هـ عامة الشيعة ببغداد بالكتابة على المساجد ما نصه (لعن الله معاوية بن أبي سفيان، ولعن من غصب فاطمة رضي الله عنها فدكًا [١] ، ومن منع من أن يُدفن الحسن عند قبر جده عليه السلام، ومن نفى أبا ذر الغفاري ، ومن أخرج العباس من الشورى).

وقام بعض الناس بمسحه في الليل، فأراد معز الدولة إعادة كتابته ولكن أشار عليه وزيره بأن يبدلها بـ (لعن الله الظالمين لآل رسول الله ﷺ) ولا يذكر أحداً في اللعن إلا معاوية ، ففعل ذلك [٢] .

في السنة التالية أمر معز الدولة في العاشر من المحرم بغلق الأسواق وإظهار النياحة، وأن يلبسوا قباباً عملوها بالمسوح، وأن يخرج النساء ناشرات الشعور سادرات الوجوه قد شققن ثيابهن ويدرن في البلد بالنوائح ويلطمن وجوههن على الحسين بن علي رضي الله عنهما، فاستجاب الناس لذلك، ولم يستطع أهل السُّنَّة المنع لكثرة الشيعة، ولأن السلطان معهم، ثم تكرر هذا الأمر في السنة التي بعدها. وفي الثامن عشر من ذي الحجة [٣] من سنة (٣٥٢ هـ) أمر معز الدولة بإظهار الزينة في البلد وأشعلت النيران في مجلس الشرطة وأظهر الفرح وفتحت الأسواق ليلاً كما يفعل لليالي الأعياد ، فعل ذلك فرحاً بعيد الغدير [٤] – يعني غدير خم – وضربت الدبابات والبوقات وكان يوماً مشهوداً .

ومع أن البويهين ناصروا مذهبهم بشكل كبير، إلا أنهم لم ينقلوا الخلافة من

---

(١) هي أرض كانت نصيب النبي ﷺ من خيبر .

(٢) الكامل في التاريخ: ٧ / ٤ .

(٣) هو يوم مقتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه .

(٤) يدّعي الشيعة – قبحهم الله – ان النبي ﷺ بايع عليًا وأوصى له بالإمامة في ذلك اليوم .

بني العباس إلى العلويين ، لأن هذا الأمر سيؤدي إلى صدام بينهم وبين عامة الناس، وهذا الصدام لن يكون مثل غيره مما وقع بين السُنَّة والشيعة، بل قد يؤدي إلى إضعاف مركزهم أو زواله، ومن جهة ثانية فإن وجود خليفة علوي يعترفون بخلافته ويقرونها سيسلبهم كثيراً من صلاحياتهم، ومن هذه النقطة بالذات قد أشار إليها أحد خواص معز الدولة عندما أراد الأخير نقل الخلافة إلى العلويين حيث قال له: ليس هذا برأي فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فإن أمرهم بقتلك لفعلوه [1] .

[ب] العبيديون:

نشأت هذه الحركة أولاً في المغرب على يد أبي عبد الله الشيعي، وهو رجل من أهل الكوفة يدعى الحسين بن أحمد بن زكريا، وكان قد تنقل بين اليمن والحجاز واستقر أخيراً في المغرب حيث بدأ دعوته السليمة عام ٢٨٨ هـ واستمرت ثلاثة أعوام، عمل خلالها على جذب الأنصار إليه، وبخاصة في قبيلة كتامة البربرية، ثم كانت مرحلة الحرب التي استمرت حتى سقوط القيروان عاصمة دولة الأغالبة في يده وذلك عام ٢٩٧ هـ [2] .

ولما استقرت الأحوال بأبي عبد الله الشيعي طلب زعيم الدعوة التي كان في الشام وهو عبيد الله من ذرية عبد الله بن ميمون القداح الفارسي وهو يزعم أنه من ذرية فاطمة ﵂ لذلك سمى دولته بالدولة الفاطمية، وادعى أنه المهدي، ولكن أكثر العلماء ينفون صحة هذا النسب، وقد قامت الدولة العبيدية في المغرب من (عام ٢٩٨ هـ إلى عام ٣٦١ هـ ، وانتقلت إلى مصر عام ٣٦٢ هـ) ،

---

(١) الكامل في التاريخ: ٦ / ٣١٥ .

(٢) في التاريخ العباسي والفاطمي: ٢٢٤-٢٢٥ .

واستمرت إلى عام (٥٦٧ هـ)، وسياتي مزيد بيان وتفصيل عنها في الكتاب الثالث إن شاء الله.

[جـ] القرامطة :

قامت هذه الحركة على يد حمدان بن الأشعث الملقب بـ«قرمط»، وكان قيام حركته في الكوفة سنة ٣٧٨ هـ وكان حمدان قرمط قد اعتنق المذهب الشيعي الإسماعيلي على يد أحد دعاتها وهو حسين الأهوازي، وصار قرمط من كبار دعاة الإسماعيلية وأحد أصولها، وقد خلفه زعيم آخر يدعى الحسن بن بهرام ويعرف بابي سعيد الجنابي، التفت حوله القرامطة وهاجم سنة ٢٨٧ هـ هجر عاصمة البحرين وجعلها عاصمة له، وقد استفحل شرهم بشكل كبير فهاجموا بغداد، كما هاجموا سنة ٢٨٩ هـ دمشق وفي سنة ٣١٧ هـ هاجموا الحجاج في المسجد الحرام وقتلوا من كان فيه وألقوا جثثهم في بئر زمزم، كما هاجموا من كان في طرقات مكة وما حولها وقتلوا عدداً هائلاً منهم، ونهبوا دوره وخلعوا الحجر الأسود وأخذوه معهم إلى عاصمتهم، وما أعادوه إلا بأمر عبيد الله المهدي العبيدي (١).

وعادوا إلى مهاجمة دمشق سنة ٣٦٠ هـ وأوقعوا بأهلها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، واستمر خطرهم على الإسلام والمسلمين إلى نهاية العصر البويهي.

[د] الحمدانيون:

ينتسب الحمدانيون إلى قبيلة تغلب العربية، وقد نشأت دولتهم في شمال العراق والشام عام ٣١٧ هـ وكانت عاصمتهم حلب، وقد دافعوا عن حدود بلاد الشام الشمالية، وكانت لهم جولات في مواجهة الروم. وكان الحمدانيون فيهم تشيع ولكنه لم يصل إلى درجة الغلو، ولكن هذا التشيع جعل صلاتهم بالدول

---

(١) الكامل في التاريخ: ٦/٢٠٣-٢٠٤.

الشيعية الأخرى صلات جيدة، فأدت هذه الصلات إلى إرسال الهدايا الثمينة لهم، كما أن هذه الصلات اتسعت إلى حد مساعدتها لهم في هجماتهم الغاشمة على المسلمين بالمال والسلاح.

هذه بعض الحركات والدول التي اعتنقت المذهب الشيعي وظهرت في هذا العصر وهناك غيرها، وقد بسطت نفوذها على بقاع شاسعة من العالم الإسلامي آنذاك وأذاقت أهل السُنَّة الويلات ولكن الله غالب على أمره [١] .

ثالثاً: ظهور الإمارات المستقلة :

[ا] الإمارة الأموية في الأندلس (١٣٨-٣١٦ هـ) :

هرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك من أيدي العباسيين، وعندما وصل إلى إفريقية متخفياً عن طريق مصر وبرقة اختفى هناك مدة، ثم سار إلى المغرب الأقصى حيث نزل على أخواله، وفي سنة **١٣٦ هـ** ، بدأ يعد العدة لدخول الأندلس. أرسل عبد الرحمن مولاه بدر الرومي إلى الأندلس الذي دعا له فيها واستطاع أن يجمع حوله أعواناً ثم عاد إلى عبد الرحمن يخبره بأحوالها.

عبر عبد الرحمن مضيق جبل طارق في غرة ربيع الأول سنة **١٣٨هـ** والتف حوله مؤيدوه فسار بهم حتى التقى بيوسف بن عبد الرحمن الفهري والي العباسيين وجرى بينهما صدام انتهى بانتصار عبد الرحمن ودخوله قرطبة في ذي الحجة من نفس السنة [٢] .

لقب عبد الرحمن بن معاوية بالداخل لأنه أول من دخل الأندلس من بني أمية حاكماً، وبه بدأ عهد جديد سمي بعهد الإمارة حسب شكل الحكم. واستمر هذا العهد حوالي قرن وثلاث أرباع القرن، حتى إعلان الخلافة فيها سنة **٣١٦ هـ**.

وكان عبد الرحمن الداخل أو صقر قريش كما سماه أبو جعفر المنصور

---

(١) أيُعيد التاريخ نفسه؟: ٥٤-٥٥-٥٦-٥٧.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٨/ ٢٤٤-٢٤٦، التاريخ الأندلسي: ٢١٦.

لشجاعته وقوة نفسه أول أمراء هذه الإمارة ودعي أيضاً بعبد الرحمن الأول، لأنه أول ثلاثة أمراء بني أمية حملوا هذا الاسم وهم أشهر أمراء تلك الفترة [١] .

[ب] شجرة نسب الإمارة الأموية في الأندلس:

هشام بن عبد الملك – معاوية – عبد الرحمن – هشام – الحكم – عبد الرحمن – محمد – المنذر – عبد الله – محمد – عبد الرحمن .

أمراء الإمارة الأموية في الأندلس :

[١]عبد الرحمن الداخل الأول (١٣٨–١٧٢) .

[٢]هشام الأول (١٧٢–١٨٠) .

[٣]الحكم الأول (١٨٠–٢٠٦) .

[٤]عبد الرحمن الأوسط الثاني (٢٠٦–٢٣٨) .

[٥]محمد الأول (٢٣٨–٢٧٣) .

[٦]المنذر (٢٧٣–٢٧٥) .

[٧]عبد الله (٢٧٥–٣٠٠) .

[٨]عبد الرحمن الناصر الثالث (٣٠٠–٣٠٥) وفي عهده بدأت الخلافة الأموية في الأندلس سنة ٣١٦ هـ.

[جـ] أحوال الإمارة الأندلسية :

أدى الفتح الإسلامي للأندلس إلى انتقال حالته إلى حياة قائمة على أسس إسلامية، وقد أثمرت الجهود التي بذلت من قبل الولاة في ترسيخ دعائم الحياة الإسلامية وظهرت ثمار تلك الجهود في عهد الإمارة.

فقد نمت التنظيمات المختلفة في عهد الإمارة، وظهر منصب الحجابة والوزارة ،

---

(١) المرجع السابق:٢١٧ .

كما ظهرت القوة الحربية البحرية وتقدمت التنظيمات العسكرية، وعني بالثغور والأساطيل وتميز هذا العهد وما تلاه بالإنتاج في مختلف النواحي العلمية فنمت العلوم وازدهر الميدان الثقافي وكثر الإنتاج فيه واتسع نطاق التعليم، وزاد الاهتمام بالكتب والمكتبات في أنحاء الأندلس كافة وشملت كلا الجنسين وغدت الأندلس أحد مراكز الثقافة في العالم الإسلامي (١) .

ووجد تبادل ثقافي بين العلماء وفي المؤلفات بين الأندلس وبقية البلاد الإسلامية (٢) ، وشاع التعليم في هذا العهد وما بعده في أنحاء الأندلس وأصبح عامًّا وشمل الذكور والإناث، وعمت معاهد التعليم ومؤسساته سواء بجهود الأمراء وبجهود المجتمع وكانت اللغة العربية هي لغة الثقافة والتفاهم عند المسلمين بصورة رئيسة (٣) .

ومن الجوانب الحضارية التي أولتها النهضة العامة في الأندلس عنايتها بالجانب العمراني الذي قام على أسس هندسية وفنية في الدقة والذوق والأناقة، وكان الاهتمام العمراني يشمل المرافق العامة والخاصة (٤) .

ومن أبرز المنشآت العمرانية العامة مسجد قرطبة الجامع الذي بدأ بناءه سنة (١٧٠ هـ) في إمارة عبد الرحمن الداخل (٥) .

كما اهتم في هذه الفترة بإنشاء المدن وإقامة التحصينات ودور صناعة السفن، والحدائق والمساجد وأنشئت دار السكة لضرب النقود (٦) . وفي ميدان الزراعة جلبت إلى الأندلس الغروس والبذور المتنوعة، وتقدمت وسائل الري، وأجريت المياه سواء للسقي أو للشرب بطريقة فنية (٧) .

---

(١) التاريخ الأندلسي: ٢٧٨-٢٨٩ .

(٢) المرجع السابق: ٢٨٠ .

(٣) المرجع السابق: ٢٨٦ .

(٤) المرجع السابق: ٢٧٩ .

(٥) المرجع السابق: ٢٤٤ .

(٦) المرجع السابق: ٢٧٩ .

(٧) المرجع السابق: ٢٨٠-٢٨٦-٢٨٧-٢٨٩ .

وتوفر في هذه الفترة الأمن والرخاء سوى بعض الحوادث الداخلية المحددة، وكذلك تحرشات أسبانيا الشمالية والفرنج التي كانت تعكر ذلك الجو الآمن. كما قامت بعض علاقات دبلوماسية مع عدد من الدول في أوربا وغيرها بعد أن ظهرت هيبة الإمارة في الأندلس ووضحت قوتها وعلت مكانتها وحرصت هذه الدول على صداقة الأندلس وإقامة علاقات ودية معها، لذلك وجهت إلى الأندلس سفارات كثيرة، لقد كانت هذه الإنجازات وغيرها نتيجة دخول هذا البلد في رحاب الإسلام وخير إنجاز له تحرره من العبودية للناس إلى العبودية لله وحده (١).

[د] العلاقة بين الإمارة الأندلسية والخلافة العباسية :

استمرت الصلات بين الإمارة الأندلسية وبين بقية العالم الإسلامي كما هي رغم وجود الجفوة بين أمراء الأندلس وبين الخلافة العباسية، ولم تحاول الخلافة العباسية استعادت الأندلس محاولة جادة، فلم تتجاوز محاولتها تأييد الدعوات التي تقوم لصالحها ودعمها، أما تسيير الجيوش فلم يحدث إطلاقاً، ولعل السبب في ذلك بُعْد الأندلس عن مركز الخلافة من جهة وما يكلف ذلك من جهد وخسارة للطرفين من جهة أخرى (٢).

أما ما ذكره بعض المؤرخين الغربيين من أن العلاقة بين شارلمان ملك فرنسا وبين الرشيد كانت لهدف لهما لتقوم فرنسا بمهاجمة الإمارة الأموية فلا صحة له، لأنه مهما بلغت العداوة بين الأمراء والخلافة فلا يمكن أن تصل إلى درجة أن يشجع الرشيد حاكماً مسيحيًّا لاحتلال قطراً من الأقطار الإسلامية وطرد المسلمين منه، فالخلافة العباسية ترى في الإمارة الأندلسية قطراً خرج عن الطاعة وأنه عاجلاً أو

---

(١) التاريخ الأندلسي : ٢٨٠-٢٨٦-٢٨٧-٢٨٩.

(٢) المرجع السابق : ٢٨٧-٢٨٩.

آجلاً سيعود إليها، وتحريض شارلمان لاحتلاله يعني خروجه من أيديهم تماماً [١].

من جهة أخرى كانت الخلافة العباسية ترى في أهل الأندلس من رعاياهم المسلمين فلا يمكن بحال من الأحوال أن يوافقوا أو يشجعوا الغارات التي يشنها عليهم نصارى الشمال، بل لو أنهم استطاعوا دفعاً لما تقاعسوا عن ذلك.

لا يمكن معرفة هذه الجوانب من قبول ادعاءات مثل هؤلاء المؤرخين وهم أتوا من جهلهم بطبيعة الرابطة التي تربط بين أفراد المجتمع الإسلامي، وأنها رابطة لا تحدها حدود زمانية ولا مكانية، بل هي أكبر من المطامع الدنيوية [٢].

رابعاً: فتنة خلق القرآن:

ازدهرت في هذا العصر الحركة العلمية وبرز العلماء في مختلف العلوم العقلية والنقلية، ونشطت حركة الترجمة وبخاصة في عهد الخليفة المأمون فترجمة كتب اليونان والهند، ولو اقتصرت الترجمة على العلوم النافعة لم يكن في ذلك بأس ولكنها شملت كتب الفلاسفة الذين تكلموا في الغيبيات التي لا يعلمها إلا الله فكانت هذه الكتب سبب الفتن التي أصابت الأمة الإسلامية آنذاك. فما لبث أن ظهر علم الكلام وبالتالي تطور مذهب الاعتزال، وأخذ يتجه إلى مناقشة الأمور العقائدية بصورة جدلية، وهذا بالتالي أدى إلى نفي صفات الله سبحانه وتعالى أو تأويلها وقد اعتنق الخليفة المأمون عقيدة المعتزلة وأظهر فتنة خلق القرآن وامتحن العلماء فيها.

كانت البداية مناظرات ومجادلات كلامية بين الطوائف ثم انتقلت إلى مرحلة الصراع بين أهل السُنَّة والمعتزلة، واستطاعت المعتزلة أن تحمل المأمون على اعتناق

---

(١) العلاقة السياسية بين الدولة العباسية والأندلس: ١٣٥.

(٢) من الأدلة على قوة العباسيين ونفوذهم السياسي أن شارلمان ملك فرنسا أرسل يستأذن هارون الرشيد في قتال الدولة الأموية الثانية بالأندلس، فغضب الرشيد غضباً عظيماً، وأرسل إليه رداً غليظاً، ثم أرسل يحذر أمراء الأندلس، رغم الجفاء الذي كان بينه وبينهم.

مذهبها وتدفعه لتقريره على الأمة وكان المأمون كما قال ابن كثير يحب العلم، ولكن لم تكن له بصيرة نافذة فيه فدخل عليه بسبب ذلك الداخل وراج عنده الباطل، ودعا إليه وحمل الناس عليه قهراً [١] ، فحدثت الفتنة [٢] .

وكانت بداية هذه الفتنة في أواخر عهد المأمون سنة ٢١٨ هـ [٣] .

ولما مات أوصى المعتصم بأن يعتقد ما اعتقده هو [٤] . وكان الإمام أحمد على رأس من واجهوا هذه الفتنة وقد لاقى في سبيل ذلك كثيراً من التعذيب، وكان ذلك على يد المعتصم حيث إن المأمون مات قبل أن يلتقي بالإمام أحمد، واستمرت الفتنة في عهد الواثق وَرُفِعَتْ في عهد المتوكل [٥] .

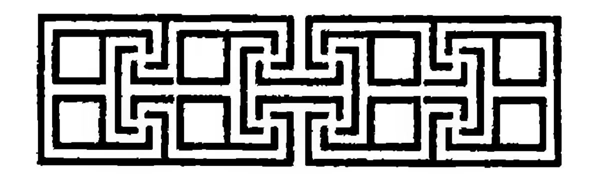

(١) البداية والنهاية: ١٠/٢٨٨.

(٢) مقدمة في شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي: ١/٣٥.

(٣) البداية والنهاية: ١٠/٢٨٤.

(٤) المرجع السابق: ١٠/٢٩٣.

(٥) **انظر** : حول الفتنة سير أعلام النبلاء: ١١/٢٣٧-٢٦٥، والمصدر السابق: ١٠/٣٤٥-٣٤٩.

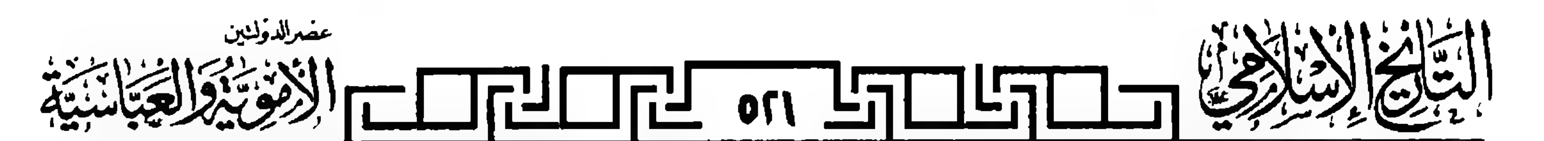

الفصل الرابع

الخوارج في الشمال الإفريقي

المبحث الأول

نشأة الخوارج (•)

أولاً: معاني اسم الخوارج :

قبل أن أذكر بداية نشأة الخوارج وتطورهم، نذكر طائفة من أقوال أهل العلم فيهم: فقد بيَّن أبو الحسن الأشعري أن اسم الخوارج يطلق على الذين خرجوا على الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان خروجهم على علي هو العلة في تسميتهم بهذا الاسم، حيث قال رحمه الله تعالى: «والسبب الذي سموا له خوارج خروجهم على علي ابن أبي طالب لما حكم» (١) .

وأما ابن حزم فقد بين أن اسم الخارجي يتعدى إلى كل من أشبه أولئك النفر الذين خرجوا على علي رضي الله عنه وشاركهم في معتقدهم، فقد قال: (ومن وافق الخوارج من إنكار التحكيم وتكفير أصحاب الكبائر والقول بالخروج على أئمة الجور وأن أصحاب الكبائر مخلدون في النار وأن الإمامة جائزة في غير قريش فهو خارجي وإن خالفهم فيما عدا ذلك مما اختلف فيه المسلمون خالفهم فيما ذكرنا فليس خارجياً) (٢) .

وأما الشهرستاني فقد عرف الخوارج بتعريف عام اعتبر فيه الخروج على الإمام

(•) جل الفصل الرابع منقول من كتاب: عقيدة أهل السنة في الصحابة للدكتور ناصر بن علي، وكتاب مذكرات في الفرق للدكتور العواجي.

(١) مقالات الإسلاميين، لأبي الحسن الأشعري: ١/٢٠٧ .

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم: ٢/١١٣ .

الذي اجتمعت الكلمة على إمامته الشرعية خروجاً في أي زمن كان، حيث قال في تعريفه للخوارج: (كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه، يسمى خارجياً سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان) [١] .

وقال ابن حجر رحمه الله تعالى معرفاً لهم :

« والخوارج الذين أنكروا على علي التحكيم وتبرءوا منه ومن عثمان وذريته وقاتلوهم، فإن أطلقوا تكفيرهم فهم الغلاة منهم » [٢] .

وقال في تعريف آخر: « أما الخوارج فهم جمع خارجة، أي طائفة وهم قوم مبتدعون سموا بذلك لخروجهم عن الدين وخروجهم على خيار المسلمين» [٣] .

فالخوارج هم : أولئك النفر الذين خرجوا على علي ﷺ بعد قبوله التحكيم بعد موقعة صفين ولهم ألقاب أخرى عرفوا بها غير لقب الخوارج ومن تلك الألقاب: الحرورية سموا بهذا الاسم لنزولهم بمنطقة حروراء في أول أمرهم، ومن ألقابهم: الشراة لقولهم شرينا أنفسنا في طاعة الله، ومن أسمائهم: المارقة والمحكمة لإنكارهم الحكمين، وقولهم لا حكم إلا لله، وهم يرضون بهذه الألقاب كلها إلا المارقة، فإنهم ينكرون أن يكونوا مارقة من الدين كما يمرق السهم من الرمية [٤] .

ولكن يجب أن ننوه ههنا على ضوابط تعريف الخوارج ، حيث إن هذه التعاريف السالفة لا تنسحب بالضرورة على من خرج على الحكام المبدلين لشرع الله الحنيف، الذين يحرسون مناهج العلمانية الكافرة ويسوسون الدنيا بها !! ، بل يصدق وصف الخوارج – سالف الذكر – وينسحب على من خرج على الحكام

(١) الملل والنحل، للشهرستاني: ١ / ١١٤ .

(٢) هدي الساري مقدمة فتح الباري: ٤٥٩ .

(٣) فتح الباري: ١٢ / ٢٨٣ .

(٤) عقيدة أهل السُنة والجماعة في الصحابة: ٣ / ١١٣٤ .

المسلمين الذين يحكمون بشرع الله الحنيف ويسوسون الدنيا به. وعلى ذلك انعقد إجماع أهل السُنَّة والجماعة ، كما ذكر ذلك الإمام النووي - رحمه الله - بقوله: قال القاضي عياض أجمع العلماء على أن الإمامة لا تنعقد لكافر وعلى أنه لو طرأ عليه الكفر انعزل، إلى أن قال: فلو طرأ عليه كفر وتغيير للشرع أو بدعة خرج عن حكم الولاية وسقطت طاعته ووجب على المسلمين القيام عليه وخلعه ونصب إمام عادل إن أمكنهم ذلك. (١)

ثانياً: بداية نشأة الخوارج:

وأما بداية نشأتهم فإنها كانت بعد حصول الاتفاق على التحكيم بين علي ومعاوية سنة سبع وثلاثين، فقد أخرج الطبري من طريق سليمان بن يونس بن يزيد عن الزهري أن أهل الشام نشروا المصاحف حين كاد أهل العراق أن يغلبوهم ودعوا إلى ما فيها، فهاب أهل العراق، فعند ذلك حَكَّموا الحكمين، فاختار أهل العراق أبا موسى الأشعري، واختار أهل الشام عمرو بن العاص، فتفرق أهل صفين حين حكم الحكمان وإنهما يجتمعان بدومة الجندل، فإن لم يجتمعا لذلك اجتمعا من العام المقبل بأذْرُح، فلما انصرف عليّ، خالفت الحرورية وخرجت وكان ذلك أول ما ظهرت فأذنوه بالحرب وقالوا: لا حكم إلا لله (٢) .

فكان أول خروجهم على عليّ ﷺ، بعد أن وافق على التحكيم واعتبروا التحكيم خطيئة تؤدي إلى الكفر .

ولما بعث عليٌّ أبا موسى ومن معه من الجيش إلى دومة الجندل، اشتد أمر الخوارج وبالغوا في النكير على عليّ وصرحوا بكفره، فجاءه رجلان منهم وهما: زرعة بن البرج الطائي، وحرقوص بن زهير السعدي، فقال لا حكم إلا لله، فقال عليّ لا حكم إلا لله، فقال له حرقوص، تب من خطيئتك واذهب بنا إلى عدونا

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ١٣/ ٢٢٩ .
(٢) انظر: تاريخ الأمم والملوك: ٥/ ٧٥ .

حتى نقاتلهم حتى نلقى ربنا، فقال علي: قد أردتكم على ذلك فأبيتم، وقد كتبنا بيننا وبين القوم عهوداً وقد قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾ [النحل: ٩١].

فقال له حرقوص: ذلك ذنب ينبغي أن نتوب منه فقال عليّ: ما هو بذنب، ولكنه عجز من الرأي، وقد تقدمت إليكم فيما كان منه ونهيتكم عنه، فقال له زرعة بن البرج: أما والله يا علي لئن لم تدع تحكيم الرجال في كتاب الله لأقاتلنك أطلب بذلك رحمة الله ورضوانه، فقال علي: تبًّا لك ما أشقاك كأني بك قتيلاً تسفي عليك الريح، فقال: وددت أن قد كان ذلك، فقال له علي: إنك لو كنت محقاً كان في الموت عزية عن الدنيا، ولكن الشيطان قد استهواكم [١].

ولما رأوا عزم عليّ على إنفاذ الحكومة وبعثة أبا موسى الأشعري، قرروا الانفصال عنه وتعيين أمير عليهم، فاجتمعوا في منزل عبد الله بن وهب الراسبي فخطبهم خطبة بليغة زهدهم في الدنيا ورغبهم في الآخرة والجنة وحثهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم قال: فاخرجوا بنا إخواننا من هذه القرية الظالم أهلها إلى جانب هذا السواد إلى بعض كور الجبال أو بعض هذه المدائن منكرين لهذه الأحكام الجائرة، ثم قام حرقوص بن زهير فقال بعد حمد الله والثناء عليه: إن المتاع بهذه الدنيا قليل وإن الفراق لها وشيك فلا تدعونكم زينتها أو بهجتها إلى المقام بها ولا تلتفت بكم عن طلب الحق وإنكار الظلم ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨].

فقال حمزة بن سنان الأسدي: يا قوم إن الرأي ما رأيتم وإن الحق ما ذكرتم، فولوا أمركم رجلاً منكم، فإنه لابد لكم من عماد وسنان ومن راية تحفون بها، وترجعون إليها فبعثوا إلى زيد بن حصن الطائي وكان من رءوسهم - فعرضوا

---

(١) المرجع السابق: ٥ / ٧٢، الكامل في التاريخ: ٣٣٤.

عليه الإمارة فأبى، ثم عرضوها على حرقوص بن زهير فأبى، وعرضوها على حمزة ابن سنان فأبى، وعرضوها على شريح بن أبي أوفى العبسي فأبى، وعرضوها على عبد الله بن وهب الراسبي فقبلها، وقال: أما والله لا أقبلها رغبة في الدنيا ولا أدعها فرقاً من الموت (١).

واجتمعوا أيضاً في بيت زيد بن حصن الطائي السنبسي فخطبهم وحثهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتلا عليهم آيات من القرآن، ومنها قوله تعالى: ﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [ص:٢٦] وقوله تعالى: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [المائدة:٤٤]، ﴿ **فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿ **فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [المائدة:٤٧].

ثم قال: فاشهد على أهل دعوتنا من أهل قبلتنا أنهم اتبعوا الهوى ونبذوا حكم رجل منهم يقال له: عبد الله بن شجرة السلمي، ثم حرض أولئك على الخروج على الناس وجاء في كلامه اضربوا وجوههم وجباههم بالسيوف حتى يطاع الرحمن الرحيم، فإن أنتم ظفرتم وأطيعوا الله كما أردتم - أثابكم ثواب المطيعين له العاملين بأمره، وإن فشلتم فأي شيء أفضل من المصير إلى رضوان الله وجنته؟ (٢).

قال العلامة ابن كثير بعد أن ذكر ما أملاه الشيطان لهم بما تقدم ذكره:

وهذا الضرب من الناس من أغرب أشكال بني آدم، فسبحان من نوع خلقه كما أراد وسبق في قدره العظيم، وما أحسن ما قال بعض السلف في الخوارج إنهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ**

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/٧٤-٧٥.

(٢) انظر: البداية والنهاية، لابن كثير: ٧/٣١٢.

كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ﴾ .

[الكهف: ١٠٣–١٠٥].

والمقصود أن هؤلاء الجهلة الضلال، والأشقياء في الأقوال والأفعال ، اجتمع رأيهم على الخروج من بين أظهر المسلمين، وتواطئوا على المسير إلى المدائن ليملكوها على الناس ويتحصنوا بها، ويبعثوا إلى إخوانهم وأضرابهم ممن هم على رأيهم ومذهبهم من أهل البصرة وغيرها فيوافوهم إليها، ويكون اجتماعهم عليها، فقال لهم زيد بن حصن الطائي : إن المدائن لا تقدرون عليها، فإن بها جيوشاً لا تطيقونها وسيمنعوها منكم ، ولكن واعدوا إخوانكم إلى جسر نهر جوخي ولا تخرجوا من الكوفة جماعات، ولكن اخرجوا وحداناً لئلا يفطن بكم فكتبوا كتاباً عاماً إلى من هو على مذهبهم ومسلكهم من أهل البصرة وغيرها وبعثوا به إليه ليوافوهم إلى النهر ليكونوا يداً واحدة على الناس، ثم خرجوا يتسللون وحداناً لئلا يعلم أحد بهم فيمنعوهم من الخروج، فخرجوا من بين الآباء والأمهات والأخوال والخالات وفارقوا سائر القرابات يعتقدون بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم أن هذا الأمر يرضي رب الأرض والسموات، ولم يعلموا أنه من أكبر الكبائر الموبقات والعظائم والخطيئات، وأنه مما زينه لهم إبليس الشيطان الرجيم المطرود عن السموات الذي نصب العداوة لأبينا آدم، ثم لذريته ما دامت أرواحهم في أجسادهم مترددات وقد تدارك جماعة من الناس بعض أولادهم وإخوانهم، فزادوهم وأنبوهم ووبخوهم، فمنهم من استمر على الاستقامة، ومنهم من فر بعد ذلك فلحق بالخوارج فخسر إلى يوم القيامة، وذهب الباقون إلى ذلك الموضع ووافى إليهم من كانوا كتبوا إليه من أهل البصرة وغيرها، واجتمع الجميع بالنهروان وصارت لهم شوكة ومنعة [١] .

---

(١) البداية والنهاية، لابن كثير: ٧/٢٠٧.

فبداية الخوارج على شكل جماعي له اتجاهه وآراؤه الخاصة بدأ بالخروج على عليّ رضي الله عنه، وأما خروج ذي الخويصرة في زمن النبيّ ﷺ فكان اعتراضه على النبيّ ﷺ اعتراض فرد وليس اعتراض جماعة وأما خروج الثائرين على عثمان رضي الله عنه هو خروج عن طاعة الإمام الحق إلا أن هذا الخروج لم يكن يتميز بأنه خروج جماعة لها عقائدها الواضحة وآراؤها المتميزة، وإنما كان خروجاً من قوم أهل جهل وبغي وتعنت وأهل ظلم وخيانة وافتراء اندس فيهم زنادقة.

ثالثاً: الأحاديث والآثار الواردة في ذم الخوارج:

لقد وردت أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ في ذم الخوارج وصفوا فيها بأوصاف ذميمة شنيعة جعلتهم في أخبث المنازل، وكذا وردت بعض الآثار عن السلف تتضمن كذلك ذمهم وما سلكوه من الطريق المخالف لغير سبيل المؤمنين .

فمن تلك الأحاديث الواردة في ذمهم :

﴿ ١ ﴾ ما رواه الشيخان في صحيحهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً – إذ أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم، فقال: يا رسول الله اعدل، فقال : « **ويلك ، ومن يعدل إذا لم أعدل ، قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل** » !! فقال عمر يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه، فقال : «**دعه فإن له أصحاب يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية** » (١) .

وإذا تتبعت أحاديث رسول الله ﷺ في الخوارج تجد ذماً واضحاً لهم، فقد وصفهم ﷺ بأنهم طائفة مارقة، وأنهم يشددون في الدين في غير موضع التشديد، وأنهم يبالغون في الصلاة وقراءة القرآن، لكنهم لا يقومون بحقوق

---

(١) صحيح البخاري: ٢ / ٢٨١، صحيح مسلم: ٢ / ٧٤٤-٧٤٥.

الإسلام، بل يمرقون منه بحيث يدخلون فيه ثم يخرجون منه سريعاً لم يتمسكوا منه بشيء.

وفي قوله: [لا يجاوز تراقيهم] احتمالان:

الأول: يحتمل أنه لكونه لا تفقهه قلوبهم ويحملونه على غير مراد.

الثاني: يحتمل أن يكون المراد أن تلاوتهم لا ترتفع إلى الله [١] .

ومن صفاتهم الذميمة التي ذمهم بها الرسول ﷺ :

أنهم ليس لهم من الإيمان عندما يقرءون القرآن يظنونه لشدة ما بلغوا إليه من سوء الفهم أنه لهم وهو عليهم.

﴿ ١ ﴾ وفي البخاري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **يخرج قوم في آخر الزمان أحداث الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من خير قول البرية ، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية** » [٢] .

ومن صفات الذم التي ذم بها الخوارج على لسان رسول الله ﷺ أنهم ابغض الخلق إلى الله، فقد جاء في صحيح مسلم من حديث عبيد الله بن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ أن الحرورية لما خرجت وهو مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه قالوا: لا حكم إلا لله ، قال علي كلمة حق أريد بها باطل، إن رسول الله ﷺ وصف ناساً إني لأعرف صفتهم وهؤلاء يقولون الحق بألسنتهم لا يجاوز هذا منهم (وأشار إلى حلقه) من ابغض خلق الله إليه منهم أسْوَد إحدى يديه طُبْى شاه [٣] أو حلمة ثدي، فلما قتلهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: انظروا فنظروا فلم يجدوا شيئاً، فقال: ارجعوا فوالله ما كذبت ولا كذبت مرتين أو ثلاثاً ثم وجدوه في

---

(١) فتح الباري: ٦ / ٦١٨ .

(٢) صحيح البخاري: ٢ / ٢٨١ .

(٣) **طبي شاة**: ضرع شاة: انظر النهاية في غريب الحديث و الأثر: ٣ / ١١٥ .

خربة فأتوا به حتى وضعوه بين يديه، قال عبيد الله وأنا حاضر من أمرهم وقول علي فيهم (١) .

ومن الصفات القبيحة التي ذمهم بها ﷺ أنهم بمروقهم من الدين لا يوفقون للعودة إليه، وأنهم شر الخلق والخليقة، فقد روى مسلم رحمة الله من حديث أبي ذر ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: « **سيكون بعدي من أمتي قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حلاقيمهم ، يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية ، ثم لا يعودون فيه ، هم شر الخلق والخليقة** » (٢) .

وروى من حديث أبي سعيد أن النبي ﷺ ذكر قوماً يكونون في أمته يخرجون في فرقة من الناس سيماهم التحالق قال: « **هم شر الخلق أو من شر الخلق ، يقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق** » (٣) .

قال النووي : قوله ﷺ: « **يتيه قوم قبل المشرق** » أي يذهبون عن الصواب الحق يقال تاه إذا ذهب ولم يهتد لطريق الحق والله أعلم (٤) .

ومن الصفات المذمومة التي تلبسوا بها وأخبر النبي ﷺ أنها واقعة فيهم :

أنهم يتدينون بقتل أهل الإسلام وترك عبدة الأوثان والصلبان، فقد روى الشيخان في صحيحهما من حديث أبي سعيد الخدري قال: [بعث علي ﷺ وهو باليمن بذهَيْبَةٍ في تربتها إلى رسول الله ﷺ فقسمها رجل بين أربعة نفر . . . فجاء رجل كث اللحية مشرف الوجنتين (٥) ، ناتيء الجبين (٦) ، محلوق الرأس فقال: اتق الله يا محمد ، قال فقال رسول الله ﷺ: « **فمن يطع الله إن عصيته**

---

(١) صحيح مسلم: ٢ / ٧٤٩ .

(٢) صحيح مسلم: ٢ / ٧٥٠ .

(٣) المرجع السابق: ٢ / ٧٤٥ .

(٤) شرح النووي: ٧ / ١٧٥ .

(٥) **مشرف الوجنتين:** أي غليظهما، والوجنة ما ارتفع من لحم خد الإنسان.

(٦) **ناتئ الجبين:** أي بارز الجبين من النتوء وهو الارتفاع.

أيأمنني على أهل الأرض ولا تأمنوني؟ » قال: ثم أدبر الرجل، فاستأذن رجل من القوم في قتله يرون أن خالد بن الوليد ، فقال رسول الله ﷺ : « **إن من ضئضئي** [١] **هذا يخرج قوم يقرئون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد** » [٢] .

وفي هذه معجزة باهرة للرسول ﷺ حيث وقع منهم ما أخبر به ﷺ فإنهم كانوا يسلون سيوفهم على أهل الإسلام بالقتل وكانوا يغمدونها عن الكفار من اليهود والنصارى، وكانوا يعظمون ظلمهم، بل بلغ بهم سوء حالهم، أن عنفوا أحدهم على تناوله حبة تمر من نخيل كتابي كما زجروا أحدهم ولاموه على قتله خنزيراً لمعاهد، أما سفكهم دماء أهل الإسلام فإنهم يستحلون ذلك ويهونون أمره، ولا يلومون عليه كقتلهم عبد الله بن خباب بن الأرت [٣] وغيره من المسلمين فإنهم فعلوا ذلك واستعرضوا الناس بالسيف دون أن يقول بعضهم لبعض هذا منكر.

ومن الصفات القبيحة التي كانت ذماً وعاراً مشيناً للخوارج أن الرسول ﷺ حرض على قتلهم إن هم ظهروا وأخبر ﷺ أنه لو أدركهم لأبادهم بالقتل إبادة عاد وثمود، وأخبر ﷺ بأن من قتلهم له أجر عند الله تعالى يوم القيامة. ففي صحيح البخاري قال ﷺ: « **لئن أدركتهم لأقتلهم قتل عاد** » [٤] ، وفي رواية أخرى قال: « **لئن أدركتهم لأقتلهم قتل ثمود** » [٥] .

---

(١) **الضئضئ** : بالهمز الأصل، والمراد: يخرج من صلبه ونسله، جامع الأصول لابن كثير: ١٠/ ٨٨.

(٢) صحيح البخاري: ٢/ ٢٣٢، صحيح مسلم: ٢/ ٧٤١-٧٤٢.

(٣) **انظر**: مصنف ابن أبي شيبة: ١٥/ ٣٢٣.

(٤) صحيح البخاري: ٢/ ٢٣٢.

(٥) المرجع السابق: ٣/ ٧٤، جل مبحث الخوارج من كتاب عقيدة أهل السُنة في الصحابة ، د/ ناصر بن علي عائض.

وأما الآثار الواردة عن السلف في ذم الخوارج فكثيرة جداً أيضاً نذكر طرفاً منها لبيان أن الخوارج اتصفوا بصفات ذميمة عابهم بها السلف رحمهم الله فمن الصفات التي ذمهم بها السلف أنهم قوم أصيبوا بالفتنة فعموا عن الحق وصموا فلا يسمعون حقاً ولا يهتدون إليه.

فقد روى عبد الرازق عن معمر عمن سمع الحسن قال: لما قتل عليّ رضي الله عنه الحرورية قالوا: من هؤلاء يا أمير المؤمنين، أكفارهم؟ ، قال: من الكفر فروا ! قيل فمنافقون؟ ، قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، وهؤلاء يذكرون الله كثيراً، قيل فما هم؟ قال: قوم أصابتهم فتنة فعموا فيها وصموا [١] .

ومن الصفات الشنيعة التي شنع عليهم السلف بها : أنهم كانوا يعتبرونهم من شرار خلق الله تعالى، حيث إنهم عمدوا إلى آيات من كتاب الله تعالى مقصود بها الكفار فجعلوها في المؤمنين، فقد كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يراهم شرار خلق الله وقال: إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين [٢] وروى عبد الرازق عن معمر عن أبي غالب قال: لما أتي برءوس الأزارقة فنصبت على درج دمشق [٣] جاء أبو أمامة رضي الله عنه، فلما رآهم دمعت عيناه، ثم قال: كلاب النار كلاب النار هؤلاء لشر قتلى قتلوا تحت أديم السماء وخير قتلى تحت أديم السماء الذين قتلهم هؤلاء، قلت: فما شأنك دمعت عيناك؟ قال: رحمة لهم إنهم كانوا من أهل الإسلام قال: أبرايك قلت: كلاب النار أو شيء سمعته؟ قال: إني إذاً لجرئ، بل سمعته من رسول الله غير مرة ولا اثنتين ولا ثلاثاً فعد مراراً، ثم تلا ﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ**﴾ حتى بلغ ﴿**هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [آل عمران: ١٠٦-١٠٧] وتلا ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ**

---

(١) مصنف عبد الرزاق: ١٠/١٥٠.

(٢) رواه البخاري تعليقاً: ٤/١٩٧.

(٣) هذه الرءوس مما كان بعث به المهلب بن أبي صفرة في عهد عبد الملك بن مروان.

آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ حتى بلغ ﴿أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران : ٧] ثم أخذ بيدي فقال : أما إنهم بأرضك كثير فأعاذك الله تعالى منهم [١] وروى ابن أبي شيبة بإسناده إلى عمير بن إسحاق ، قال : ذكروا الخوارج عند أبي هريرة رضي الله عنه قال : أولئك شرار الخلق [٢] .

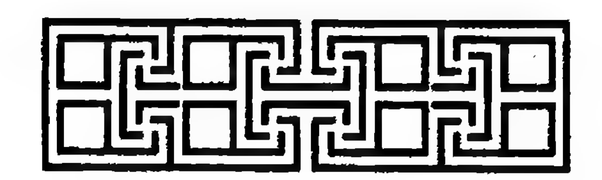

(١) مصنف عبد الرزاق : ١٠ / ١٥٢، مصنف ابن أبي شيبة : ١٥ / ٣٠٧-٣٠٨.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة : ١٥ / ٢٠٥.

المبحث الثاني

أهم فرق الخوارج

لقد تشبعت الخوارج إلى فرق عدة بلغ بها بعض أهل العلم ممن كتب في الملل والنحل إلى عشرين فرقة، وعند النظر في هذه الفرق من خلال الكتب التي ألفت في الفرق يتضح أن الخلاف والنزاع بينهما لم يكن في أمور مهمة تؤدي إلى تكوين جماعات مستقلة، بل إن معظم نزاعهم كان يحصل في كثير من أحوالهم حول أمور فرعية، ومن ذلك العدد الكثير الذي ذكر في تعداد فرقهم، نذكر هنا أهم فرقهم المتمثلة في المحكمة الأولى والأزارقة، والنجدات، والصفرية، والإباضية، وعداها من الفرق فهي متفرعة منها وداخلة فيها.

أولاً: المحكمة الأولى:

يقصد بالمحكمة الأولى أولئك الذين خرجوا على الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهم الذين أعلنوا شعار لا حكم إلا لله. والتفوا حوله وقد اختلف في أول من نادى بهذا الشعار منهم، فقيل أنه عروة بن حدير أخو مرداس الخارجي، وقيل إن أول من نادى يزيد بن عاصم المحاربي، وقيل إنه رجل من بني يشكر، كان مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه بصفين، ولما اتفق الفريقان على التحكيم ركب وحمل على أصحاب علي، وقتل منهم واحدا ثم حمل على أصحاب معاوية، وأنه خرج من حكمهم فقتله رجل من همدان ، ثم إن جماعة ممن كانوا مع علي رضي الله عنه في حرب صفين ، استمعوا منه ذلك الكلام واستقرت في قلوبهم تلك الشبهة، ورجعوا مع علي إلى الكوفة، ثم فارقوه ورجعوا إلى حروراء (١) .

ولما استقروا في حروراء كانوا يعاملون من يخالفهم من المسلمين في رأيهم

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين: ١/ ٢٠٧-٢٠٩، الفرق بين الفرق للبغدادي: ٧٤-٧٥.

أبشع المعاملة وأشد القسوة، قال أبو الحسين الملطي واصفًا ما بلغوا إليه من ظلم وإجرام: (فأما الفرقة الأولى من الخوارج فهم المحكمة الذين كانوا يخرجون بسيوفهم فيمن يلحقون من الناس، فلا يزالون يقتلون حتى يقتلوا، وكان الواحد منهم إذا خرج إلى التحكيم لا يرجع حتى يقتل أو يقتل، فكان الناس منهم على وجل وفتنة) (١) .

ومن أبشع جرائمهم وأفظعها قتلهم عبد الله بن خباب بن الأرت، فقد روى الإمام أحمد بإسناده إلى حميد بن هلال عن رجل من عبد القيس كان مع الخوارج ثم فارقهم، قال: دخلوا قرية فخرج عبد الله بن خباب مذعوراً يجر رداءه، فقالوا: لم ترع، قال: والله لقد رعتموني، قالوا: فهل سمعت من أبيك حديثاً يحدثه عن رسول الله ﷺ تحدثناه، قال: نعم سمعته يحدث عن رسول الله ﷺ: [أنه ذكر فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، قال فإن أدركت ذاك فكن عبد الله المقتول] قال أيوب ولا أعلمه قال: ولا تكن عبد الله القاتل قالوا: أأنت سمعت هذا من أبيك يحدثه عن رسول الله ﷺ قال نعم. قال فقدموه على ضفة النهر فضربوا عنقه، فسال دمه، كأنه شراك نعل ما أمَّذَقَ (٢) وبقروا أم ولده عما في بطنها (٣) . وكان الذي تولى قتله منهم رجل يقال له: مسعر بن فدكي (٤) .

ولما بلغ علياً رضي الله عنه نبأ قتلهم عبد الله بن خباب وقتلهم الكثير من الأطفال والنساء، وقد كان رضي الله عنه متأهبًا للعودة إلى صفين لمقاتلة أهل الشام، فرأى أن العودة لمقاتلة هؤلاء المفسدين أولى فكان في ذلك خير له ولأهل الشام فرجع إلى

---

(١) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، لأبي الحسن محمد بن أحمد الملطي: ٥١.
(٢) معناه أنه مر فيه كالطريقة الواحدة ولم يختلط به، ولذلك شبهه بالشراك الأحمر وهو سير النَّعْل.
(٣) انظر: المسند: ٥/١١٠.
(٤) مقالات الإسلاميين لأبي حسن الندوي: ١/٢١٠.

النهروان (فقاتلهم مقاتلة شديدة وكان عددهم أثني عشر ألفا فما انفلت منهم إلا أقل من عشرة، وما قتل من أصحاب علي إلا أقل من عشرة ، فانهزم اثنان منهم إلى عمان، واثنان إلى كرمان واثنان إلى سجستان واثنان إلى الجزيرة، وواحد إلى تل موزن)[١] . وظهرت بدع الخوارج في هذه المواضع منهم [٢]، وقد انمحت بدعهم في بعض هذه الأماكن نهائيًا، وبعضها باقية فيها إلى اليوم.

ثانياً: الأزارقة :

هم أتباع رجل منهم يسمى بأبي راشد نافع بن الأرزق الحنفي، ولم يكن للخوارج قوم أكثر منهم عدداً وأشد منهم شوكة، ولهم اعتقادات فارقوا بها المحكمة الأولى وسائر فرق الخوارج، فهم يعتقدون أن من خالفهم من هذه الأمة فهو مشرك بينما المحكمة يعتقدون أن مخالفهم كافر ولا يسمونه مشركاً، ومما اخْتُصُّوا به أيضاً أنهم يسمون من لم يهاجر إلى ديارهم من موافقيهم مشركاً، وان كان موافقاً لهم في مذهبهم وكان من عاداتهم فيمن هاجر إليهم أن يمتحنوه بأن يسلموا إليه أسيراً من أسراء مخالفيهم وأطفالهم ويأمروه بقتله، فمن قتله صدقوه في دعواه أنه منهم، وإن لم يقتله قالوا: هذا منافق ومشرك، وقتلوه ويزعمون أيضاً، أن أطفال مخالفيهم مشركون ويزعمون أنهم يخلدون في النار، وبالإضافة إلى هذه المعتقدات الشاذة والآراء المنحرفة، فقد نادى الأزارقة ببعض الآراء التي تنم عن جهلهم بالشرع وعدم فقههم في الدين، من ذلك: إسقاطهم حد الرجم عن الزاني المحصن بحجة أنه لم يرد في القرآن نص عليه [٣] .

كما أسقطوا أيضاً حد القذف عمن قذف المحصن من الرجال مع وجوب الحد على قاذف المحصنات من النساء، تمسكاً أيضاً: في زعمهم بما – ورد في القرآن –

---

(١) بلد قريب من حران، انظر معجم البلدان: ٢ / ٤٥ .

(٢) انظر: الملل والنحل: ١ /١١٧ .

(٣) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل: ٤ /١٨٩ .

وذهبوا أيضاً إلى أن يد السارق تقطع في القليل والكثير من غير اعتبار لنصاب الشيء المسروق، وأن القطع يكون من المنكب كما أوجبوا على الحائض الصلاة والصوم في حال حيضها، كما أنهم حرموا قتل النصارى واليهود وأباحوا قتل المسلمين، وهذه الآراء واضح فيها الجهل وعدم العلم والفهم للقرآن، وعدم الإلمام بالسُّنَّة، ويصدق عليهم قوله ﷺ :«**يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم**» [١] .

وقد اشتدت شوكة الأزارقة وصارت لهم قوة حتى أخذوا في مقاتلة غيرهم حتى تغلبوا على بلاد الأهواز وأرض فارس وكرمان أيام عبد الله ابن الزبير حين بعث عاملاً على البصرة، فأخرج لهم سرية لقتالهم وكان عدد هذه السرية ألف مقاتل، فقتلهم الخوارج ثم بعث إليهم بثلاث آلاف من المقاتلة فظفر بهم الخوارج أيضاً، فبعث عبد الله الزبير من مكة كتاباً وجعل قتالهم إلى المهلب بن أبي صفرة حتى جمع عسكراً عظيماً وهزم نافع بن الأزرق وقتل في هذه الهزيمة وبايعت الأزارقة بعده رجلاً آخر منهم فهزمه المهلب أيضاً، وقتل في هذه الهزيمة، فبايعوا بعده قطري بن الفجاءة التميمي، وسموه بأمير الموت، واستمر المهلب في مقاتلتهم حتى انحازوا إلى نيسابور من بلاد فارس وجعلوها دار هجرتهم [٢] .

وقد بلغت المدة التي قاتلهم فيها المهلب تسع عشرة سنة ، بعضها في زمان ابن الزبير، وبعضها في زمان عبد الملك بن مروان ولما ولي الحجاج بن يوسف العراق أقر المهلب على قتالهم فاستمر المهلب في مقاتلتهم حتى وقع الخلاف بين قطري ابن الفجاءة وأتباعه، فواصل المهلب مقاتلة قطري فكان كلما سار قطري إلى ناحية من النواحي تبعه المهلب حتى هزمه إلى الري، ثم اتجه لمقاتلة جماعة أخرى منهم بقيادة رجل منهم يسمى عبد ربه الصغير حتى كُفِيَ شغله وقتله ، وبعث الحجاج جيشاً عظيماً إلى الري فقاتل قطري بن الفجاءة، فانهزم إلى طبرستان ثم

---

(١) الحديث في صحيح مسلم:٢/ ٧٤٠ .

(٢) **انظر** : الفرق بين الفرق :٨٥-٨٦ ، البداية والنهاية:٨/ ٣٤٨ .

هرب في جملة من أتباعه إلى موسى بن عبيدة بن هلال اليشكري فتبعته جنود الحجاج حتى قتلته وقطع الله دابر الأزارقة بقتل قطري فلم تجمع لهم قوة بعد ذلك مثل ما كانت لهم من قبل [١] .

ثالثاً: النجدات :

هؤلاء هم أتباع نجدة بن عامر الحنفي الذي يقال: إنه كان باليمامة حيث تخلف عن نافع بن الأزرق عند رجوعهم من مكة، وبينما هو في طريقه ليلحق بمعسكر نافع بن الأزرق التقى به من أخبره بما أحدثه نافع من الآراء التي منها:

استباحة قتل أطفال مخالفيه ، وحكمه على القعدة بالشرك[٢] . وهنا قيل: إنه رجع إلى اليمامة لما سمع بما أحدثه نافع وأعلن انفصاله عنه وتبرأ منه ، وبويع له بالإمامة وأصبح أميراً على طائفة من الخوارج عرفوا بالنجدات [٣] ، وصار لنجدة وأتباعه نفوذاً واسعًا في كثير من البلدان شمل البحرين وشواطئ الخليج وامتد إلى عمان وبعض أجزاء اليمن [٤] .

وذهب النجدات إلى أن الدين أمران :

أحدهما: معرفة الله تعالى ومعرفة رسله عليهم الصلاة والسلام وتحريم دماء المسلمين [٥]، والإقرار بما جاء من عند الله جملة فهذا واجب على الجميع والجهل به لا يعذر فيه.

والثاني: ما سوى ذلك فالناس معذورون فيه ، إلى أن تقوم عليهم الحجة في الحلال والحرام ، وتدين النجدات بمبدأ العذر بالجهل في أحكام الفروع حتى

---

(١) **انظر**: تاريخ الإمم والملوك للطبري: ٦ / ٢٠٢.

(٢) **انظر**: الملل والنحل للشهرستاني: ١ / ١٢١.

(٣) مقالات الإسلاميين: ١ / ١٧٤.

(٤) **انظر**: الفرق بين الفرق: ٩٠، الكامل لابن الأثير: ٤ / ٢٠١.

(٥) المقصود بالمسلمين الموافقون لهم في مذهبه.

سموا بالعاذرية [١] .

وقد اختلف النجدات مع زعيهم نجدة بن عامر الحنفي، ونقموا عليه عدة أمور من بينها تعطيله حد الخمر، وعدم عدله في قسم الفيء وتفريقه الأموال بين الأغنياء من أتباعه وحرمانه ذوي الحاجة منهم، ومكاتبته عبد الملك بن مروان، ووصل الخلاف إلى قتل نجدة وانقسموا إلى ثلاث فرق، النجدية والعطوية نسبة إلى عطية بن الأسود الحنفي والي الفديكية نسبة إلى أبي فديك ، وكان هذا الخلاف بين النجدات من أعظم العوامل في تدمير هذه الفرقة حيث اضمحل أمرها وتلاشى أثرها [٢] .

رابعا: الصفرية:

لقد اختلف العلماء فيمن تنتسب إليه هذه الفرقة، هل سموا بذلك نسبة إلى الصُفرة إِشارة إلى صُفرة وجوههم من أثر ما تكلفوه من السهر والعبادة والزهد، أم سموا بهذه التسمية نسبة إلى رجل معين ، كما نسبت الأزراقة والنجدات والإباضية.

المهم في هذا الموضوع:

أن الصفرية كانت أقل شذوذاً وأقل غلواً من الأزارقة إذ أنهم خالفوهم في رأيهم تجاه القعدة ومرتكب الكبيرة، فلم يكفروا القعدة كما ذهب الأزارقة ما داموا موافقين لهم على مذهبهم، ولم يكفروا مرتكب الكبيرة على الإطلاق كما هو مذهب الأزراقة، بل فرقوا بين الذنوب التي فيها حد مقرر كالزنا والسرقة والقذف والقتل العمد، فهذا في رأيهم لا يتجاوز بمرتكبهم الاسم الذي سماه الله بها زان، وسارق وقاذف، وقاتل عمد، وليس صاحبه كافراً ولا مشركاً،وكل ذنب ليس فيه حد كترك الصلاة والصوم فهو كفر وصاحبه كافر [٣] . ولا يرى

---

(١) انظر : الملل والنحل: ١ / ١٢٤ .

(٢) عقيدة أهل السُنة والجماعة في الصحابة (٣ / ١١٥٠، ١١٥١) .

(٣) انظر : الفرق بين الفرقْ: ٩١ .

الصُفرية أن دار مخالفيهم دار حرب ، كما لم يحكموا بقتل أطفال المشركين وتكفيرهم ولا يقولون بخلودهم في النار، ولم يجيزوا سبي الذرية والنساء، ولهم آراء انفردوا بها في الشرك والكفر والبراءة. فالشرك عندهم شركان: شرك هو طاعة الشيطان، وشرك هو عبادة الأوثان، والكفر كفران: كفر بإنكار النعم، وكفر بإنكار الربوبية، والبراءة براءتان: براءة من أهل الحدود سُنَّة ، وبراءة من أهل الجحود فريضة، ولم يسقط الصُفرية عقوبة الرجم كما فعل الأزارقة، وأجازوا التقية كالنجدات ولكن في القول دون العمل [١] .

كلمة للشيخ طاهر الزاوي - رحمة الله - في الخوارج:

يذكر الشيخ طاهر الزاوي في كتابة تاريخ الفتح العربي في ليبيا أن دعوة الخوارج تسللت عن طريق رسلهم إلى المغرب، وبثوا فيه ضلالاتهم ووجدت دعوتهم الخبيثة من البربر آذاناً صاغية فتمكنت من نفوسهم وتفرقوا أحزاباً وشيعاً تسمت كل منها باسم رئيسها.

واختلفت أهواؤهم فيما يدعون إليه، وأعان على نشر ضلالاتهم بين البربر الجهل الذي كان مخيماً علي عقولهم، وكان هَمُّ أصحاب هذه النحل محاربة مبادئ الإسلام وانتزاع الدولة من العرب بأي ثمن كان، ورفعوا راية العصيان في وجه الخلافة الأموية ، وانتشرت بدعة الخوارج في كافة المغرب،

ويقول صاحب خلاصة تاريخ تونس: (وانتشرت في الأندلس لأنها كانت إذ ذاك تابعة لإفريقية، وقد ساعد على انتشارها ما طرأ على الدولة الأموية من ضعف بسبب ظهور الدعوة العباسية) وقد كان لظهور دعوة الخوارج في إفريقية أسوأ الأثر علي الإمارات الإسلامية في إفريقية، ولم يستقم أمرها إلى أن استقر أمر الدولة العباسية فاهتموا بإفريقية اهتماماً خاصاً.

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني: ١ /١٣٧.

وقد تسربت بدعة الخوارج إلى إفريقية في زمن غير معين ويظهر أنه كان في أواخر المائة الأولى من الهجرة، وأوائل المائة الثانية منها، جاء بها جماعة من الأفاقين من المشرق، وكانت قبيلة مضغرة – من البربر البتر – أول من اعتنق المذهب الخارجي، وانتشر فيها، وكان لرئيسها ميسرة المضغري نشاط في الدعوة إليه، وكان ميسرة يعرف بالفقير وهو أول من ناصر نحلة الخوارج ودعا إليها، وجمع الناس على تأييدها وقد تلقاها من الأفاقين القادمين من المشرق.

ولما ولي عبد الله بن الحبحاب على إفريقية سنة ١١٤هـ استعمل عمر بن عبد الله المرادي على طنجة والمغرب الأقصى، فنقم البربر عليه سيرته فيهم فقتلوه سنة ١٢٥هـ وولى ميسرة بدله على طنجة عبد الأعلى بن جريج الإفريقي وهو رومي الأصل، ومولى للعرب فقتل أيضاً، وانتشرت الفتنة واضطرب حبل الأمن في المغرب فأرسل عبد الله بن الحبحاب إليه جيشاً بقيادة خالد بن أبي حبيب الفهري، فلقيه ميسرة في جموع كثيرة من البربر فهزمه وقتل خالد، وازدادت فتنة الخوارج في المغرب وقويت شوكتهم وكان من أكبر قواد ميسرة المشهورين طريق أبو صبيح البرغواص وكان قائماً بدعوة الصُفرية [١].

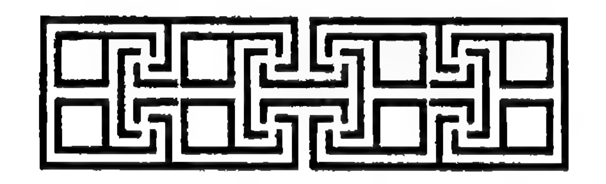

(١) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا: ١٥٤-١٥٥.

الفصل الخامس

الإباضية

لقد تحيرت كثيراً عند وصولي إلى تاريخ الإباضية في بلادنا حيث أن الأمر يحتاج إلى تجرد وإنصاف وبيان الحقائق التي يتقرب بها إلى الله عز وجل ومن أسباب تحيري أن علماء الفرق يعدون الإباضية من فرق الخوارج وشيوخ الإباضية ينكرون ذلك ولا يعترفون بنسبتهم إلى الخوارج، ويعدون هذا من غلطات التاريخ التي لم يتحر فيها المؤلفون الحقيقة، وعالج الشيخ مفتي ديارنا رحمه الله طاهر الزاوي هذا الموضوع بأن جعل كلامه عن الإباضية مستقلاً عن الخوارج، وذهب إلى كونه مذهب من المذاهب الإسلامية التي يتقرب بها إلى الله تعالى، ودعا أبناء المسلمين في ليبيا خصوصاً من أتباع المذهب المالكي والإباضي؛ إلى تحقيق إخوة الدين ويجب على الجميع أن يكونوا كتلة واحدة، وإخواناً متحدين متحابين، وقال: إن جميع مذاهب المسلمين تصدر عن أصل واحد هو كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ، الذين جاء بهما محمد ﷺ (١).

ولم يتعرض الشيخ طاهر الزاوي رحمه الله إلى تذكير إخواننا في الدين في بعض المزالق العقدية التي خالف فيها بعض علماء الإباضية المعتمدين في المذهب لأصول أهل السُنَّة والجماعة التي هي العصمة للأمة من الوقوع في الانحرافات العقدية وغيرها، ونقصد بأصول أهل السُنَّة والجماعة ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه الغر الميامين الطيبين الأطهار، وما عليه الأئمة الأخيار من أئمة هذا الدين.

ولا نستطيع أن ننكر ما قام به أتباع هذا المذهب من جهاد ضد إيطاليا في

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، للشيخ طاهر الزاوي: ١٥٥ .

العصر المعاصر والوقوف مع الخلافة الإسلامية متمثلة ذلك في شخصية زعيمهم الموهوب الشيخ سليمان الباروني، ولا نستطيع أن ننكر شجاعتهم وإقدامهم وما قدموه للمسلمين في بلادنا ضد الكفر والإلحاد والنصارى إلا أن ذلك لا يمنع أن نقول ما نراه حقًّا وصواباً وديناً وقربة إلى الله تعالى مراعين في ذلك الأدب والأخلاق في النقد وغرضنا في ذلك الالتقاء على كتاب الله وسُنَّة النبي ﷺ ﴿ **إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ** ﴾ [هود:٨٨].

فعلى القارئ الكريم أن يتذكر قول الله تعالى عن الذين ﴿ **يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ** ﴾ [الزمر:١٨] فهذا خلق قرآني كريم.

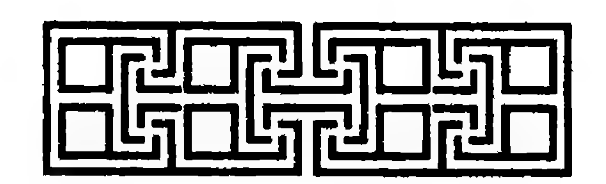

المبحث الأول

نسبة الإباضية وفرقهم وزمن دخولهم للشمال الإفريقي ودولتهم

أولاً : ينتسبون إلى عبد الله بن إباض بن تيم اللات بن ثعلبه بن بني مرة بن عبيد رهط الاحنف بن قيس آل مقاعس التميمي، كان من أهل العراق جاء إلى الإمام جابر بن زيد لأخذ العلم عنه كان يناظره في أموره وفي مهماته الدينية وفيما يأتي منها وما يذر، وهو تابعي عاصر معاوية، وابن الزبير، وكانت له آراء واجه بها الحكام [١] .

يقول الشيخ مفتي الديار الليبية - رحمه الله -:

(وهذا المذهب معدود من مذاهب المسلمين التي تعتمد أصولها على الكتاب والسنة ويتفق في كثير من أصوله وفروعه مع مذاهب أهل السنة، ولا يختلف معها إلا في مسائل قليلة، وما من مذهب من مذاهب أهل السُنَّة إلا وهو يخالف غيره في بعض المسائل، وقد قال ابن حزم في كتابه (الفصل في الملل والنحل) : إن أصحاب عبد الله بن يزيد الإباضي الفزاري الكوفي أقرب إلى أهل السُنَّة من بقية الفرق الأخرى. وهذا المذهب منتشر في مسقط وعمان من بلاد العرب بالمشرق، وفي الزنجبار من بلاد إفريقيا، وفي إفريقية وفي ليبيا والجزائر.

ومن أسمائهم :

يقول الدكتور غالب العواجي: (قد ذهب بعض العلماء من الإباضية إلى تحديد الوقت الذي استعملت فيه تسمية الإباضية، وأن ذلك كان في القرن

---

(١) انظر : طلقات المعهد الرياض في حلقات المذهب الإباضي، سالم بن حمود السيابي : ٧٧ ، وانظر: الإباضية بين الفرق الإسلامية ص ٣٥٣ لعلي يحيى معمر.

الثالث الهجري وقبلها كانوا يسمون أنفسهم جماعة المسلمين، أو أهل الدعوة، أهل الاستقامة، كما يذكر ابن خلفون من علمائهم (١) .

ثم ناقش الدكتور غالب في كتابه القيم قضية إدراج الإباضية ضمن فرق الخوارج فقال: (ومن هنا يتبين لنا أن تسميتهم باسم الخوارج قديمة وجدت قبل ظهور الأزارقة سواء كان ذلك من التنبؤ بظهورهم على لسان النبي ﷺ أو في ترديد هذا الاسم على لسان علي رضي الله عنه أو على ألسنة غيره من الناس وعلى ألسنة بعض علماء الإباضية أيضاً وعلى هذا فلا يخطئ من ألحق تسمية الإباضية بالخوارج – ويبقى ما امتاز به الإباضية من تسامح – أو تسامح أغلبيتهم تجاه مخالفيهم قائماً وثابتاً لهم رغم ما يظهر أحياناً في بعض كتب الإباضية من الشدة والقسوة تجاه المخالفين لهم والحكم عليهم بالهلاك والخسران كما يقرره الوارجلاني منهم في كتابه الدليل لأهل العقول) (٢) .

لقد ذكر الدكتور غالب رأي علي يحيى معمر – رحمه الله – في قضية الإباضية : وإنها ليست من فرق الخوارج وذكر غيره من علماء الإباضية الذين يرون أنهم فرقة من فرق الخوارج (٣) .

ثانيا: فرق الإباضية :

انقسمت الإباضية إلى فرق منها ما يعترف به سائر الإباضية ، ومنها ما ينكرونها ويشنعون على من ينسبها إليهم ، ومن تلك الفرق :

الحفصية : أتباع حفص بن أبي المقدام.

اليزيدية : أتباع يزيد بن أنيسة.

الحارثية : أتباع حارث بن يزيد الإباضي.

---

(١) فرق معاصرة، للدكتور العواجي : ١ / ٨٠ ، انظر: أجوبة بن خلفون ص ٩ .

(٢) فرق معاصرة: ١ / ٨٤ .

(٣) نفس المصدر: ١ / ٨٠ إلى ٨٤ .

أصحاب طاعة لا يراد بها الله [١] . إلا أن علي يحيى معمر - رحمه الله - ينفي وجود هذه الطوائف عند الإباضية أشد النفي [٢] .

وإضافة إلى تلك الفرق السابقة ، فإنه يوجد ست فرق أخرى للإباضية في المغرب هي:

فرقة النكار :

زعيمهم رجل يسمى أبو قدامة يزيد بن فندين الذي ثار في وجه إمام الإباضية بالمغرب عبد الوهاب بن رستم. وسميت هذه الفرقة بالنكارية لإنكارهم إمامة ابن رستم. وقد سميت الفرقة الموافقة لعبد الوهاب بن رستم بالوهابية أو الوهبية.

النفاثية :

نسبة إلى رجل يسمى فرج النفوسي المعروف بالنفاث ونفوسة قرية تقع في ليبيا.

الخلفية :

نسبة إلى خلف بن السمح بن أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الذي كانت له مناوشات مع الدولة الرستمية.

الحسينية :

وزعيمهم رجل يسمى أبو زياد أحمد بن الحسين الطرابلسي.

السكاكية :

نسبة إلى زعيمهم عبد الله السكاك اللواتي من سكان قنطرار ، تميز بأقوال تخرجه عن الإسلام وقد تبرأت منه الإباضية.

---

(١) انظر : مقالات الأشعري ١ /٨٣ .

(٢) الإباضية بين الفرق : ص ٢٣ .

الفرثية :

زعيمهم أبو سليمان بن يعقوب بن أفلح [١]

ثالثا: زمن دخول الإباضية إلى الشمال الإفريقي:

وأول دخول هذا المذهب إلى إفريقية في أوائل المائة الثانية من الهجرة سنة (١٢٠هـ)وما بعدها تقريباً. ويؤخذ من كتاب السير للشمأخي أن أول من أدخله إلى إفريقية سلمة بن سعيد قدم من المشرق إلى إفريقية في أول المائة الثانية لنشره والدعوة إليه، وكان شديد التعصب له، وذكر الشمأخي في كتاب السير أنه كان يقول: (وددت أن يظهر الأمر – يعني مذهب الإباضية – يوماً واحداً، فما أبالي أن تضرب عنقي).

وقد اجتمع به في إفريقية عاصم السدراتي، وإسماعيل بن درار الغدامسي وداود القبلي النفراوي، وعبد الرحمن بن رستم، وأخذوا عنه مذهب الإباضية، ولما رأى رغبتهم في دراسة هذا المذهب رغبهم في السفر إلى البصرة لتلقي المذهب على يد أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة البصري مولى بن تميم، وكان إذ ذاك من العلماء المبرزين في المذهب، فرحلوا إليه أربعتهم وانضم إليهم بالبصرة عبد الأعلى بن السمح أبو الخطاب الحميري اليمني فأصبحوا خمسة، ومكثوا عند أبي عبيدة خمسة أعوام يأخذون عنه المذهب الإباضي حتى أصبحوا من أعلامه ثم رجعوا خمستهم إلى إفريقية في زمن معين، ويظهر أنه فيما بين الخمسة والعشرين إلى الأربعين من القرن الثاني الهجري.

وعبد الرحمن بن رستم بن مهران وهو من الفرس حج مع أبيه وأمه،فمات أبوه بالحجاز، وتزوجت أمه برجل من القيروان، فذهب معها إلى القيروان، وأول ما تلقى مذهب الإباضية على مسلمة بن سعيد، وهؤلاء الخمسة يسميهم الإباضية

---

(١)فرق معاصرة: ١/ ٨٥.

حملة العلم، وهم عندهم في محل التعظيم والإجلال، ومن أئمتهم المشهورين.

وبعد رجوع هؤلاء الخمسة إلى إفريقية زاد انتشار مذهب الإباضية وكثر أنصاره كما سنذكره في حروب أبي الخطاب. وقد انحصر أتباع هذا المذهب في إفريقية في البربر وكان أكثر أتباعه من هوارة ولمسابة ونفزاوة، ومغيلة، ومغراوة، وبني يفرن بن زنانة، وقد توارثوه خلفاً عن سلف، وما زالوا يدينون به إلى الآن وَقَلَّ أن تجد في طرابلس بربرياً على مذهب مالك، كما يندر أن تجد فيها عربياً على مذهب الإباضية (١).

قلت: وأصبح كثير من أبناء الشعب الليبي عرباً وبربراً يدينون بعقيدة أهل السُّنَّة والجماعة وينقادون إلى الدليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ونبذوا التعصب الذميم وراء ظهورهم واستفادوا من تاريخهم من خطورة التعصب وأثره في تفرق المسلمين وينظرون إلى غد مشرق يسود فيه تحكيم شرع الله في بلادهم وقد أخذوا بالأسباب الربانية والسُنن الكونية من أجل التمكين لدين الله تعالى.

رابعاً: دولة الإباضية:

قامت للإباضية دولتان أحدهما في المغرب والأخرى في المشرق – عمان – تمتع المذهب الإباضي فيهما بالنفوذ والقوة. وساعد انتشار المذهب الإباضي في عمان بُعْدها عن مقر الخلافة ثم مسالكها الوعرة. ويرجع دخول المذهب الإباضي عمان إلى فرار بعض الخوارج بعد معركة النهروان إلى هذا البلد كما يرى بعض العلماء. ولكن السالمي من علماء الإباضية يرى أن دخول المذهب إلى عمان يرجع إلى قدوم عبد الله بن إباض.

وعلى أي حال فقد قوي المذهب واراد أهل عمان الاستقلال عن الخلافة العباسية؛ في عهد السفاح والمنصور، وانتخبوا لهم خليفة هو الجلندي بن مسعود بن جيفر الأزدي إلا أن جيوش الخلافة العباسية قضت على حلم أهل

(١) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا: ص ١٥٥ وما بعدها.

عمان وظلت جزءاً من الدولة العباسية إلى سنة ١٧٧هـ حيث بدأت نزعة الاستقلال وولوا عليهم سنة ١٧٩هـ إماماً منهم، واستمرت ولاتهم في الحكم في عمان ، ابتداء بأول خليفة وهو محمد بن أبي عفان الأزدي ثم الوارث بن كعب الخروصي ثم غسان بن عبد الله ثم عبد الملك بن حميد ثم المهنا بن جيفر اليحمدي، وهكذا توالت أسماء الخلفاء الإباضيين اسماً تلو الاسم حتى عهد اليعارية الذين قوي نفوذهم جداً ، واستمروا إلى أن حدثت الانشقاقات والتفرق بينهم فتدخلت الدول الاستعمارية وقضت على الإمامة.

أما بالنسبة لدولة الإباضية في المغرب، فإن قيام هذه الدولة كان نتيجة لانتشار المذهب الإباضي هناك بين قبائل البربر . وطريقة قيام المذهب الإباضي - في المغرب - تمت بوضع خطة للقبض على زمام السلطة شيئاً فشيئاً وكان أول زعيم لهم هو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، فاستولوا على طرابلس ثم عين عبد الرحمن الرستمي قاضياً عليها وواصل أبو الخطاب انتصاراته، ولكن جيش الخلافة العباسية دحرهم في معركة قتل فيها أبو الخطاب وتفرقت الإباضية، ثم قام عبد الرحمن الرستمي الذي يعتبر مؤسس الدولة الرستمية الإباضية في المغرب بمحاولات الاستقلال وتمت له السيطرة على أماكن كثيرة وسلموا له بالخلافة سنة ١٦٠هـ وهو فارسي الأصل، وقد توفي سنة ١٧١هـ فاختاروا ابنه عبد الوهاب ، الذي واصل تنمية المذهب إلى أن مات فخلفه ابنه أفلح بن عبد الوهاب، وبعد وفاته تولى ابنه أبو اليقظان محمد بن أفلح إلى أن توفي فخلفه ابنه أبو حاتم يوسف بن محمد بن أفلح إلا أن العلاقة ساءت بينه وبين عمه يعقوب بن أفلح ودارت بينهما معارك هائلة ومن هنا بدأت الدولة الرستمية في الأفول وداهمتهم الشيعة بقيادة أبي عبيد الله الشيعي وانتهت أسرتهم في سنة ٢٩٦ هـ فرثاهم علماء الإباضية كثيراً [١] .

---

(١) فرق معاصرة: ١/ ٨٦-٨٧-٨٩ .

خامساً: موقف الإباضية من المخالفين لهم :

تتسم معاملة الإباضيين لمخالفيهم باللين والسماحة ويحرمون الاغتيال والقتل في السر وأن يبدأ أحد من أهل البغي من أهل القبلة بقتال حتى يدعى إلا من عرفوه بعينه ، وجوزوا تزويج المسلمات من مخالفيهم، وهذا ما يذكره علماء الفرق عنهم إضافة إلى أن العلماء يذكرون عنهم كذلك أن الإباضية تعتبر المخالفين لهم من أهل القبلة كفار نعمة غير كاملي الإيمان ولا يحكمون بخروجهم من الملة إلا أن هذا المدح ليس بالاتفاق بين العلماء فهناك من يذكر من الإباضية أنهم يرون أن مخالفيهم محاربون لله ورسوله وأنهم يعاملون المخالفين لهم أسوأ المعاملة، والحقيقة أن القارئ لكتب علماء الفرق يجد أنهم متعارضون في النقل عنهم إلا أن يقال إن طائفة من الإباضية متشددون وآخرون معتدلون، وبهذا وجد الشيخ علي يحيى معمر – رحمه الله – ثغرة في كلام علماء الفرق لوصفهم بالتناقض والاضطراب في النقل إلى آخر ما أورد من انتقادات لا تسلم له على إطلاقها .

وذلك أنك تجد في بعض كلام علماء الإباضية أنفسهم الشدة في الحكم على المخالفين لهم ووصفهم بأنهم كفار وأنهم من أهل النار ما لم يدينوا بالمذهب الإباضي، وتجد آخرين يتسامحون في معاملة المخالفين لهم ويبدو عليهم اللين تجاههم ، وتجد التعصب في حكمهم على مخالفيهم ظاهراً قويًّا من قراءتك لكتاب مقدمة التوحيد لابن جميع وكتاب الحجة في بيان المحجة في التوحيد بلا تقليد للعيزابي، ورسالة في فرق الإباضية بالمغرب للمارغيني، وكتاب الدليل لأهل العقول للورجلاني وكذا العقود الفضية وكشف الغمة الجامع لأخبار الأمة فإن القارئ لهذه الكتب يجد التشديد تجاه المخالفين قائماً على أشده كما تشهد بذلك مصادرهم المذكورة ، ومع هذا فإن العلماء المتقدمين وكثير من المتأخرين يذكرون عبارات كثيرة تصف الإباضية بالتسامح واللين تجاه المخالفين ممن يدعون

الإسلام إلا معسكر السلطان فإنه دار بغي وحرابة، ومع ذلك نفى الشيخ علي يحيى معمر أن يكون من مذهب الإباضية أنهم يرون أن معسكر السلطان معسكر بغي وحرابة، ولكنه هو يقسّم حكام المسلمين في كتابه الإباضية بين الفرق الإسلامية جعل هذا الوصف ينطبق على الحاكم الذي يخرج عن العدل ولا يطبق أحكام الإسلام كاملة (١) .

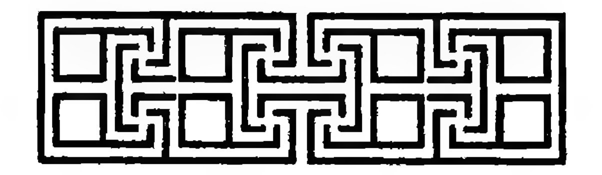

(١) انظر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ص ٢٧-٢٨، وانظر : فرق معاصرة: ١ / ٨٩.

المبحث الثاني
موقف الإباضية من الصحابة

أولاً : موقف الإباضية من الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم :

من الأمور المتفق عليها عند سائر الخوارج الترضي التام والولاء والاحترام للخليفتين الراشدين: أبو بكر وعمر رضوان الله عليهما، أما بالنسبة للخليفتين الراشدين الآخرين عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما فقد هلك الخوارج فيهما وذموهما مما برأهما الله عنه ، والذي يهمنا أن نشير هنا رأي الإباضية في الصحابة رضوان الله عليهم والرد عليها من منظور أهل السُنَّة والجماعة .

[أ] موقف الإباضية من عثمان رضي الله عنه :

من الأمور الغريبة أن تجد ممن يدعي الإسلام ويؤمن بالله ورسوله من يقع في بعض الصحابة خصوصاً من شهد له الرسول ﷺ بالجنة وثبتت بذلك النصوص في حقه، فعثمان رضي الله عنه صحابي جليل شهد له الرسول ﷺ بالجنة ونحن نشهد واثقين من ذلك، أما بالنسبة لبعض الإباضية فقد تبرءوا منه ومن خلافته، بل وحكموا عليه بالارتداد والعياذ بالله وحشاه من ذلك، ففي كتاب كشف الغمة لمؤلف إباضي في السب والشتم لعثمان ما لا يوصف ولم يكتف بالسب والشتم، وإنما اختلق روايات عن بعض الصحابة يسبون فيها عثمان بزعمه ويحكمون عليه بالكفر، ولا شك أن هذا بهتان عظيم منه ويوجد كذلك كتاب في الأديان وكتاب آخر اسمه «الدليل لأهل العقول» للورجلاني فيهما أنواع من السباب والشتم لعثمان ومدح لمن قتلوه حيث سماهم (فرقة أهل الاستقامة) وهم في الحقيقة بغاة مارقون لا استقامة لهم إلا على ذلك (١) .

---

(١)انظر : فرق معاصرة: ١ /٩٤، انظر: الدليل لأهل العقول ص ٢٧،٢٨

وإليك أخي القارئ الكريم :

الأدلة الواضحة والبراهين القاطعة والأنوار الساطعة في فضل عثمان ومكانته في الدين ومحبة سيد المرسلين له مما هو معلوم عند جمهور أهل السُّنَّة والجماعة أن أفضل الناس على الإطلاق بعد أبي بكر وعمر هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب ابن لؤي بن غالب بن فهر يكنى أبا عمرو ويقال: أبا عبد الله (١) ، يجتمع مع النبي ﷺ في عبد مناف وعدد ما بينهما من الآباء متفاوت فالنبي ﷺ من حيث العدد في درجة عفان كما وقع لعمر سواء (٢) ، وأمه رضي الله عنها أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس وأمها أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب وهي شقيقة عبد الله والد النبي ﷺ ويقال: إنهما ولدا توأماً فكان ابن بنت عمة النبي ﷺ وكان النبي ﷺ ابن خال والدته، وقد أسلمت أمه رضي الله عنها وماتت على الإسلام، ولها صحبة رضي الله عنها وأما والده فإنه مات في الجاهلية.

فعثمان رضي الله عنه أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى وأحد الثلاثة الذين خلصت لهم الخلافة من الستة، ثم تعينت فيه بإجماع المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم فكان ثالث الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين المأمور باتباعهم والاقتداء بهم وكان رضي الله عنه من السابقين الأولين إلى الإسلام وهاجر إلى الحبشة أول الناس ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ ثم عاد إلى مكة وهاجر إلى المدنية، فيما كانت وقعة بدر اشتغل بتمريض بنت رسول الله ﷺ وأقام بسببها في المدينة ، وضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره فيها ، فهو معدود فيمن شهدها فلما توفيت زوَّجه رسول الله ﷺ بأختها أم كلثوم، ولذلك لقب بذي النورين لأنه تزوج ابنتي نبي واحد ولم يتفق ذلك لغيره رضي الله عنه، وشهد

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣/٥٣، الكامل لابن الأثير: ٣/١٨٤.
(٢) فتح الباري: ٧/٥٤، الإصابة: ٤/٢٢٢.

الخندق والحديبية وبايع عنه رسول الله ﷺ يومئذ بإحدى يديه، وشهد خيبر، وعمرة القضاء، وحضر الفتح وهوازن والطائف ، وغزوة تبوك ، وجهز جيش العسرة، صحب رسول الله ﷺ فأحسن صحبته وتوفي عنه وهو عنه راض، وصحب أبا بكر فأحسن صحبته وتوفي وهو عنه راض، وصحب الفاروق فأحسن صحبته وتوفي وهو عنه راض، وكان رضي الله عنه ممَّن جمع بين العلم والعمل، والصيام والتهجد والإنفاق والجهاد في سبيل الله وصلة الأرحام، وكان من الصادقين القائمين الصائمين المنفقين في سبيل الله (١) .

وقد وردت أحاديث كثيرة وفي السُّنَّة تضمنت ذكر فضائله رضي الله عنه وبعضها دال على أنه أفضل الخلق بعد الشيخين رضي الله عنهما ومن تلك الأحاديث :

[١] ما رواه الإمام البخاري بإسناده إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: « **كنا في زمن النبي ﷺ لا نعدل بأبي بكر أحداً ، ثم عمر ثم عثمان ثم نترك أصحاب النبي ﷺ لا نفاضل بينهم** » (٢) .

[٢] روى الشيخان من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه : أن النبي ﷺ دخل حائطاً وأمرني بحفظ باب الحائط - البستان - فجاء رجل يستأذن فقال : « **ائذن له وبشره بالجنة** » ، فإذا أبو بكر، ثم جاء آخر يستأذن فقال: « **ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه** » فإذا عثمان بن عفان (٣) .

[٣] وروى الإمام أحمد بإسناده إلى عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان بن عفان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جهز رضي الله عنه جيش العسرة قال فصبها في حجر النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول: « **ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم** » **يرددها مراراً** . (٤) .

---

(١) **انظر** : تذكرة الحفاظ للذهبي: ١/٨-١٠ ، البداية والنهاية: ٧/٢١٢-٢١٩ ، لوامع الأنوار البهية، السفاريني: ٢/٣٢٨-٣٣٤ .

(٢) صحيح البخاري: ٢/٢٩٧ . (٣) المرجع السابق: ٢/٢٩٦ .

(٤) المسند: ٥/٦٣ ، الترمذي في سننه: ٥/٢٨٩ .

قال العلامة ابن القيم ذاكراً صفة خروج النبي ﷺ إلى غزوة تبوك :

(ثم إن رسول الله ﷺ جد في سفره وأمر الناس بالجهاز وحض أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا وأنفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها، كانت ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها وعدتها، وألف دينار عيناً) (١) ، ومن مناقبة رضي الله عنه إجماع الصحابة على خيريته رضي الله عنه ، فإنه لما بُويع لم يبق في الشورى إلا هو وعلي والحكم عبد الرحمن بن عوف وبقي عبد الرحمن ثلاثة أيام بلياليها يشاور المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ويشاور أمهات المؤمنين ويشاور أمراء الأمصار فإنهم كانوا بالمدينة حجوا مع عمر وشهدوا موته حتى قال عبد الرحمن إن لي ثلاثاً ما اغتمضت بنوم وبعد هذا كله وبعد أخذ المواثيق منهم على أن يبايع من بايعه أعلن النتيجة بعد هذا الاستفتاء حيث قوله إني رأيت الناس لا يعدلون بعثمان فبايعه علي وعبد الرحمن وسائر المسلمين بيعة رضاً واختيار .

إن الأدلة كثيرة جداً في بيان فضل عثمان وإقامة الحجة على من طعن في عثمان رضي الله عنه .

[ب] موقف الإباضية من علي رضي الله عنه ومعاوية وبعض الصحابة:

بعض الإباضية يتضح من كتابتهم البراءة من علي رضي الله عنه فإن ذلك واضح في كتاب كشف الغمة، فقد كتب المؤلف تحت عنوان فصل من كتاب الكفاية قوله : فإن قال ما تقولون في علي بن أبي طالب، قلنا له إن عليًّا مع المسلمين في منزلة البراءة وذكر أسباب - كلها كذب - توجب البراءة منه في زعم مؤلف هذا الكتاب منها حربه لأهل النهروان وهذا تحامل مذموم .

ومن الجدير بالذكر أن بعض الإباضية قد اعتدلوا في موقفهم تجاه علي رضي الله عنه

---

(١) زاد المعاد : ٣/ ٥٢٧ .

كما يبدو من كلامهم، ففي كتاب وفاء الضمانة بأداء الأمانة مدح وثناء لعلي وأورد الشيخ علي يحيى معمر فصلاً طويلاً بيّن فيه اعتقاد الإباضية في الصحابة بأنهم يقدرونهم حق قدرهم ويترضون عنهم ويسكتون عما جرى بينهم ونقل عن أبي إسحاق أظفيش في رده على الأستاذ محمد عقيل العلوي أنه قال له: (أما ما زعمت من شتم أهل الاستقامة لأبي الحسن علي وأبناءه، فمحض اختلاق)[١] .

ونقل عن التعاريتي أيضاً مدحه للصحابة خصوصاً عليًّا وأبناءه وكذلك التذميري الإباضي. وأخيراً قال الشيخ علي يحيى معمر: (ولم يكن يوماً من الأصحاب شتم له أو طعن، اللهم إلا من بعض الغلاة وهم أفذاذ لا يخلو منهم وسط ولا شعب)[٢] .

وهذه الحقيقة التي ذكرها الشيخ علي يحيى معمر - رحمه الله - تجعل شدته على صاحب كتاب الفرق في كتابه «الإباضية بين الفرق» في غير محلها فما الذي يمنع أن يكون نقل هؤلاء العلماء على أقل تقدير عن هؤلاء الأفذاذ الذين أشار إليهم في كتابه.

والورجلاني يعتبر على حد التعبير السابق ليحيى معمر من الغلاة المتشددين فهو يواصل في كتابه الدليل لأهل العقول تكفيره وشتمه لمعاوية رضي الله عنه ولعمرو بن العاص، بل قد قال زعيم الإباضية عبد الله بن إباض نفسه في كتاب لعبد الملك عن معاوية ويزيد وعثمان كما يرويه صاحب كشف الغمة (فإننا نشهد الله وملائكته أنا براء منهم وأعداء لهم بأيدينا وألسنتنا وقلوبنا نعيش على ذلك ما عشنا ونموت عليه إذا متنا ونبعث عليه إذا بعثنا نحاسب بذلك عند الله)[٣] .

---

(١) انظر: الضمانة (٣ / ٢٢) .

(٢) انظر: الإباضية بين الفرق (ص ٢٨٧) .

(٣) انظر: فرق معاصرة: (١ / ٩٥) .

كما يبدو من كلامهم، ففي كتاب وفاء الضمانة بأداء الأمانة مدح وثناء لعلي وأورد الشيخ علي يحيى معمر فصلاً طويلاً بيَّن فيه اعتقاد الإباضية في الصحابة بأنهم يقدرونهم حق قدرهم ويترضون عنهم ويسكتون عما جرى بينهم ونقل عن أبي إسحاق أطفيش في رده على الأستاذ محمد عقيل العلوي أنه قال له: (أما ما زعمت من شتم أهل الاستقامة لأبي الحسن علي وأبناءه ، فمحض اختلاق) [١] .

ونقل عن التعاريتي أيضاً مدحه للصحابة خصوصاً عليًّا وأبناءه وكذلك التذميري الإباضي. وأخيراً قال الشيخ علي يحيى معمر : (ولم يكن يوماً من الأصحاب شتم له أو طعن ، اللهم إلا من بعض الغلاة وهم أفذاذ لا يخلو منهم وسط ولا شعب) [٢] .

وهذه الحقيقة التي ذكرها الشيخ علي يحيى معمر - رحمه الله - تجعل شدته على صاحب كتاب الفرق في كتابه «الإباضية بين الفرق» في غير محلها فما الذي يمنع أن يكون نقل هؤلاء العلماء على أقل تقدير عن هؤلاء الأفذاذ الذين أشار إليهم في كتابه.

والورجلاني يعتبر على حد التعبير السابق ليحيى معمر من الغلاة المتشددين فهو يواصل في كتابه الدليل لأهل العقول تكفيره وشتمه لمعاوية رضي الله عنه ولعمرو بن العاص، بل قد قال زعيم الإباضية عبد الله بن إباض نفسه في كتاب لعبد الملك عن معاوية ويزيد وعثمان كما يرويه صاحب كشف الغمة (فإننا نشهد الله وملائكته أنا براء منهم وأعداء لهم بأيدينا وألسنتنا وقلوبنا نعيش على ذلك ما عشنا ونموت عليه إذا متنا ونبعث عليه إذا بعثنا نحاسب بذلك عند الله) [٣] .

---

(١) انظر: الضمانة (٣ / ٢٢) .

(٢) انظر : الإباضية بين الفرق (ص ٢٨٧) .

(٣) انظر : فرق معاصرة: (١ / ٩٥) .

وصاحب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة يشتم الحسن والحسين رضي الله عنهما وأوجب البراءة منهما بسبب ولايتهما لأبيهما على ظلمه وغشمه كما يزعم وكذلك بسبب قتلهما عبد الرحمن بن ملجم وتسليمهما الإمامة لمعاوية وهي أسباب لا يعتقدها من عرف الصحابة الذين شهد الله ورسوله لهم بالسابقة والفضل ولكن انقطع عنهم العمل فأحب الله أن لا يقطع عنهم الأجر وصدق الشاعر حين قال :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص ... فهي الشهادة لي بأني كامل

ونفس الموقف الذي وقفه الخوارج عموماً والورجلاني ومن تابعه من الإباضية أيضاً من الصحابة السابقين وقفوه أيضاً من طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وأوجب لهما الورجلاني النار فسبحان الله ما أجرأ أهل الأهواء والزيغ على شتم خيار الناس بعد نبيهم الذي نصروا الإسلام بأنفسهم وأموالهم وأولادهم ومات الرسول صلى الله عليه وسلم وهو راض عنهم [1] .

[د] موقفنا من الصحابة رضي الله عنهم :

[١] علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

أجمع أهل السُنَّة من السلف والخلف من أهل الفقه والأثر أن أبا السبطين أفضل الخلق بعد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين، واسمه رضي الله عنه علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي ويكنى أبا تراب، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ويقال إنها أول هاشمية ولدت هاشمياً وقد أسلمت وهاجرت.

وعليّ رضي الله عنه أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنه راض، وكان رضي الله عنه رابع الخلفاء الراشدين والأئمة

---

(١) انظر : فرق معاصرة (١ / ٩٥) .

المهديين المأمور بالاقتداء بهم، وكان ممن سبق إلى الإسلام ولم يتلعثم، وتربى في حجر النبي ﷺ وزوجه ابنته فاطمة رضي الله عنها وهاجر إلى المدينة وشهد بدراً والحديبية وسائر المشاهد غير تبوك لأن النبي ﷺ خلفه فيها على المدينة وأبلى ببدر وأُحد وبالخندق وبخيبر بلاءًا عظيماً ، وأغنى في تلك المشاهد وقام فيها المقام الكريم وكان لواء النبي ﷺ بيده في مواطن كثيرة ، وجاهد في الله حق جهاده ونهض بأعباء العلم والعمل والفتيا رضي الله عنه وأرضاه وكان رضي الله عنه من جملة من غسل النبي ﷺ وكفنه وولي دفنه (١) .

ولقد وردت الأحاديث الكثيرة ، والأخبار الشهيرة ، التي دلت على فضله رضي الله عنه ومنها :

﴿١﴾ ما رواه الشيخان من حديث سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: « **لأعطين هذه الراية رجلاً يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله** » ، قال: فبات الناس يدوكون - أي يخوضون - ليلتهم أيهم يعطاها قال: فلما اصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها فقال أين علي بن أبي طالب؟ ، فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه ، قال: فأرسلوا إليه فأتى به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال علي: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا فقال: « **انفذ على رِسْلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْر النعم**» (٢) .

ومن مناقبه رضي الله عنه أن النبي ﷺ جعل محبته من علامة الإيمان وجعل بغضه علامة للنفاق، فقد روى مسلم بإسناده إلى علي رضي الله عنه قال: « والذي فلق الحبة

---

(١) **انظر**: عقيدة أهل السُنة والجماعة في الصحابة: ١ / ٢٧٥ .
(٢) صحيح البخاري: ٢ / ٢٩٩-٣٣٠، صحيح مسلم: ٤ / ١٨٨٢ .

وبرأ النسمة إنه لعهد النبي الأمي ﷺ إليّ أن لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق»[١] ففي هذا منقبة ظاهرة لأبي الحسن رضي الله عنه.

ومن مناقبه الدالة على فضله: دعاء النبي ﷺ بعد ذلك، فقد روى أبو عبد الله الحاكم بإسناده إلى علي رضي الله عنه قال: «بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قال فقلت: يا رسول الله إني رجل شاب وأنه يرد علي من قضاء ما لا علم لي به قال فوضع يده على صدري وقال: «**اللهم ثبت لسانه وأهد قلبه**» فما شككت في القضاء أو في قضاء بعد[٢].

والأدلة كثيرة في بيان فضل علي رضي الله عنه التي تلجم أفواه الخوارج المارقين وكذلك بعض من زاغ من علماء الإباضية في النظرة لعلي رضي الله عنه وسائر الصحابة أجمعين.

[٢] طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه:

ومما يحزن القلب ويدمع العين ما ذكره الورجلاني في كتابه كشف الغمة، وكتابه الدليل لأهل العقول عن الصحابي الجليل طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه بأنه والزبير بن العوام رضي الله عنه من أصحاب النار، وقد علمت أن كثيراً من إخواننا البرابرة في الشمال الإفريقي وخصوصاً في بلادنا قد تأثروا بالمذهب الإباضي، فأحببت أن أهدي لهم هذه الحقائق الناصعة حتى يلقوا الله وقلوبهم سليمة طاهرة على أصحاب رسول الله ﷺ الطيبين الأخيار.

فطلحة بن عبيد الله: هو أبو محمد طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو ابن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي التيمي[٣]،

---

(١) صحيح مسلم: ١/١٠٦.

(٢) المستدرك للحاكم ٣/١٣٥، قال عقبة: صحيح الإسناد ولم يخرجاه واقره الذهبي، ولقد استفدت في حديثي عن الإباضية على مذكرات الفرق للدكتور العواجي.

(٣) الإصابة: ٢/٢٢٠، وانظر الاستيعاب لابن عبد البر علي حاشية الإصابة: ٢/٢١٠.

يجتمع مع النبي ﷺ في مرة بن كعب ومع أبي بكر الصديق في تيم بن مرة وعدد ما بينهم من الآباء سواء [١] ، وأمه رضي الله عنها الصعبة بنت الحضرمي امرأة من أهل اليمن وهي أخت العلاء الحضرمي [٢] ،أسلمت ولها صحبة وظفرت بشرف الهجرة وطلحة رضي الله عنه أحد العشرة الذين بشروا بالجنة، وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأحد الستة أصحاب الشورى، وكان رضي الله عنه في وقعة بدر قد وجهه رسول الله ﷺ وسعيد بن زيد يتجسسان خبر العير قبل خروجه ﷺ إلى بدر فلم يرجعا إلا وقد فرغ من موقعة بدر وضرب لهما رسول الله ﷺ بسهمهما وأجرهما [٣] .

وفضائله رضي الله عنه كثيرة مشهورة منها :

ما رواه البخاري بإسناده إلى قيس بن أبي حازم قال: « **رأيت يد طلحة شلاء وقي بها النبي ﷺ يوم أُحد** » [٤] .

هذا الحديث اشتمل على منقبة عظيمة خص بها طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه وهي أنه وقي رسول الله ﷺ بيده يوم أحد لما أراد بعض المشركين أن يضربه فاتقى طلحة الضربة بيده حتى أصابها شلل والشلل بطلان في اليد أو في الرجل من آفة تعتريها فالحديث فيه بيان فضيلة عظيمة لطلحة رضي الله عنه وأرضاه.

ومن مناقبة ما رواه أبو نعيم بإسناده إلى أن المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: « **كان أبو بكر إذا ذكر يوم أُحد قال: ذلك كله يوم طلحة** » [٥] .

ومما يدل على عظم مكانته وعلو منزلته أن النبي ﷺ شهد له بالجنة ضمن جماعة من فضلاء الصحابة ، فقد روى الترمذي بإسناده إلى عبد الرحمن بن

---

(١) فتح الباري: ٧ / ٨٢ .

(٢) الإصابة: ٢ / ٢٢٠ .

(٣) انظر : المستدرك: ٣ / ٣٦٩، ٤٣٨ .

(٤) صحيح البخاري: ٣ / ٢٣ .

(٥) حلية الأولياء: ١ / ٨٧ .

عوف قال: قال رسول الله ﷺ: «**أبو بكر في الجنة وعمر في الجنة وعثمان في الجنة وعلي في الجنة وطلحة في الجنة والزبير في الجنة وعبد الرحمن بن عوف في الجنة وسعد في الجنة وسعيد في الجنة وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة**» ثم قال: وقد روي هذا الحديث عن عبد الرحمن بن حميد عن أبيه عن سعيد بن زيد عن النبي ﷺ نحو هذا.

هذا هو طلحة بن عبيد الله الذي ذكره الورجلاني الإباضي بسوء وجعله من أهل النار.

[٣] الزبير بن العوام رضي الله عنه :

هو أبو عبد الله الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب القرشي الأسدي (١) يجتمع مع النبي ﷺ في قصي وعدد ما بينهما من الآباء سواء (٢) وهو حواري رسول الله ﷺ وابن عمته، أمه صفية بنت عبد المطلب، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى قال عروة بن الزبير أسلم الزبير بن العوام وهو ابن ثمان سنين، وهاجر وهو ابن ثمان عشرة سنة، وكان عم الزبير يعلق الزبير في الحصير ويدخن عليه النار ويقول: ارجع إلى الكفر فيقول الزبير: لا أكفر أبداً.

وقال أيضاً: أسلم الزبير وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرتين معاً ولم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله ﷺ (٣)، فهو رضي الله عنه من السابقين الأولين إلى الإسلام وشهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ وقال رسول الله ﷺ: «**إن لكل نبي حوارياً، وإن حواري الزبير بن العوام**» (٤).

---

(١) الترمذي: ٥/٣١١.
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣/١٠٠.
(٣) فتح الباري: ٧/٨٠.
(٤) المستدرك للحاكم: ٣/٣٦٠، انظر طبقات ابن سعد.

ومعنى الحواري :

هو الناصر المخلص ، فالحديث اشتمل على هذه المنقبة العظيمة التي تميز بها الزبير ﷺ، ومناسبة الحديث عندما ندب رسول الله ﷺ الناس يوم الخندق « فانتدب الزبير فقال النبي ﷺ « **لكل نبي حواري وحواري الزبير** »[1] .

وقد ذكرت أنه من أهل الجنة في الحديث الذي ذكرته في فضائل طلحة وهذا رد مختصر مفيد في الدفاع عن الزبير ﷺ، وبيان فضله ومكانته، هذا موقف الإباضية من بعض الصحابة ﷺ منهم المتشدد ومنهم المعتدل فرددنا على المتشدد وبينا ضلاله وزيغه في شتمه لمن ذكرنا من الصحابة، ودعونا للمنصف بالمغفرة والرحمة والرضوان من الله تعالى .

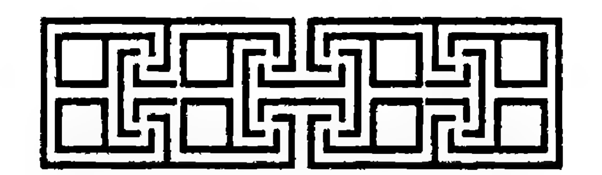

(١) صحيح البخاري : ٢ / ٣٠٢ .

المبحث الثالث

بعض عقائد الإباضية ومناقشتها

نود الإشارة في هذا المبحث إلى أن الإباضية لهم أفكار عقدية وافقوا فيها أهل السُنَّة والجماعة «ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه» وعقائد أخرى جانبوا فيها الصواب.

[١] ما يتعلق بصفات الله تعالى :

فإن مذهب الإباضية فيها أنهم انقسموا إلى فريقين: فريق نفى الصفات نفياً تاماً خوفاً من التشبه بزعمهم، وفريق منهم يرجعون الصفات إلى الذات فقالوا أن الله عالم بذاته وقادر بذاته وسميع بذاته إلى آخر الصفات، فالصفات عندهم عين الذات ، **قال أحمد بن النضر:**

وهو السميع بلا أداة تسمع ... جل المهيمن عن مقال مكيف
إلا بقدرة قادر وحداني ... أو أن ينال دراكه بمكان
وهو البصير بغير عين ركبت ... أو أن يحيط به صفات معبر
في الرأس بالأحضان واللحظات ... أو تعتريه هماهم الوسنان [١]

ويقول السالمي:

أسماؤه وصفات الذات ليس بغير ... وإنما استوى ملك ومقدرة له
الذات بل عينها فافهم ولا تحلا ... على كلها استيلاء وقد عدلا
هو على العرش والأشيا استوى ... كما يقال استوى سلطانهم فعلى
وإذا عدلت فهو استواء غير ما عقلا ... على البلاد فحاز السهل والجبلا [٢]

---

(١) كتاب الدعائم ص ٢٤ .

(٢) غاية المراد: ص ٧ .

وهذا في حقيقته نفي للصفات ولكنه نفي مغطى بحيلة إرجاعها إلى الذات وقد شنع الورجلاني منهم على الذين يثبتون الصفات بأنهم مشبهة كعباد الأوثان وأن مذهب أهل السُنَّة هو - حسب زعمه - تأويل الصفات، فاليد النعمة والقدرة والوجه الذات ومجيء الله مجيء أمره بفصل القضاء، لأن إثبات هذه الصفات لله هو عين التشبيه كما يزعم بعض الإباضية [1] .

والحاصل أن الإباضية مختلفون في إثبات صفات الله تعالى فإباضية المشرق يختلفون عن إباضية المغرب ذلك أن إباضية المشرق تعتقد أن صفات الله تعالى حادثه ، وإباضية المغرب تعتقد أنها قديمة، وبين الفريقين من التباعد في هذا ما لا يخفى .

ومعلوم لطلاب العلم أن هذا ليس هو مذهب أهل السُنَّة والجماعة الذين يثبتون الصفات لله كما وصف نفسه في كتابه الكريم ووصفه به رسول الله ﷺ من غير تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف ولا تكييف ولا تمثيل ، ويقولون في كل صفة لله إنها معلومة والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة وأن الله ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى:١١] .

وهذه الآية أساس واضح في إثبات الصفات لله ولم ير أهل السُنَّة أن إثبات الصفات يؤدي إلى التشبيه لمعرفتهم أن الاتفاق في التسمية لا يستلزم الاتفاق في الذات فالله سميع بصير والإنسان سميع بصير وبين الذاتين ما يعرفه كل عاقل من الفَرْق فمن تَصَوَّرَ التشبيه فقد جمع بين التشبيه والتعطيل [2] .

وإليك أخي القارئ الكريم معتقد أهل السُنَّة والجماعة في هذا الباب العظيم:

إنهم يؤمنون بما وردت به نصوص القرآن والسنة الصحيحة إثباتاً ونفياً فهم

---

(١) فرق معاصرة: ١ /٩٧.

(٢) انظر: منهج الدراسات لآيات الأسماء والصفات للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٢٥

بذلك يسمون الله بما سمى به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ ولا يزيدون على ذلك ولا ينقصون منه.

ويثبتون لله عز وجل ويصفونه بما وصف به نفسه في كتابه أو على لسان نبيه ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكيف ولا تمثيل وينفون عن الله ما نفاه عن نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ مع اعتقاد أن الله موصوف بكمال ضد ذلك الأمر المنفي.

وبذلك تكون سلكت منهج القرآن والسُنَّة الصحيحة، فكل اسم أو صفة لله سبحانه وردت في الكتاب والسنة الصحيحة فهي من قبيل الإثبات فيجب بذلك إثباتها، وأما النفي فهو أن ينفي عن الله عز وجل كل ما يضاد كماله من أنواع العيوب والنقائص مع وجوب اعتقاد ثبوت كمال ضد ذلك المنفي (١).

وارتكز منهج أهل السنة والجماعة في هذا الباب على ثلاثة أسس رئيسية هي:

الأساس الأول: الإيمان بما وردت به نصوص القرآن والسنة الصحيحة من أسماء الله وصفاته إثباتاً ونفياً.

الأساس الثاني: تنزيه الله عز وجل أن يشبه شيء من صفاته شيئاً من المخلوقين.

الأساس الثالث: قطع الطمع عن إدراك كيفية اتصاف الله بتلك الصفات.

وهذه الأسس العظيمة، مهمة جداً لطالب العلم، وبها تنفتح أبواب مغلقة في معرفة أسماء الله وصفاته ومن خلالها يتميز المسلم الصادق المتبع لمنهج أهل السُنَّة والجماعة عن أهل التمثيل، والله الهادي إلى صراطه المستقيم ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

---

(١) فرق معاصرة: ١/٩٩.

[٢] عقيدة الإباضية في استواء الله وعلوه:

وأما عقيدة الإباضية في استواء الله وعلوه: فإنهم يزعمون أن الله يستحيل أن يكون مختصاً بجهة ما، بل هو في كل مكان ولهذا فقد فسر الإباضية معنى استواء الله على عرشه باستواء أمره وقدرته ولطفه فوق خلقه، أو استواء ملك ومقدرة وغلبة، وإذا قيل لهم: لِمَ خص العرش بالاستيلاء والغلبة؟ ، أجابوا بجواب واهٍ قالوا لعظمته (•) ، وقد خرجوا بهذه التأويلات عن المنهج الشرعي إلى أعمال العقل بدون ضوابط اللغة بتكليف ظاهر مخالف للاعتقاد السليم والمنطق والفطرة [١] .

القول الصحيح في عقيدة الاستواء :

إن الله تعالى وصف نفسه بالعلو في السماء ووصفه بذلك محمد خاتم الأنبياء، وأجمع على ذلك جميع العلماء من الصحابة الأتقياء والأئمة الفقهاء، وتواترت الأخبار بذلك على وجه حصل به اليقين، وجمع الله عليه قلوب المسلمين وجعله مغروزاً في طباع الخلق أجمعين فتراهم عند نزول الكرب بهم يلحظون السماء بأعينهم ويرفعون نحوها للدعاء أيديهم، وينتظرون مجيء الفرج من ربهم وينطقون بذلك بألسنتهم لا ينكر ذلك إلا مبتدع غالٍ في بدعته، أو مفتون بتقليده واتباعه على ضلالته [٢] .

من الآيات الدالة على علو الله على خلقه:

قوله تعالى: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك:١٦] وقال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:١٨] .

(•) يعني : لعظم خلقة العرش فما دونه من باب أولى ... زعموا .

(١) إثبات صفة العلو للمقدسي: ٦٣.

(٢) توضيح الكافية الشافية: ٦٩.

وقول الرسول ﷺ : «**ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء**» .

ونقل إجماع علماء أهل السُّنَّة والجماعة في عُلو الله على خلقه العلامة عبد الرحمن السعدي في كتابه توضيح الكافية الشافية .

وحديث معاوية بن الحكم السلمي دليل واضح أيضاً قال: كانت لي غنم بين أحد والجوانية أقربه قرب المدينة فيها جارية لي، فأطلقتها ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب منها بشاة وأنا من بني آدم (آسَفُ كما يأسفون)، فرفعت يدي فصككتها فأتيت النبي ﷺ فذكرت له ذلك، فعظَّم ذلك، فقلت يا رسول الله: «أفلا أعتقها؟ قال: « **ادعها** » فدعوتها قال: فقال لها رسول الله ﷺ: « **أين الله ؟** » قالت في السماء ، قال : « **من أنا ؟** » فقالت: أنت رسول الله. قال رسول الله ﷺ : « **اعتقها فإنها مؤمنة** » [1] .

من أقوال العلماء :

قال ابن تيمية - رحمه الله -:

(إن القرآن والسنن المستفيضة المتواترة وكلام السابقين والتابعين بل سائر القرون الثلاثة مملوء بما فيه إثبات علو الله على عرشه بأنواع من الدلالات، ووجوه من الصفات وأصناف من العبارات، وتارة يخبر أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، وقد ذكر الاستواء على العرش في سبعة مواضع وتارة يخبر بعروج الأشياء وصعودها وارتفاعها وتارة يخبر بنزولها منه أو من عنده واستدل بآيات وأحاديث كثيرة في ذلك) [2] .

معنى كون الله في السماء:

أي أن الله تعالى على السماء ففي بمعنى على وليست للظرفية ، لأن السماء لا

---

(١) صحيح مسلم: كتاب المساجد : ١،٥٣٧ / ٣٨٢ .

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل، لابن تيمية: ١ / ٢٠٠.

تحيط بالله أو أنه في العلو فالسماء بمعنى العلو وليس المراد بها السماء المبنية (١) .

وبيَّن أهل السُنَّة أن علو الله وفوقيته على خلقه لا يتنافى مع وجود معيته ، وبينوا أن الله وصف نفسه بالمعية في آيات كثيرة وهي نوعان عامة وخاصة فالعامة كقوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ [الحديد : ٤] وقوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ [المجادلة : ٧] قال تعالى : ﴿ **يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ** ﴾ [النساء : ١٠٨] وأما المعية الخاصة كقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾ [النحل : ١٢٨] ، وقوله تعالى : ﴿ **قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ** ﴾ [طه : ٤٦] وقوله تعالى : ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة : ٢٤٩] وقوله تعالى : ﴿ **فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ** ﴾ [محمد : ٣٥] .

ولكل معية اختصاصاتها :

فإذا قيل : الله مع خلقه بطريقة العموم كان معنى ذلك علمه بهم وتدبيره لهم وقدرته عليهم، وهذا هو قول السلف في المعية العامة كما يتضح من أقوالهم .

وفي قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ** ﴾ [المجادلة : ٧] ابتدأ الله عز وجل الآية بالعلم وختمها بالعلم، فعلمه عز وجل محيط بخلقه وهو على عرشه وهذا قول المسلمين (٢) .

---

(١) لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد لابن قدامة : ٦٨ .

(٢) انظر : الشريعة للآجري : ٢٨٧ .

والمعية الخاصة معناها : أنه معهم بالنصرة والتأييد والمعونة كقوله تعالى: ﴿ فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٥] ، في النصر لكم على عدوكم.

إثبات استواء الله على عرشه :

الأدلة من القرآن :

قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٨-٥٩] .

من أقوال السلف :

ذكر ابن تيمية - رحمه الله - في كتابه شرح حديث النزول :

أن مالك بن أنس سئل عن قول الرحمن على العرش استوى. فقال: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا ضالاً وأمر أن يخرج من المجلس.

وروي بإسناده الثابت عن عبد الله بن المبارك أنه قال: نعرف ربنا بأنه فوق سبع سمواته بائن عن خلقه، ولا نقول كما قالت الجهمية بأنه ها هنا، وأشار بيده إلى الأرض وأجمع السلف على إثبات استواء الله على عرشه فيجب إثباته من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، وهو استواء حقيقي معناه العلو والاستقرار على وجه يليق بالله تعالى [١] .

---

(١) لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد: ٦٢ .

وهكذا قد بينا بإيجاز معتقد الإباضية في استواء الله وعلوه ثم رددنا عليه من الأدلة من الكتاب والسُنَّة وأقوال علماء أهل السُنَّة والجماعة.

[٣] معتقد الإباضية في باب رؤية الله عز وجل:

ذهبت الإباضية في باب رؤية الله تعالى إلى إنكار وقوعها لأن العقل - كما يزعمون - يحيل ذلك ويستبعده واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ﴾[الأنعام:١٠٣] وأولوا معنى الآية تأويلاً خاطئاً على طريقة المعتزلة.

ومن أدلتهم قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾[الأعراف:١٤٣]

واستدلوا من السُنَّة بحديث عائشة رضي الله عنها حين سئلت عن الرسول ﷺ هل رأى ربه ليلة الإسراء فأجابت بالنفي كما رواه صاحب وفاء الضمانة وقد أورد الربيع بن حبيب صاحب كتاب الجامع الصحيح أو مسند الربيع الذي هو عندهم بمنزلة صحيح البخاري ومسلم عند أهل السُنَّة ويعتبرونه أصح كتاب بعد القرآن الكريم كما يزعمون أورد عدة روايات عن بعض الصحابة تدل على إنكارهم رؤية الله تعالى [١].

والواقع أن كل استدلالاتهم التي شابهوا فيها المعتزلة إما استدلالات غير صحيحة الثبوت أو صحيحة ولكن أولوها على حسب هواهم في نفي الرؤية فإن الآية الأولى ليس فيها نفي الرؤية وإنما نفي الإحاطة والشمول، فالله يُرى ولكن من غير إحاطة به عز وجل.

وقوله لموسى ﴿لَن تَرَانِي﴾أي: في الدنيا وقد علق الله إمكان رؤيته تعالى بممكن وهو استقرار الجبل، وحديث عائشة رضي الله عنها إنما أرادت نفي أن يكون

---

(١) مسند الربيع بن حبيب: ٣ / ٣٥.

الرسول ﷺ رأى ربه في ليلة الإسراء وليس المقصود نفي الرؤية مطلقاً فهذا لم ترده أم المؤمنين ومن فهم النفي مطلقاً فهو سيئ الفهم جاهل بالنصوص [١] .

وخلاصة القول في هذه المسألة : أن رؤية الله تعالى عند السلف أمرٌ معلوم من الدين بالضرورة لا يماري فيها أحد منهم بعد ثبوتها في كتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ وفي أقوال الصحابة ﷺ وفي أقوال علماء السلف قاطبة رحمهم الله تعالى [٢] .

الأدلة على ثبوت الرؤية عند أهل السنة والجماعة :

أثبت الرؤية أهل السُنَّة والجماعة وخالف فيها الإباضية والمعتزلة والجهمية ومن تبعهم من الخوارج والإمامية.

الأدلة من القرآن :

قال تعالى : ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ [القيامة : ٢٢-٢٣] والنظر له عدة استعمالات بحسب صلاته وتعديته بنفسه : فإن عدي بفي كان معناه التفكر والاعتبار كقوله تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾ [الأعراف : ١٨٥] وإن عدي بإلى كان معناه المعاينة بالأبصار.

كقوله تعالى : ﴿ **انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ** ﴾ [الأنعام : ٩٩] فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر؟! ، فإضافة النظر إلى الوجه وتعديته بإلى الصريحة في نظر العين، وإخلاء الكلام عن قرينه تدل على خلافه برهان قاطع بأن الله أراد نظر العين إلى الرب جل جلاله وهذا قول المفسرين من أهل السُنَّة والحديث وهو قول ابن عمر، والحسن وابن عباس وعكرمة وغيرهم رحمهم الله [٣] .

وقوله تعالى : ﴿ **كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ** ﴾ [المطففين : ١٥] فإذا حجب الكفار في السخط دل ذلك على أن أولياءه يرونه في الرضا، وقد احتج

---

(١) فرق معاصرة : ١ / ١٠٠ .

(٢) المرجع السابق : ٩٤ .

(٣) تهذيب شرح الطحاوية، للدكتور صلاح الصاوي : ١٣١ .

الإمام الشافعي بذلك وغيره من الأئمة على الرؤية لأهل الجنة قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:٢٦] والزيادة قد فسرها رسول الله ﷺ بأنها النظر إلى وجه الله عز وجل.

روى مسلم عن صهيب رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد، يا أهل الجنة، إن لكم عند الله وعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون ما هو؟ ألم يثقل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟ فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه وهي الزيادة** ».

الأدلة من السُنَّة :

روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابياً، وهي متواترة ورواها أصحاب الصحاح والمسانيد والسُنن منها: حديث أبي هريرة رضي الله عنه « إن ناساً قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ ، فقال رسول الله ﷺ: « **هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟** » ، قالوا: لا يا رسول الله ، قال: « **هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟** »قالوا: لا ، قال: « **فإنكم ترون ربكم كذلك**»[١] .

وروى جرير بن عبد الله البجلي: قال: «كنا جلوساً مع النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة فقال: « **إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا لا تضامون في رؤيته**»[٢] .

والأحاديث في هذا المقام كثيرة والتشبيه الذي في هذه الأحاديث إنما هو للرؤية وليس للمرئي، فهو تشبيه الرؤية لا تشبيه المرئي بالمرئي، هذه بعض أدلة

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب ٤٥، حديث ٧٧٣.

(٢) المرجع السابق: باب ١٥، حديث: ٥٢٩.

أهل السُنَّة وهي قاطعة في إثبات الرؤية، ولا يلتفت إلى التأويلات الفاسدة فهذه هي التي خربت العقول والديار (١) .

[٤] من عقائد بعض الإباضية في كلام الله تعالى القول بخلق القرآن :

بل حكم بعض علمائهم كابن جميع والورجلاني أن من لم يقل بخلق القرآن فليس منهم.

وهذه المسألة نرجو من الله أن تكون قد ماتت من أذهان الناس، وقد عرف المسلمون أن القول بخلقه من أبطل الباطل إلا من بقي على القول بخلقه منهم وهم قلة شاذة بالنسبة لعامة المسلمين، وموقف السلف واضح فيها وهو موقف إمام السُنَّة أحمد بن حنبل رحمه الله وهو القول بأن القرآن كلام الله تعالى منه بدأ وإليه يعود ومن قذف الله الإيمان والنور في قلبه يعلم أن الله تعالى تكلم بالقرآن وبلغه جبريل إلى النبي ﷺ والكلام صفة لله تعالى (٢) .

والقرآن الكريم من كلام الله تعالى منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود، فهو كلام الله حروفه ومعانيه والدليل أنه من كلام الله قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة:٦] والقرآن منزل من عند الله ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان:١].

والقرآن غير مخلوق ، والدليل قوله تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] فجعل الأمر غير الخلق والقرآن من الأمر لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢] وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ [الطلاق: ٥٩] ولأن كلام الله صفة من صفاته وصفاته غير مخلوقة، ودليل أنه منه بدأ، أن الله أضافه إليه ، ولا يضاف الكلام إلا إلى من قاله مبتدئاً ، ودليل أنه إليه يعود أنه ورد في بعض الأحاديث أنه يرفع من المصاحف والصدور

(١) تهذيب الطحاوي، للصاوي: ١٣٣ .

(٢) الفرق مذكرة العواجي: ٩٥ .

في آخر الزمان [١] .

وقال ابن جرير الطبري - رحمه الله - في صريح السُنة:

« القرآن كلام الله وتنزيله إذ كان من معاني توحيده، فالصواب من القول في ذلك عندنا أنه كلام الله غير مخلوق » [٢] .

وقال الشيخ علاء الدين بن العطار - رحمه الله - :

« القرآن كلام الله وكتابه، وخطابه وتنزيله غير مخلوق، من قال بخلقه فقد كفر، إذ هو صفة من صفاته » [٣] .

ومما ينبغي الإشارة إليه هنا أن بعض الإباضية قد خرج عن القول بخلق القرآن كصاحب كتاب الأديان [٤] وكذا أبو النضر العماني [٥] وردا على من يقول بخلقه وبسطا الأدلة في ذلك، وبهذا يتضح أن الإباضية قد انقسموا في هذه القضية إلى فريقين.

[٥] مسألة القدر:

وقد اعتدل الإباضية في مسألة القدر ووافقوا أهل السُنَّة ، فاثبتوا القدر خيره وشره من الله تعالى، وأن الله خالق كل شيء وأن الإنسان فاعل لأفعاله الاختيارية مكتسب لها محاسب عليها وبهذا المعتقد صرح زعماؤهم كالنفوسي، والغيرابي والسالمي، وعلي يحيى معمر.

[٦] مسألة عذاب القبر:

وقد اختلف الإباضيون في إثبات عذاب القبر، فذهب قسم منهم إلى إنكاره

---

(١) لمعة الاعتقاد بتصرف : ٧٨-٧٩ .

(٢) صريح السُنة للطبري : ١٨ .

(٣) الاعتقاد الخالص من الشك لابن العطار : ٣٥ .

(٤) كتاب الأديان : ١٠٤ .

(٥) كتاب الدعائم لأبي نصر العماني : ٣١-٣٥ .

موافقين بذلك سائر فرق الخوارج وذهب قسم آخر إلى إثباته.

قال النفوسي في متن النونية:

وأما عذاب القبر ثبت جابر   وضعفه بعض الأئمة بالوهن

ومعتقد أهل السُنَّة هو القول بثبوت عذاب القبر ونعيمه كما صحت بذلك النصوص الكثيرة من الكتاب والسُنَّة ، ومن أنكره فليس له دليل إلا مجرد الاستبعاد ومجرد الاستبعاد ليس بدليل. أما الإشارة إلى عذاب القبر في القرآن قوله تعالى: ﴿ **النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** ﴾ [غافر:٤٦] وقال تعالى: ﴿ **وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الطور:٤٧] وهو محتمل لعذاب القبر وغيره في الدنيا، أو عذاب البرزخ، وهو أظهر لأن الكثير منهم مات ولم يعذب في الدنيا (١) .

وفي الصحيحين عن ابن عباس أن النبي ﷺ مر بقبرين فقال: «**إنهما ليعذبا وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة فدعا بجريدة رطبة فشقها نصفين وقال: لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا** » (٢) .

أما سؤال منكر ونكير للميت في قبره فقد استفاضت به أيضاً النصوص:

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: « **إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه يسمع قرع نعالهم ، فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد؟ ، فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقول انظر إلى مقعدك في النار ، أبدلك الله به مقعداً من الجنة فيراها جميعاً** » (٣) .

---

(١) تهذيب شرح الطحاوية: ١٩٢.

(٢) البخاري: كتاب الوضوء، باب ٥٤ حديث: ٢١٣.

(٣) البخاري: كتاب الجنائز، باب ٦٦، حديث: ١٢٧٣.

والسؤال في القبر للبدن والروح معاً، وليس وحدها كما قال ابن حزم، فيجب الإيمان بذلك ولا يسأل عن كيفيته إذ ليس للعقل مدخل في ذلك لأنه لا عهد له به في هذه الدار، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول ولكن قد يأتي بما تحار فيه فإعادة الروح للجسد ليست على الوجه المعهود في الدنيا (١) .

[٧] وجود الجنة والنار الآن:

يثبت الإباضيون وجود الجنة والنار الآن ويثبتون الحوض ويؤمنون بالملائكة والكتب المنزلة (٢)

[٨] الشفاعة:

وأما الشفاعة: فإن الإباضية يثبتونها ولكن لغير العصاة بل للمتقين وكأن المتقي في نظرهم أحوج إلى الشفاعة من المؤمن العاصي قال صاحب كتاب الأديان : والشفاعة حق للمتقين وليست للعاصين.

وقال السالمي:

وما الشفاعة إلا للتقي كما قد قال رب العلا فيها وقد فصلا (٣)

وذكر الربيع بين حبيب روايات عن الرسول ﷺ تدل في زعمه على هذا المعتقد، وقرر الحرثي في كتابه العقود الفضية تلك القضية (٤) .

ومذهب أهل السُّنَّة أن الرسول ﷺ يشفع في عصاة المؤمنين أن لا يدخلوا النار ، ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها بعد إذن الله ورضاه ، وثبت أن الله يقبل شفاعته في ذلك وشفاعة الصالحين في عباده بعضهم في بعض ، وقد قسم أهل السُّنَّة في كتبهم الشفاعة إلى أنواع ، مسترشدين في ذلك بالآثار النبوية

---

(١) تهذيب الطحاوية: ١٩٤.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) فرق معاصرة: ١/ ١٠٢.

(٤) المرجع السابق: ١/ ١٠٢.

الواردة في ذلك .

النوع الأول : الشفاعة العظمى : وهي خاصة بنبينا محمد ﷺ ذلك أنه إذا كانت القيامة وبلغ الكرب بالناس ما بلغ يهرعون إلى الأنبياء ليشفعوا لهم عند الله ليخلصهم مما هم فيه ويأتي للفصل بينهم، فيذكر كل نبي ذنبه، ويحيل إلى الآخر حتى إذا انتهوا إلى محمد ﷺ فإنه يذهب ويسجد تحت العرش، ثم يسأل الله الشفاعة في ذلك فيجيبه عز وجل لذلك ، ويأتي للفصل بين العباد .

النوع الثاني : شفاعته ﷺ في أقوام تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة .

النوع الثالث : شفاعته في أقوام قد أمر بهم إلى النار لئلا يدخلوها .

النوع الرابع : شفاعته ﷺ في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم.

النوع الخامس : شفاعته في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب، ودليله حديث عكاشة بن محصن حين دعا له ﷺ أن يجعله من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب (١) .

شفاعته في تخفيف العذاب عمن يستحقه، كشفاعته في عمه أبي طالب أن يخفف عنه عذابه، أما قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] فالمراد لا تنفعهم في الخروج من النار كما تنفع عصاة الموحدين ذكره القرطبي، وشفاعته أن يؤذن لجميع المؤمنين في دخول الجنة، عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «أنا أول شفيع في الجنة» (٢) شفاعته في أهل الكبائر من أمته عن أنس قال: قال ﷺ : «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» (٣) .

---

(١) مسند الربيع بن حبيب، الجامع الصحيح: ٤ / ٣١، ٢٢٣ .

(٢) تهذيب الطحاوية: ٢٢٢، ٢٢٣.

(٣) صحيح مسلم: كتاب الإيمان: ٨٥٥ ، حديث: ٣٣٠-٣٣٣.

وهذه الشفاعة التي تشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون وقد خالفت فيها الخوارج والمعتزلة.

[٩] الميزان:

وأما الميزان الذي جاءت به النصوص وثبت أن له كفتان حسيتان مشاهدتان توزن فيه أعمال العباد كما يوزَنُ العاملُ نفسُه فإن الإباضية تنكر هذا الوصف ويثبتون وزن الله للنيات والأعمال بمعنى تمييزه بين الحسن منها والسيئ وأن الله يفصل بين الناس في أمورهم ويقفون عند هذا الحد غير مثبتين ما جاءت به النصوص من وجود الموازين الحقيقية في يوم القيامة، وعلى الصفات التي جاءت في السُنَّة النبوية.

وأدلة أهل السُنَّة والجماعة واضحة في القرآن وسُنَّة النبي ﷺ قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ [الأنبياء:٤٧].

وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ [القارعة:٦-٩]، وجمعت الموازين باعتبار تعددها أو باعتبار تنوع الأعمال الموزونة، وقد دلت السُنَّة على أن الميزان له كفتان حسيتان مشاهدتان جاء في حديث السجلات الذي رواه أحمد: «فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فتطيش السجلات وتثقل البطاقة» (١).

ووردت الأحاديث بوزن الأعمال نفسها عن أبي مالك الأشعري قال: قال ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان».

وقال ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم» (٢).

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الإيمان، باب١٧، حديث:٢٦٣٩.

(٢) رواه مسلم: كتاب الطهارة، باب:١، حديث:١.

كما وردت أيضاً بأن العامل يوزن مع عمله ، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : **إنه ليؤتي بالرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ، قال اقرءوا إن شئتم ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾** [الكهف : ١٠٥] ، وقال ﷺ عندما ضحك البعض من دقة ساقي ابن مسعود : « **والذي نفسي بيده لهما اثقل في الميزان من أحد** » [١] .

ولا وجه لاعتراض البعض بأن الأعمال أعراض لا تقبل الوزن، لأن الله عز وجل يقلب الأعراض أجساماً ، كما يؤتى بالموت – وهو عرض – في صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار وهذا جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ .

ما الحكمة من وزن الأعمال ؟ :

ولو لم يكن من الحكمة في وزن الأعمال إلا ظهور عدله سبحانه وتعالى لجميع عباده لكان ذلك كافياً، فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله عز وجل، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، فكيف ونحن على يقين أن وراء ذلك من الحكم ما لا اطلاع لنا عليه.

[١٠] الصراط :

قالت الإباضية : إنه ليس بجسر على ظهر جهنم وذهب بعضهم وهم قلة إلى إثبات الصراط بأنه جسر ممدود على متن جهنم ، حسبما نقله الدكتور صابر طعمة عن الجيطالي من علماء الإباضية ، وأهل السُنَّة يعتقدون أن الصراط جسر جهنم وأن العباد يمرون عليه سرعةً وبطئاً حسب أعمالهم ومنهم من تخطفه كلاليب النار فيهوي فيها [٢] .

---

(١) فرق معاصرة: ١ / ١٠٢.

(٢) مذكرة الفرق للعواجي : ٩٧.

وقد بين شارح الطحاوية معتقد أهل السُنَّة في الصراط المذكور فقال ـ رحمه الله ـ :

« ونؤمن بالصراط، وهو جسر على جهنم ، إذا انتهى الناس بعد مفارقتهم الموقف إلى الظلمة التي دون الصراط، كما قالت عائشة رضي الله عنها : إن رسول الله ﷺ سُئل أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ ، فقال : « **هم في الظلمة دون الجسر** » (١) .

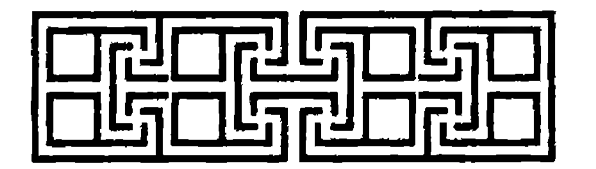

(١) شرح الطحاوية: ٤٦٩ .

المبحث الرابع
حقيقة الإيمان وحكم مرتكب الكبيرة

ووافقت معظم الإباضية أهل السُّنَّة في حقيقة الإيمان من أنه قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وقد خالف بعضهم فذهب إلى أن الإيمان يزيد ولا ينقص وقد نقل الدكتور صابر طعمة الأدلة من كتبهم على هذا الرأي (١) .

وزيادة الإيمان ونقصه مسألة خالف فيها الإباضية سائر الخوارج الذين يرون أن الإيمان جملة واحدة لا يتبعض، وأن العبد يكفر ويذهب إيمانه بمجرد مواقعته للذنب ويسمونه كافراً وهو مخلد في النار في الآخرة، إلا أن الإباضية مع موافقتهم للسلف في الحكم ، لكنهم يسمون المذنب كافرا كفر نعمة ومنافقاً.

يقول أعوشت : فالكفر إذن عند الإباضية ينقسم إلى ما يلي:

﴿ ١ ﴾ كفر نعمة ويتمثل في المسلم الذي ضيع الفرائض الدينية أو ارتكب الكبائر أو جمع بينهما (٢) .

وفي الآخرة مخلدٌ في النار إذا مات من غير توبة، وكان الحال يقتضي أنهم لا يطلقون عليه كلمة الكفر ولا النفاق ولا يحكمون عليه بالخلود في النار، بل هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ونجد هنا أن الإباضية وافقوا أيضاً سائر الخوارج في الحكم على مرتكب الكبيرة بالخلود في النار إذا مات قبل التوبة بناء على اعتقاد إنفاذ الوعيد لا محالة واستدلوا بسائر أدلة الخوارج على كفر مرتكب الكبيرة وخلوده في النار وأهل السُنَّة لا يرون ذلك، بل يقولون : إذا مات المذنب قبل التوبة فأمره إلى الله وهو تحت المشيئة، ويقولون أيضا : أن إخلاف الوعد مذموم وإخلاف الوعيد كرم وتجاوز.

---

(١) فرق معاصرة: ١ /١٠٣.

(٢) دراسات إسلامية في أصول الإباضية ، بكر بن سعيد أعوشت : ٩٥.

وإليك أخي القارئ الكريم قول أهل السُنة والجماعة في مرتكب الكبيرة:

أما أهل السُنَّة والجماعة من سلف هذه الأمة الصالحين وخلفها المتبعين فإنهم مع قولهم بأن الأعمال جزء من مسمى الإيمان لا يرون في ارتكاب الكبائر ما يخرج المرء من الإيمان سوى الشرك بالله، فكان قولهم في مرتكب الكبيرة أنه مؤمن عاص أو فاسق، أو يقال: هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته فلا يزيلون عنه اسم الإيمان بالكلية بذهاب بعضه، ولا يعطونه اسم الإيمان المطلق.

أما حكمه في الآخرة فيرون أنه :

إذا مات ولم يتب دخل مشيئة الله ، إن الله شاء غفر له وأدخله الجنة دون عذاب، وإن شاء أدخله النار وعذبه بقدر ذنوبه. ثم أنه لا يخلد في النار كالكفار، بل لابد أن يخرج منها ويدخل الجنة هذا هو مجمل قول أهل السُنَّة في صاحب الكبيرة، وهذه بعض نصوص أئمة أهل السنة، التي عبروا فيها عن معتقدهم وقولهم في أصحاب الكبائر من أهل القبلة، نسوقها هنا لنقف على حقيقة قولهم في ذلك.

يقول إمام أهل السُنة أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) في اعتقاده الذي ذكره اللالكائي:

«ولا يشهد على أحد من أهل القبلة بعمل يعمله بجنة ولا نار يرجو للصالح ويخاف عليه، ويخاف على المسيء المذنب، ويرجو له رحمة الله ... ومن لقي الله بذنب يجب له به النار تائباً غير مُصِرٍّ عليه فإن الله عز وجل يتوب عليه ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، ومن لقيه وقد أقيم عليه حد ذلك في الدنيا فهو كفارة كما جاء الخبر عن رسول الله ﷺ ، ومن لقية مصرًّا غير تائب من الذنوب التي استوجب بها العقوبة، فأمره إلى الله عز وجل إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، ومن لقيه كافراً عذبه ولم يغفر له» [١] .

---

(١) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ١/ ١٦٢.

ويقول الإمام الطحاوي (ت ٣٢١هـ) في عقيدته المشهورة : (ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله [١] ، ولا نقول: لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله، نرجو للمحسنين من المؤمنين أن يعفو عنهم، ويدخلهم الجنة برحمته، ولا نأمن عليهم ولا نشهد لهم بالجنة [٢] ، ونستغفر لمسيئهم، ونخاف عليهم ولا نقنطهم . . . ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه.

وأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ في النار لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحدون وأن لم يكونوا تائبين ، بعد أن لقوا الله عارفين مؤمنين، وهم تحت مشيئته وحكمه إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله كما ذكر عز وجل في كتابه: ﴿ **وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ [النساء :٤٨] ، وإن شاء عذبهم في النار بعدله ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته ثم يبعثهم إلى جنته، وذلك بأن الله تعالى تولى أهل معرفته ولم يجعلهم كأهل نكرته الذين خابوا من هدايته، ولم ينالوا من ولايته . . .) [٣] .

وأما الإمام الصابوني (٣٧٢-٤٤٩ هـ): (ويعتقد أهل السُنَّة أن المؤمن وإن أذنب ذنوباً كثيرة، صغائر كانت أو كبائر فإنه لا يكفر بها وإن خرج من الدنيا غير تائب منها ومات على التوحيد والإخلاص، فإن أمره إلى الله – عز وجل – أن شاء عفا عنه وأدخله الجنة يوم القيامة سالماً غانماً غير مبتلى بالنار، ولا معاقب على ما ارتكبه من الذنوب، واكتسبه ثم استصحبه إلى يوم القيامة من الآثام والأوزار وإن شاء عاقبه، وعذبه مدة بعذاب النار، وإذا عذبه لم يخلده فيها، بل أعتقه وأخرجه منها إلى دار القرار) [٤] .

---

(١) **الأولى أن يقال:** بكل ذنب كما نبه عليه ابن أبي العز في شرحه، لأن المراد مقابلة الخوارج والمعتزلة الذين يكفرون بكل ذنب من الكبائر، وأهل السُنة ليسوا كذلك وإن كانوا يكفرون ببعض الذنوب لورود النص فيها كترك الصلاة عند بعضهم على تفصيل في ذلك.

(٢) أي: استثنى أهل الجنة ا الذين جاءت النصوص فيهم مثل العشرة المبشرين بالجنة.

(٣) **انظر**: العقيدة الطحاوية: ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٣، ٢٤ .

(٤) **انظر**: عقيدة السلف أصحاب الحديث: للصابوني: ٧١-٧٢ .

فهذه عقيدة أهل السُنَّة والجماعة في أصحاب الكبائر من أهل القبلة كما دونها أئمتهم على ضوء نصوص الكتاب والسنة، قولهم في ذلك واحد لا يختلف فيه أحد، كلهم متفقون عليه كما صرح بذلك من نقل إجماعهم واتفاقهم عليه من الآئمة. وهو قول يدل على عدل واعتدال واتزان، كل جزئية منه يدل عليها آية من كتاب الله أو سُنَّة عن رسول ﷺ[1].

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ** ﴾ [البقرة:١٧٨] فخاطب الجميع باسم الإيمان مع أن فيهم من قد وجب عليه القصاص لارتكابه كبيرة القتل، فقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ وأثبت الأخوة بين القاتل وبين ولي الدم، فقال: ﴿ **فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ** ﴾ ولا شك في أن المراد بالأخوة الإيمانية المذكورة في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾ [الحجرات: ١٠] فدل ذلك على بقاء الإيمان مع كبيرة القتل، قال الإمام ابن الجوزي في الآية: ودل قوله ﴿ **مِنْ أَخِيهِ** ﴾ على أن القاتل لم يخرج عن الإسلام)[2].

والدليل الثاني من القرآن الكريم: كقوله عز وجل: ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ [الحجرات:٩-١٠]، فسمى الجميع مؤمنين مع الاقتتال، وجعل الجميع إخوة، فدل على ذلك على أن الكبيرة لا تُخرج صاحبها من الإيمان، وقد استدل الإمام البخاري بهذه الآية فقال ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا** ﴾ قال: فسماهم المؤمنين، أي مع اقتتالهما[3].

---

(١) وسطية أهل السُنة في الفرق، لشيخي الدكتور محمد باكريم: ٣٨٣.
(٢) انظر: زاد المسير في علم التفسير: ١/١٦٣.
(٣) انظر: فتح الباري: كتاب الإيمان: ١/٨٤.

ثم إن نصوص الكتاب والسُنَّة ، والإجماع تدل على أن الزاني غير المحصن، والسارق والقاذف لا يقتل، بل يقام عليه الحد، فدل على أنه ليس بمرتد بارتكاب هذه الكبائر ولو كان كذلك لقُتل (١) .

أما قولهم بأنه إذا مات من غير توبة، فهو داخل تحت مشيئة الله أن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه، فيشهد له قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء:٤٨] فجوّز أن يغفر كل ذنب سوى الشرك بالله بما في ذلك الكبائر. ويدل عليه قول المصطفى ﷺ في حديث عبادة بن الصامت ﷺ: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفَّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله ، فهو إلى الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه» (٢) .

والحديث نص في دخول من مات على شئ من الكبائر، تحت المشيئة كما يقول أهل السُنَّة .

وأما قول أهل السُنَّة: إنه لا يخلد في النار إذا دخلها وأنه لابد أن يخرج منها ويدخل الجنة، فهو مأخوذ من مثل قوله ﷺ: «يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ثم يقول الله تعالى: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيخرجون منها قد اسودوا فيلقون في نهر الحياء - والحياة - شك مالك - أحد رواة الحديث - فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل» (٣) .

فدل الحديث على خروج من في قلبه مثقال حبة من إيمان من النار وإدخالهم

---

(١) وسطية أهل السُنة بين الفرق ، للدكتور محمد باكريم: ٣٨٥ .

(٢) فتح الباري: كتاب الإيمان: ١ / ٤ .

(٣) المرجع السابق: كتاب الإيمان: باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال: ١ / ٧٢ .

الجنة، ومعلوم أن أصحاب الكبائر مؤمنون، ومع كثير منهم مثقال أو مثاقيل من الإيمان ، فلا شك في خروجهم والحديث تضمن أيضاً الرد على المرجئة خاصة في قولهم: لا يضر مع الإيمان ذنب: إذ يثبت الحديث أن من المؤمنين من تضره المعاصي فيدخل النار، ثم يخرج منها، فخروجه دل على انه ليس بكافر، إنما هو مؤمن عذب بقدر ذنبه ثم أخرج إلى الجنة (١) .

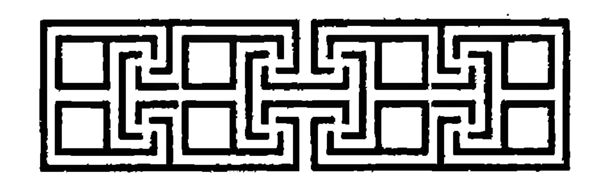

(١) عقيدة أهل السُنة في الفرق: ٣٨٦.

المبحث الخامس

مسألة الإمامة والخلافة

وقد ذكر بعض العلماء عن الإباضية في مسألة الخلافة أن الإباضية يزعمون أنه قد يستغني عن نصب الخليفة ولا تعود إليه حاجة إذا عرف كل واحد الحق الذي عليه للآخر، وهذا القول أكثر ما شهر عن المُحَكِّمَة والنجدات من الخوارج، وأما الإباضية فقد ذكر هذا القول عنهم ج، ج لوريمر في كتابه دليل الخليج (١).

ولكن بالرجوع إلى كتب الإباضية نجد أنهم ينفون هذا القول عنهم ويعتبرونه من مزاعم خصومهم عنهم وأن مذهبهم هو القول بوجوب نصب حاكم للناس، ومن قال غير هذا عنهم فهو جاهل بمذهبهم كما صرح بذلك علماؤهم كالسالمي وعلي يحيى معمر وغيرهما، قال السالمي: (والإمامة فرض بالكتاب والسنة والإجماع والاستدلال) (٢) .

وأما مذهب أهل السُّنَّة فإنهم يرون وجوب نصب الحاكم وإن كانوا جماعة قليلة، فلو كانوا ثلاثة في سفر لوجب تأمير أحدهم كما دلت على ذلك النصوص الثابتة وأن من قال بالاستغناء عن نصب الحاكم فقد كابر عقله، وكذب نفسه ورد عليه الواقع من حال البشر وصار ما يقوله من نسج الخيال وأدلته على الاستغناء مردودة واهية.

والخوارج كافة ينظرون إلى الإمام نظرة حازمة هي إلى الريبة منه أقرب، ولهم شروط قاسية جداً قد لا تتوفر إلا في القليل النادر من الرجال، وإذا صدر منه أقل ذنب فإما أن يعتدل ويعلن توبته وإلا فالسيف جزاءه العاجل، وقد جوز الإباضية

---

(١) دليل الخليج لوريمر ٦ /٣٣٠٣، وانظر: الفصل لابن حزم: ٤ /٨٧ .

(٢) الإباضية بين الفرق، علي معمر: ٢٨٩، غاية المراد: ١٨ للسالمي .

كأهل السُنَّة صحة إمامة المفضول مع وجود الفاضل إذا تمت للمفضول الشروط المعلومة خلافاً لسائر الخوارج ، وجوز الإباضية التقية خلافاً لأكثر الخوارج، والله الهادي إلى الصراط المستقيم [١] .

أولا: الإمامة العظمي:

هذه هي مشكلة الخوارج الكبرى منذ نشأتهم وطوال عهد الدولة الأموية وزمن متقدم من عهد الدولة العباسية، شغلتهم قضية الإمامة عملياً، فجردوا السيوف ضد الحكام المخالفين لهم ناقمين عليهم سياستهم في الرعية من عدم تمكينهم من اختيار إمامهم بأنفسهم، ثم سياستهم الداخلية في الناس وشغلتهم فكرياً بتحديد شخصية الإمام وخصائصه ودوره في المجتمع، وكانوا يظهرون بمظهر الزاهد عن تولي الخلافة حينما يكون الأمر فيما بينهم وحرباً لا هوادة فيها ضد المخالفين لهم.

ثانيا: حكم الإمامة عند الخوارج:

الإمامة منصب خطير وضرورة اجتماعية إذ لا يمكن أن ينعم الناس بالأمن وتستقر الحياة إلا بحاكم يكون هو المرجع الأخير لحل الخلافات وحماية الأمة وقد أطبق على هذا جميع العقلاء.

أما بالنسبة للخوارج فقد انقسموا فيها إلى فريقين :

[١] الفرق الأول :

وهم عامة الخوارج، وهؤلاء يوجبون نصب الإمام والانضواء تحت رايته والقتال معه ما دام على الطريق الأمثل الذي ارتأوه له.

[٢] الفريق الثاني:

وهم المحكمة والنجدات قيل عنهم وهؤلاء يرون أنه قد يستغنى عن الإمام إذا

---

(١) فرق معاصرة للدكتور عواجي: ١/ ١٠٤-١٠٥

تناصف الناس فيما بينهم وإذا احتيج إليه فمن أي جنس كان ما دام كفء لتولي الإمامة [١] .

ومن مبرراتهم :

﴿ ١ ﴾ استنادهم إلى المبدأ القائل لا حكم إلا لله، والمعنى الحرفي لهذا المبدأ يشير صراحة إلى أنه لا ضرورة لوجود الحكومة مطلقاً.

﴿ ٢ ﴾ أن الحكم ليس من اختصاص البشر، بل تهيمن عليه قوة علوية.

﴿ ٣ ﴾ أن الضروري هو تطبيق أحكام الشريعة، فإذا تمكن الناس من تطبيقها بأنفسهم فلا حاجة إلى نصب الخليفة.

﴿ ٤ ﴾ ربما ينحصر وجود الإمام في بطانة قليلة وينعزل عن الأغلبية فيكون بعيداً عن تفهم مشاكل المسلمين فلا يبقى لوجوده فائدة.

﴿ ٥ ﴾ أن النبي ﷺ لم يشر صراحة ولا وضع شروطاً لوجود الخلفاء من بعده.

﴿ ٦ ﴾ أن الكتاب لم يبين حتمية وجود إمام ، وإنما أبان ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [٢] .

هذه مبرراتهم، فهل بقي القائلون بالاستغناء عن نصب الإمام على مبدئهم؟ والجواب بالنفي، فإن المُحَكِّمَة حينما انفصلوا وَلّوْا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي، والنجدات حينما انفصلوا تزعمهم نجدة بن عامر، وأما تلك المبررات التي نسبت إلى من ذكرناهم فلا شك أنها مبررات واهية ولا تكفي للقول بالاستغناء عن نصب الخليفة، أما القول بعدم وجود الإنسان الكامل، فإنه لا يمنع من نصب الإمام حيث يختار أفضل الموجودين، ومن التصور الساذج القول بتناصف الناس فيما بينهم، وأما انعزال الإمام فإن مدار الأمر على التزامه بواجباته

---

(١) مقالات الأشعري: ١/ ٢٠٥ .

(٢) آراء الخوارج للطالبي: ١٢٥ .

الشرعية وعدم إيجاد الحجب بينه وبين رعيته، وذلك مناط الحكم بضرورة وجود الإمام شرعاً وعقلاً وقد ذهبت الحمرية والخلفية من الخوارج إلى القول بجواز وجود إمامين في وقت واحد(١) ، وهذا باطل ولا يتفق مع روح الإسلام وأهدافه، لأن ذلك يؤدي إلى المشاحنات والعداوة وتفريق كلمة المسلمين (٢) .

ثالثا: شروط الإمام عند الخوارج:

وضع الخوارج شروطاً قاسية لمن يتولي الإمامة ومنها :

[١] أن يكون شديد التمسك بالعقيدة الإسلامية مخلصاً في عبادته وتقواه حسب مفهومهم.

[٢] أن يكون قوياً في نفسه ذا عزم نافذ وتفكير ناضج وشجاعة وحزم.

[٣] أن يتم انتخابه برضى الجميع، لا يغني بعضهم عن بعض، ولا عبرة بالنسب أو الجنس، كما يقولونه ظاهراً دعاية لمذهبهم وفي باطنهم يملأهم التعصب، وكون الإمام ينتخب برضى أهل الحل والعقد، هذا مبدأ إسلامي لم يأت به الخوارج كما يقول بعض المستشرقين دعاية للخوارج.

ولم يلتفت الخوارج إلى ما صح من الأحاديث في اشتراط القرشية لتولي الخلافة وتقديم قريش فيها عند صلاحية أحدهم لها، ولم يشترط الشرع في الإمام أن يكون ليله قائماً ونهاره صائماً أو أنه لا يلم بأي معصية، أو أن يكون انتخابه برضى كل المسلمين من أقصاهم إلى أدناهم لا يغني بعضهم عن بعض في مبايعتهم له كما يزعمه الخوارج (٣) .

رابعا: محاسبة الإمام والخروج عليه عند الخوارج:

يعيش الإمام عند الخوارج بين فكي الأسد - عكس الشيعة - فالخوارج

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني: ١ / ١٣٠ .

(٢) فرق معاصرة: (١ /١١٣) .

(٣) مدارج الكمال للسالمي: ١٧١ .

ينظرون إلى الإمام على أنه المثل الأعلى وينبغي أن يتصف بذلك قولاً وفعلاً، وبمجرد أقل خطأ ينبغي عليهم القيام في وجهه ومحاسبته فإما أن يعتدل وإما أن يعتزل، ومن غرائبهم ما يروى عن فرقة البيهسية منهم والعوفية فقد اعتبر هؤلاء كفر الإمام سبباً في كفر رعيته، فإذا تركته رعيته دون إنكار فإنهم يكفرون أيضاً (١) .

ولا شك أن هذا جهل بالشريعة الإسلامية وعلى هذا فما تراه من كثرة خروجهم على أئمتهم أو أئمة مخالفيهم يعتبر أمراً طبيعيًّا إزاء هذه الأحكام الخاطئة، وقد حث الإسلام على طاعة أولي الأمر والاجتماع تحت رايتهم إلا أن يظهروا كفراً بواحاً، فلا طاعة في معصية الخالق، وينبغي معالجة ذلك بأخف الضرر ولا يجوز الخروج عليهم ما داموا ملتزمين بالشريعة بأي حال (٢) .

خامساً: إمامة المرأة:

الإمامة مسئولية عظمى وعبء ثقيل يتطلب سعة الفكر وقوة البصيرة ويتطلب مزايا عديدة جعل الله معظمها في الرجال دون النساء، وقد اتفق جميع العقلاء على أن الخلافة لا يصلح لها النساء، ولكنا نجد فرقة من فرق الخوارج وهي الشبيبية تذهب إلى جواز تولي المرأة الإمامة العظمى مستدلين بفعل شبيب حينما تولت غزالة زوجته – وقيل أمه – بعده (٣) .

سادسا: أدلة أهل السُنة في وجوب الإمامة:

إن أهل السُنَّة والجماعة يرون أن الإمامة واجبة، وأنه لابد للمسلمين من إمام يقيم شعائر الدين وينصف المظلومين من الظالمين ويستدلون على ذلك بأدلة من الكتاب والسنة والإجماع والقواعد الشرعية (٤) .

---

(١) مقالات الأشعري: ١/ ١٩٤.

(٢) فرق معاصرة: ١/ ١١٥.

(٣) الفرق بين الفرق: ص ١١٠.

(٤) الإمامة العظمى عند أهل السُنة والجماعة للدكتور محمد عبد الله الدميجي: ٤٧.

الأدلة من القرآن :

﴿ ١ ﴾ قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ..** ﴾ [النساء:٥٩] قال ابن كثير في الآية : (الظاهر – والله أعلم أن الآية عامة في جميع أولي الأمر من الأمراء والعلماء) (١) .

وهذا هو الراجح ووجه الاستدلال من هذه الآية: أنه سبحانه أوجب على المسلمين طاعة أولي الأمر منهم وهم الأئمة، والأمر بالطاعة دليل على وجوب نصب ولي الأمر، لأنه الله تعالى لا يأمر بطاعة من لا وجود له، ولا يفرض طاعة من وجوده مندوب، فالأمر بطاعته يقتضي الأمر بإيجاده فدل على أن إيجاد إمام للمسلمين واجب عليهم (٢) .

﴿ ٢ ﴾ ومن الأدلة أيضاً : قول الله تعالى مخاطبا الرسول ﷺ : ﴿ **فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ...** ﴾ [المائدة:٤٨] وقوله تعالى : ﴿ **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ** ﴾ [المائدة:٤٩] .

فهذا الأمر من الله تعالى لرسوله ﷺ بأن المسلمين بما أنزل الله – أي بشرعه – وخطاب الرسول ﷺ خطاب لأمته ما لم يرد دليل يخصصه به، وهنا لم يرد دليل على التخصيص، فيكون خطاباً للمسلمين جميعاً بإقامة الحكم بما أنزل الله إلى يوم القيامة، ولا يعني إقامة الحكم والسلطان إلا إقامة الإمامة، لأن ذلك من وظائفها ولا يمكن القيام به على الوجه الأكمل إلا عن طريقها، فتكون جميع الآيات الآمرة بالحكم بما أنزل الله دليلاً على وجوب نصب إمام يتولى ذلك.

ومن الأدلة أيضًا : قول الله تعالى : ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ**

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢ / ٣٠٣ .

(٢) المرجع السابق: ٤٧–٤٨ .

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥] ، فمهمة الرسل عليهم السلام ومن أتى بعدهم من أتباعهم أن يقيموا العدل بين الناس على وفق ما في الكتاب المُنزل ، وان ينصروا ذلك بالقوة وهذا لا يتأتى لأتباع الرسل إلا بتنصيب إمام يقيم فيهم العدل، وينظم جيوشهم المناصرة .

ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -:

(فالدين الحق لابد فيه من الكتاب الهادي والسيف الناصر، فالكتاب بيِّن ما أمر الله به وما نهى عنه، والسيف ينصر ذلك ويؤيده)(١) .

ومن الأدلة القرآنية أيضاً جميع آيات الحدود والقصاص ونحوها من الأحكام التي يلزم القيام بها وجود الإمام .

الأدلة من السنة :

روي عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة فيه دلالة على وجوب نصب الإمام ، **ومن هذه الأدلة ما يلي:**

﴿ ١ ﴾ ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية**»(٢) ، أي: بيعة الإمام ، وهذا واضح الدلالة على وجوب نصب الإمام لأنه إذا كانت البيعة واجبة في عنق المسلم، والبيعة لا تكون إلا لإمام فنصب الإمام واجب .

﴿ ٢ ﴾ ومنها أيضاً الحديث المشهور في السُنن عن العرباض بن سارية، عن النبي ﷺ أنه قال – من حديث طويل –: «**إنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فأن كل بدعة ضلالة**»(٣) .

---

(١) منهاج السُنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية لابن تيمية: ١/ ١٤٢.

(٢) رواه مسلم كتاب الإمارة، باب: وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء: ٣ /١٤٧٨.

(٣) رواه الترمذي، كتاب العلم، باب: ١٦جـ ٥،٢٦٧٦ / ٤٤وقال: حسن صحيح.

وقد تواتر عن الصحابة رضوان الله عليهم أنهم بايعوا أبا بكر رضي الله عنه بالخلافة بعد لحوق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، ثم استخلف أبو بكر عمر رضي الله عنهما، ثم استخلف عمر أحد الستة الذين اختاروا عثمان رضي الله عنه، ثم بعد استشهاده بايعوا عليًّا بالخلافة، فهذه سنتهم رضي الله عنهم في الخلافة وعدم التهاون في منصبها فوجب الاقتداء بهم في ذلك بأمر النبي ﷺ .

من السنة الفعلية :

أن الرسول ﷺ أقام أول حكومة إسلامية في المدينة وصار ﷺ أول إمام لتلك الحكومة، فبعد أن هيأ الله لهذا الدين من ينصره ورسوله بدأ ﷺ في تشييد أركانها، فأصلح بين الأوس والخزرج من مشاكل وحروب طاحنة ثم آخى بين الأنصار والمهاجرين ونظم جيوش المجاهدين لنشر الدين والذود عن حماه، وقد أرسل الرسل والدعوات إلى ملوك الدول المجاورة يدعوهم إلى الإسلام، وعقد الاتفاقيات والمعاهدات مع اليهود وغيرهم وأبان أحكام الأسرى وما يتعلق بهم، وأحكام الحرب وأهل الذمة ، وأنشأ بيت مال المسلمين ، وأقام الحدود الشرعية والعقوبات إلى غير ذلك من مظاهر الدولة ووظائف الإمامة.

يقول الإمام الشاطبي - رحمه الله -:

(ثبت أن النبي ﷺ لم يمت حتى أتى ببيان جميع ما يحتاج إليه من أمر الدين والدنيا وهذا لا خلاف عليه من أهل السُنَّة) [(١)] .

ومن المعلوم أن قيام هذه الدولة وزعامته ﷺ لها لم يكن هدفاً له في ذاته، وإنما هو من مستلزمات هذا الدين الذي لا يتم إلا به كيف وقد عرضت عليه قريش من أول وهلة الملك عليها من دون تعب ولا جهاد وإنما يترك سب آلهتهم، فرفض ذلك رفضاً باتاً [(٢)] . وإنما كان هدفه الوحيد ﷺ القيام بتبليغ هذه الرسالة

---

(١)الاعتصام للإمام الشاطبي: ١ /٤٩.

(٢)سيرة ابن هشام: ١ /٢٩٣.

وحملها إلى الناس واتخاذ كافة الوسائل المؤدية إلى ذلك، ومن هذه الوسائل قيام الدولة الإسلامية فهي واجبة لهذا الغرض، ولأنها من مستلزمات هذا الدين .

يقول الأستاذ عبد القادر عودة رحمه الله : فالرسول ﷺ كوَّن من المسلمين وحدة سياسية ، وألف منهم جميعاً دولة واحدة كان هو رئيسها وإمامها الأعظم وكان له وظيفتان .

الأولى : التبليغ عن الله .

الثانية : القيام على أمر الله وتوجيه سياسة الدولة في حدود الإسلام وقد انتهى عهد التبليغ بوفاة الرسول ﷺ وانقطاع الوحي، وإذا لم يكن بالناس حاجة إلى التبليغ وبعد وفاة الرسول ﷺ لوجود القرآن والسُنَّة ، فإنهم في أشد الحاجة إلى من يقوم على القرآن والسُنَّة ويسوسهم في حدود الإسلام بعد أن كوَّن الرسول ﷺ منهم وحدة سياسية، واستن لهم رئاسة الدولة وإمامة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، بل إن التأسي بالرسول ﷺ وأتباع سُنَّته يقتضي من المسلمين جميعاً أن يكوِّنوا من أنفسهم وحدة سياسية واحدة ، وأن يقيموا لهم دولة تجمعهم، وأن يقيموا على رأسها من يخلف الرسول ﷺ في إقامة الدين وتوجيه سياسة الدولة توجيهاً إسلامياً خالصاً (١) .

ثالثاً : الإجماع :

ومن أهم الأدلة على وجوب الإمامة الإجماع على ذلك من قبل الأمة وأول ذلك إجماع الصحابة رضوان الله عليهم على تعيين خليفة للنبي ﷺ بعد وفاته ، بل حتى قبل دفنه وتجهيزه (٢) .

قال الإمام الهيثمي - رحمه الله -:

اعلم أيضاً أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعوا على أن نصب الإمام بعد

(١) الإسلام وأوضاعنا السياسية للأستاذ عبد القادر عودة: ١٢٧ .

(٢) انظر: الإمامة العظمى: ٥٤-٥٥ .

انقراض زمن النبوة واجب، بل جعلوه أهم الواجبات حيث اشتغلوا به عن دفن رسول الله ﷺ (١) .

وقد نقل الإجماع الإمام النووي، وأجمعوا على أنه يجب على المسلمين نصب خليفة (٢) .

ويقول ابن خُلدون : نصب الإمام واجب، وقد عُرِفَ وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين، لأن أصحاب رسول الله ﷺ عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر رضي الله عنه وتسليم النظر إليه في أمورهم، وكذا في كل عصر من الأعصار، واستقر ذلك إجماعاً دالاً على وجوب نصب الإمام (٣) .

رابعاً: القاعدة الشرعية (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب):

ومن الأدلة على وجوب الإمامة القاعدة الشرعية القائلة بأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وقد عُلِمَ أن الله سبحانه وتعالى أمر بأمور ليس في مقدور آحاد الناس القيام بها، ومن هذه الأمور إقامة الحدود وتجهيز الجيوش المجاهدة لنشر الإسلام، وإعلاء كلمة الله، وجباية الزكاة وصرفها في مصارفها المحددة وسد الثغور وحفظ حوزة المسلمين، ونشر العدل ودفع الظلم، وقطع المنازعات الواقعة بين العباد، إلى غير ذلك من الواجبات التي لا يستطيع أفراد الناس القيام بها، وإنما لابد من إيجاد سلطة وقوة لها حق الطاعة على الأفراد، تقوم بتنفيذ هذه الواجبات وهذه السلطة هي الإمامة.

خامساً: دفع أضرار الفوضى:

كما أن من الأدلة على وجوب الإمامة دفع أضرار الفوضى، لأن في عدم اتخاذ إمام معين من الأضرار والفوضى ما لا يعلمه إلا الله، ودفع الضرر وحماية

---

(١) الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة، للشيخ أحمد بن حجر الهيثمي: ٧.

(٢) شرح النووي صحيح مسلم: ١٢/٢٠٥.

(٣) مقدمة ابن خلدون: ١٩١.

الضروريات - [الدين، والنفس، والعرض، والمال، والعقل] - واجب شرعاً، ومن مقاصد الشريعة حفظها، وهذا لا يتم إلا بإقامة إمام للمسلمين، فدل على وجوبه، قال الإمام أحمد رحمه الله في رواية محمد بن عوف بن سفيان الحمصي: (الفتنة إذا لم يكن إمام يقوم بأمر الناس) (١) .

ويقول ابن المبارك رحمه الله :

إن الجماعة حبل الله فاعتصموا   في ديننا رحمة منه ودنيانا
بعروته الوثقى لمن دانا   لولا الخليفة لم تأمن لنا سبل
كم يدفع الله بالسلطان مظلمة   كان أضعفنا نهباً لقوانا (٢)

سادساً: الإمامة من الأمور التي تقتضيها الفطرة وعادات الناس:

ومن الأدلة أيضاً أن النزوع إلى تنصيب رئيس للجماعة أمر فطري، جبل الله الخلق عليه، حيث إن الإنسان مدني بالطبع - كما يقال - فهو لا يستطيع أن يعيش بمفرده وحيداً مستقلاً عن أخيه الإنسان الآخر، بل لابد أن يعيش مع الناس حتى تستقيم أمور حياته، وتتحقق أهدافه، ونتيجة لمخالطة الناس الآخرين قد تتعارض مصالحهم مع مصالحه، ويحدث الاحتكاك بينه وبينهم ويحصل التنازع، فلابد من أمير يختصم إليه الناس، ويرتضونه ليحكم في منازعتهم وخصوماتهم، ومن هنا كان تنصيب الإمام أمراً ضرورياً للمحافظة على حقوق الناس، ضمان استقرار الحياة (٣) فهذه أدلة أهل السُنَّة والجماعة في وجوب نصب الإمام الذي يعمل على تنفيذ شرع الله تعالى.

---

(١) الأحكام السلطانية لأبي يعلى:١٩ ، والمسند من مسائل الإمام أحمد : .

(٢) انظر: الحلية لأبي نعيم:٨/ ١٦٤ .

(٣) الإمامة العظمى:٦٢-٦٣ ، ولقد اعتمدت في نقل أدلة أهل السنة في وجوب الإمامة على كتاب (الإمامة العظمى) المرجع السابق.

الفصل السادس

أهم الثورات الإباضية

في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي

المبحث الأول

ثورات الإباضية في أواخر الخلافة الأموية (•)

أولاً: ثورات الحارث بن تليد وعبد الجبار بن قيس المرادي : (١)

كان عبد الرحمن بن حبيب أحد القادة البارزين في جيش كلثوم بن عياض وبعد أن هزم كلثوم، اتجه عبد الرحمن بن حبيب، وبلج بن بشر إلى الأندلس وأخذ عبد الرحمن يحاول السيطرة على بلاد الأندلس ولكن خاب أمله، بتوليه أبي الخطار بن ضرار والياً عليها من قبل حنظلة بن صفوان، فالتفت عبد الرحمن إلى أفريقية، ولا سيما بعد مقتل الخليفة الأموي الوليد بن يزيد سنة (١٢٦ هـ/ ٧٤٣م) ، فأراد أن يجعل ولاية إفريقية لنفسه، وذلك بعد أن ظن أن الخلافة الأموية قد انتهت وأن الفرصة قد حانت لتحقيق هدفه، فأعلنها ثورة في تونس على حنظلة بن صفوان، وكتب له أن يخلي إفريقية في مدة لا تتجاوز الثلاثة أيام، وأبلغ صاحب بيت المال ألا يعطيه ديناراً ولا درهماً إلا ما حل له من أرزاقه، ولما قرأ حنظلة الكتاب هم بقتاله ولكنه أحجم عن ذلك، لأنه كان ذا دين، وتقوى ويكره قتال المسلمين (٢) فخرج مع أصحابه من أهل الشام في جمادى

(•) جل الفصل السادس نقلته من كتاب الدكتور صالح مفتاح المزيني، وأثبت المراجع التي نقل منها.

(١) والظاهر أن عبد الجبار هو الإمام والحارث وزيره أو قاضيه، وهما أخوان لأم، أو ابنا خالة، وقبيلتهما هوارة. الباروني: مختصر تاريخ الإباضية: ٣٣ .

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ١٤٨ .

الآخرة سنة (١٢٧ هـ/٧٤٤م) ، وذلك بعد أن دخل عبد الرحمن بن حبيب القيروان في جمادى الآخرة من العام الماضي وأراد عبد الرحمن بن حبيب أن يضفي صبغة شرعية على حكمه فاعترف بخلافة مروان بن محمد، وأظهر له الطاعة، وكاتبه ويذكر أن عبد الرحمن بن حبيب قد تقوَّل في كتابه على حنظلة، ونسب إليه أقوالاً كَذَبَ فيها ، فأرسل إليه مروان بولاية إفريقية والمغرب كلها والأندلس [١] .

ولما استولى عبد الرحمن بن حبيب على إفريقية اجتمع الإباضية في طرابلس وتداولوا فيمن يولونه الإمامة لينشئوا دولتهم وكان عبد الله بن مسعود التجيبي هو رئيس الإباضية في طرابلس، والشخصية البارزة فيهم لعلمه وتقواه، فاتجهت إليه الأنظار، وشخصته الإباضية للإمامة، ولما علم عبد الرحمن بن حبيب بما عزم عليه الإباضية في طرابلس، ولى أخاه إلياس بن حبيب على طرابلس [٢] وعندما قدم إلياس إلى طرابلس أخذ مسعود التجيبي وضرب عنقه [٣] ، ظناً منه أن في ذلك إرهاباً وكسراً لشوكتهم فثارت ثائرتهم وأخذوا يحتشدون للخروج على عبد الرحمن. ولكن عبد الرحمن بن حبيب أراد بداهة أن يقف في وجه هذه الثورة وذلك بعزل أخيه إلياس عن طرابلس، وولى عليها حميد بن عبد الله العكي، غير أن الإباضية لم ترضى بذلك بل كانت مصممة على الثأر لمقتل رئيسهم، فثاروا في طرابلس بزعامة عبد الجبار بن قيس المرادي والحارث بن تليد الحضرمي، وكانا يدينان بمذهب الإباضية ، وحاصر الإباضية حميد بن عبد الله في بعض قرى طرابلس وزاد من سوء حالته، وقوع الوباء في عسكره، فاضطر إلى مفاوضة الثوار وتم الاتفاق على أن يخرج هو ورجاله من طرابلس بأمان .

---

(١) الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب: ١٢٩.

(٢) محمد علي دبور: المغرب الكبير: ٢/ ٤١٠.

(٣) الخلافة والخوراج في المغرب العربي، لرفعت فوزي: ١٢١.

ورغم هذا الاتفاق فإن عبد الجبار بن قيس أخذ أحد كبار أصحاب حميد بن عبد الله العكي، هو نصير بن راشد الأنصاري وقتله وذلك ثأراً لمقتل رئيس الإباضية عبد الله بن مسعود التجيبي في طرابلس ثم استولى الإباضيون على زناتة كلها، ونتيجة لذلك أراد عبد الرحمن بن حبيب أن يقضي على الإباضية في طرابلس فكتب إلى يزيد بن صفوان بولاية طرابلس وفي نفس الوقت أرسل مجاهد بن مسلمة الهواري، إلى هوارة ليحاول أن يستنصر هذه القبيلة وغيرها من القبائل، ويحول بينها وبين الاتصال بعبد الجبار، وقد أقام بين هذه القبائل أشهر ولاسيما بين الهواريين ، يدعوهم إلى مساندته ولكنه فشل في ذلك إذ طُرد ولحق بيزيد بن صفوان بطرابلس [١] .

وبعد أن أصيبت خطة عبد الرحمن السياسية بالفشل، لجأ إلى خطة جديدة للقضاء على هذه الثورة وهي استعمال العنف والشدة ضدهم فأرسل إلى طرابلس فرقة من جنوده تحت قيادة أحد قواده، وهو محمد بن مفروق وأمر يزيد بن صفوان أن يخرج معه لقتال الإباضية، فخرج ذلك الجيش تحت قيادة محمد بن مفروق ويرافقه يزيد بن صفوان، ومجاهد بن مسلمة للقضاء على الإباضية في طرابلس، وعندما تقابل هذا الجيش بجيش عبد الجبار بن قيس والحارس بن تليد بمكان من أرض هوارة، دارت الدائرة على جيش عبد الرحمن بن حبيب وانهزم هزيمة منكرة وقتل في هذه المعركة يزيد بن صفوان ومحمد بن مفروق وانهزم، مجاهد بن مسلمة إلى أرض هوارة [٢] .

ورغم الفشل المتكرر الذي حل بجيوش عبد الرحمن بن حبيب إلا أن ذلك لم يثبط من عزيمته ، بل أنه جمع جيشاً جديداً، ووضعه تحت قيادة عمر بن عثمان وأمره بالزحف إلى جيش عبد الجبار والحارث بن تليد إلا أنهما استوليا على

---

(١) فتوح مصر وأخبارها: ١٤٨-١٤٩ .

(٢) فتوح مصر وأخبارها: ١٤٨-١٤٩ .

طرابلس كلها ولم يكتف عبد الجبار والحارث بهذا النصر، بل تعقبا عمر بن عثمان الذي بلغ دغوغا [١] ولما شعر عمر بن عثمان بمطاردة جيش الحارث له اتجه نحو الصحراء، ثم تقدم إلى سرت فأدركته خيل الحارث فقتلت نفراً من أصحابه واحتوى الحارث على معسكره ونجا عمر على فرسه جريحاً [٢] .

ويذكر أنه بعد كل هذه الانتصارات التي حققها عبد الجبار بن قيس والحارث بن تليد، دب الخلاف بينهما فاقتتلا فقتل كل منهما صاحبه [٣] ، غير أن الأستاذ حمد على دبور يرفض هذه الرواية ، ويرى خلاف ذلك إذ أنه يقول: (إن عبد الرحمن دس عليهما من يقتلهما ، فلما كانا ذات يوم وحدهما في دار الحكمة تقدم إليهما جماعة زعموا أنهم من ذوي الحاجات وقتلوهما وأدخلوا في كل منهما سيفاً وجعلوا مقبضه إلى جهة الأخر ليوهم الناس أنهما تنازعا فتقاتلا فقتل كل منهما صاحبه) [٤] .

غير أننا نرجح الرأي الأول [٥] وذلك لأنه ليس من المعقول أن تترك دار الحكمة بدون حراسة حتى يدخل جماعة على عبد الجبار والحارث ويقتلوهما دون أن يفطن بهم أحد.... وبالإضافة إلى ذلك فإن صاحب الجواهر المنتقاة ذكر أن بينهما خلافاً لم يعلم المحق منهما من المبطل [٦] ومعنى ذلك أنه كان خلاف وقتل كل منهما الأخر ولم يعرف المبطل من المحق ... وقد وصلت مسألة الحارث وعبد الجبار إلى أرض المشرق وكان بين أهل المشرق فيهما اختلاف وفرقة ، وفي أرض المغرب أشد من ذلك ، حتى كتب لهم أبو عبيدة مسلم وأبو داود بالكف

---

(١) **دغوغا**: ويذكر ابن خرداذبة: المسالك والممالك: ٨٦ أنه من المصنف إلي تورغ نحو الغرب أربعة وعشرون ميلاً، ثم إلي دغوغا عشرون ميلاً، ثم إلى ورداسا ثمانية عشر ميلاً.

(٢) فتوح مصر وأخبارها: ١٤٩.

(٣) المرجع السابق: ١٤٩.

(٤) المغرب الكبير: ٣ / ٢١٠.

(٥) الذي رجح الرأي الأول هو الدكتور / صالح مفتاح صاحب المرجع السابق.

(٦) الجواهر المنتقاة: ٨٧.

عن ذكرهما [١] .

ثانياً: إمامة إسماعيل بن زياد النفوسي:

وفي سنة ١٣٢هـ / ٧٤٩ م اختار إباضية طرابلس إمامًا جديداً هو إسماعيل بن زياد النفوسي[٢] الذي عظم شأنه وكثر أتباعه ونجح في الاستيلاء على مدينة قابس فخرج إليه عبد الرحمن بن حبيب حتى وصل إلى مدينة قابس وأرسل إليه فرقة من جيشه على رأسها ابن عمه شعيب بن عثمان، وتم اللقاء بين الطرفين وكان النصر في هذه المرة حليفاً لجيش شعيب بن عثمان الذي تمكن من قتل إسماعيل بن زياد النفوسي ووقع كثير من أصحابه في أسر جيش شعيب بن عثمان وهرب الباقون وعندما وصلت أنباء هذا النصر إلى عبد الرحمن بن حبيب نهض مسرعاً إلى سوق طرابلس ومعه الأسارى وكتب إلى عمر بن عثمان فقدم عليه بأرض سرت وقدم له الأسارى فضرب أعناقهم وصلبهم واستعمل على طرابلس عمر بن سويد المرادي وأمره أن ينفل [٣] .

وبذلك استعاد عبد الرحمن بن حبيب طرابلس وعمر سورها في العام الثاني [٤] وانتقل الناس إليها من كل مكان[٥] ، وعاد عبد الرحمن بن حبيب بعد قضائه على هذه الثورة إلى القيروان وظل عمر بن سويد المرادي والياً على طرابلس إلى أن ثار عليه البربر برئاسة عبد الأعلى بن السمح ١٤٠هـ /٧٥٧م حيث قبض على هذا الوالي وخيره بين البقاء مع الأمان والخروج فاختار الخروج وسافر إلى المشرق [٦] .

---

(١) السيرة وأخبار الأمة: ٧ .

(٢) طبقات الإباضية، اللدرجيني: ١٠ / ١١ .

(٣) العبر، لابن خلدون: ٦ / ٢٢٣ .

(٤) أحمد النائب الأنصاري، المنهل العذب: ١ / ٥١ .

(٥) البيان المغرب، لابن عذاري: ١ / ٦٣ .

(٦) ولاة طرابلس، للطاهر الزاوي: ٤٦ .

ثالثًا: ثورة أبي الخطاب الإباضي:

وعندما انهارت الدولة الأموية وحلت محلها الدولة العباسية فر بعض الأمراء الأمويين إلى إفريقية وبالإضافة إلى ذلك فإن عبد الرحمن بن حبيب لم يقدم الولاء والطاعة للخليفة العباسي الجديد أبي العباس السفاح ونتيجة لذلك أراد الخليفة العباسي أن يقضي على نفوذ عبد الرحمن بن حبيب ، فأرسل جيشًا إلى إفريقية تحت قيادة أبي عون عبد الملك بن يزيد ، وكان على مقدمة هذه الجيوش عامر بن إسماعيل ويرافقه أسطول بحري خرج من مدينة الإسكندرية تحت قيادة المثنى وكان قد سبق هذه الجيوش إلى أرض سرت بعض الدعاة العباسين وذلك لنشر الدعوة العباسية في بلاد المغرب ، ولما وصلت الجيوش العباسية إلى برقة توفي الخليفة أبو العباس السفاح في ذي الحجة سنة ١٣٦ هـ /٧٥٣ م مما أدى إلى استدعاء الدعاة الذين وصلوا إلى سرت والجيش الذي مكث في برقة لمدة أحد عشر شهراً [١] .

وعندما تولى الخليفة الجديد أبو جعفر المنصور كتب إلى عبد الرحمن بن حبيب ، يأمره أن يقدم الولاء والطاعة للدولة العباسية ، فأجاب بن حبيب إلى ذلك فأقره أبو جعفر وبعث إليه بالخلع والأعلام السود ، فلبسها وأعلن الدعاء على المنابر للخليفة العباسي [٢] .

ووجه عبد الرحمن بن حبيب بعد ذلك إلى الخليفة العباسي بهدية ، فيها بزاة [٣] وكلاب وكتب له رسالة قال فيها : (إن إفريقية اليوم إسلامية كلها، وقد انقطع السبي منها فلا تسألني ما ليس من قبلي) فغضب الخليفة أبو جعفر من لهجة هذه الرسالة وكتب إلى عبد الرحمن بن حبيب يتوعده مما أثار غضب عبد الرحمن بن حبيب فجمع الناس وخطب فيهم قائلاً : إنني ظننت أن هذا الخائن

---

(١) الولاة والقضاة، للكندي: ١٠٣ .

(٢) تاريخ إفريقية، والمغرب: ١٣٣-١٣٤

(٣) بزاة : صقور ، ومفردها بازي .

يدعو إلى الحق حتى تبين لي خلاف ما بايعته عليه من إقامة العدل، وإني قد خلعته كما خلعت نعلي هذا وقذفه من رجله ثم دعا بخلع السواد [١] .

وقد استغل إلياس بن حبيب الخلاف الذي وقع بين أبي جعفر المنصور وعبد الرحمن بن حبيب ، فتآمر مع أخيه عبد الوارث على قتل عبد الرحمن بن حبيب وكان سبب تآمرهما عليه أنه كان يبعث أخاه إلياس إلى كل ثائر يخرج عليه فيقاتله حتى يظفر بالنصر فينسبه عبد الرحمن بن حبيب إلى ابنه حبيب ، ثم ولاه العهد .

ولهذا تآمر عليه أخوه وتولى إلياس الحكم من بعد أخيه عبد الرحمن غير أن إلياس لم يستقر في الحكم طويلاً حتى ثار عليه حبيب بن عبد الرحمن وتولى زمام الأمور وما كاد الأخير يستقر في القيروان حتى ثارت عليه ورفجومة [٢] التي لجأ إليها عبد الوارث وكانت هذه الثورة برئاسة عاصم الورفجومي إذ أن عاصم الورفجومي قائد هذه الثورة أرسل عبد الملك بن أبي الجعد لقتال حبيب بن عبد الرحمن الذي لم يصمد كثيراً في قتال ورفجومة حتى قتل في المحرم سنة (١٤٠هـ /٧٥٧ م) ، ورجع عبد الملك بعد ذلك في قبائل ورفجومة إلى القيروان واستولى عليها ، وبذلك ملكت ورفجومة إفريقية ، وعاملوا أهل قيروان بالعسف والظلم ، حتى تفرقوا في مختلف الأقاليم فراراً بأنفسهم ، وشاع خبرهم في الأفاق [٣] .

بالإضافة إلى ما ارتكبه ورفجومة من ظلم يذكر أنهم ربطوا دوابهم في المسجد وقتلوا كل من كان بالمدينة من قريش، وتذكر بعض الروايات أنه من

---

(١) البيان والمغرب : ١ / ٦٧ .

(٢) ورفجومة هي بطن من بطون البربر، تفزاوة بنولو الأكبر ومن أهم بطونها دجال، وطوويورغيس، وواتحبر وكبر طيط وما انجدل وسفتبت بنور فجوم من ميزغاش بن ولهاص بن يطوفت بن تفراو (ابن خلدون العبر: ٦ / ١٧٩-١٨٠).

(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير: ٤ / ٢٨١ .

خلال هذه الأحداث كان رجلاً من الإباضية في القيروان لقضاء بعض الحاجة فرأى بعض الورفجوميين قد أخذوا امرأة قهراً والناس ينظرون فأدخلوها الجامع واغتصبوها فما كان من الإباضي إلا أن ترك حاجته التي جاء من أجلها وخرج حتى أتى أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري وأخبره بذلك فخرج وهو يقول: (لبيك اللهم لبيك) (١) .

أما روايات الإباضية : فتذكر أن امرأة من نساء القيروان كتبت بطاقة إلى أبي الخطاب تشكوا إليه جور ورفجومة وتقول له فيها: (أما بعد يا أمير المؤمنين فإن لي ابنة وقد بلغنا الخوف من ورفجومة والحوطة عليها أن حفرت حفرة تحت سريري ووضعتها فيها خشية أن يفسدوها كما فعلوا بأمثالها) (٢) .

ومهما اختلفت الروايات في هذه النقطة إلا أنها تجمع على الظلم الذي ارتكبته ورفجومة في القيروان ومن المرجح أن يكون ذلك سبباً مباشراً في استيلاء الإباضية على مدينة القيروان .

رابعاً: إمامة أبي الخطاب والاستيلاء على طرابلس:

وقد كان الإباضية بعد مقتل الحارث وعبد الجبار يجتمعون في الكتمان ويذكرون في عقد الإمامة فأجالوا النظر وأطالوا الفكر فيما بينهم فيمن يولونه أمرهم إن كانت لهم قوة على عدوهم وكانوا يجتمعون بموضع يقال له صياد غربي مدينة طرابلس وكانوا يظهرون أنهم يجتمعون في أمر أرض بين قوم أرادوا قسمتها وأظهروا ذلك وأعلنوه وقيل: إنهم كانوا يجتمعون في أمر رجل وزوجته اختصما بينما كانوا في واقع الأمر يجتمعون من أجل الإمامة (٣) .

وقد استمرت اجتماعاتهم حتى اتفقوا فيما بينهم على يوم معلوم وعلى أن

---

(١) تاريخ إفريقية والمغرب: ١٤١ .

(٢) البيان والمغرب: ١ / ٧٠.

(٣) السيرة وأخبار الأئمة :٧ .

يأتي كل واحد منهم بجماعة من رجال عشيرته وأتباعه مع سلاحهم وخرج معهم أبو الخطاب ولم يكن يعلم ما يريدونه وعندما وصلوا إلى مدينة صياد تكلم رجل فيهم وقال: (أليس قد أجتمع رأينا على ما قد علمتموه؟ فقالوا: بلى فأتموا أمركم فاجتمعت طائفة منهم على ناحية وتكلموا فيما بينهم ثم رجعوا فقالوا لأبي الخطاب: أبسط يدك لنبايعك على أن تحكم بيننا بكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ وآثار الصالحين من عباده، فقال لهم أبو الخطاب: استغفلتموني وما حسبت أن لهذا الأمر كان خروجي معكم [١] وكان أبو الخطاب هذا من حملة العلم الخمسة الذين وفدوا على البصرة والذي أشار إليه أستاذهم أبو عبيدة - عندما أرادوا الانصراف إلى بلاد المغرب - وذلك عندما سألوه عمن يولونه الإمامة إذا ما أنسوا في أنفسهم قوة [٢].

ولما رأى أبو الخطاب إصرارهم على أن يولوه أمرهم، رضخ للأمر الواقع وقال لهم: لا أقبل أن أتحمل أمانتكم إلا على شرط، فقالوا له: كل شرط يجوز فنحن نعطيكه ونطيعك فقال لهم شرطي عليكم، ألا تذكروا في معسكري مسألة الحارث وعبد الجبار، خوفاً من أن يكون في جماعة المسلمين اختلاف وفرقة وقد حدثنا بعض أصحابنا أن مسألة الحارث وعبد الجبار اتصلت بالمشرق فكان بين أصحابنا وفي مسألتهم اختلاف وفرقة وفي أرض المغرب أشد من ذلك حتى كتب لهم أبو عبيدة مسلم وأبو داود بالكف عن ذكرهما [٣].

وعندما وافقوه على شرطه بسط يده فبايعوه، وكان ذلك في المحرم سنة (١٤٠ هـ /٧٥٧ م) في غربي مدينة طرابلس ثم اتفقوا على احتلال مدينة طرابلس وكانت خطتهم في احتلال هذه المدينة أن يحمل الرجال مع أسلحتهم

---

(١) السيرة وأخبار الأمة: ٧.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) طبقات الإباضية: ١٠-١١.

الجواليق لتربط أفواهها من أسفل ويحمل كل جمل رجلين ثم يدخلوا مدينة طرابلس، وكل من سيرى الجمال على هذه الهيئة لن يفطن إلى من فيها من الرجال ويظن أنها تحمل بضاعة وعندما يرى الإباضيون المقيمون بطرابلس دخول الجمال وانتشارها في المدينة يشهرون سلاحهم [١] .

وعندما التف البربر حول أبي الخطاب اتجه إلى مدينة طرابلس واستولى عليها وطرد منها الوالي العباسي عمر بن عثمان القرشي ، وولى عليها رحيمة عبد الله وعلى سرت عمر بن يمكتن. وفي صفر سنة ١٤١هـ/٧٥٨ م، توجه أبو الخطاب بمن كان معه إلى القيروان فخرج إليه عبد الملك بن أبي الجعد في جموعه وتم اللقاء بين الجيشين ودارت المعركة وكان النصر فيها لأبي الخطاب حيث قتل عبد الملك بن أبي الجعد ودخل أبو الخطاب مدينة القيروان حيث ولى عليها عبد الرحمن بن رستم [٢] وبذلك صارت طرابلس كلها من خليج سرت إلى قابس ومن البحر إلى الصحراء الكبرى منضوية تحت إمامة أبي الخطاب.

خامسا: موقف أبي جعفر المنصور من ثورة الخطاب :

وكان أبو جعفر المنصور حريصاً على دولته الناشئة فأعمل سيفاً في كل منافسيه وقد تم له في المشرق ما أراد فاتجه إلى المغرب وقد عزم أن يقضي على إمامة أبي الخطاب التي أصبحت أكبر خطرٍ يهدده وليسترد إفريقية لتكون وقاية لمصر، لأن في قيام دولة أبي الخطاب اتصالاً بمناوئ الدولة العباسية في مصر وهذا ما يؤدي إلى الثورة في مصر ضد الحكم العباسي ولابد أن يحذو الشام والعراق حذو مصر والمغرب، ولهذا صمم المنصور على إرسال قواته إلى المغرب للقضاء على ثورة أبي الخطاب، وقد شجعه على إرسال هذه القوات إلى المغرب وجود جماعة من جند إفريقية يشكون ما نزل بهم من ورفجومة ويستصرخونه. وكان

---

(١) المغرب الكبير: ٣/٢٠٩-٢١٠ .

(٢) ولاة طرابلس: ٤٧ .

من هؤلاء الوفد الذي أتى المنصور من إفريقية نافع بن أنعم والبهلول كما وفد عليه جميل السدراتي أحد جنود عبد الأعلى الخارجين عليه [١] .

ولهذا صمم أبو جعفر المنصور على القضاء على ثورة أبى الخطاب فما كان منه في تلك الأثناء إلا أن ولى محمد بن الأشعث على مصر وطلب منه إرسال جيش للقضاء على ثورة أبي الخطاب فأرسل هذا الوالي جيشاً بقيادة رجل من أكبر قواده وأشجع رجاله هو العوام بن عبد العزيز البجلي وكلفه بحرب أبي الخطاب ومهاجمة بلاده، وسار العوام إليه وكان أبو الخطاب يستعد لملاقاة جيش المنصور ولما تم له ذلك خرج بجيشه حتى أتى ورداسة في شرق طرابلس ووجه إلى العوام مالك بن سحران الهواري في طائفة من جيشه فالتقى بالعوام البجلي في منطقة سرت وهي أول بلاد الإمام أبي الخطاب ودارت معركة كبرى سقط فيها قتلى كثيرين من الجانبين غير أن مالك بن سحران كر على جيش العوام البجلي فهزمه وقتل عدداً كبيراً من أصحابه ورجع بن العوام إلى ابن الأشعث مهزوماً [٢] .

وعرف ابن الأشعث أن أبا الخطاب لا يؤثر فيه إلا جيش يحشد فيه كل ما استطاعه من جنده الشجعان ومع خيرة قواده، فجهز جيشاً أكبر من سابقه ويقدره بعض المؤرخين في ستة آلاف جندي لمقابلة الجيوش الإباضية وذلك في سنة ١٤٣هـ/ ٧٦٠ م تحت قيادة أبي الأحوص العجلي. وأرسله إلى إفريقية، فزحف إليه أبو الخطاب بجموع الإباضية من البربر، والتقى الجيشان في مغمداش على شاطئ البحر، وتمكن أبو الخطاب من هزيمة جيش أبي الأحوص، حيث عاد إلى مصر، وانصرف أبو الخطاب إلى طرابلس، وأصبحت إفريقية كلها في يديه إلى أن وجه إليه المنصور محمد بن الأشعث ولم يرض ذلك الوضع أبا جعفر المنصور، وذلك خوفاً من ضياع النفوذ العباسي في المغرب، فولي إفريقية محمد

---

(١) العبر لابن خلدون: ٤ / ٤١٠ .

(٢) محمد بن علي دبور المرجع السابق: ٣ / ٨ ـ ٩ .

ابن الأشعث الخزاعي، عامله على مصر، وأعد الخليفة جيشاً عدته أربعون ألف مقاتل يقودهم ثمانية وعشرون قائداً [١] منهم الأغلب بن سالم بن عقال التميمي والمحارب بن هلال الفارسي، والمخارق بن غفار الطائي، وأمرهم بالسمع والطاعة له، وإن حدث به حدث كان أميرهم الأغلب فإن حدثه حدث فالمخارق ومن بعده المحارب بن هلال، غير أن الأخير توفي قبل وصولهم إفريقية وعندما علم ابن الأشعث بقرب الموعد اتجه إلى إفريقية وعسكر بالجيزة وصلى بها يوم عيد الأضحى سنة ١٤٢ هـ/ ٧٥٩ م ثم توجه إلى الإسكندرية وذلك بعد أن استخلف محمد بن معاوية على مصر [٢].

ولما علم أبو الخطاب خروج محمد بن الأشعث إليه جمع أصحابه من كل ناحية، ومضى في عدد عظيم فكثر جمعه وخافه ابن الأشعث لكثرة جموعه غير أنه في هذا الوقت تنازعت زناتة وهوارة بسبب قتيل من زناتة، فاتهمت زناتة أبا الخطاب بالميل إلى هوارة فتخلى عنه جماعة منهم، مما شجع ابن الأشعث وقوى من عزيمته [٣]. ثم سار أبو الخطاب في جيوشه وأنصاره حتى عسكر بسرت شرقي طرابلس، ينتظر وصول ابن الأشعث إليه، غير أن ابن الأشعث كان داهية محنكاً يتبين طريقه كل التبين قبل أن يسير، ويعلم كل العلم بعدوه قبل أن يشتبك به، فأرسل جواسيسه في سرت وعرفوا حقيقة جيش أبي الخطاب، ورجعوا إلى ابن الأشعث بأنباء ارتاع منها وساء أن يكون جيش أبي الخطاب متفوقاً في المعنويات والعدد [٤].

فاتجه ابن الأشعث إلى خطة سياسية لكي يقضي على جيش أبي الخطاب، وعندما تحين الفرصة المناسبة فضبط أفواه السكك، حتى انقطع خبره عن أبي

---

(١) البيان المغرب: ١ / ٧٢ .

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) محمد علي دبور، المرجع السابق: ٣ / ١١-١٢ .

(٤) محمد علي دبور: ٣ / ١١-١٢ .

الخطاب فرجع أبو الخطاب إلى طرابلس، ولكن عندما علم أبو الخطاب برجوع ابن الأشعث إلى سرت، خرج إليه حتى وصل ورداسة ولما قرب منه، ذكر ابن الأشعث لأصحابه أن خبراً أتاه من الخليفة المنصور بالرجوع إلى المشرق، فعاد إلى الخلف مسار ثلاثة أيام ببطء، فوصلت عيون أبي الخطاب وأخبرته بعودة ابن الأشعث فتفرق عنه كثير من أصحابه وكان ذلك في صفر سنة (١٤٤ هـ/ ٧٦١ م) فهاجمه ابن الأشعث ودارت معركة رهيبة بين الطرفين، ويجعلها بعض المؤرخين عند مدينة لبدة. وأحاطت فيه جيوش ابن الأشعث بأبي الخطاب فصمد أبو الخطاب، وظل يقاتل مع أصحابه حتى قتل هو وعدد كبير من جنده وهكذا استطاع ابن الأشعث بسياسته ودهائه أن ينتصر على أبي الخطاب، واحتز رأسه وأرسله إلى المنصور [١] .

ولما علم عبد الرحمن بن رستم بالقيروان وكان في طريقه إلى أبي الخطاب ما حل بأبي الخطاب وأصحابه، رجع إلى تاهرت وبنى هناك مدينة نزلها، أما ابن الأشعث فافتتح طرابلس واستعمل عليها المخارق بن غفار الطائي [٢] وظن ابن الأشعث أنه لا قوة هناك تهاجمه بعد انتصاره على أبي الخطاب ولكنه فوجئ برجل يدعى أبو هريرة الزناتي في ستة عشر ألفاً من زناتة وغيرها، فهجم عليهم ابن الأشعث وتمكن من هزيمتهم وذلك في ربيع الأول سنة ١٤٤ هـ/ ٧٦١ م [٣] .

ثم كتب ابن الأشعث إلى جعفر المنصور يخبره بتلك الانتصارات ثم أخذ يولي عماله على المغرب، بالإضافة إلى ذلك سير سنة (١٤٥ هـ / ٧٦٢ م) من مدينة القيروان جيشاً بقيادة أحد قواده إسماعيل بن عكرمة الخزاعي إلى مدينتي زويلة وودان ، حيث قام بقتل زعيم الإباضية بزويلة عبد الله بن حيان الإباضي وهكذا فرض ابن الأشعث سطوته وأذعنوا له بالطاعة .

---

(١) تاريخ الخياط: ٢ / ٦٤.

(٢) محمد علي دبور: المرجع السابق: ٢٣ /١٨.

(٣) البيان المغرب: ١ /٧٢-٧٣ .

سادساً: ثورة أبي حاتم يعقوب بن لبيب الإباضي:

وفي سنة ١٥١ هـ /٧٦٨ مآلت ولاية إفريقية إلى عمرو بن حفص بن قبيصة وكان شجاعاً وبطلاً، وسبب توليه على إفريقية أن أبا جعفر المنصور لما بلغه قتل الأغلب بن سالم، وجهه إلى إفريقية في نحو خمسمائة فارس، فأقام بالقيروان مدة ثلاث سنين وأشهر من ولايته والأمور له مستقيمة، ثم سار بعد ذلك لبناء سور مدينة طبنة، لأنها تعتبر خط الدفاع الأول عن القيروان، ثم إن أمر الخوارج الصفرية قد استفحل فيها فخرج إليها ، وذلك بعد أن استخلف على القيروان أبا حازم حبيب بن حبيب المهلبي ولقد شعر الرستميون بالخطر الذي أصبح يتهدد دولتهم من جراء تحصين مدينة طبنة، فانتهز ابن رستم مع أصحابه في طرابلس فرصة خروج عمرو بن حفص إلى طبنة ودخلوا إفريقية من عسكر العباسيين وأعلنوها ثورة في طرابلس وولوا عليها أبا هاشم بن يعقوب [١] .

وكان والي طرابلس من قبل العباسيين في هذه الفترة هو الجند بن بشار الأسندي، فأرسل إليه عمرو بن حفص جيشاً قوامه خمسمائة فارس تحت قيادة أحد قواده، وهو أبو حازم بن سليمان، فطلب منهم أن يقدموا الولاء والطاعة لأبي جعفر المنصور ولكنهم رفضوا ذلك وقالوا له عليك لعنة الله وعلى أبي كافر معك . وكانوا يقصدون بذلك أبا جعفر المنصور، وعندما رفضوا تقديم الولاء والطاعة للخليفة العباسي تم اللقاء بين الطرفين ودارت معركة بينهم انتهت بقتل عدد كبير من جند العباسيين وهزيمتهم إلى مدينة قابس فحاصرهم أبو حاتم.

ثم بعث بجيوشه إلى طبنة حيث حاصروا بها عمرو بن حفص وكان على رأس هذه الجيوش أبو قرة اليعقوبي في أربعين ألفاً والمسور بن هاني الزناتي في عشرة آلاف وعبد الرحمن بن رستم في خمسة عشر ألفاً وعبد الملك بن سكر يد في ألفين وانضم إليهم عدد كبير من الخوارج وزناتة، ومع أن هدف المحاصرين كان

---

(١) الكامل لابن الأثير: ٥ /٣١-٣٢ .

واحداً وهو قتال جند الخلافة إلا أنهم لم يكونوا متفقين أو متحدين في الخطة والعمل، بل كان كل منهم يعمل بمفرده عن الأخر ولهذا عندما أعمل عمرو بن حفص الحيلة في صرف جند أبي قرة عن حربه، انصرف بعض الآخرين وانهزم بعضهم ذلك أن عمرو بن حفص رأى كثرة البربر حوله فأراد أن يفرق كلمتهم ، وذلك عن طريق شراء بعضهم بالمال ، فبذل لأصحاب أبي قرة مالاً كثيراً مما أدى إلى تفرقهم (١) .

هذا كما بعث في نفس الوقت جيشاً إلى ابن رستم وهو بتهوده فما كان من عبد الرحمن بن رستم إلا أن انهزم أمامه إلى تاهرت فخافت الإباضية من حصار مدينة طبنة ثم سار أبو حاتم إلى القيروان وحاصرها ثمانية أشهر حتى أكل أهلها الميتة ولما اشتد الحصار على أهل القيروان خرج عمرو بن حفص من طبنة بعد أن استخلف عليها الهنأ بن غفار الطائي، واتجه إلى القيروان مما أدى بالمجتمعين على القيروان أن يفكوا حصارهم ويتجهوا لمقابلة جيوش عمرو بن حفص القادمة إلى القيروان ، فلما علم بهم اتجه إلى تونس. وفي هذه الأثناء خرج جميل بن صخر من القيروان بعد ما ترك حصارها أبو حاتم والتقى مع عمرو بن حفص وتوجها معاً إلى القيروان وكان لقاؤهما في مكان يقال له بئر السلامة (٢) .

وبعد أن رجع عمرو بن حفص إلى مدينة القيروان بدأ يستعد لملاقاة جيش أبو حاتم ولكنه رأى انه لا يستطيع مقاومة ذلك الجيش الذي بلغ تعداده حوالي مائة وثلاثين ألفاً فأخذ يجمع من الطعام ما يمكن جمعه ثم قام بحفر خندق حول المدينة، ثم أقبل أبو حاتم في جنوده حتى وصل إلى بحيرة المسروقين فنهض إليه عمرو بمن معه فقاتله أشد القتال غير أن الجند تكاثروا عليه مما أدى به إلى الانسحاب إلى مكان يدعى القنطاط فتابعه أبو حاتم حتى وصل إلى الخندق الذي

---

(١) البيان المغرب: ١ /١٧٦ .

(٢) تاريخ إفريقية والمغرب: ١٤٤ .

أعده عمرو بن حفص وظل ابن حفص محاصراً داخل خندقه ، وطال الحصار على أهل المدينة ، ويذكر أنه عندما طال الحصار على عمرو بن حفص وصله كتاب من زوجته خليدة بنت المعارك تخبره أن أمير المؤمنين استبطأه فبعث إليه يزيد بن حاتم في ستين ألفاً (١) .

ولما قتل عمرو بن حفص على يد الخوارج سنة ١٥٤هـ/ ٧٧٠ م جمع يزيد بن قبيسة جيشاً من الشام والعراق وخراسان وبلغ حوالي ستين ألف مقاتل وسار به إلى إفريقية للأخذ بثأر عمرو بن حفص وعندما علم أبو حاتم بمسيرة يزيد الذي كلفه الخليفة العباسي بالذهاب إلى إفريقية سار هو أيضاً إلى طرابلس للقائه وذلك بعد أن استخلف على القيروان عبد العزيز بن السمح المعافري وأمره بأن يأخذ سلاح الجند وأن لا يجتمع منهم اثنان في مكان واحد وأن يوجه إليه بهم واحداً واحد غير أنهم اجتمعوا واستوثق بعضهم بعضًا ألا يرضوا بهذا وقويت شوكتهم بقدوم يزيد ، وبينما كان أبو حاتم في طريقه إلى طرابلس بلغه خبر انتقاض بعض الأشخاص في القيروان وعلى رأسهم عمر بن عثمان القرشي والمخارق بن غفار فعاد أبو حاتم إلى القيروان ففر عمرو بن عثمان إلى تونس وذلك بعد قتال شديد بين الطرفين ثم مضى أبو حاتم بعد ذلك إلى طرابلس لمقابلة الجيش العباسي وفي هذا الأثناء انضم جيش يزيد إلى جميل بن صخر وأصحابه وهو في سرت . وأقاموا إلى أن لقيهم أبو حاتم.

غير أن أبا حاتم رأى أن يختار مكاناً يصعب منه على يزيد الانتصار فيه فما كان منه إلا أن لحق بجبال نفوسة فاتبعته عساكر يزيد فهزم فسار إليهم يزيد بنفسه وقاتله قتالاً شديداً ، وقتل أبو حاتم في ثلاثين ألفاً من أصحابه ، وعلى الرغم من المبالغة في هذا العدد إلا أنه يشير إلى مدى ما تكبده جيش أبو حاتم من خسائر في الأرواح ، ثم تتبع يزيد الفارين بالقتل طالباً بثأر عمرو بن حفص

(١) المرجع السابق: ١٤٤-١٤٥ .

ثم ارتحل إلى القيروان فدخلها في منتصف سنة (١٥٥هـ / ٧٧١ م) وذلك بعد أن استخلف على طرابلس سعيد بن شداد .

وكان عبد الرحمن بن حبيب بن عبد الرحمن الفهري، قد خرج مع أبي حاتم غير أنه بعد مقتل أبي حاتم لحق عبد الرحمن بكتامة فبعث يزيد المخارق إلى بني غفار الطائي في طلبه فحاصرهم ثمانية أشهر فغلب عليه وقتل جماعة ممن معه وفر هو إلى الأندلس. وفي هذه الأثناء كانت هوارة وزناتة في طرابلس تترقب فرصة للثورة فعندما ابتعد يزيد بجيوشه تَعقُبًا لعبد الرحمن ثارت هوارة في شرق طرابلس واشتعل شرق طرابلس ناراً على العباسيين بقيادة شخص يدعى أبا يحيى بن قرياس وكان في هذه الأثناء عسكر ليزيد بن أبي حاتم بطرابلس بقيادة عبد الله بن السمط الكندي، التقوا على شاطئ البحر من أرض هوارة ودار القتال بين الطرفين مما أدى إلى انهزام أبي يحيى وقتل عامة اصحابه .

وفي سنة (١٧١ هـ/ ٧٨٧ م) توفي يزيد بن حاتم وتولى أمر إفريقية من بعده أخوه روح بن حاتم (١٧١-١٧٤ هـ / ٧٨٧-٧٩٠م) وكان والياً على السند وفي عهده استكانت القبائل المحلية للعرب وقبلوا دفع ما عليهم من إتاوات غير أنه توفي في رمضان من سنة (١٧٤هـ/ ٧٩٠م) وتعاقب على ولاية إفريقية من بعده عدد من الولاة منهم نصر بن حبيب المهلبي ثم من بعده الفضل بن روح بن حاتم ولاه الرشيد أمر إفريقية في المحرم سنة (١٧٧هـ / ٧٩٣م) .

وفي السنة الثانية من ولايته (١٧٨ هـ / ٧٩٤ م) ثار عليه الجند بقيادة عبد الله بن عبد ربه الجارود إذ إنهم تمكنوا من قتل الفضل بن روح والاستيلاء على القيروان وذلك في شعبان من سنة (١٨٧ هـ/ ٧٩٤ م) وبدخول ابن الجارود مدينة القيروان في سنة (١٧٨ هـ) انتهى عهد الولاة المهلبين في إفريقية ، بعد أن كونوا فيها ما يشبه إمارة تابعة للخلافة منذ ولاية عمرو بن حفص سنة (١٥١ هـ) حتى مقتل الفضل بن روح ، وبزوال هذه الأسرة اضطربت المنطقة من

جديد (١) ، إذ أنه عندما تولى الجارود أمر إفريقية استبقى يحيى بن موسى عاملاً على طرابلس غير أن هارون الرشيد رفض تولية ابن الجارود وولى مكانه هرثمة بن أعين أحد كبار قادة الرشيد . فسار هرثمة بن أعين نحو إفريقية وعندما وصل إلى برقة بعث يقطين بن موسى إلى القيروان ليقنع ابن الجارود للخروج من إفريقية وبعث ليحيى بن موسى والي طرابلس يحثه على الإسهام في إقرار الأمر بإفريقية فاتجه يحيى بن موسى إلى القيروان ودفع لابن موسى بكتاب الرشيد فقال له ابن الجارود: أنا على السمع والطاعة وقد قرب مني العلاء بن سعيد ، فإن تركت القيروان . . . فأكون قد ضيعت بلاد أمير المؤمنين ولكن اخرج إلى العلاء فإن ظفر بي فشأنكم والثغور ، وإن ظفرت به انتظرت قدوم هرثمة. فأسلم إليه البلاد وسار إلى أمير المؤمنين (٢).

وكان يقصد ابن الجارود إن ظفر بالعلاء منع هرثمة عن البلاد ولكن يحيى بن موسى أراد أن يفرق جيش ابن الجارود فخلا بأحد أصدقائه وهو ابن الفارسي الذي حاول إفساد جيش ابن الجارود غير أن ابن الجارود تمكن من قتل ابن الفارسي وهزم يحيى بن موسى حيث رجع إلى طرابلس (٣) .

وفي هذه الأثناء قدم جيش العلاء بن سعيد يريد القيروان ورأى ابن الجارود أنه لا طاقة له به فكتب إلى يحيى بن موسى أن يقدم إلى القيروان ليسلمها له فخرج يحيى بمن معه من طرابلس في المحرم من سنة ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م فلما بلغ قابس إلتقى به عامة الجند من القيروان ومعهم النصر بن حفص بن عمر بن معاوية وخرج ابن الجارود من القيروان في مستهل صفر واستخلف عليها عبد الملك بن عباس اللطيفي فأقبل العلاء بن سعيد إليها فقتل جماعة من أصحاب الجارود فبعث إليه يحيى بن موسى أن يفرق جموعه إن كان في الطاعة فأمر العلاء بن

---

(١) ليبيا بين الماضي والحاضر، لحسن محمد سليمان: ١٥٢ .

(٢) تاريخ ليبيا الإسلامي، لعبد اللطيف البرغوثي: ١٥٢ .

(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير: ٥/٩٥-٩٦ .

سعيد كل من كان معه بأن ينصرفوا إلى مواقعهم فانصرفوا (١) .

ثم رحل العلاء بن سعيد من القيروان إلى طرابلس وكان ابن الجارود قد وصل إليها قبل وصول العلاء بن سعيد فلقي بها يقطين بن موسى فخرج معه سائراً يريد المشرق فالتقوا بهرثمة بن أعين بإجدابية فأرسلهما إلى منصور بن زياد ببرقة ثم رحلا إلى المشرق حتى وصلا إلى هارون الرشيد، وفي ربيع الأخير من سنة ١٧٩ هـ/ ٧٩٥م وصل هرثمة بن أعين إلى القيروان وعين سفيان بن المضاء بن أبي المهاجر والياً على طرابلس وعاد الهدوء إلى ولاية إفريقية هذا كما أعاد بناء سور مدينة طرابلس من جهة البحر (٢) .

ولما رأى هرثمة ما بالمغرب من كثرة الثوار استعفى الرشيد من ولايتها فأعفاه لسنتين ونصف من ولايته وولى عليها محمد بن مقاتل العكي.

فقدم ابن العكي إلى القيروان في أول رمضان سنة ١٨١ هـ/ ٧٩٧ م وكان سيىء الأخلاق والسيرة فاختلف عليه الجند ثم خرج عليه بتونس تمام بن تميم التميمي سنة ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م واجتمع الناس عليه وساروا إلى القيروان ودخلوا على محمد بن مقاتل العكي فيها ولكن تمام آمنه على أن يخرج من إفريقية فسار إلى طرابلس (٣) .

ولما بلغ الخبر إلى إبراهيم بن الأغلب بمكان من الزاب انتفض لمحمد بن مقاتل، وسار بجموعة إلى القيروان فهرب تمام، وملك إبراهيم بن الأغلب القيروان واستقدم محمد بن مقاتل من طرابلس ، وأعاده إلى إمارته بالقيروان أخر سنة ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م وظل بها إلى أن قامت دولة الأغالبة (٤) .

رأينا فيما سبق الفتن والثورات التي قام بها البربر من الخوارج والإباضية، غير أن الضربة الساحقة التي ألحقها يزيد بن حاتم بالإباضية تعد نهاية لنشاط الخوارج

---

(١) تاريخ إفريقية والمغرب: ٢٠-٢٠٢.

(٢) البيان المغرب: ١/ ٨٨.

(٣) السلاوي: استقصاء: ١/ ١٢١.

(٤) المنهل العذب، لأحمد النائب: ١/ ٦٠-٦١.

سعيد كل من كان معه بأن ينصرفوا إلى مواقعهم فانصرفوا (١) .

ثم رحل العلاء بن سعيد من القيروان إلى طرابلس وكان ابن الجارود قد وصل إليها قبل وصول العلاء بن سعيد فلقي بها يقطين بن موسى فخرج معه سائراً يريد المشرق فالتقوا بهرثمة بن أعين بإجدابية فأرسلهما إلى منصور بن زياد ببرقة ثم رحلا إلى المشرق حتى وصلا إلى هارون الرشيد، وفي ربيع الأخير من سنة ١٧٩ هـ/ ٧٩٥م وصل هرثمة بن أعين إلى القيروان وعين سفيان بن المضاء بن أبي المهاجر والياً على طرابلس وعاد الهدوء إلى ولاية إفريقية هذا كما أعاد بناء سور مدينة طرابلس من جهة البحر (٢) .

ولما رأى هرثمة ما بالمغرب من كثرة الثوار استعفى الرشيد من ولايتها فأعفاه لسنتين ونصف من ولايته وولى عليها محمد بن مقاتل العكي.

فقدم ابن العكي إلى القيروان في أول رمضان سنة ١٨١ هـ/ ٧٩٧ م وكان سيىء الأخلاق والسيرة فاختلف عليه الجند ثم خرج عليه بتونس تمام بن تميم التميمي سنة ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م واجتمع الناس عليه وساروا إلى القيروان ودخلوا على محمد بن مقاتل العكي فيها ولكن تمام آمنه على أن يخرج من إفريقية فسار إلى طرابلس (٣) .

ولما بلغ الخبر إلى إبراهيم بن الأغلب بمكان من الزاب انتفض لمحمد بن مقاتل، وسار بجموعة إلى القيروان فهرب تمام، وملك إبراهيم بن الأغلب القيروان واستقدم محمد بن مقاتل من طرابلس ، وأعاده إلى إمارته بالقيروان أخر سنة ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م وظل بها إلى أن قامت دولة الأغالبة (٤) .

رأينا فيما سبق الفتن والثورات التي قام بها البربر من الخوارج والإباضية، غير أن الضربة الساحقة التي ألحقها يزيد بن حاتم بالإباضية تعد نهاية لنشاط الخوارج

---

(١) تاريخ إفريقية والمغرب: ٢٠-٢٠٢.
(٢) البيان المغرب: ١/ ٨٨.
(٣) السلاوي: استقصاء: ١/ ١٢١.
(٤) المنهل العذب، لأحمد النائب: ١/ ٦٠-٦١.

والإباضية في صورته الشاملة المنظمة، حقيقة أن حركاتهم لم تخبط بصورة نهائية في عهد يزيد لكنها كانت تفتقر إلى التنظيم والشمول ولذلك لم يجد أمراء آل المهلب في إفريقية عناء في قمعها وردعها، فثورة هوارة بزعامة أبي يحيى بن فرناس بنواحي طرابلس انتهت بكارثة لإباضية هوارة على يد عبد الله بن السمط الكندي، الذي قتل أبا يحيى وعامة أصحابه وحسبنا أنا لم نسمع عن أي نشاط للإباضية طوال حكم يزيد بن حاتم الذي أمتد حتى سنة ١٧٠ هـ / ٨٧٦ م ولذلك حُقَّ لابن عذاري ان يقول لقد دانت إفريقية ليزيد بن حاتم [١] .

أما الإباضية في نفوسة فقد استكانوا وغُلبوا على أمرهم، بعد فشل حركة أبي حاتم، وقبل ذلك كان إباضية زناتة قد بطش بهم ابن الأشعث سنة ١٤٤ هـ / ٧٦١ م ، وهكذا تصدعت حركات الإباضية في المغرب الأدنى، وإفريقية بينما نجح عبد الرحمن بن رستم بمؤازرة إباضية المغرب الأوسط في تأسيس دولة بتاهرت سنة ١٦١ هـ ٧٧٧ /م ، تلك الدولة التي امتد نفوذها فيما بعد لتضم إباضية المغرب جميعاً، بعد أن دانوا بالولاء والتبعية لأئمتها وأقامت دليلاً عملياً على نجاح ثورات الإباضية في تحقيق مراميها في تكوين دولة إباضية في المغرب .

وإلى جانب الدولة الرستمية، قامت دولة الأدارسة في المغرب الأقصى وخاف العباسيون على سلطانهم بإفريقية وخاصة أنه بدأ يتزعزع عقب وفاة الوالي القدير يزيد بن حاتم المهلبي سنة ١٧٠ هـ وإلى جانب تلك الدول تغلب البربر الصفرية على سلجماسة وهي أحدى مدن المغرب الأقصى الأمر الذي أدى إلى قيام دولة بني مدرار الخارجة على مذهب الصفرية . وكرد فعل لقيام هذه الدويلات التي تكاد أن تكون مستقلة استقلالاً تاماً عن الدولة العباسية، قامت دولة الأغالبة للوقوف في وجه هذه الدويلات وذلك سنة ١٨٤ هـ/ ٨٠٠ م وبقيام هذه الدولة دخلت البلاد في عهد جديد .

---

(١) المرجع السابق: ٨٥ .

الفصل السابع

دخول المذهب المالكي إلى ليبيا والشمال الأفريقي

توطئة :

بعد وفاة حملة العلم من التابعين في بلاد شمال إفريقيا، واستشهاد جُل علمائهم في الفتوحات الإسلامية لبلاد الأسبان وجزر البحر الأبيض المتوسط وغيرها شعر – أهالي شمال إفريقيا – بقلة العلم الشرعي، لذلك توجهوا صوب بلاد المشرق لطلب العلم و تحصيله، فاتصلوا بكبار المحدثين و الفقهاء، من أمثال: أبي حنيفة النعمان، ومالك بن أنس، وسفيان الثوري، وكان صاحب مذهب متبوع وغيرهم، ثم عادوا إلى بلادهم ونشروا علم هؤلاء الأئمة رحمهم الله، فكانت تلك هي البذرة الأولى لظهور المذاهب في المغرب.

[١] المذاهب غير المشتهرة : (١)

وبعض المذاهب دخلت القيروان، ولكنها سرعان ما اندثرت ولم يكثر الأخذون بها، مثل مذهب أبي عمر الأوزاعي(ت ١٥٧ هـ) وقد روى عنه بعض أهل القيروان، ومذهب سفيان الثوري (ت ١٦١ هـ) وقد روى عنه كثير من أهل القيروان، وسمعوا منه جامعيه الكبير والصغير، وكان بعضهم يميل إلى رأيه، ومذهب داود بن علي الأصبهاني الظاهري(ت ٢٧٥ هـ)، أدخله أبو جعفر بن خيرون، أما مذهب محمد بن إدريس الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) ، فقد كان حظه بالقيروان – الشمال الإفريقي – أكثر من سابقيه حيث مال إليه مجموعة من أهلها.

وقد صنف بعض علماء القيروان في الرد على مذهب الشافعي كتباً منها:

---

(١) التوطئة والمبحث الأول منقولاً من كتاب مدرسة الحديث في القيروان.

كتاب (**الرد على الشافعي لمحمد بن سحنون ت ٢٥٦ هـ**) ، وكتاب (**الحجة في الرد على الشافعي فيما أغفل من كتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ ليحيى بن عمر ت٢٨٩ هـ**) وكتاب (**الرد على الشافعي لسعيد بن الحداد ٣٠٢هـ**) ، أما اكثر المذاهب اتباعاً بالمنطقة فهما : مذهبا مالك وأبي حنيفة .

[٢] المذهب الحنفي:

يعتبر المذهب الحنفي أسبق المذاهب في الدخول إلى القيروان، وكان هو الغالب على أهلها قبل دخول المذهب المالكي، باعتباره مذهب الدولة الرسمي، ثم ضعف عندما أقبل الناس على مذهب مالك، إلا أنه عاد إلى الظهور بعد ذلك إلا أنه زال بعد ما ألزم المعز بن باديس (٤٠٧-٤٤٩ هـ) الناس بمذهب مالك حسماً لمادة الخلاف في المذاهب .

[٣] المذهب المالكي :

لقد تلقى أهل القيروان والشمال الإفريقي مذاهب السلف على يد الصحابة والتابعين، كما مر، وشاهدوا بأعينهم الفتن التي أدى إليها التأويل والبعد عن النصوص، ولذلك ما أن أدخل علي بن زياد (ت١٨٣) الموطأ إلى إفريقية وفسر لهم قول مالك، ولم يكونوا يعرفونه، حتى أقبلوا عليه إقبالاً منقطع النظير، لأنهم وجدوا فيه ضالتهم المنشودة لجمعه بين البساطة والأصالة، واعتماده على الحديث، فإن صاحب هذا المذهب يدرس في مدينة الرسول ﷺ ، ويلتزم النص من الكتاب والسُنَّة ، ولا يأخذ إلا عن الثقات، وبرع في السُنَّة حتى سمي أمير المؤمنين في الحديث، وهو إلى جانب ذلك شديد الورع لا يفتي إلا بحذر شديد، وينفر من الرأي والتأويل [١] .

---

(١) مدرسة الحديث في القيروان، للأستاذ/ الحسين بن محمد شواط : ١/ ٨٩-٩٥ .

المبحث الأول

دخول الموطأ والاهتمام به في الشمال الإفريقي

يقول الأستاذ الحسين بن محمد شواط في ذلك :

ذاع أمر الإمام مالك، واشتهر بالاهتمام بالحديث الشريف، والأخذ عن ثقاة الرواة ووقوفه عند نصوص الكتاب والسُنَّة ، وبعده عن الرأي وصونه للعلم بالبعد عن ذوي السلطان، وقد وافق ذلك ما في نفوس أهل الشمال الإفريقي من التعطش إلى السُنَّة والتزام الآثار، فتوافدوا عليه لسماع حديثه، والتأدب بشمائله التي توارثها أهل المدينة جيلاً بعد جيل منذ عهد النبي ﷺ .

وقد بدأت صلة القرويين بالإمام مالك قبل سنة ١٤٥ هـ، وذلك عن طريق الوفد الذي تكون من عبد الله بن فروح (ت ١٧٦ هـ)، والبهلول بن راشد (ت ١٨٣ هـ)، وعبد الله بن عمر بن غانم (ت ١٩٠ هـ)، وكان من حفاوة الإمام مالك بهم والعناية بأمرهم ما زاد في إقبال المغاربة عليه.

ثم نمت هذه الصلة، وخاصة بعد رحلة على بن زياد (•) الذي فسر للأفارقة

(•) العلامة الفقيه الأستاذ علي بن زياد العبسي الطرابلسي سمع العلم من الإمام مالك والثوري، والليث بن سعد، وابن لهيعة، ولم يكن بإفريقية مثله... أخذ عنه البهلول بن راشد، والإمام سحنون، وشجرة بن عيسى وأسد بن الفرات، وكان يقول: إني لأدعو الله عز وجل لعلي بن زياد مع والدي لأنه أول من تعلمت العلم عليه... ولم يكن سحنون يقدم عليه أحداً من أهل إفريقية... وهو أول من أدخل موطأ مالك لإفريقية وفسر لهم قول مالك ولم يكونوا يعرفونه وهو معلم سحنون... وسأل سحنون شرحبيل قاضي طرابلس عن أصل علي بن زياد فقال: كشفنا عن أصله فإذا هو من العجم، وكان أوله من طرابلس، ثم سكن مدينة تونس وكان البهلول يفزع إليه في مشكلات العلم، قال سحنون، ما بلغ البهلول شسع علي بن زياد، ويقول: ما أنتجت إفريقية مثل علي بن زياد، وكان أهل العلم بالقيروان إذا اختلفوا في مسألة كتبوا بها إلى علي بن زياد يخبرهم من هو على صواب، وأرسل إليه أمير إفريقية ورسوله الخليفة يستشيرانه فيمن يلي القضاء فامتنع عن الذهاب إليهما، فحضروا إليه في منزله، فلما قيل له إنهما بالباب حول وجهه إلى الحائط، فدخلا عليه وسأله الوالي بلسان رسول الخليفة عمن يلي القضاء في إفريقية فحول وجهه إلى القبلة، وقال: ورب هذه القبلة ما أعرف بها أحداً يستوجب القضاء قوموا عني.

قول مالك وأصوله، وحدثهم بموطئه، فكان من يسمع منه من طلبة العلم بالقيروان يعجب بهذا الإمام، ويحرص على الرحلة إليه، لينال بذلك علو الإسناد وشرف الاستماع المباشر من الإمام.

[١] الرواة عن مالك من الأفارقة :

وقد رأيت [١] من الفائدة أن أبين هنا تلاميذ مالك من الأفارقة، سيما أنه لم يسبق أن وقع حصرهم حتى الآن فيما أعلم، ولما لهم من الأثر في نشر حديث مالك وفقهه في بلادهم.

ولقد ذكر الحافظ محمد بن الحارث الخشني (ت٣٦١هـ) أن عدد تلاميذ مالك من علماء الأفارقة يزيد على ثلاثين رجلاً، وتناقل المصنفون ، وبعد البحث والتتبع في مختلف المظان وجدت أن عددهم يصل إلى أربعة وأربعين راوياً ، منهم من بلغت شهرته الأفاق، ومنهم من لم تفدنا المصادر المتوفرة بغير اسمه [٢] .

رواية الموطأ من الأفارقة :

ويقول أيضاً : (لقد أدخل الموطأ إلى إفريقية ستة من أهلها براويتهم عن الإمام مالك، كما وجد فيها الموطأ بروايات أخرى، وفيما يلي أسماء الأفارقة والقيراونين وقد رتبته حسب أسبقية تحملهم للموطأ فيما ترجح لدي [٣] :

[١] علي بن زياد التونسي (ت ١٨٣هـ):

وهو محدث واسع الرواية مع علم في نقد الرجال وضبط الرواية، ونباهة في الفقه سمع بإفريقية والمشرق، وله أثر كبير في الحياة العلمية بإفريقية، وعليه

بعث روح بني حاتم – وكان بالقيروان – في طلبه ليوليه القضاء فامتنع ورجع من فوره إلى تونس أراد يوماً أن يصلي بجامع القيروان فاتى إلى سارية، فأراد أن يكبر فارتعدت فرائصه خوفاً من الله، ثم تحامل على نفسه وكبر فتغير لونه وله مواقف محمودة في العلم والزهد والخوف من الله، قيل توفي سنة ١٨٢ عليه رحمه الله، (تاريخ الفتح العربي في ليبيا: ١٩٣–١٩٤–١٩٥).

(١) الذي رأى هو الحسين بن محمد بن شوّاط.

(٢) مدرسة الحديث في القيروان: ١ / ٢٦٠–٢٦١.

(٣) الذي ترجح عنده هو الحسين بن محمد بن شوّاط.

تعلم شيوخ القرويين، وهو مؤسس المدرسة المالكية في تلك الربوع، لأنه أول من ادخل الموطأ إلى إفريقية بروايته عن مالك، وفسر لأهلها قول مالك وأصوله، ولم يكونوا يعرفونها قبل ذلك.

[٢] عبد الله بن عمر بن غانم الرعيني (ت .١٩هـ):

وهو محدث فقيه تولى قضاء القيروان، وقد كان من طليعة المرتحلين إلى الإمام مالك وذلك قبل سنة ١٤٥ هـ .... وتحمله للموطأ عن الإمام مالك فهو ثابت.

[٣] أسد بن الفرات (ت ٢١٣ هـ):

سمع أسد الموطأ من علي بن زياد، ثم رحل إلى المشرق سنة ١٧٢ هـ وقد أخذ عن الإمام مالك الموطأ وغيره، وحدث به في العراق ، ثم عاد إلى إفريقية سنة ١٨١ هـ وسنترجم له بإذن الله في دولة الأغالبة .

[٤] محمد بن معاوية بن الحضرمي الطرابلسي ثم القيرواني :

محدث، فقيه، ثقة مشهور، وقد سمع منه القيروانيون ، ولم تذكر المصادر شيئاً من تواريخ وفاته ورحلته، وإنما ذكروا أنه : (كان له سن وإدراك)، وصرحوا بسماعه للموطأ، وذكر عياض عن المالكي أن موطأ محمد بن معاوية يمتاز على غيره من الموطأات باشتماله على جامع، وليس ذلك لأحد غيره من رواة الموطأ.

[٥] عيسى بن شجرة التونسي:

هذا العالم من الأفارقة الكثيرين الذين امحت أثارهم حيث لم توجد لهم ترجمة مستقلة مع أنه من رواة الموطأ كما ورد في تنوير الحوالك وغيره، وله سماع من الليث بن سعد(ت ١٧٥ هـ)، وعبد الله لهيعة (ت ١٧٤ هـ).

[٦] خلف بن جرير بن فضالة القروي:

فقيه محدث ثقة، سمع من معظم شيوخ عبد الله بن وهب (ت ١٩٧ هـ) وفي مقدمتهم الإمام مالك الذي أخذ عنه الموطأ [١] .

---

(١) مدرسة الحديث في القيروان: ١ /٢٦٧-٢٧١.

المبحث الثاني

ترجمة الإمام مالك بن أنس رحمه الله

[١] عصره :

يشبه عصر مالك عهد أبي حنيفة، إلا أنه أدرك من الدولة العباسية حظاً وافراً، فقد كانت ولادته في عهد الوليد بن عبد الملك الأموي، وكانت وفاته في عهد الرشيد العباسي، فعاصر دولة بني مروان في عنفوان شبابها، وشاهد تداعي الدولة الأموية، وقيام بني العباس على أنقاضها، ورأى مواقف المهدي من الزنادقة في العراق، و استنصاره بالعلماء للقضاء على عقيدتهم، وأدرك الحضارة العباسية في أوج عظمتها، وقد امتزجت في مبادئها الإسلامية الحضارات الفارسية، والهندية، والرومانية.

وتمثل حياته في العهد الأموي فترة تكوين عقله و تفكيره و آرائه خلال أربعين سنة و تمثل حياته بعد أن بلغ أشده في العهد العباسي فترة إنتاجه، والاستفادة من علمه، وتبادل ثمرات الفكر مع الصحاب وتكوين التلاميذ [١]).

[٢] نسبه :

هو أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر من قبيلة ذي أصبح اليمنية، ولد عام (٩٣ هـ)بالمدينة النورة، وتوفي بها عام (١٧٩ هـ).

[٣] صفاته :

كان الإمام طويلاً جسيماً، شديد البياض إلى الشقرة، عظيم الهامة، حسن الصورة، أصلع، أعين، أشم، أزرق العينين.

---

(١)التشريع والفقه في الإسلام، تاريخاً ومنهجاً ، للشيخ مناع القطان: ٢٨٣.

[٤] شيوخه :

وأكرمه الله بمدينة النبي ﷺ وتتلمذ على يد علمائها من التابعين وتذكر مصادر التاريخ أنه أخذ العلم عن تسعمائة شيخ: ثلاثمائة من التابعين، وستمائة من تابعيهم ونذكر أشهر شيوخه، ومن كان له الأثر الظاهر في حياته وحديثه وفقهه وهم: ابن هرمز ، ونافع مولى ابن عمر، وزيد بن أسلم، والزهري، وأبو الزناد، وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وأيوب السختياني، وهشام بن عروة، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وعامر بن عبدالله بن الزبير بن العوام، وغيرهم كثير من سادات التابعين.

[٥] تصنيفه للموطأ :

عزم الإمام مالك على تصنيف الموطأ، وقرر أن يقوم بجمع كتاب يحتوي أبوابه صحاح الأخبار وعمل أهل المدينة في أبواب الفقه، ثم أنه صنفه فى مدة طويلة، فعمل من كان في المدينة يومئذ من العلماء الموطآت، فقيل لمالك شغلت نفسك بعمل هذا الكتاب، وقد شركك فيه الناس، وعملوا أمثاله، فقال: ائتوني بما عملوا، فأتي بذلك فنظر فيه وقال: لتعلمن أنه لا يرتفع إلا ما أريد به وجه الله تعالى، قال ابن عبد البر: فكأنما ألقيت تلك الكتب بالآبار وما سمعت لشيءٍ منها بعد ذلك بذكر، ولهذا لا يذكر الموطأ إلا ذكر معه مالك. وقد ذكر العلماء كتاب الموطأ بخير، وأثنوا عليه في كلامهم.

[٦] عقيدة الإمام مالك :

هي عقيدة أهل السُنَّة والجماعة ، استوحاها من كتاب الله تعالى ومن سُنَّة رسول الله ﷺ ، ومما عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين، وكان يقول: (من طلب الدين بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس ، ومن طلب غريب الحديث كذب)، ولقد علم الكثير مما عليه أهل الأهواء وكان من أعلم الناس بما اختلفوا فيه من ذلك دون أن يدخل عليه شيء مما قالوا بل كان من أشد الناس

عليهم، وكان من الكبار الذين حصنوا دين الأمة، وحارب من حاول أن يدخل على الدين ما لم يأمر به الله، وأذاع بين الناس العقيدة السليمة التي هي صراط الله المستقيم، وحذرهم سبيل الانحراف والأهواء، ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** ﴾ [الأنعام :١٥٣] ، وله في أكثر أبواب العقيدة كلام يؤيد فيه عقيدة السلف ويبطل فيه عقيدة المبتدعين لا على طريقة المتكلمين ، بل على ما أتى به الكتاب المبين ، وكان أبعد الناس عن مذاهب المتكلمين ، وألزمهم بسنة السالفين من الصحابة والتابعين.

[٧] من حكمه القيمة:

ذكر الإمام مالك أصناف الناس في طلب العلم فقال: رجل علم فعمل به، فمثله في كتاب الله قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر:٢٨] ورجل علم به ولم يعمله فمثله في كتاب الله: ﴿ **الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى** ﴾ [البقرة: ١٥٩] ، ورجل علم علماً وعلمه، ولم يعمل به فمثله في كتاب الله: ﴿ **إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ** ﴾ [الفرقان: ٤٤] .

وقيل لمالك بن أنس رحمه الله: ما تقوله في طلب العلم؟ قال: حسن جميل. ولكن انظر الذي يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فالزمه. وقال الإمام مالك: ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما العلم نور يضعه الله في القلوب.

[٨] هيبة الإمام مالك :

جدير بمن يحمل علم الكتاب والسُّنَّة أن يكون عزيزاً في عيون الآخرين إن كان بالكتاب والسُّنَّة عاملاً مخلصاً لله دينه، وحري بمن كان في مكانة مالك أن يجعل الله له هيبة في نفوس الآخرين. قال سعيد بن أبي مريم: ما رأيت أشد هيبة من مالك لقد كانت هيبته أشد من هيبة السلطان. وقال الشافعي: (ما هبت أحداً قط هيبتي مالك بن أنس، حين نظرت إليه) [١] .

---

(١) **انظر** : الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة لعبد الغني الدقر: ٢١-٣٣٩ .

وكان سفيان الثوري في مجلسه، فلما رأى إجلال الناس له وإجلاله للعلم ، أنشد قولة مصعب بن عبد الله في مالك :

يدعى الجواب فلا يراجع هيبة ... عز الوقار ونور سلطان التقى
والسائلون نواكس الأبصار ... فهو المهيب، وليس ذا سلطان [1]

والحق أن الله رفع قدر مالك، لهمته وإخلاصه في نشر كتاب الله ، وحديث رسوله ﷺ ولسيرته المباركة.

[٩] وفاته:

مرض الإمام مالك ، وشهد شهادة الحق في سكرات الموت ثم قال: لله الأمر من قبل ومن بعد. وكانت وفاته في حادي عشر ربيع الأول سنة تسع وسبعون ومئة لتمام اثنين وعشرين يوماً من مرضه رحمه الله رحمة واسعة [2] .

ومما جعل المغاربة يهتمون بمذهبه ويقدمونه على غيره أمور كثيرة نذكرها في الصفحات القادمة إن شاء الله تعالى وهناك مسألتان تحتاجان إلى توضيح وهما أن التعصب للرجال أمر لا يقره الدين، بل يحرمه ويمنعه، فنحن لا ندعوا للتعصب وإنما ندعوا إلى التمسك بالكتاب والسنة وعقيدة أهل السُنَّة والجماعة إجمالاً وتفصيلاً.

والأمر الثاني يجب أن نحترم العلماء والدعاة وأصحاب الفضل والسبق ونعلم كذلك أن الطعن فيهم لا يقدم الأمة ولا يوحد صفوفها ضد عدوها، كما أن لحوم العلماء مسمومة وسُنَّة الله في هتك منتقصهم معلومة فإني أحذر المسلمين من الإفراط والتفريط وأدعوهم إلى التوسط والاعتدال.

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء: ٨/١١٣-١٣٠.
(٢) انظر: سير أعلام النبلاء: ٨/١١٣-١٣٠.

المبحث الثالث

أسباب انتشار المذهب المالكي في الشمال الإفريقي

عزا الباحثون انتشار المذهب المالكي في الشمال الإفريقي إلى عدة أسباب منها:

﴿ ١ ﴾ شخصية صاحب المذهب نفسه، لما عرف عنه من تمسكه بالسُنَّة ومحاربة البدعة، وتشبثه التام بآثار الصحابة والتابعين واستجماعه أدوات الإمامة .... مما دفع الناس للاقتداء بمنهجه وطريقته في فهم الكتاب والسُنَّة فما من مسألة عرضت عليه، إلا التمس لها حلاً في الكتاب والسُنَّة ، فإن لم يجد ذهب إلى القياس الصحيح، فإذا لم يجد اعتذر من الإفتاء والحكم، واكتفى بجملته المحببة لديه: لا أدري. وللاثر الوارد في شأن عالم المدينة، الذي حمله بعض العلماء عليه، وهو قوله ﷺ : «**يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل فيطلب العلم، فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة**» [١] .

قال سفيان بن عيينة: كنا نسمع أهل المدينة يقولون إنه مالك بن أنس[٢] .

فمالك كان عند العلماء ثقة مأموناً ثبتاً فقيهاً ورعاً حجة عالماً وهذه الصفات هي التي حببته إلى الشمال الأفريقي، واكسبته ثقتهم، لما رجع طلابه يصفون فضله وسعة علمه، واستقامته وسيرته، وجلال قدره، ولذلك كان طلبة العلم يقطعون إليه آلاف الأميال يسألونه، ويأخذون عنه، فاتفقت آراؤهم مع آرائه، وأصبح المثل الأعلى لطلابه الذين تتلمذوا على يديه.

﴿ ٢ ﴾ ومنهم من يرد ذلك إلى ملائمة مذهبه لطبيعة المغاربة، ذلك أن المذهب

---

(١) انظر: تفاصيل هذه النقطة في المدارك للقاضي عياض: ١ / ٦٨ .

(٢) انظر: التمهيد لابن عبد البر: ٦ / ٣٥ .

المالكي مذهب عملي يعتد الواقع، ويأخذ بأعراف الناس، وعاداتهم، ففقهه عملي أكثر منه نظري، يتمشى مع طبيعة الفطرة في بساطتها ووضوحها، دون تكليف وتعقيد، وأهل الشمال الإفريقي يميلون بطبعهم إلى البساطة والوضوح ويفرون من النظريات المتطرفة، والتأويلات البعيدة المتكلفة [١] .

واختيار المغاربة إذن لمذهب مالك ، هو اختيار مذهب أهل السُّنَّة ، وفقه الصحابة والتابعين، وهذا كان له تأثير خاص في نفوس المغاربة، ومن ثم كان فقهائهم يبايعون الأمراء على كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، وبالإضافة إلى أن المدينة مصدر العلوم الإسلامية كلها، فيها نشأت ونضجت، ثم عنها تفرعت إلى بقية الأقطار الإسلامية الأخرى ، والمدينة كما نعلم لها في نفوس أهل الشمال الإفريقي مكانة خاصة.

﴿ ٣ ﴾ وبعضهم يرجع سبب انتشار مذهب الإمام مالك في الشمال الإفريقي، لموقف الإمام سحنون المالكي الذي وقف موقف الإمام أحمد في مسألة خلق القرآن وقف ضد أمراء الاغالبة مما جعل الناس يميلون إلى مذهب الإمام سحنون الذي يعتبر من علماء المالكية في الشمال الإفريقي.

﴿ ٤ ﴾ ومنهم من يرد ذلك إلى موقف بعض السلاطين: إذ يذكر بعض المؤرخين أن مالكاً سأل بعض الأندلسيين عن سيرة ملك الأندلس، فوصف له سيرته قائلاً: أنه يأكل الشعير ويلبس الصوف، ويجاهد في سبيل الله، فقال مالك: ليت الله زين حرمنا بمثله فوصل الخبر إلى ملك الأندلس فحمل الناس على مذهبه، وترك مذهب الأوزاعي.

وذهب ابن حزم - رحمه الله - إلى أن قوة السلطان كان لها أثر في نشر المذهب المالكي في الاندلس وهذا رأي لا يقبل على إطلاقه.

---

(١) محاضرات في تاريخ المذهب المالكي، للدكتور عمر الجيدي: ٣٠ .

﴿ ٥ ﴾ تشابه البيئة في كل من الحجاز وبلاد المغرب وهذا الرأي ذهب إليه العلامة ابن خلدون الذي يرى أن البداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق، فكانوا إلى اهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضا عندهم ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب [١] .

وهذا رأي مردود إذ لو صح السبب في أن البيئة تؤثر في اعتناق الناس لمذهب لحافظ المذهب المالكي على مكانته في الحجاز كما أن الأندلس ازدهرت فيها الحضارة ازدهاراً رائعاً جميلاً.

﴿ ٦ ﴾ وهناك سبب أخر يرى ابن خلدون – وهو محق في هذا – أنه كان عاملاً أساسياً في انتشار المذهب وهو: رحلة المغاربة إلى الحجاز غالباً [٢] .

﴿ ٧ ﴾ بعضهم ذهب لكون الأمويين في الأندلس والأدارسة في المغرب وغيرهم من أهل الشمال الإفريقي ضد تيار الخوارج الجارف لذلك عمل حكام هذين القطرين على ترسيخ مذهب مالك لإبطال مذهب الخوارج [٣] .

﴿ ٨ ﴾ قوة رجالات المذهب من الفقهاء فبقدر ما يكون أتباع المذهب أقوياء متضلعين في العلوم و لهم قدرة على استنباط الأحكام واستخراجها بقدر ما شاع المذهب وانتشر [٤] .

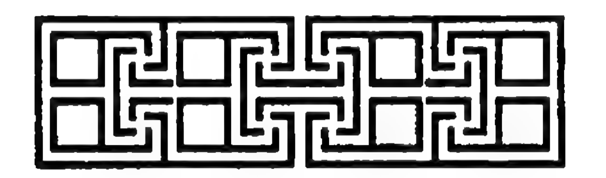

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ٢٤٥.

(٢) المرجع السابق: ٢٤٥.

(٣) محاضرات في تاريخ المذهب المالكي: ٣٧-٣٨.

(٤) المرجع السابق.

المبحث الرابع

أصول مذهب الإمام مالك

عمد تلاميذ مالك إلى كتابة الموطأ واستخرجوا منه ما يصح أن يكون أصولاً لاستنباط الفروع، ويمكن إيجازها فيما يلي:

[١] القرآن الكريم:

كان مالك يرى أن القرآن الكريم قد اشتمل على كليات الشريعة، وأنه عمدة الدين، وآية الرسالة، ولم تكن نظرته إليه كنظرة الجدليين، فلم يخض فيما خاض فيه المتكلمون من أنه لفظ ومعنى، أو معنى فقط وهو عنده اللفظ والمعنى، كما هو إجماع من يعتد بهم من المسلمين، وروي أنه كان يقول: إن من يقول بأن القرآن مخلوق فهو زنديق يجب قتله، ولذا لم يعتبر الترجمة قرآناً يتلى تجوز به الصلاة، بل هي تفسير أو وجه من وجوه المعنى المعقول، وهو ياخذ بنص القرآن، وظاهره ومفهومه، ويعتبر العلة التي يأتي التنبيه عليها.

[٢] السُنَّة:

ومالك من أئمة الحديث، كما أنه إمام في الفقه، ورجال الحديث يشهدون له بذلك، وهم يعتبرون سنده في بعض أحاديثه أصح الأسانيد، ويسميها المحدثون بالسلسلة الذهبية. ومع أن مالك يشدد في قبول الرواية إلا أنه كان يقبل المرسل من الأحاديث، ما دام رجاله ثقات، وفي موطئه كثير من المرسلات، ومن منقطع الإسناد ومن البلاغات التي يقول فيها مالك: بلغني أن رسول الله ﷺ قال كذا، وهذا يدل على أنه لم يلتزم الإسناد المتصل في أحاديثه كلها، وكان يكفيه أن يطمئن إلى صحة الحديث. وقد اختلفوا في تقديم القياس على خبر الواحد، والمشهور في ذلك أنه كان يقدم خبر الواحد على القياس .

[٣] عمل أهل المدينة :

ذهب مالك إلى أن المدينة هي دار الهجرة، وبها تنزل القرآن، وأقام رسول الله ﷺ وأقام صحابته، وأهل المدينة أعرف الناس بالتنزيل، ومما كان من بيان رسول الله ﷺ للوحي، وهذه ميزات ليست لغيرهم وعلى هذا فالحق لا يخرج عما يذهبون إليه فيكون عملهم حجة، يقدم على القياس وعلى خبر الواحد وفي كتاب الإمام مالك إلى الليث بن سعد : (إن الناس تبعٌ لأهل المدينة التي كانت إليها الهجرة وبها تنزل القرآن).

[٤] قول الصحابي :

ويرى مالك في مذهبه أنه إذ لم يرد حديث صحيح في المسألة عن النبي ﷺ فأن قول الصحابي إذا لم يعلم له مخالف، يكون حجة، وقد ضمن الموطأ العديد من أقوال الصحابة والتابعين، فالصحابة ﭫ أعلم بالتأويل وأعرف بالمقاصد، لأنهم حضروا التنزيل وسمعوا كلام رسول الله ﷺ، فقولهم أولى بالاخذ، يخص به العام، ويترك لأجله القياس. ولكن مالكاً يقدم عمل أهل المدينة على قول الصحابي، فقد روي في الموطأ أن عمر بن الخطاب «قرأ سجدة وهو على المنبر يوم الجمعة فنزل وسجد وسجد الناس معه ، ثم قرأها يوم الجمعة الأخرى فتهيأ الناس للسجود فقال: على رسلكم إن الله لم يكتبها علينا إلا أن نشاء، فلم يسجد، ومنعهم أن يسجدوا».

فعمر يجيز للإمام إذا شاء ان ينزل من على المنبر إذا قرأ سجدة ليسجد ، **ويعلق مالك عليه بقوله:** (ليس العمل على أن ينزل الإمام إذا قرأ السجدة من على المنبر فيسجد) وحين تتعدد أقوال الصحابة في المسألة الواحدة فإن مالكًا يختار منها ما يتفق مع عمل أهل المدينة.

يروى أن زيد بن ثابت قال: (الصلاة الوسطى صلاة الظهر) وإن علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس كانا يقولان: (الصلاة الوسطى : صلاة الصبح) ثم

يقول مالك وقول علي وابن عباس أحب ما سمعت ألي في ذلك .... كما روي عن عدد من الصحابة أن الصلاة الوسطى هى صلاة العصر .

[٥] المصالح المرسلة :

والعمل بالمصالح المرسلة أساس من الأسس التي اعتمد عليها مالك في مذهبه وهي : جلب منفعة أو دفع مضرة لم يشهد لها الشرع بإبطال ولا باعتبار معين، لأن تكاليف الشريعة ترجع إلي حفظ مقاصدها في الخلق، ضرورية كانت أم حاجية أو تحسينية والضرورية : هي التي لابد منها في قياس مصالح الدين والدنيا في الضروريات الخمسة الثابتة في الملل جميعاً وهي :

- حفظ الدين ، والنفس ، والعرض ، والمال ، والعقل .
- والحاجية : هي التي تؤدي إلى رفع الضيق والحرج والمشقة .
- والتحسينية : هي المتعلقة بمكارم الأخلاق : وكون هذه المعاني مقصودة عرف بأدلة كثيرة لا حصر لها من الكتاب والسنة مما يدل على مقاصد الشرع، ولذا ذهب مالك إلى أن هذه المصلحة تكون حجة .

واعتبر بعض الباحثين القول بالمصلحة من خصوصيات مذهب مالك وذكر الشاطبي في الاعتصام : أن مالكاً يذهب إلى اعتبارها، ويكثر من بناء الأحكام عليها ومن أمثلة عمل مالك بالمصالح المرسلة، ما قاله في الزعفران المغشوش إذا وجد بيد الذي غش ، حيث قال : أنه يتصدق به على المساكين قل أو كثر .

يقول الشاطبي ـ رحمه الله ـ : إنه يماثل إراقة عمر للبن المغشوش بالماء، ووجه ذلك التأديب للغاش، وهذا التأديب لا نص يشهد له، ولكن من باب الحكم على الخاصة لأجل العامة.

ومن ذلك إجازة بيعة المفضول مع وجود الأفضل إذا خيف إضطراب أمور الناس وعدم إقامة مصالحهم إذا لم يبايع المفضول عندئذ .

[٦] القياس:

حيث لا يوجد نص في كتاب أو سُنَّة ، أو قول صحابي، أو إجماع من أهل المدينة فأن مالكاً كان يجتهد ويستعمل القياس في اجتهاد فقد جاء في الموطأ: سئل مالك عن الحائض تطهر فلا تجد ماء هل تتيمم؟ .

فمالك هنا يقيس الحائض حين تطهر على الجنب في التيمم، عند فقد الماء الذي ثبت بالنص القرآني في قوله تعالى: ﴿**أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا**﴾ [المائدة:٦] ولهذه المسألة نظائر في القياس عند مالك.

[٧] سد الذرائع :

الذرائع : جمع ذريعة ، عرفها القرافي في الفروق بأنها : هي الوسيلة إلى الشيء ، وعرفها الشاطبي في الموافقات بأنها: التذرع بفعل جائز إلى عمل غير جائز.

وعامة ما ورد في معناها يؤول إلى : ما كان ظاهره الإباحة ويتوصل به إلى فعل محظور والمراد بسد الذريعة، الحيلولة دونها، والمنع فيها، لأن ما يؤدي إلى المفسدة – وإن كان مباحاً – يكون مفسدة، فيجب الامتناع عنه، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

وقد أكثر مالك إكثاراً شديداً من العمل بسد الذرائع حتى اعتبر بعض العلماء العمل بها من خصوصيات مذهبه، يقول الشاطبي في الاعتصام: وكان مالك رحمه الله شديد المبالغة في سد الذرائع [1] .

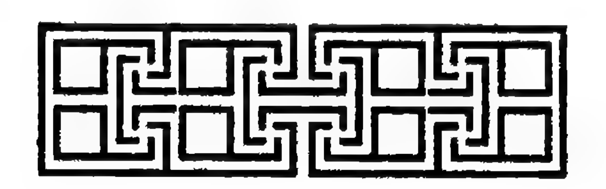

(١) التشريع والفقه في الإسلام، للشيخ مناع القطان: ٢٩١-٢٩٤ .

الفصل الثامن

دولة الأغالبة

توطئة :

نظراً لكثرة الفتن والانتفاضات في إفريقية - كما تقدم - لم تجد حكومة الخلافة بدًّا من أن تعهد بحكم البلاد لعائلة من عرب إفريقية، تكفيهم مؤونة تلك الفتن التي طالما شغلتهم، ويكون لها حرية التصرف داخل البلاد، من التبعية لدولة الخلافة، فكان أن كلف الرشيد بهذه المهمة إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي (١٨٤-١٩٦ هـ)، الذي كان يتمتع بشجاعة نادرة، وثقافة عالية، بالإضافة إلى معرفته بشئون إفريقية، فإن أباه الأغلب قد تولى حكم القيروان (١٤٨-١٥٠هـ) كما كان هو عاملاً على الزاب.

لقد دامت الدولة الأغلبية بإفريقية ما يزيد عن قرن من الزمان، يعتبر من أزهى عصور هذه البلاد في المجال العلمي، وفي مجال الحضارة والعمران والأمن والاستقرار، فقد تخلصت هذه الدولة من فتن الخوارج، حيث أسس الصفرية دولتهم بسجلماسة (١٤٠-٢٩٦هـ) وأسس الإباضية دولتهم بتيهرت الجديدة (١٦١-٢٩٧هـ) واهتمت كل من الدولتين بشئونها الداخلية، ومالتا إلى السلامة غالباً، إذا استثنينا بعض المحاولات الفاشلة التي لم تشكل خطراً على الأغالبة، إلا أن نوعاً آخر من الثورات عرفه العهد الأغلبي، وقد تمثل في الثورات المتتالية التي قام بها قادة الجند، الذين رأوا لأنفسهم حقاً في مشاطرة الأغالبة الحكم وكان منبت هذه الثورات في تونس غالباً، وأحياناً في طرابلس، وأخطرها ثورة عمران بن مجالد الربعي سنة ١٩٤هـ، وهو قائد إبراهيم بن الأغلب ووزيره، وقد تمكن من الاستيلاء على القيروان لمدة سنة كاملة قبل أن ينجح إبراهيم في إخماد ثورته، كما ثار على زيادة الله بن إبراهيم (٢٠١-٢٢٣هـ) كبير قادتهم

منصور بن نصر الطُّنبذي سنة ٢٠٩ هـ، وتمكن من السيطرة على معظم إفريقية واستولى قادة الجيش على المدن، ولم يتمكن زيادة الله من إعادة الأمور إلى نصابها إلا بعد أربعة أعوام سنة ٢١٣ هـ

وأما الثورات الأخرى فلم تكن ذات بال ، وبذلك تمكن أمراء الأغالبة من تمهيد البلاد، واهتموا بالغزو الخارجي ففتحوا صقلية (٢١٢هـ)ومالطة وسردينيا وسرقوسة (٢٦٤هـ)حتى وصلوا إلى روما، كما اعتنوا بالناحية العمرانية فأسسوا عدة مدن كالعباسية (١٨٥هـ)ورقادة (٢٦٣هـ)وبنوا المحارس والحصون وقصور الرباط ومراجل المياه [1] .

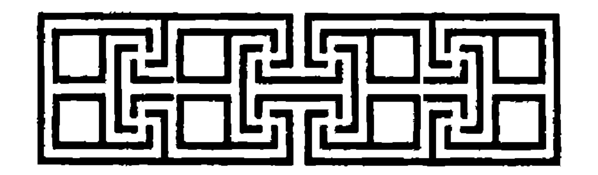

(١) مدرسة الحديث في القيروان: ١/٦٣-٦٤.

المبحث الأول
إبراهيم بن الأغلب

مؤسس الدولة الأغلبية هو إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي، ووالده الأغلب الذي كان من جند مصر أصله من أهل مرو الروذ، بمعنى إنه كان من الجند الخراساني الذي وفد مع القوات العباسية إلى مصر، وأصبح من جندها (١) .

ودخل الأغلب إفريقية في قوات محمد بن الأشعث سنة ١٤٤هـ / ٧٦١ م ، وعهد إليه المنصور بولاية إفريقية في أواخر سنة ١٤٨هـأواخر ٧٦٥م ومات برمية سهم في سنة ١٥٠هـ، ٧٦٧م ، ولهذا عرف بـ الشهيد . وكان إبراهيم حين مات والده ابن عشر، وكان إبراهيم قد قضى صباه في الدرس والتحصيل بالفسطاط، وأنه كان يحضر مجالس فقيه مصر الأشهر الليث بن سعد ، وقد أعجب الليث بجد إبراهيم واجتهاده، وبما تميز به من الصفات حتى قال يوماً عنه : (ليكونن لهذا الفتي شأن) وعندما بلغ مبلغ الشباب دخل في جند مصر، وكان عليه أن يسير إلى المغرب مثل والده فشد رحاله إلى إفريقية تاركاً أهله بمصر (٢) .

وقال في ذلك شعراً ذاكراً فيه زوجته :

ما سرت ميلاً ولا جاوزت مرحلة ... ولا ذكرتك إلا بت مرتقبا

إلا وذكرك يثني دائماً عنقي ... أرعى النجوم كأن الموت معتنقي

وكان ماضي العزم، قوي الإرادة، صائب الرأي، شجاعاً مقداماً وعالماً وخطيباً، وشاع ذكره بين الناس، واتجهت إليه أنظارهم، وقد وقع عليه اختيار هارون

---

(١) تاريخ المغرب للدكتور سعد زغلول: ٢ /٢٧-٢٨.

(٢) المصدر السابق نفسه.

الرشيد فولاه الزاب... والزاب يطلق على عدة بلدان بجوار بسكرة، وكل منها يكون قرى متجاورة، فاضطلع بالأمر، وأحسن السيرة، ورضيته الكافة، واستقل بالولاية غير منازع وتوارثها بنوه خلفاً عن سلف وتولى ولاية إفريقيا بعد العكي بعد أن رفع أهالي إفريقيا رغبتهم إلى الرشيد في تعيين إبراهيم بن الأغلب فاستجاب الرشيد لهذه الرغبة وولى إبراهيم بن الأغلب، وقد اشترط إبراهيم لنفسه شروطاً أقره عليها الرشيد ونفذها له، **وهي ثلاثة شروط:**

أولاً: أن يستقل بإدارة شئون إفريقية الداخلية عن الخليفة.

ثانيا: أن يتولى إمارة إفريقية ذريته من بعده (بطريق الوراثة).

ثالثا: ألا يدفع الإعانة التي كانت تدفعها إفريقية لمصر، وقدرها مئة ألف دينار، واشترط على نفسه أن يدفع للخليفة خراجاً سنوياً قدره أربعون آلاف دينار، فوافقه الرشيد على ما طلب، وولاه أميراً على إفريقية في جمادى الآخرة سنة ١٨٤هـ وهو أول أمير من بني الأغلب على إفريقية، وأول من جعل إمارة إفريقية وراثية في ذريته في العهد الإسلامي.

بنى مدينة القصر سنة ١٨٥هـ على ثلاثة أميال من القيروان وسماها العباسية ولها الآن بقايا آثار تعرف بقصور الأغالبة، وفي هذه المدن كان سفيان بن أبي المهاجر عاملاً على طرابلس من مدة هرثمة فأقره إبراهيم بن الأغلب، ويظهر أن أهل طرابلس كانوا غير راضين عن سفيان بن أبي المهاجر فدبروا الثورة ضده وثاروا عليه سنة ١٨٩هـ بزعامة إبراهيم بن سفيان التميمي، وأخرجوه من داره وقتلوا أصحابه وأمنوه على أن يخرج من طرابلس فخرج [١].

إبراهيم بن سفيان التميمي:

وولى أهل طرابلس عليهم إبراهيم بن سفيان التميمي، وما كان إبراهيم

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، الطاهر الزاوي: ٢٠٧.

الأغلب ليقر هذا العمل من أهل طرابلس فهاجم طرابلس واستولى عليها، وقبض على إبراهيم بن سفيان، فعاهده على الطاعة، فعفا عنه، وأقره على عمله بطرابلس [١] .

واستطاع إبراهيم بن الأغلب أن يقمع أهل الشر في الشمال الإفريقي ، وأن يضبط أهلها لمدة اثنتي عشرة سنة ، واشتهر بعدله وبحُسن سياسته ورفقه بالرعية .

وفاة إبراهيم بن الأغلب :

توفي في أواخر شوال سنة ١٩٦ هـأوائل يولية ٨١٢م وله من العمر ٥٦ (ستة وخمسون سنة) بعد ولاية استمرت أكثر من ١٢ سنة بدأت بعهد الرشيد إليه بإفريقية سنة ١٨٤هـ ٨٠٠م ، واستمرت بعد ذلك بإقرار الخليفة المأمون له في سنة ١٩٣ هـ ٨١٠م [٢] .

عبد الله بن إبراهيم الأغلب :

كنيته أبو العباس، ولاه والده على طرابلس سنة ١٩٦هـ، فثار به جندها فأخرجوه منها، ثم جمع لهم من انضم إليه من البربر وغيرهم، وأعاد الكرة عليهم فغلبهم واستولى على طرابلس، ولكن والده ما لبث أن عزله وولى بدله سفيان بن أبي المهاجر للمرة الثانية .

سفيان بن أبي المهاجر :

تولى ولاية طرابلس للمرة الثانية، إلا أنه في المرة الأولى كان معيناً من قبل هرثمة بن أعين، وكانت قبيلة هوارة البربرية قبيلة كبيرة الأفخاذ، ذات عدة وعداد وشوكة وقوة ومنعة، كانت منازلها مضروبة حول مدينة طرابلس، كانت

---

(١)المصدر السابق نفسه .

(٢)تاريخ المغرب العربي : ٢ / ٢٩.

تدين بالمذهب الإباضي وكانوا خاضعين لأبي المنصور صاحب جبل نفوسة الذي كان تابعاً لإمامة الإباضية بتيهرت وبعضها كان خاضعاً لحكم الأغالبة بمدينة طرابلس، وقد وقع بينهم وبين سفيان بن أبي المهاجر قتال وصراع وأصر الإباضية على نزع طرابلس وجَعْلها تابعة لصاحب جبل نفوسة ، فخرج إليهم سفيان بن أبي المهاجر بعسكره ، والتقى بجموعهم في وادي الرمل، فتغلبوا عليه ورجع الجند إلى طرابلس منهزمين ، فتبعه هوارة وحاصروا المدينة ثم اقتحموها فخربوها وهدموا أسوارها.

قال ابن خلدون : (وتولى كبر ذلك منهم عياض ووهب وبلغ الخبر إبراهيم ابن الأغلب بتونس، فأرسل ابنه عبد الله في جيش كبير، فاسترد المدينة من هوارة وجدد السور . . .) ولم تهدأ ثائرة هوارة، وإزاء ما لاقوه من شدة عبد الله الأغلب فاستغاثوا بعبد الوهاب بن رستم إمام الإباضية بتيهرت، ولبى لهم طلبهم وحاصروا ابن الأغلب في المدنية وقد بذل كل جهده في الاحتفاظ بها، وفي أثناء الحصار قتل مهدي النفوسي.

وأثناء حصار عبد الله بن الأغلب في طرابلس بلغه وفاة أبيه إبراهيم فَصَالَحَ ابن رستم على أن تكون المدينة - داخل السور - والبحر لعبد الله الأغلب وخارج السور إلى سرت لعبد الوهاب بن رستم، وبهذا أصبحت جميع الأراضي الطرابلسية داخلة تحت حكم الإباضية ما عدا المدينة داخل السور قبضت تحت حكم عبد الله بن الأغلب [1] .

ولم يستقم أمر عبد الله بن الأغلب بعد أبيه لأنه كان سيء السلوك جائراً في الحكم، وقد وعظه بعض الأخيار من علماء زمانه فلم يتعظ، وكان المتكلم أمام الأمير عبد الله صالح إفريقيا وقتئذ حَفْصَ بنَ حميدٍ حيث قال : أيها الأمير اتق الله

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا : ٢١٠-٢١١-٢١٢ .

في شبابك وارحم جمالك، واشفق على بدنك من النار، وطلب منه أن يخفف الضرائب على الرعية وأمره أن يأخذ فيهم بكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ إلا أن الأمير أعرض صفحاً عن ذلك النصح الصادق فقال حفص عند رجوعه إلى مسكنه: قد يئسنا من المخلوق، فلا نيأس من الخالق، فاسألوا المولى وتضرعوا إليه في زوال ظلمه عن المسلمين فإن فتح في الدعاء، فقد أذن في الإجابة، وتوضئوا وساروا إلى مصلى دعوا الله بعد الصلاة أن يكف عن المسلمين جور أبي العباس، وأن يريحهم من أيامه فاستجاب الله دعاء الصالحين، وأصيب الأمير عبد الله بقرحة تحت إذنه لم يستطع أن يقاوم ضرها إلا لخمسة أيام فقط، كما غيرت لون بشرته البيضاء وكان من أجمل أهل زمانه حتي عندما كشفت عنه ثيابه للغسل، كان كأنه عبد أسود واعتبر الناس أن ذلك كان عقاباً من الله للأمير الظالم، وكانت وفاته سنة ٢٠١هـ من ستة ذي الحجة ٢٤ يونية ٨١٧م بعد ولاية لم تزد عن خمس سنوات إلا بشهرين (١).

قلت: والدعاء على الظلمة من المظلوم سلاح عظيم لو أحسن المسلمون استعماله، لفتحت لهم أبواب من الرحمة كثيرة، **قال الشاعر:**

اتهزأ بالدعاء وتزدريه ... ولا تدري بما صنع الدعاء
سهام الليل لا تخطي ولكن ... لها أجل وللأجل انقضاء

زيادة الله بن الأغلب:

هو زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب، وكنيته أبو محمد، وهو زيادة الله الأول اشتهر بكثرة الحروب ضد من شق عصا الطاعة عنه، تولى ولاية إفريقية في عهد المأمون بن الرشيد، وبويع له يوم الجمعة لسبع سنين بقين من ذي الحجة سنة ٢٠١هـ بعد وفاة أبيه بأيام، وجاءه التقليد من المأمون، وكان أعلم أهل بيته،

---

(١) تاريخ المغرب العربي: ٢/ ٤٢-٤٣.

فأحسن والده تربيته، وشغل مجلسه بالعلماء، فبرع في العربية وآدابها، وحظيت إفريقية في أيامه بحظ وافر من العمران حتى بلغ خراجها ثلاثة عشر ألف مليون من الدراهم، وقد ابتلي باللهو والإسراف في الملذات، فساءت سيرته مع جميع الناس حتى مع جنده فثاروا عليه في سنة ٢٠٢ هـ وهرب أخوه الأغلب إلى المشرق خوفاً منه.

وزيادة الله هذا هو الذي أسند قضاء إفريقية إلى أسد بن الفرات صاحب مالك ابن أنس، ولاه قيادة الجيش الذي أرسله لغزو صقلية، وفتحها سنة ٢٢٢هـ وفي صقلية يقول ابن حمديس:

ذكرت صقلية والهوى ... يهيج للنفس تذكارها

فإن كنت أخرجت من جنة ... فإني أحدث أخبارها

وضاق الناس ذرعاً باستهتار زيادة الله، وثارت عليه جميع النواحي، وتقلع حكمه عن إفريقية ما عدا طرابلس وقابس والقيروان فتمسكوا به ولم يقطعوا عنه الجباية، وكان يشعر بإسرافه في المعاصي فيسلي نفسه بقوله: (ما أبالي ما قدمت عليه يوم القيامة وفي صحيفتي أربع حسنات: بنيان جامع القيروان، وقنطرة أبي الربيع، وحصن مدينة سوسة، وولاية أحمد بن أبي محرز قضاء إفريقية) [1].

عفوه عن أعدائه:

وفي سنة ٢١٩هـ أعلن زيادة الله العفو عن كل من شارك في الخروج عليه في ذلك العام من أهل تونس وإفريقية فاستجاب له أهل المنطقة وركن الإقليم إلى الهدوء والسكينة، وكان من بين من استأمن عبد الرحمن وعلي ابنا أبي سلمة، وأبو العزاف وكانوا شعراء فصحاء، فمدحه عبد الرحمن بقصيدة ارتاح لها الأمير وعندما قام شاعر الأمير يعقوب بن يحيى، يحرضه على بني سلمة وأبي العزاف،

---

(١) تاريخ المغرب العربي في ليبيا: ٢١٤-٢١٥.

بأبيات يقول فيها :

تسمع أيها الملك المعان ... قوافي في معانيها البيان

يتم أمات من خضب العوالي ... وليس لشاعر أبداً أمان

لأن قوافي الأشعار تبقي ... على الأيام ما بقي الزمان

وقد يرجى لجرح السيف برء ... ولا برء لما جرح اللسان

فلم يلتفت إليه زيادة الله وأمضى لهم أمانهم [١] .

من شعر زيادة الله الذي وجهه إلى المأمون :

طلب الخليفة المأمون من زيادة الله أمراً فاستاء منه زيادة الله وأرسل:

أنا النار في أحجارها مستكنة ... فإن كنت ممن يقدح الزند فاقدح

أنا الليث يحمي غيله بزئيره ... فإن كنت كلباً حان موتك فانبح

أنا البحر في أمواجه وعبابه ... فإن كنت ممن يسبح البحر فاسبح

وعندما تنبه من سكره واستهول ما فعله فبعث في طلب الرسول، ولكن دون جدوى وحينئذ كتب خطاباً ثانياً يعتذر فيه عما قال [٢] .

أعماله :

صرف اهتمامه إلى إسناد المناصب إلى العلماء الأذكياء وإنشاء المصانع لصنع السفن في سوسة لاستئناف الفتوح في جنوب إيطاليا لم يكن زيادة الله ليغفل مراقبة الأحوال الجارية في البلاد الإيطالية فجهز جيوشاً للجهاد في صقلية وجنوب إيطاليا وفتح حصون صقلية وكانت لبني الأغلب من بعده صولات وجولات في تلك الديار الأوروبية ونشروا فيها الإسلام وأذلوا عُباد الصُّلبان، ونقلوا حضارة المسلمين إلى الذين انغمسوا في مستنقعات متعددة وصور مظلمة

---

(١) تاريخ المغرب العربي: ٢ / ٦٢ .

(٢) المرجع السابق نفسه.

من الانحراف العقدي والانحلال الخلقي والانتكاس النفسي.

وفاته :

توفي زيادة الله يوم الثلاثاء الرابع عشر من رجب سنة ٢٢٣هـ، وعمره إحدى وخمسون سنة، ودامت ولايته إحدى وعشرين سنة وسبعة أشهر وثمانية أيام.

أولاً: الأغلب بن إبراهيم:

هو أخو زيادة الله الأول ، ولقبه أبو عقال ويقال له جزر.. تولى بعد أخيه زيادة الله ، وأبقى سفيان بن أبي المهاجر عاملاً على طرابلس وثارت عليه قبائل زواغة ولواته من بربر طرابلس وقتلوا سفيان بن أبي المهاجر عامله على طرابلس، وما زال بالثوار حتى تغلب عليهم، وكان حسن السيرة توفي ليلة الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر سنة ٢٢٦هـ.

ثانياً: محمد بن الأغلب:

كنيته أبو العباس، ولي بعد أبيه أبي عقال، وهو الذي أسند قضاء إفريقية إلى الإمام سحنون سنة ٢٣٤هـ، وأسند قضاء طرابلس إلى شرحبيل وفي زمن غير معلوم أسند قضاؤها إلى أبي العباس بن بطريقة من أصحاب سحنون.

توفي محمد بن الأغلب لليلتين خلتا من المحرم سنة ٢٤٢هـ، ودامت ولايته خمس عشر سنة، وثمانية أشهر واثني عشر يوماً وعمره ست وثلاثون سنة.

ثالثاً: أحمد بن محمد بن الأغلب:

كنيته أبو إبراهيم، ولي إفريقية بعد وفاة أبيه سنة ٢٤٢هـ وكان حسن السيرة [١].

رابعاً: عبد الله بن محمد الأغلب:

ولاه أخوه أحمد عاملاً على طرابلس، وفي سنة ٢٤٥ هـ ثارت برابرة طرابلس

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا: ٢١٦-٢١٧.

على أحمد الأغلب، ومنعوا عنه العشور والصدقات التي كانوا يؤدونها وحاصروا أخاه عبد الله في طرابلس، فجلا عنها إلى لبدة وتحصن بها، وكاتب أخاه في القيروان، واتفقا على أن يرسل كل منهما جيشًا للإطباق على طرابلس من الشرق والغرب، وكان جيش القيروان بقيادة أخيهما زيادة الله، ووقع البربر بين جيشين، والتحم الفريقان في معركة كانت حامية دامية، فهزم البربر، وقتل منهم خلق كثير، وطاردتهم الخيل فقتلت من أدركته وأسر كثير منهم فضربت أعناقهم، واستولى على معسكراتهم فأذعن من أفلت منهم من الموت وقدم الطاعة.

وتوفي أحمد يوم الثلاثاء الثاني عشر من ذي القعدة سنة ٢٤٩ هـ وعمره ثمان وعشرون سنة ودامت ولايته سبع سنين، وعشرة أشهر وسبعة أيام.

خامساً: زيادة الله بن محمد الأغلب :

هو زيادة الله بن محمد الأغلب وهو زيادة الله الثاني تولى بعد أخيه أحمد وتوفي فيآخر ذي القعدة سنة ٢٥٠هـ ودامت ولايته عام وسبعة أيام ولم يكن له من الأعمال ما يستحق الذكر.

سادساً: محمد بن أحمد الأغلب :

هو أبو الغرانيق تولى بعد وفاة عمه زيادة الله، وكان جواداً إلى حد الإسراف، حسن السيرة ثم غلب عليه لهو الأمراء ولقب بأبي الغرانيق . . وهو نوع من الطيور - لشغفة بصيدها - فتح جزيرة مالطةسنة ٢٢٥هـ وأسر ملكها.

وعين محمد بن قهرب عاملاً على برقة . . وبنى حصوناً ومحارس كثيرة على ساحل البحر، على مسافة خمسة عشر يوماً من برقة إلى جهة الغرب وما زالت آثارها باقية إلى اليوم وقد احتفظت له الأيام بإطلاق اسمه على بئر شرقي اليهوديات بأرض سرت ما زالت تسمى أم الغرانيق، توفي فياليوم السابع من جمادى الأولى

سنة ٢٦١هـ ومدة ولايته عشر سنوات، وخمسة أشهر ونصف [١] .

سابعاً: ولاية إبراهيم بن الأغلب :

هو إبراهيم بن أحمد بن محمد الأغلب، وهو إبراهيم الأصغر، ولد يوم عيد الأضحى سنة ٢٣٠هـ، وتولى بعد أخيه أبي الغرانيق وكان أبو الغرانيق أوصى لابنة بالإمارة، وأن يكون أخوه إبراهيم وصياً عليه إلى أن يكبر، ولكن الناس طالبوا بإمارة إبراهيم لما عرفوا فيه من الحزم وحسن السيرة.

وفي أيام إبراهيم هذا غزا العباس بن أحمد بن طولون إفريقية لأخذها من الأغالبة، وقدذكر بعض المؤرخين أن برقة كانت سنة٢٦١هـ تابعة لأحمد بن طولون بمصر، وعليها محمد بن فرج الفرعاني عاملاً عليها من قبلة، فثار به أهلها في هذه السنة وأخرجوه منها ونقضوا عهد ابن طولون، فأرسل إليهم جيشاً مع غلامه لؤلؤ، وأمره بملاينتهم، فلم تفلح الملاينة، وأرسل إلى ابن طولون بخبرهم فأمره بالاشتداد عليهم، فضيق عليهم الحصار، ونصب عليهم المجانيق، فسلموا إليه، ودخل البلد، وقبض على جماعة من أهلها، وشرع في قتلهم، واستعمل عليهم أحد الموالي ورجع إلى مصر، وكان ذلك قبل خلاف العباس على أبيه.

وقد تقدم أن أبا الغرانيق بنى حصوناً ومحارس كثيرة على ساحل البحر على مسافة خمسة عشر يوماً من برقة الى جهة الغرب، ويفهم من هذا أن برقة كانت لأبي الغرانيق، وسيأتي أن ابن طولون افْتَكَّ برقة من ابن قهرب عامل الأغالبة فيها وهذا يتنافى مع أنها كانت تابعة لابن طولون اللهم إلا إذا كان يملك الجزء الشرقي من برقة فيما يلي الحدود المصرية ، وأن أبا الغرانيق كان يملك الجزء الغربي من برقة أجدابية وما ولاها .

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا: ٢١٩-٢٣٠.

ثامناً : العباس بن أحمد بن طولون:

جاء العباس بن أحمد بن طولون من مصر سنة (٢٦٧ هـ) أيام إبراهيم بن الأغلب آنف الذكر إلى أفريقية لأخذها من الأغالبة .. ذلك أن العباس حصل بينه وبين والده أحمد ملك مصر نفور، وكان أبوه استخلفه على مصر لما توجه إلى حصار سيما بانطاكية فانتهز فرصة غياب والده وأخذ ما في بيت مال مصر من الأموال، وما كان لأبيه من الآلات وغيرها ، وتوجه إلى برقة ، هذه رواية صاحب النجوم الزاهرة ونسب الواقعة إلى سنة (٢٦٥ هـ) .

وعندما وصل ابن طولون إلى برقة قاتل عامل الأغالبة ابن قهرب الذي فر إلى تونس، واستقر ابن طولون في برقة حتى رتب أموره وهيأ جنده وسار إلى طرابلس وكان ابن قهرب قد وصل إلى تونس وأخبر إبراهيم بن الأغلب بما حصل، فاستعد للقاء بن طولون، وجهز جيشاً من ألف وستمائة فارس خيلاً جرداً لا راجل معها بقيادة ابن قهرب وأدرك به طرابلس قبل أن يصلها ابن طولون، وجمع من جيشها وبربرها جيشاً وسبقه إلى لبدة .

ووصل ابن طولون في جيش جرار فالتقى به ابن قهرب شرقي لبدة بنحو ١٥كم وانجلت المعركة عن هزيمة ابن قهرب، وطاردته خيل ابن طولون إلى طرابلس فتحصن بها ولما مر ابن طولون بلبدة خرج إليه عاملها وأهلها وأكرموه ولكنه لم يرع حق هذا الإكرام، فأمر بنهبها فنهبت على غرة وقتل رجالها، وانتهكت حرماتها، وفي هذه المعركة .

يقول ابن طولون مفتخراً لظلمه للعباد:

لله دري إذ أعدوا على فرسي	إلى اللقاء ونار الحرب تستعر
وفي يدي صارم أفري الرءوس به	في حدة الموت لا يبقي ولا يذر
إن كنت سائلة عني وعن خبري	فها أنا الليث والصمصامة الذكر

من آل طولون، أما إن سئلت فما فوقي لمفتخر بالجود مفتخر
لو كنت شاهدة كري بلبدة إذ بالسيف أضرب والهامات تبتدر
إذاً لشاهدت مني ما تناقله عني الأحاديث والأنباء والخبر

وحاصر ابن طولون طرابلس ثلاثة وأربعون يوماً لا يقدر منها على شيء ونصب عليها المجانيق، وقطع عليها السبل، وقد امتدت يد جند ابن طولون إلى البوادي الذين يسكنون خارج المدينة وكانوا من البربر الإباضية ومن أتباع إلياس أبي منصور النفوسي صاحب جبل نفوسة ، ونالوا من حرماتهم وأموالهم ، فاستغاثوا به من ظلم جيش ابن طولون .

تاسعاً : إلياس أبو منصور:

إلياس أبو منصور صاحب جبل نفوسة ورئيس الإباضية به، وهو من بلدة تندميرة، وكان غير خاضع لحكم الأغالبة، بل كان يدين بالطاعة لإمام الإباضية بتهيرت. وقد كتب إليه ابن طولون حينما كان يحاصر طرابلس: (أن أقبل بسمعك وطاعتك، وإلا وطئت بلدك بخيلي ورجلي، وأبحت حرمك). فرد عليه إلياس: (أما إنك أقرب الكفار مني وأحقهم بمجاهدتي، فقد بلغني من قبيح فعلك ما لا يسعني التخلف معه عن جهادك، وأنا على أثر رسالتي إليك). فجهز جيشاً من اثني عشر ألف مقاتل، والتقى بابن طولون في قصر حاتم سنة ٢٦٧ هـ فهزم ابن طولون، وتشتت شمله واستبيحت أمواله، وأخذ أهل طرابلس كل ما معه من مؤن وعتاد، ولم يأخذ البربر شيئاً من الغنائم، لأنهم يرون حرمة أموال الباغين الموحدين، ويستبيحون دمائهم ما داموا محاربين لهم، ولا يستبيحونها في حالة السلم. ورجع ابن طولون إلى المشرق مهيض الجناح محطم الآمال وأرسل إليه والده جيشاً في طلبه فتفرق عنه أصحابه ، وقبض عليه وأرسل إلى والده مقيداً.

وجاء إبراهيم بن الأغلب من تونس في جيش عظيم لملاقاة بن طولون فوجده قد انكسر جيشه ورجع إلىٰ المشرق. وبحث ابن الأغلب عن أموال ابن طولون فأخذها ممن وجدت عندهم وكان الجندي يبيع دنانير ابن طولون سراً بأي ثمن خوفاً من وجودها عنده.

وبعد أن انتهت حرب بن الأغلب مع ابن طولون، بقي ابن قهرب في طرابلس إلا أن البربر ما زالوا غير مطمئنين إلى حكم الأغالبة في طرابلس، وكان أكثر بواديها يدينون بالطاعة لحكم جبل نفوسة، فأعادوا الثورة على طرابلس سنة ٢٦٩ هـ وقتلوا ابن قهرب عامل الأغالبة واشترك في الثورة هوارة ولواته.

وقد أرسل إليهم إبراهيم بن الأغلب بن عبد الله في جيش، فتغلب عليهم وأمعن في قتلهم واستولى على طرابلس ولم يغير أحد باستيلاء البربر على طرابلس في هذه المرة وقد يفهم هذا من سياق الكلام،وأعادوا الثورة سنة ٢٨٠ هـ فهزموهم أيضاً. وفي رجب سنة ٢٨١ هـ، انتقل إبراهيم بن الأغلب إلى تونس للإقامة بها ولم ينس ابن الأغلب أعتداء ابن طولون عليه، فهو ما زال يفكر في الانتقام منه وقد اعتزم الأمر في غزوه في مصر وفي المحرم سنة ٢٨٣ هـ جهز جيشاً وخرج من تونس لعشر خلون من المحرم، فأقام برقادة إلى سبع بقين من صفر، ثم خرج يجمع من معه قاصداً غزو ابن طولون في مصر، ووصل إلى قابس في ربيع الأول، فاعترضته نفوسة في قصر مانو لتمنعه من الذهاب إلى ابن طولون.

ويبدو أن معارضة نفوسة لابن الأغلب ليست في مصلحتها في شيء، بل المصلحة في ذهابه لأنه سيذهب في جيش كبير يكلفه نفقات كبيرة، وهذا مما يضعف ابن الأغلب ويسهل على نفوسة الثورة عليه إن أرادوا ولذلك فقد عارض الفكرة كثيراً من أعيانهم منهم أفلح بن العباس، وسعد بن أبي يونس عامل قنطرارة – تيجي – ومعبد الجاوني، ولكن رجحت كفة الأكثرية وتجمعت جيوش البربر في قصر مانو، وهو قصر قديم على ساحل البحر بقرب قابس، وكانوا زهاء

عشرين ألفاً فهزمهم ابن الأغلب هزيمة منكرة، قال في الأزهار الرياضية : فتبعهم وقتلهم قتلاً ذريعاً، وتطارح منهم في البحر بشر كثير، وقتلهم فيه حتى غلبت حمرة الدم على الماء. ثم قال: وقد فل فيها حد سيوف نفوسة وفنيت فيها أبطالهم وأبقيت فيهم ثلمة عظيمة وهي المصيبة الكبرى التي تضعضع فيها ركن الإمامة بتيهرت إذ كانوا حصنها المنيع ولما ضعفوا أخذت في التقهقر وطمع الأعداء فيها حتى اضمحل أمرها، واستمر ابن الأغلب ماضياً في هدفه للانتقام من ابن طولون، فعرج على طرابلس، وكان بها ابن عمه أبو العباس محمد بن زيادة الله بن الأغلب فقتله وسبب ذلك أن المعتضد بالله العباسي كتب إلى إبراهيم يعنفه على أعماله في تونس وقال له إن لم تنته فسلم الأمر إلى محمد ابن عمك زيادة الله ، وقد رأى في هذا تهديداً له بابن عمه، فقتلة خوفاً أن يعزله المعتضد ويوليه مكانه: وسار ابراهيم في جيشه من طرابلس إلى تاورغه، وهناك قتل خمسة عشر رجلاً وأمر بطبخ رءؤسهم، وأظهر أنه يريد أكلها هو ومن معه فارتاع الجند لذلك، وقالوا إنه خولط في عقله ، فلما رأى ذلك خاف وانصرف الجند عنه فرجع إلى تونس.

وفي سنة (٢٨٩هـ) أرسل ابنه عبد الله لغزو إيطاليا، وبنى إبراهيم الحصون والمحارس على الساحل، حتى كانت النار توقد في سبته بالمغرب للإنذار بمجيء العدو، فتوقد في تلك الليلة بالإسكندرية وهو الذي أسند طرابلس إلى موسى بن عبد الرحمن أبي الأسود المعروف بالقطان، صحب محمد بن سحنون وسمع منه، وكان يحسن المسائل والتكلم في الرأى على مذهب مالك وأصحابه ، ولاه إبراهيم بن أحمد قضاء طرابلس فبقي وأذى ، فعزله وحبسه في الكنيسة دهراً ثم أطلقه .

وقد أصيب إبراهيم – بعد ستة أعوام من ولايته كان فيها مثال الاستقامة – بحالة عصبية جنونية أتى فيها أعمالاً لا تتفق مع العقل ولا مع الإنسانية، فكان

يكثر القتل في أقاربه، وأبنائه وأخواته وخدمه وأنصاره، فقد قتل ابنه بين يديه صبراً، وقتل ثمانية أخوة له ضربت أعناقهم بين يديه، وقد ولدت له بنات أخفتهن عنه أمه خوفاً عليهن من القتل، وربتهن من غير أن يشعر بوجودهن، حتى اجتمع عندها ست عشرة بنتا كأنهن البدور، وقد بان منه مرة انشراحاً في نفسه وهدوءاً في أعصابه، فرأت - لهذه المناسبة - أن تزيده سروراً وانشراحاً وظنت أن علمه بهؤلاء البنات خير وسيلة لذلك، فقالت له : يا سيدي لقد ربيت لك وصائف ملاحاً، وأحب أن تراهن فقال: نعم فأتت بهن له، وسمتهن له واحدة واحدة حتى عددتهن له، وبعد انتهاء المجلس أخذتهن معها وخرجت، وكان ثمن هذه المقابلة حياة هؤلاء الفتيات الستة عشرة ، فإن أمه ما كادت تغيب عنه ومعها البنات حتى قال لخادم له أسود - وكان بجواره - اذهب إليهن وائتني برءوسهن فبهت الخادم فراجعه فهدده بالقتل إن لم يفعل، فذهب الخادم بالخبر إلى أمه، فذهلت وكادت تصعق وأمرت الخادم أن يراجعه، فأفهمها ألا فائدة من المراجعة، فذهب إليهن الأسود وقتلهن الستة عشرة ، وأتى برءوسهن معلقة من شعورها، وطرحها بين يديه ولا ندري أي المجرمين أقسى من صاحبه قلباً: إبراهيم الذي قسا قلبه وتحجرت عواطفه ؟ أم ذلك الأسود الذي كان أقسى جلاد على أولئك الفتيات المظلومات؟ (١) .

قلت : وأفعال إبراهيم هذه تدل على جاهلية متأصلة في نفسه وأنه كان جباراً عنيداً ويذكرني بقول الله تعالى: ﴿ **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ [النحل:٥٨-٥٩] .

توفي إبراهيم ليلة الثامن عشر من ذي القعدة سنة ٢٨٩ هـ وعمره اثنتان

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا: ٢٢٧-٢٢٨.

وأربعون سنة وكانت ولايته ٢٨ سنة وستة أشهر واثنا عشر يوماً [١] .

عاشراً: عبد الله بن إبراهيم الأغلب:

هو عبد الله الثاني، وكنيته أبو العباس، ولي بعد أبيه إبراهيم وكان شجاعاً عاقلاً، وفي سنة ٢٤٨ هـ - وفي حياة والده - خرج لمحاربة نفوسة، فقتل منهم كثيراً وأسر نحو ثلاثمائة، ولما رجع بهم إلى والده إبراهيم قتلهم عن أخرهم، وشق عن قلوبهم فأخرجها، وأخرج بعضها بيده ، ونظمت في حبال وعلقت على باب تونس.

قلت : وهذه الأفعال الشنيعة يرفضها الدين ولا تنسجم مع تعاليم الإسلام، وفيها انحراف شديد عن منهج الله، والله يعلم إنها لقسوة فظيعة.

وقتل عبد الله في شعبان سنة (٢٩٠هـ) غدر به الجند فقتلوه وهو نائم ويقال إن هذا الغدر بإيعاز من ابنه زيادة الله.

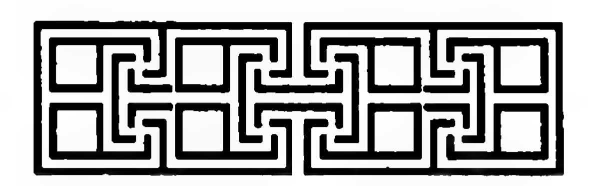

---

(١) المرجع السابق نفسه.

المبحث الثاني

العلامة الفقيه الزاهد

أبو حفص عبد الجبار بن خالد بن عمران السرتي

سمع من سحنون وأبي زكريا الحضري، وابن يجير، وحماد بن يحيي السجلماسي، وكان فقيهاً فاضلاً، زاهداً ثقة، طويل الصلاة وكان كثير الدعاء مجتهداً، ومن عقلاء الشمال الإفريقي وبلغ من العلم ما بلغه سحنون أو كاد إلا أن نفسه مالت للعبادة وفتح له فيها باب وكان كثير التلاوة للقرآن واشتغل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وله في ذلك نوادر ومُلَح.

عبد الجبار مع شاب :

خرج عبد الجبار من داره يوم الجمعة إلى صلاة الجمعة فإذا شاب جميل له هيئة حسنة ولباس جميل، وقد اتبع صبية يمشي خلفها فلما رآها عبد الجبار شق عليه ذلك فاتكأ برجله على رجله الأخرى فقطع شسع نعله وصاح يا شاب؟ فالتفت إليه فمشى إليه عبد الجبار، فوقف الفتى وقال له: ما لك؟ ، قال قد كبر سني، وضعف بصري، وقد انقطع شسع نعلي فاصلحه لي؟ ، فأصلحه ثم نظر عبد الجبار إلى الصبية وقد أمسكت في مشيتها فأخذ من الشاب النعل، وأدخله في رجله وتمادى الشاب في أثر المرأة فقطع عبد الجبار شسع نعله مرة ثانية فقطعه، ثم صاح: يا شاب ! يا شاب ، وكانت لعبد الجبار مهابة عظيمة فعاد إليه الشاب، فقال له أصلح النعل يا مبارك، فأصلحه إصلاحاً شديداً أظنك ما أصلحته إلا وأنت مستعجل. فأخذه الشاب وأصلحه فعطف عبد الجبار عليه وقال: يا شاب أنا قطعت النعل المرة الأولى والثانية، وإنما فعلت ذلك إشفاقاً عليك ورحمة لك وخفت والله يا بني على هذا الشباب الصبيح من لهيب النار

وبكى عبد الجبار وبكى الشاب ثم قال له: جزاك الله خيراً فوالله لا عدت إلى ما كان مني أبداً، ثم صحب عبد الجبار إلى الجامع ثم تاب وحسنت توبته وإنابته وكان من فضلاء أهل وقته (١).

قلت: وللدعوة إلى الله أساليبها والموفق من وفقه الله، وما دخل الرفق في شيء إلا زانه.

أسلوبه في دعوة الأمراء إلى الخير:

ذكر صاحب المنهل العذب أن إبراهيم بن الأغلب طهر أولاده فمضى أهل العلم، والمشايخ، ومشايخ القيروان لتهنئته وكان ممن مضى إليه عبد الجبار بن خالد فلما أتى إلى الأمير أكبره وعظمه وسر برؤيته فأخرج إليه أولاده فدعا لهم وَبَرَّك عليهم ثم قال: أيها الأمير: هل علمت مقدار هذه النعمة التي أنعم الله عليك بها؟ أعطاك بنين مثل هؤلاء علمتهم كتاب الله، وأحييت بهم سنة رسول الله ﷺ، وقد بلغني عنك أنك بالغت فيما عملت من الطعام للأغنياء.

فقال له: أجل! فقال له عبد الجبار: لو استكملت هذه المرة بأن تذكر الفقراء؟ فقال صدقت: وبررت. ثم دعا بكيس فيه خمسمائة دينار، ودفعه إلى عبد الجبار وسأله أن يفرقه على الفقراء والمساكين؟، فأجابه عبد الجبار إلى ذلك فسر به الأمير وخرج معه إلى باب القصر، وقال: احملوا الشيخ على دابته. وقال: والله لا برحت حتى تركب فركب عبد الجبار والأمير قائم. فلما ركب واستوى دابته وأصلح الغلمان ثيابه وانصرف. التفت الأمير إلى كاتبه رجاء بن محمد فقال: يا رجاء رأيت ما أعقله وما أظرفه؟، أتعرف في رعيتي مثله؟ إنه قضى ذمامنا، وتعافى من طعامنا وأخرج مالنا فيما يرضينا.

---

(١) المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب: ١/٧٣-٧٦.

قلت : كما قال الشاعر القاضي الإمام الجرجاني :

ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي　　لأخدم من لقيت ولكن لأخدم

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم　　ولو عظموه في النفوس لعظما

فتصدق عبد الجبار بالدنانير جميعاً على الفقراء والمساكين ولم يبق منها شيئاً .

من حكمه وأقواله :

كان يقول في الخلوة : كنت أخلو لأسلم، ثم صرت أخلو لأغنم، ثم صرت أخلو لأعلم، ثم صرت أخلو لأفهم، ثم صرت أخلو لأنعم.

ومن أقواله : من ترك رأيه، واتبع السُنن والآثار رجي له أن يلحق غداً بالأبرار، ومن اتبع رأيه وترك السُنن والآثار ، خفت عليه غداً أن يكون مأواه النار، ومن قل كلامه قلت آثامه. ومن أقواله : الصوم عن الكلام أفضل من الصوم عن الطعام ، ومن أقواله : من لزم لسانه؟ كثر في الدنيا والآخرة أمانه .وكان يقول : كل كلمة لم يتقدمها نظر، فالكلام فيها خطر ، وإن كانت من أسباب النظر.

قلت: وحكمه لو شرحت لكتب فيها الكثير.

نظرته في بر الوالدين :

من البر ألا يمشي الرجل أمام والده ومن بره أن يمشي أمامه في الظلام، ومعنى ذلك أن كلامه عام مخصوص، فيمشي أمامه حيث الحاجة لذلك كظلام أو طين أو لص أو غير ذلك .

توفي سنة ٢٨١هـ ودفن بباب سلم وصلى عليه حمديس القطان، وكان عبد الجبار بن خالد وحمديس القطان يضرب بهما المثل في الفضل والدين بإفريقية (١) .

---

(١) المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب : ١ /٧٨-٧٩ .

قلت : كما قال الشاعر القاضي الإمام الجرجاني :

ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي لأخدم من لقيت ولكن لأخدم

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما

فتصدق عبد الجبار بالدنانير جميعاً على الفقراء والمساكين ولم يبق منها شيئاً.

من حكمه وأقواله :

كان يقول في الخلوة: كنت أخلو لأسلم، ثم صرت أخلو لأغنم، ثم صرت أخلو لأعلم، ثم صرت أخلو لأفهم، ثم صرت أخلو لأنعم.

ومن أقواله: من ترك رأيه، واتبع السُنن والآثار رجي له أن يلحق غداً بالأبرار، ومن اتبع رأيه وترك السُنن والآثار ، خفت عليه غداً أن يكون مأواه النار، ومن قل كلامه قلت آثامه. ومن أقواله : الصوم عن الكلام أفضل من الصوم عن الطعام ، ومن أقواله: من لزم لسانه؟ كثر في الدنيا والآخرة أمانه .وكان يقول: كل كلمة لم يتقدمها نظر، فالكلام فيها خطر ، وإن كانت من أسباب النظر.

قلت: وحكمه لو شرحت لكتب فيها الكثير.

نظرته في بر الوالدين :

من البر ألا يمشي الرجل أمام والده ومن بره أن يمشي أمامه في الظلام، ومعنى ذلك أن كلامه عام مخصوص، فيمشي أمامه حيث الحاجة لذلك كظلام أو طين أو لص أو غير ذلك .

توفي سنة ٢٨١هـ ودفن بباب سلم وصلى عليه حمديس القطان، وكان عبد الجبار بن خالد وحمديس القطان يضرب بهما المثل في الفضل والدين بإفريقية [١] .

(١) المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب: ١ /٧٨-٧٩ .

المبحث الثالث

ولاية زيادة الله بن عبد الله الأغلب

هو زيادة الله الثالث، وكنيته أبو مضر ولي الحكم بعد قتل أبيه في شعبان ٢٩٠هـ، واتخذ رقادة عاصمة لملكه، وعين أخاه أحمد عاملاً على طرابلس، ووقف في وجوه الثوار حتى تغلب عليهم، واقتصّ من قتلة والده خوفاً من أن يقال إنه متواطئ معهم. وكان مسرفاً في اللهو والانغماس في الشهوات والملذات، واشتغل بما لا يفيد فكان ذلك سبباً في تغلب أعدائه عليه، وفي أيام زيادة الله هذا أراد الله زوال دولة الأغالبة فأصيبت في أيامه بالترف والانحلال . . وفي أيامه ظهر أبو عبد الله الداعي لدولة العبيديين وناصرته قبائل كتامة، فكان ما فيه زيادة الله من الانشغال واللهو والقعود عن واجبات الدولة من أقوى الأسباب التي مهدت لانتشار دعوة العبيديين وقد وقعت حروب بين الداعي وزيادة الله، كان أشدها واقعة الأربسي من أعمال الكاف بتونس وكانت الهزيمة فيها على زيادة الله، وقتل أكثر جنده، ولم يمكنه الصمود أمام هجمات الداعي، فجمع ماله وولده وهرب إلى مصر في ٢٦ من جمادى الآخرة سنة ٢٩٦هـوترك إفريقية تندب حظها من إهماله وسوء أعماله، وأرسل إلى أخيه أحمد في طرابلس فأخذه معه إلى مصر، واحتل أبو عبد الله الشيعي رقادة غرة رجب ٢٩٦هـواستولى على أكثر إفريقية، واستولى على مخلفات ابن الأغلب وكثير من الجواري على جانب كبير من الجمال، فسأل عمن كان يكفلهن فذكرت امرأة صالحة كانت لزيادة الله فأحضروها وأحسن إليها أمرها بحفظهن، ولم ينظر إلى واحدة منهن وأمر لهن بما يصلحهن هذا ما فعله أبو عبد الله الشيعي مع جواري ابن الأغلب.

أما عبد الله المهدي الزنديق زعيم الدولة العبيدية فإنه لما تسلم مقاليد الحكم

عرض جواري زيادة الله فاختار منهن كثيراً لنفسه ولولده وفرق ما بقي منهن على وجوه كتامة ، وكانت ولاية زيادة الله خمسة أعوام، وأحد عشر شهراً، وأربعة ايام، وبخروج زيادة الله من إفريقية انتهت دولة الأغالبة، وقد حكمت إفريقية مئة و إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر وتولى الحكم فيها أحد عشر أميراً، وأولهم مؤسسها إبراهيم بن الأغلب الأول، وأخرهم. زيادة الله الثالث، والملك لله يؤتيه من يشاء .

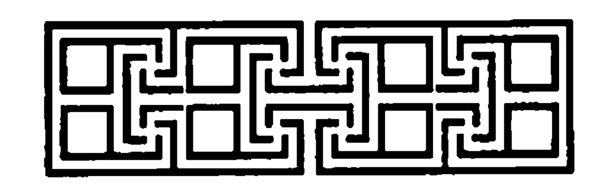

المبحث الرابع

أسد بن الفرات بن سنان [١]
من أشهر علماء دولة الأغالبة [٢]

مولى بني سليم أبو عبد الله (١٤٢-٢١٣ هـ على الصحيح) الفقيه المحدث، بلغ درجة الاجتهاد واسم الفقيه به ألصق رغم أن تلقيه للحديث كان أسبق وشيوخه فيه أكثر.

مولده ونشأته :

ولد أسد بحرَّان من ديار بكر سنة ١٤٢هـ وقدم به والده إلى القيروان سنة ١٤٤هـ وكانت نشأته موزعة بينها وبين تونس، وقد حفظ القرآن في سن مبكرة إذ كان يُعلِّمُ القران وعمره أقل من ١٨ سنة.

طلبه للعلم ورحلته :

أخذ أسد بإفريقية عن علي بن زياد (ت ١٨٣هـ) حيث سمع الموطأ وتلقى عنه أصول مذهب مالك ثم رحل إلى المشرق سنة ١٧٢هـ، وعمره ثلاثون سنة، فأعاد سماع الموطأ على الإمام مالك، الذي لاحظ شغف أسد، وحرصه على الطلب فأمر بإدخاله مع المصريين - وهم الفوج الثاني - بعد أن كان يدخل مع بقية الناس في الفوج الثالث، أما الفوج الأول فهم أهل المدينة، ثم إن أسداً كأنه استقلَّ الموطأ فاستزاد مالكاً من السماع، فقال له: حسبك ما للناس، فخشي أسد أن يطول به الأمر ويفوته ما رغب فيه من لقي الرجال والرواية عنهم، فأكثر من

---

(١) لقد نقلت حرفياً سيرة أسد بن الفرات والإمام سحنون من مدرسة الحديث في القيروان، وأثبت المصادر والمراجع التي رجع إليها في بحثي كما هي.

(٢) راجع المدارك: ١/٤٦٥، وفيات الأعيان: ٣/١٨٢، سير أعلام النبلاء: ١٠/٢٢٥.

إلقاء المسائل على مالك حتى ضاق به وقال له: إذا أردت هذا فعليك بالعراق، فارتحل إلى العراق حيث لقي تلاميذ أبي حنيفة فتفقه منهم وتعلم أصول مذهبهم، كما كتب الحديث هناك عن هشيم، ويحيى بن أبي زائدة، وغيرهما كما سيأتي في شيوخه، ولم يكتفِ أسد في رحلته بالأخذ فقد حدث بالموطأ، سمعه منه أبو يوسف، ومحمد بن الحسن صاحبا أبي حنيفة، وقد لازم أسد محمد بن الحسن، فكان يسمع منه بالنهار مع الناس وجعل الليل لأسد وحده حتى أتى على ما أراد من السماع منه كما أنه زامله في رحلة الحج ، واستفاد منه أثناءها استفادة كبرى (١) .

وقد كتب أسد عن محمد بن الحسن مسائل عديدة بعد أن ناظره فيها على قياس مذهب مالك، كما ورد في الحلل وغيره. واستمر قيام أسد في رحلته هذه إلى العراق جامعاً بين طلب والفقه وأدائهما إلى سنة ١٧٩هـ حين وصل نبأ وفاة مالك إلى بغداد ورأى أسد إقبال الناس على كل من يحدث عن مالك، فسأل عن ذلك فقال له محمد بن الحسن: كان والله أمير المؤمنين في الآثار، قال عياض والشيرازي وغيرهما: فندم أسد على ما فاته من الأخذ عن مالك وجمع أمره على الانتقال إلى مذهبه، فقدم مصر وقال: إن كان فاتني لزوم مالك فلا يفوتني لزوم أصحابه (٢) .

فرحل إلى مصر ولقي كبار أصحاب مالك بها مثل: عبد الله بن وهب ، وأشهب، وعبد الله بن عبد الحكم، إلا أنه اختص بعبد الرحمن بن القاسم، الذي تجاوب معه فأعاد عليه المسائل التي كتبها عن محمد بن الحسن ، ليجيبه عنها بقول مالك ، فأجابه عن معظمها من حفظه ، ولم يجزم في الجواب عن بعضها وقد بلغت ستين كتاباً ، وهي المعروفة بالأسدية ، ثم عاد أسد إلى

---

(١) المدارك : ١/ ٤٦٦، والرياض: ١/ ٢٨٥.

(٢) المدارك : ١/ ٤٦٦، طبقات الفقهاء: ١٥٥.

القيروان سنة ١٨١هـ [١] .

وقد حُقَّ لأسد بعد الرحلة العلمية الشاقة الحافلة بالفوائد والتي دامت عشر سنوات، تنقل فيها بين المدينه، ومكة وبغداد والكوفة والفسطاط في طلب العلم حق له أن يقول: ضربنا آباط الابل، واغتربنا في البلدان ولقينا العلماء وغيرنا إنما طلب العلم خلف كانون أبيه ووراء منسج أمه ويريدون أن يلحقوا بنا، كما قال المالكي وغيره [٢] .

شيوخه:

لقد كان أسد شغوفاً بطلب العلم حريصاً على لقي الرجال والراواية عنهم كما وصفته المصادر وكما أوضحته فيما تقدم، ولذلك كثر شيوخه كثرة ظاهرة، وفيما يلي أشهرهم:

- أبو بكر بن عياش (ت ١٩٤ هـ) محدث ثقة من العباد.
- أسد بن عمرو البجلي (ت ١٩٠ هـ) وهو فقيه محدث لا بأس به.
- أشهب بن عبد العزيز (ت ٢٠٤ هـ) محدث من الثقات.
- جرير بن عبد الحميد الضبي (ت ١٨٨ هـ) محدث من الثقات.
- عبد الرحمن بن القاسم العتقي (ت ١٩١ هـ) فقيه محدث ثقة مأمون من كبار أصحاب مالك.
- عبد الله بن وهب (ت ١٩٧ هـ) محدث حافظ فقيه من العباد.
- علي بن زياد التونسي (ت ١٨٣ هـ) فقيه بارع، ومحدث ثقة أول من أدخل الموطأ وجامع الثوري إلى إفريقية والمغرب.
- مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ) الإمام أمير المؤمنين في الحديث.

---

(١) الديباج:٩٨، المدارك: ١/ ٤٨٠ .

(٢) الرياض: ١/ ٢٦٧ .

- محمد بن الحسن الشيباني ، أحد الفقهاء كان من بحور العلم في الفقه والحديث.
- هشيم بن بشير (ت ١٨٣ هـ) محدث ثقة ثبت [١] .
- يحيى بن زكريا بن أبي زائدة (ت ١٨٣ هـ) محدث ثقة متقن.
- يعقوب بن إبراهيم أبو يوسف القاضي (ت ١٨٢ هـ) صاحب أبي حنيفة من أتباع أهل الرأي للحديث.

وهكذا نلاحظ أن اغلب شيوخ أسد كانوا كبار المحدثين الثقات والفقهاء المتضلعين فلا عجب أن كان تلميذهم من بحور العلم.

علمه بالحديث والرجال :

إن المادة العلمية التي بين أيدينا تفيدنا أن أسداً كان من كبار المحدثين القرويين، وما تقدم عن طلبه للعلم يؤيد ذلك، إلا أن الباحثين لم يسبق لهم إبراز هذا الجانب، واكتفوا بالإشارة إلى علمه بالفقه ، حتى كادت تضيع شخصيته كمحدث، ولعل من أهم أسباب إغفالهم لهذا ما عرف عن أسد من الميل إلى المناظرة في الأحكام الشرعية، وإعمال الذهن وكثرة المساءلة كما مر، وكذلك لما جاء في بعض الكتب من وصفه بأنه حنفي المذهب، يميل إلى الرأي، هذا بالإضافة إلى عدم وجود من اعتنى بدراسة كافية في إبراز علم الحديث في إفريقية في هذه المرحلة.

ولكن الذي اتضح لي [٢] أن التكوين الحديثي أبرز من التكوين الفقهي في حياة أسد ، فقد ابتدأ حياته العلمية بسماع الموطأ من علي بن زياد (ت١٨٣ هـ) في سن مبكرة كما تقدم، ثم أعاد سماعه مباشرة من الإمام مالك، ولما رحل إلى

---

(١) انظر : المعالم: ٢ / ٥ ، اعلام ابن عاشور: ٢٦-٢٧.
(٢) الكلام لصاحب مدرسة الحديث في القيروان.

العراق كان في مستوى يؤهله لتدريس الحديث فأسمع بها الموطأ، وكتب الحديث عن أسد : ابن عمرو، وجرير بن عبد الحميد الضبي كما تقدم، وسمع منه هشيم اثني عشر ألف حديث، ومن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عشرين ألف حديث، وهؤلاء من المحدثين الأثبات كما تقدم، وكذلك فإن سماعه من محمد بن الحسن لم يقتصر على الفقه والرأي، فإن محمداً يُعد من كبار أهل الحديث كما يظهر من خلال شيوخه، ومن خلال كاتبي الآثار، والحجة في الرد على أهل المدينة بالإضافة إلى ما وصف به في المصادر من كثرة طلب الحديث واشتهار روايته للموطأ حتى اليوم (١) .

كما أن سماع أسد في مصر من أصحاب مالك يفترض أن يكون فيه حديث كثير، لأنهم من الرواة، وهذه الحصيلة الحديثية كافية لجعل أسد على قمة محدثي القيروان حيث أننا لا نكاد نعثر على من ظفر بمثل شيوخه، كثرة وحفظاً وإتقاناً وسعة في الرواية ومما يدل على علم أسد بالرجال وتتبعه للأسانيد قوله : أهل الكوفة إذا أرسلوا في الرواية عن عبد الله فهو ابن مسعود، وأهل المدينة إذ أرسلوا عن عبد الله فهو ابن عمر . كما في الرياض، وهذا الخبر وإن كان يتيماً في بابه إلا أنه يشعرنا بمدى إتقان أسد لإطلاقات القوم ، وما درجوا عليه في أسانيدهم من التسميات ولا شك أنه كان يُعلِّم ذلك لطلابه حتى أنتقل إلينا .

أما قلة الآثار في الأسدية : فلا يقدح في علم أسد بالحديث، لأن الأسدية ليست كل علم أسد ، ثم أن تصنيفها قد خضع لظروف خاصة ، حيث كانت بدايتها مناظرات بينه وبين محمد بن الحسن، ثم سأل عنها ابن القاسم وأراد شيئاً محدداً وقول مالك فيها، وهو طلب معقول إذ ليس من اليسير على ابن القاسم وهو يجب عنها مشافهة من حفظه أن يستحضر دليل أكثر من ثلاثين ألف مسألة

---

(١) انظر : عن جانبه الحديثي مقدمة كتابه الآثار : ١٢ وما بعدها.

اشتملت عليه الأسدية [١].

توثيقه :

أسد بن فرات إمام من أئمة المسلمين، بلغ درجة الاجتهاد واستفاضت شهرته، وشاعت إمامته، وقد وسمه الذهبي في سير أعلام النبلاء بقوله: (الأمام العلامة القاضي الأمير) [٢].

وقال أبو العرب :

(كان ثقة لم يكن فيه شيء من البدع) وقال صاحب الشجرة : (الفقيه الحافظ، الراوية ، الثقة الأمين) .

أثره العلمي والحديثي في القيروان وتلاميذه :

عاد أسد إلى القيروان بعلم جم في الحديث والفقه وغيرهما، وجلس للتدريس بجامع عقبة، فأقبل عليه الطلاب ورحلوا إليه من أطراف إفريقية والمغرب والأندلس،واشتهر أمره، وظهر علمه،وارتفع قدره، وانتشرت إمامته، حتى أن الأسئلة كانت ترد عليه من خارج القيروان وكان ربما أجاب عنها كتابة) [٣].

وقد أقبل حال عودته على رواية الموطأ وغيره من حديثه ولم يكتفي بمجرد الإسماع، بل كان له مجلس يفسر فيه الحديث كما يستفاد من عدة نصوص في المعالم، والرياض والمدارك وغيرها.

كما أخذ عنه الناس الأسدية وشاعت روايتها قبل ظهور المدونة ومن الكتب التي أدخلها أسد ورواها في القيروان سماع بن القاسم من مالك وكتاب المبسوط لمحمد بن الحسن، وحمل عنه معظم أهل المغرب مروياته حتى كانت كتبه تروى

---

(١) انظر: ط الفقهاء: ١٥٦، المدارك: ١/ ٤٦٩.
(٢) سير أعلام النبلاء: ١٠/ ٢٢٥.
(٣) الرياض: ١/ ٢٥٥.

بالأندلس وكثر أصحابه حتى عدوا بالعشرات وأصبح عالم القيروان بلا منازع، قال محمد بن سحنون: (وحصلت له بتلك الكتب رئاسة في القيروان كما في الرياض والمدارك وغيرها).

وقد عرف أسد بنشره للسُنَّة ومنافحته عنها خارج حدود إفريقية فقد أرسل له أسد السُنَّة (ت ٢١٢ هـ) من مصر رسالة طويلة يشكره فيها على اتباع السُنَّة والذب عنها ويدعوه إلى نشرها، واتخاذ أتباع يقومون مقامه بعد وفاته وقد كانت هذه الرسالة تروى بالأندلس، ولا شك أنها كانت تروى بالقيروان من باب أولى، ولم يكن علم أسد قاصراً على رواية الحديث والفقه، بل كان يلقي التفسير أيضاً، إذ كان يسمع الطلاب تفسير المسيب بن شريك (ت ١٨٦ هـ) وله مجالس في ذلك ولا شك أن هذا الكتاب مما أدخله أسد معه لأن المسيب من شيوخه كما في طبقات أبي العرب وغيره [١].

ولم يكن أسد في دروسه يتقيد بكتب مذهب دون أخر، وإنما قام بنشر علم المذهبين لسعة علمه فيهما، فكثير من تلاميذه من المالكية والأحناف على السواء ومن أشهرهم الأمام سحنون بن سعيد، وأبو سنان زيد بن سنان الأسدي من المالكية، ومعمر بن منصور، ومحمد بن قادم، وسليمان بن عمران من الأحناف. وقد تقدم أنه كان له أثر علمي أثناء رحلته في المشرق حيث حدث في العراق بالموطأ وناظر بعض علمائها.

مذهبه وعقيدته:

لقد اختلف المصنفون في هذه المسألة فمنهم من اعتبره مدون مذهب مالك وناشره في المغرب، ومنهم من اعتبره إمام الأحناف في القيروان، وقد تبين لي بعد البحث والنظر أنه كان في البداية مالكياً، ثم انتقل إلى طريقة الأحناف في الفترة

(١) طبقات ابي العرب: ٥/١٦٤.

الطويلة التى بقيها في العراق، ثم عاد إلى المذهب المالكي بعد وفاة مالك، وأعاد صياغة مسائله لمحمد بن الحسن على فقه مالك بسؤاله لابن القاسم كما ألمحت إلى ذلك .

ثم بعد ذلك بلغ أسد درجة الاجتهاد، فلم يكن يلتزم رأي واحد من المذهبين، إنما يعمل ويفتي بما يوصله إليه اجتهاده بناء على الدليل، وأصدق كلمة قيلت فيه فيما بين يدي من المصادر هي قول المالكي [(١)] :

(والمشهور عن أسد أنه كان يلتزم من أقوال أهل المدينة وأهل العراق ما وافق الحق عنده، ويحق له ذلك لاستبحاره في العلوم، وبحثه عنها، وكثرة من لقي من العلماء والمحدثين)، ولذلك نجده ينشر علوم المذهبين فقد ورد في الرياض وغيره: (إن أسداً إذا سرد أقوال العراقيين، يقول مشايخ كانوا يجالسونه ممن يذهب مذهب أهل المدينة. أوقد القنديل الثاني يا أبا عبد الله) فيسرد أقوال المدنيين، وكان أسد من أكبر أسباب شيوع علم الأحناف في القيروان لكثرة ملازمته لأصحاب أبي حنيفة، فلم يسبق أن دخل القيروان من تضلع في مذهبهم مثله، وإن كانت بذور المذهب قد وجدت قديماً على يد عبد الله بن فروخ (ت ١٧٥ هـ) كما مر في التمهيد، ولذلك أقبل الأحناف على مجالسه وتتلمذوا عليه وعدوه إمامهم، خاصة وأن إعراض الناس عن الأسدية قد دفعه لإسماع كتب الأحناف بعد شيوع المدونة. وقد وردت عدة نصوص في الرياض والمعالم والمدارك تفيد أن أسداً كان يشير على من يستنصحه باتباع مذهب مالك [(٢)] .

أما من الناحية العقائدية فقد كان كما قال المالكي وغيره: (دينه ومذهبه السُنَّة يقول القرآن كلام الله ليس بمخلوق ، وكان يبدِّع من يقول غير ذلك ،وكان

---

(١) الرياض: ١ / ٢٦٣ .

(٢) **انظر** : مثلاً : المدارك ٣ / ٩٧ ، سير أعلام النبلاء: ١٠ / ٢٢٥ .

يقول إن الله على العرش استوى بلا كيف، ويرى في الأخرة كيف يشاء لا كما يشاء العباد، ويكفر من يمنع ذلك).

أسد في القضاء وإمارة الجيش :

تولى أسد قضاء قيروان سنة ٢٠٣ هـ مشتركاً في ذلك مع أبي محرز القاضي (ت ٢١٤ هـ) وهما أول قاضيين اشتركا في هذا المنصب فسار في الناس بالعدل، واستمر فيه إلى سنة ٢١٢ هـ ، حين عُين أميراً على غزوة صقلية ففتح أكثرها وبنى فيها مسجداً وله بها مقامات مشهورة، وتوفي هناك سنة ٢١٣ هـ .

مؤلفاته :

له كتاب الأسدية : وهو مجموعة المسائل التي دونها عن محمد بن الحسن بعد أن ناظره فيها، ثم سأل عنها ابن القاسم فأجابه عن أغلبها بقول مالك من حفظه، وما لم يتأكد منقول مالك فيه، قال: أظن وأخال وهي ستون كتاباً، توجد منها أجزاء في مكتبة جامع القيروان (١) .

وقد أعاد سحنون سماعها على ابن القاسم وحذف منها أظن وأخال ونحوهما ورتبها وذيلها بالآثار وسميت المدونة فمال الناس إليها وهجروا الأسدية (٢) .

من حديثه :

أسد عن مالك عن سهيل عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال :انظروا هذين حتي يصطلحا»**(٣) .

---

(١) انظر: المكتبة الأثرية: ٣٨ .

(٢) انظر: التعريف بالمدونة في المصنفات.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من طريق مالك بلفظه، باب النهي عن الشحناء: ٤/١٩٨٧-٢٥٦٥، وأخرجه الترمذي بنحوه في كتاب البر، وجاء في ا لمتهاجر من: ٤/٣٧٣/٢٠٢٣، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح ، وأخرجه أبو داود بنحوه في كتاب الأدب، باب فيمن يهجر اخاه: ٥/٢١٦/٤٩١٦، ويلتقي حديث الترمذي وأبي داود مع حديثنا في سهيل بن أبي صالح.

المبحث الخامس

سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي
أبو سعيد الإمام (١٦٠-٢٤٠هـ)

اسمه عبد السلام، ولقب بسحنون [١] وهو اسم طائر في المغرب، لحدة ذهنه وذكائه، أصله من عرب الشام، قدم به أبوه مع جند حمص. وهو إمام أهل إفريقية والمغرب بلا منازع، فقيه محدث قاض مُفْت حمل لواء أهل السنة والجماعة بتلك الربوع وقاوم البدع، ودون مذهب مالك ونشره مع زهد وورع وتعفف وكثرة صدقه ومعروف وهو أحد الآحاد. والإمام سحنون غلب عليه اسم الفقيه والتصق به، وأغفل الجانب الحديثي عنده رغم تضلعه فيه واهتمامه به وكثرة شيوخه فيه كما سيأتي.

طلبه العلم ورحلته :

أقبل سحنون على طلب العلم في سن مبكرة وسرعان ما نبغ فيه، وتوسم فيه شيوخه النجابة وإخلاص الطلب لله عز وجل، وقد سمع الحديث والفقه من جلة شيوخ عصره بالقيروان مثل معاوية الصمادحي المحدث (ت ١٩٩ هـ) والبهلول بن راشد (ت ١٨٣ هـ) الجامع بين الفقه والحديث وأسد بن فرات (ت ٢١٣ هـ) وابن غانم (ت ١٩٠هـ) وغيرهم، ورحل إلى تونس عدة مرات فسمع الموطأ من علي بن زياد، وتعلم عليه أصول مذهب مالك وكان يختلف إليه كلما وجد نفقة وكان البهلول بن راشد المحدث الزاهد التقي قد تفرس في سحنون الإخلاص،والحرص على الطلب فكتب إلى علي بن زياد كتاباً يوصيه فيه بسحنون،ومما جاء فيه :(إني إنما أكتب إليك في رجل يطلب العلم لله عز وجل).

---

(١) التمهيد : ١/ ٩٦، تاريخ المغرب العربي: ٢/ ٨٦.

قال المالكي : (فلما قرأه قال لسحنون أين نزلت؟ فأخبره، قال أخذ علي بن زياد الموطأ فأتى به إلى سحنون ليسمعه في موضعه الذي نزل به وقال إن أخي - يعني البهلول - كتب إلي يعلمني أنك إنما تطلب العلم لله تعالى [١] .

كما سمع بتونس الحديث من عبد الملك بن أبي كريمة المحدث، وأخذ الفقه عن أبي مسعود بن أشرس التونسي صاحب الإمام مالك. وبعد أن تلقى سحنون عن أكثر من اثني عشر شخصاً من كبار علماء إفريقية - كما سيأتي - رحل إلى المشرق للأخذ عن علمائه، ويلاحظ الباحث أن هناك اضطراباً في المصادر فيما يتعلق برحلة سحنون إلى الشرق، فأكثر المصادر على أنه ارتحل سنة ١٨٨ هـ وعاد سنة ١٩١ هـ وبعض من أورد هذا التاريخ أورد أيضاً عن سحنون أنه قال : (خرجت إلى ابن القاسم وأنا ابن خمس وعشرين سنة وقدمت إفريقية ابن ثلاثين سنة) [٢] .

وهذا لا يستقيم مع التواريخ المذكورة، ونظرا لثبوت عودة سحنون سنة١٩١هـ وهذه السنة التي توفي فيها ابن القاسم، وقد سمع منه فيها أهل أجدابية، كما صرح بعد ذلك سحنون نفسه، فإن تاريخ الخروج يكون غير ما ورد في المصادر، خاصة وقد ذكر عياض : أنه سمع ممن توفي قبل سنة ١٨٨ هـ فإذا جمعنا بين هذا القول وبين ما ورد عن سحنون من أن رحلته دامت خمس سنوات نقول بأن تاريخ خروجه كان سنة ١٨٦ هـ أو السنة التي تليها، وقد ورد عن محمد بن سحنون، وهو العالم بأحوال والده، أن سحنون ارتحل سنة ١٧٨ هـ ، في حياة مالك، كما ورد عن سحنون نفسه أنه قال : (كنت عند ابن القاسم وجوابات مالك ترد عليه) فقيل له : فما منعك من السماع منه؟ قال قلة الدراهم [٣] .

---

(١) الرياض : ١ / ٣٥٠ .

(٢) انظر مثلاً : المدارك : ١ /٥٨٧ ، الديباج : ١٦١ .

(٣) انظر : وفيات الأعيان : ٣ / ١٨٠ ، الديباج : ١٦٠ .

وبناء على هذا يكون لسحنون رحلتان إلى المشرق ، وكانت أولاهما سنة ١٧٨ هـ ولم يتجاوز فيها مصر لعدم وجود ما يكفيه من النفقة كما تقدم وكان عمره إذ ذاك ١٨ سنة، ولا نعلم الزمن الذي استغرقته هذه الرحلة ، ويستبعد أن تكون قد طالت، أما رحلته الثانية – والتي استمرت خمس سنوات – فكانت بين سنتي (١٨٦ – ١٩١ هـ) وقصد سحنون في رحلته مصر، فسمع بها من كبار المحدثين والفقهاء، ولقي كبار أصحاب مالك فقد أعاد سماع الموطأ على ابن القاسم، وابن وهب وسمع من ابن وهب جميع كتبه: الجامع وغيره، إلا المغازي فقد أخذها عنه إجازة، فكان بعد ذلك يقول: كادت تفوتني كتب ابن وهب، وبالله ما تشتري بكتاب منها الدنيا وما فيها وما عميت عن مسألة قط إلا وجدت فرجها في كتب ابن وهب (١) .

وسمع من أشهب حديثاً كثيراً أخرجه في المدونة عندما ذيلها بالآثار، كما أخذ عنه كتب الحج، وغيرها في الفقه، وسمع من غيرهما من شيوخ مصر، كما سيأتي في شيوخه، غير أن اختصاصه كان بابن القاسم: تفقه به وأعاد عليه سماع الأسدية، وكان لا يكاد يفارقه (٢) .

وبعد أن أدرك سحنون غرضه من أهل مصر رحل إلى الحجاز ورافق في رحلته أشهب وابن وهب وابن قاسم، وكانت سفرة علمية عجيبة، استفاد فيها سحنون من هؤلاء العلماء أيما استفادة، فقد كانوا يلقون العلم ويتحاورون فيه، وهم على دوابهم، فإذا نزلوا أمضى سحنون وقت نزوله في القراءة على ابن القاسم، فإذا جاء الليل قرنوا أقدامهم للصلاة قال سحنون عن هذه الرحلة: كنا نمشي بالنهار، ونلقي المسائل ونحن مشاة، وقال: فكنت إذا نزلت ذهبت إلى ابن القاسم أسأله من الكتب وأقرأ عليه إلى قرب وقت الرحيل. وقال فإذا كان الليل ونزلت الرفقة

---

(١) انظر مثلاً: الرياض: ١ / ٣٧٣ ، المكتبة الأثرية: ٣٤،٣٩،٤٠ ، مناقب أبي إسحاق: ٥٥ .

(٢) لا يكاد مصدر يخلو من الإشارة إلى ذلك، راجع المصادر المثبتة في أول ترجمة .

قام كل واحد إلى حزبه من الصلاة [١] .

وسمع سحنون بالمدينة المنورة من جماعة من المحدثين والفقهاء، منهم أنس بن عياض الليثي، والمغيرة بن عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة، وابن الماجشون وغيرهم كما سمع في مكة المكرمة من كبار المحدثين كسفيان بن عيينة له عنه من الحديث سماع سنتين وعبد الرحمن بن مهدي ووكيع وغيرهم، وسمع بالشام من محدثيها: الوليد بن مسلم وغيره كما سمع من جماعة من أهل الكوفة والبصرة، كأبي داود الطيالسي صاحب المسند، وحفص بن غياث القاضي وغيرهما، ولم تذكر المصادر دخوله إلى العراق فلعله التقى بهم في أحد الحرمين.

ولقد جمع سحنون في رحلته علماً عظيماً، واستقصى فيها جميع آثار مالك، وكبار الرواة حتى أنه قال لابنه محمد عندما أراد أن يرحل إلى المشرق: إنك تقدم طرابلس وكان فيها رجال مدنيون ومصريون بها الرواة، والمدينة وهي عش مالك ثم تقدم مكة فاجتهد جهدك فإن قدمت علي بلفظة خرجت من دماغ مالك ليس عند شيخك أصلها فاعلم أن شيخك كان مفرطاً [٢] .

شيوخه:

لقد تعدد شيوخ سحنون والتقى من كل بلد بكبارها وأكثر شيوخه من أهل الحديث وقد عرف من شيوخه الأفارقة اثنا عشر رجلاً تسعة منهم من أهل القيروان وثلاثة من أهل تونس فأما القرويون منهم:

- أسد بن الفرات (ت ٢١٣ هـ) البهلول بن راشد (ت ١٨٣ هـ) عبد الله بن أبي حسان (ت ٢٢٦ هـ) وهو محدث فقيه لغوي من الرواة عن مالك، شقران بن علي (ت ١٨٦ هـ) كان عالماً بالفرائض وهو من الثقات ، عنبسة بن خارجة

---

(١) انظر: الرياض: ١ / ٣٤٩، المدارك: ١ / ٥٨٨ .

(٢) الرياض: ١ / ٣٥٣، المدارك: ٢ / ٥٢١، المعالم: ٢ / ٨٣، إلا أنه في الرياض عن سليمان بن سالم بدل محمد ابن سحنون .

(ت ٢١٠ هـ) وهو محدث فقيه من تلاميذ مالك وله عنه سماع مدون معاوية ابن الفصل الصمادحي (ت ١٩٩ هـ) وهو من ثقات محدثي القيروان معدود في شيوخها عبد الله بن عمر بن غانم (ت ١٩٠ هـ) محدث فقيه روى الموطأ عن مالك إبراهيم بن زرعة الرغيني (ت ٢١٢ هـ) وهو أندلسي نزل القيروان وعده أبو العرب من ثقات شيوخها، وحبيب أخو سحنون وهو من الثقات، جُلُ شيوخه من المحدثين ولقد لحق عبد الرحمن بن زياد وسمع عنه [(١)].

■ **وأما أهل تونس فهم**: علي بن زياد (ت ١٨٣ هـ) وهو محدث، فقيه وكان أول من أدخل الموطأ وجامع الثوري إلى إفريقية أبو مسعود بن أشرس، وهو محدث فقيه، ثقة، سمع من مالك وعبد الله بن أبي كريمة (ت ٢١٠ هـ) وهو محدث ثقة، عابد [(٢)].

■ **أما شيوخه من أهل المشرق**: فقد عثرت منهم على ثلاثة وعشرين رجلاً منتشرين في مختلف المصادر، وهم من كبار علماء زمانهم في الفقه والحديث.

[١] أشهب بن عبد العزيز القيسي (ت ٢٠٤ هـ) وهو فقيه محدث ثقة، وقد أكثر سحنون الرواية عنه في المدونة [(٣)].

[٢] أنس بن عياض الليثي (ت ٢٠٠ هـ) وهو محدث ثقة روي عنه في المدونة.

[٣] أيوب بن سويد الحميري (ت ٢٠٢ وقيل ١٩٣ هـ) صدوق يخطئ.

[٤] حفص بن غياث (ت ١٩٤ أو ١٩٥ هـ) محدث فقية ثقة.

[٥] سعيد بن داود الزبيري (ت ٢٢٠ هـ) صدوق له مناكير.

[٦] سفيان بن عيينة (ت ١٩٨ هـ) أحد أئمة الحديث الثقات.

---

(١) أبو العرب: ٥/١٧٩، المعالم: ٢/١٠٤.

(٢) التهذيب: ٦/٤١٨، الرياض: ١/٣٢٣.

(٣) التقريب: ١/٨٠، الشجرة: ١/٥٩، وانظر المدونة: ٢/٢٢٨، ٣/٢.

[٧] سليمان بن داود الطيالسي (ت ٢٠٤ هـ) صاحب المسند، أحد الحفاظ الثقات.

[٨] شعيب بن الليث بن سعد (ت ١٩٩ هـ) محدث ثقة.

[٩] طليب بن كامل المرادي، وقيل عبد الله (ت ١٧٣ هـ) من كبار أصحاب مالك.

[١٠] عبد الرحمن بن القاسم (ت ١٩١ هـ) وهو أخص شيوخ سحنون كما تقدم.

[١١] عبد الرحمن بن مهدي (ت ١٩٨ هـ) ثقة ثبت عارف بالرجال والحديث.

[١٢] عبد الله بن الحكم (ت ٢١٤هـ) شيخ مصر في وقته،فقيه وَثَّقَهُ أبو زُرْعة.

[١٣] عبد الله بن نافع الصائغ (ت ٢٠٦ هـ) ثقة صحيح الكتاب.

[١٤] عبد الله بن وهب القرشي (ت ١٩٧ هـ) ثقة حافظ عابد، وقد اكثر سحنون عنه في المدونة.

[١٥] مطرف بن عبد الله اليساري (ت ٢٢٠ هـ) محدث فقيه ثقة.

[١٦] معن بن عيسى القزاز (ت ١٩٨ هـ) ثقة ثبت أثبت أصحاب مالك.

[١٧] المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي (ت ١٨٦ أو ١٨٨ هـ) فقيه المدينة ومفتيها بعد مالك.

[١٨] وكيع بن الجراح (ت١٩٦ هـ) أحد الحفاظ الثقات وكان عابداً.

[١٩] الوليد بن مسلم (ت ١٩٤ هـ) محدث ثقة كثير الحديث يدلس.

[٢٠] يحيى بن سليم الطائفي (ت ١٩٣ هـ) محدث صدوق سيئ الحفظ.

[٢١] يزيد بن هارون الواسطي (ت ٢٠٦ هـ) ثقة متقن عابد.

[٢٢] يوسف بن عمرو الفارسي (ت ٢٠٥ هـ) صدوق صالح، فقيه مفت.

[٢٣] أبو إسماعيل وقيل أبو إسحاق الأزرق .

وقد وهم صاحب الأنساب حين عده من تلاميذ مالك وتبعه صاحب اللباب، وصاحب معجم البلدان، وكذا وهم في ذلك ابن حبان في الثقات والخليلي في الإرشاد [١] .

سحنون المحدث :

ان تدوين سحنون لمسائل المذهب المالكي وانتشارها عنه في آفاق إفريقية والمغرب والأندلس وحمله لواء المالكية في تلك الربوع، كل هذا جعل منه فقيهاً بالدرجة الأولى في أعين الناس، وأدى ذلك إلى غمط جانب الحديث حقه في شخصية سحنون، مع أنه جانب عظيم الأهمية وقد برع فيه سحنون في المشرق من ثلاثة وعشرين شيخاً كما تقدم – منهم واحد وعشرون من رجال الكتب الستة، وأكثرهم من كبار المحدثين الحفاظ الثقات، الذين أتقنوا رواية الحديث وعلم الرجال، وكان لذلك أبعد الاثر في شخصية سحنون وتكوينه الحديثي، وكذلك فان أكثر شيوخه القرويين من المحدثين والمشاركين في الحديث كما تقدم وقد كان المحدث الحافظ أبو العرب التميمي (٣٣٣ هـ) يعرف هذا الجانب عند سحنون ولذلك نجده عندما ذكر شيوخه فصل بين من لقيهم فى الفقه ومن لقيهم فى الحديث ومثل للفقهاء باثنين فقط بينما نجده يمثل للمحدثين من كبار الرواة [٢] .

لقد تعددت مرويات سحنون في الحديث فقد سمع الموطأ بأربع روايات:

رواية ابن زياد ورواية ابن القاسم ورواية ابن وهب كما تقدم وروايه ابن غانم كما سمع جامعي سفيان الثوري الكبير والأوسط من شيخيه علي بن زياد

(١) انظر : الأنساب اللباب، معجم البلدان، ثقات ابن حبان، الإرشاد في المواضع المثبتة أول الترجمة.

(٢) انظر : طبقات أبي العرب : (٥ / ١٨٤-١٨٥) .

وعنبسه بن خارجة الذين أدخلاهما الى القيروان وسمع جامع عبد الله بن وهب في الحديث وكان له عن سفيان بن عيينة سماع سنتين كما تقدم وسمع من أشهب رقائق الفضيل بن عياض [١] هذا عدا ما سمعه من بقية شيوخه من الأحاديث التي لم تجمع في مصنفات.

إن عمل سحنون في المدونة يعد من أبرز ما يدل على تمكنه من الحديث كما يدل على توجهه المبكر لهذا العلم، فإن من أهم أسباب حرص سحنون على إعادة سماع الأسدية من ابن القاسم خلوها من الآثار، وقد كان عازماً على تكميل هذا النقص قبل رحيله، ولذلك أقبل على رواة الحديث إقبالاً كبيراً، فلذلك عاد الى القيروان وبوب مسائل الأسدية وذيلها بالآثار إلا مسائل متفرقة بقيت على أصل اختلاطها وقد ورد في بعض صفحات المدونة نقلاً عن القاضي عياض أن عدد أحاديث المدونة أربعة آلاف حديث. خرَّج منها أحد الباحثين (٥٥١) حديثاً ، وجاءت النتيجة ناطقة بإمامة سحنون في الحديث أيضاً إلى جانب إمامته في الفقه، حيث ذكر الباحث أن عدد (٣٨١) من هذه الأحاديث وردت في الصحيحين و (١٣١) حديثاً في درجة الحسن و ٧٠ ضعيفة ضعفاً منجبراً ، (٩ أحاديث ضعيفة جداً) ثم قال: لم أقف في المدونة على حديث موضوع [٢].

لقد كان الإمام سحنون حريصاً على سلامة السُنَّة من التحريف عاملاً على تنقيتها من الشوائب مقاوماً للتدليس لا يقبل الحديث بدون إسناد ، **ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:**

■ قال سليمان بن سالم – وهو أحد كبار تلاميذ سحنون –: (كنت قاعداً قدام سحنون، وهو يقرأ كتاب الترغيب من جامع ابن وهب، فرددت عليه حديثاً

---

(١) ابن خير: ٢٦٩.

(٢) تخريج أحاديث المدونة، للدكتور ظاهر حمد الدريدي: ٢/١٠٨٦.

هو في كتابي ولم يكن في كتابه فقال لي: اقرأ الحديث، فلما قرأته أنكره وصاح علي وقال: من أين دخل هذا الحديث في كتابك؟ فأمسكت ولم أرد عليه، فكلمه محمد ولده وقال: أصلحك الله، الكتب تختلف، فقال لي: اطرح الحديث من كتابك فخططت عليه بالقلم وهو ينظر فقال: زد خطاً عليه، فطمسته كله.

رأى سحنون كتاباً مع أحد الطلبة فيه حديث يرويه حمد بن رزين القروي (ت٢٥٥هـ) عن عبد الله بن نافع، فأرسل إليه فلما جيء به قال له: أنت سمعت من ابن نافع؟، فقال: أصلحك الله إنما سمعت من ابن نافع الزبيري فقال له سحنون: لم دلست؟ ثم قال ماذا يخرج بعدي من العقارب [1].

وهكذا لم يرض سحنون إلا تقييد الاسم بالنسب المفرق بين الراويين ما داما قد اشتركا في الاسم، واسم الأب واعتبر عدم التقييد تدليساً.

■ سمع سحنون موسى بن معاوية الصامدحي (ت٢٢٥هـ) المحدث يقول: إن رسول الله ﷺ كان إذ قفل من حج أو عمرة فأشرف على المدينة أوضع راحلته وقال: أسرعوا بنا إلى بنات الأقوام.

فلم يرض سحنون روايته هكذا بدون إسناد، وخشي أن لا يكون لموسى فيه سند إلى النبي ﷺ فقال لتلميذه فرات ويحك اطلب لي هذا الحديث لموسى، قال فرات: فطلبه لموسى عن عيسى بن السبيعي بإسناده إلى النبي ﷺ [2].

كما كان للإمام سحنون علم بالرجال ومصطلح الحديث وله كلام في التعديل وشروط الراوي ونحو ذلك ومن أمثلتها ما يلي:

تنبيهه على الأخذ عن الثقة بقوله:

يؤخذ هذا العلم من الموثوق بهم في دينهم الحسن مخبرهم.

---

(١) انظر: طبقات أبي العرب: ١١٩، المدارك: ١/ ٩٣.

(٢) انظر: الرياض: ١/ ٣٨٢.

■ كان سحنون يعوّل في ضبط الراوي على ضبط الكتاب، أكثر من ضبط الصدر، حيث يقول من صحت كتبه صحت روايته ومن سقم كتابه سقمت روايته [١] .

■ وكان له كلام في الرواة فقد وثق ابن زياد الإفريقي، ومروان بن أبي شحمة وغيرهما، قال له أحد طلابه: ما سمعت يحيى بن سعيد القطان، ولا عبد الرحمن بن مهدي يحدثان عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم فقال سحنون: لم يصنعا شيئاً عبد الرحمن ثقة وقال عن مروان: رجل صالح ، إن قال سمعت أو رأيت فاقبل منه [٢] .

■ **وكان يقول فيمن جاء للسماع وأخذته غفوة ففاته بعض الحديث**: إذا جاء السماع وله قصده فهو جزئه ، وكان شديد الإقبال على الآثار نافراً من الرأي ومن أقواله في ذلك : إنما عزاؤنا في هذه الآثار.

فأما المسائل فالله أعلم بحقيقتها [٣] ، ويقول: إني لأخرج من الدنيا ولا يسألني الله عز وجل عن مسألة قلت فيها برأي [٤] .

وهكذا ندرك أن اهتمام الإمام سحنون بالحديث وعلومه لم يكن بأقل من اهتمامه بالفقه ولا نسلك قول الذهبي فيه: « لم يتوسع في الحديث كما توسع في الفروع » ، وإن كنا نعذره لعدم وقوفه على كثير مما يتعلق بشخصية سحنون كما هو واضح من خلال المعلومات التي ساقها في ترجمته .

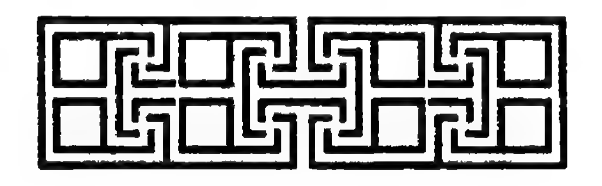

(١) المرجع السابق: ١/ ٣٧٣

(٢) أبو العرب: ٢٩ .

(٣) جذوة المقتبس: ١٤١

(٤) الرياض: ١/ ٣٥٤

أثره العلمي والاجتماعي في القيروان وتلاميذه :

[أ] جلوسه للتفقيه والتحديث وملاحقته للمبتدعة:

لم يعرف تاريخ القيروان في الفترة التي ندرسها شخصية لها ما لسحنون من الأثر في الناحية العلمية بالقيروان خاصة، وبإفريقية والمغرب والأندلس بصفة عامة، فقد وجه اهتمام الناس في تلك الربوع إلى السُّنَّة وإلى علم مالك وقطع دابر المبتدعة من الإباضية والصفرية ومنهم من نشر ضلالتهم، فهو أول من فرق حلق أهل البدع وشرد أهل الأهواء من (المسجد) وكانوا فيه حلقاً من الصفرية والإباضية والمعتزلة، يتناظرون فيه، ويظهرون زيغهم، وعزلهم عن أن يكونوا أئمة الناس، أو معلمين بصبيانهم أو مؤذنين وأمرهم أن لا يجتمعوا .

فما إن عاد الإمام سحنون من رحلته بتلك العلوم الجمة حتى جلس للتعليم وبدأ ينشر مروياته في القيروان، وأخذها عنه جموع من مختلف بلاد المغرب والأندلس، فقد كان يسمع الموطأ بروايته المختلفة التي سمعها، وأخذ عنه الناس جامع ابن وهب، وحدث برقائق الفضيل بن عياض بروايته عن أشهب وقرئت عليه مغازي ابن وهب، وكتابه في الجهاد وكتاب الزهد، كما أسمع مدونته واهتم بنشرها، وأقبل الناس عليها لاشتمالها على الحديث وتركوا الأسدية، وأخذ عنه الناس كتابه في الزهد، ومختصره في المناسك وسمع كتاب مالك في النجوم وحساب مدار الزمان وغير ذلك من مروياته (١) .

وكان للإمام سحنون حلقة في بيته وحلقة في مسجده فإذا خرج إلى البادية لخدمة أرضه لحق به الطلاب، ومن قصده من الغرباء فأسمعهم هنالك أيضاً. كما أسمع بقصر زياد عندما اختفى فيه لما طلب في المحنة بخلق القرآن وبالجملة فقد كان دأب سحنون نشر العلم، لا يفتر عن ذلك يقضي معظم وقته في إسماع

---

(١) الرياض: ١/ ٢٥٩، ٣٦٨، ٣٧٥.

الطلبة والقراءة عليهم، أو سماع عرضهم، وكانت حلقته تصل أحيانا إلى أربعمائة طالب [١] .

وسرعان ما اشتهر أمره، وبان علمه وتقواه وورعه فقصده الناس من الآفاق، وصارت الرحلة إليه، وسلّم له بالإمامة علماء عصره، واتفقوا علي فضله وما اجتمع فيه من الخلال الحميدة، ونظراً للأثر العظيم لسحنون في الحياة العلمية بالقيروان فقد صار زمانه كأنه مبتدأ، وقد محا ما قبله، فكان سراج القيروان[٢] .

[ب] تلاميذه :

لقد تخرج علي يد سحنون أفواج عظيمة من العلماء زادوا على سبعمائة رجل من الرواة، بل ذكر الذهبي : أن عدد الرواة عن سحنون بلغ تسعمائة . أما من صحبه من العباد وغيرهم، فيعدون بالآلاف، حتى قيل ما بورك لأحد بعد النبي ﷺ في أصحابه ما بورك لسحنون في أصحابه، فإنهم كانوا في كل بلد أئمة . وقد دخل القيروان رجل من أصحاب الإمام أحمد بن حنبل - أغفل المالكي تسميته - والتقى في مناسبة بمجموعة كبيرة من أصحاب سحنون، فرآهم في بداية الليل أقبلوا على قراءة القرآن، ثم تناظروا في العلم، ثم قاموا إلى التهجد، فقال: أصحاب من هؤلاء؟ ، ومن علمهم العلم؟ ، والله ما رأيت أحداً قط أنبل من هؤلاء . . . والله لا يصحب هؤلاء رجلاً إلا نبّلوه وشرفوه ، فقيل له هؤلاء أصحاب سحنون [٣] .

وبالجملة فقد كثر تلاميذه وسرت بسببه روح جديدة في أنحاء إفريقية والمغرب والأندلس، وبهم شاع وتعمق علم أهل المدينة ، وزادت رواية الحديث انتشاراً. وليس من الممكن ذكر أسماء جميع تلاميذ الإمام سحنون فقد تقدم

---

(١) الإمام المازري: ح ج عبد الوهاب: ٢٤.

(٢) المعالم: ٢ / ٨٣.

(٣) الرياض: ١ / ٤٤٢، وانظر: الثناء على أصحاب سحنون في ازدهار الرياض: ٣ / ٢٥.

بيان كثرة عددهم وإن جيل القرن الثالث أغلبه تتلمذ عليه، كما أني أحصيت تلاميذه الأندلسيين من خلال المصادر الأندلسية والمغربية فوجدت أكثر من تسعين راوياً ولهذا سأكتفي بذكر نماذج لبعض من عرف منهم بحمل الحديث وروايته خاصة وإني قد أشرت إلى أثرهم العام، وكونهم أئمة في كل بلد:

■ عيسي بن مسكين (ت٢٩٥هـ) وهو محدث من الثقات قال فيه ابن الحارث حين وصف أصحاب سحنون: وابن مسكين أرواهم للكتب والحديث وأشدهم وقاراً وتصاوناً.

■ بكر بن حماد التاهرتي، نزيل القيروان (ت ٢٩٦هـ) وهو من علماء الحديث والرجال.

■ محمد بن سحنون (ت ٢٥٦ هـ) وهو من كبار العلماء بالفقه والحديث ووارث الإمامة عن أبيه.

■ محمد بن وضاح القرطبي (٢٨٦ أو ٢٧٦ هـ) صاحب المسند، وبه وبابن وضاح صارت الأندلس دار حديث [(١)].

[جـ] محنته:

تعرض الإمام سحنون للمحنة مرتين، ارتبطت كلتهما بإشعاعه العلمي:

الأولى: حين رفض الصلاة خلف القاضي المعتزلي ابن أبي الجواد، لأنه كان يقول بخلق القرآن، فأوغر صدر الأمير عليه فأمر بحلق رأسه وضربه خمسمائة سوط، إلا أن الله عافاه من ذلك حيث تدخل علي بن حميد الوزير، وقال للأمير: لا تفعل فإن العكي إنما هلك في ضربه للبهلول بن راشد فسلمه الله تعالى.

والمحنة الثانية: كانت عندما أعلن أحمد بن الأغلب (٢٣١-٢٣٢ هـ) القول بخلق القرآن، وطلب العلماء ليجبرهم على ذلك، ففر سحنون إلى قصر

---

(١) تاريخ ابن الفرحتي: ١/١٠٧.

زياد ثم جيء به إلى الامير، فلما نوقش في المسألة قال أما شيء ابتدائه من نفسي فلا، ولكني سمعت من تعلمت منه وأخذت عنه كلهم يقولون: القرآن كلام الله غير مخلوق، فقال ابن أبي الجواد: كَفَرَ، أقتله ودمه في عنقي (١) .

وبعد مداولات قرر الأمير حبسه في دار ومنعه من الفتوى والإسماع ونادى بذلك في القيروان وأمر الحرس بأخذ ثياب من يدخل عليه وقد ذكر أبو العرب أنه بقي سنة كاملة لا يفتي ولا يسمع، ولزم بيته ، ثم تمكن محمد بن الأغلب من استرداد ملكه من أخيه أحمد ، فعاود سحنون سيرته الأولى في نشر العلم .

[د] سحنون في منصب القضاء :(٢)

لقد درج العلماء المدنيون في القيروان على رفض الوظائف الحكومية والبعد عن السلطان وإن قبلوا شيئاً من ذلك اشترطوا لأنفسهم ما يضمن لهم القيام بالحق والعدل في وظائفهم، فلما عرض القضاء على سحنون رفضه واستمر الأمير يفاوضه في ذلك ويلح عليه سنة كاملة حتى وافق الأمير على جميع شروطه، وأطلق يديه من كل ما رغب كالبدء بأهل الأمير في رد المظالم ونحو ذلك فلم يجد سحنون بداً من الموافقة وذلك سنة (٢٢٤ هـ)واستمر فيه إلى أن مات سنة (٢٤٠هـ)ولم يأخذ عليه أجراً.

وقد قام في فترة قضائه بما لم يسبق إليه، وأضاف إلى مهمته القضائية كثيراً من الأمور التي كانت من اختصاص الأمراء والولاة كالنظر في الأسواق والحسبة، ونحو ذلك ومنع الفرق المبتدعة من نشر أفكارها كما أنه كان شديداً مع أقارب السلطان وحاشيته يقيم عليهم الحق ولا يخشى في الله لومة لائم فكانوا يشكونه للأمير، فيرسل إليه في الأمر ولكن سحنون لا يطاوعه فيما لا حق فيه، حتى إن

---

(١)المعالم: ٢/ ٩٤، المدارك: ١/ ٦١١، وانظر: المحن: ٤٤٦.

(٢)انظر : المحن: ٤٥٤.

الأمير ذات مرة غضب غضباً شديداً وقال: ما أدري هو علينا أم نحن عليه؟ ولكنه كان كثيراً ما يقول لمن يأتيه شاكياً: إن سحنون لم يركب لنا دابة، ولا عقل كمه بصُرَّة، فهو لا يخافنا. فلما أكثروا عليه، ولم يتمكن من عزله، عين معه قاضياً أخر، ولم يلبث سحنون بعد ذلك أن توفي.

[هـ] شدة نفوره من الفتوى وتحذيره منها :

كان سحنون شديد الورع، يحذر الفتوى فربما جلس السائل في انتظار الجواب أياماً طويلة، وكان يقول: أجرأ الناس على الفتيا أقلهم علماً، ويقول سرعة الجواب بالصواب أشد فتنة من فتنة المال، ولما عوتب في تأخير الأجوبة قال: أنا أحفظ مسائل فيها ثمانية أقوال من ثمانية أئمة فكيف ينبغي لي أن أعجل بالجواب حتى أتخير، فَلِمَ أُلام على حبس الجواب؟.

وانتظر رجل جواب مسألته ثلاثة أيام فلما طال عليه الأمر قال لسحنون في كلام دار بينهما: (وأنت - أصلحك الله لكل معضلة. فقال له: هيهات يا ابن أخي ليس بقولك أبذل لحمي ودمي للنار! ما أكثر ما لا أعرف، وكان يقول إني لا خرج من الدنيا ولا يسألني الله عز وجل عن مسألة قلت فيها برأي [١].

[و] بذله وكثرة صدقته:

كان سحنون كثير المعروف يتعهد أصحابه وينظر في احتياجاتهم ، وقد يتصدق على الواحد منهم بالمبلغ الذي تجب فيه الزكاة، وقد كان له اثنتا عشرة ألف زيتونة، فلا ينتفع لنفسه بمحصول نصف شجرة، والنصف الأخر مع بقية الزيتون يخرجه للفقراء والمساكين [٢] أما معيشته فكانت في غاية البساطة والزهد، وهذا مشهور عنه مبسوط في المصادر.

---

(١) انظر : هذه الأقوال في الرياض: ١ / ٣٥٤، ٣٥٥ .

(٢) المعالم: ٣ / ١٨٣ ، وانظر عن كثرة صدقته ومعروفه: الرياض: ١ / ٣٦١، ٣٦٢ .

[ز] **مؤلفاته :**

المدونة : وقد تقدم بعض خبرها خلال الحديث عن الفتاوى الأسدية .

وتعتبر المدونة أشهر مؤلفاته حيث اعتاد المصنفون نسبتها إليه، كما وأنه يوجد لديه كتابين آخرين هما: كتاب الزهد – وكتاب مختصر المناسك [١] .

[حـ] **من حديثه :**

أكثر سحنون في المداونة وأخرج له ابن عبد البر في التمهيد، وفي جامع بيان العلم وفضله كما أخرج له أبو العرب في كتاب المحن [٢] . ومن حديثه ما أخرجه في المدونة عن علي بن زياد عن سفيان الثوري عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن ابن عباس أنه قال: ألا أخبركم بوضوء الرسول ﷺ قال: « فدعا بماء فأراهم مرة، فجعل في يده اليمنى ثم صب بها على يده اليسرى فتوضأ مرة مرة » [٣] .

[ط] **توثيقه والثناء عليه بالحفظ والورع وسعة العلم:**

إن الإمام سحنون من أولئك المشاهير الذين استفاض خبر إمامتهم، وعرفه العام والخاص بسعة العلم وصدق الورع، وهذه الشهرة كافية في توثيقه ومع ذلك فقد لهج المصنفون بالثناء عليه، وتوثيقه وذكر فضائله وتبحره في العلم حتى ألف الناس في فضائله كما فعل الحافظان أبو العرب (ت ٣٣٣ هـ) ، والخشني (ت ٣٦١ هـ) [٤] .

قال أبو العرب : (كان ثقة حافظاً للعلم فقيهًا بالدين، اجتمعت فيه خلال قلما اجتمعت في غيره، الفقه البارع، الورع الصادق، والصرامة في الحق،

---

(١) المدارك : ١ / ٦٢٥ ، الرياض : ١ / ٣٧٤ .

(٢) انظر : المحن : ٢٧٦–٣١٠ .

(٣) انظر : جامع بيان العلم : ١ / ٥، ٥٠ ، ٥١ ، ٢ / ٣، ٧٩ .

(٤) انظر : الديباج : ١٦٠–٢٦٠ .

والزهادة في الدنيا، والتخشن في الملبس والمطعم، وَوَثَّقه الذهبي في سير الأعلام بقوله: الإمام العلامة فقيه المغرب.

وقال المالكي: انتشرت إمامته في المشرق والمغرب وسلم له الإمامة أهل عصره، وأجمعوا كلهم على فضله وتقدمه، وقال أشهب: ما قدم إلينا من المغرب مثله.

وقال الشيرازي: انتهت الرئاسة إليه في العلم بالمغرب وعلمه وقوله المعول به.

وقال الحجوي: كان ثقةً حافظاً. وذكره ابن حبان في الثقات وأثنى عليه [١].

وأراد السلطان أن يستفيد من سوء تفاهم وقع بين عون بن يوسف (ت ٢٣٩ هـ) وسحنون (ت ٢٤٠ هـ)، فنادى عوناً وسأله عن سحنون فقال: سبحان الله مثلي يُسأل عن سحنون، والله إن سحنوناً لأفضل وأخير من أن يُسأل مثلي عنه [٢].

وكان سليمان بن عمران - وهو حنفي المذهب - قد أشار بتولية سحنون القضاء وقال: ما ظننت أنه يشاور في سحنون، حججت فرأيت أهل مصر يتمنون كونه بين أظهرهم وما يستحق أحد القضاء وسحنون حي [٣].

وكان شديد الحفظ، قال عن نفسه: حفظت هذه الكتب حتى صارت في صدري كأم القرآن. وقد أغرب صاحب الإرشاد حين قال: لم يرض أهل الحديث حفظه [٤]، فإن المصنفين قد أثنوا على حفظه، ولم أعثر على من ذكر هذا القول رغم استقصائي لمصادر ترجمة سحنون، وقد عبر محقق كتاب الإرشاد أيضاً عن استغرابه مما ذكره الخليلي ثم قال: وقد اتفق جميع الأئمة على توثيقه.

---

(١) المدارك: ١/٥٨٨، وانظر: طبقات أبي العرب: ١٠١.

(٢) المدارك: ١/٣٢٨.

(٣) المعالم: ٢/٨٦، المدارك: ١/٥٩٦.

(٤) الإرشاد: ١/٢١٣.

[ي] وفاته:

وتوفي سحنون سنة ٢٤٠ هـ فارتجت القيروان لوفاته وشوهد مشايخ الأندلس ممن لم يره يضربون خدودهم كالنساء، يقولون: ليتنا تزودنا منك بنظرة، ورُثي بقصائد عديدة، وقد أقام سؤدد العلم في دار سحنون نحو ١٣٠ عام [١]، رحمه الله تعالى [٢].

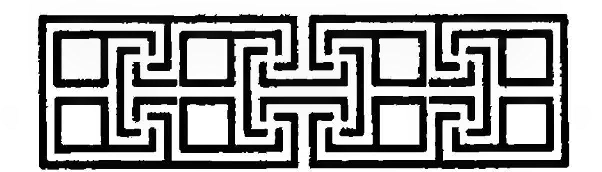

(١) المدارك: ١/٦٢٦.

(٢) لقد اعتمدت في ترجمة سحنون على ما اختاره الشيخ حسين بن شواط صاحب كتاب مدرسة الحديث، واكتفيت بها وبما رجع إليه من مصادر ومراجع وما وصل إليه من نتائج.

المبحث السادس

نظام الحكم عند الأغالبة

كان نظام الحكم فردياً وراثياً منحصراً في بني أغلب وأهم وظائف الحكم هي :

[١] صاحب الخراج:

وأول من أنشأ هذه الوظيفة هو حسان بن النعمان أيام كان والياً عليها من قبل عبد الملك بن مروان سنة ٧٧ هـ ، ثم توسع فيها الأغالبة بما يتفق مع ثروة البلاد أيام حكمهم وهي من أكبر الوظائف خطراً، لأنها تتعلق بثروة البلاد .

[٢] صاحب البريد:

وهو بمثابة وزير المواصلات وسمي صاحب البريد دون أن يضاف إلى شيء أخر لأن للبريد محطات فيها خيل وبغال، وكلما وصل عامل البريد محطة غَيَّر دابته التي كان يركبها، بعد أن أجهدها في السير للوصول إلى المحطة التي بعدها في أقصر وقت ممكن ويضاف إلى صاحب البريد رئاسة المخبرين السريين .

[٣] صاحب الجيش:

وهو يقوم مقام وزير الحربية .

[٤] مقدم العمارة:

وهو بمثابة وزير البحرية وكان لدولة الأغالبة أسطول ضخم كبير، وكانت له الغلبة في البحر الأبيض المتوسط، على أسطول روما، وقد فتح صقلية وفالوربة وسردينيا، ومالطا وكان مؤلفاً من عدة سفن لأغراض مختلفة وقام بحراسة السواحل خير قيام .

[٥] العامـل :

وظيفة إدارية ينظر إلى المصلحة الوطنية من حيث الإدارة والتنظيم.

[٦] الحاجب :

هو مدير الشريفات وله نفوذ كبير فى القصر.

[٧] القضاء :

كان متمشياً مع أحكام الكتاب والسُنَّة والقياس ، والاجتهاد فيما لم يرد فيه نص وكان لا يتولاه إلا من توفرت فيه قوة الإدراك والتبحر فى العلم بعد استشارة أهل الحل والعقد فى البلاد وكان القضاء مستقلاً عن الإدارة الأميرية، ولا يتدخل الأمير في شئون القاضي وهو حر في أحكامه ويعين القاضي نواباً عنه في الأماكن البعيدة من محل عمله داخل المملكة.

[٨] الجند:

ينقسم الجند إلى ثلاثة أقسام :

الحرس الأميري : وهو المخصص لحراسة الأمير، وليس له عمل غير ذلك.

والجيش : وهو مركب من عدة عناصر من العرب والبربر، وغيرهم وهم مأجورون مرتزقة لا غاية لهم من عملهم إلا الحصول على الأجر، وما يقع في أيديهم من الغنائم، ولا يخلو من كان نيته الجهاد في سبيل في الله في حروب جنوب إيطاليا وجزر البحر الأبيض المتوسط، أما سلاح الجند، فكان القوس والرمح، والسيف، والكبش، والمنجنيق (١) .

هذه هي أهم الوظائف التي كانت تعتمد عليها دولة الأغالبة في تسيير دفة الحكم.

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا: ٢٠٦-٢٠٧.

المبحث السابع
أهم أعمال دولة الأغالبة

أولاً : فتح صقلية :

[١] الأهمية الاستراتيجية لصقلية :

وتعتبر صقلية أكبر جزر البحر الأبيض المتوسط مساحة، وأغناها من حيث الموارد الاقتصادية، وأفضلها موقعاً، حيث إنها تقع بين ساحل إيطاليا الجنوبية وساحل إفريقية، وقربها الشديد من سواحل إفريقية من الجهة الجنوبية الغربية.

[٢] بدايات فتح صقلية:

كانت بدايات فتح صقلية في عهد عبد الله بن سعد ﷺ، ثم تابعه على ذلك معاوية بن حديج - رحمه الله - حيث أرسل عبد الله بن قيس الفزاري لغزوها، وغنم المسلمون في تلك الغزوة غنائم كثيرة من بينها أصنام من الذهب والفضة مكللة بالجوهر، ثم غزاها عقبة بن نافع - رحمه الله - بأهل مصر سنة ٤٩ هـ ، ثم غزاها عطاء بن رافع الهذلي سنة ٨٣ هـ ثم غزاها عياش بن أخيل في ولاية موسى بن نصير، وغنم منها غنائم كثيرة، وتوالت عليها غزوات المسلمين بعد ذلك حتى كان آخر هذه الغزوات غزوة عبد الرحمن بن حبيب التي كانت في سنة ١٣٥ هـ

[٣] أسباب فتح صقلية:

ومن تلك السنة ١٣٥ هـ توقفت حملات المسلمين على صقلية بسبب اشتغال ولاة إفريقية بالفتن الداخلية والفكرية منها والعنصرية!! حيث استغل البيزنطيون هذه الفرصة وأخذوا يحصنون بلادهم وسواحلهم ويعمرونها بالمعاقل والحصون وأصبحت لهم وحدات القوات البحرية تطوف بسواحل الجزيرة للذب

عنها حتى تجرأت سفنهم ذات يوم على مهاجمة السواحل الإفريقية، فكانت تلك الهجمات سببًا رئيسًا لتوحيد صفوف دولة الأغالبة.

يقول صاحب كتاب (تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس) :

(وكان لهؤلاء العلماء المالكية أعظم الاثر في غلبة الروح الدينية والاتجاة نحو الزهد والرغبة في المرابطة بالثغور بقصد الجهاد في سبيل الله ، بسبب تعرض السواحل الإفريقية لغارات الروم البحرية، واعتبر الرباط في هذه الثغور جهاداً في سبيل الله وقربة إليه، فنشأت الرباطات والقصور على سواحل إفريقية . وفي هذه الأربطة كان يقيم المتعبدون المجاهدون بقصد حراسة المسلمين والتعبد لله في آن واحد . وكان الخروج لغزو الروم في صقلية غاية ما يتمناه هؤلاء الصالحون.

ولاشك أن الأمير زيادة الله بن الأغلب قد نجح في استثارة هذا الشعور الديني السائد باختيار أسد بن الفرات القاضي قائداً للحملة على صقلية، والشعور الديني طاقة كبيرة لها وزنها وأهميتها في الفتوحات الإسلامية، وهو في نفس الوقت يخفي الأغراض الحقيقية لزيادة الله من وراء هذه الحملة ولذلك عين أسداً لهذه المهمة حتي يكسب الحملة نوعاً من الشرعية، فولاه قائداً على الجيش وأقره على القضاء مع القيادة، فخرج معه أشراف إفريقية من العرب والجند والبربر والأندلسيين وأهل العلم والبصر) (١) .

ويقول أيضاً في الأسباب التي دفعت ببني الأغلب لتلك الحملة:

(التخلص من العناصر الثائرة في البلاد : عانى زيادة الله كثيراً من الثورات التي قام بها جنده عليه، وفتنهم المتعددة التي كادت تطيح بملك بني الأغلب).

[٤] بداية الحملة:

يبدو أن زيادة الله يسعى إلى ترغيب الناس في غزو صقلية، وإكساب الحملة

---

(١) انظر : تاريخ البحرية الإسلامية، في المغرب والأندلس، د/ السيد عبد العزيز سالم، ود/ احمد مختار العبادي ص٩٥-١٢١

طابعاً من الجهاد في سبيل الله، فعندما بلغه أن أسد بن الفرات أبدى رغبتة في الخروج في هذه الغزوة كواحد من المسلمين، ولاه أمر الجيش مع الاحتفاظ بالقضاء فأصبح أسد بن الفرات قاضياً أميراً.

يقول صاحب (تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس) :

(خرج أسد بن الفرات من القيروان في حشود قوامها عشرة آلاف من الرجالة وسبعمائة من الفرسان بأفراسهم، ومتوجهاً إلى سوسة ليركب منها إلى صقلية، وخرج معه وجوه أهل العلم وعدد كبير من الأهالي لتوديعه، واحتفل زيادة الله بذلك اليوم، فأمر ألا يبقى أحد من رجاله إلا شيعه، فركب أسد في جمع عظيم بين صهيل الخيول وقرع الطبول وارتفاع البنود.

وأقلع الأسطول الإسلامي من مدينة سوسة في يوم السبت ١٥ من شهر ربيع الأول سنة ٢١٢هـ (يونيو سنة ٨٢٧م) وكان يتكون من سبعين مركباً، وقيل مائة مركب، بالإضافة إلى مراكب أخرى فوصلت الأساطيل إلى بلدة مازر في يوم الثلاثاء أي بعد ثلاثة أيام من الإبحار من سوسة، ومازر هي أقرب مدن صقلية إلى سوسة.

ثم سار جيش المسلمين نحو سهل بلاطة ماراً بقلعة بلوط ثم قرى الرفش وقلعة الدب وقلعة الطواويس، ثم إلى أرض المعركة التي سميت باسم بلاطة نسبة إلى صاحب صقلية. وأقبل بلاطة في جيش عدته ١٥٠ ألف مقاتل. فخطب أسد في الناس وهو يحمل اللواء وقال: هؤلاء عجم الساحل، هؤلاء عبيدكم، لا تهابوهم. ثم كبر المسلمون وحملوا مع قائدهم، وتمادت عزائم المسلمين حتى هزموا بلاطة وأصحابه وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وغنموا ما معهم، وانسحب بلاطة إلى قصريانة، ثم غلبه الخوف من لقاء المسلمين، ففر من صقلية إلى قلورية بجنوبي إيطاليا، فقتل بها.

وبعد هذا الانتصار الحاسم، استعمل أسد على مازر أبا زاكي الكناني، ثم زحف إلى موضع على البحر يقال له كنيسة إيفيمية، ثم سار إلى كنيسة المسلقين، ثم حاصر سرقوسة نفسها من البر والبحر، وجاءته الأساطيل من إفريقية تحمل إليه الإمدادات وعند ذاك زحف إلى بلرم في جيش كثيف، فضيق القاضي أسد الحصار على سرقوسة وأحرق أسطول البيزنطيين. وفي هذه الأونة حل بالمسلمين وباء شديد هلك بسببه عدد كبير منهم، ومن جملتهم القاضي أسد ابن الفرات الذي توفي في شعبان سنة ٢١٣ هـ وقيل في رجب، فدفنه المسلمون في الموضع الذي كان يحاصر منه سرقوسة وقيل بين قطانية وقصريانة) [١].

[٥] استكمال فتح صقلية زمن الأغالبة:

(اتخذ أبو فهر مدينة بلرم مقراً له لسهولة اتصالها البحرية بإفريقية من جهة، ولقربها من مسيني وجنوبي إيطاليا حيث يتهيأ للمسلمين توجيه الغارات منها على البيزنطيين من جهة ثانية. ومن بلرم أخذ أبو فهر يشن الغارات على قصريانة في سنتي ٢١٩-٢٢٠ هـ، ثم سير عسكراً بقيادة محمد بن سالم إلى مدينة طبرمين الواقعة في شرق الجزيرة، فغنم غنائم كثيرة، ولكن جماعة من جند أبي فهر تمردوا على ابن سالم وقتلوه، فولى زيادة الله مكانه الفضل بن يعقوب.

ويبدو أن زيادة الله الأغلبي احتاج لمساعدة أبي فهر في قمع بعض الثورات في المغرب، فنحَّاه عن ولاية صقلية، وسير مكانه أخاه أبا الأغلب إبراهيم والياً عليها وظل أبو الأغلب يبعث بسراياه للإغارة على مدن صقلية، وفي كل مرة كان المسلمون يعودون مظفرين غانمين، وقد تمكن المسلمون في إحدى غاراتهم على قصريانة من الاستيلاء عليها.

ثم تابع المسلمون في ولاية إبراهيم بن الأغلب انتصاراتهم على أهل صقلية

---

(١) انظر : كتاب تاريخ البحرية الإسلامية، في المغرب والأندلس ص ٩٥-١٢١

وفتوحاتهم في تلك الجزيرة، فاستولوا في سنة ٢٥٥ هـ على عدد كبير من حصونها، من بينها حصن البلوط، وحصن أبلاطنو، وقرلون، ومرو، وافتتح الأسطول الإسلامي إقليم قلورية بعد أن تغلب على أسطول البيزنطيين. وواصل المسلمون منذ سنة ٢٢٨ هـ انتصاراتهم على البيزنطيين في أقصى الشمال الشرقي لصقلية، فافتتحوا بقيادة الفضل بن جعفر الهمداني مدناً كثيرة بمساعدة أهل نابل، من بينها مدينة مسيني، ومسكان.

وفي سنة ٢٣٢ هـ حاصر الفضل بن يعقوب مدينة لنتيني واستولى عليها، كما افتتح المسلمون في هذه السنة طارنت الواقعة على خليج طارنت بجنوبي إيطاليا. وفي سنة ٢٣٤ هـ استولى المسلمون أيضاً على حصن رغوس وهدموه).

ثانياً: فتح مالطة:

تعتبر مالطة أهم جزر الأرخبيل المالطي مثل جزيرة غودش وكمونة ونموشة، باعتبارها أكبر هذه الجزر، بالإضافة إلى كونها جزيرة عامرة كثيرة الخيرات حسنة الموقع، حتى أنها اعتبرت هي وصقلية من المعالم الهامة في التاريخ البحري الإسلامي ومفتاح حوض البحر المتوسط الأوسط والغربي.

حيث تم افتتاح الأغالبة لمالطة في سنة ٢٥٥ هـ في إمارة أبي الغرانيق محمد بن أبي إبراهيم أحمد، وبفتحها تأكدت سيطرة المسلمين الكاملة على المضايق الواقعة بين صقلية وإفريقية [١]

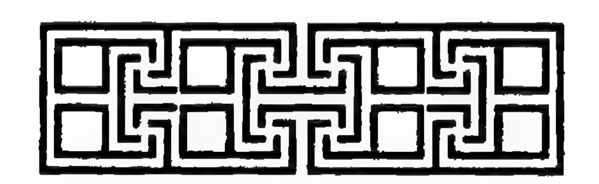

---

(١) راجع: كتاب «تاريخ البحرية الإسلامية، في المغرب والأندلس» تأليف د/ السيد عبد العزيز سالم، د/ أحمد مختار العبادي: ٩٥ إلى ١٢١.

المبحث الثامن

أسباب سقوط دولة الأغالبة

﴿ ١ ﴾ الصراع على الحكم بين أبناء البيت الحاكم.

﴿ ٢ ﴾ تركيبة الجيش المبنية على المنفعة الذاتية للجنود.

﴿ ٣ ﴾ ظلم بعض الأمراء وإسرافهم في القتل.

﴿ ٤ ﴾ بغض العامة لأمراء الأغالبة نتيجة ظلمهم.

﴿ ٥ ﴾ انغماس الأمراء في الخمر والفساد والانحلال وانشغالهم به.

﴿ ٦ ﴾ ظهور دعوة عقدية في ريعان شبابها وكان دعاتها على جانب كبير من الغدر واستغلال الظروف المواتية ألا وهي الدعوة العبيدية الرافضية الباطنية.

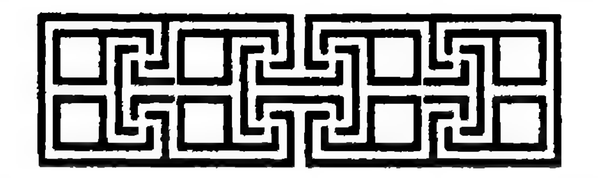

الخلاصة

[١] إن الدولة الأموية قامت بجهود عظيمة لنشر الإسلام والجهاد في سبيله كما أن الأسرة الأموية ممتدة جذورها في خدمة الإسلام من زمن النبي ﷺ وبرز منها قادة في مجال الدعوة والجهاد والإمارة.

[٢] كان لرجال بني أمية قدرات متميزة في مجال الإدارة والسياسة والقيادة ولذلك استعان رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين بهم في الولايات والعمالات.

[٣] إن معاوية رضي الله عنه صحابي جليل وكاتب للوحي وتولى أعمالاً عظيمة في زمن الرسول ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، فلا يجوز سبه، بل يجب حبه والدفاع عنه ويعتبره علماء أهل السُنَّة من أعظم ملوك المسلمين على الإطلاق.

[٤] إن رأي أهل السُنَّة ترك القتال في الفتنة والامتناع على الخروج عملاً بالأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ في النهى عن الخروج على الحكام وإن جاروا وظلموا ما داموا مسلمين وعلى الصلاة محافظين ويشترط في الخروج أن يكون ظهر من الحكام كفر بواح مع وجود الاستطاعة في التغيير.

[٥] إن موقعة كر بلاء التي قتل فيها الحسين رضي الله عنه كانت باب شر فتح على الأمة، وإن الحسين رضي الله عنه قتل مظلوماً شهيداً ولم يكن متولياً أمر الأمة وكان عام ٦١ هـ.

[٦] إن موقعة الحرة في المدينة وقعت عام ٦٣ هـ ولقد أنكر بعض الصحابة والتابعين خروج أهل المدينة على يزيد بن معاوية ورفض بعضهم خلعه، منهم عبد الله بن عمر ومحمد بن الحنفية.

[٧] إن قول مؤرخي الشيعة بان يزيد بن معاوية أرسل جيشاً إلى المدينة واستباحها ثلاثة أيام قولٌ باطلٌ لا يصمد أمام البحث التاريخي الموثق.

[٨] يرى أهل السُنَّة والجماعة أن يزيد كان ملكاً من ملوك المسلمين له حسنات وسيئات ولم يكن صحابيًّا ولم يكن كافراً.

[٩] عادت سيرة الفتوحات التي في زمن عمر بن الخطاب ﷺ في خلافة الوليد بن عبد الملك وفتحت السند والأندلس في عصره.

[١٠] تولى الخلافة بعد الوليد سليمان بن عبد الملك، ومن حسناته العظيمة قبوله لنصيحة الفقيه العالم رجاء بن حيوة الكندي الذي اقترح على سليمان في مرض موته أن يولي عمر بن عبد العزيز، وكانت وصية لم يكن للشيطان فيها نصيب.

[١١] كان عهد عمر بن عبد العزيز عهد خير وبركة على الأمة قاطبة وقد مس عدله كل الأقاليم ولقد ساهم عمر بن عبد العزيز في تدعيم الإسلام في الشمال الإفريقي ويظهر ذلك جليًّا في بعثته للفقهاء العشرة.

[١٢] بعد وفاة عمر بن عبد العزيز تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك فعزل إسماعيل بن أبي المهاجر عن ولاية إفريقية وعين يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج وكان ظلوماً غشوماً متبعاً لسيرة الحجاج في أهل العراق، فنقم عليه البربر ولذلك قتلوه.

[١٣] كانت أول ثورة في إفريقية في الإسلام عام ١٢٣هـ بسبب الظلم والجور من الولاة واستفاد الخوارج من ذلك فوجدوا تربة خصبة لعقائدهم في الشمال الإفريقي وتزعم الثورات ضد الخلافة الأموية ميسرة المظغري الذي اعتنق مذهب الخوارج الصفرية وحرص على نشره في أوساط البربر.

[١٤] اندلعت في إفريقية ثورات لا نهاية لها انتهت في عهد يزيد بن حاتم ١٥٦هـ بسبب الفكر الخارجي وظلم الولاة وجهل القبائل في الشمال الإفريقي.

[١٥] بموت هشام بن عبد الملك تضعضع ملك بني أمية، وتولى وأدبر أمر الجهاد في سبيل الله واضطرب أمرهم جدًّا ، وإن كانت قد تأخرت أيامهم بعده نحو من سبع سنين.

[١٦] لقد كانت من عقائد الصفوية وهي فرقة من الخوارج استحلال أموال أهل السُّنَّة واستباحة نسائهم وقتلهم، ولذلك لما كسرت شوكتهم في معركة القرن عام ١٢٤هـ على يدي حنظلة بن صفوان وسمع بذلك فقيه أهل مصر في زمانه الليث بن سعد قال: « ما غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب إلي من غزوة القرن » .

[١٧] يعتبر عبد الرحمن بن حبيب أول متغلب على إفريقية، واستقل بها أيام حكمه عن بني أمية وكان ذلك عام ١٢٩هـ .

[١٨] في سنة ١٣٢هـ قتل مروان بن محمد، وانقرضت دولة بني أمية من المشرق، بعد أن ملكت إحدى وتسعين سنة وتسعة أشهر وخمسة أيام وتولى الملك فيها أربع عشرة خليفة وظهرت على أعقابها دولة بني

العباس والله يرث الأرض ومن عليها.

[١٩] تعتبر معركة الزاب من المعارك الفاصلة بين بني العباس وبني أمية وكانت في عام ١٣٢هـ .

[٢٠] لقد كان من أسباب سقوط دولة بني أمية هزائمهم المتلاحقة أمام جحافل العباسيين، وأسباب تتعلق ببني أمية والخلفاء منها: ضعف شخصية بعض الخلفاء، بذخ بعض الخلفاء وإسرافهم، تحكيم بعض الخلفاء أهواءهم في أمر قوادهم، ولاية العهد وما يترتب عليها من صراع، النزاع بين أفراد البيت الأموي على الخلافة.

[٢١] كانت هناك أسباب في سقوط الدولة تتعلق بالرعية منها: العصبية العربية، والنزاع بين العرب والموالي، قيام حركات المعارضة، الشيعة، الخوارج، الدعوة العباسية.

[٢٢] كانت هناك أسباب عامة منها، ازدياد الخطر البيزنطي، المشكلات الاقتصادية وكل العوامل والأسباب السابقة لا ينكر تأثيرها على إضعاف سلطان بني أمية إلا أن أبرز تلك العوامل هو الخلاف الذي دب بين أفراد البيت الأموي من أجل الخلافة.

[٢٣] اعتمد العباسيون سرية التنظيم في سعيهم للوصول إلى الحكم ومرت دولتهم بأربع مراحل وانتهت في عام ٦٥٦هـ .

[٢٤] أهم سمات العصر العباسي الأول، بناء مدينة السلام، ظهور الثورات المنحرفة.

[٢٥] كانت الثورة الراوندية، والمقنعية والخرمية ذات عقائد فاسدة عبرت عن الامتداد التاريخي لمعتقدات المزدكية التي أخذت عن المانوية والتي ظهرت في بلاد فارس من قبل الإسلام وكانت تعتقد بوجود إلهين النور والظلمة، ويبيحون النساء.

[٢٦] يمتد العصر العباسي الثاني من عام ٢٣٢هـإلى ٣٣٤هـومن أشهر سمات هذا العصر، ظهور النفوذ التركي وظهور منصب أمير الأمراء، ومقتل معظم خلفاء هذا العصر.

[٢٧] يمتد العصر العباسي الثالث من عام ٣٣٤ هـإلى نهاية عام ٤٤٧هـومن أوضح سمات هذا العصر: سيطرة الأسرة البويهيه على الحكم، استفحال سلطات الشيعة، وتكوين وظهور الإمارات المستقلة وظهور فتنة خلق القرآن.

[٢٨] استطاع عبد الرحمن الداخل أن يؤسس إمارة أموية في الأندلس امتدت من عام ١٣٨هـإلى عام ٣١٦هـ.

[٢٩] تعتبر بداية الخوارج على شكل جماعي له اتجاهه وآراؤه الخاصة بدءاً بالخروج على عليٍّ رضي الله عنه عام ٣٧هـ .

[٣٠] لقد وردت أحاديث صحيحة في ذم ووصف الخوارج تعين أهل السُّنَّة على معرفتهم والحذر منهم وكشفهم، ولم يقصّر سلفنا الصالح في حربهم وذمهم وبيان انحرافهم عن الصراط المستقيم.

[٣١] لقد تشعبت الخوارج إلى فرق عدة بلغ بها بعض أهل العلم ممن كتب في

الملل والنحل إلى عشرين فرقة، وأهم هذه الفرق هي : المحكمة الأولى، والأزارقة، والنجدات والصُفرية.

[٣٢] لقد اختلف علماء الفرق في الحكم على الإباضية ويظهر أن الاباضية تخالف منهج أهل السُنَّة في بعض المسائل العقدية وتوافقهم في مسائل أخرى.

[٣٣] بعض علماء الإباضية أصاب الحقيقة في الحكم على الصحابة ﷺ والبعض الآخر انحرف عن المنهج المعتدل القويم.

[٣٤] خالف الإباضية منهج السلف في صفات الله وفي استواء الله على عرشه وفي باب رؤية الله عز وجل في الآخرة واختلفوا في كون القرآن مخلوق، ووافقوا أهل السُنَّة في باب القدر، واختلفوا في إثبات عذاب القبر وقالوا بإثبات الشفاعة للمتقي وهذا يخالف منهج أهل السُنَّة.

[٣٥] لقد شارك الإباضية في التاريخ السياسي للمغرب وقاموا بثورات في نهاية الخلافة الأموية وبداية العباسية من أشهرها، ثورة عبد الجبار بن قيس والحارث بن تليد، وإسماعيل بن زياد النفوسي.

[٣٦] كانت إمامة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح على الإباضية في سنة ١٤٠هـ واستطاع أن يوسع نفوذ حكمه حتى وصل إلى خليج سرت غرباً وإلى قابس شرقاً ومن البحر إلى الصحراء الكبرى وأصبحت كل هذه الأراضي منضوية تحت حكم الإباضية.

[٣٧] أقلق أبو جعفر المنصور ظهور أبي الخطاب بن السمح في بلاد المغرب فقرر القضاء عليه مهما كلفه من خسائر واستطاع أبو جعفر المنصور أن

يقضي على أبي الخطاب في عام ١٤٤هـ وقاد جيوش الدولة العباسية محمد بن الأشعث والي مصر لحرب الخوارج.

[٣٨] استطاع يزيد بن قبيصة أن يقضي على ثورة أبي حاتم يعقوب بن لبيب الإباضي عام ١٥٥هـ وتعد هذه الضربة الساحقة التي ألحقها يزيد بالإباضية نهاية لنشاط الخوارج والإباضية في صورته الشاملة المنظمة إلا أنه بقيت ثورات طفيفة لم يجد أمراء آل المهلب عناء في قمعها وردعها.

[٣٩] استطاع عبد الرحمن بن رستم أن يكوّن دولة بتاهرت عام١٦١هـ وامتد نفوذها فيما بعد لتضم إباضية المغرب جميعاً واستطاع الخوارج الصفرية تكوين دولة في المغرب الأقصى في سلجماسة وهي التي تسمى بدولة بني مدرار.

[٤٠] دخل المذهب المالكي إلى الشمال الإفريقي عام ١٨٣ هـ على يد علي بن زياد وهو أول من أدخل الموطأ إلى إفريقية وفسر لهم قول مالك.

[٤١] يعتبر المذهب المالكي من المذاهب السُّنِّية المعتمدة وأصوله من أصول أهل السُّنَّة والجماعة.

[٤٢] يعتبر إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي مؤسس دولة الأغالبة وكان ذلك عام١٨٤هـ وكان يتمتع بشجاعة نادرة، وثقافة عالية، بالإضافة إلى معرفة واسعة بشئون إفريقية.

[٤٣] يعتبر عصر الأغالبة من أفضل العصور في الشمال الإفريقي في المجال العلمي والحضاري والعمراني وفي مجال الأمن والاستقرار والفتوحات الإسلامية.

[٤٤] حكمت دولة الأغالبة إفريقية مئة وإحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر وتولى الحكم فيها أحد عشر أميراً ، وقد جرت فيها سُنَّة الله في القضاء على الدول عندما ينغمس حكامها في الترف والفجور والانحلال، ويظلمون العباد ويكثرون الفساد.

[٤٥] كان أسد بن الفرات من أشهر علماء دولة الأغالبة اجتهد في طلب العلم وشد الرحال إلى الأمصار في زمانه لتلقي العلم وأخذه عن الفقهاء، فمكث في المدينة ومكة وبغداد والكوفة ومصر ورجع إلى القيروان معلماً ومحدثاً ومربياً وقاضياً ومجاهداً. توفي عام ٢١٣ هـ في غزوة صقلية.

[٤٦] يعتبر الإمام سحنون بن سعيد التنوخي من علماء الشمال الإفريقي وظهر هذا العالم في عصر الأغالبة وبرز في علوم الفقه والحديث والفتوى والقضاء وكان سيفاً مسلطاً على المبتدعة وأهل المظالم ويضرب به المثل في الزهد والورع والإخلاص. توفي عام ٢٤٠هـ .

[٤٧] كان نظام الحكم فردياً في دولة الأغالبة وأهم وظائف الدولة هي: صاحب الخراج، صاحب البريد، صاحب الجيش، مقدم العمارة، الحاجب، القضاء، الجند.

[٤٨] إن أهم أعمال دولة الأغالبة هي: فتح صقلية وفتح مالطة، كسر شوكة الخوارج، تبني منهج أهل السُنَّة والجماعة.

[٤٩] إن من أبرز أسباب سقوط دولة الأغالبة، الصراع على الحكم بين أبناء البيت الحاكم، تركيبة الجيش المبنية على المنفعة الذاتية للجنود، ظلم بعض الأمراء وإسرافهم في القتل، بُغْض العامة لأمراء الأغالبة نتيجة

ظلمهم، انغماس الأمراء في الخمر والفساد والانحلال وانشغالهم بذلك، ظهور دعوة عقدية في ريعان شبابها وكان دعاتها على جانب كبير من الغدر واستغلال الظروف المواتية تمثلت في الفكر الرافضي والباطني العبيدي.

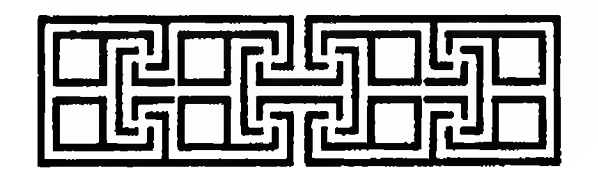

المراجع والمصادر

[١] أجوبة ابن خلفون، لأبي يعقوب يوسف بن خلفون.

[٢] أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي، محمد الفاضل بن عاشور، مطبعة النجاح، تونس.

[٣] أسباب سقوط الدولة الأموية، لسعدي أبو حبيب، دار الفكر.

[٤] أنساب الأشراف للبلاذري، لأبي العباس أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري، تحقيق: ماكس شلوسنجر، القدس، مطبعة الجامعة، ١٩٣٨م.

[٥] أسد الغابة لمعرفة الصحابة، لأبي الحسن علي بن محمد الجزري، دار الفكر، طبعة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

[٦] إثبات صفة العلو، موفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد المقدسي، حققه وعلق عليه د/ أحمد الغامدي، الناشر: مكتبة علوم القرآن، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

[٧] أيعيد التاريخ نفسه؟ ، محمد العبدة، المنتدى الإسلامي، ١٤١١هـ.

[٨] الفرق بين الفِرَق، للبغدادي، عبد القاهر بن طاهر البغدادي، تعليق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة محمد علي صبيح، مصر.

[٩] الملل والنحل للشهرستاني، لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني.

[١٠] التاريخ الأندلسي، د/ عبد الرحمن علي الحجي، دار القلم، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

[١١] التاريخ العباسي والفاطمي، للعبادي.

[١٢] التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، لأبي الحسن محمد بن أحمد الملقي، مكتبة المثنى، بغداد، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

[١٣] النهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر الزاوي، ومحمد الطنجي، نشر المكتبة الإسلامية بالرياض.

[١٤] الإباضية بين الفرق، لعلي يحيى معمر، وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عُمان، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

[١٥] المستدرك بين الصحيحين، الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله، طبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، نشر: دار الكتب العلمية.

[١٦] الضمانة لقطب الأئمة ، محمد أطفيش.

[١٧] الدليل لأهل العقول، للورجلاني.

[١٨] الإمامة العظمى عند أهل السُّنَّة والجماعة، د/ محمد عبد الله الدميجي.

[١٩] الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة، للشيخ أحمد بن حجر الهيثمي.

[٢٠] الجواهر المنتقاة في إتمام ما انحلّ به كتاب الطبقات، للدجيني، معهد المخطوطات، جامعة الدول العربية رقم ١٠٦٧ .

[٢١] السيرة وأخبار الأمة في انتشار مذهب الإباضية في المغرب، جامعة الدول العربية للورجلاني، رقم ١٧٣٦ .

[٢٢] العبر لابن خُلدون، بيروت، دار الكتب، ١٩٦٧م.

[٢٣] المنهل العذب تاريخ طرابلس الغرب، أحمد النائب الأنصاري، منشورات مكتبة الفرجاني.

[٢٤] البيان المغرب، لابن عذارى، بيروت، ١٣٤٨هـ/ ١٨٥١م.

[٢٥] الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، للسلاوي، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤م.

[٢٦] التشريع والفقه الإسلامي، تاريخاً ومنهجاً، للشيخ مناع القطان.

[٢٧] الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة، لعبد الغني الدقر، دار القلم، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

[٢٨] التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر، تحقيق جماعة من العلماء، ط المغرب، ١٣٧٨هـ/ ١٤٠١هـ.

[٢٩] المدونة الكبرى، الإمام سحنون بن سعيد التنوخي، دار الفكر، دار صادر، بيروت، مطبعة السعادة، مصر.

[٣٠] الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، إبراهيم بن علي بن فرحون اليعمري، دار الكتب العلمية، بيروت.

[٣١] العواصم من القواصم، للقاضي أبي بكر بن العربي ، تحقيق: محب الدين الخطيب، الطبعة الخامسة، مكتبة السُّنَّة، ١٤٠٨هـ.

[٣٢] الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق: علي محمد البجاوي ، مطبعة نهضة مصر.

[٣٣] الإصابة في تمييز الصحابة، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق: علي البجاوي، مطبعة النهضة مصر.

[٣٤] البداية والنهاية في التاريخ، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق ومراجعة: محمد عبد العزيز النجار، مكتبة الأصمعي، الرياض.

[٣٥] الطبقات الكبرى، محمد بن سعد كاتب الواقدي، طبع دار بيروت للطباعة والنشر.

[٣٦] الكامل في التاريخ ، لأبي الحسن علي بن أبي الكرم، محمد بن محمد الشيباني، دار صادر، بيروت.

[٣٧] المغرب الكبير، محمد علي دبور، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٩٦٣م.

[٣٨] الخلافة والخوارج في المغرب العربي، لرفعت فوزي عبد اللطيف، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

[٣٩] المحن ، الحافظ أبو العرب التميمي القيرواني، تحقيق: يحيى الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١ ، ١٤٠٣هـ.

[٤٠] الشريعة للآجري، أبو بكر محمد بن حسين الآجري، حققه: حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤٠٣هـ.

[٤١] الاعتقاد الخالص من الشك والانتقاد ، تأليف الإمام علاء الدين بن المعطار، حققه وعلق عليه، علي حسن عبد الحميد، الناشر: دار الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

[٤٢] المنتقى من منهاج الاعتدال ، للحافظ أبي عبد الله محمد بن عثمان الذهبي، طبعة مكتبة دار البيان، حققه: محب الدين الخطيب.

[٤٣] الفتاوى ، لابن تيمية، أحمد عبد الحليم، جمع وترتيب: عبد الرحمن ابن محمد بن قاسم، نشر: مكتبة المعارف بالرياض.

[٤٤] التاريخ الإسلامي ، لمحمود شاكر المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق.

[٤٥] تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، د. السيد عبد العزيز سالم، د/ أحمد مختار العبادي، بيروت، ١٩٦٩م.

[٤٦] تاريخ الفتح العربي في ليبيا، للطاهر أحمد الزاوي، دار التراث العربي، ليبيا، الطبعة الثالثة.

[٤٧] تهذيب التهذيب، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، طبع مجلس دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة الأولى، ١٣٢٥هـ.

[٤٨] تاريخ الأمم والملوك ، لأبي جعفر محمد بن جرير، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، لبنان.

[٤٩] تاريخ خليفة بن خياط، لخليفة بن خياط، طبعة عام ١٩٦٧-١٩٦٨م.

[٥٠] تاريخ ليبيا الإسلامي، عبد اللطيف البرغوثي، منشورات الجامعة الليبية، بيروت، ١٩٧٣م.

[٥١] تاريخ عصر الخلافة العباسية، ليوسف العشي، دار الفكر، سورية، دمشق.

[٥٢] تاريخ المغرب، د. سعد زغلول، مطبعة أطلس في القاهرة، ١٩٧٩م.

[٥٣] تذكرة الحفاظ، شمس الدين الذهبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

[٥٤] جامع الأصول في أحاديث الرسول، للإمام أبي السعادات مبارك بن محمد بن الأثير، تحقيق: محمد حامد، إدارة البحوث والإفتاء والدعوة والإرشاد.

[٥٥] جمهرة النسب ، لهشام الكلبي.

[٥٦] تقريب التهذيب، ابن حجر، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ.

[٥٧] تاريخ إفريقية والمغرب، ابن رشيق القيرواني، طبعة تونس، ١٩٦٧م.

[٥٨] جذوة المقتبس في ذكر ولاة طرابلس وولاة الأندلس وأسماء رواة الحديث والأدب وذوي النباهة والشعر، لأبي عبد الله محمد بن فتوح، الناشر: مكتب نشر الثقافة، القاهرة، مطبعة السعادة مصر، ١٩٥٣م.

[٥٩] ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، للقاضي عياض بن موسى اليحصبي، طبعة وزارة الأوقاف بالمغرب.

[٦٠] الفصل في الملل و الأهواء والنحل، لابن حزم، لأبي محمد بن حزم الظاهري، مكتبة الخانجي، مصر.

[٦١] تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثالثة عشرة، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

[٦٢] جامع البيان والعلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، ابن عبد البر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ.

[٦٣] دراسات إسلامية في أصول الإباضية، بكر بن سعيد أعوشت.

[٦٤] دراسات إسلامية في تاريخ العرب، عبد العزيز سالم.

[٦٥] رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعُبَّادهم ونُسَّاكهم، لأبي عبد الله المالكي، نشره: حسين مؤنس، القاهرة ١٩٥١م.

[٦٦] زاد المعاد، لابن القيم، مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة عشرة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، تحقيق: شُعيب وعبد القادر الأرناؤوط.

[٦٧] زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي: أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي، تحقيق محمد بن عبد الرحمن عبد الله، الطبعة الأولى، نشر دار الفكر، بيروت، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

[٦٨] سير أعلام النبلاء، محمد أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

[٦٩] شرح العقيدة الطحاوية، للعلامة محمد بن علي بن محمد الأذرعي، خرج أحاديثها: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩١هـ.

[٧٠] شرح النووي على صحيح مسلم، للإمام أبي زكريا/ يحيى بن شرف النووي، نشر وتوزيع: رئاسة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

[٧١] صريح السُّنَّة، محمد بن جري الطبري، تحقيق: بدر بن يوسف المعتوق، الطبعة الأولى، نشر دار الخلفاء، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

[٧٢] صحيح البخاري، بحاشية السندي، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار إحياء الكتب العربية، لأصحابها مصطفى البابي وشركاه.

[٧٣] طلقات المعهد الرياضي في حلقات المذهب الإباضي، سالم بن حمود بن شامس السيابي، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان.

[٧٤] طبقات الإباضية، الدرجيني، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، رقم ٣٠٣.

[٧٥] طبقات الفقهاء، إبراهيم بن عليّ الشيرازي، أبو إسحاق، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الرائد، بيروت، ط٢، ١٤٠١هـ.

[٧٦] طبقات أبي العرب – طبقات علماء إفريقية ، محمد بن أحمد بن تميم، تحقيق : محمد بن أبي شنب، الجزائر، ١٩١٥م، تصوير دار الكتب، لبنان .

[٧٧] عقيدة أهل السُّنَّة في الصحابة، د/ ناصر بن علي، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م .

[٧٨] عقيدة السلف أصحاب الحديث ، للصابوني أبو إسماعيل عبد الرحمن بن إسماعيل، تحقيق : بدر البدر، الطبعة الأولى، نشر الدار السلفية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

[٧٩] فتح الباري شرح صحيح البخاري، للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المطبعة السلفية ومكتبتها، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي .

[٨٠] فتوح مصر وأخبارها ، لابن عبد الحكم، دار التعاون للطبع والنشر، ١٩٦٨م/ ١٩٧٤م .

[٨١] ليبيا مند الفتح العربي، د/ صالح مصطفى مفتاح، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م .

[٨٢] ليبيا بين الماضي والحاضر، لحسن سليمان محمود القاهرة ١٩٦٢م .

[٨٣] لوامع الأنوار البهية ، محمد بن أحمد السفاريني، مكتبة الرشد، الرياض، طبعة أولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م .

[٨٤] مصنف ابن أبي شيبة، أبو بكر بن أبي شيبة، طبع الدار السلفية، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ، بومباي، الهند .

[٨٥] مصنف عبد الرزاق، لعبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق : حبيب

الرحمن الأعظمي، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

[٨٦] معجم البلدان ، لأبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

[٨٧] مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، لأبي الحسن الأشعري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية.

[٨٨] مقدمة شرح أصول اعتقاد أهل السُنَّة ، للالكائي.

[٨٩] مدرسة الحديث في القيروان ، الحسين بن محمد شواط، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

[٩٠] معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، عبد الرحمن بن محمد الأنصاري، الدباغ، أكمله أبو القاسم بن عيسى بن ناجي، مكتبة الخانجي بمصر، المكتبة العتيقة، تونس، ط٢، ١٩٨٨م.

[٩١] شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن مخلوف، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

[٩٢] مناقب أبي إسحاق الجيشاني، لأبي القاسم اللبيدي، تحقيق: كلية الآداب، الجزائر.

[٩٣] محاضرات في تاريخ المذهب المالكي، د/ عمر الحيدي.

[٩٤] لمعة الاعتقاد والهادي إلى سبيل الرشاد، للإمام موفق الدين أبي محمد عبد الله أحمد بن قدامة، وشرح ابن عثيمين، الناشر: الدار السلفية، ط٢، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

[٩٥] منهج دراسات الأسماء والصفات، لمحمد الأمين الشنقيطي، الناشر الجامعة الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ.

[٩٦] مجموعة الرسائل والمسائل، لابن تيمية، المجموعة الثانية، تحقيق: محمد رشاد سالم، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

[٩٧] منهاج السُنَّة النبوية، لشيخ الإسلام أحمد عبد الحليم بن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

[٩٨] ميزان الاعتدال في نقد الرجال، لأبي عبد الله بن محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: دار المعرفة، بيروت، لبنان.

[٩٩] ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز، د/ عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

[١٠٠] محاضرات د/ محمد ضيف الله البطاينة ، في الجامعة الإسلامية ، ١٤١٤هـ.

[١٠١] محاضرات الشيخ عبد العزيز ولي، الجامعة الإسلامية، ١٤١٤هـ.

[١٠٢] هدي الساري مقدمة فتح الباري، الحافظ ابن حجر العسقلاني، المطبعة السلفية، ومكتبتها.

[١٠٣] ولاة طرابلس ، للطاهر الزاوي، بيروت، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

[١٠٤] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٩٨هـ.

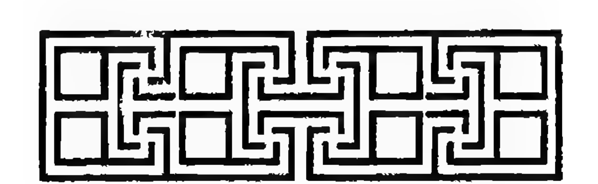

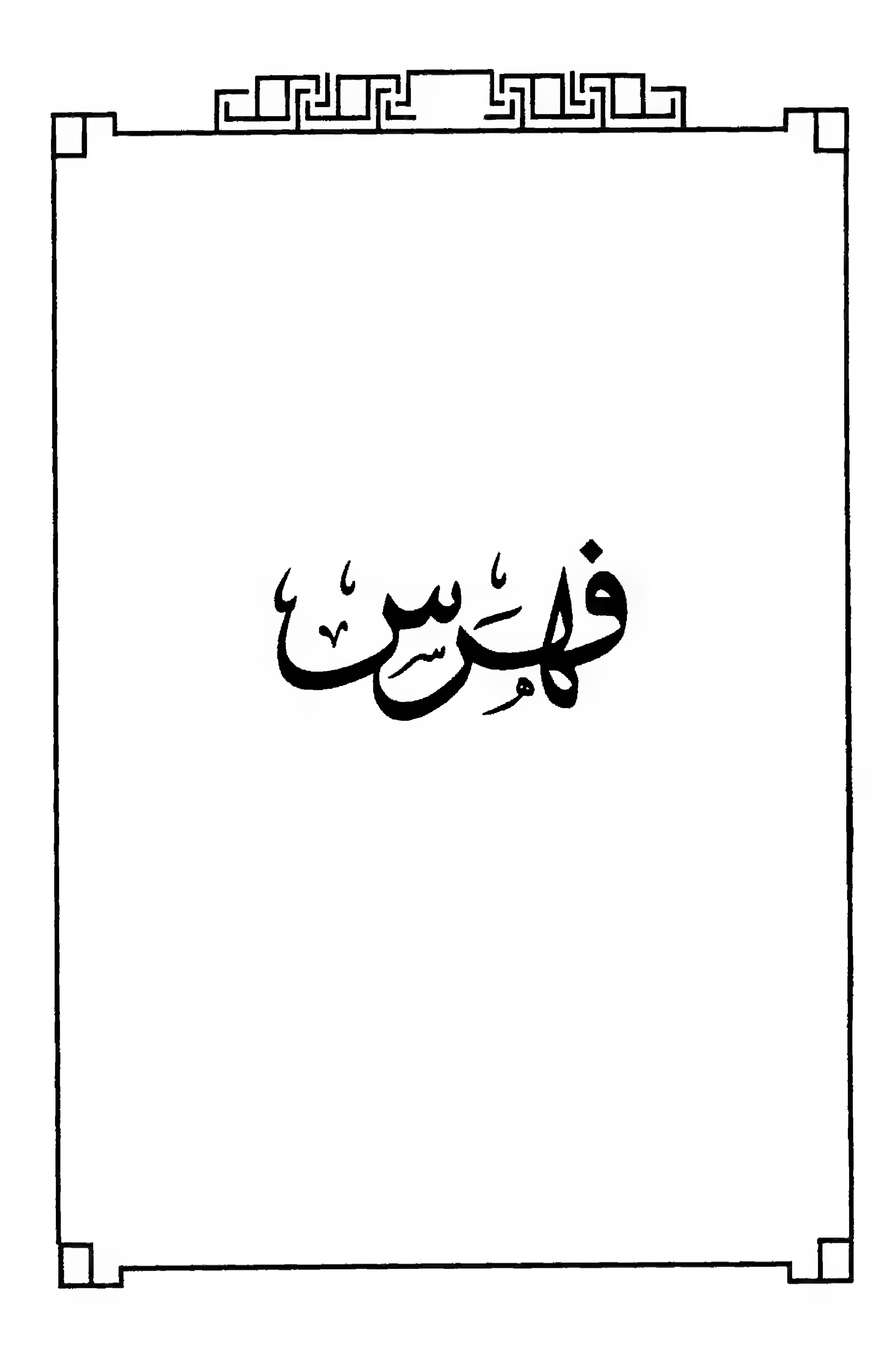
فهرس

فهرس
حركة الفتح الإسلامي في الشمال الإفريقي

رقم الصفحة

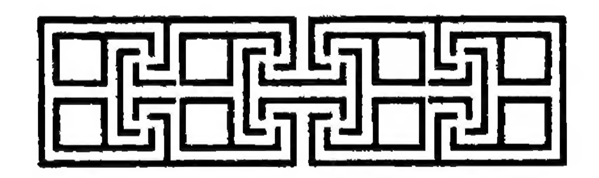

فهرس
عصر الدولتين
الأموية والعباسية
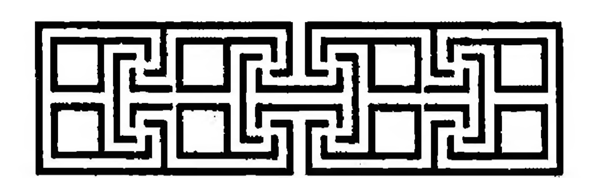
رقم الصفحة